



مُسَبَّرٌ

فِي ذِكْرِ الْوَطَنِ

سَمْعٌ مَرَلًا مُرَلًا



ORIENT

دار الشرق للطباعة والنشر

**مبدعون
في ذاكرة الوطن**

الناشر دار الشرق للطباعة والنشر - الدكتور المهندس نبيل طعمة

الطبعة الأولى

عدد النسخ ١٠٠٠ نسخة

تاريخ النشر ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م

جميع الحقوق محفوظة لدار الشرق للطباعة والنشر



محمد مراد مُزارو
مبدعون في ذاكرة الوطن

٢٠٠٦



دار الشرق للطباعة والنشر

شكر و تقدير

يبدع الكاتب ليقدم للناس من ثمرات قريحته ما ينفعهم و يجعل حياتهم أكثر غنى و سعادة ، ولكن العمل الإبداعي يبقى عاجزاً عن الوصول للآخرين ، ما لم تمتد له يد العطاء الصادق لتخرجه إلى النور ... هكذا يحتضن المهندس الدكتور نبيل طعمة ، مدير دار الشرق للطباعة و النشر ، مَنْ يتوسم فيه الخير ، و يبذل بوفاء و أريحية ليضع لبنة راسخة في بناء المجتمع ، الذي يريده ناهضاً و متقدماً على طريق الرقي و المجد ..

.. هكذا و بكل المحبة القلبية ، أهديه هذا الجهد ، داعياً الله أن يكون في حسناته وهي بغير حد ...

المؤلف



الاهداء

تحية وفاء وعرفان ، الى الرواد الخالدين من أبناء
الوطن المفكرين الذين حملوا مشاعل الابداع ، ليضيئوا
للأمة دروب الحق والخير والجمال ، وأعطوا للأجيال
نظم عقولهم ، وشمرات قرائحهم ، فكانت الدليل الأمين
الى الفجر المشرق ، والمستقبل الموعود -

المؤلف

المقدمة

من حسن حظ جيلنا أننا عشنا في زمن حطم فيه شعبنا قيود الاحتلال الأجنبي، وحقق لوطننا الاستقلال المجيد، لتحيا الأجيال حرة موفورة الكرامة والكبرياء، وتبعاً لهذا كان من حظنا أيضاً أن نعيش كوكبة من مبدعي أمتنا الأعلام في النقد والتحقيق وفي التاريخ والأدب والشعر والفن، الذين جندوا الفكر وضوء العيون للكشف عن الوجوه المتألقة للتراث الفكري العربي، وتجديد جذوة العزم في نفوس الأبناء لمواصلة مسيرة الأجداد في دروب العطاء الخلاق.

ولقد كان أولئك المبدعون في ذلك كله، مثلاً في التواضع والإيثار والوطنية الصادقة، سهروا على منابع التراث الخالد، وعكفوا عليه دراسة وتسديقاً، وانتقاء للجواهر الخبيئة فيه، كما أمعنوا التأمل في أحوال الأمة، وعابنوا ما تجابهه من مؤامرات ومخططات الأعداء، لطمس هويتها الثقافية، وتثبيط عزميتها المتوقدة، وتمزيق وحدتها بهدف الهيمنة عليها وإيقانها سادرة في كهف التخلف والضياع، ففضح أولئك الرواد بكتاباتهم وأشعارهم وألوان فنونهم تلك المكائد، وحضوا على الصمود والثبات، والعمل الجاد لتبقى الجباه شامخة، والوطن سيداً حراً، وبذلك كانت أعمالهم وأصواتهم إسهاماً فعالاً في خلاص الأمة، ومشاركة صادقة في نهضتها وتقدمها.

ومن هنا كان واجباً علينا أن يظل أولئك المبدعون أحياء على مدار الأيام، وأن تبقى وجوههم مشرقة نتعرف فيها الأجيال إلى عطائها الإنساني والوطني، فتمضي إلى مستقبلها الواعد أكثر مضاء، وأقوى تصميماً على صون الوطن والنهوض والبناء.

وبالنسبة لي كانت سعادتي بغير حد، لأنني عشت في النصف الثاني من القرن العشرين تلميذاً لعشرات من أولئك الأساتذة الأجلاء، ونهلت من معين عطائهم علماً وأدباً وفناً وحكمة وذوقاً، وفيما بعد صرت رفيق درب لهم في مسيرة الإبداع،

وأتاحت لي معهم أمسيات غنية بكل مفيد وجديد في عالم الفكر، وحوارات وحكايات واليوم، تعود بي الذكرى إلى تلك الحقبة المتألقة التي اجتمعت فيها إلى أساساتي، سواء في اللقاءات الخاصة أو الأمسيات الأدبية والندوات الثقافية والمعارض الفنية، التي كانوا فرسان منابرها المجلين.

مازلت أذكر الدكتور شاكر مصطفى، مدرساً للتاريخ وأديباً وفناناً ومؤرخاً وإعلامياً، والدكتور شكري فيصل عالماً محققاً، وأستاذاً جامعياً محققاً، والدكتور عبد الله عبد الدائم، مربياً وموجهاً، ورائداً في الفكر القومي، والدكتور نور الدين حاطوم، وجودت الركابي، وعاصم بيطار، وأمد طرابلسي، وأنور العطار، وبديع حقي، وزكي المحاسني، وشورى وحباب، وقنوع وعشرات غيرهم ممن لا تزال ملء سمعي وبصري وجواني عباراتهم البليغة، وأفكارهم الخلاقة، وترانيمهم العذبة، ولمسات ريشتهم الأنيقة الرائعة وقبل ذلك كله إنسانياتهم النقية، وتواضعهم الحميم، وإخلاصهم الدائب، ووطنيتهم الصادقة، وماذا أعز من المناقب المثلى التي شغت بها شمس ذلك الرعيل البناء، ومن العطاء النبيل الذي أحياه للأجيال معيناً متجدداً لا ينضب.

لقد دونت ما أتيج لي من ثمرات تلك الحقبة ونشرتها في الصحف والدوريات العربية، تعريفاً بمنجزاتهم، وتكريماً لإبداعاتهم، ورأيت أن أقدمها مجموعة في هذا المؤلف، ليجد فيها المهتمون بالمعرفة والثقافة المتميزة، ألواناً من الإبداع علينا أن نقيه متألقاً ونابضاً بالإشراق والحياة...

اخترت نيفاً وستين مبدعاً، واستعرضت سير حياتهم وأغنيتهما بنماذج من نتاجهم الفكري المتنوع في تحقيق التراث وفي الأدب والشعر والفن توضح القضايا المختلفة التي تمحورت حولها أعمالهم، ومناهج تفكيرهم، وأساليبهم الأدبية، مؤملاً بذلك بلوغ هدفين جديرين بالعناية:

الأول: وفاء تلك الشخصيات الرائدة حقها من التقدير والتكريم اللائقين بإسهامها في إغناء مسيرة الوطن، وفي نصرة قضاياها، وفي جعله موئلاً

للمحبة والخير والجمال.

الثاني: أن يرى الأجيال في أولئك المبدعين قدوة خيرة، تلهمهم الإيمان الصادق، وتحثهم على العمل المنتج للنهوض بالأمة من عثراتها.

إن عظمة الأمم - كما لا يخفى - تقاس بمدى عطاء أبنائها، وسعيهم الحثيث لإعلاء شأنها، من خلال التمسك بالمبادئ الشريفة، والاستعداد للتضحية بالمصالح الشخصية لمصلحة المجموع، كما أن مكانتها في موكب الحضارة رهن بوفائها للمبدعين المخلصين، واعتزازها بعطائهم الذي كان الأساس الراسخ الذي شيدت عليه بنيانها، فإن تحقق لي هذا الهدف، فقد أدبت أمانة في عنقي.. أهتف بعدها بكل سعادة:

شكراً لكم أيها الغيارى ... إن الوطن فخور بعطائكم، وهو يتوج هاماتكم بأكاليل التحية والإكبار إلى آخر الزمان.

محمد مروان مراد

47





الشيخ عبد القادر المغربي:

جند حياته للإصلاح ودافع عن اللغة العربية بجرأة وإيمان

الزمان: الثاني من تشرين الأول عام ١٩٥٦، والمكان: المدرج الرحيب في جامعة دمشق، جمهور حاشد من أقطار العروبة وفي المقدمة كوكبة من شعراء العرب وأديانهم المجلين، والمناسبة: تأبين رجل العلم والفكر والإصلاح ورائد الفكر والتطوير الشيخ عبد القادر المغربي.

أذكر اليوم وبعد السنين الطويلة أنها كانت أول مناسبة جماهيرية أحضرها وأنا بعد على عتبة الشباب، وقد بهرني يومذاك تناوب عمالقة الأدب والشعر على منبر الخطابة، وسمعت بإثارة شديدة عميد الأدب العربي "د. طه حسين" يتحدث بصوته الجمهوري البليغ عن العلامة الراحل:

"كان المغربي أقوى من القوة في الحق، وأصلب من الصلب في الدفاع عن العروبة والإسلام" وأنصت لمحمد بهجة الأثري وجه العراق المتألق في ميدان اللغة العربية وآدابها، وهو يردد: "لقد جند المغربي حياته للغة العربية وأعطاه من دأبه وجهاده، ودافع عنها جريئاً مستميتاً بلا كلل، وتحدث د. عبد الوهاب حومد مدير المعارف عن الفقيه: "كان رائداً من رواد الاجتهاد والإصلاح، عمل بحماس الشباب غيوراً على لغة الأمة منقياً في أسرارها، فكان بحق إمامها وحارسها الأمين وكسان في الشعراء المشاركين في الاحتفال شاعر العاصي البليغ "بدر الدين الحامد" فانطلق محلقاً في فضاء حميم مخاطباً روح الشيخ العلامة، وملخصاً مسيرته في ميادين اللغة والأدب:

أدب مشرق ودين	ومقام في النابيهين مـ
كم سطور دبجتها بيراع	هو بالحمد والخلود قمين

في الذي أنت سمعة تملأ الدنيا ومجد في الخالدين مصون
لك مجد في المصطفين عليه يتجلى البيان والتبيين
كل مجد إلا البيان هباء هو في الكون روحه المكنون

فمن كان هذا المربي الذي تألفت به المنابر في حياته، ورثته المحاجر يوم
رحليه؟

جراحة في الدعوة للإصلاح:

ولد الشيخ عبد القادر المغربي عام ١٨٦٧م بمدينة اللاذقية حيث عمل أبوه
الشيخ مصطفى قاضياً، وكان أصلاً من مدينة طرابلس الشام، لجّد من "تونس" في
المغرب الكبير. حين عاد مع أسرته إلى طرابلس تلقى فيها علومه الأولى في السدين
واللغة، ثم انتقل إلى بيروت فتابع تعليمه الثانوي، وتمكن من علوم الفقه واللغة
والأدب فعين موظفاً في القضاء الشرعي.

رحل "المغربي" عام ١٨٩٣م إلى الأستانة، وفيها التقى عديداً من رجال الفكر
والعلم، وفي مقدمتهم جمال الدين الأفغاني، وتعرف إلى آرائه في الإصلاح الديني
والاجتماعي، ورجع إلى طرابلس مجدداً فعين عضواً في مجلس المعارف، وأتيح له
المجال لنشر أفكاره ودعوته إلى الحرية والتحديد، مما أثار نقمة السلطة العثمانية،
التي ضيقت عليه ثم اعتقلته في "بيروت" لعدة شهور، فلما أفرج عنه غادر إلى
مصر عام ١٩٠٥ والتقى فيها لفترة قصيرة الإمام الشيخ "محمد عبده"، وهنا شرع
الشيخ المغربي بنشر مقالاته الجريئة التي تبنى فيها أفكار معلميه المصلحين:
الأفغاني وعبده، وظهرت بحوثه في صحيفة "الظاهر" و"المؤيد" ولقيت صدى واسعاً
وترحيباً من المفكرين في مصر، وأكبروا فيه همته الواسعة ونشاطه الكبير فسي
الدعوة لأفكاره.

في المجتمع العلمي العربي:

أعلن العثمانيون دستور عام ١٩٠٨م فأُتيح للمغربي العودة إلى طرابلس من جديد، وفيها تابع نشر مقالاته في العديد من الصحف والمجلات وكاتب الصحف المصرية داعياً إلى النهضة الاجتماعية، وعكف على إصدار جريدته: "البرهان"، التي تواصل صدورها منذ عام ١٩١١م، وحتى اندلاع الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤، وبعد سنتين عهدت السلطات التركية في سوريا إلى الشيخ "عبد القادر المغربي" "بتحرير جريدة الشرق" العربية، التي صدرت بدمشق، وكانت المرحلة الفاصلة في مسيرة الشيخ العلامة اختياريه عام ١٩١٨ من قبل الحكومة السورية للمشاركة في نهضة الدواوين، ثم مشاركته في العام التالي بتأسيس المجمع العلمي العربي بدمشق مع نخبة من رجال الفكر والعلم، هم: محمد كرد علي، أمين سويد، سعيد الكرمي، أنيس سلوم، عيسى اسكندر المعلوف، عز الدين التتوخي، ومطري قندلفت، وبعد إنشاء معهد الحقوق عام ١٩٢٣، كلف المغربي بتدريس اللغة العربية وآدابها.

مسيرة ناشطة وإنجاز فكري قيم:

لجمع زملاء العلامة الشيخ عام ١٩٤١ على انتخابه نائباً لرئيس مجمع اللغة العربية، فباشر إنتاجاً غزيراً لبحوثه ودراساته الأدبية، وتجلّى نشاطه المرموق في محاضراته اللغوية والأدبية، التي كان يحرص على حضورها في مقر المجمع المثقفون والأدباء وطلاب الجامعة والمعاهد العلمية، ولما تأسس مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٣٢، اختير المغربي ليكون عضواً عاملاً فيه، فكان يشارك في جلساته على الدوام، ويساهم في أعمال لجانه، وينشر دراساته في مجلته، كذلك عكف على مؤلفاته التي صدرت في فترات مختلفة، وشملت بحوثه فيها، اللغة والدين والأخلاق والاجتماع.

وبين كتب المغربي المطبوعة: الاشتقاق والتعريب و"التبيان" في جزئين،

و"جمال الدين الأفغاني: ذكريات وأحاديث" و"عشرات اللسان" الذي صدر عن المجمع العلمي العربي بدمشق عام ١٩٤٩، وأما مؤلفاته غير المطبوعة والتي تجاوزت الاثني عشر كتاباً فمن بينها: "فنون البلاغة" و"المعجم اللغوي للألفاظ العصرية" و"مقالات وأبحاث" وكتاب "محاضرات" وغيرها.

في السابع من حزيران ١٩٥٦ وصلت مسيرة الشيخ عبد القادر المغربي إلى خاتمتها، فودعت دمشق علامتها الفذ وداعاً مهيباً، وشيعه رفاق دربه وتلامذته إلى مثواه الأخير في سفح جبل قاسيون، وانطوت برحيله صفحة متألفة من صفحات سجل مشرف لعالم جريء في الدفاع عن لغة أمته، وداعية صلب للإصلاح الاجتماعي.



شیخ زین العابدین
دینی



شیخان عورانی
دینی



شیخ زین العابدین
دینی



شیخ زین العابدین
دینی



شیخ زین العابدین
دینی



شیخ زین العابدین
دینی



شیخ زین العابدین
دینی



شیخ زین العابدین
دینی



شیخ زین العابدین
دینی



شیخ زین العابدین
دینی



شیخ زین العابدین
دینی

شیخ زین العابدین
دینی

الاستاذ علی البحرانی



شیخ عبدالحق الزلیزل



الاستاذ زین العابدین



الاستاذ سلیمان البحرانی

شیخ زین العابدین
دینی



فاطمه



داود صلیبا
نوروز



محمد حسن بحرانی



محمد علی بحرانی



جودته اخلاص



سید محمد بحرانی



شیخ زین العابدین
دینی

تصویر نوروز

المجمع العلمي العربي بدمشق



محمّد كروعلين
مؤسس المجمع العلمي
ورئيسه الأوّل



فيصل بن الحسين
قائد الجيش العربي
وملك سورية



علي رضا البركاتي
عالم سورى والعسكرى العالم
ومرسله اهل حكومة عربية



الشيخ سعيد الكردي



الشيخ عبد القادر الحفري



الشيخ أمين سويد



مصري قدس عز الدين التوتى عيسى اسكندر لغاوى انيس سليم

عبد القادر

ذكرى المشتركين في تأسيسه سنة ١٣٢٧ هـ
١٩١٩ م



عبد القادر المبارك:

أصمعي القرن العشرين في جبة حارس اللغة الأمين

في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين، وفي بيت شعبي من بيوت حي العمارة في المدينة القديمة، كان اللقاء بين شيخين جليسين، وعالمين قديرين، أصبحا فيما بعد من إعلام النهضة العلمية ورجال التنوير، وهما طاهر الجزائري ومحمد المبارك، الذين أسهما في تأسيس أول مكتبة عامة بدمشق (المكتبة الظاهرية) وأشرفا على الحلقات العلمية، وأسسا عديداً من المدارس، في وقت كانت الحاجة فيه ماسة لنشر التعليم وإتاحة الفرصة للأجيال للسير في موكب العلم والتقدم...

كانت للشيخ محمد المبارك حلقات مشهودة أقبل أبناء دمشق عليها لتحصيل علوم الدين واللغة والأدب ... ومن بينهم كان ابنه (عبد القادر) الذي استهوته الدراسات الإسلامية وآداب اللغة العربية، وسير أعلام التاريخ العربي، فأقبل ينهل من معينها، دراسة وحفظاً واستيعاباً لتفاصيل الأحداث التاريخية ورجالها، ولم يكد يتم تحصيله، حتى حمل على عاتقه رسالة التربية والتعليم، وصار معلماً معلماً في "مكتب عنبر" أول مدرسة تجهيزية رسمية بدمشق، ويذكر تلامذته ذلك الشيخ المعمم الذي سحرهم من إطلالته الأولى بصوته الجهوري، وفصاحته وأسلوبه، وحديثه اللطيف، يقدم الشيخ "علي الطنطاوي" جانباً من صورة المبارك في مذكرته: (كان المبارك إماماً في اللغة ومرجعاً فيها، قيد أوابدها وجمع شواردها، وحفظ شسواهدها، وكان أعلم العرب بالعرب، عرف أيامهم ووعى أخبارهم، وروى أشعارهم، تحس إذ تجالسه وتسمع منه، كأن الأصمعي أو أبا عبيدة تمثلاً لك في جبته).

ويضيف الطنطاوي: إذا كان درس الشيخ المبارك، وظهر وجهه وعمامته من باب الصف، وجلجل صوته بصدر بيت من الشعر، سكنت الطلاب وأنصتوا، ليدخل

عليهم ويكمل البيت شارحاً بلغته الفريدة وأسلوبه المعبر).

• معلّم وموجه إلى جماليات التراث:

علّم المبارك اللغة العربية، وتميز فيها باستعماله للغريب من المفردات العربية، بقصد الكشف عن جماليات اللغة العربية، وتعويد تلامذته الرجوع للمعاجم والتعرف على معاني الألفاظ .. وعلّم المبارك الفقه والتفسير والحديث وكان يعرضها بعبارات بليغة وموجزة، سهله على اللسان، ولا تغيب عن الأذهان، ويدل طلابه على مؤلفات التراث الغنية التي كانت رأسمالهم في العلم والأدب "كذلك علّم الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية، ودرّس السيرة مصوراً الوقائع والأماكن بأسلوب دقيق شائق، فنقش في نفوس طلابه حب العلم والمعرفة، والإقبال على تراث الأجداد ينهلون من ينابيعه الخيرة، ويتزودون من ثمراته اللانعات.

وإلى جانب التعليم انغمس المبارك في المطالعة هوايته الأولى، فانكب على عيون التراث، وفرائد المخطوطات، ينهل من ينبوعها أكثر، ويخط على حواشيها تعليقات وإضافات، ويستخرج من كنوزها دروساً لطلابه في المكتب أو في حلقات التعليم...

وكان (المبارك) أيضاً خطيباً مجلياً، ومحدثاً من طراز رفيع امتلك بصوته المميز، وفصاحته وأسلوبه انتباه سامعيه، وأثر فيهم بالغ التأثير.

• إسهامه في النشاط الفكري:

وفي مسيرته الرائعة الطويلة أسهم (المبارك) في النشاط الفكري بدمشق، وكان مع مجاليه من الأعلام، عنصراً نشطاً في الحركة الأدبية، فهو عضو المجمع العلمي العربي منذ تأسيسه في عام ١٩١٩، وعضو في لجنة التعريب التي نشأت في عهد الملك فيصل، وكان له دور في تعريف العديد من المصطلحات الإدارية،

والعسكرية، وشارك (المبارك) في وضع مناهج اللغة العربية وآدابها، وتأليف كتبها في عهد الاستقلال.

ودرس علوم العربية وآدابها بالمدرسة السلطانية بدمشق، وفي المدرسة الحربية، ومدرسة الآداب العليا، ودار المعلمين، وأسس مدرسة خاصة أدارها مع الشيخ شريف اليعقوبي في زقاق النقيب بحي العمارة..

• المبارك ... الشاعر الوطني:

وفي الجوانب المضيئة من شخصية المبارك الفكرية، نظم له للشعر فسي المناسبات المختلفة، فعبّر بقصائده عن خلجات نفس مؤمنة، وقلب جياش بالعواطف الصانقة...

نظم للثورة العربية الكبرى، واحتفل بالاستقلال وقيام الدولة العربية الأولى، ورثى المجاهدين والعلماء، واشتهرت من بين قصائده، قصيدة مطولة أسماها: "إحدى العبر بين البشر"، أكثر فيها من النقد لأوضاع التخلف والجهل في المجتمع العربي.

ونمة في حياة الشيخ عبد القادر المبارك مضيء، وهو نشاطه الاجتماعي الدائب فهو بالإضافة إلى رعاية طلابه، وقضاء أكثر يومه في رعايتهم وتزويدهم بما يحتاجون إليه من إرشاد وتوجيه، ارتبط بعلاقات واسعة مع طيف واسع من أبناء الشعب، وفيهم الحكام العلماء والتجار، وكرس وقته لحل مشكلات أصحاب الحاجات، حتى غدا بيته في حي العمارة مقصداً لأصحاب الحاجات يستمع إليهم ويتوسط لدى المسؤولين لقضاء حاجاتهم.

وفي شهر تشرين الأول من عام ١٩٤٥، كانت خاتمة رحلة الشيخ عبد القادر المبارك، فودع الدنيا في غرفة تكدست فيها كتب التراث، عشقه السدائم، وثروته الأغلى، ورحل العالم الجليل بعد مسيرة طويلة في خدمة اللغة والأدب والبلاغة العربية وظل صوته الجمهوري المميز مطبوعاً في الأسماع لا يترايل، كما بقي صوته البليغ، وأثره الجلي، ضوءاً ينور دروب الأجيال إلى النهضة والتقدم.

إمام وعلامة بث حب الفصحى في نفوس الأجيال ..

عرف مكتب عنبر الشيخ عبد القادر المبارك سنين طويلة، اتصلت من أيام الترك، إلى العهد الفيصلي، إلى أيام الانتداب، وعرفته أستاذاً للدين، ثم أستاذاً للغة، وكان قليل شعر الوجه، فصيح اللهجة، قوي النبذة، دائم النشاط، يكتب ويقرأ بدون تنقيط، وكانت دروس الدين تفيض بالفوائد اللغوية الفريدة، التي تنهل على لسان هذا الإمام من حيث يريد، فكم حفظنا منه، وأخذنا عنه، وكان يعلو أحياناً إلى أرفع طبقات البلاغة، ويهبط حيناً إلى العامية الدمشقية، في سبيل الإيضاح لضعفاء الطلاب، ولم تكن دروس السيرة النبوية إلا مجموعة نادرة من روائع النثر والنظم، ولما عهد إليه بتدريس اللغة العربية تكشفت للطلاب مزاياه، كان أعلم أهل زمانه بالمفردات، وقد شاع ذلك عنه، حتى قال عنه خصومه: إنه نسخة حية من القاموس، وأشهد أنني كنت اختار ألفاظاً غريبة فأسأله، عنها، فيجيبني بنص عبارة القاموس أو (فقه اللغة للثعالبي)، فقد عرف عنه أنه كان يحفظ فقه اللغة والألفاظ الكتابية والقاموس المحيط عن ظهر قلب، سألته مرة: أنا أعرف الجواب: ما معنى (العطبول)؟ فأجابني على الفور: إذا كانت المرأة طويلة العنق في اعتدال وحسن فهي عطبول، وكانت هذه الجملة بحروفها عبارة الثعالبي في فقه اللغة، وكان على علمه وحفظه دائم الاستعانة بالقاموس، يستصعبه غالباً في درس القراءة، ليتثبت مما يمكن أن يشبه فيه. كان كتاب القراءة في تلك الأيام زهر الآداب للحصري وهو الكتاب الذي حوى روائع الأدب الجاهلي والإسلامي والأموي والعباسي، لا ككتب القراءة التي نراها في هذا الزمان.

وأشهد أنه دخل الصف مرة، فطلب إلى أحد الطلاب القراءة، فقرأ وإذا بالشيخ يتوقف عن الإيضاح والشرح، ويعلن دون حرج: سامحوني، فأنا لم أحضر درسي في هذا اليوم، علي بالقاموس! هذا خلق العالم الحقيقي، إنه لم يجد أي حرج في أن يعلن لطلابه أنه لا يستطيع أن يكون الأستاذ الذي عرفوه، لأنه لم يقرأ النصوص

قبل الدرس، أين هذا مما نرى في هذه الأيام من تعالم الجهلاء، واستعلاء الأذعياء، وتظاهر الضعفاء؟ وأذكر أنه تلا ذات يوم بيتاً من الشعر، وفيه فعل فلفظه بالبناء المعلوم، وحقه أن يكون بالبناء المجهول، فنبهته إليه، وإذا بالشيخ رحمه الله يهتز طرباً ويقول للطلاب - وهو من هو - : أنا أستاذكم جميعاً، وظافر أستاذي في هذه! ولعمري فإن هذا التشجيع من إمام عظيم لفتى لم يتجاوز الخامسة عشرة، قد دعاني للاندفاع كالسيل المنهمر في إرضاء الشيخ والتفوق في درسه، وكذلك كان له غرام بالمترادف، يقصف به لسانه كالرعد، دون توقف ولا تلثم، فإذا ما اعترضته لفظة غريبة رأى وجوب شرحها للطلاب، شرحها أحياناً بما هو أغرب منها، وأعقبها بلفظ واضح، وكانت له ميزة حفظ قصص العرب، يرويها للطلاب، وكأنه يقرأ من كتاب، كأنه حفظ نصوصها كما وردت في كتب الأمهات، إنني أعود منذ سنين إلى هذه الكتب فأذكر ألفاظ شيخنا التي حفظتها، كما أقرؤها، وإذا كان هنالك من تعديل فهو يسير، وقد يكون مرده إلى سوء حفظي.

كذلك كان المبارك مولعاً بأمثال العرب، يشرحها للطلاب بأسلوب جذاب فيروي أصلها، ويحكي حكايتها، وقد لا يتخرج حيناً من ذكر لفظ لم يؤلف ذكره في المدارس، فيرويها كما وردت في الكتب، قد يشير أحياناً ولا يفصح، ما زالت أذكر كيف شرح لنا أصل المثل المشهور (أشغل من ذات النحيين)، فكان مثلاً رائعاً في الذوق، لم تصدر عنه كلمة نابية، ولا لفظ غير لائق، واستطاع مع ذلك أن يوضح معنى المثل إيضاحاً كاملاً.

أخذ عليه معاصروه، كما أخذ عليه بعض طلابه، أنه قال الشعر، وليس من أهله، وقد يكون في هذا شيء من الحق، ولكنه لا يغض من مكانة الشيخ، فلقد عاش في زمان كان فيه التافهون من أذعياء الأدب ينظمون الشعر، فلم لا يحاول إمام مثله من أئمة اللغة والأدب أن يقول الشعر؟ ولقد كان قول الشعر في زمانه في صفات المتأدب، فمن الموهبة والسليقة، أضحي شاعراً، ومن لم يرزقها بقي ناظماً. وأخذ عليه خصومه أنه كان عالماً، ولم يكن أستاذاً، وإن طريقته في التعليم

لا تقرها أصول التدريس الحديثة، ولقد نسي هؤلاء أنه أستاذ لغة سماعية، وإن ما يمكن أن يستفيدة المرء بالسماع، كثيراً ما يكون أبقي وأقوى أثراً من المطالعة والحفظ، ولا أدل على ذلك مما نقرأ في كتب الأدب عن هجرة أعلام الشعراء والكتّاب القدامى إلى البادية ليأخذوا اللغة عن الأعراب، من أفواههم، وإني لأجزم أن أثر شيخنا رحمه الله في ما تحدث به إلى الطلاب، كان أثراً قوياً عميقاً، إذا ضاق به بعض الطلاب قبل ثلاثين سنة، فإنهم يمدونه في هذه الأيام وأخذ عليه الناس جميعاً، أنه لم يترك أثراً يدل على سعة علمه، وغزير إطلاعه، ومدهش حفظه.

وإذا كان هذا صحيحاً، فإن الصحيح أيضاً أنه ترك أجيالاً متعاقبة، أخذت عنه صحيح اللغة، فقوم السنن، وبحث فيها حب الفصحى، فلقد كان يصير على طلابه، حتى في دروس الدين، أن لا يتحدثوا وأن لا يرددوا دروسهم إلا به، ولكم كان يطرب رحمه الله حينما يقف أحد طلابه ويتكلم بالفصحى، وكم سمعنا منه كلمات التشجيع في هذا المعنى.

وبكم وقفه الطلاب بعد درس استغرق ساعة كاملة من الجهد المضني، ليسألوه، فلا يتبرم بأحد منهم، بل يقضي معهم (الفرصة) التي أعدت لراحته، وكأنه في درس جديد.

كان مولعاً بالشاي والتدخين، لا ينفك عنها، وللتدخين آثار واضحة على سبابته ووسطاه، فإذا ما أراد استنكار مسألة لغوية، أو شاهد أو لفظ، أخذ لفاخته فعب منها عباً، حتى ليخيل إليك أنه قد غاب، ثم ينثر عليك من علمه ما يدعشك.

كان مكتب عنبر في أيام العيد الفيصلي، وأول أيام الانتداب يستعمل بعض الألفاظ الترككية، فمحاها واستبدل بها ألفاظاً عربية فصيحة.

كان شيخنا نسيجاً وحده، وما أظن أن الولادات يلدان مثله في مستقبل هذا الزمان.

ظافر القاسمي



محب الدين الخطيب:

عمر من الجهاد في سبيل الاستقلال وحماية اللغة والتراث

ثمة بين رجال الفكر في بلدنا كوكبة نيرة أوقفت ضوء عقلها وجهد سواعدها، على خدمة الوطن ونصرة قضاياءه في أكثر من ميدان .. فهي في جانب تجاهد لتحرير الوطن من ربة المستعمر الأجنبي، وتخليصه من ويلات الظلم والفساد، وتكافح من جانب آخر لحماية هوية الأمة: اللغة العربية، وصونها من عبث المهدمين المضللين، وتسهر بحماس وأريحية على إحياء التراث العربي، ونشر كنوزه المنسية راضية بما يحملها ذلك كله من مشقات تنوء بها الأجسام القوية. ومن هنا لم يكن عجباً أن يُعرف العلامة الراحل: "محب الدين الخطيب" بلقب: المجاهد المحقق.

ولد "محب الدين الخطيب" بدمشق عام ١٨٨٧م في أسرة عريقة عرفت بالتقوى والعلم، ومارس العديد من أفرادها التدريس والخطابة والإمامة في مساجد العاصمة، أبوه هو الشيخ "أبو الفتح الخطيب" أمين دار الكتب الظاهرية منذ تأسيسها في عام ١٨٧٩ وحتى وفاته في عام ١٨٩٧، وقد تلقى الابن تعليمه الابتدائي بمدرسة الترقى النموذجية ثم بمكتب عنبر، وبعد وفاة أبيه احتضنه العلامة الشيخ "طاهر الجزائري" فأشرف على توجيهه، وقدمه إلى النخبة في شيوخ دمشق من علماء الدين واللغة والتاريخ: جمال الدين القاسمي، عبد الرزاق البيطار، وغيرهم، فواظب على حضور دروسهم، مستمعاً لمطارحاتهم، ومتعلماً منهم علوم الدين والدنيا، وكان في مقتبل شبابه حين شغلت فكره قضية "تترك العرب" لتفتت وحدتهم، وطمس قوميتهم، فراح يتدارس الموضوع مع أقرانه الذين أسسوا جمعية "النهضة العربية" لتعمل على بعث الأمة، واستعادة أمجادها، وهكذا فإنه حين رحل إلى الآستانة، عاصمة الخلافة، لدراسة الحقوق، التقى بطلانح الشباب العربي الشائرين على

الاستبداد، والتواقين إلى الحرية، وتعاهد الجميع على الحديث باللغة العربية الفصحى، وأن يتطوعوا عند عودتهم للوطن، لتعليم العربية والنهوض بها، فما لبثت أن تنبّهت له عيون السلطة التركية، وأخذت تضيق الخناق عليه وعلى رفاقه، مما اضطره للرحيل إلى اليمن والتعليم في مدارسها.

أعلن العثمانيون الدستور في عام ١٩٠٨م، فاستبشر أحرار العرب وفيهم "محب الدين الخطيب" خيراً، فعاد إلى الوطن، لكنه ما لبث أن غادر إلى الأستانة مجدداً، لينطلق منها إلى القاهرة، وينضم فيها إلى المجاهدين ويمارس الصحافة في جريدتي: المؤيد والأهرام .. وما هي غير شهر حتى توجه إلى مكة المكرمة مع اندلاع الثورة العربية الكبرى، وهناك أنشأ جريدة "القبلة" التي هاجم فيها الأتراك، وفضح سياستهم المعادية للعرب فصدر الحكم عليه بالإعدام.

ومع قيام الحكم الفيصلي في سوريا عام ١٩١٨م، رجع الخطيب إلى الوطن ليدر جريدة "العاصمة" أول صحيفة عربية حكومية بدمشق، على أن سوريا لم تكف تنعم باستقلالها، حتى كانت جيوش الاحتلال الفرنسي تقتحم البلاد، ويضطر المجاهد المفكر للرحيل إلى مصر من جديد، وقد سلك في رحلته طريق الصحراء، مع التجار سراً .. فلقى مشاق فوق الاحتمال، وحين وصل إلى أرض "حطين"، حيث سجل العرب أروع ملاحم البطولة والفداء، خلع نعليه وراح يقبل تراب الأرض المنداة بعطر الانتصار، وعلى صفحة ماء "طبريا" رأى وجه القائد "صلاح الدين" الذي حطم أنوف الغزاة، وردهم على أعقابهم خاسئين ... فوطد "الخطيب" قضية الأمة عزيمته على بذل كل طاقاته لخدمة قضية الأمة وإعلاء شأنها، وقد سجل ذلك كله فيما بعد في مقالاته وكتبه.

وصل "محب الدين الخطيب" إلى القاهرة، وأسس دار الفتح ليصدر عنها مجلة "الزهراء" الشهرية و"الفتح" الأسبوعية، وقد حفلتا بأصدق مشاعره الوطنية، وأفكاره المشرقة التي مثلت منبراً لنشر الوعي والتبصير بأحوال الأمة، كما استقطبت صفحات المجلتين أعلام الأدب والثقافة أمثال: أحمد تيمور، والكرمني، وأحمد

شوقي، الذي جندوا أقلامهم للإشادة بمآثر العرب ومنجزات الحضارة الإسلامية، والتعبير عن الاعتزاز بعبقريّة اللغة، وخلود العروبة والدعوة لمحاربة المتحاملين على الدين ودعاة العامية.

كان الخطيب في خضم هذا البحر الزاخر يعمل ليل نهار، وبهمة لا تعرف المال، مسخراً قلمه وفكره وإيمانه من أجل قضية الأمة، محارباً دعاة التغريب، معلناً: "إن الغرب لا يريد خيراً للعرب، فعلى الأمة العربية أن تأخذ ما ينفعها في تطورها وتتنبذ ما يسيء إلى قيمها، وما أشد حاجتها إلى اقتباس أسس الصناعة الحديثة، ومبادئ النظام في حياتها، وكان يردد عبارته المشهورة "إن الناطقين بالضاد لا تثبت لهم نهضة ما لم تقم على دعائمين: إحداهما المرونة في الاقتباس مما في حصارات الأمم من وسائل القوة، وعلم الإدارة والاختصاص بعلوم وأعمال جادة ومقتنة".

وكان برغم ما تستنفد المجالات التي يشرف عليها من جهده ووقته، يجد الوقت للتأليف والتحقيق، فنشر من مؤلفاته: اتجاه الموجات البشرية في جزيرة العرب وتاريخ مدينة الزهراء بالأندلس، والرعيّل الأول في الإسلام، والأزهر في ماضيه وحاضره، وذكرى موقعة حطين، ونقل عن التركية كتاب: "سرائر القرآن" كما أصدر مجلة فريدة في كتيبات لطيفة سماها "الحديقة" اشتملت على روائع في اللغة والأدب العربي، وظل "الخطيب" إلى آخر لحظة في عمره عاكفاً على مخطوطات التراث يحقق ويصوّب وينشر، وحتى في ليلته الأخيرة التي ودّع فيها الحياة كان مستغرقاً، مثل ناسك متعب، في تصحيح صفحات من كتابه الموسوعي: "توضيح الجامع الصحيح للبخاري"، وكانت تلك ليلة الثلاثين من كانون الأول عام ١٩٦٩، انتهت فيها الرحلة الحافلة بالجهاد الصادق، والعطاء الخير، وبقيت أعماله الفكرية مضيئة في سجل العروبة، تحكي للأبناء سيرة المجاهد المحقق، وتطلّعهم على صور من تراث العرب الخالد على مر السنين.

مؤلفاته وآثاره:

عاش الأستاذ محب الدين الخطيب حياة فكرية حافلة معطاء، فدراسته واقية، وظروفه الاجتماعية تساعده على الكتابة والتأليف، وثقافته الرفيعة جعلت منه كاتباً ومحققاً وأديباً وكل ذلك ساعده على كثرة التأليف والاستمرار في العطاء الفكري حتى ساعات حياته الأخيرة.

أما أهم مؤلفاته وتحقيقاته فهي:

- ١ - (توضيح الصحيح) وهو شرح لصحيح بخاري في ثمانية أجزاء كبار وهو مطبوع ومتداول.
- ٢ - (الحديقة) وهو مختارات من الأدب الإسلامي، ويقع في أربعة عشر جزءاً.
- ٣ - (مع الرعيل الأول) تحدث فيه عن عصر الصحابة ومن جاء بعدهم مطبوع.
- ٤ - (اتجاه الموجات البشرية في جزيرة العرب).
- ٥ - (البهائية).
- ٦ - (ذكر موقعة حطين).
- ٧ - (رسالة الجيل المثالي).
- ٨ - (حملة رسالة الإسلام الأولون).
- ٩ - (الغارة على العالم الإسلامي) ترجمة.
- ١٠ - (تاريخ مدينة الزهراء بالأندلس).
- ١١ - (الأزهر ... ماضيه وحاضره).
- ١٢ - (الخطوط العريضة للديانة الأثني عشرية الإمامية).
- ١٣ - (دفاع عن الحديث النبوي).
- ١٤ - (العواصم من القواصم) تعليق.
- ١٥ - سرائر القرآن ترجمة عن التركية (٢٠) وهو مطبوع.
- ١٦ - (إيمان العرب في الجاهلية - للنجيري) تحقيق وقد قمنا بتحقيقه وصدر عن مكتبة التراث بدير الزور عام ١٤١٤-١٩٩٣م.

- ١٧ - (المتقى من ميزان الاعتدال للذهبي) تعليق.
- ١٨ - (مختصر الاثنى عشرية للألوسي) تعليق.
- ١٩ - (الأكليل للهمداني) تعليق.
- ٢٠ - (الدب المفرد للبخاري) تخريج أحاديث.
- ٢١ - (فتح الباري لابن حجر العسقلاني) تنسيق أحاديثه.
- ٢٢ - وله مئات المقالات المفيدة النافعة في المجالات والصحف اليومية والأسبوعية والشهرية، وخاصة في مجلاته (الزمراء، الفتح، الأزهر) وكانت مكتبته الخاصة تضم (نحو عشرين ألف مجلد مطبوع تغلب فيها النواذر).

المصادر:

- وداد سكاكيني: نهج الإسلام.
- عبد الغني العطري: حديث العبقريات.
- خير الدين زركلي: الأعلام.



أحمد عبيد:

رائد تحقيق التراث المخطوط في القرن العشرين

التحقيق في التراث العربي علم خاص مستقل يعجز عنه الكثير من خريجي الأدب ودراسته، فهو بحاجة إلى صبر وتمرس وعلم غزير، وهذا قلما نجده عند باحثي اليوم المتعجلين. وقد لا يدرك الكثير ما للمحققين من فضل على التراث والأدب، أحمد عبيد واحد من أكبر المحققين والعارفين بالمخطوطات في القرن العشرين.

فأمام عبيد تجد نفسك مهوراً بخبرته التراثية، ومعرفته بالمخطوطات العربية الثمينة، وقدرته على تحديد عمر المخطوطات ونسبتها إلى أصحابها، وصبره على التعامل مع الكتاب والكتاب، وطول عشرته لمهنة النشر.. كان أحمد عبيد أكثر من خبير وأكثر من ناشر، فهو محقق مميّز من أوائل المحققين في سورية والوطن العربي، نشر نفائس من المخطوطات العربية وعدداً من الرسائل المميّزة على رأسها سيرة عمر بن عبد العزيز، وأعماله في التحقيق جعلته عالماً. يقصده الباحثون لاستشارته فيما يهمهم من أمر المخطوطات، فيلبثهم باهتمام ورعاية.

هو خبير في التراث والمخطوطات يعمل بصبر وأناة، ويتفان لا نظير له من أجل خدمة تراث أمته، ويقدم خبرته لإخراج كنوز التراث إلى الوجود بأفضل صورة، وعمله الدؤوب في أبي العلاء المعري يشهد له به محقق الرسائل في مقدمة التحقيق الذي صدر عن مجمع اللغة العربية بدمشق: (ولولا جهد الأستاذ عبيد في ترتيبها وتحديد نسبتها ما كان لها أن تخرج).

وأحمد عبيد انتقائي صعب المراس في المخطوطات، وصاحب نظرية خاصة في التحقيق جديرة بأن يعاد الحديث فيها مرة أخرى، فهو ضد نشر التراث بعجره

وبجره، ويرى أن ما كتبه الأجداد لا يحتاج بجملته أن ينشر، فهناك رسائل كتبت لأغراض ذاتية أو وقتية، ويجب ألا نعود إلى إصدارها، وإضاعة الوقت والجهد فيها، ويرى أن العمل في مثل هذه الرسائل هو مجرد عمل تجاري هدفه الربح وحسب، لذلك يجب أن تخضع المخطوطات إلى عملية دراسة عميقة.

تحدد الجدير بالنشر، ثم نقوم على تحقيقها ونشرها، وكان يتمنى أن يحدث نوع من التنسيق بين المحققين الذين يقومون بنشر المخطوط نفسه في أماكن متفرقة مسن الوطن العربي، فنهدر بذلك الجهد والوقت والمال.

يتمتع أحمد عبيد يتمتع بين العاملين في التراث بميزة لم تكن لغيره، فهو تراثي أصيل خبير من جانب، لكنه كان من جانب آخر يحيا حياته ويتابع معاصريه، بل ويكتب عنهم، فهو لا يكتفي بالجلوس بين المخطوطات الكثيرة التي تهيات له بل نراه صديقاً لشفيق جبري ومحمد البزم وخير الدين الزركلي، وأحمد شوقي وحافظ إبراهيم وإبراهيم عبد القادر المازني وآخرين يضيق المجال عن ذكرهم، فهو مع النحوي سعيد الأفغاني والشاعر الزركلي، ومع النصوص التراثية الأصيلة العميقة، فإضافة إلى تحقيقاته الدقيقة نشر أحمد عبيد دراستين هامتين تعدان من أهم أعماله ومن أهم الدراسات في هذا الباب، وهما: نكرى الشعارين حافظ وشوقي، ومشاهير شعراء العصر - قسم مصر. أما نكرى الشعارين فهو سجل من أهم ما كتب عن الشعارين حافظ إبراهيم شاعر النيل، وأحمد شوقي أمير الشعراء، سجل فيه أحمد عبيد كل ما قيل في تأبين ورناء الشعارين الكبارين، سواء ألقاها أصحابها أم لم يفعلوا، ضم مجموعة مهمة من القصائد الرثائية، ومجموعة من الدراسات الأكاديمية والتأبينية، والتقويمية في أعمال الشعارين، نظم القصائد شعراء من أهم شعراء العصر الحديث، وكتب الدراسات مجموعة من خيرة الأقسام العربية كمصطفى صادق الرافعي وسعيد الأفغاني. ومع أهمية هذا الكتاب وضخامته إلا أنه لم يلتفت إليه بالشكل اللائق حتى الآن! وكتاب عبيد الآخر مشاهير شعراء العصر - قسم مصر - فهو كتاب طريف ومميز فكرة وتأليفاً، لقد عمد عبيد إلى مراسلة الشعراء،

وكان كل واحد منهم يقوم بإرسال صورة حديثة لسه، مع ترجمة بقلمه، خاصة بهذا الكتاب ومجموعة من قصائده ونثره .. فجاء الكتاب موسوعة في التراجم والأدب على نمط فريد، وبأقلام أصحابها واكتفى عبيد بالإعداد والنشر، وهكذا حوى الكتاب نصوصاً فريدة وتراجم غنية، كما كان من أمر المازني وغيره، وهناك عدد من الشعراء الذين لا نجد لهم أي نتاج إلا في هذا الكتاب! وعن هذا الكتاب قال: إنه لم يخطط له للصدور كما صدر، فهو في الأصل مشروع موسوعي كبير، وضعت خطته المرهقة في سنوات، وكان على الشكل التالي:

مشاهير شعراء العصر: الجزء الأول: قسم مصر، الجزء الثاني: قسم الشام، الجزء الثالث: قسم العراق، وقد بدأت بالقسم الأول، وخاطبت شعراء من مصر فاستجابوا دون تحفظ، ووصلتني مشاركاتهم في وقت قصير، وفي أثناء طباعة الكتاب بدأت: تحضير الكتاب الثاني، قسم الشام وخاطبت شعراء في الشام فجاءتني بعض المشاركات ووقفت عقبات كثيرة وكبيرة دون إتمام المشروع، فهذا الشاعر لا يقبل أن يشارك في كتاب يشارك فيه فلان، وفلان يرى نفسه أشعر من الآخرين ولا يريد أن يضمه معهم كتاب واحد! وجد عبيد نفسه في بحر من الألم ولم يستطع على الرغم ما أوتي من الحكمة والرفقة أن يوفق بين أمرجتهم وقال: أنسا لا يمكن أن أستبعد أحداً إكراماً لأحد فكل الأسماء التي كانت مطروحة أسماء لها قيمتها ولها قراؤها، والاعتراضات التي كانت من الشعراء لم تكن ذات قيمة، وهكذا طوى عبيد أوراق كتابه وتوقف عن إتمام مشروعه الكبير، فخسرت المكتبة العربية كتاباً من أهم الكتب وخسر الشعراء أنفسهم أن تحتفظ المكتبة لهم بذكر مختلف كما حدث مع أشقائهم في جمهورية مصر العربية.

لم يكن أحمد عبيد محققاً وحسب أو ناشراً وحسب بل كان مبدعاً وصاحب أفكار غنية، ويذكر له إسهامه في أفكار كتابين هامين في المكتبة العربية وهما: الأعلام لخير الدين الزركلي، وهو أهم كتاب تراجم صدر في العصر الحديث، وقد قام أحمد عبيد بإصدار طبعته الأولى في المكتبة العربية بدمشق، وعندما هيا

الزركلي كتابه للطبعة الثانية، تحدث عن الأستاذ عبيد ودوره فقال: أهدى إليّ الصديق الوفي السيد أحمد عبيد (أحد أصحاب المكتبة العربية بدمشق) وهو من أعلم الناس اليوم بمخطوط الكتب ومطبوعاتها نسخة الخاصة من الطبعة الأولى وكانت بين يديه نحو عشرين عاماً، يعلق عليها بما يقع له من مخطوط ومطبوع وغريب وطريف وأضاف إلى هذا العمل أن أتاح لي مطالعة مجموعة مما ظفر به من قديم المخطوطات ونادرها، وحمل عني عبء استخراج الخطوط المكنوزة في خزائن دمشق ومكتباتها، وتولى قراءة هذه الطبعة في فترة اشتغالي بإعداد المستدرك فنبه إلى ما وقف عليه من خطأ الطبع، وأضاف تعليقات مفيدة أثبتتها في المستدرك منسوبة إليه. أن حرصه على كتاب الأعلام وعلى صديقه خير السدين الزركلي وعلى خدمة الكتاب، جعله يقدم للمكتبة العربية كتاباً مميزاً بكل معاني التميز مكتفياً بإشارة هنا وهناك دون أن يطلبها في الأصل، وأصدر أحمد عبيد عام ١٩٧٥ الطبعة الأولى من الكتاب الموسوعي: المعجم للشيخ النحوي عبد الغني الدقر، هذا المعجم الذي يعد في بابه بين أهم مصنفات النحو العربي في العصر الحديث، وهو الكتاب النحوي المبتكر فكرة وتنظيماً ومادة ... وقد اعتنى الشيخ الدقر بهذا المعجم وتابع العمل فيه إلى أن صار الكتاب مرجعاً لكل أستاذ وطالب في العربية، وأضاف إليه قسماً في الإملاء، وفي التقديم يقول الأستاذ الدقر: (ومن الإنصاف الاعتراف أن صاحب فكرة الترتيب المعجمي للنحو هو الأستاذ أحمد عبيد صاحب المكتبة العربية في دمشق)، اختزنها في صدره منذ زمن بعيد، إلى أن رأى أنه قد آن الأوان كي تخرج فكرته إلى الوجود، فعرض علي أن أقوم بهذه المهمة فصادفت منى الهوى، فاستجبت له واستعنت الله على ذلك. ويتحدث الكاتب إسماعيل مروة عن عبيد فيقول: لا أريد أن أتحدث عن إسهامات الأستاذ عبيد الكثيرة فالأمر لا يتسع، ولا عن الأعلام الذين كنت أراهم عنده في زيارتي إلى مكتبته، ولا عن شهادات الأستاذ محمد كرد علي الرئيس الأول المؤسس لمجمع اللغة العربية فيه، أو ما جاء في مقدمة رسائل المعري عن دوره في إحيائه وإثبات

نسبته وتربيته، فهو وراق من الدرجة العليا خبرةً بالمخطوط وقرائته ومتابعته واختباره وطباعته، وهو مؤلف بارع وشاعر أصيل وقف شعره على موضوعات محددة يراها تخدم المجتمع آخذين بعين الاعتبار المرحلة الزمنية ومصادر ثقافة عبيد.

○ ولد أحمد عبيد بدمشق عام ١٨٩٢.

○ أسس المكتبة العربية بدمشق عام ١٩٠٨، ونشر مجلة (أنفوس النفائس) التي صدر منها ٩ أعداد، كما طبع بعض الرسائل والروايات، وشارك بتأسيس الحركة المسرحية في سوريا، وله مقالات في النقد المسرحي، نفذ أول مشروع لأحياء التاريخ الإسلامي، بترجمة سير الأعلام والأبطال.

○ أسهم في أعمال المجمع العربي، وشارك بنشر مجلته وتوزيعها.

○ كان من أبرز أنشطته إصدار التقويم العربي الهاشمي عام ١٩١٩، وهو ما يزال يصدر إلى هذا اليوم متضمناً لطائف الشعر، ويسدّث الحكم، وطرائف الحكايات.

○ نظم أحمد عبيد في الحكمة والتوجيه إلى المحبة والتعاون والتمسك بالفضائل فعبس شعره ما جبلت عليه نفسه من حس مرهف، وإيمان صادق كما كانت قصائده مرآة لخلق الرفيع وسلوكه الإنساني المثالي.

تميز المحقق والشاعر بصداقته لأعلام الأدب والشعر، الذين يلتفون في مكتبته، وكانوا يقدرّون اهتمامه بتحقيق تراث العرب الفكري، والعناية بمصادر العلم والمعرفة وأثنى الجميع على جهوده الخيرة في نشر ذلك التراث، وإقامته للأجيال في أبهى حلله.

كان عبيد ربعة من القوم أو يكاد، هو إلى القصر أقرب متين اليأس، ركيناً مهيباً، حذراً، حذر التوقد والألمعية، لا حذر التردد وإفساد الرأي، تراه إذا مشى كما تراه إذا جلس وكما تستمع إليه إذا تحدث، وقوراً في ذلك كله، مستوي النبرة، ساكن

الطرف، هادئ القسّات، تتلامح إليك من وراء ذلك وفي خلاله ابتسامة خفيفة، ورقة ودمائة، لا تخطئ أن تردّها منه إلى طبيعة صافية، ونفس راضية، وخلق مستقيم.

عأونه في عمله حيناً من الدهر شاب طلعة، مرهف الحس، مشبوب العاطفة، لم يكّد ... حتّى استوى في حلبة الأدب عوده، وحتّى ارتفع في سماء الفكر نجمه، وتوالى صعوده، هو الأديب العالم الدكتور شكري فيصل، عضو مجمع دمشق، وعضو المجامع العربية.

حتّى إذا كانت السبعينيات وكان قد انقضى على رحلته مع الكتاب العربي نحو من ستين عاماً وطال الدرب، وتراعى المسير، كان حظ دارته منه أكبر، وكان تردده على (مكتبته العربية) أندر وأقل.

يعد الأستاذ أحمد عبيد من أوائل المحققين في بلاد الشام، وقد قام بنشر العديد من المخطوطات من أهمها تخميس لامية ابن الوردى، سيرة عمر ابن عبد العزيز، روضة المحبين ونزهة المشتاقين، سحر البلاغة وسر البراعة، والمرح في المزاح ... وغيرها من التحقيقات المهمة، نشرها في مكتبته العربية ثم تداولتها دور النشر الأخرى لفائدتها وأهميتها، ومن يطلع على تلك الكتب يتعرف إلى طريقة الأستاذ عبيد في تحقيق التراث، فهو لا يتدخل في النص إلا بما يوجب عليه ذلك وما يزيد النص غنى وفائدة.

والأستاذ عبيد مرجع من مراجع المحققين المهمة في بلاد الشام، يقصده المحققون لمراجعة أعماله وتزيينها بملاحظاتة التي صنعتها الخبرة الطويلة في عالم المخطوطات والوراقة.

وعلىنا هنا أن نشير بأمانة إلى ما يتمتع به المحقق من دقة استخدام المصطلح الذي يتصدر بحوثه فتارة نجد كلمة (تأليف) وتارة (إعداد) وأخرى (تقديم)، فهو لا يدعي ما ليس له وإنما يصنع العبارة التي تدل على عمله في الكتاب على استحياء من مؤلفاته: (ذكرى الشعاعين) الذي يتناوب فيه ذكر شاعر النيل وأمير الشعراء

والكلمات التي قالها فيهما أساطين الأدب العربي وفكره، نقداً في حياتهما وتأبين عند وفاتهما، وإضافة إلى مجموعة من أشعارهما التي لم تنشر قبل صدور الكتاب، والتي لم تنشر إلى يومنا هذا في كتاب غيره وأهمية الكتاب تكمن فيما جمعه لنا من كلمات ضاعت بين أوراق الصحف القديمة لولا كتابه، ومن مؤلفاته أيضاً مشاهير شعراء العصر وهو كتاب موسوعة، قرر الأستاذ عبيد إنجازها بأجزائه الثلاثة التي تناولت شعراء مصر والشام والعراق، وفق خطة فريدة وهو أن يرسل لسه الشاعر رسماً حديثاً له مع ترجمة ذاتية بقلمه، إضافة إلى أشعار لم تنشر من قبل، وفي عام ١٩٢٢م صدر الجزء الأول شعراء مصر، وتوقف إنجاز الجزأين الآخرين، وحسبك أن تقرأ ترجمة المازني بقلمه لتتعرف إلى أهمية الكتاب.

مع أدباء عصره:

أحاطت مجموعة ظروف بأحمد عبيد فجعلت منه صديقاً مقرباً من أدباء عصره وشعرائه كأحمد شوقي وحافظ إبراهيم والمازني والعقاد .. وينبيك عن علاقة الاحترام بين الأستاذ عبيد وأدباء عصره ما نجده في كتاب (مشاهير شعراء العصر) من رسائل احترام وتوقير، أرسلها أولئك الأدباء للأديب أحمد عبيد، ولعل علاقته بالراحل خير النين الزركلي أقوى صداقة تربط بين أدبيين من أدباء العصر، وحسبك رحلتها معاً في دمشق والقاهرة، وليست قصة الأعلام وإن مر عليها قرابة قرن من الزمن بعيدة. ذلك المعجم الخاص بالأعلام الذي لم يكتف بالعرب دون المستشرقين حتى أصبح عمدة الباحثين ... هذا الكتاب طبع أول مرة في القاهرة تحت عين الأستاذ عبيد، ويؤكد ذلك المرحوم الزركلي في غير ما موضع في كتابه (الأعلام). وكذلك علاقته مع مقرئ الشام محمود ياسين وابن أخته د. شكري فيصل، وصداقته لمحمد البزم وشفيق وجبري ومحمد كرد علي، وأنسور العطار ويوسف العش وعلي الطنطاوي ود. حسني سبوح، وغيرهم.

أحمد عبيد ... الشاعر:

اخطأ أحمد عبيد لنفسه العمود الشعري العربي، وكان ينشر هذا الشعر بين فترة وأخرى في تقويمه الخاص الذي كان يصدره ومما زال (التقويم العربي الهاشمي)، وأشعاره تتنوع بغرضها بين المديح والرثاء وكانت الحكمة أوفر أغراضه حظاً، ولم نلاحظ بنماذج كثيرة من شعره لأن ديوانه (نشر ما انطوى) لم ينشر بعد:

تألم أحمد عبيد كما آل إليه حال العرب من فرقة وضعف .. فنظم يقول:
أرى الدهر يستشري على العرب وأنهم من عدة الأيد عَزَل
وما الأيد إلا أن يكونوا على العدى يداً بأسها يوهي العداة ويعقل
لكل امرئ منهم نوازع ينتمي بها في بنيات الطريق فيخذل
ويوغل كل في مجاهل، قطعها يقطع أعناق الرجال ويفصل

وفي التسعين من عمره أنشد يقول:
(ثمانون عاماً جزتها بسلام وعشرة أعوام مضت بتمام
تقلب فيها بين لين وشدة وإخفاق آمال ونيل مرام
وما كان لي غير التجميل حلية وغير ادراع الصبر حين صدام
وإني لأرجو أن أعود إلى الثرى بخالص إيمان وحسن ختام)

ومن شعره في الحكمة:

(لا تحسبن سعادة الدنيا بما تحوي يدك من القنى فيزول
إن السعادة باليقين وبالرضا وهما دعام لا يكاد يميل
والقلب ينبوع السعادة إن يغض منه فليس لها إليك سبيل)

وشعره في قضايا الشرق لا تقل عذوبة عن أشعاره في الحكمة ومن أمثلة تلك الأشعار التي لاقت ذيوهاً وشهرة في حينها:

إني أنا الشرق فسي جنباته بالمكرمات ندية الأعواد
مهّد الهداة المرسلين ومنزل العز القديم وموئل الجواد
قد كنت من أن أستضام بمنعة ضربت سرادقها يد الأجداد
وأرى نبي هدى نبيّ إليهم قد أسلموا حرمي إلى الأضداد

أحمد عبيد في ذاكرة الأجيال:

احتل الباحث المحقق أحمد عبيد مكانة مرموقة في الحركة الفكرية المعاصرة
في سوريا والوطن العربي، وشهد له أعلام الثقافة بالريادة في مجال التوثيق
والتحقيق وكتب الشاعر سليم الزركلي:

ما عرفت أحمد عبيد صن يوماً بنخر انخره، أو قنية اقتناها بعد جهد جهيد،
فكانه حارس وقف، أو أمين مؤتمن .. لا يمن ولا يستأثر، كل ما بين يديه موقوف
للناس، يغرفون أنى شاؤوا، ويقبسون حيث يعوزهم القبس، فكان مصباحاً لا ينطفئ،
ونبراساً لا ينضب، هو حاضر لكل قاصد، باذل لكل طالب، بضاعته العلم
والمعرفة.. وما حجزهما دون أحد، فأفاد من سعيه كل ساع، واستفاد من عونه كل
مستعين، ويهش ويهش للقريب والغريب على حد سواء ... لقد عاش بين الكتب،
وفي خزائنها المتفرقة هنا وهناك، يقطف أزهى ما فيها من نضارات، وينشر أزكى
ما فيها من معارف، ويسبسطها لكل متطلع إلى المعرفة، ولكل مثلهف إلى اكتساب
أسرار العلوم، فكان بذلك، المرشد إلى النور في مجاهل الظلام، والناصح الأمين
في الدلالة على الخير العميم، القابع في بطون الكتب وزوايا العرفان.

وكتب خير الدين الزركلي: لقد أشاع الباحث خبرته وعمله ومكتبته لجميع من
شاء النهل من ذخائرها من عرب ومستشرقين، واعتبرت مكتبته العربية أول مجمع
علمي عربي (غير رسمي) في الوطن العربي منذ سنة ١٩١٠، حيث كانت تعقد
فيها تلقائياً، ندوات يومية لكبار رجالات الأدب، وصفوة العلماء والشعراء

والمحدثين والفقهاء والصحفيين، فترفد عطاءاتهم، وترعى جهود السائرين على نهجهم بمنتهى الأمانة والإخلاص، وتحرص على تكريم أعلامهم في أثناء حياتهم (موسوعة مشاهير شعراء العرب سنة ١٩٢١)، وبعيد وفاتهم (ديوان الشيخ أبي الحسن الططاع سنة ١٩١٢، وكتاب كلمات المنفلوطي سنة ١٩٢٤، وكتاب ذكرى الشعراء حافظ وشوقي سنة ١٩٣٣). كما أمد مجمع اللغة العربية (وهو أول مجمع تأسس في الوطن العربي سنة ١٩١٩) بكل الدعم والمشورة والخبرة التي كانت تطلب منه باستمرار، منذ التحضير لتأسيسه على يد الأستاذ محمد كرد علي (المتوفى سنة ١٩٥٣). وهو العالم العربي الوحيد الذي اعتذر عن تلبية الدعوة المتكررة للانضمام إلى عضوية مجمع اللغة العربية، انصياعاً منه لمبدئه في خدمة الوطن والعلم والعلماء، بكل صمت وجلد، بعيداً عن مصائد الشهرة والألقاب والأضواء، ولقد لُقّب من قبل رئيس المجمع (محمد كرد علي) ونائبه (عبد القادر المغربي) ورئيسه السابق (حسني سيح) بـ (ابن التذم) صاحب الفهرست.

في عام ١٩٨٩ انقضت رحلة المحقق للرائد أحمد عبيد، الحافلة بالعطاء الخير الذي ناف على مئة كتاب بين مؤلف ومحقق وعشرات المقالات، وأضعافها من التعليقات ... فكان جديراً بتقدير الأجيال واعتزازهم على الدوام.

مختارات من شعره

لقي شعر (أحمد عبيد) عناية من مجاليه الأعلام، وأشد أصدقائه من شعراء الشام بما وقعوا عليه من شعره الذي كتب محمد البزم:

(إن أحمد عبيد أديب أريب، سليم الذوق، حسن الاختيار، يصنع القطعة أو القصيدة، فإذا رآها جهازة القول وقهارمة البيان، لم يجدوا بداً من الاعتراف، بأن ناظمها أديب ثاقب النظر، كثير الخبرة بوجوه الفصاحة وتأليف الكلمات ونظم "خير الدين الزركلي" مخاطباً:

رويدك يا شاعراً ساخراً، عقود البلاغة ما ينظم
إذا أنست أسررت ما نلته، فإن الإجمادة لا تكسبتم
تقول فتطرب أسماعنا وينطق في شعرك الأبيكم

وفي كتابه: (ذكرى الشاعرين) قال عبيد يرثي أحمد شوقي وحافظ إبراهيم:

(أهكذا الموت أنفاس نؤديها إلى الحياة فلا يرجى تقاصيها
أهكذا الموت صحو لا سبات له أو غفوة لا يذوق الصحو غافيتها
الموت حق ولكن ليس نفهمه ولا نجيد له وصفاً وتشبيهاً
لا يعرف الموت أبناء الحياة ومن يطبق بالموت إن وإفاء تنويها
يا حافظ الشعر والآداب قد نظمت بك المنون قصيد الموت نرويها
قد كنت تنشدها شعر الحياة على نغمي تحاول أو بؤس تعانيها
قد مات شوقي وما شوقي سوى قمر في الداجيات يجلسي من غواشيها
في كل بيت له نور يضيء لنا مناهج الرشد فسي أحلى معانيها)

وكان أكثر ما وصلنا من شعر "عبيد" ما نظمته في الحكمة والنقد الاجتماعي المعبر عن صفاء روحه الإنسانية، ومن ذلك قوله:

الصديق الناصح:

فأصلحه وحسنه أن تعييا
صديق يصلح الخلق المريباً

(إذا أبدى لك الإخوان عيباً
فخير الصاحب في الدنيا وفاء

العزلة:

يسلاء والسلامة في الغياب
يسرى لقيائك من خير الطلاب
ويهدي إن زلت إلى الصواب

(لعمرك ما شهود الناس إلا
فغب ما استطعت إلا عن كريم
فيهدي إن دلت على صواب

الحياة:

نخفي بعدها عن الأعيان
من جميل الآثار بالإحسان

(إن هذي الحياة ومضة برق
ثم تجزى بما جنته اليدان

وفي عجائب الزمان:

وعيش يسوء بما قد أتى
وخود تحاول زي الفتى

(زمان توالى تعاجيبه
رجال يرومون زي النساء

وفي انقلاب المفاهيم:

فيلهج في مدحه المادح
فيتهم الرجل الصالح

(أعلن ذو الجهل إحساده
ويجهر في دينه صالح

تدني القيم:

تصدى لتأينه النساب
قريب ولم ينعه صاحب

(إذا مات فينا أخو منصب
وإن مات ذو العلم لم يبكسه

إنسان عصره:

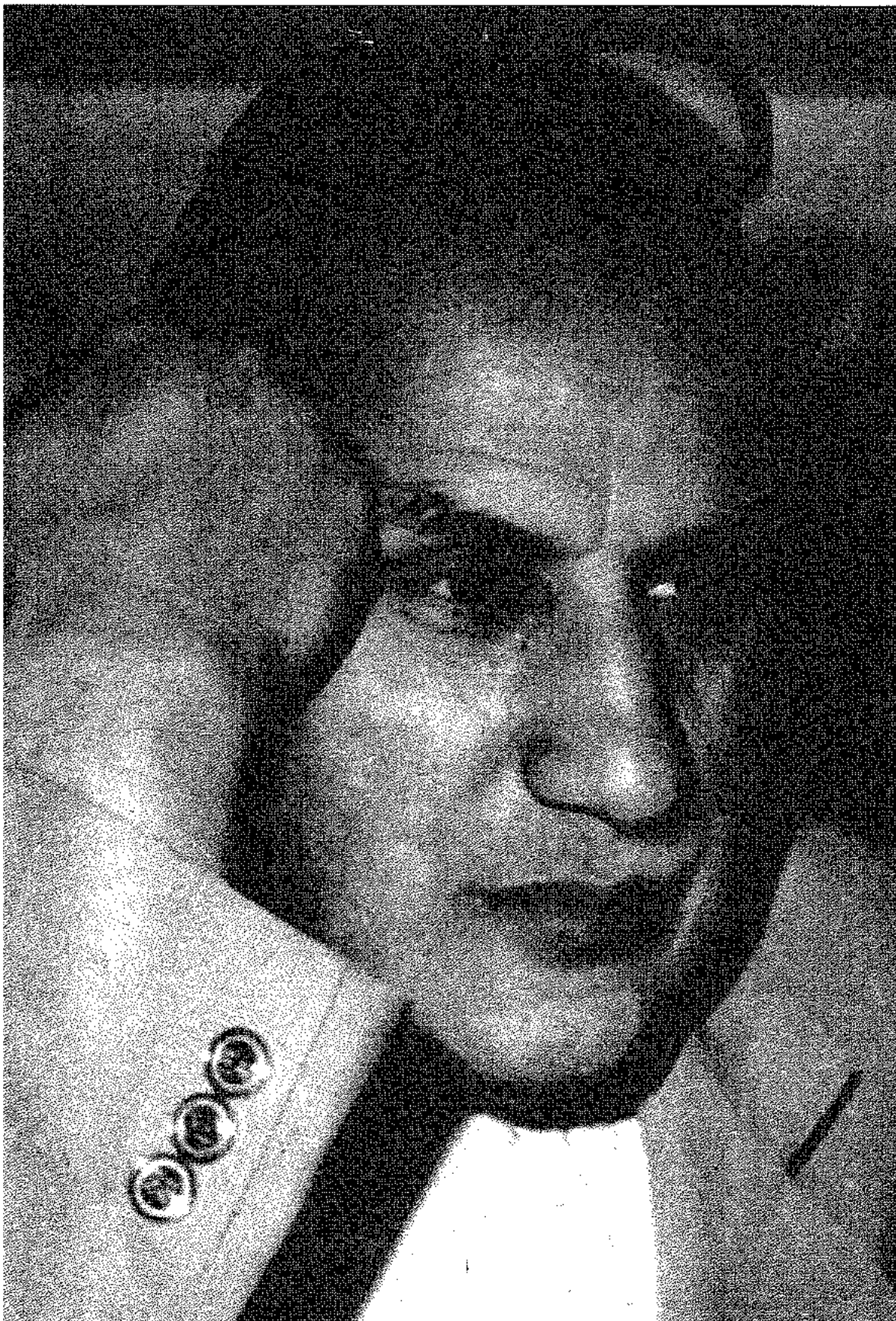
ذنباً يعيث في قطيع الأشياء
والمرء لا يهلك إلا أخاه

(ماذا دها الإنسان حتى غدا
والذنب لا يفتك في جنسه

وتعدد وجوهه:

يبين لي من مطاوي شره أثر
فلا يعود بخير منهم بشر

(إذا مدحت امرءاً يوماً ففي غده
أظن بالناس خيراً ثم أكشفهم



—

شكري فيصل:

عمر من الدأب والحماس لتحقيق فراند التراث

- أجمع جزئيات العمل الفكري كما يجمع الأثري قطع البناء المتناثرة
 - بلغ في تقليد طه حسين حداً صعب معه التمييز بين المقلد والمقلد
- كنت في مطلع حدثاتي حين بدأت مجلة "النقاد" الأدبية تنشر خواطري كل أسبوع، وكان زهو مشوب بالفرح يهزني، وأنا أرى أسمى جنباً لجنب مع العديد من كتاب المقال والقصة والشعر المعروفين أيام ذاك ... وحدث أن التقيت في واحدة من الندوات الفكرية التي حرصت دوماً على حضورها بالعلامة الأديب الدكتور "شكري فيصل" - يرحمه الله تعالى - فلما قُدمت له، صافحني بمودة صادقة وكأنه يعرفني منذ زمن بعيد، وبادرني بصوت أقرب إلى الهمس الوديع:
- إني أتابع كتاباتك وأتوسم فيك خبراً مرتقباً، لكن تذكر أن طريق الإبداع طويلة شاقة، وتتطلب فكراً متفتحاً، ودأباً متفانياً ... امتح من ينبوع الصدق، ارق فوق السفاسف، ولا تتعجل الوصول، وشدّ على كفي، كأنما يريدني ألا أنسى أبداً تلك الكلمات.

وظلت لقاءاتنا بعد ذلك قليلة، لأن المفكر الكبير، كان دائم التنقل بين الأقطار العربية، يشارك في مؤتمر هنا، ومهرجان هناك ... حتى كانت تلك الأمسية الرائعة من شباط "فبراير" عام ١٩٦٢ والتي خصصها مجمع اللغة العربية بدمشق لاستقبال عضوه الجديد الدكتور "شكري فيصل" في المقعد الذي شغل بوفاة رئيسه السابق علامة دمشق وشاعرها "خليل مردم بك" وقد بهر الدكتور فيصل الحاضرين مسن صفوة الأدباء والمفكرين عندما تقدم إلى المنصة بحياء واضح ليقول:

"منذ نحو من ثماني عشرة سنة، حين قادنتي خطاي في كثير من التهييب إلى هذه المنصة لأواجه جمهوراً من الناس في واحدة من المحاضرات التي كان يدعو

إليها مجمعكم الموقر، ولم يكن في الذي أطمح إليه، أو أكفر فيه، أن تلقى أيديكم الخيرة السمحة في ثقة وطمأنينة، على أن تأخذ بيدي إلى هذه المنصة ذاتها، لا لأحاضر وإنما لأشركم بالدمعة المترققة لا تستهل، واللسان الحي لا يبين ... إنكم فكرتم بي، حين فكرتم في أقدس المهمات التي تضطلعون بها، مهمة الحفاظ على اللغة، وإنكم أشركتموني في أكرم الجهاد، وهو الجهاد في سبيل اللغة العربية، وإنكم أحللتوني منكم هذا المحل الكريم الذي أقصّر عنه ولكني أمل أن أكون كفاء له^(١) ...

وتابع متحدثاً عن سجايا سلفه الراحل الكبير، وعن تهيئه من المسؤولية التي يفرضها اختياره لعضوية المجتمع، وعزمه على أن يكون عند حسن الظن به، وجاء دوري هذه المرة فعانقته بحرارة، ولم يدر في خاطري أنني لن أراه بعدها أبداً ... وإنما يأتيني نعيه في الثالث من آب ١٩٨٥.

تفوق منذ البداية:

ولد الدكتور "شكر فيصل" بدمشق عام ١٩١٨، ونشأ في بيت خاله المحدث العالم الشيخ "محمود ياسين" الذي أشرف على تعليمه وتمكينه من الثقافة الإسلامية، كذلك أتاح له شيخ الوراقين العالم "أحمد عبيد" الإطلاع على كتب التراث، وأرفده كما يذكر من علمه وماله بالشيء الكثير وأنهم وقتهم، ومكتبه الخاصة بمخطوطاتها ومطبوعاتهما.

تجلى تفوق الدكتور فيصل في مرحلة التعليم الثانوي، خاصة وأنه تلقى تعليمه في هذه المرحلة على أيدي الصفوة من أعلام دمشق، أمثال: سليم الجندي، عبد القادر المبارك، ومحمد البزم، مما أهله للالتحاق بكلية الآداب بجامعة القاهرة، فحصل منها عام ١٩٤٢ على الإجازة في الآداب بدرجة الامتياز، وكان ترتيبه الأول على زملائه الخريجين.

(١) مجلة مجمع اللغة العربية - أعداد مختلفة.

ولما عاد إلى دمشق عمل مدرساً للغة العربية، وتابع حضور المحاضرات في كلية الحقوق، حتى نال إجازة الحقوق وفي تلك الأونة اختاره العلامة "ساطع الحصري" مشاوراً فنياً لتعديل برامج التعليم السورية، فعمل بنشاط في صياغة التقارير الفنية، والإشراف على طباعتها كما قام في الوقت نفسه بتأليف عدد من كتب المناهج الجديدة.

اختارته جامعة دمشق للتدريس بكلية الآداب وثم أوفدته إلى القاهرة للحصول على الدكتوراه في الآداب، وهناك شغل وظيفة الملحق الثقافي بالإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية، وعمل مساعداً لمدير الإدارة الدكتور "احمد أمين"، وكان موضع إعجابه واعتزازه به، والتقى في مصر بأمين الخولي وعبد الرحمن عزام، وطه حسين / مما أهله ليكون ممثلاً للثقافة والعقلية المصريتين في سوريا.

وقد عُرف الدكتور فيصل بإخلاصه واحترامه لأساتذته، ولكل الذين أتاحوا له التهام وتكوين مخزونه من العلوم والمعارف، كما كان منغلماً على نفسه، معتصماً بالصمت ونوع من الإنساق والتهذيب يخاطبك بصوت خفيض فيه دعة وتحبب، وما عرف عنه أنه أساء إلى مخلوق أو تفوه بكلمة جارحة.

النثر شعر شوقي الثاني:

نال الدكتور "فيصل" خلال السنوات الثلاث التي قضاها في القاهرة، الماجستير في الآداب ودبلوم معهد اللهجات العربية والدكتوراه في الآداب بمرتبة جدياً جداً، واسهم في الفترة نفسها بالمهرجانات الأدبية والمؤتمرات الثقافية، وكانت المجالات العربية يوم ذاك "الرسالة"، الثقافة، الكتاب، الأديب، والفكر العربي وغيرها تتنافس في نشر دراساته وثمرات قريحته المتألقة.

في الخمسينات أصبح الدكتور في الطليعة بين أساتذة كلية الآداب بجامعة دمشق، فأوفد إلى ألمانيا في بعثة إطلاعية، أفتن خلالها اللغة الألمانية، وتتبع المخطوطات العربية بالدراسة والتحقيق في عدد من الجامعات الألمانية، وبعد

عودته مجدداً إلى سورية أصبح مسئلاً الأول في المؤتمرات الأدبية والندوات الثقافية، وفي شتى العواصم العربية يساهم في بحوثه الدقيقة ويلقي المحاضرات بنشاط وافر وحيوية فائقة.

وحيثما أحييت مصر ذكرى مرور خمس وعشرين سنة على وفاة أمير الشعراء "أحمد شوقي"، تحدث الدكتور فيصل في المهرجان الكبير، ملقياً الضوء على نشر شوقي، الذي بقي هجوماً من الأمير "شكيب أرسلان" القاتل إن نشر شوقي قتل شعره:

استرسل الدكتور فيصل في إبداء إعجابه بنثر شوقي وتساءل في البداية: (أكان شوقي هذا الذي فعل الأعاجيب في الحياة الفنية الشعرية، ناثراً من الناثرين الذين يقف عندهم تاريخ الأدب، مشيراً إلى أثرهم في سواهم). أغلب الظن أننا لن نستطيع أن نكتشف شوقي الناثر في شيء من اليسر، لا لأنه لم تكن له هذه القدرة على النثر المتمكن من الصنعة، حتى لتكاد تكون فيه عفواً ولا لأن نثره لم تكن فيه هذه القدرة على الإقناع ... ولا لشيء من هذا أو ذاك، وإنما يتجاوز الأمر شوقي نفسه إلى العصر الذي عاش فيه، وإلى العصر الذي نعيش فيه، وإلى الموصفات التي نطمئن إليها في العمل الفني، والأسس التي نرتكز عليها في التقدير والتقويم، فنحن نحيا في عصر أقرب إلى الإطلاق منه إلى التحديد، وإلى العفوية منه وإلى التصنع، وإلى الإرسال منه إلى القيد، وإلى الانسجام مع المعنى بأكثر من الانسجام مع اللفظ، ونحن اليوم نحب النثر رهواً رخاء طلقاً، كهذه الأشرطة الخفيفة التي تجري مع النيل، لا تسمع لها صلصلة ولا جلجلة، ولا تحس لها ضجيجاً ولا عجباً، وإنما هي وسوسة ناعمة كأنما هي همس الموج إلى المجادف وتحية المجادف إلى الموج، ثم لا يكون بعد ذلك إلا هذا التقدم المنطلق على صفحة الماء ويختم الدكتور فيصل دراسته قائلاً: "إن نثر شوقي بمنزلة الشعر

بل إنه شعر إذا نحن التزمنا تعبيره إنه شعره الثاني^(١).

من المقلد ومن المقلد:

بُعِد اختيار الدكتور فيصل لعضوية مجمع اللغة العربية، صار عضواً بلجنة مجلة المجمع، وكذلك في لجنة المطبوعات وإحياء التراث، وعكف في تلك الفترة على تحقيق العديد من كتب التراث العربي من أبرزها: "جريدة القصر وجريدة العصر" للعماد الأصفهاني و"ديوان أبي العتاهية" وأجزاء من تاريخ دمشق لابن عساكر، و"ديوان أبي العتاهية" بشرح ابن السكيت. وما هي غير سنوات حتى أصبح الدكتور فيصل أمين عام مجمع اللغة العربية، وأستاذ كرسي للأدب بجامعة دمشق، وخلال هذه الفترة بدأت مؤلفاته تنثر في المكتبة العربية، وكان من أهمها: "مناهج الدراسات الأدبية، الصحافة الأدبية، نثر شوقي، المجتمعات الإسلامية في القرن الأول: نشأتها، تطورها اللغوي والأدبي".

وكان كعادته يكتب بأسلوب ساحر، ويتخير عباراته بأناقة ويلون سطورَه بصور جميلة، لم تُعرف إلا عند قلة من الأدباء كطه حسين، والذي كان أكثر أساتذته تأثيراً فيه. استمع إليه يحكي عن أسلوب أساتذته:

في أسلوب الدكتور طه حسين، على كل الوضوح الذي يتسم به، شيء من الغموض وشيء من إغماض يقصد إليه قصداً، ولعل سحر الأداء عنده يصرف القارئ عن الفكرة بتفاصيلها إلى الأسلوب الذي تعرض فهي هذه الفكرة فإذا هو مشدود إليها، لا من حيث مقدماتها وتفاصيلها وبراهينها بل من حيث نتائجها التي انتهت إليها.

واقراً من بعد نصاً من مقدمته في تحقيقه لكتاب: "خريدة القصر وجريدة العصر" تجد أن التلميذ بلغ في تقليد أساتذته غاية يصعب فيها تمييز المقلد من المقلد

(١) عبقرية من بلادي: عبد الغني العطري.

يقول: "لست أزعم أنني فعلت كل ما يستطيع فعله، أو كل ما أستطيع فعله، فالسذنين يعانون من هذا العمل ويتمرسون به، والذين يقدرونه ويحسنون تقديره، يدركون أن الأولى لا يقدر أن يقولها أحد مدى حياته، وأن الثانية لا سبيل إليها لأن ما يغمض عليك اليوم يتضح لك غداً، وما يستغرق في ساعة من ساعات الليل، يفتح في ساعة من ساعات النهار، وما لا تسعفك به مناسبة أخرى، وما لا تراه في هذا الكتاب، أو تراه على وجهه، قد تراه في كتاب آخر، وقد تراه على وجه ثان ... غير أنك لا تملك أن تجعل وقتك كله، وعمرك كله وفقاً على كتاب".

لقد كان د. فيصل بحق، كاتباً ومفكراً شغلاً بالدقة ومخاطبة العقل، أجاد انتقاء الألفاظ وبناء الجمل، وسبك نثراً لطيفاً واضحاً فيه رصانة وانسجام، وغلب عليه صفاء اللغة المستخرجة من كتب التراث، ودراسات أعلام الفكر العربي الإسلامي، وهو ما تجلّى في تحقيقه لكتب التراث، الذي بلغ فيه منتهى الأمانة والإتقان ومن يُطلع على عمله في تاريخ "ابن عساكر" الذي تهيب كثير من فحول المحققين خوض غماره، وتحقيقه لديواني "النابعة الذبياني" و"أبي العتاهية"، يدرك أي جهد مُضنّ بذل، وأي نتاج جليل أنجز، وأي صبر أوتي، وأي خدمة قومية سامية أدى ... "لقد كنت - يقول د. فيصل: من ذلك في عمل شاق متصل، جمعت جزئياته وبنيتها من كل مصدر، كما يجمع الأثرى قطع بناء متناثرة ثم يحاول أن يردّها إلى أصلها فسي صبر ودأب، وكثير من شقاء"^(١).

وكانت أمانة المحقق ومسؤولية العمل في كل خطوة نُصب عينيه، وكان ذلك: "يدفعني إلى ميادين مختلفة من التنقيب، كنت في بعضها كالذي يحاول أن يلتقط حجراً بعينه من بئر سمحة غزيرة، وكنت في بعضها كالذي لا يرضيه الضوء الضئيل بين يديه، فيحاول أن يخرج القنيل بإصبعه، فتأخذ فيها النار، فلا هو أحياناً

(١) شخصيات وصور أدبية: الدكتور إبراهيم الكيلاني.

أبقى على إصبعه، ولا هو إلى أحيان أخرى، أفاد ضوءاً جديداً^(١). استمرت رحلة المفكر د. شكري فيصل في عالم الفكر، نيقاً وأربعين عاماً. تنقل فيها بين روائع التراث اللغوي العربي، قارئاً شغوفاً، ومحققاً أميناً، ومؤلفاً قديراً، وتتبع ذخائرها حيثما استطاع، يزيح الغبار عن سطورها ليعيد إليها الألق والضوء، وعرفته منابر الثقافة في كل العواصم العربية، محاضراً مجدداً، ومشاركاً بالدراسات والبحوث المتميزة، وفي السنوات الأخيرة من عمره انتقل إلى المدينة المنورة، وعمل أستاذاً للأدب العربي في الجامعة الإسلامية، وظل مثابراً نشيطاً على العهد به، حتى انطوت الصفحة الأخيرة من عمره.

لكني اليوم، وبعد سنوات عديدة على رحيله، ما أزال أستعيد همسته الوداعة في أذني، وكفه الحانية تشد على كفي، ونظرة عينيه الرقيقة تقول لي:

إن طريق الإبداع طويلة وشاقة، فلا تتعجل الوصول....

الهوامش:

- ١- مجلة مجمع اللغة العربية: إعداد مختلفة.
- ٢- عبقريات من بلادي: عبد الغني العطري.
- ٣- شخصيات وصور أدبية: الدكتور إبراهيم الكيلاني.
- ٤- شكري فيصل وصداقة خمسين عاماً - د. عدنان العائدي.

(١) شكري فيصل وصداقة خمسين عاماً - د. عدنان العائدي.

الكلمة مسؤولة، والفكرة إيمان..

ومن السمات البارزة في منهج "شكري الفيصل" التربوي إحساسه العميق بمسؤولية الكلمة، إذ يعد ذلك أمانة في أعناق حملة الأقلام، وأن الغذاء الفكري الذي يقدمونه للناس ينبغي له أن يكون غنياً مستنداً إلى ثروة خلقية إذ يقول (هل يدرك كل الذين يقومون على مجلاتنا في الوطن العربي خطر الساحة التي يتقدمون للعمل فيها وضخامة الأثر الذي يخلفونه؟ أيدركون أنهم حين يتصدون لمثل هذا العمل الفكري الضخم إنما يتحكمون في غذاء الآلاف من الناس: غذائهم الفكري وأن في أعناقهم أمانة الوفاء لهذه الآلاف وليناثهم بكل خير مفيد؟ أفكر الذين يصدرون كثرة من المجلات عندنا في مدى ما يجب أن يتسلحوا به من غنى ثقافي وزاد فكري وثروة خلقية تنتج لهم أن يكونوا أهلاً لحمل هذه الأمانة الثقيلة).

وكثيراً ما كان يتألم "فيصل" من انحراف حملة الأقلام عن المسؤولية التي أنيطت بهم فيقول: (يستاقط في أسماعنا الكثير من انحرافات بعض حملة الأقلام عن أمانة القلم الذي أقسم الله به).

إذا يدعو إلى الإيمان بالفكرة التي يطرحها صاحبها وإلى الصدق في تبنيها والدفاع عنها لأن في عدم الإيمان بها والدفاع عنها تجارة فكرية فيقول: (إن الفكرة لا تكون فكرة إلا حين تكون إيماناً بها أو في طريق الإيمان بكل ما يحمله لفظ الإيمان من قناعة داخلية واطمئنان نفسي ووثوق عقلي، والأفكار التي لا تكون موضوع إيمان أو قصد إيمان عن طريق عرضها ومناقشتها لا يجوز أن تطرح، إنها حين تكون ذلك تكون موضع تجارة، وليس أقسى من تجارة الأفكار، إنها الفتنة الكبرى التي تخرج بالناس عن محاور حياتهم إلى حياة من غير محاور، إلى حياة تنسخ الحياة في خيوطها الأصيلية لتنسج بدلاً منها خيوطاً موهومة أو كاذبة، إنها تخرج الناس إلى ما نصطلح عليه في مصطلحاتنا بالضلال).

وينطلق "فيصل" في أمانة العمل وأدائه على أحسن وجه وإتقانه من الحديث

النبي الشريف (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عمل أن يتقنه)، وهكذا كان عمله في تحقيق بعض الجوانب من تراثنا يتسم بالدقة والإحساس العميق بالمسؤولية حيث يقول: (ومن هنا كان من الخير لمصلحة الدراسات نفسها، ولمصلحة تراثنا ذاته، أن نعنى بتقديمه نصوصه على خير ما يكون التقديم، وأن نخرجها على أكمل ما يكون الإخراج، صحة وضبطاً وشرحاً وتعليقاً وتمهيداً وتذليلاً، وتوقفاً عند كل ما يحسن التوقف عنده وإشارة إلى كل ما تجب الإشارة إليه).

وعندما نشر ديوان أبي العتاهية يذكر بتلك المسؤولية العلمية والأخلاقية فيقول: (ليس من الحق أن تكون إعادة نشر ديوان أبي العتاهية أول واجب العاملين في الدراسة الأدبية أينما كانوا استقذاً لسمعة هذا التراث أن يكون من بين الذين يعملون فيه من تهون عليهم كل القيم العلمية والأخلاقية يدوسونها من غير رادع ثم لا يتورعون؟!).

ويلتزم بالدعوة إلى الدقة والأناة والإحساس العميق بالمسؤولية قولاً وعملاً فما هو يقول في مقدمة تحقيق كتاب (الوافي بالوفيات):... وبعد فقد مضيت في تحقيق هذا الجزء على النحو الذي مضت فيه الأجزاء الأخرى، غير أنني أخذت نفسي مع الدارسين الذي يعملون بإشرافي في إعداد الرسائل الجامعية في الدراسات العليا على ترتيب المصادر في الحواشي ترتيباً زمنياً تراعى فيه سنوات وفيات المؤلفين، وقد أثرت ذلك هنا حتى لا أناقض بنفسي ما أدعو إليه الآخرين، ولعلي أصبت الدقة في تطبيق ذلك والكمال لله وحده).

وإذا كان من الاتجاهات التربوية الاتجاه نحو التعلم من أجل الإتقان فإن "قيصل" قد طبق هذا المبدأ التربوي في أبهى صورته إن في الكتب التي ألفها أو في المجلدات التي حققها.

الأخذ بالمنهج والشمولية:

يتميز منهج "شكري الفيصل" بالشمولية في النظر إلى القضايا ومعالجتها، إذ أنه

لا ينظر إلى أي مسألة نظرة جزئية وإنما يتناول الكليات ويدعو إلى الوحدة، ففي رسائله التي قدمها لنيل درجة الماجستير بعنوان "مناهج الدراسة الأدبية" يدعو إلى تبني المنهج التكاملي في دراسة أدبنا العربي، وأن علينا ألا نقتصر على منهج دون غيره، وإذا كان بعض الدارسين يميلون إلى دراسة أدبنا العربي وفق العصور ويميل بعضهم إلى دراسته وفق الفنون، كما يميل بعضهم الثالث إلى دراسته وفق الأقاليم، فإن أستاذنا يدعو إلى الأخذ بهذه المواضيع جميعاً في إطار التكامل والوحدة.

وفي ندوة "اتحاد مجامع اللغة العربية في عمان" عام ١٩٧٨ التي عقدت لمعالجة موضوع "اللغة العربية خلال الربع الأخير من هذا القرن" يقول (يجب أن تنتهي الندوة من خلال التعدد إلى الوحدة أو ما يقترب من الوحدة، ومن خلال الأفكار الجزئية المتناثرة إلى فكرة كلية لها أولياتها وتسلسل أجزائها، ومن خلال العروض الخاصة التي تحددها ظروف البلد العربي الواحد إلى التصور المشترك بين مجموعة البلاد العربية، ومن المشاكل المتداخلة المعقدة إلى تصنيفها الذي يذهب بتداخلها، وبسيطها الذي يذهب بتعقيدها).

ومن يتتبع آثار "قيصل" يلق أن هذه النظرة الكلية المتكاملة لا تفارقه في جميع مراحل حياته وفي مختلف آثاره، ففي كتابه "في حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول" يرى (أن بعض المؤرخين ينظرون إلى حركة الفتح الإسلامي من نحو خاص ويلتزمون هذا النحو في التعليل لها ومناقشتها، وما من شيء أبعد عن الصواب من أن نلتزم في هذه الحركة الواسعة العريضة وجهاً واحداً، وما لم يفد المؤرخ من دراسته سعة الأفق والقدرة على الانفلات من تزمّت التعليل الواحد فسيظل بعيداً عن المؤرخ الحق. إن النظرة المتكاملة وحدها كما يبدو لي هي التي تستطيع أن تلف حركة الفتح وأن تفسرها لأن هذه النظرة هي نظرة الإسلام نفسه إلى الحياة ، لأنها هي التي تدل عليها حوادث الفتح نفسها في أصولها وفروعها).

وعندما يتحدث عن دراسة أدب عصور الانحطاط الممتدة بين سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ وأوائل عصر النهضة يدعو إلى تبني النظرة الكلية في تلك الدراسة إذ يقول:

(كان إيماننا بأن العمل الأدبي نشرأ أولاً ودراسة بعد ذلك لا يمكن أن يعتمد على الاتصال بالحياة الأدبية بمعناها الضيق فحسب، إيماناً تؤكد هذه الفترة بوجه خاص لأنها في نتائجها تمثل هذه الصلة بين الأدب العربي وبين كل فروع الثقافة التي كانت تحيا حوله، والتي كان يتنفس فيها تمثيلاً واضحاً، ففي توليد بعض المعاني وفي تلوين بعض الصور وفي استعمال بعض المصطلحات وفي تسرب بعض المفاهيم وفي الألفاظ والأحاجي وفي تصوير العمل الفني وفي منحاه وفي صوغ بعض التراكيب وإقامة بعض الجمل على نحو ما دون نحو آخر. في هذا كله تلعب الحياة الثقافية التي تحيط بالحياة الأدبية دوراً كبيراً على حد تعبيرنا اليوم، وتترك على العمل الأدبي ظلاً واضحاً. ولذلك فنحن نزداد ثقة يوماً بعد يوم بأن خدمة هذا الأدب لا بد فيها من زاد ثقافي غني لا يتيح الفهم فحسب ولا التفسير فحسب، وإنما يتيح التعليل حيناً وإدراك الصلة بين مظاهر الحياة الذهنية وبين مظاهر الحياة الفنية حيناً آخر، وتكوين فكرة كلية عن الحياة الثقافية والجو الحضاري بوجه عام).

ومن هنا نجد أن الأديب الراحل يدعو في ندوة مناهج تدريس الأدب إلى الربط القوي بين النصوص الأدبية والنظريات، وإلى العناية بالنقد الأدبي وتاريخه وتقوية النزعة النقدية والوصل ما بين النقد الحديث والنقد القديم، والإفادة من الصلات ما بين الدراسات الأدبية والدراسات الإنسانية الأخرى مثل علم النفس وعلم الاجتماع، والنظر إلى الأدب العربي من خلال حركة الفكر والفلسفة والاهتمام بعلم اللغة العربية.

وفي تحقيق ديوان النابغة يشير بوضوح إلى التكامل بين الدراسات اللغوية والأدبية إذ يقول: (تعودنا حين استوت دراسات النحو والصرف واللهجات والقراءات وما إليها من علوم العربية الأخرى أن نتعرفها على نحو يوشك أن يكون منحرفاً أو قريباً من الانحراف، فنحن نعلمها ونتعلمها على أنها دراسات منفصلة، ونظن أن بعضها مغاير لبعض، ولكنك لا تكاد تتعمق ما بينها حتى تجد أن لها نبتة أصلية تبدأ منها ومنطلقاً واحداً تتواش من قضاياها هو العناية بالقرآن الكريم ثم بالشعر الجاهلي

على أنه هو الطريق اللاحقة الواسعة الأصيلة لخدمة الكتاب الكريم.

ومن هنا كان الأصل المشترك لكل هذه الفروع والجزئيات، لهذه القضايا التي تتخذ مرة وجهة نحوية أو صرفية فتكون بحثاً في الصرف أو مسألة في النحو، وتتخذ وجهة لغوية فتكون بحثاً في اللغة أو اللهجات أو القراءات، وتتخذ وجهة بيانية فتكون بحثاً في المعاني أو البيان أو البديع على حين تكون كلها هي قضية هذه "العربية" التي نتمنى أن تعود في مناهج دراستها وفي الدراسات العليا خاصة إلى مثل التلاحم الذي كان لها والتواصل الذي كان فيما بينها، دفعاً لهذا التشقيق الذي تنسى معه الأصول، فتؤدي الغفلة عن الأصول إلى ابتسار الفهم وتجزئة المسألة ويسوق الابتسار إلى الغموض، وتؤدي التجزئة إلى مضاعفة الجهد على غير تساند وتواصل ووضوح).

وفي تحقيق ديوان أبي العتاهية يلتزم "قيصل" التكمال أيضاً في الربط بين أشعار الشاعر وأخباره مطلقاً ذلك قائلاً: (وما من حاجة إلى أن ذلك على أهمية الربط بين هذين: بين الأخبار وبين الأشعار في الخطوات الأساسية الأولى لإقامة الدراسة الأدبية، أعني في فهم النصوص واستكناه بواعثها، وتبين ما وراءها في حياة الشاعر وفي نفسه، ذلك أن بينهما دائماً شيئاً أصيلاً من تلازم، وشيئاً أصيلاً من تكامل أحدهما يفسر الآخر ويعبر عنه ومن واحد منهما ننفذ إلى الآخر. إننا نستبطن الأثر الأدبي عن طريق الخبر الذي ابتعثه، ونسبر حقيقة الخبر من الكوى التي تتيحها دراسة النص. إن الأخبار والأشعار وجهان لحقيقة واحدة هي وجود هذا الشاعر في معناه المزدوج! من حيث هو إنسان يشاركنا أحداث الحياة وتجاربها، ومن حيث هو فنان ينفرد عنا بقدرته على الانفعال بها انفعالاً يقود إلى صياغتها صياغة متميزة والتعبير عنها تعبيراً فذاً.

ولعل السبيل الأمثل أن نحكم هذه الصلة بين شعر الشاعر وأخباره، وأن نشهد هذا التفاعل بينهما ليكون أحدهما شهادة على الآخر له وثبناً منه.

وإذا كانت الأمور تدرك بكلياتها وإن إدراك الكل يسبق إدراك الأجزاء كما يرى أصحاب نظرية الجشتالت في علم النفس، وكما أشار إليه العلامة ابن خلدون في مقدمته، فإن أستاذنا الراحل طيب المنهج الشمولي المتكامل ودعا إلى تبني النظرة

الكلية في معالجة القضايا، وحذر من النظر إلى الموضوعات من زاوية واحدة ناشداً الإحاطة بالكليات وسعة الثقافة في شؤون التحليل والتفسير والتعليل، حتى لا تأتي الحلول مبتسرة والتفسيرات قاصرة.

تكمّل الخبرة واستمراريتها:

وهو مبدأ من المبادئ التربوية المعاصرة، فللخبرة جوانب ثلاثة: جانب معرفي وجانب وجداني ثم جانب أدائي، وأن ثمة تكاملاً بين هذه الجوانب. ومن هنا يدعو فيصل إلى التكامل بين جوانب الخبرة عندما يتحدث عن كليات الآداب في الوطن العربي فيقول: (وليس حقاً ما يبذل أحياناً من هين القول حين يزعم الزاعمون أننا في غير حاجة ماسة إلى كليات آداب أو إلى مثل هذه الكليات النظرية الأخرى التي تتجه إلى الدراسات الإنسانية، وتقتصر عليها، ذلك أن إيماننا بكليات الآداب لا يقل عن إيماننا بكليات العلوم، إنهما هاتان الكليتان أو هذان النمطان من الدراسة والبحث ليسا متناقضين أو متعارضين وإنما هما حلقة واحدة متكاملة يدور فيها الوجود الإنساني عقلاً وروحاً، حساً ووجداناً، واقعاً وذاتاً، إنهما معاً وجود مفروض في كل حركة أو نهضة، وعلى قدر ما يكون من حاجة هذه الشعوب إلى الدراسة الإنسانية إدراكاً للحقائق الكبرى الخالدة التي تهدي بها البشرية والتي يهتدي بها الأفراد على حد سواء!!

وحتى يتيسر للمربين بناء الخبرة كان لا بد من إيجاد تنسيق بين العوامل التي يتعرض لها الناشئ ضمن جدران المدارس والمعاهد والجامعات وما يتعرض لها خارج هذه الجدر، وذلك حتى يكون تكامل في بناء الخبرة وعدم نقض لبعض جوانبها. إذ كثيراً ما نشكو المثبطات التي تعمل على هدم الخبرة التي ننبئها في المدارس عندما نعلم اللغة العربية في مراحل التعليم العام، وقد عرض "فيصل" هذه المشكلة داعياً على تكامل الخبرة قائلًا: (أننا في مراحل التعليم العام الثلاث: الابتدائية والإعدادية والثانوية نرعى تعليم العربية ونتعهد بها ونسهر عليها ونجهد في أن نطابق بينها وبين

الألسنة. ولكن جهد وزارات التربية كلها وملايين المعلمين والمدرسين والأساتذة تنقُض نقضاً في المؤسسات الأخرى، مثل الصحافة حيناً والإذاعات المرئية والمسموعة حيناً آخر، وهي هذه الوسائل القوية الملحة الدؤوب التي تهاجمك ليل نهار حتى تسكن أذنيك وحتى تحملك على الإنصات إليها، إن كان هناك سبيل إلى أن يكون الإنصات أمراً ندفع إليه ونحمل عليه. هذه الوسائل تحلّت من كثير من ضوابط العربية، إنها تناقض عمل التعلم وتنقضه. ويبدو دائماً هذا المشهد المبكي. وزارات التربية تملأ القرية من فوق ومؤسسات أخرى تحدث في هذه القرية ما استطاعت من ثقب. أولئك يبنون السفينة أو يحاولون بناءها، وهؤلاء يخرقون أطرافاً منها دون أن يجدوا من يأخذ على أيديهم، ويعود الجهد العربي الضائع على نحو ما يبدو في كثير من الساحات الأخرى حقيقة ماثلة، وبوشك أن ينتهي المرء إلى أن كثيراً مما تقوله الصحافة وكثيراً مما تذيّعه الإذاعة وكثرة فاحشة مما يقوله المسرح إنما هو نقيض الذي نقيمه المدرسة).

وإذا كان الأنيب الراحل قد دعا إلى التكامل في بناء الخبرة، فإنه في الوقت نفسه دعا إلى استمراريتها. فما هو ذا يشير إلى الربط بين الماضي والحاضر في تدريس الأدب قائلاً: (إن دراسة تاريخ الأدب العربي هي بطبيعتها بجانب أصيل من طبيعتها دراسة تطورية، بمعنى أنها دراسة تضرب في اتجاهين: معرفة القديم الذي كان ومعرفة الجديد الذي نبع، ثم ماذا في هذا القديم من تحويل له أو خروج عن أصوله؟ وماذا في هذا الجديد من آثار القديم وسيطرته وأبحاثه وعمله في تكوين هذا الجديد على النحو الذي صار إليه دون غيره من الأنحاء التي كان يمكن أن يؤول إليها. إن هاتين الوجهتين المتكاملتين وإحدهما ليست إلا الوجه الثاني للأخرى هي حقيقة الدراسة الأدبية العربية، ومع ذلك فلا يزال هناك كثرة بالغة من الدارسين يتناولون العصور التالية دون أن تكون معرفتهم بالعصور الأولى مجزية في أن تضمن لهم القدر الذي يتمنون لأبحاثهم من الأصالة والعمق. إن ثقافتهم العامة ودراساتهم الجانبية قد تكون من الغزارة على حد يضمن لهم أن يكتشفوا عناصر الجدة التي جاءت أثراً

للتفاعلات العميقة بين جوانب الحياة، وأن يفسروا بعض الاتجاهات، ولكن دراساتهم تظل تحتاج إلى هذا الخيط الآخر، أو إلى هذا الخيط الآخر الذي يربط بين الثمرة القديمة والثمرة الجديدة، بين الغصن الناشئ والنسغ الممتد من أعماق الجذر إلى قلب الساق لينفذ ويعد هذا الغصن الناشئ، هذا الخيط الذي يرصد تحول الثمرة القديمة حين تدفن في الأرض غذاء للثمرة الجديدة وجزءاً منها مستكناً فيها).

ويقول عن تحقيق ديوان النابغة: (هذا عمل أردت منه أن أصل بين تراثنا وواقعنا بعروة جديدة وثقى، وفي عقلي وقلبي دائماً أن استمرار الاتصال بين التراث والواقع، بين الماضي والحاضر هو الذي يعطي وجودنا الإنساني لا معناه الأصيل المتميز فحسب بل أنه ليهبه كذلك وفوق ذلك، قدرة لا تعد لها قدرة أخرى على تجاوز كل عقبة من هذه العقبات التي تنتشر على طريقنا، وكأنها نباتات سامية).

ويعزز هذا الاتجاه في مقالاته إذ يقول: (إن معرفتها بالماضي التي تمكن لنفوسنا في نفوسنا، وإلا فليس هناك نحو حياة الفرد وفي حياة الجماعة أشنع من هذا الضلال: أن نضل أنفسنا فلا نجد لها، وأن ننشدها فلا نقع عليها، أو لا نقع عليها إلا من خلال هذه الصورة المشوهة، التي تزرع في أذهاننا وقلوبنا زرعاً هدفه أن تخلق في تذوقنا هذه المرارة لهذا التاريخ وفي أفئدتنا هذا النفور منه، وفي طباعنا هذه الكراهية له. وفي وجودنا الحاضر هذا التنافر منه حتى لا يكون لنا لا وجود قديم نستمد منه، ولا وجود جديد نطمئن له، ولا وجود مستقبل نتطلع إليه، وحتى لا يكون لنا مثل هذه الدوافع والحوافز التي لا بد منها في حياة الشعوب كما أنه لا بد منها في حياة الأفراد.

إن هذا هو الغنى الكبير الذي نقصد إليه حين نتحدث عن التراث وعن إحياء التراث وعن النظر في هذا التراث وعن نشدان الأصالة من خلال هذا التراث.

إننا لا نريد التراث لا مشغلة عن الحاضر ولا ملهاة عنه، ولكننا نريده فهماً لجذور هذا الحاضر، وتغذية له قدر ما تكون التغذية مفيدة، ونريده نغياً للشبهات التي تحتاط به لا تأكيداً لهذه الشبهات، كما نريده معاوناً على رسم المستقبل، نرسمه نحن ولا يرسم لنا، ونحمي براعمه قبل أن تقتل هذه البراعم رياح جليدية أو رياح حارة من

هنا وهناك.

إن اهتمامنا بالتراث ليس زينة من الزين، ولا زخرفة من الزخرف، ولكنه وجود من الوجود، ونقاط خلفية للوجود المتقدم).

ويعود ليؤكد هذا المنحى في مقالة أخرى حيث يقول (البحث في حاضر اللغة العربية أو في ماضيها أو في مستقبلها بحث متكامل الجوانب، إن اهتمامنا بالماضي منها هو نوع من المعرفة ومن الإحياء ومن رعاية الجذور والاهتمام بها حتى تظل طريقاً إلى النمو ومن تتبع السيرة ومن مراقبة التطور، وإن اهتمامنا بحاضرنا هو اهتمام بالواقع الذي نحيا فيه ومعاناة كاملة لأشائه وتمرس بالأسماء والمسميات ونهوض بالأمانة الصعبة التي ألقت بها الأقدار على هذا الجيل منذ دفعت به إلى صميم الحضارة المعاصرة دون مشاركة له فيها).

وإن اهتمامنا بالمستقبل هو استكمال لهذا الاهتمام بالماضي والحاضر، لأن إيماننا بمستقبلها هو جزء من عقيدتنا، ولعلّه أن يكون أصل الأجزاء. فلغتنا يجب أن تستوعب هذين الجانبين الرئيسيين من حياتنا: حياتنا الاجتماعية من طرف وأفكارنا ومثلنا وتطلعاتنا وتنظيم هذه الأفكار وصياغة هذه التطلعات وتحقيق هذه المثل من طرف آخر. ولهذا يبدو الحديث من جانب ما من ماضي هذه اللغة أو حاضرها أو مستقبلها حديثاً متكاملأ يقود بعضه إلى بعض، بل لعلّه يقود إلى شيء كثير من التداخل، إن الجذر الضارب في أعماق الأرض ليس بعيداً عن الثمرة التي تتدلى من الغصن، والفرع المنبثق عن الساق هو ساق أخرى، وبين ماضي اللغة وحاضرها ومستقبلها مثل ما بين الجذور وبين الثمرة من صلات القرى والنسب).

وطبق شكري الفيصل هذا الاتجاه منذ بدايات عمله في تأليف الكتب المدرسية، ففي كتابه (الفنون الأدبية) وهو كتاب مدرسي يشتمل على نصوص مختارة من الأدب العربي القديم والحديث كان قد ألفه عام ١٩٤٦ لتلاميذ السنة الثالثة من المدارس المتوسطة يقول فيه (وجهدت أن تكون هذه السنة الدراسية موصولة الحلقات بما قبلها وما بعدها، موصولة بما قبلها في انتهاج تصنيف الفنون الأدبية وفي مدّ جوانب هذا

التصنيف والتوسعة في أطرافه، بحيث تكون الفنون أكثر استيفاءً وأوسع شمولاً حتى يغدو الطالب قادراً على الإحاطة والتمييز بينها والتعرف على خصائصها، وموصولة بما بعدها في محاولة التمهيد للدراسة الأدبية وحل النصوص والتعمق فيها).

وإذا كان فيصل قد حمل لواء الخبرة المستمرة داعياً لها ومطبّقاً إياها وهو مبدأ تربوي تطمح التربية المعاصرة إلى تحقيقه في تبنّيها التعلم الذاتي والتربية المستمرة، فإنه ليتألم من عزوف مثقفينا عن متابعة الاطلاع المستمر إذ يقول: (إن من أبرز نواحي النقص في حياتنا الثقافية أن مثقفينا يقطعون ما بينهم وبين ثقافتهم الجسور حين يعبرون إلى الحياة العامة، إنهم يلاحقون هذه الثقافة عن طريق المجلة أو عن طريق الكتاب مثلاً .. (لذلك سرعان ما يتوقفون عن النمو في هذا النحو، ثم تذوي هذه الذبّة في نفوسهم، ويضمّر وجودهم الثقافي، فإذا هم أقرب إلى الجهالة منهم إلى العلم، وإذا هذه الثقافة التي اكتسبوها أول العهد لا تكاد أمام التقدم المستمر للفكر أن تفي بحاجتهم وتنهض بمتطلبات الحياة، فينتهقون ويتأخرون من حيث لا يشعرون، لأن التوقف في الحياة التي تغذ السير معناه العلمي التأخر والتقهقر).

وما أسمى هذه الدعوة التي يدعو إليها الأديب الراحل في هذا العصر المتطور والمتوثب، عصر التفجر المعرفي والانتشار الثقافي الخاطف والمواصلات السريعة، عصر العلم والتكنولوجيا، وأن عدم مواكبة روح هذا العصر وطبيعته معناه التخلف والتقهقر.

وحدة اللغة:

يعد علماء اللغة المعاصرون "الألسنيون" اللغة نظاماً متكاملأً بحيث أن أي جانب من جوانبها يؤثر في غيره ويتأثر به. كما أن المربين ينظرون إلى اكتساب اللغة على أنه وحدة متكاملة، وأن المهارات اللغوية كل متكامل وأن فروع الأدب العربي كلها ليست إلا وسائل في خدمة التوصيل والتعبير، وأنه إذا نشدنا تعلم اللغة علينا أن ننظر إلى وحدتها، وعلى هذا النحو سار فيصل، فقد أدرك بحسه التربوي العميق وبصيرته

النافذة أن تعليم اللغة من خلال المطالعة يتطلب الانتفات إلى القواعد والتراكيب والمعاني والتربية الجمالية فيها هو ذا يقول في كتاب "الفنون الأدبية": (كان لزاماً أن أجعل من بعض المناسبات في دروس النصوص الأدبية سبباً لتذكر القواعد الماضية واسترجاعها والإفادة من تطبيقاتها).

ويود أن نجعل الألفة بين الطالب والمعجم بحثاً عن المعاني وتوخياً لزيادة الثروة اللفظية اللغوية فيقول: (ونحن نردد دوماً ذكر هذه الهوة ليعود إلى المعاجم، ولكن بعضاً آخر منها ليعود إلى عدم التقرب منها، والتمرس بها، حتى يوشك أن يجوز الطالب دراسته الثانوية لا يفتح معجماً أو لا يدري كيف يفتحه، لكان لا مناص إذن من تكليف الطالب بعض الأسئلة التي تتلاقى هذا النقص وتستأصل هذه المعايير).

ويشير أيضاً إلى تحبيب الطالب بالمطالعة "القراءة" من خلال النصوص التي يتفاعل معها إذ يقول: (وليس من غرض كتاب ما من كتب المطالعة أن يستقطب كل اهتمام الطالب وكل هواه في القراءة والمطالعة، وإنما هو سبيل لإثارة وتشويق ميوله وتنمية هذه الميول، وحين لا يفعل الطالب شيئاً إلا أنه يعنى بالكتاب الذي بين يديه يكون قد وأد ميله إلى القراءة وقتله قتلاً، وما أشد ما نشكو انصراف الطلاب عن المطالعة ورغبتهم عن المكتبة، وهذه الصلة المقطوعة بينهم وبين دور الكتب، وذلك كله يفسر حرصي على إرشاد الطالب إلى نصوص أخرى مماثلة أو مناسبة في ختام الأسئلة، وأنا أؤمن أن الاحتفال بها والغاية منها ستكون بعيدة الأثر عظيمة الفائدة، وستتلاقى كل هذا الذي نألم له عند التلاميذ من لصيق الأفق والركون إلى هذه الدوائر الضيقة الهادئة التي يحددها الكتاب والدرس).

ولا ينسى أخيراً أن يشير إلى التعبير الذي كان يسمى في تلك الفترة إنشاء فيقول: (ودروس المطالعة مثل دروس اللغة الأخرى تستهدف كلها البيان صحة أولاً وجمالاً ثانياً، ولذلك استشرت انتباه الطالب من هذه الناحية بهذا السؤال الخاص عن الإنشاء، واقترح في موضوعاً يكتبه، وبينه وبين الموضوع الذي يقرأه صلة واضحة ونسب قريب).



عمر رضا كحالة:

باحث موسوعي أضاء كنوز التراث العربي الإسلامي

يحتاج العمل الموسوعي الضخم إلى مؤسسات فكرية، تجمع النخبة من الأدباء والعلماء المتخصصين في شتى مجالات المعرفة، وتوفر لهم المراجع والمصادر، وتدعمهم وتذلل أمامهم ما يواجههم من مصاعب ومشكلات، بالإمكانات المادية الكبيرة ليأتي العمل كاملاً، ومحققاً للهدف البالغ المنشود.

ويغدو الأمر مثيراً للدهشة ومدعاة للإعجاب في آن معاً، حين يتصدى مفكر بمفرده للقيام بعمل مؤسسة كاملة، ويأخذ على عاتقه مهمة التحقيق والبحث في المصادر، والتصحيح والتأليف ليخرج بعدها بمؤلفات راقية في مجلدات بالعشرات، تسد فراغاً كبيراً في مكتبة الفكر والثقافة، وتلبي حاجات الباحثين المتعطشين إلى المعلومة الصحيحة والخبر الدقيق، وهذا ما فعله المؤرخ المتميز الراحل "عمر رضا كحالة" خلال مسيرة دائبة، تواصلت لأكثر من نصف قرن خمسون سنة بأكملها والرجل ساهر متعب في محراب الفكر، بذهن منفتح ورؤية صافية، ومنكب على المخطوطات الفريدة يعطي ذوب عينيه للحروف والكلمات، ويميز وينتقي، ثم يصب ذلك كله في قالب جديد من العبارة المحكمة، والديباجة المشرقة، والسبك الأنيق، لتكون المحصلة سبعين مجلداً فريداً، وثقّ فيها لأعلام المؤلفين، ولقبائل العرب، وأوائل النساء، والحضارة العربية الإسلامية، وعلوم اللغة العربية، والدين، والتربية، والتعليم، والفنون الجميلة، والدراسات الاجتماعية، وعلوم الفلسفة.

أخرج "كحالة" هذه الأعمال المتميزة بروح تواضع عالية، وإيمان صادق، لم تش عزيمة مشقة البحث وعناء التنقيب، ولا أوهن نفسه طول السهر وجهد العمل الطويل، يذكر الكاتب "أحمد شكري" أن "عمر كحالة" قضى أكثر من نصف قرن من الزمن في جمع خامات التاريخ العربي من أفضل مصادرها، ليحولها إلى

معارف منسقة ومنظمة ومدروسة زودت المكتبة العربية بمجموعة من المؤلفات الجادة المنسمة بالدقة والأمانة، وتم ذلك في مرحلة صعبة، إذ كانت أحوال الناس تزرح تحت عوامل الضيق والعسر، وانعدام الحوافز، وضعف الإمكانيات، إضافة إلى ظروف الكفاح الوطني، وعدم الاستقرار، مما وقف حائلاً دون انتعاش حركة التأليف والنشر، لكن "كحالة" وأصل طريقه بتصميم ودأب، وتمكن من إنتاج عمل علمي منظم، جاعلاً من البحث عن التاريخ وصياغة حقائقه ومعطياته، هدف العمر كله.

ولد عمر كحالة بدمشق عام ١٩٠٦، في بيت عريق اشتهر بعض أفراده في مجالات العلم والتجارة، وقد حالت الأوضاع السيئة التي عاشها الوطن العربي إبان فترة الحكم العثماني، دون تمكنه من الحصول على فرصة التعليم الحديث، وإن كان قد استطاع تجاوز المرحلة الابتدائية، وسنح له العمل عام ١٩٣٠ بوظيفة ناسخ مؤقت بدار الكتب الظاهرية، وأتاح له تواجده وسط المخطوطات والمؤلفات أن ينهل من معينها بشغف وتهم، وبدأ يستوعب بذكاء تلك الثروة القيمة من التراث العلمي الخالد، لنياشر تأليف الكتب وإصدارها في وقت مبكر من حياته، وكانت البداية في ذلك العام، مؤلفه المعنون: "أفريقية الغربية البريطانية" والذي شرح فيه ظروف تلك المنطقة من صفحات مذكراته التي دوّنها خلال عمله مع أسرته لبعض الوقت فيها، وتوالت بعد ذلك مؤلفاته الإسلامية في عدة أجزاء، وتولى في العام التالي أمانة المكتبة الظاهرية، وياشر في تلك الفترة بإخراج مؤلفه الشهير "معجم المؤلفين" الذي صدر في أربعة عشر جزءاً، ذكر في مقدمته: إنه معجم لمصنفي الكتب العربية من عرب وعجم، منذ بدء تدوين الكتب حتى العصر الحاضر، وألحق بهم كل من كان شاعراً أو روائياً، مع تثبيت تواريخ ولاداتهم ووفاتهم، ونسب كل منهم وكنيته واختصاصه ولمحة عن عصره، وقد أصبح ذلك المؤلف نادراً ومن الصعب الحصول عليه اليوم.

مع بداية العام ١٩٤٠ نشر "عمر كحالة" مؤلفه المتميز "أعلام النساء في

عالمي العرب والإسلام" في ثلاثة أجزاء، وأتبعه عام ١٩٤٥ بكتاب: "جغرافية شبه جزيرة العرب" وفي ذلك العام أصبح مديراً لدار الكتب الظاهرية، فشغله العمل فيها عن التحقيق والتأليف لعدة سنوات، ولكنه ما لبث أن واصل مسيرته الإبداعية في السبعينات حين أصدر عام ١٩٧١ كتاب "اللغة العربية وعلومها" وشهد العام التالي ١٩٧٢ أغزر أعماله الفكرية حيث نشر كتبه: الأدب العربي في الجاهلية والإسلام الألفاظ العربية والموضوعة، التاريخ والجغرافيا في العصور الإسلامية، العلوم البحتة والإسلام الألفاظ العربية والموضوعة، التاريخ والجغرافيا في العصور الإسلامية، العلوم البحتة في العصور الإسلامية، الفلسفة الإسلامية وملحقاتها، الفنون الجميلة في العصور الإسلامية". وناف عدد إصداراته في الأعوام التالية ما بين ١٩٧٣ و ١٩٨٠، على أربعة عشر مؤلفاً في الدراسات الاجتماعية وعلوم الدين الإسلامي والتربية والتعليم، ولكن أبرزها وأكثرها تميزاً كان معجم قبائل العرب القديمة والحديثة"، فإذا أضفنا إلى هذا كله نتاجه الثري من الأبحاث الاجتماعية الكثيرة، وفهارس المجمع العلمي العربي بدمشق في عدة أجزاء، أدركنا ما حفلت به مسيرة هذا الباحث الموسوعي من إبداع، وما قدمه للتراث العربي من خدمات جليلة، وكل ذلك في تواضع جم، ونفس راضية، مكتفياً بعبارة: "لو أوقفت عشرات أضعاف العمر الذي قُسم لي في هذه الدنيا على الدراسات والبحوث، ما تسنى لي أن أقدم أكثر من نقطة في بحر المعارف العربية والإسلامية التي خلفها لنا الأسلاف، لنحفظها وندرسها وننقلها للأجيال التالية:

في أوائل عام ١٩٨٣ كرّمت الدولة الباحث المحقق "عمر رضا كحالة" في حفل مشهود، ورصع صدره بوسام الاستحقاق من الدرجة الأولى الذي منحه له الرئيس الراحل عربون تقدير لرائد قدير من رواد البحث الموسوعي، وتحية وفاء لمؤرخ نذر عمره للتوثيق والتحقيق وأثرى المكتبة العربية بأكثر من سبعين مجلداً، هدت الباحثين إلى كنوز التراث العلمي العربي، ووضعت بين أيديهم مراجع موثوقة في جلّ المعارف الإنسانية.

رحل "عمر رضا كحالة" في تشرين الثاني عام ١٩٨٧، وكان في الثمانين من عمره، وبقي اسمه متألقاً في سجل الخالدين، مع ابن عساكر والبستاني ووجدي والزركلي، وكوكبة الموسوعيين المجيدين الذين حموا تراثنا الفكري وأناروا للأجيال للسير في طريق الحضارة الإنسانية.

المصادر:

- التراث كان عمل حياتهم: أحمد شكري.
- مؤلف المعاجم الذي رحل: جان الكسان.
- مجلة المجمع العلمي العربي.



د. صلاح الدين المنجد:

مؤرخ ومحقق من طراز خاص: رؤية واضحة، ومنهج متميز

يعد الدكتور صلاح الدين المنجد عالماً من أعلام العروبة والإسلام في القرن العشرين، وواحد أصحاب الجهود الرائعة في تنشئة جيل من الأساتذة والباحثين، ومرشداً في مجال خدمة التراث الإسلامي، أثرى المكتبة العربية بأكثر من خمسين كتاباً محققاً، في مسيرة عمل دؤوب طوال أكثر من نصف قرن.. وهي اليوم مراجع أسيئة يعود إليها الباحثون والمهتمون بالتراث، فتعرفهم إلى وجوهه المضيئة، تدهمهم بالمعلومات المفيدة.

ولد الدكتور المنجد عام ١٩١٩ في حي الجسر الأبيض بدمشق، ونشأ في أسرة صلاح وعلم، وكان أبوه شيخاً وقوراً مهتماً بالفكر والعلم، ظهرت عليه إمارات النبوغ في حداثة المبكرة، حين طالع كتب التراث العربي، وتأمل في سرد الأخبار فيها، واستطاع أن يتجاوز مجرد السرد وجملته الأخبار إلى استخلاص ألواح مسرحية بديعة، ألف ونشر وهو في العشرينات من عمره كتيباً لطيفاً سمّاه (إبليس يغني) عام ١٩٤٣، كما نشر في هذا المجال كتباً جذابة مثل: (جمال المرأة عند العرب) و(الحياة الجنسية عند العرب) و(مؤلفات الحب عند العرب).

عين بعد تخرجه من معهد المعلمين، معلماً في مدارس المدينة، ثم نقل إلى دائرة الآثار وكانت أيامها ملحقة بالمجمع العلمي السوري، وأصدر في فترة مبكرة كتاباً قيماً تضمن معلومات واسعة عن دمشق القديمة (أسوارها، أبراجها، أبوابها) إضافة إلى كتاب أدبي عنوانه: (إبليس يغني).

أوفد عام ١٩٥٢ إلى فرنسا لدراسة "علم الوثائق"، وانصب اهتمامه على دراسة المخطوطات التي وجد منها ثروة في المكتبة الوطنية بباريس، فانكب عليها،

وأفاد منها ، وكان يزود وزارة التربية بدمشق بما يتحصل له منها، وواصل هذه الدراسة لمدة ثلاث سنوات حصل بعدها على شهادة الدكتوراة.

انتقل الدكتور المنجد إلى مصر حيث عين مديراً لمعهد المخطوطات العربية التابع لجامعة الدول العربية، وقد استطاع أن ينهض بمسؤوليات العمل الكبير في المعهد، وترك فيه بصمات تشهد له بالإخلاص والوفاء.

انتهى المنجد في أول عهده كباحث في علم الاجتماع، لأحوال الطبقات الاجتماعية، ولأسيما الطبقتين العليا المترفة، والسفلى الفقيرة البائسة، وعمد إلى عرض صفاتهما وخصائصهما وطرأز حياتهما في حاضرتين مشهورتين إحداهما قديمة: بغداد ، وثانيهما حديثة وهي: باريس، وذلك في كتابه (الظرفاء والشحاذون في بغداد وباريس) وكان عرضه لحياة الترف والبؤس يدفع لتعميم تلك الصفات تقريباً، مع اختلاف الزمان وتباين الملابس والظروف على جميع الحواضر الكبرى في العالم، فكانت بحوث المنجد وأعماله في تحقيق ذخائر التراث ونشرها، ومضات نور في ليل مظلم.

الدكتور المنجد باحث موسوعي في عصر انعدمت فيه الصفة الموسوعية أو كادت، نتيجة تضخم حجم المعرفة وتنوعها وتشابكها، فقد كتب في التاريخ عن الاستشراق والمستشرقين، ونشر أعمالاً بيبليوغرافية وفهارس للمخطوطات، ومن أبرز أعماله في هذا المجال: (أمثال المرأة عند العرب)، (الحوادث الكبرى في عصر بني أمية)، (أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب)، (معجم الخطاطين والنساخين والمصورين والمزوقين في الإسلام)، وألف في السياسة: (أعمدة النكبة) و(أسباب هزيمة حزيران ١٩٦٧).

من أهم المؤلفات التي عمل على تحقيقها (المختار من مخطوطات إيران وميونيخ وتونس والاتحاد السوفياتي)، (مقدمة تاريخ ابن عساکر)، (الأئمة الإثنى عشر لابن طولون)، (أمراء دمشق للصفيدي)، (الباشات والقضاة لابن جمعة المقار)، (ذيل مشتببه النسبة لابن رافع)، (مقدمة سير أعلام النبلاء)، (فضائل الشام

للمربعي)، (مختصر تنبيه الطالب للعلموي)، (مناقب الشيخ الأكبر ابن عربي للقاري)، (مادة ابن طولون في دائرة المعارف للبستاني)، (نوادير المخطوطات في المغرب وطهران)، (أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب)، (خطط دمشق)، (سيرة تقي الدين بن تيمية عند المؤرخين).

ومن آثاره: (معجم المخطوطات المطبوعة)، (فهرس مخطوطات الزيتونة بتونس)، (المؤرخون الدمشقيون وآثارهم المخطوطة من القرن الثالث إلى نهاية القرن العاشر)، (المؤرخون الدمشقيون في المعهد العثماني)، (معجم المؤرخين الدمشقيين وآثارهم المخطوطة والمطبوعة).

يتميز "المنجد" كذلك في فن كتابة المقال التاريخي، وهو ما يتصل بكتابته للتاريخ الإسلامي الاجتماعي، وذلك في اثنين من أهم أبوابه: التراجم وتاريخ المدن في شكل مقالات متميزة بوحدة الموضوع في إطار كل مجلد مستقل، وقد درس المجتمعات الإسلامية وإنجازها الثقافي متقيداً بالمنهج الذي تخصص فيه، وهو تحقيق ودراسة مخطوطات التراث الإسلامي، وقادته خبراته في هذا المجال إلى تسجيل ملاحظاته في شكل مقالات موجزة، تتسم بدقة الملاحظة عن مظاهر حضارية واجتماعية مختلفة، متعلقة بسير كبار المؤلفين والمدن الإسلامية ومظاهر الحياة الشعبية وحياة القصور، ويعتبر "المنجد" في هذا الموضوع مؤرخاً من طراز خاص له رؤيته وفكره الخاص، إضافة إلى منهجه المتميز .. ولهذا كانت كتاباته عظيمة القيمة ليس على صعيد الشكل والمنهج، وإنما على صعيد المضمون والمادة المعرفية الغنية بمعلومات وأفكار، مثلت وجوداً مستقلاً وموازياً لعمله في التحقيق والمقاربة والترجيح، كما أن مادة "المنجد" المتوافرة اليوم تصلح للاستخدام في مزيد من الدراسات المستقبلية.

إن الكتابة عن الباحث المحقق الدكتور "صلاح الدين المنجد" تشبه الخوض في أعالي البحار، لا يجرؤ عليه إلا من يجيد السباحة حتى لا يجرفه التيار ويبتلعه الماء.

لقد أغنى المكتبة العربية بدراساته القيمة، ووضع بين أيدي قرائه مجموعة مؤلفات وأبحاث تناولت اللغة العربية والتاريخ العربي الإسلامي، تاريخ المدن، تحقيق المخطوطات، تراجم الأعيان، وكتب الدواوين، وقد شكلت بمجموعها تصانيف معرفية أثرت الفكر العربي، وأثرت ثقافته الأدبية والتاريخية.

تراثنا المخطوط ينبوع الثقافة الإسلامية وصورة الحضارة العربية

ما زال تراثنا العربي والإسلامي المخطوط قضية قابلة للطرح والمناقشة في كل وقت .. فهي قضية قديمة لكنها لا تموت بالتقادم ... وهي جديدة لأنها تتجدد مع طرح أية قضية حضارية .. وفكرية معاصرة، وإذا كان الأجداد قد ذهبوا فإبائهم خلفوا لنا ما يجعل ذكراهم عطراً نقياً لكل الأزمنة .. والأمكنة.

لقد حفظ أولئك الصفوة من العلماء والأدباء والفلاسفة، والناهبين من خلال هذه المخطوطات، روائع نتاج العقل العربي الإسلامي في عصور كان فيها الظلام يسود في أوروبا وغيرها من الدول التي تنصدر واجهة الحضارة والمدنية الحديثة.

يقول د. المنجد: (المخطوطات العربية هي ينبوع الأول لمعرفة الثقافة الإسلامية العربية في مختلف ميادينها، وهي المرآة التي تعكس صورة الحضارة العربية بأجلى مظاهرها، فلا يمكن معرفة هذه الثقافة حق المعرفة، ولا إبراز الصورة الواضحة لتلك الحضارة إذا لم نرجع إلى هذا التراث العربي القديم المخطوط.

إن عدم الرجوع إلى هذا التراث جعل كثيراً من الدراسات الحديثة عن لغتنا وثقافتنا وتاريخنا ناقصاً أو سطحيّاً، لأن مؤلفيها لم يرجعوا إلى ينبوع الأول ويعبوا منه فلم يأتوا بجديد، بل نقل بعضهم عن بعض، وهناك جوانب كثيرة من حضارتنا ما تزال مجهولة، لم يسلط عليها النور، ولا سبيل إلى إتمام هذه الدراسات أو جلاء الكثير من الحقائق الحضارية الإسلامية إلا بالعودة إلى المخطوطات، والتزود منها قبل كل شيء، والعالم الحق في رأيي هو الذي يعرف المخطوطات وأماكنها ويرجع في أبحاثه إليها).

❖ ولكن الكثير من المخطوطات قد طبع والباحثون يرجعون إليه أفلا يكفي؟

(إن ما طبع من التراث العربي الموجود في العالم عدد ضئيل جداً، يقدر أن عدد المخطوطات العربية في العالم اليوم بثلاثة ملايين مخطوط، ولم يطبع حتى الآن نصف مليون منها، فتصور كم يمكن أن تمدنا الملايين الأخرى بمعارف جديدة نحتاج إليه؟).

■ وماذا عن مراكز تجمع هذه الملايين من المخطوطات ؟

(هذا السؤال يحتاج إلى كتاب ، وقد ألفت في جامعة الرياض، وجامعة الإمام محمد بن سعود، محاضرات عن هذا الموضوع ويمكن الإجابة بإيجاز أن المخطوطات العربية موجودة في كل بلد عربي وإسلامي تقريباً، من المحيط الأطلسي إلى الهند .. فنحن نجدها في مالي وموريتانيا والمغرب الأقصى، والجزائر وتونس وليبيا والسودان والصومال ونجدها في اليمن وحضرموت وعمان وقطر والكويت والسعودية، وفلسطين وسورية ولبنان وتركيا وإيران، وأفغانستان وباكستان والهند، ولا يكاد يخلو بلد أوروبي منها كإسبانية وفرنسا وإيطاليا ويوغوسلافيا، والاتحاد السوفياتي والسويد وهولندا وسويسرا وانكلترا وإرلندة ، كما أن في الولايات المتحدة مجموعات كبيرة منها).

وتختلف هذه المجموعات في قيمتها وعندها وقد زرت هذه الأماكن واطلعت على ما فيها من مخطوطات.

■ أما أعظم مراكز هذه المخطوطات فهي:

في الشرق أعظم مركز هو تركيا. وفي أوروبا أعظم مركز هو ألمانيا. وفي الولايات المتحدة الأمريكية جامعة برنستون.

■ هل هناك عناية بهذه المخطوطات .. وهل تمت فهرستها بصورة تساعد على الاستفادة منها؟

(من المؤلم أن كثيراً من المخطوطات العربية الموجودة في العالمين الإسلامي والعربي مازال ينقصها ما يجب من العناية والحفظ، كما أن عدداً كبيراً منها لم يفهرس حتى الآن، وقد نتج عن إهمال هذه المخطوطات في بعض البلدان تلفها أو ضياعها أو انتقالها إلى بلاد أخرى، فما زلنا لا نقدر الكتاب المخطوط حق قدره ولا نعطيه ما يستحق من الاحترام والاهتمام والعناية، وكثير منا حتى من ولاية أمورنا، يرون فيه أوراقاً صفراء بالية يجب أن ترمى، يضاف إلى ذلك أن الكثيرين من المشرفين على المخطوطات ليسوا من المختصين العارفين.

في حين أننا نجد البلاد الأوروبية والأمريكية تعنى بالمحافظة على تراثها محافظة تامة وتفتخر بها، وقد وضع المستشرقون فهارس لكثير من مجموعات المخطوطات الموجودة في بلادهم وهم يفيدون منها في دراساتهم، ولا أغالي إذا قلت لو كان ما في أوروبا وأمريكا من تراثنا العربي موجوداً عندنا لضاع منذ زمن بعيد).

■ وما هي الوسائل لاستعادة هذه المخطوطات من البلاد الأوروبية والأمريكية؟ هذا أمر مستحيل، لأن هذه المخطوطات قد أصبحت ملكاً للجامعات أو المكتبات العامة التي تحتفظ بها، وهي كما ذكرت تحافظ عليها أشد المحافظة وتراها مدعاة لفخرها ولا تفرط بورقة واحدة منها، وليس الأوروبيون والأمريكيون بملومين في اشتراء هذه المخطوطات أو حيازتها بطرق شتى، بل نحن الملومون في التفريط بها أو بيعها.

على أنه يمكن الحصول على صور لهذه المخطوطات باتفاقيات خاصة تجري بين الحكومات أو الجامعات أو المكتبات، كما أن العلماء الباحثين يستطيعون الحصول على هذه الصور بصفتهم العلمية للاستفادة منها في أبحاثهم.

■ وهل المخطوطات العربية كلها صالحة للنشر؟

في رأيي أنه لا يخلو مخطوط من فائدة، ولكن من المخطوطات ما هو نادر وهام ونحتاج إليه ومنها ما هو أقل شأنًا، ولابد أن يتعاون العلماء المختصون في كل بلد على وضع قوائم بالمخطوطات الهامة التي ينبغي نشرها ليختار المعنيون بالنشر منها، وقد فصلت القول عن هذا الأمر في دراسة لي اسمها (ماذا ننشر من المخطوطات وكيف ننشر).

■ أمام هذه الثروة .. ألا يدعو الأمر بصورة جدية لإنشاء معهد لتدريس كل ما يتعلق بالمخطوطات من دراسة الخطوط .. إلى معرفة قواعد الفهرسة وتحقيق النصوص؟

يجيب الدكتور المنجد: من المستحسن إنشاء مثل هذه المعاهد، وفي فرنسا معهد خاص للمخطوطات وعلم الوثائق، ومن الممكن أيضاً أن تعنى الجامعات في البلاد العربية في قسم اللغة العربية أو قسم المكتبات بتدريس هذه المسادة، فتعطي دروساً في الخط العربي وتطوره ومدارسه، والمخطوطات العربية في العالم، وقواعد فهرسة المخطوطات وقواعد تحقيق النصوص، وغير ذلك على أن يشرف عليها مختصون لهم تجربة سابقة.

■ هل تعتقدون أن معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية يكفي وحده لجمع التراث العربي مصوراً؟

لقد كان إنشاء معهد المخطوطات العربية في الأربعينيات مع هذا القرن حدثاً هاماً في تاريخنا الحديث، فلا شك أن محاولة جمع صور لنوادير المخطوطات من العالم ووضعها تحت تصرف الباحثين كان عظيماً وهاماً، وقد حقق المعهد أعمالاً عظيمة وأصبح له مكانة دولية، ولكن من المؤسف أنه تعثر في أعماله، فقد شغلت جامعة الدول العربية أن يكون الذين يديرونه من موظفيها غير الاختصاصيين بالمخطوطات، وإسناد الوظائف والأعمال إلى غير المختصين آفة تراها في كثير

من البلاد العربية، وقد قيل (إذا وكل الأمر لغير أهله فانتظر قيام الساعة). وأعتقد أنه مع التطور الثقافي والمادي في البلاد العربية اليوم أصبح من الممكن أن يقوم كل بلد عربي بإنشاء (معهد للمخطوطات)، أو (مركز وطني للبحث) خاص به تجمع فيه جميع المخطوطات التي تتعلق بتاريخ البلد وأدبه وعلمائه وماضيه، سواء كانت مخطوطات أو مصورات من مخطوطات العالم ليسهل على الباحثين في كل بلد الرجوع إلى المصادر المخطوطة التي يحتاجون إليها ببسر وسهولة.

إن معهد المخطوطات لم يعد وحده يكفي وهذا ما يجب أن يفكر فيه وزراء التعليم العالي ووزراء الثقافة في البلاد العربية.

فوضى وازدواجية:

■ الظاهرة الملموسة أن قضية تحقيق المخطوطات تحيط بها بعض المشاكل كالازدواجية في التحقيق .. والفوضى في طرق التحقيق .. ما هي الحلول المناسبة للقضاء على ما يحدث .. أو الحد منه على الأقل؟

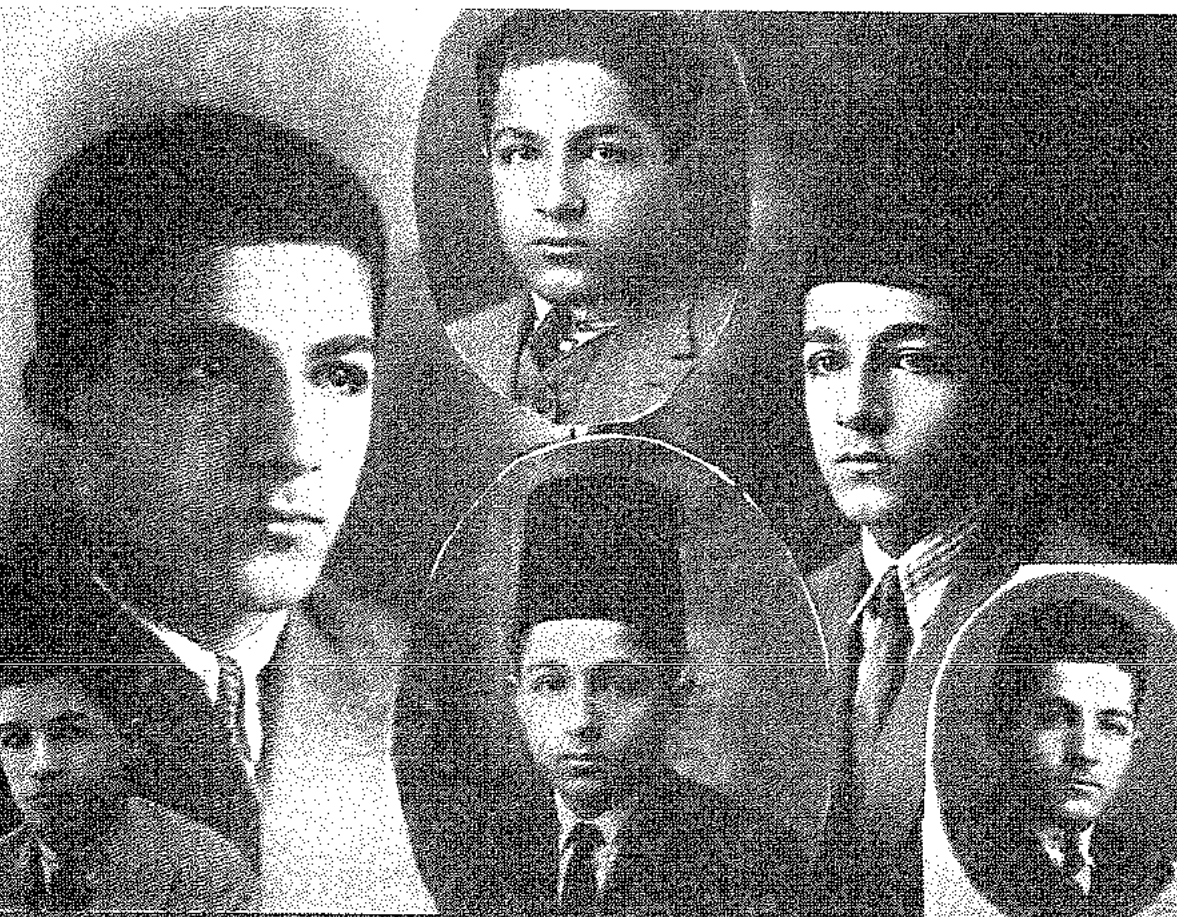
إن الفوضى في طرق التحقيق راجعة إلى أمور: أولها: جهل بعض المحققين بالقواعد المقررة للنشر، ثانيها: اختلاف بعض المحققين في فهم معنى التحقيق فالمعنى (الفيلولوجي) لهذه الكلمة كما هو عند العلماء الغربيين وعند علمائنا الأقدمين، هو إخراج النص المراد نشره صحيحاً كما وضعه مؤلفه والتعليق عليه بإيجاز ليكون واضحاً، لكن بعض الناشرين إظهاراً لعلمهم يكتشرون من الشرح والحواشي على النص، حتى تصبح أكثر من النص وحتى يصبح التحقيق (شرحاً)، ثم إن كثيرين من المبتدئين يخطون خبط عشواء ولا يستشيرون من هو أقدر منهم لغرورهم، فلا بد من توحيد طرق التحقيق واتباع قواعد ثابتة، وقد وضعت قواعد لتحقيق المخطوطات طبعت خمس طبعات ونقلت إلى الفرنسية والانكليزية، والإيطالية، والإسبانية، والفارسية، والتركية، وأعتقد أن هذه الفوضى ستزول شيئاً

فشيئاً، وخاصة إذا درست قواعد التحقيق في الجامعات.

أما الازدواجية في النشر .. أي أن ينشر الكتاب مرتين عالمان من بلدين مختلفين، فلا أرى فيه بأساً ولا يستدعي الضجة التي تنثار، فقد لاحظت في هذه الحالات أن إحدى الطبعتين تكون أحسن من الأخرى تحقيقاً أو كملاً وفي هذه فائدة وامتحان.

وسبب هذه الازدواجية هو عدم المعرفة، فالعالم في المغرب مثلاً لا يدري ماذا يحقق عالم آخر في الشرق، ويمكن حل هذه الأشكال مبدئياً بأن تخصص المجلات الاختصاصية والثقافية (أخبار التراث) بزاوية فيها، وكل من يبدأ تحقيق مخطوط يعلم هذه المجالات به، تنشر خبره، ويطلع عليه سائر العلماء فيحجم عن التحقيق من لم يكن بدأ فعلاً بالكتاب ... أو يتراسل المحققان فينزل أحدهما للأخر عن الكتاب، وقد نزلت مرة عن كتاب (الديارات) للشابشتي بعد أن حققته لصديقي العلامة كوركيس عواد العراقي، فنشره باسمه، والتراث العربي واسع، يكفي لمئات من المحققين في مئات من السنين.





الشيخ علي الطنطاوي:

خطاب ديني هادئ، يتجاوب مع روح العصر ويستوعب أساليب المواجهة

ليس في جيلنا أو الجيل الذي سبقنا، من لا يعرفه أو يسمع به ... فقد تتلمذ على يديه في كل مجال عمل به شيوخ وشبان، معلمون وطلاب، هو آخر العلماء الكبار الذين ملأ حضورهم القرن العشرين، حين أمضى أكثر من ستين عاماً عرف فيها بصولاته وجولاته في ميادين الدعوة والتوجيه والأدب والتاريخ، واشتهر في سنوات عمره الأخيرة في برامجه الإذاعية والتلفزيونية، التي خصصها لحل مشكلات الناس، وتزويدهم في مسائل العقيدة والعبادة ومختلف شؤون الحياة، إنه العلامة القدير الشيخ علي الطنطاوي، الفقيه الأديب والمحدث والخطيب.

ولد (الطنطاوي) بدمشق في حزيران عام ١٩٠٩ في أسرة علم ودين، انتقلت من مدينة طنطا مصر واستوطنت دمشق ... أبوه هو الشيخ مصطفى بن أحمد من العلماء وأمين الفتوى بدمشق، وخاله هو الكاتب الإسلامي والصحافي الشهير محب الدين الخطيب.

تعلم (الطنطاوي) بمدارس العاصمة: المدرسة الأهلية التي أدارها الشيخ عيد السفرجلاني، والمدرسة السلطانية الرسمية، وتابع تعليمه الثانوي بمكتب عنبر ... ليلتحق بعدها بكلية الحقوق وينال إجازته منها.

شغف من حداثة المبكرة بالمطالعة، ووجد في بيت الأسرة مكتبة غنية بالمصادر وبالذات ما يتعلق بالتراث الفكري الإسلامي، فأقبل على القراءة مبهوراً بتاريخ الأمة، وسير قادتها وأعلامها، مما كان له فيما بعد الأثر الكبير في إنتاجه الأدبي والتاريخي ..

رحلته في التعليم والقضاء:

عمل الطنطاوي بالتعليم في دمشق ثم تنقل بين بيروت وبغداد، ومكة والرياض، ثم تحول للعمل في القضاء فأصبح قاضي دمشق الممتاز، ثم مستشاراً في محكمة النقض بدمشق والقاهرة، وخلال هذه الفترة أنجز قانون الأحوال الشخصية، وقانون الإفتاء، وخطط مناهج الدروس الدينية لمدارس الأوقاف، كما درس في كلية دار العلوم بمصر، وانتقل في عام ١٩٦٣ إلى السعودية ليعمل بالتدريس في كلية اللغة العربية والشرعية، ثم بكلية الشريعة بمكة المكرمة، حتى تفرغه لبرامجه في الإذاعة والتلفزيون حيث حقق اقتراباً حميمياً من المشاهدين لما تمتع به من معارف واسعة، وثقافة شاملة وتسامح ديني يستوعب مشكلات الناس، ويجيب عن أسئلتهم بأريحية وأساليب مقنعة، تأخذ في الاعتبار مقتضيات العصر وتطورات المعيشة والطبيعة النفسية للباحثين عن نور الإيمان وهداية الرسالة السماوية، ومن المثير للدهشة أن الشيخ الطنطاوي كان في برامجه يرتجل الحديث دونما تردد أو خطأ، وكان على العهد به متألّفاً في أسلوبه، متأقلاً في صوغ عباراته، مشرقاً الديباجة ... وقبل هذا وذاك دقيقاً في اختيار مواضيعه وبحوثه التي جعل هدفها إضاءة السبل أمام قرائه، وتوجيههم إلى الهدف النبيل.

نشاطه الوطني:

كان الطنطاوي من أوائل العاملين في ميدان الدعوة الإسلامية خطيباً و كاتباً.. شارك في تأسيس الجمعيات الإسلامية ومن أقدمها: جمعية الهداية الإسلامية عام ١٣٥٠هـ، كما شارك بالعمل الوطني ضد الاحتلال الفرنسي لسوريا، من خلال موقعه كرئيس للجنة العليا لطلاب سوريا ١٩٢١، وشهدت تلك الفترة نشاطه الفعال سواء بالخطابة في المساجد والنوادي، أو بالمقالات الحماسية في الصحف، ووسائل الإعلام، ولم يشغله ذلك عن الاهتمام بقضايا المسلمين في الجزائر ومصر وباكستان وأندونيسا، والاندفاع لنصرة فلسطين، والدفاع عن قضيتها بكل ما أوتي من عزيمة وإيمان.

قلم رشيق، وبيان ساحر:

وهب الشيخ علي الطنطاوي ملكة التعبير الرائع عن أفكاره ومشاعره، وامتلك قلماً رشيقاً سجل به مقالاته ودراساته بأسلوب شيق تميز به عن الكثيرين من كتاب عصره، وهو معجب بهذا القلم إلى حد وصفه له بعبارة مدهشة يقول فيها: (هو قلم إن شئت لأن في يدي حتى ليخشن معه الحبر، وإن شئت صلب حتى يلين إلى جنبه الحديد، إن أردته هدية نبت من شقه الزهر، وقطر منه العطر، وإن أردته رزية حطمت به الصخر، وأحرقت الحجر، هو قلم عذب عند قوم، وعذاب عند آخرين).

وبفكره الوقاد، ولغته المعيرة، وبلاغته الرفيعة، وقلمه الساحر، أنجز الطنطاوي أعمالاً راقية في المقال والقصة والمسرحية، أشرعت لها الصحف والمجلات صدورها، وتنافست للفوز بها ونشرها... وقد حظيت مجلة (الرسالة) المصرية، التي أنشأها (أحمد حسن الزيات) منذ صدورها، بمكانة متقدمة في صدارة المجلات الأدبية، نظراً لإسهام الرواد من مفكري العروبة، وأعلام الأدب والشعر في تحريرها، وفي هؤلاء طه حسين وتوفيق الحكيم، وعباس محمود العقاد، والمازني، والرافعي، وتيمور، وغيرهم، وقد استطاع الطنطاوي أن يحتل موقعه

بجدارة بين هؤلاء، ونشرت له (الرسالة) مقالاته التي اختارها بعناية فائقة، وصاغها بأسلوبه الرشيق، فنالت إعجاب وتقدير النقاد والباحثين والقراء على حد سواء، وقد جمعت تلك المقالات الرصينة فيما بعد، في مؤلف صدر بعنوان: (الهيثميات).

الطنطاوي: صحفياً وخطيباً:

انضم (الطنطاوي) عام ١٩٣٠، إلى أسرة التحرير بجريدة (فتى العرب) التي أصدرها (معروف الأرنؤوط) وعمل بها شهوراً، ثم تحول للعمل مع الصحفي (يوسف عيسى) في جريدته (ألف باء) وكانت البلاد ترزح تحت نير الانتداب الفرنسي، ونيران الثورة الوطنية متأججة في صدور المجاهدين بالقلم والسلاح... وكان للصحافة دور بارز في إذكاء لهيب النضال، فانتقل (الطنطاوي) من جديد إلى جريدة الأيام ليسهم بدوره في فضح دسائس الاحتلال وخططه، وكثيراً ما شوهده (الطنطاوي) يخطب في المتظاهرين مثيراً حماسهم لمقاومة الغاصبين، كذلك أصدر في تلك الحقبة مجلته الإسلامية الشهرية (البعث) ... وحين دعاه خاله الباحث والأديب المعروف (محب الدين الخطيب) لزيارته في مصر، توجه إليها، وشارك في تحرير مجلتي (الفتح) و (الزهراء) اللتين أصدرهما الخطيب في القاهرة، ونشر فيهما بحثاً في السيرة والتراث الأدبي الإسلامي.

أثر الشيخ علي الطنطاوي، الإقامة في مكة المكرمة منذ عام ١٩٦٣، وفيها دبت حماسة متوقدة في نفسه للكتابة والتأليف...

تراثه الفكري ومؤلفاته:

وتوالى صدور كتبه التي نافذت عن خمسين مؤلفاً، في الأعلام، وفي التاريخ الإسلامي، والفتاوى، والخواطر، وحكايات الرحلات ... والذكريات... وفي هذه المؤلفات: حكايات من التاريخ ٧ أجزاء، أعلام التاريخ ٥ أجزاء، رجال من التاريخ، قصص من التاريخ، صور وخواطر، فكر ومباحث، مع الناس،

في سبيل الإصلاح، فصول إسلامية، من حديث النفس، هتاف المجد، مقالات في كلمات، فتاوى، صيد الخاطر، دمشق، من نفحات الحرم، بغداد، صور من الشرق في أندونيسيا، وأخيراً مذكراته التي صدرت بجدة في ثمانية أجزاء، تضمنت حكايات مسيرته الطويلة الرائعة، التي قدم لها بعباراته: "هذه ذكرياتي التي حملتها طوال حياتي، وعددتها أعلى مقتنياتي، لأجد فيها يوماً نفسي وأسترجع أمسي"، وقد عكست المذكرات صوراً شائعة من حياة الطنطاوي من بداية نشأته المتواضعة في حي "العقبة" بدمشق، مروراً بمراحل التعلم والتعليم، والعمل بالصحافة والقضاء، وأسفاره في الشرق والغرب، ولقاءاته مع رجال العلم والدين والجهاد، مما يجعل تلك المذكرات سجلاً أميناً وافيّاً، لتلك السنوات الطويلة التي عاشها مما يجعل تلك المذكرات سجلاً أميناً وافيّاً لتلك السنوات الطويلة التي عاشها "الطنطاوي" وما حفلت به من مواقف وأحداث تاريخية وإنسانية بالغة الأهمية.

إعلام متجاوب مع روح العصر:

تفرغ الشيخ الأديب في السنوات الأخيرة من حياته للعمل الإعلامي، فأعد وقدم برامج للإذاعة والتلفزيون، كان من أبرزها برنامجه اليومي "على مائدة الإفطار"، وفيه حقق تواصلاً حميمياً مع المشاهدين، لما تمتع به من قدرات معرفية ولغة راقية تمزج بين لغة الإعلام ولغة الأدب، وحكاية سرديّة تقترب كثيراً من روح العامة، وتحافظ في الوقت نفسه على العلاقة الوطيدة عميقة المغزى مع الطبقة المثقفة التي تجد في خطاب الديني والإعلامي مطلباً يتجاوب مع روح العصر، ويستوعب جيداً أساليب المواجهة، ومعالجة القضايا الاجتماعية بالحوار الهادئ، والروح المرححة التي تدفعه لإيراد الطرفة حيناً ومطالبة مخرج البرنامج حيناً بتذكيره بما نسي، كاسراً النمط الصارم في البرامج التلفزيونية السائدة.

توّج جهاد الشيخ (الطنطاوي)، وإنجازه الفكري الباهر، عام ١٩٩٠، بنيله جائزة الملك فيصل العالمية، عن جهوده في خدمة الإسلام، وتميزه بالعمل

المتواصل والبذل والعطاء طوال ستين عاماً في سائر المجالات التعليمية والثقافية والاجتماعية، واتسامه بالصمود والكفاح في ميدان التوعية ونشر الفكر الإسلامي، وبذل كل ما في استطاعته لرد الشبهة ونقض الأباطيل بال مناقشة وانفساده بالإبداع في مناهج القول والكتابة، متميزاً بالسهولة والطرافة والنفوذ إلى قلوب مستمعيه.. لم يعرف "الطنطاوي" التزمت ولم يرفض الحوار الديني، وأكد على ذلك بقوله: (إنني أكتب لأنفي صناعة المشيخة وإفهام الناس أن نجعل أمرنا بالمعروف، وأن نستن بسنة الرسول صلى الله عليه وسلم في الدعوة..

في التاسع عشر من حزيران ١٩٩٩ .. أشرفت رحلة الطنطاوي على نهايتها، وأذنت أشعة شمسها بالغروب بعد ما يقارب القرن من الزمان، وكانت رحلة فائقة الغنى، جمة العطاء، حافلة بألوان البذل لفائدة الأجيال، فكان جديراً بالتكريم والتقدير والعرفان على مدى الأيام.

أخذنا الحرية بسواعد الجهاد والتضحية

في عمر الإنسان ساعات هي العمر، تفتنى الليالي وتتقضي الأعمار وتخلد هذه الساعات ذكرى في قلوب البنين، وفي تاريخ الأمم أيام هي التاريخ، تمر السمنون متحدرة في درك الماضي، مسرعة إلى هوة النسيان، وتبقى هذه الأيام جديدة لا تبلى، دانية لا تتأى، مشرقة لا تغيب...

واليوم الأغر الذي أعاد لنا يوم حطين، وكان فجر اليوم الجديد للعرب بل للمسلمين أجمعين (يوم الجلاء).

إنه يوم معلم في موكب الزمان، إنه شعاره من شعائر المجد يقف عليها الفلك كلما دار دورته وقفة فيها خشوع وفيها فرح وفيها إجلال، إننا قد ابتهجنا بالجلاء وهتفنا له ورقصنا وصفقنا، وملأنا منازل العربية أنساً به وفرحاً، ولكننا لم نعرف قدر يوم الجلاء، إنما يعرفه من سيأتي بعدنا، يعرفه غداً من ينعم بظل هذه الشجرة التي نبتت اليوم، هنالك وقد امتدت فروعها ونمت حتى ظلمت بلاد العربية والإسلام، يقول أبناؤنا: ياما أكرم ذلك القضيب الطري الذي صار الجذع الضخم لهذه الدوحة الباسقة، وهنالك يبلغ من خطر هذا اليوم أنه سيجد الجبل الجديد شيوخاً قد لا تكون لهم مزية إلا أنهم رأوا هذا اليوم بعيونهم، وعاشوا فيه حقيقة لا بالخيال، وسجلت هؤلاء الشيوخ في صدور المحافل يحدثون الناس عن السذي رأوه، ويصفون كيف بدت نباشير الفجر المبارك، ليوم العروبة الجديد، وسيكون لكل حركة تحركناها اليوم وكل كلمة قلناها، معنى كبير لا نتصوره نحن الآن! سيسير هذا اليوم بتفضيلات وقائعه وحقائق أحداثه ملكاً للتاريخ الذي يقدر كل ما يدخل حماه، ويومئذ يعرف (يوم الجلاء).

لقد زعم العداة أننا فرحنا هذا الفرح لأننا أعطينا ما لم نكن نحلم به، كالفقير المسكين إذ يطلب فلساً فيمنح ديناراً، كلا! إننا لم نأخذ إلا الأقل من حقنا، إن الجلاء ليس عجباً، وإننا كان العجب العجاب أن يكون في ديار الإسلام احتلال، العجب أن

لا نحكم نحن الأرض ونحن خلقنا من أصلاب من حكموها، وورثنا القرآن الذي به دانّت لهم الأرض.

ولكننا فرحنا لأن الله جعلنا نقرأ هذا التاريخ الماجد العظيم قبل أن يكتب، وأن ندرك أول الإقبال كما شهدنا آخر الأقباء، فنحن المخضرمون .. وإذا كان نور التوحيد قد سطع من الحجاز فكانت المدينة عاصمة الراشدين، ثم مشى إلى دمشق فصارت دمشق عاصمة الأمويين، فكَذلك كان مطلع شمس الحرية بدت من الحجاز والجزيرة فكانت أول قطر لنا خلا من أجنبي، ثم امتدت أنوارها إلى دمشق ... وهي تمشي الآن إلى القاهرة وإلى بغداد، ثم نسلك طريق الأندلس، الفردوس الإسلامي المفقود الذي سيعود، والطريق الآخر الذي يصل إلى الس (باكستان) ديار الأطهار، فلا يبقى في ظلال المآذن كافر يحكم بغير ما أنزل الله!.

وزعموا أن هذا الجلاء قد أتى عفواً بلا تعب، وإنما لم نوجف عليه بخيل ولا ركاب، ولولا أنها جاءت به مصلحة الإنجليز ما جاء! وكذب هؤلاء الزاعمون ولؤموا...

كذبوا والله ... أو فليخبروني: أجاهدت أمة على ضعفها وقلة عددها، وعلى كثرة عدوها وقوته، مثلاً جاهدنا. إن في مصر العزيرة تسعة عشر مليوناً، وفي أندونيسية ثمانين مليوناً، وفي الهند مائة وعشرين مليوناً، من المسلمين، ونحن لا نعد كلنا بدونا وحضرنا، رجالنا ونساؤنا، أكثر من ثلاثة ملايين، وقد ابتلينا بفرنسا ذات الطيش والحمق والملايين المائة، والعدد والأوقات .. فسلوا الفرنسيين: هل أرحناهم يوماً واحداً من ميسلون إلى يوم الجلاء؟ أما ثرنا على فرنسا وكسرنا جيوشها في خمس مواقع؟ سلوا الجنرال ميشو القائد الذي حارب الألمان عند المارن: أما أباد حملته مجاهدون منا، لم يتعلموا في مدرسة حربية ولا درسوا فنون القتال، وغنمنا عتادها كله فلم يعد من الحملة بعد معركة المزرعة إلا مائتان وخمسون جندياً فقط! سلوا الغوطة عن معارك الزور وعما صنع حسن الخراط؟ سلوا النبك وجبالها، وحماة وسهولها، وحنارات الفرنسيين عن بطولة قادتنا

الأبطال، حسن الخراط، وسعيد العاص، ومحمد الخطيب، وعشرات إن لم أعدم اليوم، فما يجهلهم أحد!

أما ضرب الفرنسيون دمشق أقدم مدن الأرض العامرة بالقنابل مرتين، في عشرين سنة، أما أحرقوا حي الميدان وهو ثلث دمشق ودمروه فلم ينهض من كبوته إلى اليوم؟ أما أضرموا النار في جرمانا والمليحة وزبدين وداريسا وديسر مجدل والغزلانية وتل مسكن ودير سلمان وقرى أخرى لا يحصيها من كثرتها العد.

بل ساوا شوارع دمشق ودروبها وساحاتها، عن إضراباتها ومعاركها ومظاهراتها؟ أما لبثت في مطلع سنة ١٩٣٦ خمسين يوماً مضرية لا تجسد فيها حانوتاً واحداً مفتوحاً، مقفلة أسواقها كأنها موسكو حين دخلها نابليون، فتعطلت تجارة التاجر، وصناعة الصانع، وعاش هذا الشعب على الخبز القفار، وطوى ليله من لم يجد الخبز ثم لم يرتفع صوت واحد بشكوى، ولم يفكر رجل أو امرأة أو طفل بتذمر أو ضجر، بل كانوا جميعاً من العالم إلى الجاهل ومن الكبير إلى الصغير، راضين مبتهجين، يمشون ورؤوسهم مرفوعة، وجباههم عالية، ولم نسمع أن (بكاناً) من هذه الدكاكين قد مس أو تعدى عليه أحد، ولم يسمع أن لصاً قد مد يده خلال هذه الأيام، إلى مال، وقد كانت الأسواق كلها مطفأة الأنوار ليس عليها حارس ولا خفير، فهل قرأ أحد أو سمع إن بلداً في أوربة أو أميركا أو المريكخ يسير فيه اللصوص جياً ولا يمدون أيديهم إلى المال المعروض حرمة لأيام الجهاد الوطني؟ ولقد بقي الأولاد في المعسكر العام في المسجد (الأموي) أياماً طوالاً يرقبون وينظرون، فإذا فتح تاجر محله ذهبوا فأغلقوه .. ففتح (حلسواني) مشهور، فذهب بعض الأولاد فحملوا بضاعته، صدور (البقلاوة والنمورة والكنافة) إلى المسجد، وتشاوروا بينهم ماذا يفعلون بها؟ فقال قائل منهم نأكلها عقاباً له! فصاحوا به: احرص ويلك، هل نحن لصوص؟ ثم أرجعوها إليه بعد دقائق وما فيهم إلا جائع.

فهل قرأتم أو سمعتم أن صبيان باريز ولندن ونيويورك فعلوا مثله؟

وقد عمد الفرنسيون آخر أيام الإضراب إلى فتح المخازن قسراً، فكان أصحابها

يدعونها مفتوحة ولا يقتربون منها، وفيها أموالهم التي تعدل أرواحهم.

و(التبرعات)؟ ألم يكن الناس يعطونها من غير أن يطلبها منهم أحد؟ ألم يكونوا يتسابقون إلى دفعها، ألم يرفض كثير من الناس أخذ (الإعانات) ويقولوا أعطوها غيرنا ممن هم أحوج إليها منا، نحن نجد طعاماً هذا النهار!.

لقد وقع هذا وشاهدته أنا مراراً، فأَيَ وطنية أعظم من هذه الوطنية؟ وأي اتحاد أوثق من هذا الاتحاد الذي أصبح فيه المدينة كلها أسرة واحدة.

والبطولة والجهاد؟ ألم يفعل الشاميون الأفاعيل؟ ألم يهجموا على النار والحديد، ويقاوموا بالحجارة أعنف وأبشع ما وصلت إليه حضارة الغرب من ضروب التفتيل والإهلاك والتدمير؟ ألم يفتح الأطفال صدورهم للرصاص ألم يصمد الفتية العزل للجيش اللجب لا يزولون حتى يزول عن مكانه هذا الجبل، ثم يصدموه صدمة النرد للند، ثم لا ينجلي الغبار إلا عن حق يظفر أو شهيد يقتل، أو جريح يؤسر؟ ألم تلبث دمشق مدة الانتداب وهي في حرب؟ ساحتها وشوارعها ميادينها، لا تكساد تختفي منها الخنادق والأسلاك والرشاشات والدبابات حتى تعود فتظهر مرة أخرى، ولا تهدأ النار في ركن من أركانها حتى يندلع لسان النار في ركن آخر، ودمشق ثابتة على جهادها؟.

ألم يشيع الأمهات أبناءهن إلى المقبرة راضيات هاتفات؟ ألم يجاهد الطفل الصغير، والمرأة العجوز، والشيخ الفاني، ألم تمتلئ السجون بالأبرياء، ألم تضيق المقابر بالشهداء؟

فهل تكلم تاريخ هؤلاء الفرنسيين في آذانهم؟ هل عرفوا لهذا الشعب حقاً، هل قدروا له تضحيته؟ هل رفعوا قبعاتهم عن رؤوسهم حينما كانت تجوز بهم مواكب شهدائه؟ هل خشعت قلوبهم حينما رأوا مسيل دمايته؟ لا إنهم نسوا تلك السدوى الكاذبة، دعواهم أن أجدادهم هم الذين أعلنوا حقوق الإنسان، وأنهم غسلوا بدمائهم صفحة الاستبعاد والاستبداد، ونسوا ما كتبه روسو وفولتير ومنتسكيو، وما قاله ميرابو وسييس ولافايت، وما كان يكذب به الفرنسيون (أيام ثورتهم تلك) على

الشعوب إذ يعلنون أنهم نصراء المظلومين!.

إني ما خططت هذه الكلمات لأورخ فيها جهاد الشام فإنها تُولف فيه الأسفار الضخام، ويخلد حديثه على طول المدى، وما ذكرت نبأ إضراب الخمسين، لأتقصي أخباره وأجمع حوادثه، وإنما أردت أن أردّ كذبة مازلنا نسمعها حتى من الأصدقاء.. وما عظمة جهادنا في هذا الإضراب الشامل وحده، ولا في المظاهرات الدامية، ولا في القتال والنضال، بل العظمة في هذه التربية الوطنية العجيبة التي أثبتت فيها الشعب العربي في الشام أنه بلغ بها غاية الغايات، فكان في اتحاده واجتماعه على الفكرة الواحدة وتحمله الجوع والألم في سبيلها، وإقدامه على الموت من أجلها، مثلاً للشعوب القوية الحرة، وما ظنك بشعب فقير يدع فيه التاجر مخزنه والعامل مصنعه، والطالب مدرسته، ثم يؤلفون جميعاً صفّاً واحداً، ينتزع حقه من أقواه البنادق، ومنافذ الدبابات ويسجل جهاده على ثرى وطنه بمداد دمه؟ وما ظنك بشعب تودّع فيه المرأة ولدها، ثم تدفعه إلى الشوارع ليجاهد ويناضل، ثم ينعى إليها، ثم يحمل إلى دارها ميتاً فتغسله بيدها، وتخرج في جنازته تهتف وترغرد، ودموعها تسيل على خديها، وتدع المرأة أولادها بلا عشاء لتدفع المال للفقراء من أبناء الوطن...

أيقال لهذا الشعب إن استرد حريته، وجلا عن أرضه عدوه: لقد جاعك الجلاء عفواً وبلا تعب.

كلا إنها ما جاهدت أمة مثل جهادنا، ولا حملت مثل ما حملنا، إنا قد رأينا الموت، وألقنا الفقر، واعتدنا الجوع، وأصبحت مدينتنا بلاقع، وأهلها مفجوسين، ونساؤها ثاكلات، أفيكثّر علينا أن ننعم بالجلاء؟ أيقال أننا أخذناه بعد ذلك منحة من الإنكليز...؟

كلا ثم كلا، إنا أخذنا حقنا بعون الله ثم بعزائمناء، ولو والله عاد فاستلبه منا أهل الأرض مجتمعين لقارعناهم عليه، ونازلناهم حتى نستعيده كاملاً أو نموت دونه. وليس في الدنيا أقوى ممن يريد الموت، لأن الذي يريد الموت لا تخيفه وسائله ولا آلاته!



د. جميل سلطان:

الأدب في خدمة الأهداف الرفيعة والمثل العليا

هو ركن من أركان الأدب الراقى، وواحد من أعلام البلاغة والبيان، ومن أكثر الأدباء تأثراً بالثقافتين العربية الإسلامية، والغربية الحديثة ... وقد بدأ ذلك واضحاً في مؤلفاته ودراساته ومحاضراته الكثيرة، وتميز أسلوبه بمتانة اللغة، ونصاعة البيان، وسلامة التعبير، وحبك الجمل ورصفها، نتيجة لتأثره بلغة القرآن الكريم الذي حفظه في سن مبكرة، ومال إلى الأدب القديم أكثر من ميله إلى الأدب الحديث، رغم دراسته في الغرب لمدة ثلاث سنوات ... ويرجع ذلك إلى أنه نشأ نشأة دينية محافظة، وفي جو حريص كل الحرص على التمسك بأهداب الدين، وبالخصائص التي امتاز بها السلف، يتحدث د. سلطان عن نفسه فيقول:

(نشأت في بيئة عرفت بالجد والعلم والنقوى، إذ كان والدي في غاية الصلاح، وقد تأثرت بهذه البيئة كل التأثر، فسلكت في طلب العلم سبيلاً منظماً في جميع مراحل التعليم ... على أن الدراسة المنتظمة وحدها في المدارس الرسمية، لم تكن ترضي والدي، فتخير لي من علماء دمشق من درست عليهم البيان والبلاغة والعروض، ورسائل التوحيد والعقيدة، وأحسبني في هذا حلقة تجمع بين القديم والحديث ...).

الدكتور جميل سلطان أديب ومربى، وباحث، وشاعر، وأستاذ جامعي ولد عام ١٩٠٩ في دمشق في أسرة داغستانية الأصل، هاجرت إلى دمشق قبل أكثر من مئتي عام وأقامت فيها.

تعلم في مدارس دمشق، وتابع دراسته العليا في الجامعة السورية، فحاز على الإجازة في الحقوق وشهادة مدرسة الأدب العليا.

عين بعد تخرجه مدرساً للغة العربية والاجتماعيات في تجهيز أنطاكية بلواء
اسكندرون عام ١٩٣٥، ثم تنقل بين المدارس التجهيزية في حلب وحمص ودمشق
حتى عام ١٩٣٧، حين أوفنته وزارة المعارف إلى جامعة السوربون في باريس
لتحضير الدكتوراه في الآداب العربية، فنالها بدرجة مشرف جداً عام ١٩٤٠
بأطروحة عنوانها "دراسة نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب"، كما نال شهادة
مدرسة اللغات الشرقية، وشهادة مدرسة العلوم السياسية، وانتخب وهو هناك عضواً
في المجمع اللغوي للدراسات السامية.

عين بعد عودته مدرساً للغة العربية وآدابها في ثانويات دمشق حتى عام
١٩٤٥، ثم مديراً للمعارف في محافظة درعا، وفي عام ١٩٤٩ أستاذاً في كلية
الآداب بالجامعة السورية.

في عام ١٩٥١ عين مديراً عاماً للإذاعة السورية، ثم مديراً لثانوية جودت
الهاشمي، وفي عام ١٩٥٦ مديراً للتعليم الابتدائي في وزارة المعارف، وقد ظل في
هذا المنصب إلى أن قدم استقالته لأسباب صحية، بعد خدمة تجاوزت الثلاثين عاماً،
لينصرف إلى العمل الأدبي ... لكنه أنهك عينيه بعد هذه الرحلة الطويلة في ميدان
التأليف، فشح بصره جداً، حتى اضطر لأن يملئ ما يريد كتابته على أحد أبنائه.

انصفت أعمال الأديب الفكرية بمتانة اللغة ونصاعة البيان، وجمال الأسلوب،
فأورثته شهرة ومكانة بارزة ويعود ذلك إلى عوامل شتى، أهمها أن المجمع العلمي
وطد شهرة الشعراء الشباب بتكريمهم، وكان الشاعر أستاذاً ناجحاً، وكان اتصاله
بالشباب ومعرفتهم قدره الأدبي والعلمي من دواعي هذه الشهرة في المجتمع، انتسب
إلى نادي فيصل الثقافي، وكانت مؤلفاته قد شقت طريقها إلى الناس فسانتفعوا بها
وأفاضت عليه شهرة فائقة، وجاءت الإذاعة فكان من أكبر محدثيها، وحينما عقد
مؤتمر الأدباء العرب الثاني في بلودان كان مسن أعضاء الوفد الرسمي لذلك
المؤتمر، كما كان عضواً في معظم اللجان التي تؤلفها وزارة المعارف للبرامج
والفحوص العامة.

كان المجمع العلمي العربي (مجمع اللغة العربية) قد دعا الدكتور سلطان إلى إلقاء محاضرتين في ردهته، الأولى عن فن القصة في ١٢/٤/١٩٤٢، والثانية عن فن المقامة في ١/٢٢/١٩٤٣، ثم قامت جمعية التمدن الإسلامي التي كان ينتمي إليها، بطباعتها في كراس جاء في ست وخمسين صفحة.

تحدث الدكتور في المحاضرة الأولى عن دور القصص وأهميتها في حياة الناس، في الشرق والغرب على حد سواء، وأنها وجدت قديماً في أسفار العرب، وأشعار البطولة والحماسة والفخر، وأحاديث الهوى، وخواطر المعمرين، وطرف الصعاليك، وملحوم هوميروس، وأغاني شعراء التروبادور...

ثم تحدث عن شروط القصة الفنية، فقال: إنها يجب أن تقوم على البساطة، واجتناب التخميم والتحويل، وعلى إمكانية حدوثها في الحياة، وأن تكون مليئة بالحركة والحيوية، وذات مغزى أو هدف، وأن تكون موضوعية، خالية من كل صبغة شخصية، وأن لا تخلو من دعاية أو تهكم أو هزل أو نقد أو نكتة ولا يجوز الإطالة فيها لكي لا تسبب الملل والضجر عند القارئ، فالإطالة متعبة للقارئ بالإجمال، فإذا استطاع الكاتب توفير هذه الشروط الأساسية فيها، وأضاف إليها أسلوباً مشرقاً، ولغة ممتازة، بلغت قصته الكمال.

أما المقامة فهي في الأصل اسم لموضع القيام، ثم توسعوا فيها واستعملوها للمجلس والقوم المجتمعين، ثم للقصة الطريفة يتحدث بها الراوية، وينوع فيها المقال، فيشحنه بالشعر والأمثال والمواعظ الحسنة...

ثم تطورت شيئاً فشيئاً حتى صارت خطباً ومواعظ، وكلاماً منمقاً ومسجوعاً، يجري على ألسنة السائلين والمكدين الذين كانوا يملؤون المساجد والأسواق والأماكن التي يجتمع فيها الناس.

كان بديع الزمان الهمداني أول من أعطى فن المقامة أبعاده، بما أوتيته من ثقافة وفكر وخيال، فأصبحت على يديه نوعاً من الأدب الذي يقوم على قصة صغيرة من إبداع الخيال، أو تصوير الواقع وتحويره، مكتوبة بأسلوب أنيق الجميل،

مزخرف الألفاظ ... وهي ترمي بالإجمال إلى جمع شوارد اللغة وفصيحتها، وعيون مفرداتها وتراكيبها، وتدور حول بطل للقصة وراويها، ولا تكاد تخلو من نادرة، أو مفاجأة، أو غرابة، أو كياسة، أو طرفة من الطرف اللطيفة، ويحشد فيها كاتبها كل ما عنده من تورية، واقتباس، وحكم، وأمثال وغير ذلك من المحسنات اللفظية والمعنوية.

وتحدث الكاتب أخيراً عن خصائص الراوية والبطل في مقامات الهمذاني، وعن غايته من كتابة هذه المقامات، وأشهر من قلده وتأثروا خطاه كسابقين نباته المصري، والحريري، والمهروردي، وابن الجوزي، وأبي بكر الرازي، وعفيف الدين التلمساني، وابن الوردي، والسيوطي، والقسطاني، وشهاب الدين الألويسي، وصولاً إلى الكاتب المصري عبد الله فكري...

لقد برهن الدكتور سلطان في هاتين المحاضرتين القيمتين عن ثقافة عربية تراثية أصيلة، واطلاع واسع على تاريخ الأدب العربي وأشهر أعلامه ... لكن محاضراته عن فن المقامة كانت أطول وأعمق وأشمل من محاضراته عن فن القصة.

إنتاجه الأدبي:

يعتبر الدكتور سلطان من أشد الكتاب والشعراء تأثروا بالتقافتين الإسلامية والغربية الحديثة، ويظهر هذا في آثاره الشعرية والنثرية، ومقالاته ومؤلفاته على اختلاف مناحيها الأدبية، وكذلك نجد هذه الظاهرة من الثقافة العميقة في شعره الذي يجمع إلى جدة الأفكار وطرافتها ومثانة أسلوبها وأصالة البيان فيها، وهنا مجال الإشارة إلى تأثره بالقرآن الكريم وقد استمد الأسلوب واللغة من القرآن، واتخذ خطة مثالية فجعل الأدب في خدمة الأهداف الرفيعة، فالدين والأخلاق والوطن والعروبة والقومية وغيرها من المثل العليا هي التي يستهدفها في إنتاجه الأدبي، ولولا ما نعلم عن اتجاهه الديني والاجتماعي لقلنا إنه شاعر غزل وصاف، وله في الرثاء فصول

وهو لا يكتب في هذا أو غيره إلا متأثراً بالعاطفة وشاعراً بالموضوع، وهو في هذا أبعد الناس عن أن يتكلف ما يطلب منه إذا لم يكن يشعر به في ضميره.

مشاركته في النضال الوطني:

كانت الإضرابات في سوريا تتوالى احتجاجاً على السياسة الاستعمارية الفرنسية العاشمة، فأخذ د.سلطان يقود المظاهرات وينظم الشعر الحماسي في المناسبات الوطنية، وقد اعتقل مرات عدة وذاق ألوان التتكيل والعذاب، وكان الجيل الذي رافقه جيل نضال ومقاومة، إذ لم تكد تنفتح عيون أبنائه على الحياة، حتى رأوا أغلال الاستعمار تطوق البلاد، فثاروا وكان لمعلميهم ومدرسيهم الفضل الكبير في إنكاء الروح القومية والشعور الوطني، ولهذا كثر الشعر الوطني في شعر د. سلطان إلى جانب غيره من الموضوعات الوصفية والدينية والاجتماعية، وقد ظهرت في شعره آثار نهضة فنية جديدة تستهدف في معانيها خدمة الشعب وتصوير أفكاره والحديث عن النفس وجدانياً.

أما الحكمة فممنوعة في ثيابها كلامه، وأما الهجاء، فقد ترفع عنه وهو في حياته التعليمية والعلمية الأدبية الاجتماعية يعتبر ممن أدوا الرسالة المطلوبة من الأديب المفكر.

أعلن الدكتور جميل سلطان في آخر صفحة من كتابه "فنون الشعر" الصادر عام ١٩٣٧، أنه سيصدر ديواناً بعنوان "قلب الشاعر" لكن هذا الديوان المنتظر لم يصدر قط، وبقي شعره مطوياً في الأدراج حتى اليوم.

لقد عبر في هذا الشعر القليل الذي أطلعنا عليه عن تجارب في الحياة، واختلال موازينها، وفساد القيم الخلفية فيها، وما يصيب الإنسان السمو من إحباطات وخيبات وردود فعل تؤدي في النهاية إلى انطوائه، وعزلته، وبعده عن المجتمع والناس.

يقول في قصيدته "من غرائب التجارب":

وعلمتني سي السسنون	(عاشرت خلقاً كثيراً
يكون أو لا يكون	وشمت في الناس ما قد
عليه أحمرق دون	فرب عال تعالى
هو القوي الأمين	وخائن قيل عنه
لأنه لا يلين	ومخلص قاتلوه
شؤنه مافون	وكم حفيف تولى
يحار فيها القطمين	وحادثات الليالي
أجل منها السكون	البعث يحيى حياة
وثم خير دفين	فها هنا الشر يطغى
غريبة وشؤون	وكم دشتني أمور
في الكون ليس يهون	فلم أجد قسط شينا
يسوسهم مجنون)	كم شر عقلام

مؤلفاته: المطبوع من مؤلفاته:

كتاب (منهل الآداب) - (فنون الشعر) في أنواع الشعر العربي المختلفة -
أوزان الشعر وقوافيه - الموشحات - شاعر على سرير من ذهب عبد الله بن
رواحه - أبو تمام - جرير - صريع الغواني - النايغة الذبياني - في القصة
والمقامة - زهير، وكلها دراسات وافية ومراجع موثوق بها في الأدب.
وله في الفرنسية: (دراسة نهج البلاغة) وهي أوسع دراسة علمية مطبوعة
نال عنها المؤلف شهادة الدكتوراه من درجة مشرف جداً، وقد ترجمها إلى العربية
ولم تطبع.

وله تحقيق لمخطوط (أحاديث الشعر)، رواية الإمام عبد الغني بن عبد الواحد
الجماعيلي، دراسة مخطوطة عن حوادث دمشق اليومية بعنوان (دمشق الشام)

(منذ مائتي عام)، وقد طبعتهما مجلة التمدن الإسلامي كما طبعت له كتاب (في القصة والمقامة).

وله من الكتب المخطوطة: كثير من المحاضرات والكتب والمقالات، منها ما قنم في النوادي الأدبية أو نشر في المجالات مثل كتاب (زياد حكم الطرفين) وهو دراسة وافية، و(مشارع البيان)، و(سبيل السلام) ومحاضرات عن الدعوة الإسلامية، مما يعطي فكرة كاملة عن الجهد الأدبي الذي يتحلى به الأديب الراحل. تواصل عطاء المفكر القدير د. جميل سلطان إلى اليوم الأخير من رحلته الغنية في ميدان الإبداع الأدبي، وقد ودع الحياة في الثلاثين من آذار ١٩٧٩، بعد أن أدى رسالته الخيرة في خدمة الوطن والأجيال بصدق وأمانة، فاستحق التكريم والاعتزاز.

مختارات من شعره

من شعر الأديب د. جميل سلطان قصيدة بعنوان (عظة الصباح)

طاف حول النور أو ما قد هلك	(أوقد المصباح لا تحقل بما
يرحم النفس بهذا المعترك	كلنا يهفوا إلى النور ولا
من قراش ضل أو طير أرك	نحن أدري بأفئتين السردى
أترى يعلم عقبى ما ترك	ترك الروض إلى النور هوى
قص جنبيه ولم يلق الهلك	لو درى الهلك على آماله
مثلما طاف على المهد الملك	هذه الأحلام طافت حلو
عاصف الدهر وزعزاع القللك	وشيها الرانسع قد راح به
أدرك النور جناحي ما ملك	أدرك السدهر جناحيها كما
شأن كفيك بما قد هان لك	دهرك الجبار، لا يرعى المنى

ومن قصائده الوطنية الرائعة، التي فيها نبض روحه من ألم وتسام في الحس القومي قصيدة له بعنوان (أعد لي ذكر المجد) يقول فيها:

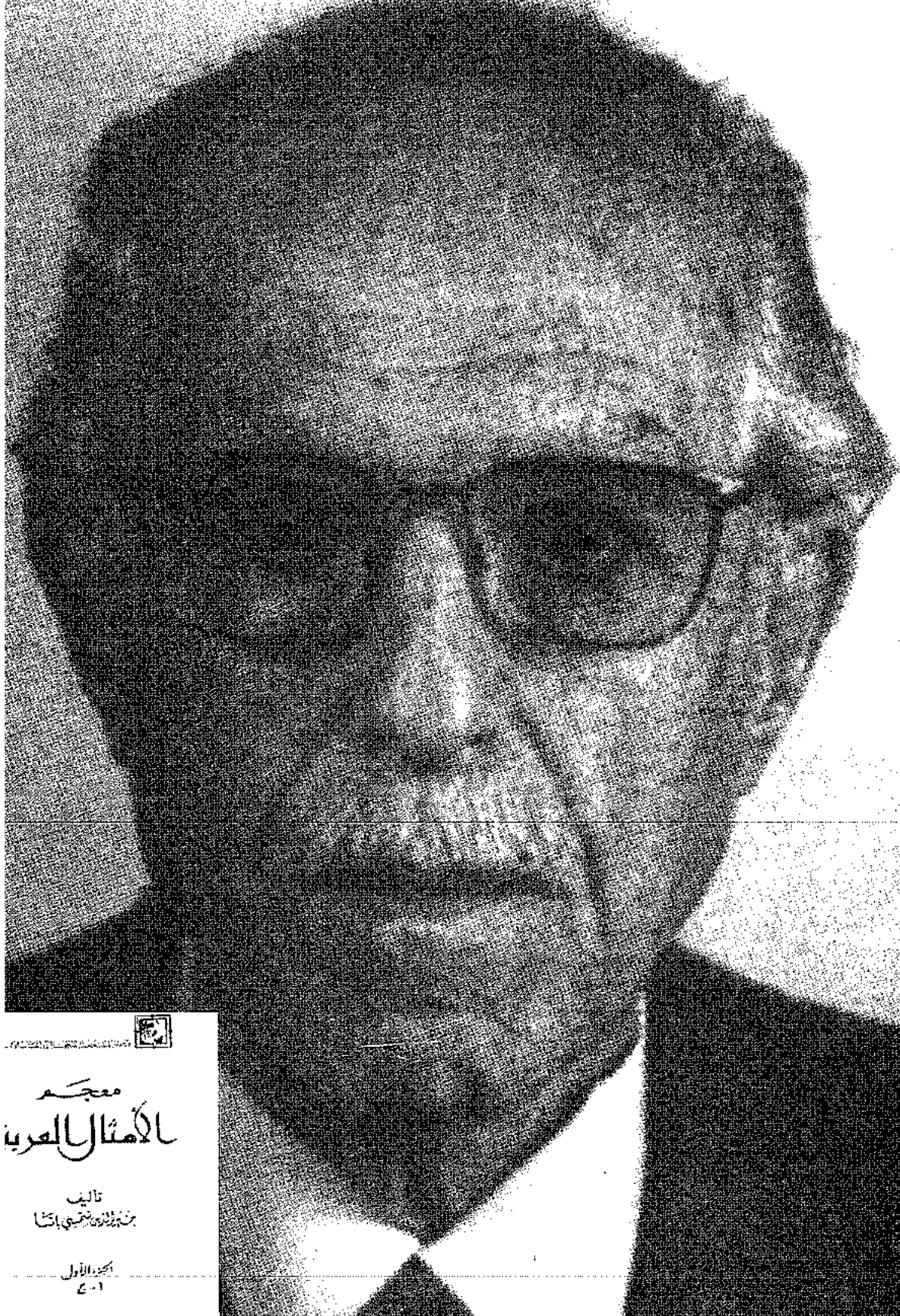
فإني نواق لعهد الأماجد	(أعد لي ذكرى المجد من كل تالد
نوازعها في الصدر غير هوامد	وما هز هذا القلب إلا صباية
يرد على الأبصار نور الفراقد	إذا ذكر الماضون ألفت نورها
سوى كل ميمون النقيبة واجد	وما حن للماضين إما ذكرتهم
فزاد بطول السيف طول السواعد	إذا لم يروا في السيف طولاً مشوا به
صروح المعالي راسخات القواعد	كذلك تبئى بالجماجم والسما
يهون على القربى وحكم الأبعاد	لعمرك ما في العيش خير لعاجز
إذا كان فيه الذل غير مجاهد	وما سرني أني أمت لمبدأ

سوى صرح مجد كالشوامخ مارد
ويمتد ظل الهون فوق المعابد
فترك العلى عار على كل والد
تشيد طريقاً خالداً فوق تالد.

فحيث يكون السيف والقلب لا ترى
وحيث يكون الضعف تنهزم العلى
إذا كان للأجساد مجسد مخلد
وإن بنساء المجد أيد تتابع

وفي قصيدته (الربيع) تجلت روائع الوصف والمعاني الرقيقة ومنها قوله:
واحمل إلى غصنه سحراً وأحاناً
واشعم من الزهر أشكالاً وأوانساً
وهل نشرت لسه ورداً وريحاناً؟

(يا مطرب الروض غاد الروض جذلاً
وانقل جناحك من غصن إلى فنن
هذا الربيع فهل حييت مقدمه



معجم
الأمثال العربية

تأليف
بنو يونس بن يحيى باشا

الطبعة الأولى
١٩٨٠

خير الدين شمسى باشا:

رحلة نصف قرن في حماية كنوز التراث ثروة من المصنفات الفكرية لإغناء المكتبة العربية وصون لغة العرب الخالدة

مددت يدي أصافح الرجل بمحبة ومن اللحظة الأولى قرأت في سمات وجهه سطور الرحلة الطويلة التي قام بها خلال نصف قرن من الزمن، سهر خلالها الليل مع عيون التراث الفكري العربي، وأعطى ضوء عينيه لمهمة جلييلة هي إزاحة الستار عن ألوان من العطاء الأدبي واللغوي العربي، واختيار الفرائد منها بأمانة الباحث وخبرة المدقق، وتقديمها للأجيال الجديدة في حلة متألفة مستكملة لكل شروط التحقيق والدراسة العلمية الراقية.

خطوات المسيرة الطويلة:

نفتحت مواهب الباحث "خير الدين شمسى باشا" في مطلع حياته، وفي المرحلة الأولى من تعليمه أحب اللغة العربية من خلال معلمه المربي المعروف "قري العمر"، الذي عرف تلامذته على أسرار العربية واختار لهم أجمل ما ضمه ديوان الشعر العربي من قصائد أعلامه المتقدمين، وقاده ذلك إلى الولع بالأدب وبتراث الأمة الفكرية الخالد.

انتقل بعد تخرجه إلى فلسطين والتحق مصححاً لغوياً بجريدة الدفاع التي كانت تصدر في "يافا"، ثم علم بمدارس القدس وعمل محرراً مساعداً للشيوخ "عبد العزيز الشعالبي" في تحرير مؤلف عن المؤتمر الإسلامي المنعقد بالقدس عام ١٩٣٠، واشتغل لسنوات في التجارة ولما عاد إلى دمشق أسس مع صديقه العلامة الراحل الشيخ مصطفى الزرقا "الندوة الثقافية السورية" وتفرغ للمطالعة والتصنيف.

يقول الباحث: كان التقاعد - بالنسبة لي - فاتحة مسيرة العطاء الوفير، وفتح تفرغي من أعباء العمل الطريق أمامي للقيام بواجبي نحو تراث الأمة ولغتها الخالدة وذلك من خلال محورين:

الأول: نشر المصنفات المخطوطات وهي بالعشرات جمعتها خلال سنوات بحثي في أمهات المؤلفات الأدبية لأرشد بها المكتبة العربية، وأغني ثروة الأبناء من عيون الإبداع الفكري العربي.

والثاني: حماية لغتنا العربية في زمن تتناوشها فيها المكائد الأجنبية بصور شتى، بهدف تهديمها ومحو هوية الأمة وعنوان حضارتها الأقدس.

ثروة من المصنفات الفكرية الخالدة:

قضى خير الدين شمسى باشا عشرين سنة كاملة ساهراً مثل راهب في صومعة نورانية، عاكفاً على كتب الأدب متتبّعاً ما تكنه من أسرار وأفكار، ويكتشف في صفحاتها ألواناً من الإبداع والإعجاز لم يتوقف السابقون عندها، ولم يقدموها بما هي خليقة به من الرعاية والاهتمام، وحينما بات أكيداً بأن ما أنجزه هو بحق جديد ومفيد بدأ بدفع أعماله إلى مؤسسات النشر، التي بادرت بدورها إلى احتضان أعماله المتألقة وإصدارها بالحلة الراقية الجديرة بها.

ظهر من مؤلفاته أولاً:

ديوان الرياض والأزهار، الذي تكون من ثلاثة أجزاء عرّض في أولها للرياض والمنتزهات في قصائد الشعر العربي، وكانت نشأته المبكرة في بيت عربي واسع حافل بأنصاف النباتات الغضة والزهور الناضرة، قد أورثته عشق الربيع وهداياه الملونة العاطرة، كما فعلت إطلالة شرفته على البساتين الخضراء الممتدة على مدى النظر فعلها في نفسه، وحرك مشاعره تتنبي الغصون في مهب النسيم وهديل الحمام في أوكارها مع البكور، فراح يجمع من قراءته لديوان الشعر

العربي كل ما تقع عليه عينه من قصائد في وصف الربيع والمروج والبساتين والرياض والجداول والأنهار والنواير، فكان هذا الجزء رحلة شائقة في عالم العطر والندى والطبيعة الساحرة.

في واحدة من أرق شواهد ينقل عن القاضي التتوخي قوله:

"أما ترى الروض قد وافاك مبتسماً ومد نحو الندامى للسلام يدا
فأخضر ناضر في أبيض يقق وأصفر فاقع في أحمر نُصدا
مثل الرقيب بدا للعاشقين ضحى فأحمرٌ ذا خجلاً وأصفرٌ ذا كمدا"

وخصص الباحث شمسي باشا الجزء الثاني للأزهار في الشعر العربي، وبدأه بمقدمة عن الصلة بين النور والزهر ثم طوّف مع القارئ في رحلة ماثرة استعرض فيها وصف الشعراء للطبيعة وما تتركز به من أصناف الزهر والورد، فمر على بضعة وثلاثين صنفاً منها، وخص لكل صنف صفحات تضم بدائع الشعر العربي فيها، ولو كان العرض يسمح لأهديت القارئ عشرات من الشواهد التي أشتمل عليها الكتاب في صفحاته الثلاثمائة، ناهيك عما زود الباحث به مؤلفه من مقدمات عرفت بتلك الألوان المتألقة من بدائع الأزهار، ولكنني انتقي شعراً في الورد وهو ملك الحقائق المتوج لأبي علي بن المعز:

ورد الخـــــــد أرق مــــن ورد الريحــــــــام وأنعــــــــم

هذا تنشّقه الأسوف وذا يقبله الفم
فإذا عدلتَ فأفضل السوردين ورد يَلْمُ
هذا يَشْمُ ولا يُضَمّ وذا يُضَمّ ويُسَمِّم

وأفرد الباحث الجزء الثالث من مؤلفه للأثمار، وبدأه بمقدمة عن الأثمار والقواكه في القرآن الكريم، ثم استعرض ثلاثين صنفاً منها خص كلاً منها بمقدمة

تعرف بها، وتذكر خواصها وفوائدها وأنواعها ومناطق زراعتها وأوصافها في مؤلفات المصنفين العرب، ومن المؤكد أن ما ناله التفاح من روائع الشعر فاق ما قيل في أصناف الفواكه الأخرى، كانت الأهل والأرق بين هذه الروائع تلك التي أفردتها الشعراء لتشبيه التفاحة بوجنتي المحبوب الموردين، أو بكأس المدامة الرقاقة يقول ابن رشيق القيرواني:

وتفاحة في كف ظبي أخذتها جناها من الغصن الذي مثل قدّه
حكّت لمس نهديه وطيب نسيمه وطعم ثنياه وحمرة خذه

ومما يسجل للباحث اهتمامه بجمع الشعر وفق مواضيعه بغض النظر عن تقدم ناظمه أو تأخره، وكذلك شرحه في الحواشي لمفردات الشعر التي وجد حاجة لشرحها كما رتب القصائد في كل موضوع بحسب القوافي تيسيراً للمراجع والباحث.

عمل موسوعي متميز:

وصدر للباحث شمسي باشا بعد ذلك سفره المتألق. معجم الأمثال العربية في ثلاثة مجلدات ضخمة تضم نيفاً وألفي صفحة من القطع الكبير، قَدّم فيها المؤلف أحد عشر ألفاً ومئتين وتسعة وعشرين مثلاً لم يسبق لمؤلف آخر أن عرضها وقد استمد مادتها من سبعة وعشرين مصدراً أساسياً، وشرح بالتفصيل كل مثل منها بعد أن رتبها على الحروف، مراعيّاً الأول والثاني والثالث فجاء المعجم دقيقاً للغاية في استيعاب الجمع وإحكام الترتيب وسعة الشرح المدعم بالشواهد والأخبار، والجدير بالملاحظة أن مئات الأمثال التي أوردها الميداني تحت عنوان أمثال المولدين أي الأمثال المستخدمة واكتفى بسردها، عمد الباحث شمسي باشا إلى شرحها وتفسيرها مع إيراد الشواهد وأبيات المعاني المناسبة لها، وقد صدر المعجم في إخراج أنيق

وطباعة راقية عن مركز الفیصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض، ومثل بحق موسوعة أدبية متميزة جديرة بالاعتزاز والإكبار.

عطاء متواصل في رحلة التحقيق والإحياء:

قدّم المؤلف للمكتبة العربية من جديد كتابه القيم "المنتخب من ديوان العرب". وهو مكون كسابقه من ثلاثة مجلدات فيما يجاوز الألفی صفحة، ضمت خمسة وعشرين ألف بيت من عیون الشعر العربي موزعة على ألف وخمسمائة موضوع في شتى مجالات الحياة، رتبها المؤلف في كل قافية بحسب المواضيع ترتيباً معجمياً، ثم ألحق بالمجلد الأخير فهرساً متميزاً في ٣٦٠ صفحة، ضمنه سلسلة المواضيع التي يشتمل عليها المعجم واسم الشاعر وأول البيت وآخره وعدد الأبيات ورقم الفقرة والصفحة، فيسر بذلك للمراجع عمل البحث والوصول إلى بغيته بأسهل صورة.

وجاء بعد ذلك مؤلف الباحث شمسي باشا المعنون: "مجمع الألغاز" وقد تكون من قسمين: الأول للألغاز الشعرية التي ضمت الألغاز اللفظية والألغاز المعنوية، والقسم الثاني خصصه للألغاز النثرية، والأحاجي، وختم كتابه بمجموعة من الألغاز العامة. بداية شرح الباحث في مقدمة واسعة الدلالة اللغوية للفظ الألغاز، ثم الدلالة الاصطلاحية لها والمستخدم في الشعر والنثر، وهي هنا مصطلح بلاغي يعني الإتيان بعبارة يدل ظاهرها على غير الموصوف بها، ويدل باطنها عليه، ويتوصل إلى معناها بالحدس والحزر، وعرض الباحث المصطلحات البلاغية المتصلة بالألغاز بعلاقة، عرضاً وافياً مميزاً بين دلالاتها الدقيقة كالإشارة والتعريض والتلميح والتمثيل والتوجيه والتورية وغيرها، مؤكداً بذلك ما يتمتع به من علم غزير وصبر كبير وجهد مضن، ولعل من أهم ما يميز هذا العمل هو توقف المصنف بشكل خاص أمام "الرمز" لما له من أهمية في الشعر، قديمه وحديثه، ولارتباطه بالصراعات السياسية والخوف من بطش السلطة. وهو بذلك يتقاطع مع

دلالات الرمز في الشعر المعاصر في كثير من جوانبه، ووفق المصنّف أيضاً في إيراد الشروح للألغاز - لغة ودلالة - في المتن غالباً وفي الحاشية أحياناً، وأرفق عمله بثلاثة فهارس، أولها لمصادر الجمع ومراجعته، وثانيها لعناوين أقسام الكتاب. وفصل في الثالث ورتّب الألغاز حسب حروف المعجم مع بيان رقم الصفحة بجانب رقم اللغز.

وثمة في أعمال الشاعر المنجزة مصنّفه: "محاسن حواء في ديوان الشعراء" أخرجته في جزئين (٨٠٠ صفحة) هو في الواقع موسوعة متكاملة في محاسن المرأة عامة، وينقل الباحث فيه قارئه إلى بستان مترع بالعطر والثمر وألوان الجمال المتألق، وقد تألفت شواهد التي جمعها من قديم الشعر وحديثه ورتبها وصنفها بدقة وموضوعية، ثم ختم مصنّفه بالفهارس الضرورية كما فعل في مؤلفاته الأخرى، ولهذا المصنّف ملحق مخطوط بعنوان: أشواق العشاق، وفيه ما قالت العرب في الغزل ووصف محاسن حواء.

إصدارات جديدة على الطريق:

تواصلت رحلة الباحث "شمسي باشا في عالم التأليف والتصنيف، وتسوالي إنجازته لمخطوطات جديدة بالعشرات، من بينها "شوارد الشواهد" عرض فيها الشعر الجاري على ألسنة الناس من دون أن يُعرف ناظمه، ومخطوطته: بديع الشعر في مراحل العمر، وتُشتمل على ما ورد في شعر العرب في مراحل العمر: الشباب، الشيب: الشيخوخة، وما يتعلق بها من مظاهر الصلح والخضاب وأثر الطعَام في الصحة والمرض.

وثمة في مخطوطات الباحث: بديع الشعر في الآباء والأبناء، وسجع الحمام، وظرف من السلف، ونوادر الظرفاء، وأخبار حواء في جدها وهزلها، وأباريز من التراث العربي، وسمات إنسانية حضارية من تراثنا، وعشرات غيرها من المخطوطات التي أنجزها الباحث وننتظر أن تخرج إلى النور في قَابل الأيام.

من المؤكد أن هذه المصنفات المطبوعة منها والمخطوطة خير شاهد على ما يمتلكه الباحث من ثقافة موسوعية ودأب فوق التصوّر على السسهر والبحث واستقصاء كنوز التراث الفكري العربي، وقبل ذلك كله عشق ذلك التراث والحرص على إخراجِه من عتمة النسيان، ليعود من جديد متألّفاً وناصباً بالسمو والجمال، وقد أغنى الباحث بذلك رحلة عمره وجعلها كثيرة النفع للأمة والأجيال القادمة، وحسبته ذلك الهدف النبيل.

الأمثال: ثمرة البلاغة وحكمة الزمان ..

الأمثال حكمة الدهور، وصدى التجارب، وخلاصة الفلسفة، وثمره البلاغة، تجري على الألسنة الموهوبة في خلال حديث، أو في أعقاب حادث، فتتأقلمها الأقواء، وتتوارثها الأجيال لوجازتها، وحسن صياغتها، وصدق مغزاها، حتى إذا وقع في الأمر ما يشبه الحال التي ورد فيها المثل تمثل به القائل، فيكون كالبرهان يؤيد قوله ويؤكدده، أو كالبيان يوضح معناه ويقرره.

والمثل: فن إنساني من فنون القول، لا يتميز به زمان على زمان، ولا تختص به أمة دون أمة، ولم يسر شيء كما سار، ولم يعم كما عم، حتى قالوا: أسير من مثل، والشاعر يقول:

ما أنست إلا مثل سائر يعرفه الجاهل والخاير

والمثل ميزة عن سائر فنون القول، في تقريب المعنى من فهم المخاطب، وتقديره في ذهن السامع، لذلك كان من الأساليب المختارة في الكتب المنزلة والأحاديث المرسلة والمواظ العامة.

بعض الأمثال التي وردت في القرآن الكريم:

أورد للقرآن الكريم الكثير من الأمثال للتفكير والتبصر والاحتكام إلى العقل، ووصف لنا بهذه الأمثال أخلاق المشركين واليهود: {أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى، فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين، مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله، ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون}. البقرة: ١٦، ١٧.

وما أروع من مثل يصف الذين اشتروا الضلالة بالهدى، واستبدلوا بنور

الهداية، ظلمات الإلحاد والكفر قال تعالى: {إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها، فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم، وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً، يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين}. البقرة: ٢٦. ومعظم هذه الأمثال أوردها الله بحق الكافرين من بني إسرائيل، ذلك أنهم عتوا وكذبوا الأنبياء وحرقوا كتابي الله اللذين أنزلهما على سيدنا موسى وعيسى عليهما السلام.

وبعض الأمثال التي وردت في القرآن الكريم تصلح لأن تكون ثوابت ومرتكزات لكثير من القوانين الدولية، ومنها قوله تعالى: {ولكم في القصص حياة يا أولي الألباب لعلمكم تتقون}، البقرة: ١٧٩. وقوله: {كتب عليكم القتال وهو كره لكم، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون}. البقرة: ٢١٦. وقوله: {ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم، كمثل جنة بربوة أصابها وابل فانت أكلها ضعفين، فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير}. البقرة: ٢٦٥.

وضرب الله الأمثال للذين أنكروا ميلاد عيسى بن مريم من دون والد، وبعضهم من قال وكفر بأن عيسى ابن الله، سبحانه وتعالى لم يلد ولم يولد: {إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب فيم قال له كن فيكون}. آل عمران: ٥٩. فبهذا الخطاب يبين الله أنه خلق آدم من دون والد ولا أم، وهذا أمر من أموره حين: كن فيكون.

والأمثال أوردها القرآن الكريم لأصحاب العقول ليتدبروا أمرهم وينتفعوا بحكمته: {وتلك الأمثال نضربها للناس، وما يعقلها إلا العالمون}. العنكبوت: ٤٣. وهي كثيرة يخاطب الله بها أصحاب العقول الكبيرة.

الأمثال في الأحاديث النبوية الشريفة:

في رحاب النبي - صلوات الله وسلامه عليه - تنتشر الروحانية الصادقة

وتشرق الحكمة الناطقة وتنبثق الموعظة الحسنة، ويأخذ العلم دوره الكريم في هداية المسلمين، ومجالس النبي مشرقة يحف به أصحابه الأظهر مضيئين كالنجوم، وادعين هادئين، ويطرح النبي - صلى الله عليه وسلم - المسألة من العلم، فتأخذ عقولهم المتفتحة باحثة وفاهمة، ويدير النبي صلى الله عليه وسلم دفعة الحوار بالمجلس ليرشدهم بحكمه وأمثاله كما في هذا الحديث:

(قال البخاري - رحمه الله - حدثنا قتيبة، حدثنا إسماعيل بن جعفر عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم فحدثوني ما هي؟)، فوقع الناس في شجر البوادي، قال عبد الله: ووقع في نفسي أنها النخلة فاستحييت، ثم قالوا حدثنا ما هي يا رسول الله، قال: (هي النخلة)).

في هذا الحديث الشريف محادثة طيبة، وحوار هادئ جميل، يطرح فيه النبي المعلم - صلوات الله عليه وسلامه - المسألة على أصحابه في جو من المطارحة العلمية الهادفة، وقد مثل صلوات الله عليه بجماد فقال: (إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثل المسلم..).

ويتضح وجه الشبه بين المسلم والنخلة بما تلتسمه من منافع النخلة حتى النوى في علف الدواب، واللف في الحبال، والسعف في بناء العرائش وظلها في الصحراء... الخ، فبركة المسلم عامة، في جميع الأحوال مثل بركة النخلة.

وفي حديث طويل قاله النبي - صلى الله عليه وسلم - في حجة الوداع، (... كلكم لأدم وآدم من تراب ...)، فحديثه - صلى الله عليه وسلم - مثل يصمد أمام الحقائق العلمية. وأصبح من القوانين الدولية، ومن مبادئ الأمم المتحدة، وقال - عليه الصلاة والسلام - (المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً...).

ومن الأمثلة الحكيمة قوله - عليه الصلاة والسلام - في الحديث الشريف الذي رواه الشيخان في صحيحيهما: (كلم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته).

وهذه الأمثلة من مآثر الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأمثاله الحكيمة.

الأمثال بعضها واقعية وأخرى فرضية:

تنقسم الأمثال قسمين: أمثال واقعية، وأمثال فرضية.

فالواقعية: ما انتزعت من واقع الحياة، وأعمال الناس كقولهم: (رجع بخفي حنين)، وأصله أن إسكافياً من أهل الحيرة يسمى حينئذٍ ساومه أعرابي على خفين يشتريهما منه، فاختلفا حتى أغضبه الأعرابي، فأراد حنين أن يكيد له، فلما انقضت السوق أخذ أحد الخفين، وألقاه في الطريق الذي يعود منه الأعرابي إلى أهله، ثم ألقى الآخر بموضع آخر من الطريق وكمن عنده فلما مر الأعرابي بالخف الأول: قال في نفسه: ما أشبه هذا الخف بخف حنين، لو كان معه صاحبه لأخذته، فلما مر بالآخر ندم على تركه الأول، وأناخ بغيره وعاد في الطريق يبحث عنه، فخرج حنين من مكمنه، وأخذ الجمل بما حمل، ورجع الأعرابي إلى أهله بخفي حنين.

والأمثال الفرضية: ما افترض وقوعها على ألسنة الحيوان، أو النباتات، أو الجماد، كقول الإمام علي - رضي الله عنه - حينما رأى تخاذل أصحابه، واختلاف من اختلف فيه، وخروج من خرج عليه: (إنما أكلتُ يوم أكلَ الثور الأبيض)، يعني أنه خذل يوم خذل عثمان، وأصل المثل أن أسداً وثوراً أبيض، وثوراً أسود، وثوراً أحمر، عقدوا في بعض الأجمات - غابات - معاهدة صداقة، فقال الأسد ذات يوم للثورين الأحمر والأسود: (إن هذا الأبيض يكشفنا للناس بلونه، فإذا تركتماني أكله أمنا من الناس واتقينا الفضيحة، فأدنا له في أكله، ثم قال للأحمر: هذا الأسود يخالف لوني ولونك: ولو بقيتُ أنا وأنت، لظنك من يراك أسداً مثلي، فدعني أكله، فسكت عنه وأكله، ثم قال للثور الأحمر: لم يبق إلا أنا وأنت، وأريد أن أكل، فقال له الثور: إن كنت فاعلاً - ولا بد - فدعني أصعد هذه الهضبة، وأصبح ثلاثاً صيحات فقال له الأسد: أفعل ما تريد، فصعد الهضبة وصاح ثلاث مرات، يقول: (إلا إنما أكلتُ يوم أكلَ الثور الأبيض).

والأغراض من الأمثال الواقعية لا تكاد تُعدّ ولا تُحدّ، لأنها لفتات من الذهن، وفتات من اللسان، تقال عفو الساعة، وفيض خاطر، في شتى المناسبات، فتعلق بالأذهان لاشتمالها على حكمة أو لدالاتها على طبع أو خلق، وهي صورة للطباع، ومراة للمجتمع، ومن الأمثال الاجتماعية ما يكشف عن عقلية القائل، وطبيعة بيئته، كذلك المثل الذي سار عن ذلك الأعرابي القاسي الذي حكم على رجل جنى على نفسه بعقوبة فظيمة من غير شفقة ولا رحمة، قالوا: إن رجلاً أراد أن يعبر نهراً وهو لا يحسن السباحة، فنفع قربة وربطها وعاى عليها، فلما توسط النهر أنفك الرباط وخرجت الريح وأوشك الرجل أن يغرق، فاستغاى بأعرابي على الشاطئ فتركه يغرق، وقال له: (بدالك أوكنا وفوك نفخ)، يعني أنه هو الذي نفخ القربة بفمه، وربط فمها بيده، فجنى على نفسه، ولم يحن عليه.

والأمثال الواقعية قلما تسير إلا في الأمة التي نشأت فيها كقول امرئ القيس، حين بلغه موت أبيه، وهو عاكف على اللعب: (اليوم خمر وغداً أمر)، وقول يوليوس قيصر لأقرب الناس إليه وأعزهم عليه، وقد انتسر به مع المتأسرين ليقتلوه: (حتى أنت يا بروتس...).

ولكن الأمثال الفرضية عالمية تتناقلها الأفواه من قبيل إلى قبيل، وتتوارثها الأعقاب من جيل إلى جيل، والغرض المقصود منها تقويم الأخلاق بالحكمة، ورياضة النفوس بالموعظة، من طريق التعويض والرمز وهذه الأمثال وليدة الشرق، لأنه كان موضع الحكم المطلق والاستبدال العنيف، انبعث من صدور الضعفاء المستعبدین صدى خافتاً لاحتجاج مكظوم صامت، لم يجدوا له متفصلاً ولا طريقاً إلى آذان الأقوياء المستبدین، إلا هذه الكتابات والرموز، يسترون وراءها ما يريدون من نصيحة وعظة، وربما عرض الأمر الذي ينكل عنه عقل الطاغية، فيحتاج إلى المشورة، فيلجئهم عنها بالخوف والهيبة فيلجئون إلى هذه الأمثال يضربونها، فيدركون بها ما يريدون من غير تعرض لسخط، ولا مواجهة لخطر، فقد ذكروا أن الطاعون فتا سنة بدمشق، فیم عبد الملك بن مروان بالفرار منها،

فدخل بعض الفضلاء وقال: بلغني يا أمير المؤمنين أن ثعلباً صادقاً أسداً على أن يجيره من السباع، فكان أبدأ بين يديه، فظهر في يوم من الأيام عقاب في الجو فخافه الثعلب ووثب على ظهر الأسد، فانقض عليه العقاب واختطفه، فصاح الثعلب: يا أبا الحارث: العهد، العهد، فقال الأسد: (إنما عاهدتك على أن أحفظك من أهل الأرض، أما أهل السماء فلا قبل لي بهم). فلما سمع عبد الملك ذلك قال: لقد وعظمتي، ثم أبى أن يفارق المدينة، وربما احتالوا ببراعة المثل ولطف مدخله لنيل مآرب، أو دفع بلية، وقد نشأت الأمثال الفرضية أو الرمزية في بلاد الهند، ثم انتشرت منها في الصين، ثم انتقلت إلى فارس، ثم إلى بلاد العرب، ثم إلى بلاد الإغريق، وأشهر من كتب فيها من أدباء العرب: ابن المقفع مترجم (كليلة ودمنة)، وسهل بن هارون في كتابه (ثعلبة وعفرة) الذي وضعه على نسق كليلة ودمنة، وقد عالجه بعض الأدباء في العصر الحديث، فوقفوا فيها، أمثال أحمد شوقي في الشوقيات.

بعض الأمثال عند بعض الشعوب:

ولكل شعب من الشعوب خصال من المدح والذم، رسخت في أصوله بحكم الفطرة، فتناقلتها الأجيال، وسارت بها الأمثال، وتندرت بها المجالس، فكما تضرب الأمثال بالسكسونيين في البرود والصبر والأناة، تضرب باللاتينيين في الحدة والتهور، وكما تضرب بالأمثال بشجاعة العرب وكرمهم، تضرب باليهود الأمثال في حبهم للمال وفي لؤمهم وبخلهم وجبنهم، ومن الأمثال التي وردت في بني إسرائيل قوله تعالى: (مثل الذين حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا، كمثل حمار يحمل أسفراً بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله). الجمعة: ٥. أرسل الله سيدنا موسى بالتوراة إلى بني إسرائيل وكلفهم العمل بما فيها فلم يعملوا، فكان مثلهم مثل الحمار الذي يحمل فوق ظهره الكتب القيمة، ولا ينتفع بها لجهله، وقلة عقله.

ومن أمثال العرب في حب اليهود للمال، قول حافظ إبراهيم يصف غادته

(كنت أهوى في زماني عادة وهب الله لها ما وهبها
ذات وجه مزج الحسن به صفوة تنسي اليهود الذهب)

ومن الطريف ما يتداعب به الناس على حب اليهود للمال، أن حاخاماً كان عائداً من الكنيسة مساء السبت، فأبصر على جانب الطريق قطعة من النقود الذهبية، فوقف أمامها جامداً، كأنما سمرت قدماه في الأرض، ماذا يعمل؟ أيلتقطها ودينه يحرم عليه أن يقبض مالاً، أو يعمل عملاً يوم السبت؟ أم يتركها، وطبيعته تسألي عليه أن يترك قطعة من قلبه، وشعلة من روحه؟ وأخيراً اهتدى إلى حل يوفق بين عقيدته وطبيعته، فخلع رداءه وطرحه على القطعة الذهبية ونام فوقه حتى طلع فجر يوم الأحد.

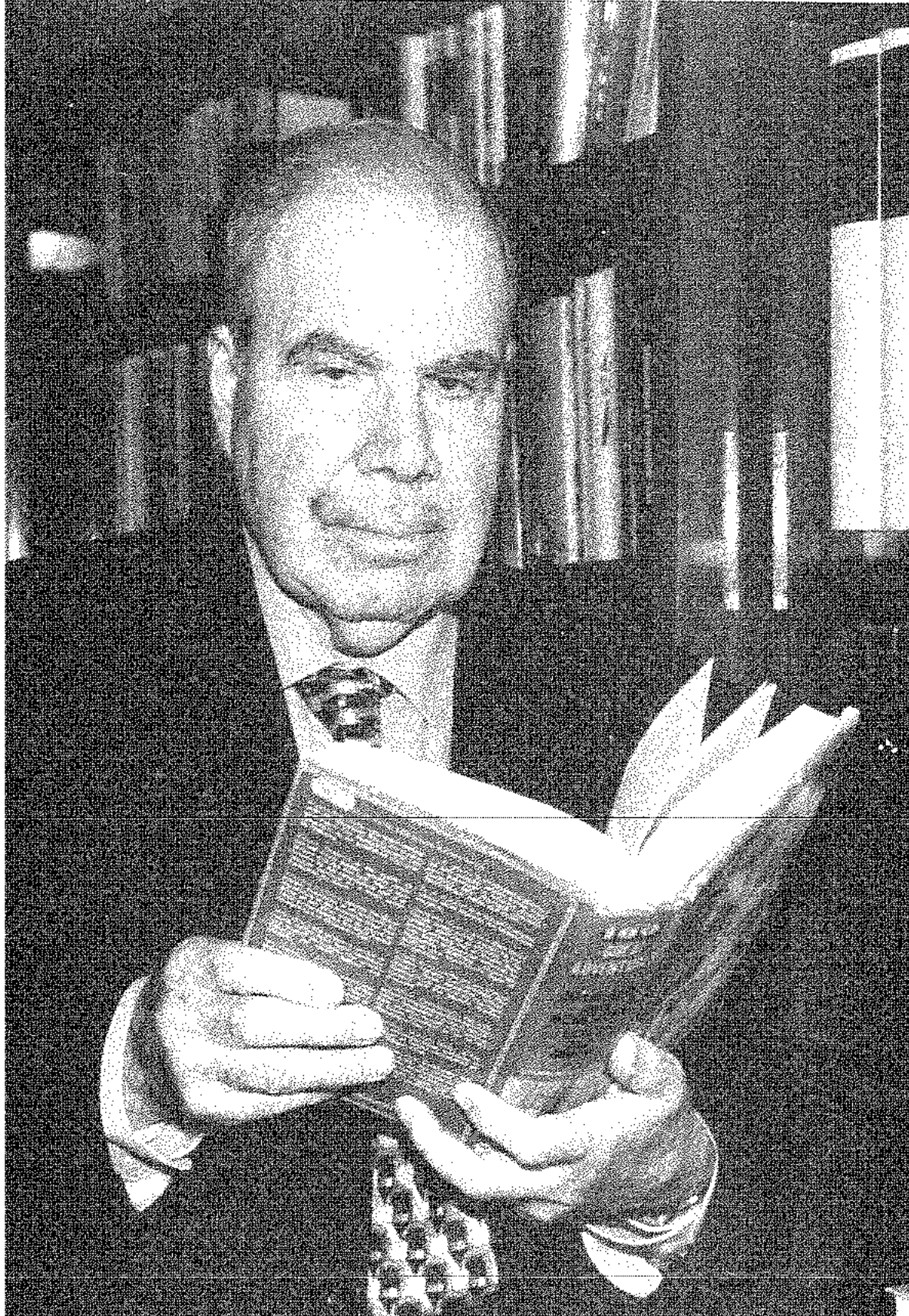
على أنهم بهذا المال المعبود، استطاعوا أن يشتروا إجتراء، وأن يحكموا أمريكا، وأن يغتصبوا فلسطين مشرق الهدى والسلام، ومجنتلى عين موسى ومسرح قلب عيسى، ومسرى محمد - صلى الله عليه وسلم - وقبلة الإسلام الأولى، وقلسب العروبة النابض ووطن مليون ونصف مليون من العرب المسلمين.

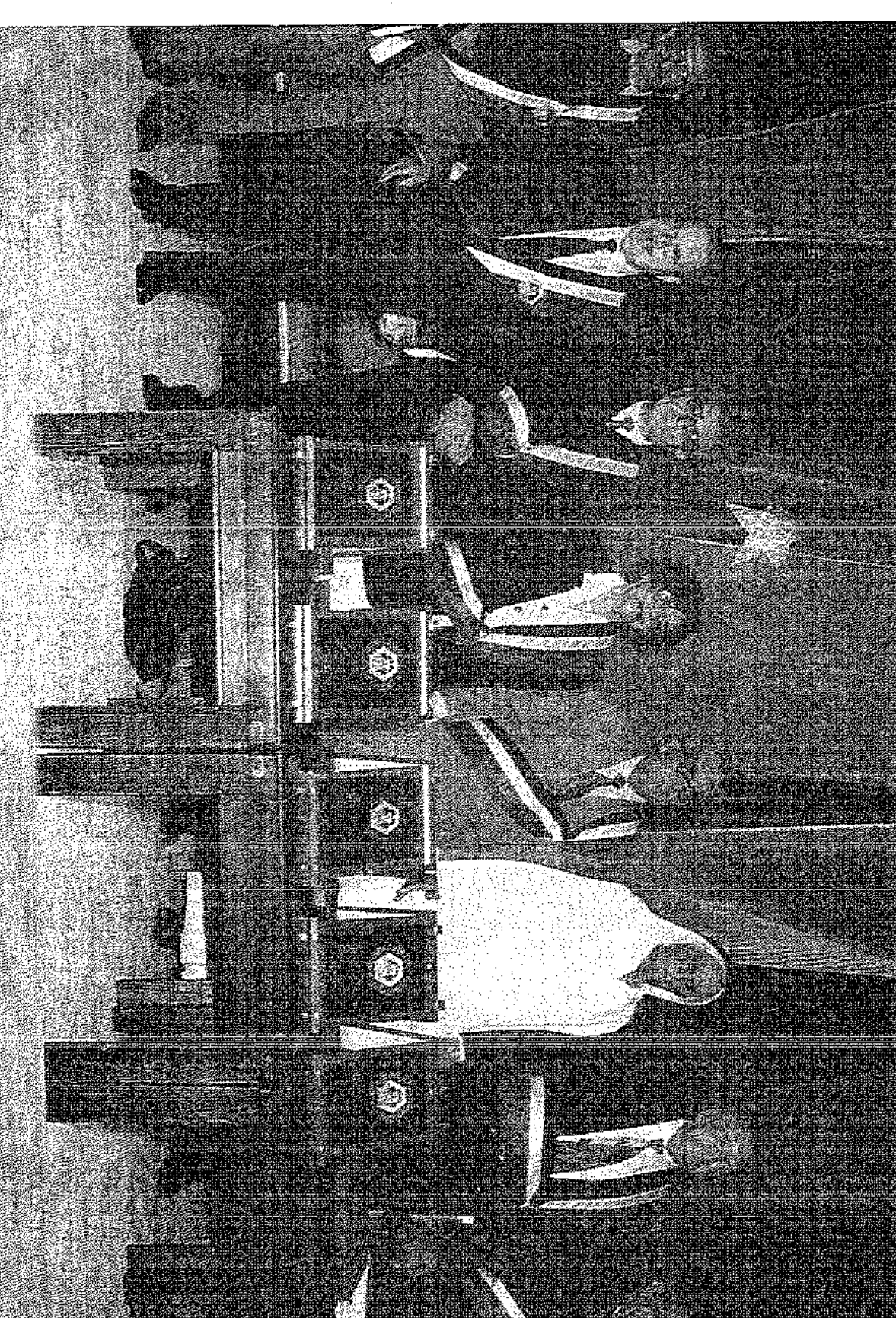
ومن تلك الأمثال قول العرب: (أذل من يهود يثرب)، وذلك أن يهود المدينة كانوا قد عاهدوا الرسول - صلى الله عليه وسلم - على الأمان والضمان، ولكنهم نقضوا العهد وظاهروا العدو، وانتمروا بالرسول ليقتلوه، فحاربهم المسلمون حتى أجلوهم عن يثرب إلى الشام وخيبر، فكان اليهودي إذا دخل يثرب، دخلها ذليل النفس، وضيع المكانة.

ومن أمثال الأندلسيين فيهم قولهم: (أضل من اليهودي التائه)، وهو رمز على شعب إسرائيل، بعد أن مزقهم الله في الآفاق، وضرب عليهم الذلة والمسكنة، وأصل المثل أن المسيح - عليه السلام - مر بدار أحد اليهود، وهو منهك القوة من ثقل ما

يحمل، مكروب النفس من شدة ما يعاني، فأراد أن يستريح قليلاً في ظل الدار، فدفعه اليهودي عن ظلها بقسوة وشدة، فقال له المسيح وهو يخاطب في شخصه كل اليهود: (ستظل تائهاً في الأرض حتى أعود).

إن لعنة الله ودعوة المسيح لا تزالان تحرقان قدمي كل يهودي، فهو لا تثبت له قدم في أرض، ولا تطمئن له نفس في وطن، وكان من أثر ضلاله البعيد في الأرض، أن اكتسب أخلاق العجر - الزط - فهو يلص ليعيش، ويخدع ليغلب، ويتوحش ليأمن، ويتعصب ليدافع، حتى انقطعت بينه وبين الناس علائق النوع، فأصبح خلقاً آخر لا يألف ولا يؤلف، فمحاولة إسكانه في غير أهله، وفي غير أرضه، تكذيب لكلمة الله، وتزوير على قانون الطبيعة، ولن تدوم بإذن الله: **لُعِنَ** الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم، **ذلك** بما عصوا وكانوا يعتدون. كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، لبئس ما كانوا يفعلون}. المائدة ٧٨، ٧٩.





الدكتور عبد الله عبد الدائم :

وضع إستراتيجية التربية العربية، وأسس لفكر قومي أصيل

أتاح لي المفكر الرائد "الدكتور عبد الله عبد الدائم" لقاءه مرات عديدة، وكنت في كل مرة أجلس مصغيّاً إليه بكل حواسي، متلقفاً بالمتعة والمحبة أحاديثه الفكرية العميقة، الصادرة من عقل متفتح مبدع، وقلب فياض بالمشاعر الصادقة ... وتمضي الساعات كأنها دقائق، وهو متدفق يؤكد قناعاته الفكرية التي أمضى سنوات عمره ينادي بها ويدافع عنها بحماس وصلابة، وأنا أعترف بأن تلك الساعات الحميمية كانت تملؤني بسعادة لا توصف، ورحلت أتمنى في كل لقاء أن يطول ويمتد أكثر وأكثر، لولا خشيتي من إرهاقه وهو في هذه السن المتقدمة.

ولقد كتبت وكتب الكثيرون ممن يعرفون قدر هذا المفكر المقتدر، الذي مثل بحق عبقرية متميزة نذرت فكرها المتوقد لأسمى قضايا الأمة العربية: التربية والنضال من أجل الوحدة العربية، وهما وحدهما السبيل لانتشال الأمة من وهدة التخلف والتفكك، واستعادة مجدها المنيع الخالد، وهو في هذا السياق يمثل امتداداً متطوراً لسطاع الحصري بل لعلّه كان أكثر عمقاً منه في طرح وتبسيط وتحليل الظاهرة القومية "كوجود ومصير للأمة العربية"، وما هو مطلوب لتكسب هذه الظاهرة حالة سلوكية تربوية وثقافية لجيل يتطلع إلى الوحدة والقوة بل والثورة، وإلى بناء وطن ممتد من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق، ومن جبال طوروس في الشمال إلى جزيرة العرب في الجنوب.

بدايات المسيرة:

ولد الدكتور "عبد الله عبد الدائم" بمدينة حلب عام ١٩٢٤، ونشأ في أسرة أنجبت عدداً من العلماء، وتربى تربية دينية منذ حداثته، فأطلع على علوم الدين،

وأهتم بمطالعة التراث الفكري الإسلامي، مما هبّاه لإدراك عمق العلاقة العضوية بين العروبة والإسلام، وفي مرحلة الدراسة الثانوية أبدى اهتماماً باللغة الفرنسية، واستهوته أعمال الروائيين الفرنسيين الأعلام وشعراء الكلاسيكية والرومانسية، فأقبل على قراءة هذا الأدب بظماً لا يرتوي، ولكن ذلك لم يصرفه عن عشقه للأدب العربي قديمه وحديث، فاستغرق في قراءة روائع التراث العربي والأدب الحديث... وأتاح له ذلك أن يكون من أوائل الناجحين في فرعي الشهادة الثانوية: الأدب والعلوم، وبالبكالوريا الثانية، قسم الفلسفة في عام ١٩٤٣. ولما أوفد إلى القاهرة التحق بجامعة ونال منها الليسانس عام ١٩٤٦، وكان ترتيبه الأول بين الخريجين، وتابع بعدها الرحلة إلى باريس ليحصل من السوربون على دكتوراه الدولة في الآداب عام ١٩٥٦.

محطات في مسيرة طويلة:

عمل الدكتور عبد الدائم بعد عودته للوطن مدرساً بكلية التربية بجامعة دمشق، واختير وزيراً للأعلام والتربية عدة مرات، ثم أصبح أستاذاً وخبيراً للتخطيط التربوي في بيروت والقاهرة، ومديراً لمشروع اليونسكو لتطوير التربية بسلطنة عمان، وممثلاً لليونسكو في دولة غربي أفريقيا، ورئيساً لقسم مشروعات التربية في الأقطار العربية وأوروبا، بمقر المنظمة في باريس، وعضواً بلجنة النظام التربوي في الكويت، وعضواً بمجلس أمناء مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت، وعضواً في المؤتمر القومي الإسلامي. ومن العجيب حقاً أن هذا العمل الدائب والمضني طوال سنوات لم يشغل الدكتور عبد الدائم عن عطائه الكبير في ميداني واسعين: الأول ميدان النضال القومي، والثاني ميدان التأليف والترجمة والنشر.

في الميدان الأول كان الدكتور عبد الدائم في طليعة مؤسسي حزب البعث العربي الاشتراكي، فنشط في مجال الدعوة القومية فكراً وعملاً، وأسهم في تأسيس مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت، وفي نشاطات المؤتمر القومي العربي،

إضافة لمشاركته الدائمة في معظم الندوات الفكرية والقومية على ساحة الوطن العربي.

وفي ميدان العمل التربوي، أسهم بكل الوسائل في تطوير نظم التربية في مختلف الأقطار العربية وشارك في وضع اتفاقية الوحدة الثقافية بين مصر والأردن وسوريا، ومن خلال عمله كخبير وأستاذ للتخطيط التربوي، والإدارة التربوية أتيح له أن يتولى تدريب أفواج متتالية من كبار موظفي التعليم في الدول العربية، مما كان له كبير التأثير في تطوير القيادات التربوية العربية، وتحديث نظم التربية فيها، وأتاح له عمله بمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وضع استراتيجية تطوير التربية ومراجعتها وقد أنجز هذا العمل الهام عام ١٩٩٥، وقد ثمنت المؤسسات التربوية والثقافية إسهاماته الرائعة فمنحته أوسمة عديدة وجوائز ثمينة كان آخرها جائزة مؤسسة سلطان العويس الثقافية، في ميدان الدراسات الإنسانية عام ١٩٩٢.

فكر متألق في خدمة القضية القومية:

رافق عمل الدكتور عبد الله عبد الدائم التربوي والقومي، نشاط إبداعي فكري واسع في مجال النشر والتأليف، فتوالت كتبه الكثيرة التي اشتملت على دراساته القيمة، وأفكاره القومية، حتى بلغت الأربعين كتاباً. ونشر ما بين ١٩٥٧-١٩٦٥ سبعة كتب متميزة عرض فيها نظرية القومية العربية: (مقوماتها، أبعادها) وهي على التوالي:

القومية والإنسانية - دروب القومية العربية - التربية القومية - الجيل العربي الجديد - الاشتراكية والديمقراطية - الوطن العربي والثورة - التخطيط الاشتراكي. وكانت هذه المؤلفات في مضمونها وروحها، انعكاساً للأفكار القومية التي سادت في الوطن العربي إبان تلك الفترة، ومن المدهش والمثير أن تلك المؤلفات بما حملته من دراسات علمية وأفكار واضحة ما تزال ذات قيمة رفيعة ومضمون هام، برغم مرور نصف قرن ونيف على ظهورها، بل وما تزال منطلقاتها نفسها

أساساً سليماً للعمل القومي المنشود في زمننا، ويصعب تصور أي تقدم أو نهضة إلى مستقبل عربي كريم يحقق للأمة أهدافها المشروعة في القوة والانتصار، بدون تلك المبادئ، ونعين بها: الحرية والوحدة والعدالة الاجتماعية، فهي وحدها السبيل إلى تفتيح طاقات الأمة إلى الأبد الأبعد، وترسيخ وجودها المفاعل، القادر على مواجهة المطامع الأجنبية، ومواصلة المسيرة في دروب الحضارة الإنسانية. وتابع الدكتور "عبد الدائم" نشر مؤلفاته طوال السنوات الماضية بغير كلل فظهر له:

في سبيل ثقافة عربية ذاتية، القومية العربية والنظام العالمي الجديد، إسرائيل وهويتها الممزقة، دور التربية والثقافة في بناء حضارة إنسانية جديدة، نكبة فلسطين عام ١٩٤٨، صراع اليهودية مع القومية الصهيونية - وأخيراً: العرب والعالم وحوار الحضارات.

أما في مجال الفكر التربوي، فقد أغنى المكتبة العربية بمجموعة من الدراسات العلمية الأدبية وبينها التربية عبر التاريخ، التخطيط التربوي، الثورة التكنولوجية في التربية العربية، التربية في البلاد العربية، نحو فلسفة تربوية عربية، مراجعة استراتيجية تطوير التربية العربية، الاستراتيجية العربية للتربية في المرحلة السابقة على التعليم الابتدائي، وكان آخرها في هذا الميدان: الآفاق المستقبلية للتربية في البلاد العربية.

ومع مطلع العام الجديد كانت المكتبة العربية على موعد متحدد مع الدكتور "عبد الله عبد الدائم" إذ قامت المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت، بإصدار كتبه السبعة الأولى في مجلد واحد بعنوان: "الأعمال القومية: ١٩٥٧-١٩٦٥" وهي الكتب التي عرض فيها للنظرية القومية العربية، ونفذت طبعاتها المتلاحقة التي ظهرت منذ أربعين عاماً، وقد مثلت أيام ذلك محوراً أساسياً لأفكار العديد من الحركات القومية في الوطن العربي، كما أسهمت بشكل واضح في تكوين الجيل العربي الجديد.

وكان صدور الأعمال الكاملة مناسبة للقاء الدكتور عبد الدائم، السذي استمر يبشر بالفكر نفسه، وازداد إيمانه رسوخاً بأن الانتصار النهائي، سيبقى حليف الأمة العربية، مهما تكالبت عليها المحن، وستنهض قوياً عزيزة بما تملك من مقومات القوة والحياة.

■ وفرض السؤال نفسه: كيف يقرأ الدكتور عبد الدائم واقع الأمة الراهن، وهل هو قدر حتمي لا خلاص منه؟ فيجيب:

لا شك بأن ما ابتليت به الأمة العربية في العهود الحديثة، قل أن تبتلى به أمة من الأمم، والسبب واضح، وهو غرس هذا الكيان الهيجي في قلبها كالخنجر، مع كل ما يحمله من قدرة على تقويتها ومنع تقدمها ... ومن ثم ابتلاعها جزءاً بعد آخر ... فإذا أضفنا إلى بلاء (الصهيونية) بلاء الاستعمار الذي كاد للأمة العربية وسيطر على مقدراتها منذ قرون بعيدة، توضحت لنا فداحة الأرزاء التي ابتليت بها الأمة العربية من خارجها، فعطلت قواها، ومنعت استعدادتها لمجدها وإرثها الحضاري. غير أن هذا بمجمله لا يفسر كل شيء، بل إن الأمة التي أصيبت بخنجر سواها، أصابها من داخلها عوامل وأمراض حالت بينها وبين ارتقاها وازدهارها، وحسبنا هنا أن نقول: إن الأمة العربية قصرت في إعداد العدة اللازمة لمواجهة التحديات الكبرى، والمخاطر التي أحاقت بها، تقصيراً غير جائز، ظل متراكماً ومستمراً من أيام استقلالها عن الدولة العثمانية وإلى اليوم.

كان على الأمة العربية أن تعي أن ما يحدث اليوم، كان لابد من حدوثه إذا لم تعمل بدأب متواصل من أجل تفاديه والنجاة من شروره ... لقد قامت (الصهيونية) في قلبها دون أن تعبئها التعبئة الضرورية ... بل ودون أن تعرف معرفة عميقة، حقيقة مقاصد الصهيونية، والمدى الذي يمكن أن تصل إليه ... وكثيراً ما كان يعني: عدم الاعتراف بالصهيونية وإسرائيل لدى الدول العربية، مجرد عدم معرفتها ... إن شارون السفاح ومن قبله، اليمين المتطرف كله وعلى رأسه، بيغن، وشامير،

ونتتياهو وسواهم من بناء الصهيونية، هم كما نعلم أبناء ذلك الصهيوني اليميني المتطهرس والتوحش (جابتوتسكي) المولود عام ١٨٨٠ والمتوفي عام ١٩٤٠، وهو رأس هذا اليمين الصهيوني المتطرف الخبيث ... شارون يطبق برنامجه اليوم بالحرف الواحد.

في عام ١٩٢٣ كتب (جابتوتسكي) مقالة شهيرة بعنوان (الجدار الحديدي) قال فيها قولاً لا ليس فيه: إن العرب لن يتخلوا عن أرض إسرائيل المزعومة!! طوعاً، ولا بد لنا أن نكرههم على تركها بالقوة، وليس في المستقبل القريب ولا المستقبل البعيد، أي أمل في أن يتخلّى العرب عن أرض إسرائيل بمحض إرادتهم).

ومثل هذا القول كرره عتاة الصهاينة وخاصة نتتياهو في كتابه: (مكان تحت الشمس) ... وما دام المجتمع العربي ما يزال يأمل بأن تعود إسرائيل إلى رشدها، علينا أن نذكر أن (جابتوتسكي) هذا حين قيل له: إن استعادة أرض الميعاد بالقوة والعنف ووسائل القمع كما يريد، أمر بجانب القيم والأخلاق الإنسانية، أجاب بكل بساطة: إذا كان القضية التي تدافع عنها وتحارب من أجلها قضية مقدسة، فكل الوسائل التي يمكن أن تستخدمها لبلوغها مقدسة أيضاً! ... هذا جانب من تقصير العرب بمعرفة عدوهم، وأفدح منه تقصيرهم في إعداد العدة الضرورية لاجتتاب المصير الأسوأ الذي ينتظرهم ... لقد كانوا يتلقون النكبة تلو النكبة، وكان ما يصيبهم هو ختام النكبات، وفي معظم الأحيان كان جهدهم يتوقف عند إيجاد حل لن يكون بطبيعة الحال، إلا منقوصاً بل وفاشلاً للنكبة على نحو ما تقع ... ثم يلي بعد ذلك صمت مطبق ... بل ونوم عميق!!.

■ كيف يرى الدكتور (عبد الله عبد الدائم) المخرج؟ وعلى من تقع مسؤولية الإحقاد؟

طبعاً، مهما يكن شأن المجتمع الدولي، ومهما يكن خاضعاً للقوة الغالبة العظمى فيه، يظل من الصحيح أن المجتمع الدولي لن يعيد إلينا ولو جزءاً يسيراً من حقوقنا،

إلا إذا تبين له أننا نملك الإرادة والقدرة و العزيمة اللازمة لتحرير أنفسنا. ومن هنا فالمسؤولية هي مسؤوليتنا جميعاً حكاماً ومحكومين، شعوباً ودولاً ... وفي هذا المجال لابد من القول بأن مقاومة الصهيونية ومقاومة أخطارها القائمة والقادمة، لابد وأن يكون رأس الحربة فيها جماهير الشعب العربي، والمؤمنة بأمتها وقيمتها وترائها، ولكن شريطة أن تكون هذه الجماهير منظمة ... لأن الجماهير مهما يكن عطاؤها، غير قادرة على التأثير في الأحداث تأثيراً فعالاً إلا من خلال أوعية منظمة، سواء كانت حزبية أو نقابية أو مهنية أو غير ذلك ... المهم أن نؤمن بأن المعركة مستمرة، وأن نؤمن بأن النصر لنا في النهاية، إذا نحن أحكمنا تعبئة قوارنا.

• يلح العدو الإسرائيلي على موضوع التطبيع ويعمل له بكافة الأساليب، ما هو الخطر الذي يمثله التطبيع، وكيف للأمة العربية أن تواجهه؟

من المؤكد أن أكبر خطر يتهدد أمتنا هو تصميم العدو الإسرائيلي، منذ قيام كيانه الغاصب، على القضاء على الهوية الثقافية العربية الإسلامية، فهذا المطلب مطلب أساسي، بل يكاد يكون المطلب الأول الذي جعلته إسرائيل، الهم الأول لها من أجل إنهاك الكيان العربي والقضاء عليه تماماً ... من الممكن أن ينهار الكيان إلى حين عسكرياً، وقد ينهار اقتصادياً، ولكنه يبقى قادراً على المقاومة والصمود إذا ظل متمسكاً بهويته العربية الإسلامية. تلك الهوية التي تمثل جداراً صلباً وعصياً يحول بين الأمة العربية وبين أن تذوب في الكيان الصهيوني الخبيث. نحن ندرك بأن وسائل الإعلام الحديثة، باتت أقدر على الغزو الثقافي للأمة العربية، وأقدر على اختراق الثقافة العربية بوسائلها المختلفة، ومن هنا، فمن غير الجائز أن نطمئن إلى عمق الثقافة العربية وفرتها لدى الكثرة الكاثرة من الجماهير العربية. ولابد بالتالي أن ندرك بأننا أمام عالم جيد، ووسائل إعلامية جديدة وقادرة، وسموم ثقافية أكثر فتكاً وتخريباً، وأيديولوجيات مختلفة، لابد أن نتصدى لها النخبة المثقفة في الوطن العربي، وتقاومها مقاومة علمية منظمة ومستمرة، ومن هنا كان شعار العمل

لمقاومة التطبيع مع العدو، أهم شعار على المثقفين أن يمتسكوا به اليوم، ويقلبوه على وجوهه المختلفة، ولا يكفي في ذلك العمل الثقافي الفردي، بل يترتب وبسرعة إنشاء شبكة عربية واسعة ومتكاملة، هدفها مقاومة التطبيع الثقافي مقاومة يومية متواصلة بأشكال عديدة واسعة ومتكاملة، ولا شك أن ميدان المقاومة واسع جداً... وبالأذات إذا أخذنا المعنى الواسع لكلمة ثقافة اليوم، والتي لا تعني الفنون والآداب والأفكار وحسب، بل تعني كل أنماط السلوك المادي والمعنوي، السائدة في مجتمع من المجتمعات، والتي تميزه عن سواه، والتي تكون في نهاية المطاف قوام الهوية الثقافية لأمة من الأمم.

■ ظلت الوحدة العربية مطمح آمال الجماهير العربية طوال عقود ... فهل ما تزال اليوم مجدية، والعمل لتحقيقها ممكن؟

من الخطأ أن نعتقد بأن العولمة تعني حتماً وحكماً زوال الكيانات القومية، والاتجاهات التي نجدها في العالم اليوم ويتحدث بعضهم أن يدعي أن الكيانات القومية لابد أن تزول في عصر العولمة ... في حين يرى بعضهم الآخر - على العكس - أن العولمة ستؤدي إلى احتواء الكيانات القومية المختلفة بجلدتها وكيانها تجنباً لمخاطر العولمة، ويصدق هذا بوجه خاص على البلدان النامية، ونحن نعتقد بأنه ليس هناك أي شيء في العولمة - إذا فهمناها بالمعنى الصحيح - يدعو حكماً وحتماً إلى زوال الكيانات القومية، بل نحن نرى بأن أعيننا من اليوم، أن كثيراً من الدول، بينها دول متقدمة أخذت تؤمن بأهمية الكيانات القومية المتجانسة، كما نرى في أوروبا والاتحاد الأوروبي، وكما نجد في آسيا واتحاد دول الباسيفيك، ودول أمريكا اللاتينية، وإن اتخذت الكيانات القومية هناك شكلاً أوسع. وقد سئل الرئيس (ميتران) عندما كان متوجهاً إلى (مايسترش) للتوقيع على دستور الوحدة الأوروبية: ما سر تأكيدك لأهمية الوحدة الأوروبية، وما الدافع لقولك: فرنسا وطني، ولكن أوروبا مستقبلي؟ فأجاب بقوله: ولكن ما البديل؟ ... هل البديل هو العودة إلى صراعات

القرن التاسع عشر؟

ومنذ قرون أيضاً كتب (ماديسون) أحد رواد الاتحاد في الولايات المتحدة، يوم كانت ثلاث عشر ولاية، مدافعاً عن أهمية هذه الولايات: (كل من يظن أن الجور بين الأمم يخلق الوثام لا الخصام، إنسان جاهل بحقائق التاريخ) وقد أراد بهذا التعبير أن يوضح للأمريكيين في ذلك، أن يختاروا بين ولايات ثلاث عشرة تتخاصم وتتنازع ويحكمها الأجنبي المستعمر من وراء البحار، من إسبان وإنكليز وسواهم، وبين ولايات يجمعها دستور اتحادي، وينظم العلاقات فيما بينها ... وخيرها وقتها بين التمزق وبين الهيبة. ونحن هنا في وطننا العربي، نستطيع أن نقول كما قال ميتران ما البديل عن الوحدة العربية؟... إن الذين يشككون بالوحدة العربية هم أنفسهم يقرون ويعترفون بأن الدولة القطرية عاجزة عن التقدم والتنمية والأمن، ولا نقول جديداً حين نؤكد بأن أي دولة عربية عاجزة وحدها عن أن تبني مستقبلاً آمناً في وجه إسرائيل بوجه خاص، وأن تحقق التقدم الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، وسائر ضروب التنمية، وأن توفر الطمأنينة والأمن لمواطنيها، وأنا أرى أن هناك مغالطة أو سوء فهم لدى الذين ينظرون إلى واقع الأقطار العربية المجزأة، ويستخلصون منه تعذر قيام الوحدة بينها، وذلك لأن هذا الواقع المجزأ بل والمتخاصم أحياناً - مع الأسف - والعاجز عن أن يقف في وجه إسرائيل والعاجز عن التنمية ... هو نتيجة طبيعية لغياب الوحدة، وليس مبرراً يبرر تعذر قيامها، فصورة الدول العربية إذا لم تصورها قوة الوحدة هي بالضرورة ما نرى وما نشهد.

■ راهنت في واحد من مؤلفاتك على اندحار المشروع الصهيوني ... فعلام بنيت هذا الرأي؟

لم أراهن تماماً على اندحار المشروع الصهيوني ... ما قلته بأن هذا المشروع فيه كل عوامل وأمراض التفتت والصراع، ومن الممكن بالتالي الإفساد من هذه الأمراض، ومن أجل حشد القوة العربية لمواجهته، وبعبير آخر، هناك أطمع كثيرة

ابتليت بالصراع الداخلي، والتفتت من داخلها، وتمزق هويتها على ما نشهد في إسرائيل اليوم، ومع ذلك استطاعت أن تبقى حين لم تتوافر قوة خارجية تقضي عليها، ومعنى هذا أن الدرس الذي يمكن أن نستخلصه مما نشهد في إسرائيل من صراع وفقدان للتجانس ومشكلات في تحديد الهوية، ومشكلات في تحديد القصد من كلمة يهودي ... الخ، هي أمراض تضعف الكيان الغاصب ولاشك، ولكنه لن يزول إلا إذا واجه قوة خارجية، وهي هنا قوة عربية، تفيد من هزال بنيته من أجل القضاء عليه.

■ العرب والعالم وحوار الحضارات. كيف ومن أين؟.

نحن في حاجة للحديث عن حوار الحضارات لهدفين: الأول هو: نحن ... علينا نحن أولاً، أن نحدد موقفنا وفهمنا الحضاري لحوار الحضارات بشكل دقيق وسليم. أقول هذا لأن الحضارات العربية الإسلامية قامت على أساس حوار الحضارات، بل على أساس تمازج الثقافات، ولك عهود التخلف التي مرت بها الأمة العربية من ناحية، وموقف الغرب المعادي للأمة العربية من ناحية أخرى، جعل أبناء أمتنا ينطوون على أنفسهم ويخشون من حوار الحضارات، خوفاً من النزعة التي يسميها (توينبي): (النزعة الزيلونية) وتعني: الانطواء على الذات والاكتفاء بالذات ... بل ومحاربة كل شيء عدا الذات.

والسبب الثاني، أن العالم الغربي، الذي يحمل رواسب قرون طويلة من العداء للعرب ومن كره العرب، ومن تشويه لتاريخ العرب، أصبح في أيامنا هذه، بوجه خاص، بحاجة إلى فهم الحضارة العربية فهماً جديداً، وإلى أن يدرك منازعتها الإنسانية العميقة، ونزوعها من البداية إلى الانفتاح على الثقافات كلها، والحضارات كلها والأديان كلها، كما حدث في أيام الدولة الأموية، والعباسية، وفي الأندلس بشكل خاص.

وموضوع الربط المغلوط الذي يربط به بعض أبناء الغرب بين الإسلام

والإرهاب، لابد أن يتولى النقاش حوله، وتوضيحه من قبل أبناء الحضارة العربية أنفسهم قبل غيرهم ... لست في حاجة لذكر أمثلة، كتابي الذي صدر مسوخرًا بعنوان: "العرب والعالم وحوار الحضارات" فيه أمثلة كثيرة على المنازع الإنسانية للحضارة العربية، سواء في النصوص الدينية أو سواها، أو في الممارسات العملية. ثم يضاف إلى هذا أن موضوع (حوار الحضارات) أصبح مطلباً إنسانياً شاملاً، ولا سيما بعد أحداث الحادي عشر من أيلول، فقد بينت الأحداث أن العولمة الوحشية لا تؤدي فقط إلى إفقار الدول النامية، تاركة الدول المتقدمة تنعم بخيراتها وثرواتها ... بل إن هذه العولمة صارت خطراً على الدول المتقدمة نفسها وفي عقر دارها. وأحد وسائل بناء عولمة سليمة لا عدوان فيها من أمة على أمة، لابد أن يكون بالتالي: حوار الحضارات.

تحضرنى هنا كلمة لمفكر عربي ترتبط بالحوار، وبما يمكن أن يؤدي إليه انعدام الحوار من عنف، فيقول: وهذا القول يلخص في نظري الموقف العالمي كله، (لا تستطيع دولة قامت على العنف، واستطاعت أن تستمر عن طريق العنف، أن تتخلص من العنف الذي يتهدها إلا إذا تخلت هي عن العنف).

والحوار بين الحضارات بغير شك، هو عمل كل إنسان والمتقنين بشكل خاص ... ولكن في الظروف الحالية لابد وأن تكون له مؤسساته التي تخاطب العرب وغير العرب، والتي تنتظم المتقنين بشكل خاص.

المشروع القومي العربي في مواجهة الصهيونية (الملف) الذي يجب أن لا يغلق

*

I - مدخل:

عندما يُقبل المرء على التصدي للصراع بين القومية العربية والقومية الصهيونية، تزدحم المعاني في صدره، فلا يدري أيها يختار. ومع ذلك ففي وسعنا أن نُوجز الموقف بالقول إنَّ على القومية العربية أن تتطلق في صراعها مع القومية الصهيونية منذ نشأت، وعبر مراحل تطورها جميعها. قومية أسطورية خرافية، وقومية مصطنعة زائفة، وقومية عنصرية إثنية، وقومية عدوانية.

ومن هنا كان من العيب أن تتوقع من إسرائيل، ربيبة الصهيونية، أن تتخلَّى ولو عن جانب من مطامعها العدوانية المرسومة ... إلا إذا استطاعت القومية العربية أن تملك من القوة والوحدة والتأثير ما يحمل إسرائيل على إعادة النظر في منطلقات الصهيونية. وما يجعلها تُترك من خلال المعاناة الواقعية أنَّ هذه المنطلقات مستحيلة التطبيق وأنها سوف تعاني جرائم هذه الخطيئة الأولى، إذا هي لم تتخلَّ عنها نهائياً.

غير أنَّ تقرِّي الأحداث يكشف عن أن سلوك إسرائيل كان وما يزال عكس ذلك فكلما عصفت بها الأزمات ازدادت خوفاً على مصيرها، وازدادت من ثمَّ عدواناً ولن يأتي اليوم الذي تتخلَّى فيه عن عدوانها، وتعيد الحق لأصحابه، إلا إذا أدركت إبراكاً عملياً أنَّ العرب لن يستسلموا وإنَّ غلبوا على أمرهم إلى حين، وأنَّ الرزخم القومي العربي في تصاعد.

ولعلَّ من البديهي أن نقول إنَّ الذي أوصل القضية الفلسطينية إلى هذا المصير الذي تشهده، كما أوصل الأمة العربية إلى الحيرة والاضطراب، هو أنَّ الحركة

* مرب ومفكر قومي، ووزير سابق والبحث أعلاه نصُّ المحاضرة التي ألقاها في المركز الثقافي بجلب.

القومية العربية لم تكن في شتى مراحل نموها وعملها في المستوى الذي تستلزمه مواجهة رزء الصهيونية وأطماعها. ومن المؤلم أن نقول إن الصهيونية استطاعت. بدأ بها وعملها المنظم، أن تقلب خرافتها، خرافة الكيان الصهيوني إلى حقيقة، ولاسيما في نظر العالم وإن الأمة العربية، بسبب عجزها وعودها وتشتت أبنائها، هبطت بحقيقتها إلى مستوى الخرافة. وإذا استمرت الدول العربية تقوقعها القطري وإذا عجزت القومية العربية عن إعادة صياغة أهدافها ووسائلها - وعلى رأسها بناء الإنسان العربي المصمم على النضال والمالك لوسائله، والقادر على الارتفاع ببنية الأمة العربية إلى مستوى العصر - فلن تقلح محاولات السلام نفسها مع إسرائيل ولا أدل على ذلك من أن عقلية العدوان، الراسخة في نفوس أبناء إسرائيل، قد فرضت نفسها على عملية السلام. بل تكشف مفاوضات السلام بين الفلسطينيين والإسرائيليين كلما تقدم الزمن عن عودة مطردة إلى منطلقات اليمين الصهيوني المتطرف، وعن بروز جديد لأكثر اتجاهات الصهيونية عدوانية منذ نشأتها - نعني الاتجاه الذي مثله منذ البداية الزعيم الصهيوني جابوتنسكي، وعاد فمثله مسن بعده ورثته من أمثال بيغن وشامير ونتياهو وأخيراً لا أخيراً شارون بل إن النجاح الإسرائيلي الذي يدعي أنه جناح السلام. وعلى رأسه شيمون بيرس فضلاً عن باراك، يزداد مع الأيام جنوحاً إلى المواقف العدوانية والتصاقاً بمقولات اليمين المتطرف. ولكي ندرك هذا كله، لابد من العودة إلى منطلقات الصهيونية الأولى منذ نشأتها.

II - معالم السياسة الإسرائيلية من خلال منطلقاتها الصهيونية:

١ - القومية الصهيونية قومية أسطورية خرافية:

قامت الصهيونية على جملة من الأساطير التي حاولت من خلالها تزوير التاريخ اليهودي، وعلى رأسها أسطورة الأرض الموعودة. وهنا نحرض على الإشارة إلى الحقيقتين اللتين كشفت عنهما أحدث الدراسات التاريخية بهذا الشأن

الأولى تؤكد أن التوراة - على نحو ما صاغها اليهود بعد حوالي خمسمائة عام من نزولها على موسى - لا يمكن أن تُعدَّ كتاباً ذا قيمة تاريخية، وأن ما جاء فيها لا يعدو أن يكون أساطير الأولين. والثانية تؤكد تهافت ما ورد في التوراة المزيفة عن دولة اسمها إسرائيل وُضعتْها المؤرخون الصهاينة في مرحلة الانتقال بين العصر البرونزي المتأخر والعصر الحديدي (أي حوالي القرن الثالث عشر قبل الميلاد) ويشير كيث وايتلام إلى أن أورشليم في القرن العاشر قبل الميلاد لم تكن أكثر من مرتفعات صغيرة، وكانت أبعد ما تكون عن عاصمة لمملكة موحدة شاسعة على نحو ما ورد في النصوص التوراتية المزيفة. وهذا يعني "أن ما كان يُعتبر تقليدياً أوج التطور السياسي في المنطقة، ونعني دولة داود وسليمان القومية، يختفي من الوجود نهائياً"^(١) ويبين الكاتب أيضاً كيف أدى هذا التزييف إلى إقصاء تاريخ فلسطين القديمة وسكانها الأصليين، وكيف تقدم المعطيات الأثرية معلومات قيمة حول الوضع السكاني والاقتصاد والتنظيم الاجتماعي لدى السكان الأصليين لتلك البلاد (أي الفلسطينيين). بالإضافة إلى أن هذه المعلومات لا تذكر شيئاً عن كيان اسمه (إسرائيل) ومن هنا يرى الكاتب أن الفلسطينيين اليوم قد تناسوا التاريخ الفلسطيني القديم وتركوه لإسرائيل والغرب، وأن من اللازم استرداد ذلك التاريخ بعد أن تم إقصاؤه خلال القرنين الماضيين (نتيجة للقبضة الخائفة التي أظهرها المتخصصون والمؤرخون والآثريون الكتابيون، والتي تتحكم في دراسة فلسطين والشرق الأدنى القديم)^(٢) فقد بحث الباحثون الكتابيون (التوراتيون) دائبين عن وجود إسرائيل المادي بين خرائب الأرض وأثارها، ولكن (ما عثروا عليه هو ما كانوا قد قرروا

(١) كيث وايتلام، تليفق إسرائيل التوراتية: طمس التاريخ الفلسطيني، ترجمة ممدوح عدوان (دمشق دار

قدمس) ص ١٧، ٢٠٠، ٢٠٢.

(٢) كيث وايتلام، تليفق إسرائيل التوراتية: طمس التاريخ الفلسطيني، ترجمة ممدوح عدوان (دمشق دار

قدمس) ص ١٧، ٢٠٠، ٢٠٢.

مسبقاً أن يعثروا عليه، نعني إسرائيل شبيهة بالدول القومية اليوم^(١) وهكذا تم تقديم إسرائيل إلى العالم بوصفها دولة قومية بديئة تبحث عن وطن تعبر فيه عن وعيها القومي النليد والجديد.^(٢)

٢ - القومية الصهيونية قومية قسرية مصطنعة زائفة:

لعل أبرز ما تتصف به القومية الصهيونية أنها ولدت ولادة قيصرية، بل أكرهت الشعب اليهودي نفسه على غير ما كانت تريده أكثرية الساحقة. وإن المرء ليعجب ما الذي دعا الفئة الصهيونية القليلة العدد إلى ركوب هذا المركب السذي لم يكن يهود الشتات في حاجة إليه، ولا يحمل لهم سوى الآلام والصراعات والحروب.

أ - اليهودية والصهيونية:

ولا شك أن أول تساؤل يخطر على البال في هذا السياق هو عن دور الدين اليهودي في تيسير هذه المهمة. وحسبنا أن نقول إن رجال الدين اليهودي (باستثناء قلة نادرة) قد أنكروا الحركة الصهيونية إنكاراً حاسماً يوم ظهرت على يد هرتزل عام ١٨٩٦-١٨٩٧: واعتبروا الدعوة إلى عودة اليهود إلى ارض الميعاد، بإرادة بشرية لا إلهية، كفراً وهرطقة، ورأوا في الصهيونية ثورة ضد الإله ونقياً لليهودية واستعجالاً (مسيحانياً، أو مشيحانياً) قبل أن تظهر الإشارات الإلهية الدالة على ذلك.^(٣) ومن هنا الموقف السلبي الحاسم الذي واجه به اليهود وحاخاماتهم في ألمانيا

(١) كيث وايتلام. تحقيق إسرائيل التوراتية: طمس التاريخ الفلسطيني، ترجمة ممدوح عدوان (دمشق دار قدس) ص ١٧، ٣٠٠، ٣٠٣.

(٢) تراجع كتابات توماس طومسون الذي طرد من الجامعة الأميركية التي يعمل فيها بسبب كتابه للتاريخ المبكر للشعب الإسرائيلي.

(٣) من أجل مزيد من التفصيل، أنظر كتابنا: إسرائيل وهويتها الممزقة (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٦).

رغبة هرتزل في أن يعقد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة ميونيخ الألمانية، فاضطُرَّ إلى عقده في مدينة بازل في سويسرا.

يضاف إلى هذا كله أن الصهيونية كانت حركة علمانية لا تتخذ من الدين اليهودي مقوماً لها ومنطلقاً، وأن زعماءها البارزين - من أمثال هرتزل وجابوتسكي ووايزمان وبن غوريون - كانوا ملّحين ولم يُخفوا إلحادهم. فمما نقرأه في مذكرات هرتزل: (لقد قلتُ للهاخام الأكبر في لندن، كما قلتُ للهاخام الأكبر في باريس، إنني لا أخضع في مشروعي الصهيوني لأي دافع ديني) ^(١) ومما يقوله في مكان آخر من تلك المذكرات: (لقد سألتني أشر مايرز: ما هي علاقتك بالتوراة؟ فأجبته: إنني مفكر حر) على أنه ناقض نفسه بعد ذلك وتبنّى مواقف مزدوجة وملتبسة، لأسباب عملية. هكذا نجده في خطابه الذي افتتح به المؤتمر الصهيوني الأول في بازل عام ١٨٩٧ يقول بصريح العبارة: (إن الصهيونية تعني العودة إلى الديانة اليهودية حتى قبل العودة إلى أرض اليهود) ومثله وأكثر منه فعله بن غوريون، مؤسس دولة إسرائيل. والقول الفصل في هذا هو أن الدين أصبح على يد الحركة الصهيونية مجرد أداة للحركة القومية، تتلاعب بها وفقاً للظروف والأحداث، ولا شك أن هذه اللغة المزدوجة قد ساعدت تدريجياً على تكاثر أعداد المؤيدين للصهيونية لدى المتدينين من اليهود.

غير أن علينا أن نضيف إلى هذا العامل السذي ساعد على المزج بين الصهيونية والديانة اليهودية عاملاً آخر، وهو ظهور محاولات فكرية حاولت أن تفلّس الصلة بينهما. وحسبنا الإشارة إلى المحاولة التي قام بها أبراهام إسحق كوك (١٨٦٥-١٩٣٥). ونحن إذ نتوقف قليلاً عند أفكار هذا الهاخام اليهودي الشهير فإننا نفعل ذلك لهدفين متكاملين: الأول أن نبين كيف أدت أفكاره وأفكار أمثاله من رجال الدين إلى تخفيف العداء الذي نشب في البداية بين دعاة الصهيونية وممثلي

(١) الجزء الأول من الطبعة الإنكليزية، ص ٢٧٠.

المذاهب اليهودية الكبرى، والثاني أن نبين التزييف الذي مارسته الصهيونية على اليهود أنفسهم.

ب - كوك وتزييف العلاقة بين الصهيونية واليهودية:

لقد قام كوك، الذي أصبح أول حاخام أشكنازي في فلسطين، بتقديم تفسير جديد جذري وشامل للتاريخ اليهودي من أجل تحويل الأمل المسيحاني السلبي إلى أداة فعالة لتحقيق التعاون بين هذه النزعة الدينية من جهة، والحركة السياسية المناضلة والعلمانية التي تمثلها الصهيونية من جهة ثانية.

وكان منطلقه في ذلك هو التوحيد بين الديانة اليهودية وأرض إسرائيل، وتأكيد أن أرض إسرائيل جزء جوهري من كيان اليهود القومي ومن رسالتهم الروحية إلى العالم على أن أهم ما جاء به هو هجمته الحاسمة على حملة التقاليد الدينية اليهودية الذين استمروا الحياة في المنفى، ذلك أن شعب إسرائيل والتوراة وأرض إسرائيل كل لا يتجزأ، فيما يرى، وقطع الصلة بين اليهودية وإسرائيل يعني قطع جذور اليهودية. بل إنه يعجب ممن يتهمون ويحتقرون اليهود الذين يضحون بحياتهم من أجل العيش في فلسطين لا شيء إلا لأنهم لا يمارسون الطقوس الدينية.

وهنا يلجأ كوك إلى حيلة من الحيل الدينية التي يعج به تاريخ اليهودية، وقوامها قوله إن الدافع الحقيقي لأفعال الإنسان قد يخفى عن فاعلها. وهذا الأمر ينطبق في نظره على الرواد الأوائل للصهيونية: فقد يظنون أنهم مدفوعون بدوافع سياسية علمانية، في حين أنهم في حقيقة الأمر يعملون من خلال الإطار الكوني للإرادة الإلهية لكون أعمالهم جزءاً من حركة الخلاص الإلهي. وعنده أن هؤلاء الأشخاص يمكن أن يسهموا في ظهور المسيح، حتى ولو لم يكونوا يؤمنون به.

وهكذا يُمضي كوك في هذا التزييف، على الرغم من أنه يربط بينه وبين بعض أفكار هيجل حول (جبل العقل) كي يخلص إلى أن معارضة القومية الصهيونية والخط من قيمها أمران غير جائزين لأن روح الله وروح إسرائيل (يعني القومية الصهيونية) شيء واحد. وجملة القول عنده أن الصهيونية العلمانية اللادينية هي

جزء لا يتجزأ من الديانة اليهودية (وإن جهلت ذلك): كما أن أرض إسرائيل تعبّر عن المعنى الكوني المركزي للوجود اليهودي، وأن الخلاص اليهودي جزء من عملية عالمية شاملة، وأن العالم كله يعاني ما يعاني من الفوضى لأن الشعب اليهودي لا يشغل المكان الذي منحه إياه البنية الغائبة للكون.

ج - الصهيونية المفتعلة:

أشد ما يفضح ما في الصهيوني من افتعال أن الدعوة إليها جاءت في غير أوانها، أي بعد أن زالت المبررات المتصلة بالمشاعر اللاسامية ضد اليهود في أوروبا وسواها. ومن هنا حق للكثير من الباحثين - ومنهم يهود - أن يقولوا إن الصهيونية بُنيت من خلال مفارقة عجيبة، فالحركة الصهيونية التي تهدف إلى عودة اليهود إلى فلسطين لم تظهر قبل النصف الثاني من القرن التاسع عشر وكانت أوروبا قبل ذلك قد شهدت بعد الثورة الفرنسية بشكل خاص (عام ١٧٨٩) حركة تحرر أدت إلى معاملة اليهود فيها على قدم المساواة مع سائر المواطنين وإذا نحن قارنا بوجه خاص بداية القرن التاسع عشر مع بداية القرن العشرين وجدنا أن حياة اليهود لم تشهد من قبل مثل ما شهدته هذه الفترة من انطلاق إيجابية في ميدان الاقتصاد أو السياسة أو الفكر. ومنذ ذلك الحين أصبح اليهود يسكنون المدن والعواصم الكبرى في أوروبا، بل أصبحوا إلى حد كبير سادتها وأصحاب الخطوة فيها. ومن هنا يسأل المرء: ما الذي دفع إلى ولادة الصهيونية في هذه الفترة بالذات؟

لا شك أن تحليل هذه المفارقة يحتاج إلى صفحات. وأهم ما في هذا التحليل هو أن اليهود أنفسهم، وقد فُتحت لهم أبواب الاندماج الكامل بالقوميات الوطنية التي كانت سائدة في أوروبا، ظلوا يشعرون أنهم لا ينتمون إليها حقاً، وأن عليهم أن تكون لهم قوميتهم الخاصة. وهكذا نستطيع أن نقول إن حركة التحرير والتنوير في أوروبا ولدت لدى اليهود في تلك الفترة البذور الأولى لوعي جديد لا يصح أن نعتبره دينياً. إنما هو وعي مقابل لصعود القوميات الحديثة العلمانية في أوروبا من

هنا نستخلص أنَّ الصهيونيةَ تمثِّل ظاهرةً أعقبتْ حركةَ التحرير في أوروبا. وأنها - حين أُكِّدتْ على الصلة التاريخية بينها وبين بلد الأجداد في إسرائيل - حولتْ مشاعرَ اليهود التي ظلتْ نائمةً طوال قرونٍ إلى طاقة محرّكة. وجعلتْ من القومية اليهودية انعكاساً للأفكار التي ولدتها الثورة الفرنسية والحداثة والنزعة القومية.

ويعطينا من هذا كلّهُ أن ندرك كيف كانت الصهيونية حركةً مفتعلةً تسير في عكس اتجاه التطوُّر الذي حدث في العصر - ولاسيّما بعد الثورة الفرنسيّة، وبوجه خاصّ بعد نابليون وقوانينه الجديدة التي مَنَحَ فيها اليهود امتيازاتٍ خاصّة. وهو تطوُّرٌ فَتَحَ البابَ واسعاً أمام اليهود للحياة حياةً كريمةً في المجتمعات الغربية التي كانوا فيها. وهذا شاهد آخر على ما في الصهيونية من عنصرية تجعلها عاجزةً عن التعايش مع سواها، بل تجعلها تَبْحَثُ عن السيطرة على سواها وعلى العالم.

ولا حاجة إلى القول إنّ ما آل إليه وضعُ اليهود بعد خلق دولة إسرائيل يبيِّن أن الصهيونية - نتيجةً لحلمها هذا - جعلتْ الشعبَ اليهوديَّ اليوم في مأزق، سواء في داخل إسرائيل أو خارجها، وأنّ حلمها لم يتحقّق ولن يتحقّق، وحلّتْ محلّه الكوابيسُ المنغصّةُ لحياة اليهود أنّى كانوا.

٣ - القومية الصهيونية قوميةً عنصريةً إثنيةً متعالية:

وهذا ما نجده واضحاً في الأدب الصهيوني منذ تباشيره الأولى. وقد رافق هذا الشعورُ الحركةَ الصهيونيةَ في شتّى مراحلها وما يزال دافعاً حتى اليوم. وحسبنا أن نشير إلى أفكار زعيمين صهيونيين شهيرين: أولهما هو جابوتنسكي وثانيهم أوري تزييني غرينبرغ (١٨٩٧-١٩٨١). الذي أقام في فلسطين منذ عام ١٩٢٤، وأسّسهم في صحيفة دافار التي تمثّل اتّحادَ الهستدروت العمالي.

أمّا جابوتنسكي، رأسُ الفريق الصهيوني اليميني المتطرّف وأكبرُ الدعاة على اللّجوء إلى القوّة من أجل توليد الكيان الصهيوني، فقد وضع نظريةً متكاملةً حول دور العرق في تاريخ الإنسانية. وصنّره له أولُ تحليلٍ مفصّلٍ في هذا المجال في

مقال كتبه عام ١٩١٣. عنوانه (حول العرق) وفيه يقول إنه ليس من المهم أن يوجد عرق صافٍ أو لا يوجد، والأهم هو الفرق القائم بين مختلف الجماعات الإثنية التي يميّزها نسبها العرقي. وبهذا المعنى وحده يغدو مفهوم الأمة ومفهوم العرق متكاملين. وهكذا يريد جابوتنسكي في مقاله هذا أن يضع مكان الحتمية الماركسية حتمية يحددها العرق ويستخلص من ذلك أن جوهر الأمة ومقوم وحدتها يكمنان في الصفات الجسدية المميزة لها، وفي العناصر المقومة لتكوينها العرقي وهذا يؤدي به إلى القول بتفوق الأمة اليهودية على سواها من الأمم.

أما الشاعر الروسي غرينبرغ فقد كان ينظم القصائد الملتهبة ضد الآخر، كاتهام المسيحيين بمعادة السامية، واتهام العرب بتعطشهم للحقد ولتآهم اليسار الصهيوني نفسه بالاضطراب الخلقي والنساء بالغرور أما جوهر الانتساب إلى اليهود عنده فتحدده صفتان الدم والأرض. والوحدة البيولوجية الكاملة والثابتة لدى الشعب اليهودي تقيم بينه وبين الشعوب غير اليهودية اختلافاً وفارقاً مطلقاً. ومن هنا فالحوار مع غير اليهود هو قعقة السلاح، وعن طريق الدم - كما يقول - سوف يكون البعث، واليهود سوف يحققون وجودهم في أرض إسرائيل باللجوء إلى حرب لا تَبْقَى ولا تَذَرُ ضد أولئك الذين يقفون في وجه تحقيق مشروعهم. ويكي شاعرنا بكاءً مرّاً على ما أصاب القدس، مدينة داود التي هجرها الأنبياء، والتي مألها أبناء العمومة العرب بنهيق الحمير، وندسوها بروت الأغنام والبشر، ويدعو في خاتمة المطاف إلى تحرير إسرائيل بحد السيف، وإلى بناء ملكوت إسرائيل بالقوة، وإلى إقامة دكتاتورية إيديولوجية مهمتها تحقيق الرؤية المسيحانية لملكوت إسرائيل.

٤ - القومية الصهيونية قومية عدوانية:

ولسنا في حاجة إلى البراهين فنحن نعيش مأساة هذا العنف الإسرائيلي اليوم، كما عشناه منذ نشأة الصهيونية ونمضي ترواً إلى أفكار جابوتنسكي (١٨٨٠-١٩٤٠)

الذي كان له وما يزال الدور الأول في مجرى الحياة السياسية قبل ولادة إسرائيل وبعدها، وقبل طرح مشروع السلام مع العرب وبعده، وقد هزىء منذ البداية بمبادئ الحرية والعدالة، بل تهكّم على ما ورد في بعض المواضع في التوراة نفسها من دعوة إلى عدم اضطهاد الآخرين. ومن أقواله في معاداة الإنسان والإنسانية: (لا تأمنن لأحد. وكن دوماً فطناً خذراً وسيئ الظن. واحمل دوماً عصاك معك. وبذلك فقط تستطيع أن تعيش في قلب هذه الحرب التي لا هودة فيها، حرب الإنسان للإنسان أنى كان).

وليس المجال مجال الحديث عن دوره العملي في الحركة الصهيونية، وفي تكوين حزبه المتطرف، وفي تكوينه للفرقة اليهودية في فلسطين أيام الانتداب البريطاني، ثم لحركة إرغون الإرهابية. وإنما نمضي إلى أفكاره العدوانية المؤمنة بالقوة، التي نكاد نجد لها مجتمعة في مقالين هامين له نشرهما عام ١٩٢٣ وعنوان أولهما: (الجدار الحديدي والعرب) في هذا المقال ينتهي به تحليله لموقف العرب إلى إصدار حكم قاطع يقول فيه: (الاتفاق الطوعي بيننا وبين عرب فلسطين أمر لا يمكن أن نتصوره اليوم أو في المستقبل المنظور) فكما بين معظم الصيونيّين، ليس هنالك ولو حظ يسير للحصول على موافقة العرب الفلسطينيين على قلب فلسطين إلى دولة أكثر ثباتاً من اليهود. وبعد أن يشرح المنطق الذي يدفع العرب الفلسطينيين إلى كراهية الصهيونية، يحدد الموقف السياسي الذي يقرضه هذا المنطق، وخلصته أنه ليس ثمة إلا أحد أمرين أن نوقف حركة الاستيطان، أو أن نستمر فيها دون أن نأبه لمزاج أهل البلاد وليس أمامنا إذن إلا أن نتابع حركة الاستيطان عن طريق القوة، وإن نقيم بيننا وبين أهل البلاد (جداراً حديدياً) لا يستطيعون أن يهدموه. وعندما انتقد بعض من يسمون المعتدلين من الصهاينة موقفه هذا لأسباب إنسانية وأخلاقية، كتب مقالاً آخر عنوانه (الأخلاق والجدار الحديدي) وخلصته أن ثمة أمرين ممكنين: أحدهما أن تكون الصهيونية ظاهرة إيجابية. والثاني أن تكون ظاهرة سلبية. والجواب على هذا السؤال كان ينبغي أن يتم قبل ولادة الصهيونية.

أما وقد ولدت الصهيونية وأقرّ دعاؤها كلهم بأنها ظاهرة إيجابية وحركة خَلْقِيَّة وإنسانيَّة. فلم يعد ثمة مجال لطرح هذا السؤال. بل علينا الآن أن نقول: (ما دامت القضية عادلة، فلا بد أن تنتصر العدالة، سواء وافق الآخرون على ذلك أو لم يوافقوا) فالحقيقة المقدسة التي يستلزم تحقيقها استخدام القوة تظل حقيقة مقدسة).

أصبح (الجدار الحديدي) تورا الحركة الصهيونية التي سُميت باسم (الصهيونية التصحيحية) وتورا متطرفي الصهاينة من اليمين وسواء، وعلى رأسهم اليوم شارون، وقد حاول جابوتنسكي أمام الرأي العالمي، كما يحاول شارون اليوم، أن يزيّف الحقائق وأن يقول إن الجدار الحديدي ليس غاية في حد ذاته بل وسيلة لكسر مقاومة العرب لمسيرة الحركة الصهيونية. وأنه عندما تتحطم هذه المقاومة فمن الممكن أن تأتي قيادة فلسطينية معتدلة، وعند ذلك فقط يمكن أن تبدأ المفاوضات الجادة مع الفلسطينيين - وهي مفاوضات يقدم الإسرائيليون خلالها للفلسطينيين حقوقاً مدنيّة وقوميّة، ولم يحدّد جابوتنسكي في هذا المقال ما يقصده بعبارة (الحقوق الفلسطينية) ولكنه بيّن في كتابات أخرى أنه يقصد بذلك مَنَح الفلسطينيين بعض الاستقلال السياسي داخل دولة يهوديّة.

ومن الجدير بالذكر أن ناتانياهو قد تأثّر بمقالة جابوتنسكي وجداره الحديدي تأثراً كبيراً. وكتابه مكان تحت الشمس فيه أوجه شبه كثيرة مع أفكار ذلك الزعيم - الذي هو من اتباعه بل من أقربائه - لاسيّما فيما يتصل بالموقف من العرب. وهكذا نجد في كتاب ناتانياهو هذا (تأكيداً على أن فرص السلام مع العرب تشتت وتقوى كلما بدت إسرائيل أقوى) كما نقرأ فيه أن (السلام الحق والباقي هو السلام المبني على الردع الإسرائيلي).^(١)

(١) بنيامين ناتانياهو، مكان تحت الشمس، ترجمة محمد عودة الدويري (عمان: دار الجيل للنشر، ١٩٩٥).

III - خاتمة:

استطاعت القومية الصهيونية أن تحقق بعض أهدافها، على الرغم من هذه العلل والعورات جميعها، بل بفضل هذه العلل والعورات. فلقد لجأت وما تزال على تزيف الحقائق أمام العالم، ولم توفر أي أسلوب من أساليب الكذب والضغط والعدوان من أجل إنفاذ مآربها. وقد يسر لها مهمتها هذه إدراكها الواضح منذ البداية أن كسب تأييد الدول الكبرى يشق الوسائل هو السبيل الجدد لبلوغ ما تريد، ولو بدا ما تريده أمراً معجزاً في البداية. ومع ذلك هيهات أن تكون قادرة على الوصول إلى نهاية الدرب، ومما يجعلنا نستبشر ببداية نهاية الصهيونية حقيقتان: أولاًهما أن ما تم من لجوء الصهيونية على الكذب والخداع والترغيب والترهيب بدأ يتكشف جلياً أمام الرأي العام العالمي، وسوف يتبدى أوضح فأوضح بسبب وسائل الإعلام والاتصال الحديثة بوجه خاص. ولا أدل على ذلك من أن كثيراً من يهود العالم - ولا سيما الشتات - أخذوا ينفضون عن الصهيونية وآفاتها ومجانباتها للمبادئ الخفية والإنسانية. فعلى سبيل المثال نشر جاك أتالي، الكاتب الفرنسي اليهودي الشهير والمستشار السابق للرئيس ميثران. إلى أثر أحداث القدس بعد زيارة شارون، مقالاً أثار ضجة كبرى عنوانه: (إلى أين تمضي إسرائيل؟) ومما جاء في مطلعته: (لم تكن إسرائيل معزولة كما هي اليوم، ولم تكن يوماً مهددة بالزوال كما هي اليوم) وفيه يقول: (وفي الجملة، إن إسرائيل مهددة بالزوال عن طريق الحرب، ومهددة بالزوال عن طريق السلم، أو عن طريق هجرة النخبة منها خوفاً من الحرب والسلم).^(١)

أمّا الحقيقة الثانية التي تبشر بنهاية الصهيونية فواضحة في بنية المجتمع الإسرائيلي المتداعية إلى حد كبير، فالصراعات في إسرائيل قائمة على قدم وساق بين العرب والإسرائيليين، وبين المتدينين والعلمانيين، وبين الإشكنازيم

(١) مجلة الأكسبرس، عدد ١٢ - ١٨ أكتوبر ٢٠٠٠.

والسوفارديم، وبين الصبرا وغيرهم، وبين الفلاشا وسواهم، وبين اليهود الروس ومن عداهم، وبين الأحزاب الدينية المتنافرة، وسوى ذلك كثير وقد كشفت انتخابات الكنيسة الخامسة عشرة في ١٧ أيار ١٩٩٩ بوجه خاص عن تفتت المجتمع الإسرائيلي، الذي بدا خلال تلك الانتخابات مجموعة من القبائل تبحث كل قبيلة منها عن مصالحها الخاصة غير أبهة بسواها، وقد بدا هذا التشتت واضحاً حين حاول باراك جاهداً أن يؤلف وزارته، ولم يصل إلى ذلك إلا بشق الأنفس، ومن خلال صيغة تشل الحياة السياسية. وهذا التشتت الذي وصلت إليه هوية إسرائيل، وهذا الدرك الذي انحدرت إليه اللعنة البرلمانية فيها، لا يمكن أن يُفسر إلا بكونها نتيجة من نتائج فشل الإيديولوجيا الصهيونية بعد أربعة أجيال وست حروب مع العرب، ويعبران عن عجز اللغة العبرية وأساطير التوراة والخروج والسبي والاضطهاد المسيحي الأوروبي والغيتو والمحركة. ويشهد على هذا العجز بوضوح سقوط باراك نفسه، ونتائج الانتخابات الأخيرة التي كشفت عن زعر سكان إسرائيل أمام زخم الانتفاضة الفلسطينية - وهو زعر حملهم على أن يعودوا إلى أقسى أشكال سياسة العنف، على الرغم مما جرته عليهم من ويلات.

وإلى جانب التمزق الإسرائيلي الذي يعتبر عن فشل المشروع الصهيوني، ثمة بعض الظواهر الفكرية الجديدة التي تدل على أن الفكرة الصهيونية تواجه اليوم مواقف جديدة تدعو إلى إعادة النظر فيها بل على النكوص عنها، وهذا ما نجده لدى أصحاب التيار الذي يُعرف بتيار (ما بعد الصهيونية) والذي يرى ناتانياهو أنه أشد خطراً على إسرائيل من إسرائيل نفسها وهذا ما نجده على نحو أوضح لدى (المؤرخين اليهود الجدد) من أمثال إيلان يابي وبني موريس وسِمحا فلايان وافي شلايم. وقد ذاع صيت هؤلاء المؤرخين منذ منتصف الثمانينيات، بعد أن أطلعوا على وثائق وزارة الخارجية ووزارة الدفاع في إسرائيل، التي تم الكشف عنها بعد ثلاثين عاماً من ولادة دولة إسرائيل، ولقد بين هؤلاء المؤرخون بوجه خاص أن الفلسطينيين لم يهجروا فلسطين طوعاً عام ١٩٤٨. كما تقول المصادر الإسرائيلية

الرسمية، بل طردوا منها أبشع طردة، وتعرّضوا أثناء ذلك لمذابح مذهلة مقصودة (في دير ياسين وسواها) من أجل إكراههم على ترك ديارهم. وقد لقيت أفكار المؤرخين الجدد صدًى واسعاً في إسرائيل، كما لقيت تجاوباً كبيراً في الأوساط العالمية، وليس المجال مجال الحديث عن هؤلاء المؤرخين، وجلّ قصداً أن نشير على أنّ صورة إسرائيل الصهيونية بدأت تهتزّ أمام أعين أبنائها وأمام أعين العالم، وأنها مقبلة لا محال - بحكم بنيتها الزائفة المصطنعة - على مشكلات داخلية وخارجية جمة تضع الصهيونية نفسها ومنطلقاتها موضع التساؤل.

ويلخص محمد حسنين هيكل أزمة إسرائيل اليوم وبالأمرى ووصولها إلى طريق مسدود بسبب الصهيونية، فيقول: (أزمة المشروع اليهودي أنه حاول اختراع ذاكرة من الأوهام يؤسس عليها مشروع دولة أو مشروع إمبراطورية مستحيلة التحقيق وإن كانت باهظة التكاليف بسبب المحاولة).

ولكن حذار أن تدفعنا هذه الصورة المهترئة للكيان الإسرائيلي إلى الاطمئنان على المستقبل، فجلّ هدفنا من وراء الإشارة على بعض معالم العجز الإسرائيلي والقصور الصهيوني أن نبيّن أنّ أمام العرب فرصة نادرة لتضييق الخناق على إسرائيل وفضح أهدافها الصهيونية التليدة والجديدة، وما ينبغي أن نعيه هو أنّ إسرائيل تستطيع أن تبقى مهما تكاثرت أزماتها الداخلية، وأنّ ثمة بلداناً كثيرة في العالم استمرت في البقاء على الرغم من مشكلاتها الداخلية العميقة ما دامت لم تتعرّض لخطر خارجي ولا يبسر انفجار إسرائيل من داخلها إلا توافر قوة خارجية معادية. ولا شك أنّ تصميم الأمة العربية، ومعها الأمة الإسلامية، على تطوير إسرائيل والتضييق عليها ومنعها من أن تخرج من زفانتها إلى رحاب الوطن العربي الفسيح يأتي على رأس العوامل التي تعجل في تداعيها وانهارها بل إنّ جيش إسرائيل الذي هو درعها ورمز بقائها لن يستطيع أن يقوم بمهمته في حماية إسرائيل من جيرانها، وسوف يفقد بريقه وشأنه يوماً بعد يوم في أعين الإسرائيليين أنفسهم، لاسيّما عندما يتقلب إلى جيش حقير يرباط في المدن العربية المحتلة، وينهر على منع التجوّل في مناطق السلطة وفي المستوطنات، ويلاحق أطفال

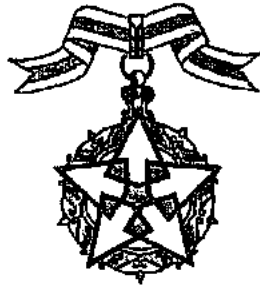
الحجارة، ويقتل الأبرياء من الكبار والصغار والأطفال الرضع، وما نحن نرى الكثير من الجنود الإسرائيليين يرقضون الالتحاق بوحداتهم العسكرية أثناء الانتفاضة الأخيرة، كما رفض أترابٌ عديدون لهم من قبل الخدمة في صفوف الجيش الإسرائيلي أيام معركة لبنان.

وجملة القول إن إسرائيل، التي تملك القوة العسكرية وسواها، لا تملك القوة المعنوية والبواعث الإيديولوجية التي تشدُّ أزرَّ تلك القوة، وما دامت حربها مع الفلسطينيين والعرب حرب المغتصب المعتدي، فلن تستطيع أن تغسل العزيمة العربية، وسوف يظل جيشها المدجج بأحدث الأسلحة مضطرباً قلقاً، والأمة العربية، وإلى جانبها الأمة الإسلامية، تملك الإمكانيات البشرية والمادية والجغرافية الهائلة، وإذا هي استطاعت أن تجمع أمرها، وأن تعزم على أن تمارس بشتى الوسائل حقها في استرداد ما اغتصب منها، فسوف تكون المنتصرة لا محالة، طال الزمن أو قصر وبعد، فإن نظام الأبارتايد العنصري لن يدوم طويلاً، إلا إذا وافق العرب على بقائه على حساب وجودهم ووحدتهم القومية ومستقبلهم، ومن هنا ينبغي أن يكون مفتاح الموقف العربي اليوم ترك الباب مفتوحاً وعدم إغلاق (الملف) مهما تكن التسيورات الموقتة. فالأيام حبلى بالأحداث، وإرادة الشعوب لابد أن تنتصر في عالمنا على الرُّغم ممَّا يتخبَّط فيه اليوم من بحران وفوضى وابتعاد عن القيم الخلقية والإنسانية.

ومعركة العرب ضد الصهيونية لها، بالإضافة على أهدافها القومية، أهداف إنسانية وخلقية طالما أوقدت شعلتها الحضارة العربية الإسلامية في شتى مراحل تاريخها، ومن هنا فمقارعة الصهيونية مقارعة للشر في هذا العصر الذي كان يُطلق عليه اسم العصر الصهيوني أو ليست مثل هذه المهمة الكبرى جديرة بأن يعبأ لها الوجود العربي كله، ونختتم كلمتنا بقول الشاعر القروي: (أما السلام فإننا أعداؤه/حتى يدين بحبه أقوانا) ونذكر بالبيت الذي تحدت فيه عن الاستعمار الفرنسي أندارك (أتيناهم بإنجيل المسيح/فجاؤنا بآيات الفتح).



الجمهورية السورية



اتفاقية الاستفتاء السوري

فتح رئيس الجمهورية بناءً على اقتراح رئيس مجلس الوزراء
السيد شكري مصطفى المرحوم في السقفية السورية في القاهرة
اتفاقية الاستفتاء السوري من الدرجة الثانية بالمرسوم رقم ٩٠٣ تاريخ ٥٧/٣/٢٤
تمشيق في ٢٢ شعبان سنة ١٣٧٦ و ٢٤ آذار سنة ١٩٥٧

رئيس مجلس الوزراء

محمد قنديل

بسم الله الرحمن الرحيم

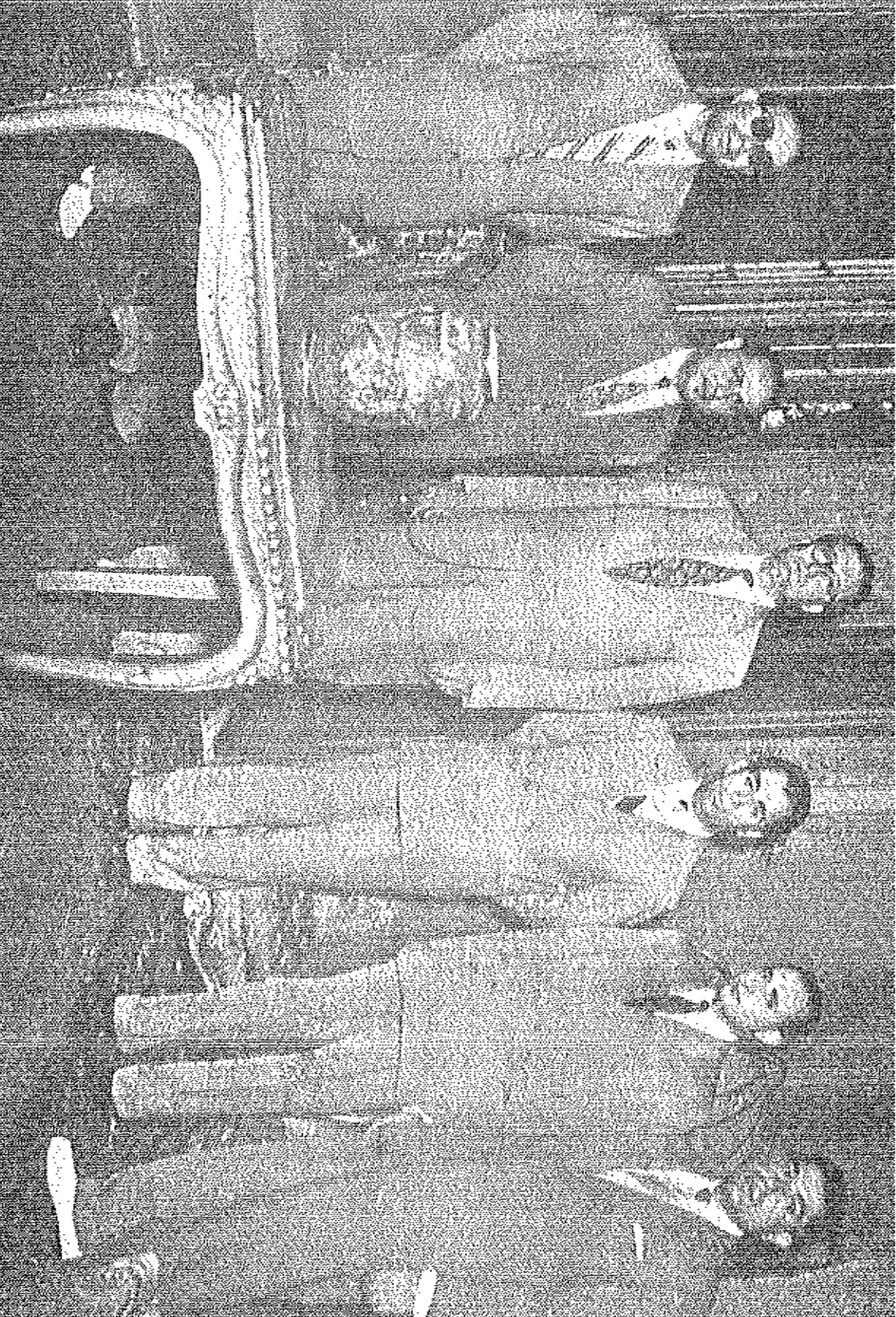
جمهورية مصر

من رئيس الجمهورية جمال عبد الناصر
إلى الدكتور أحمد كروم صلي ، المحامي
بالقاهرة المصرية بالقاهرة ،

تعتبر مصر صفة ، وجميع خبرات الشؤ حيدر الشؤ العربية قد تمخذا
وسم الجمهورية من الطبقة الشؤ

والأمر بالعودة إلى الدولة إلى الدولة

تعتبر مصر الجمهورية بالقاهرة في اليوم الخامس عشر من شهر رجب
لله وللعامة وكس وكس من حرة خاتم الملك



شاكر مصطفى :

أصابع على جراح العروبة لنصف قرن

- قدر المؤرخ أن يحمل هموم أمته على كتفيه، ويمشي على الشوك..
- كل الدنيا تتقدم على التجمع والتكتل، ونحن إلى التمزق والضياع..
- التطبيع مع العدو الصهيوني: خرافة هدفها تدجين العرب وتطويع الأجيال..

كان موكب الوداع حافلاً ومهيئاً:

وكانت "ممشق" الوفية تسير في الموكب الصامت، الذي أحتشد فيه أنباؤها من كل مكان .. رجالات الدولة، الأدباء والمبدعون، المثقفون الشباب، وطلاب الجامعة، وحتى المواطنون العاديون، الذين جاءهم النعي، فأدركوا مدى الخسارة، بفقد هذا المفكر العظيم.

أدريت بصري فيما حولي، فرأيت وجوهاً حزينة، وعيوناً مغيمة بالدموع، وشفاهاً تتمتم بدعاء الرحمة والمغفرة. وما لبثت أن رأيتني أعود بخاطري القهقري، إلى أربعين سنة خلت، لتشرق على ذاكرتي، صور حميمة من صور الرحلة الطويلة، بكل ما حفلت به من عذوبة وثناء.

حين بدأت أول حصة لمادة التاريخ. في ذلك اليوم - منذ أربعين عاماً - دخل المدرس إلى الفصل، بقامته المعتدلة، وبسمته اللطيفة، ونظرته المتألقة الحانية، وبعد أن حيا الطلاب متمنياً لهم عاماً موفقاً، استدار إلى اللوح الأسود، وكتب عليه تاريخ اليوم، وعنوان الموضوع: "البقعة العربية الحديثة" بخط فني جميل، استحوذ على إعجاب الطلاب وانتباههم، فما لبثوا أن اشرأبوا بأعناقهم يتابعون المدرس بمتعة كبيرة، وهو يعرض لهم تفاصيل الأحداث بأسلوب أدبي راقٍ وعبارات مشرقة، وفهم ودفعة وتركيز.. وكان في هذا كله، أقرب إلى طلاقة الأكيب الأسرة منه إلى

رتابة المدرس العادي، ولذلك تسابق الطلاب - من ذلك اليوم - إلى محاضرة مدرس التاريخ ومتابعته بحماس وانبهار..

لكن الأمر لم يدم طويلاً... لأن تعدد مواهب هذا المفكر، وتنوع اهتماماته، ونشاطه المتوقد في كل ميدان، ما لبث أن حمله إلى منابر كثيرة أخرى، وراح اسمه ينتشر كواحد من أبرز الأدياء المبدعين، والمحققين الأصلاء، وهو ما أثار إعجاب المتتبعين، ودهشتهم في آن معاً... فدراساته التاريخية ومقالاته الأدبية، قل أن تخلو منها مطبوعة عربية، وإصداراته الثقافية الهامة تتوالى على ساحة الفكر دون انقطاع، ومحاضراته الثرة في الفن والشعر وألوان المعرفة، يحتشد لها المهتمون من كل جيل في مراكز الثقافة في العواصم العربية... ناهيك عن دروسه الجامعية، وبرامجه الإذاعية، وحضوره المشهود في كل منتدى ومهرجان، وعرضيته في المؤسسات الثقافية، ولجان التخطيط ومستقبل الثقافة العربية... وكان توق الشعراء والكتاب الأول، أن يقدم شاكر مصطفى لمؤلفاتهم ودوليتهم بعبارة الزهيفة، وكلماته الأنبيّة التي تمطر ألفاً وموسيقاً.

الصالحية أول الطريق:

ولد الدكتور "شاكر مصطفى" في الأول من آذار - مارس - عام ١٩٢١م، في حي الصالحية بمدينة دمشق، وهو أقدم تجمع سكني في المدينة، أنشأه المهاجرون الهاربون من مظالم الصليبيين، عند سفح جبل قاسيون، وسرعان ما غدا ضاحية عامرة بالمباني الجميلة، والجوامع والمدارس والمكتبات والزوايا، ومشرقة على البساتين الناضرة والجدول الصافية.

نشأ "شاكر مصطفى" في أسرة متواضعة، وكان فخوراً بأسرته والحسي الذي درج فيه، إلى حد، بدأ معه إحدى محاضراته الأدبية يوماً: "يقولون إن أفلاطون" الفيلسوف العتيق حين افتتح مدرسته في "أثينا"، كتب على بوابتها: من لم يكن مهندساً فلا يدخل علينا" وأقول لكم سلفاً: من لم يعرف شيئاً عن "الصالحية" فلا

يدخل علينا، سيفترسه الملل حين أحكي عنها، وأنا ابنها بالوريد المربوط برباط القلب منذ الطفولة...

تلقى "شاكر مصطفى" علومه الأولى بمكتب «عنبر» أول المدارس الرسمية بدمشق.

والذي تخرجت منه - فيما بعد - الصفوة المتميزة من رجالات الحكم والفكر والقضاء والصحافة، وانتقل إلى مدرسة التجهيز لمتابعة الدراسة الثانوية. وكانت المدرسة يوم ذاك، مركزاً للمجاهبة الوطنية ضد الاحتلال الفرنسي، يقود طلابها المظاهرات اليومية الصاخبة، المنسدة بالمستعمر الأجنبي، ويتصدون بجرأة لرصاصة.. وكان «شاكر مصطفى» يشترك في نقل الأسلحة للثوار المجاهدين في بساتين «الغوطة» المحيطة بالعاصمة، ويساعدهم في التنقل الآمن بعيداً عن العيون، ولا يزال رفيقه، ينكرون إلى اليوم، صعوده الجريء إلى سطح الفندق الكبير، وسط «ساحة الشهداء» بدمشق، لينتزع العلم الفرنسي من ساريته، ويرمي به من عل، فلما صوب الجنود نيرانهم إليه ألقى بنفسه على رفيقه وأنقذوه من موت أكيد.

والغريب أن ذلك كله، لم يحل بينه وبين مذاكرته وإعداداته لدروسه، فنال شهادته في نهاية العام الدراسي، حائزاً الترتيب الأول على أقران دفعته، مما حدا بإدارة المدرسة على تكريمه في حفل مشهود، دعي إليه رجال التعليم، وقدمت فيه مجموعة من الكتب الأدبية - عشقه الأول والوحيد - وبعدها تابع تعليمه بدار المعلمين العليا .. وغادر إلى مصر ليواصل تحصيله الجامعي. الذي أهله للأجازة في التاريخ عام ١٩٤٥.

وكانت لسفره إلى مصر حكاية طريفة يرويها بشغف لمحاوريه: بعيد حصولي على الثانوية العامة، بدأت أتهيأ للسفر في بعثة إلى "فرنسا"، لدراسة الرسم في معاهد باريس، إذ لم يكن مسموحاً - بحكم الانتداب الفرنسي على "سوريا" - بالسفر إلى غيرها من عواصم الغرب، ولكن نشوب الحرب العالمية الثانية الذي جعل السفر مستحيلاً، حول بعثتي إلى مصر، وفيها كان مقرراً لي أن

أدرس اللغة العربية، ولكنني تحولت إلى التاريخ.

عاشق الحرف، والدبلوماسية:

بعد عودته إلى "سوريا"، بدأ مسيرته العملية مدرساً للتاريخ في الفترة ما بين ١٩٤٦-١٩٥٣ وقام في المرحلة ذاتها بتأسيس القسم العبري في الإذاعة السورية. ليوحه برامج تقضح العدو الصهيوني. وتكشف أبعاد المؤامرة العالمية على الأمة العربية، بأسلوب علمي.

وراح يتدرج في المناصب الإدارية والعلمية يوماً بعد آخر، مديراً لدار المعلمين، وأميناً عاماً لجامعة دمشق، ومديراً للإذاعة، ثم مستشاراً ثقافياً بمصر، ونال في هذه الفترة شهادة الدكتوراه في الآداب من جامعة زيورخ بسويسرا.

على أن المحطة الهامة في مسيرته، كانت انتقاله إلى السلك الدبلوماسي في مطلع الستينات فبدأ قائماً بالأعمال في "السودان" ثم سفيراً في "كولومبيا" وقصلاً عاماً في "البرازيل" حتى نهاية عهد الوحدة بين مصر وسورية. ثم مديراً عاماً للسياسة الخارجية في وزارة الخارجية، وأخيراً وزيراً للإعلام بين ١٩٦٥-١٩٦٦.

وظل عشقه للحرف مصاحباً له حيثما ترحل: "لم يفارقني حب العربية وأدبها لحظة، فبعد أن أتقنت الإسبانية والبرتغالية، وأنشأت في "بوغوتا" معهداً لتدريس العربية وأدبها، ودرست فيه ثلاث سنوات، وقد لقيت تشجيعاً من رئيس جمهورية "كولومبيا" آنذاك "خوليو تراباي" العربي الأصل ... كما وجدت الدعم لدى الكاتب البرازيلي "جورج أمادو" الذي ترجمت روايته "صرخة الماء" إلى العربية.

لبى "شاكر مصطفى" دعوة المرحوم الشيخ "جابر العلي الصباح" وزير الإعلام بدولة الكويت عام ١٩٦٦ ليكون المتحدث الرسمي باسم مجلس الأمة الكويتي، وفي تلك الفترة نشبت حرب الأيام الستة - حزيران ١٩٦٧، فأنبرى لفوره إلى إعداد البرنامج التلفزيوني الأسبوعي: "أعرف عدوك" الذي سلط فيه الضوء على الحقائق التاريخية في القضية الفلسطينية وقد أكاذيب العدو الصهيوني بأسلوب

علمي رفيع، وقد استقطب البرنامج حماس الناس واهتمامهم على مختلف مستوياتهم ... وإلى الحد الذي كان فيه شوارع الكويت تكاد تخلو من المارة ساعة بث البرنامج.

وكانت "جامعة الكويت" وقد أشرعت أبوابها منذ أمد قريب - مايو ١٩٦٦ - فأسهم "شاكر مصطفى" بتأسيس كلية الآداب فيها، وعمل مدرساً للتاريخ، ثم رئيساً للقسم، فعميداً للكلية عام ١٩٨٢. ولم يشغله هذا كله عن اهتماماته الفكرية الأخرى، سواء في التأليف التاريخي والأدبي، وراحت دراساته المتعمقة في التاريخ الإسلامي تصدر تباعاً وفي مجلدات ضخمة من آلاف الصفحات، وحينما كنت أقول له: إن اليوم عندك ٤٨ ساعة، وليس ٢٤ ساعة فقط، يكفي بابتسامته اللطيفة ويقول: ليس المهم، كم ساعة هو اليوم، المهم كيف تتعامل مع ساعات اليوم.

الأدب أولاً وأخيراً:

خلق "شاكر مصطفى" في أجواء الفكر الرحبية، بجناحين قويين: ثقافة رفيعة متنوعة، وحس فني شفاف، فأعطى في التاريخ والأدب، مؤلفات متميزة جعلته علماً متفرداً بين قلة لن تتكرر في عصرنا.

لقد سألته في آخر لقاء معه قبيل شهور من رحيله - وكان قد انتهى لتوه من محاضرة شائقة في النادي العربي بدمشق - كيف استطاع أن يجمع بين التاريخ والأدب، وأن يكون محققاً ومبدعاً فيهما معاً فقال:

أنا للأدب أولاً ... وللأدب أخيراً، الكلمة الحلوّة تأخذ من شرياني، وأنا والحرف عاشقان قديمان .. دفاتري الأولى كانت شعراً وأحرفاً رقص وموسيقا بيان ..

لقد درست التاريخ لأنه يمنحني الامتداد الثقافي وأبعاد الحياة وأزمانها والألوان وهذا فإن التاريخ هو مهنتي التي أحب، والأدب دنياي التي أعيش وهما منسجمان في جيبني وخطري أروع الانسجام، فأنا أدرس التاريخ وأكتبه بولع من لا هم له

غيره، ويغزوني "عفريت" الأدب فأزيع كل شيء أمامي، وأظل ليلي بطوليه على ترديد بيت من الشعر أو قراءة قصيدة، أو إعادة لأسطر في قصة من قديم ما عرفت".

وقد بهر أسلوب شاكِر "مصطفى" الأدبي، قراءه ومستمعيه، وشغفهم بعبارته الوضاعة، وموسيقا صوره العذبة، وكان "تزار قباني" شاعر الورد والهمس والملحن، مأخوذاً بسحر المفردات تفتت عنها ريشة صديقه "شاكِر مصطفى" فكتب له:

«بالنسبة لي، لا قيمة لكتاب يصدر عني ولا يحمل توقيعك، لأن لا أحد يعرف شعري، أكثر مما تعرف أنت .. أكتب عني يا شاكِر، لأنني أولد على يدك مرة ثانية».

قدر المؤرخ:

شغف "شاكِر مصطفى" بتاريخ العرب المسلمين، فأعطاه جهده وضوء عينيه، راح يقلب الصفحات المطوية، ويقرأ السطور وما وراءها، وينبش بأسلوب المحقق، في تفاصيل الأحداث، ليغربل في مصنفاته الدقيقة، ما تحصل عليه بمهارة وتمكّن تفرّد بها، ثم لينشر منه ما يراه جديراً بأن يكون التاريخ الحقيقي للأمة: أحداثاً وشخصيات فاعلة في الأحداث، وألح - بخاصة - على الصورة الحضارية للأمة، التي تضيء من أعماق القرون، بإشعاع التقدم الفكري، ومنجزات العبقريّة الخلاقة، ضارباً عما شاب الحقائق من تشويه وتزييف على مر العصور.

كان هدفه الأسمى الذي طمح إليه بصدق شديد، أن تقرّ الأجيال الطالعة، تاريخها المجيد باعتزاز وإكبار، وتؤسس على هديه، غداها المتألق المنشود، وقد لخص مهمته يوماً بقوله: "إن قدر المؤرخ أن يحمل هموم أمته على كتفيه، ويمشي على الشوك، شاء أو أبى ... وأن يضرم مجدداً جذوة تطلعاتها وأحلامها ... وهذه رسالة لا يقدر عليها إلا من أوتي بعض عزيمة الأنبياء..

وكان واقع العرب، والمأزق الحضاري الذي تمر به الأمة العربية، والتحديات الكثيرة التي تجابهها، محور أحاديثه اليومية، وكان يجيب كلما سئل عن حال الأمة وهمومها:

"ولو كان سهماً واحداً لا تقيته ولكنه سهم وثان وثالث"

كانت مشكلة " الثقافة العربية" شغل "شاكر مصطفى" وهمه الأكبر، كان يشبهها بالزرع الذي لا غنى عنه لحياة المخلوق، وكلما لقي هذا الزرع، الرعاية والاهتمام، وهو بعد بذور في رحم الأرض، كلما ازداد نماء ووفرة وعطاء، سواء في حاضر الأمة ومستقبلها.

ويستطرد: إن الرياح المسمومة التي عصفت بأمتنا من كل اتجاه، ومخالب الغدر والشر التي انشبت في أرضنا وظهورنا طوال قرون، وأشبعتنا ذلاً في اقتصادنا وسياستنا، عجزت عن كسر العمود الفقري للأمة العربية، وخنق روحها النابضة، الثقافة، وهي خندقنا الأخير الصامد، وجدارنا الصخري المستعصي على السقوط برغم كل السهام والمعاول الشرسة. وانظر على كم جبهة تقايل ثقافتنا.

صراع العرب والغرب:

في إحدى الجبهات يتواصل صراعنا الدائم مع الغرب، الذي يغيبه وجدونا كصخرة قائمة على العدو الاستراتيجية فيما بينه وبين قارات العالم. تاريخنا كله صراع مع الغرب ... لكن المشكلة اليوم، في عدوانية الغرب مختلفة عما كان في الماضي ... إنها الاجتياح المادي والثقافي ... إنه لا يسلب الثروات المادية كما في عهود الاستعمار البائدة، ولكنه يدمر القوى الفكرية والثقافية والروحية، التي يمكن أن نقول ذات يوم: لا، للغاصبين.

في أيام الاستعمار الأولى، كانوا يتخطفون العبيد ويسوقونهم إلى ما وراء البحر، وهذا عصر العبودية الجماعية المقنعة ... عبيداً بدون هوية، ولا يحكمون

الأسيار والقيود في الأعناق، ولكن على الأرواح.

إن عمليات الاختراق للبنى الثقافية تتم في صمت ودأب كاملين: الأقمار الصناعية تطوق الأرض، وتوزع التوجيه والإعلام، ضمن المخططات المرسومة للآخر المتخلف، وكالات الأنباء العملاقة تملأ جماجم الناس، وأرشيف المعلومات لدى شعوب الأرض. وتلعب بالسياسة والثورات لعبها بالأسعار والدماء، ولا تتسى برامج التلفزيون وسلسلته التي توطد قيم الغرب، ونمساذج الاستهلاك والسلوك والبطولات الكاذبة لرجل الغرب، وكذلك أفلام السينما، ومطبوعات "الموضة" والموسيقى الهستيرية، والثقافة المصنوعة للتهريج، ولعب الأطفال ... وتأمل الدورة السريعة التواتر التي تدورها كل هذه المؤثرات والوسائل معاً، ولا تعجب .. فهم يأخذون منا حتى أولادنا من الأحضان .. إنهم يخطفوننا ويختطفونهم في عمليات ثلاث، منظمة ومنكاملة:

"التغريب الثقافي": «تمزق الهوية الحضارية القومية، وتضليل الاتجاهات بالأهداف الزائفة التي توطد التخلف وتنميته».

قلت له: ولكنك لا ترفض ثقافة الغرب بالطبع وهي التي دخلت في تكويننا الفكري، وتكوين غيرنا من الشعوب، وينعم العالم بالإنها في كل شبر من الأرض. لا بالطبع، وكيف أرفضها وقد صارت إرثاً للإنسانية بأسرها، كما كانت حضارة العرب المسلمين يوماً .. ولكني أفرق بين الثقافة الغربية، وبين استغلالها للاستعباد، وسأظل أرفض أمرين اثنين: الأول أن تحل هذه الثقافة محل ثقافتنا وفكري، والثاني، استخدامها العدوانية ضد ثقافتنا وأهلي، وجعلها وسيلة للفناء. ولذا لا بد لنا أن نعرف بأن شيئاً خاصاً في طريقه للتخطم في أعماقنا، في نسيجنا الفكري التكويني، وأنا : لب بالتدريج وبصمت، الهيكل البنائي الثقافي الذي تقوم عليه الذات العربية الإسلامية وأنا ننسحق حتى العظم بين فكي آلة تسطح ... لا تكجّن الوجود الثقافي العربي وحسب، بل تمسح بالتدريج وبصميم ودأب عدوانيين معالمه وينابيعه، تحرق النبتة المبدعة فيه..

خفافيش الإقليمية:

ويشير "شاكر مصطفى" بإصبعه إلى خريطة الوطن العربي فيقول:
الذي أعرفه أن جميع دولنا على الإطلاق، إنما قامت بتوجيه استعماري،
بتسوية بين الطامعين الأجانب، ونحن نمثل توازن التجزئات الاستعمارية التي
دمرتنا في القرن التاسع عشر ... كانوا يقررون ولا يطلبون حتى بصماتنا، ما من
حدود في الأقطار العربية على الإطلاق سواء بينها، أو بينها وبين الدول الأخرى
المجاورة، وضعها عربي، أو اشترك في وضعها، كل التواقيع على وثائق الحدود
التي نتمترس وراءها، وندافع عنها بشراسة، وضعها المستعمرون، ومضحك حتى
البكاء، أن نكون ضدها حتى الموت منذ قرن وأكثر، وأن نكون معها حتى الموت
بعد الاستقلال وحرية المصير.

إن الحلق ليخنتق بغصته، ونحن نرى الدنيا تمشي على التجمع والتكتل، ونحن
نسير بالعكس على التمزق والبنى الصغرى، وقد انطلقت من المغاور الإقليمية كل
الخفافيش السوداء، مرة بحجة الوطنية، ومرة بحجة حماية التراث الذاتي، وراحت
حتى المجموعات الصغيرة والقبلية، تتحدث عن حقوقها بصرف النظر عن حقوق
أشقائها ... ومن الضحية تحت الأقدام؟.. الثقافة .. الكتاب على الحدود مادة
مشبوهة كالمخدرات، ومتفقو المشرق، لا يكادون يتذكرون اسمين من أسماء متفقي
المغرب، وبالعكس، يتساوى في هذا الكتاب والشعراء ورجال الإعلام؛ وحتى قنوات
البث الفضائية، التي تسرق الشعوب من وراء كل السنظم، لا تروج إلا لحكايات
المغنيين والممثلين والوجوه الجميلة، وكأنه ليس في هذه الأمة مفكرون ومبدعون ...
أم يتعمدون دفع الفكر الراقي إلى المتاهة؟

ثم أليس مخجلاً، ألا يطبع من الكتاب الرائع عندنا أكثر من ٣ آلاف نسخة
لـ ٢٢٠ مليون إنسان؟ وألا يصدر لدينا في العام الواحد أكثر من ٥ آلاف إلى ٧
آلاف عنوان جديد في حين يطبع في أي بلد غربي ما بين ٥٠ إلى ١٥٠ ضعفاً من
ذلك؟ أليس مؤسفاً ألا يكون في هذه الملايين العربية غير ١٦٠٠ شاعر يحصرهم

إحصاء بالاسم، والشعر منذ كان هو الشعر في العرب؟ وأخيراً اليس مدعاة للدهشة أن نهال ونقرع الأجراس لأن بيننا واحداً نشر كتاباً بالإنكليزية أو الفرنسية؟ ترى هل خلقنا نحن لنستهلك أوكسجين الهواء وحسب؟

والمؤلم أننا نثبت الحدود الإقليمية بأيدينا وأسناننا، فنكبر الهوة بين أقطار العروبة، وتنعمق، لنترك في الروح القومية جروحاً وتشوهات، لن يكتب لها الشفاء إذا ما استقرت وترسخت.

وينتقل شاكر مصطفى إلى جرح آخر نازف في جسد الأمة:

النفق المظلم:

إنها المشكلة المستعصية في وطننا، ٦٠ بالمائة من أبناء العروبة أميون، لا يتحدث عن الأمية الحضرية التي تصل إلى ٨٠ بالمائة، ولكن عن الأمية الأبجدية ... والحديث عن ثقافة عربية معاصرة، ضرب من العبث، إن لم يأخذ بالحمبان، أن ثلثي أمتنا لا يعيشون عصرهم، وتحدث الإحصائيات أن هناك ١٠٠ باحث علمي لكل مليون نسمة، في حين تقدم البلاد الصناعية ثلاثة آلاف، ولا يجاوز ما تنفقه الأقطار العربية على البحوث والتنمية الـ ٦ بالمائة من إجمالي ما ينفق عليها على المستوى العالمي .. في حين تنفق على صراعاتها الإقليمية والداخلية مليارات الدولارات ثمناً للأسلحة القديمة ووسائل التخريب ... ولهذا تبقى الثقافة ضرباً من الوهم إن لم تكن مبنية على قاعدة شعبية عريضة تساندها. وستظل الثقافة العربية مصطلحاً تجريبياً، إذا لم تهبط نسبة المحرومين من الأبجدية في القرى والأرياف إلى ما دون ١٠ بالمائة في أبعد تقدير.. إن أمة ثلثاً أبنائها من العميان. لا تستحق أن تتحدث عن الشمس والربيع، ورقص النجوم على القمم، قبل أن تخرج من النفق العميق المظلم.

ويزفر المفكر من الجوانح، وهو يتحدث عن جرح آخر نازف في جسد الأمة:

انتهى عهد المعجزات:

نحن نعلم أن الحرية هي الشرط الأول للإبداع .. بل للحياة برمتها ... في الجو المغلق تموت الثقافة، ويتعطل الفكر، ويتوقف نبضه، كما يتوقف القلب عن الحركة، هل رأيت سوسنة متفتحة في غرفة مغلقة، أو طائراً يرتل في قفص معتم؟ كذلك يذبل الفكر ويتخشب حين يحرم من الهواء الطلق، وينتهي إلى التفسخ والعفونة، ويغدو طعاماً للذباب، ومن المؤسف أن حرية الفكر والتعبير هي الشرط الكبير الغائب في الثقافة العربية اليوم، وكلنا يعرف أن الثقافة الحقيقية لا تصنع بأوامر السلطة فكل شيء ممكن أن يتم بالأمر: إقامة المصانع الشامخة، وبناء الجسور وناطحات السحاب، وزراعة المساحات الشاسعة ... وتستطيع السلطة أن تتحكم بمجاري الأنهار. وبالسحب لتمطر أنى تشاء، وتستطيع حتى التجول في جنبات الفضاء وبلوغ الكواكب، وكل من هو القادر على إبداع الفكر؟ ... ما من أحد يستطيع أن يخلق شاعراً أو مصوراً أو موسيقياً بالقوة، فضلاً عن أن يوجد أمثال المتنبي أو المعري والزهرابي وابن رشد. إن يد السلطة مغולה عن مثل هذه المعجزات، ولكنها تستطيع أن تمهد لها الأرض الطيبة، وتتعهدها بالري والماء لتعطي أمثال هذه الثمرات..

والمؤلم فعلاً، أن النظم الحالية لا تولي الثقافة العربية عنايتها إلا كما يولي العابر، الشحاذ على الطريق: نظرة إسفاق وقرشاً في الكف ... بلى ولا تمثل الثقافة عندها، أكثر من شكل من الزينة والديكور. من يعرف أن الأقطار العربية لا تنفق إلا أقل من النصف بالمئة من ميزانيتها السنوية على الثقافة، يصمت "شاكر مصطفى" ملياً، ثم رفع وجهه لترى نظرة عينين مغرقتين بهم ثقيل:

خرافة السلام ووهم التطبيع:

ذلك كله كون، وخرافة التطبيع مع العدو الصهيوني كوم، ونحن نعرف بالبداهة، أن الغرب منحنا الاستقلال باليمين، وزرع الدولة الصهيونية بالشمال في

الوقت ذاته، ليستمر استغلاله الإمبريالي بعد الاستعماري.. وحين تصدى العرب لهذه النبتة الشيطانية، أذلّوهم بتأييدها المطلق بالمال والسلاح والدعم لتبقى هي الأقوى؛ هذه الدولة تكلفنا كل يوم المليارات من الديون في السلاح على غير طائل، وتأكّل عيوننا فلا نستطيع التنمية، ولا نكاد نقوم بمشروع منتج وهي في خاصرتنا شوكة ممتدة... ترتع هذه الأجيال الأمريكية في أرضنا بامتياز ودون رادع، ويريدوننا أن نمد لها يد السلام، ويدعون للتطبيع معها في كل ميدان، وبالذات في مجال الثقافة... إنهم يقصدون بالتطبيع حالة لا يرتفع فيها صوت عربي برفض وجودها، تريد من ٢٢٠ مليون عربي أن يرفعوا الأيدي تائبين نادمين على كل ذلك التراث الذي يحملونه منذ أنزل القرآن الكريم، وحتى آخر صفة كتبها كاتب عربي ضد اليهود.

ثم ما الذي سنحصل عليه مقابل التطبيع، أعني ما هي الثقافة الصهيونية التي يريدون تطبيعها مع الثقافة العربية؟ إن مجرد الكلام عن ثقافة إسرائيلية تعبير خاطئ، فليس هناك ثقافة إسرائيلية أصلاً حتى الآن..

إن العلماء الذين تحصيهم "اليونيسكو" لحساب إسرائيل، ليسوا منها، إنهم بولونيون أو إنجليز أو فرنسيون (من دول أوروبا وأمريكا) ولا يكتبون أبحاثهم بالعبرية، بل بلغاتهم الأصلية وهم على كامل الاستعداد لخدمة المصالح الأمريكية التي تسوقهم إليها ونقدم لهم مليارات الدولارات لاستقرارهم علمياً واجتماعياً. إنهم مثل شجرة النخيل الذي تقتلعونه من منابته بترابه وجذوره لتغرسوه في البيوت والحدائق... فإن طرحت النخلة عشرين عزقاً... فمن ثمرها وتعب بها وأنشأها؟ علماء إسرائيل نبت مستعار إنها عقول مهاجرة من الخارج جاهزة للعمل، إن أمطار الغرب تصب في إسرائيل كما تصب أمطارنا نحن في الغرب وحتى تفوق إسرائيل العسكري ليس لها... إنه مسروق من هنا وهناك في دول الغرب وهل تستطيع أن تدعي اختراع حتى أصغر جهاز من مبتكرات التقنية الأميركية.

وماذا تريد إسرائيل من التطبيع: أن نلغي من قرآننا وديننا ما يمس من هم (أشد الناس عداوة للذين آمنوا) ولا نذكر أنهم كانوا حرياً على الرسول الأعظم

(ص)؟ وأن نمحو من تاريخنا وجود العرب ٥٠٠٠ سنة في فلسطين؟

وماذا عن تباين اللغة؟.. هل نفتح ١٠ آلاف فصل لتدريس العبرية ولدينا ما يزيد على عشرين لغة هي أخرى يتعلمها هي كالصينية واليابانية وغيرهما. ما الداعي ثقافياً لتعلم لغة لا يتكلمها في إسرائيل نفسها غير مليونين فقط.. ويتحدثون بها لغة شارع وليس لغة علم .. ثم أليس أفضل أن نصرف التطبيع الثقافي إلى البربر والأكراد الذي يعيشون بيننا من أن نصرفه لهؤلاء؟ أليس أفضل وأكثر أهمية وفائدة أن نتوجه بالتقارب والتفاهم إلى أهلنا في كردفان ودار فور والأورس والأطلس؟

ألم يعد ينقص ثقافتنا إلا الثقافة الإسرائيلية ثقافة أربعة ملايين، نلثم لا يعرفون العبرية؟ وما الذي لدى هؤلاء من مكونات الثقافة؟ ماذا لديهم من طراز العمارة والفنون التشكيلية والإبداع المسرحي، أو الشعر ذي القيمة الرفيعة ومن المتاحف ومن المخطوطات؟ ولولا أن "يانيل دايان" كانت ابنة هذا القرصان، ما سمع أحد من العرب بقصصها، ولولا فضول بعض المترجمين، ومعونات الشين بيت ما سمعنا بأسماء بعض الكتاب وهم على أي حال أمريكيون.

التطبيع ... هزيمة إلى الأبد:

على أن نقطة المركز في التطبيع الذي يريدون: أن يمدوا أصابع الصهيونية تحت أعيننا على مستقبل أطفالنا وأجيالنا، وتدجين الجيل الآتي وما بعده فلا يعرف شيئاً عن الجريمة الصهيونية، ولا يرتفع صوت يطالب بالأرض والمقدسات، قرار التطبيع يعني بالضرورة تغيير المناهج الدراسية، وتغيير مواد الدين والتاريخ والأدب والشعر. ومحو كل ما ينمي الحقد ضد الغاصبين الصهاينة، ويدعو للثأر من عدو الأمة التاريخي، وقرار التطبيع الصهاينة، ويدعو للثأر من عدو الأمة التاريخي، وقرار التطبيع معناه أن نضع كتباً مطهرة يرضى عنها اليهودي البشع، وأن يقطع المربون والمدرسون في المدارس ألسنتهم التي ظلوا خمسين سنة يلهجون

بها بالحق، ويرمون بها للكلاب، إكراماً للتطبيع والسلام.

ونتساءل ولنا الحق، عن الثمن الذي سيدفعه الأعداء مقابل التطبيع فلا نجد جواباً ... إذن فأين ثمن الأرض المغتصبة والضحايا بمئات الألوف، والمشردون والمعذبون؟ هل ثمن ذلك أن نلقي أجيالنا في البحر، ونكتب تعاليم أخرى لديننا، ومناهج ظاهرة لتاريخنا كي ننال شهادة حسن السلوك من العدو وعليها. خاتم الشمعدان السداسي؟

هل علينا أن نكتب شعراً بريئاً لأبنائنا، وجغرافيا كاذبة، وأدياً (سامياً) لينشد أطفالنا نشيد "هاتكفا" كل صباح بدل موطني، وبلاد العرب أوطاني؟

إنهم يريدون لنا أن نقتلع الجذور السامة من دمننا وأجسادنا ... فهل هم مستعدون لاقتلاع حقدهم غير المبرر علينا وعلى مستقبل أجيالنا؟ إنهم يطلب تغيير المناهج المدرسية - كرمي للتطبيع - يطعنون هويتنا الحضارية في الصميم، ويتدخلون في اخص مميزاتنا الثقافية بتشويه التربية، فإذا رفضنا اتهمنا بالعداء السامية ... قل: بلى .. نحن لا ساميون إن كانت السامية تلغي من قرآننا العظيم آياته ومن أحاديث النبي الكريم أحاديثه، نحن لا ساميون بلى، إذا كانوا يريدون بالتطبيع تطويعنا، وأن يزوروا التاريخ ليبلغوا الوجود العربي ... نحن لاساميون إذا أرادوا جعل السلام شراباً نسقيه لأطفالنا كأساً كل يوم، فينشأوا مسالمين أرناب وقططاً.

إن التطبيع الذي يريدون ليس إلا عنواناً براقاً لهدف مآكر، يريد تفكيك العقدة النفسية التي كونها الوجود الصهيوني ظلماً وعدواناً في الوطن العربي، وهو وسيلة لتقليل أظافر العرب، وخلع أكتافهم، فلا يحمل السيف بعد ذلك ضدهم حامل، إنها الطريقة الأخيرة لهزيمة العرب إلى الأبد.

لكن أقول: إن هذا التطبيع في واقعه. تطويع، وهو عملية مرفوضة، وبناء على الماء .. إنه عملية مستحيلة .. إن سفير الأعداء بمصر يعتصم بأعلى بناية معزولة، وعلى بابه الحراس بالعشرات ... ولمسوف تمر مياه كثيرة في بردي

ودجلة والنيل قبل أن ينجح صهيوني في السير آمناً على ضفاف هذه الأنهر..
فقد ينبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هيا

- ويطرح السؤال نفسه - في ختام الحوار: ونحن: ما هو دورنا؟ وما هي
سبيل الخلاص؟.

طريق الخلاص:

يرد المفكر الكبير: إن التخطيط للخلاص يقتضي أولاً: ردم الهوة المتزايدة في
السعة والعمق، عن طريق تغيير المفاهيم الأساسية التي يقوم عليها الفكر، إن ما
نشاهده اليوم من صور التراكم العلمي الهائل يضعنا بالرغم منا على أبواب عصر
مختلف، وقد انقلب التوازن العلمي والتقني القديم، كمّاً ونوعاً وسرعة في كل
مجالات المعرفة في مدى لا يزيد على نصف قرن وإذن فلا بد لنا والحال كذلك أن
نفكر بالمستقبل ونخطط له على ضوء المتغيرات المستقبلية، وحاجات الغد... وهنا
أشير إلى خطوط أولى وحسب:

- سد منابع الأمية، ليس بالمعنى الألفبائي ولكن بالمعنى الحضاري أيضاً.
- تكثيف الثروة البشرية العلمية وربطها لا بالأرض فقط، ولكن بالثروة المادية
للأرض وبالمشاكل الإقليمية المتوطنة.

- دعم خبرات الترجمة وتقنية الترجمة.. الترجمة علم مهم، ولا بد أن تدفع
به جامعات إلى المقدمة بقوة، تنظيمياً وتقنية واختصاصاً.
- الاتجاه إلى تقنية المعلومات، التي أصبحت رأس مال الغد، والعلم المساند لكل
العلوم في المستقبل ... إن العالم كله يتجه من المجتمع الصناعي إلى
المجتمع المعلوماتي.

- التوجه نحو تقنية الاتصال والإعلام .. لأن ثلاثة أرباع ثقافة الغد سوف
تأتي عن طريق وسائل الاتصال. لا بد من السيطرة على عمليات الاتصال

والإعلام لتكوين القاعدة الثقافية التحتية الضرورية، ولمساندة العملية العلمية، وكذلك لابد من وجود الأجهزة البشرية التقنية بجوارها ووجود الإنتاج الجذاب الأسر الذي يبعث منافسة وسائل الاتصال الأخرى ويوقف تدفقها الوحيد الجانب حتى الآن..

إن خلاصنا لن يأتي عن طريق شعار يرفع ليلتحق به الناس، وإنما الجهد المضني، والعمل الدائب الذي يستهلك الشرايين والأعصاب .. عمل يشترك فيه المتقنون المنتجون، الذين يلتقطون النبض الحي في المجتمع، يسمعون ويتجاوبون معه ولا يكلفون بتحليل الهزائم والبكاء، متقنون مؤمنون بالديموقراطية، ويقدمون الشهادة على المصلحة الخاصة، وتشترك معهم كل طبقات المجتمع: العامل والفلاح، والجندي، في نضال فكري تمارسه الأمة بمجموعها خلال أكثر من جيل.

خياران لا غير:

إن الخلاص يتمثل في انطلاقة من أعماق الروح الشعبية القومية، نشترك فيها العملية الاقتصادية بقصيدة الشعر، وصنع الصاروخ باللوحة الفنية، والفلسفة بدخان المعامل، والموسيقا بالحرف الملتهب، وتربية الطفل بتمثل الفكر العالمي والحوار معه ... إنه بكلمة نهضة تتساق فيهما وتتعانق كل الخطوط في وقت واحد.

وأستطيع أن أخص ذلك كله بكلمة: إنه التحدي الداخلي ... وهو الأصعب والأقسى هو التوافق مع العصر، والإحساس بإيقاع الزمن المتسارع وإدخاله على منظومة القيم وعلى أسلوب الإنتاج .. هو التنسيق الاضطرادي مع حركة الإنسانية، وبالانقلاب الذاتي من الداخل ومن الجذور .. وأكاد أصرخ: لا تنسوا الزمن .. إنه يفر وبالسرعة المجنونة من بين الأصابع، فليبدأ العمل اليوم لا غداً .. الآن بلى ..

إن العرب اليوم أمام واحد من خيارين: إما وعي الطريق كله وتحدياته، والشروع باجتيازه بإيمان وشجاعة مع إطلالة القرن الجديد، وإما بقاء الطريق المشروع حلاًماً، حتى تفرغ الولايات المتحدة من تدجين المنطقة العربية على السذوق

الإسرائيلي الأمريكي. وحينئذ، ابحثوا إن شئتم عن الثقافة العربية بين أرقاء القرن الحادي والعشرين.

محارب على طريق التنوير:

هكذا، ظلت هموم الثقافة العربية، تركز على عقل المفكر وقلبه إلى آخر يوم في عمره، وظل هو يعطيها من نبض روحه ووجدانه، ويبت همومه القومية والوطنية في محاضراته ومقالاته وكتبه، وراح يعمل "كما لو أنه ملتزم بعقد علم استعبادي مع الوقت".

ولقد أسهم "شاكِر مصطفى" في نهوض الفكر العربي وحداثته، بتواضع خالٍ فقط بالكبار، وليس من سياسي مشرقي، أو مفكر أو عامل في إشغال الفكر، إلا و"شاكِر مصطفى" دين عليه، لقد بدأ محارباً يريد أن يغير نظرتنا إلى الأشياء، وأن يصحح إدراكنا لمضامين التاريخ، لكنه اختار مبكراً الهدوء، وبدلاً من الاستمرار في صياغة الأجيال، انصرف إلى التعليم الجامعي بدولة الكويت، التي اجتذبت ذات مرحلة، النخبة من صنّاع الشأن الفكري، وتركهم يسقون بأنيتها البنور التي حملوها من الديار القديمة .. فكان "أحمد زبك" في صحافة التنوير المبسط وشاكِر مصطفى في تبسيط التاريخ، وكان "أحمد بهاء الدين" في تنوير التنوير، وكان "أنيس صايغ" وآخرون..

ومثل كتاب كبار كثيرين، كان "شاكِر مصطفى" رجل فكر وعطاء كثير، ولكن من دون جهاز إعلامي يطبل له ويذكر، وقد رفض دخول لعبة الشهرة الكاذبة، والألقاب الطنانة، ولهذا بقي بعيداً، أنوفاً، شغوباً بشيء واحد هو العطاء. إذا قرأ وإذا كتب.

وفي اليوم الأخير من شهر تموز ١٩٩٧، انطفأت شعلة القنديل الدمشقي الجميل، الذي نور للعروبة كلها طوال نصف قرن، ودل جيلاً بأكمله على موضع قدميه في طريق الغد الأفضل ... وبقي على الجيل أن يتابع الطريق ... ولا بد أن يفعل!

الأساطير ثمنها الباهظ جداً

في الخامس من (آب) سنة ١٨٨٢ رست في ميناء يافا السفينة أصيلان،
تحمل أول المهاجرين من اليهود حركة (بيلو) الصهيونية إلى فلسطين، كانوا ثلاثة
عشر رجلاً وامرأة واحدة...

اكذب! اكذب دائماً، فلا بد أن يبقى من كذبك شيء، هذه القاعدة الذهبية التي
وضعتها جوبلز، داعية النازية المعروف، أشك في أن يكون أحد في السنديا - إلا أن
يكون الشيطان - قد طبقها أكمل التطبيق، واستغلها حتى النهاية كالحركة
الصهيونية، تاريخها من أوله إلى آخره برهان على أنه لا حاجة لأن يكون لك حق
لتصل إلى ما تريد، يكفي أن يكون لك مع العمل والقوة، بوق دعاية! واكذب ما
شئت فليس ثمة إلا عدد محدود من العارفين بالحقيقة يعارضك، فإن رفع بعضهم
الصوت تكفل بالتغطية عليه سيل الدعاية الجارف، وإذا ذهب ملايين البشر في
القديم، ضحية الأساطير، واغتصبت الأرضون أو ذبحت في صليبيات الأوهام فما
زالت الأسطورة - فيما يبدو - سيدة الموقف، حتى في أواخر القرن العشرين، يوم
أضحى في إمكان الإنسان النزول على القمر والتحقق من حجارته!

وفلسطين، ومعها الشرق العربي، ومصائر أهله، ليست ضحية أسطورة
واحدة، ولكنها ضحية سلسلة مركبة من الأساطير، كقتابل الدخان (العنقودية) التي
تعمي العيون ثم تعود لتعميها كرة أخرى، ثم أخرى....

أطلقت ثم كررت ثم كرست حقائق ونحن بمشقة نتلمس الطريق لمعرفة
أبعادها، ولم تأت كلها معاً، لأنها كانت أساطير مرحلية، لكل مرحلة مسن الصليبية
الصهيونية شعاراتها المناسبة، وأكثوبتها المبرمجة، هكذا مثلاً أطلقت مقولة
(أرض بلا شعب لشعب بلا أرض)، وأطلقت قصة اللاسامية وإيادة سسنة ملايين
يهودي في أفران الغاز، ومن مثل ذلك أن اليهود شعب مسكين مسالم يريد العرب
أن يذبحوه، وأن اليهود هم الشعب الوحيد المضطهد في التاريخ الإنساني، وأنهم

شعب واحد مستمر الوجود منذ ثلاثة آلاف سنة إلى اليوم، وأنهم (شعب الله المختار)، وشعب العبريات، وأن فلسطين هي أرض الميعاد، والرب (يهوه) هو الذي وعدهم بها، وأنهم أيضاً وأيضاً هم أصحاب فلسطين الأولون.

تكرار هذه الأساطير، شعارات ومقولات مطلقة، أدخلها بين الحقائق والبيدهيات، حتى لدى بعض العرب، وحتى صار دفعها بالحق والحجة والوقائع ضرباً من العبث إن لم يكن مدعاة للملل واليأس، بعد أن تجاوزتها المراحل، صار الحديث فيها لغواً من اللغو لا ينتهي إلى نتيجة، وفرض الأمر الواقع والقوة والزمن والظروف وقائع جديدة طرحت لها بدورها أساطير أخرى جديدة، كأسطورة إعمار فلسطين الموات، وهي عامرة قبل وجودهم في الدهر، وأسطورة الأمن التي تبرر الاستيلاء المتسلسل على الأرض والتوسع في حلقات متصلة، يظل الأمن دائماً مهدداً من بعدها دون نهاية ولا أمن للأخرين، وأسطورة الجيش القوي الضارب، ولولا الحبل السري الذي يربطه بالترسانة الأمريكية لما كان، ولما كانت (إسرائيل) بين صورتين.

بين صورتين:

أكثر من مائة سنة مرت على مسلسل الأساطير هذا ونحن ندفع الثمن، وهو يمتد فصولاً ودماء واقتراس أطفال.

إنهم يسمون هذا بعملية التنظير، يضعون النظرية أولاً لكل مرحلة، ثم ينحون عليها بالعمل والتنفيذ وصراخ الأبواق، الاستراتيجية هاهنا متكاملة : نظرية، تخطيط استراتيجي، أعمال مرحلية، ونظريات فرعية متممة للنسائج، ثم نظرية أخرى تلائم النتائج والمكتسبات، وهكذا دواليك، وتدور الناعورة على النيام.

استعرض إن شئت تاريخ هذه الصليبية ما بين أول صورها وآخر الصور لترى كم دفعنا نحن وحدنا ثمن تلك النظريات - الأساطير.

الصورة الأولى: كانت منذ أكثر من مائة سنة (١٨٨٢) سفينة تافهة اسمها أصلان ترسو في الخامس من آب في ميناء حيفا بعد أن أبحرت خمسة أيام من رومانيا، وعليها بضاعة من البشر لم يأبه لها أحد: ثلاثة عشر رجلاً وامرأة واحدة من حركة لم يسمع بها أحد، من الشرق العربي على الأقل، أحياء صهيون (البيلو) نزلوا مهاجرين فأسسوا أول مستعمرة زراعية أجنبية عند عيون (قارة)، جنوبي يافا، هي التي عرفت فيما بعد باسم ريشون لوسيون (الأول في صهيون)...

قبل ذلك بأربع سنوات كان نفر من يهود القدس المتدينين قد خرجوا لحراثة الأرض، فأسسوا أول جماعة يهودية زراعية في بلدة ملبس العربية التي صارت فيما بعد (بتاح تكفا) (عينة الأمل). الممول لهذه الحركة كان الرأسمالي اليهودي - الأخطبوط البارون روتشيلد - الوسيط هو الرأسمالية الاستعمارية، خلال خمسين سنة بعد ذلك ظل يدفع لهذه الهجرة، وظف في هذه الحركة الاستعمارية (حتى موته سنة ١٩٣٤)، ما مقداره ١٥٠ مليوناً من الفرنكات الذهبية.

الصورة الأخيرة: في آب ١٩٨٢، ما تزال طرية فاجعة على العيون، ربع مليون جندي صهيوني يحتلون نصف لبنان بآلات الدمار الأمريكية، يطوقون بيروت ويدمرونها بآلاف الأطنان من القنابل، ثم يذبحون الألوف ممن طردوهم، هم أنفسهم من ديارهم، لا يريدون أن يسمعو أن على الأرض شيئاً اسمه فلسطين أو فلسطينيون، ويدخرون للغد العربي القنابل الذرية، الرجال الثلاثة عشر الأول المسالمون صاروا أربعة ملايين قاتل.

ومستعمرة ريشون لوسيون صارت تمتد من شرم الشيخ إلى جبل الشيخ ومن القنيطرة إلى القنطرة، وتقرس، فيما تقرس، الصخرة المباركة، (المسجد الذي باركنا حوله) وقبر السيد المسيح، ومهده، وبغرور قطاع الطرق في الغرب الأمريكي تتحدى وتشتت كل البشر.

بين صورتين الأولى والثانية تمتد ملحمة المائة سنة الماضية في انتظار الآتي، يمتد قرن الآلام العربية الذي بدأ بثلاثة عشر رجلاً وامرأة واحدة يحملون

أسطورة ذات ثلاث شعب: الأولى أن فلسطين أرض بلا شعب، الثانية إن الله وعدهم بها، والثالثة أنها أرض يهودية في التاريخ، وإذا كانت وقائع قرن كامل قد كذبت الأولى، وكان الجنون التوراتي الصهيوني هو الأعمى الوحيد الذي لا يريد أن يرى الوجود الفلسطيني الثوري والبشري وهو يتضخم كل يوم، فإين الشعبين الآخرين، الوعد ويهودية الأرض، ما تزالان من بضاعة السوق.

الوعد المزعوم:

ويسألهم الناس (ويقولون متى هذا الوعد إن كنت صادق) فيشيرون إلى نص توراتي مما حاكته أحبارهم بعد أيام موسى بست مائة سنة أو تزيد، ونسبوه إليه زوراً، يقول النص (قطع الرب مع إبراهيم) (إبراهيم) ميثاقاً: لنسلك أعطى هذه الأرض مع نهر مصر إلى النهر الكبير، نهر الفرات، اليقطين والقزوين والقدمونيين والحيتيين والعريزيين والرفائيين والأموريين والكنعانيين والجرجاشيين واليبوسيين).

وإذا كان واضحاً أن اقتطاع جزء من النص دون ما يتصل به هو أشبه بقضية (ويل للمصلين)، فمن الواضح أيضاً إن الخبر الذي كتب النص كان يقصد حكم الشعوب المذكورة في النص بدليل تفصيلها الدقيق بعده، وإذا كان الوعد حقاً فإنه أعطى الأرض لنسل إبراهيم، ونسل إبراهيم هم العرب، أما هؤلاء الأشكنازيم فتعرف الدنيا أنهم من نسل الخزر ولا شأن لهم بإبراهيم ونسله كما تعرف الدنيا إن الدين ليس تناسلاً ودماً موروثاً ولكنه فكر ... لا دم له ولا أجناس.

..... ويسأل صاحبي وهو يحاورني: هل كانت فلسطين لهم حقاً في التاريخ؟ وهل كانوا هم؟ يا بؤسي للتاريخ كم يحملون عليه من الأكاذيب؟ وكم يحمل من أزوار الأساطير، هل نعود مرة أخرى للتاريخ؟ إنسان هذه الأرض الفلسطينية عاش عليها مئات القرون، ومع ذلك يأبى العمى الصهيوني أن يرى منها أكثر من قرن واحد، قرن واحد فقط، دعنا إن شئت، من (إنسان فلسطين) القديم الذي كان

مرحلة متطورة من مراحل إنسان (النيندرتال) إن له ملفه الطويل وآثاره وحضارته في ملفات ما قبل التاريخ.

دعنا مما قبل التاريخ كله، وادخل منطقة التاريخ قبل خمسين أو ستين قرناً، أقدم من نعرف على هذه الأرض بشكل عام هم الشعب (الذي قامته قامة الأرز وهو قوري كالبلوط) هذا الشعب الذي يعود انتشاره إلى أوائل الألف الثالث قبل الميلاد، والذي استمر حتى مطالع الألف الأول ق.م، هو القسم من الشعب العموري (السامي - العربي) عرفه التاريخ باسم الكنعانيين، حتى التوراة تسمى فلسطين (أرض كنعان، هؤلاء الكنعانيون هم الذين زرعوا أرضها ألفي سنة، بالمدن، أريحا، مجدو، بيت شان، عكو (عكا)، يافو (يافا)، أورشليم (يبيوس) غزة، عسقلون (عسقلان)، أشدود، بئر السبع، بيت لحم كلها من بنائهم.

جماعتهم الساحلية التي امتدت على البحر هم من نعرفهم بالفينيقيين أصحاب صور وصيدا وجبيل وعرفة وأوغاريت، والكنعانيون هم الذين منحوا البلاد ثقافتها التاريخية الأولى من لغة وعلم ودين وكتابة ونظم اجتماعية وفن وبناء وقسم وحضارة.

بعد الكنعانيين كان التغلغل البشري في الشام للجماعة (السامية - العربية) الثانية: الآراميين، وهم الذين منذ أواسط الألف الثاني قبل الميلاد، جسدوا السدماء التليدة في المنطقة، وأعطوها كرامة أخرى مدنا جديدة، وحقولاً خضراء (تفيض لبناً وعسل) حسب قول التوراة نفسها، وضربوا فيها للثقافة (العربية السامية) الجذور والأبعاد.

ويوم جاء عرب الإسلام بعد ذلك، في القرن السابع للميلاد، وجسدهم هناك ينتظرون الخلاص (السياسي والديني والاقتصادي على السواء)، واندمج الشعبان الأخوان بسرعة اندماج اللبن والماء.

لم يعمر فلسطين سوى العرب:

ويقول صاحبي: يبقى سؤالان:

الأول: أين نسبت الفراعنة وآشور؟ وأين الفرس واليونان والرومان في هذه

الجولة الصاروخية؟

الثاني والأهم: أين العبرانية والعبرانيون؟ وسليمان وداود وقوم يهود من هذا كله؟ وأقول لصاحبي: إنما ذكرت الأسس والجذور الراسخة، وعناصر الدماء المسيطرة والثقافة الباقية، ذكرت سفر التكوين البشري - الثقافي لهذه الأرض، أما الموجات العابرة التي لم تترك فيها سوى الألوان وجروح الجلد فقد كانت تعبر السطح، ولا تتصل أبداً بالأعماق، التاريخ السياسي لهذه المنطقة تلون، اضطراب، تنوع، عرف أنواعاً من عروش الحكام، أما التاريخ الحضاري المتجذر فبقي على الصمود، جاء الفراعنة فاتجهوا إلى فلسطين أكثر من مرة (ما بين القرن ٢٤ والقرن ١٢ ق.م) ولكنهم انحسروا دون أثر، ووصل الآشوريون (القرن ٨-٦ ق.م) فدمروا ما دمروا، ثم اختلقوا بالدماء التي سفحوها وجاء الفرس فلم يبقوا، وجاء الإسكندر وخلفاؤه (من سلوقيين وبطالسة، ما بين أواخر القرن الرابع وأواسط القرن الأول ق.م).

وجاءوا في استعمار استيطاني، ولكنهم بقوا غرباء (كما بقي الصليبيون من بعدهم غرباء)، حتى مساكنهم ولغتهم وأحيائهم والمسدن واللغة والثقافة بقيت معزولة، ثم تسلطت الآلة العسكرية الرومانية على البلاد، حرقتها بالسنايك وأقدام الجنود، ولكنها بدورها بقيت مجرد طبقة حاكمة ولا تفاعل بينها وبين الناس والأرض والثقافة الدهرية للمنطقة، بل أخذت منها أكثر بكثير مما أعطتها، وورثتها بيزنطة فكانت أكثر غربة، حتى نصرانياتها كانت غير نصرانية الناس في هذه الأرض، وتلك الآلاء من الآثار الجبارة والأعمال الفكرية (من قانون وشعر وفلسفة وفن وبناء) التي ننسبها للرومان والبيزنطيين ضللاً منا وخسران رأي إنما قام بها وصاغها وبناهما وأثلها أبناء هذه الأرض بأيديهم وجباههم وما يبدعون، هي منهم

ولهم وإن حملت القوالب الإغريقية - الرومانية من شكل وأسلوب ومن هذه المنطقة كان يذهب المعلمون في الفلسفة والقانون والرياضيات والبناء والفكر، والشعر إلى روما وأثينا، بل منها أيضاً خرج (المعلم) السيد المسيح جواباً على كل ذلك الغزو العسكري، وكل تلك الهيمنة السياسية الزائلة، إنما أتكلّم عن الباقيات الصالحات، (والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير مرداً)، إنها هي الإنسان.

أما العبرانية وقوم يهود فلم يدورهم مثل هذا الحديث مع فلسطين، لابد من رد الأمور معهم إلى حجمها الطبيعي في الزمن، وفي الأرض، وإلى حقائقها في الأحداث ومداها التافه في التاريخ، وأسسا الثقافية والمستعارة.

إنهم في الزمن التاريخي (ولنعتبر هذا الزمن خمسين قرناً) لم يملوا في تلك الأرض إلا حوالي ستة قرون (بين القرن ١٢ والقرن ٦ ق.م) ولم يظهروا إلا على بعض أجزائها (الشمالية والوسطى فقط).

ولم يكن لهم من ملك ودولة موحدة في تلك الأجزاء إلا أقل من قرن واحد فقط (بين القرنين الحادي والعاشر ق.م) حين ملك شاول (حوالي سنة ١٠٣٠ ق.م) ثم داود (١٠٠٦-٩٧٢ ق.م) ثم سليمان (٩٧٢-٩٣٢ ق.م) وتمزقت بعد ذلك دولة سليمان إلى دولتين صغيرتين، استمرت الأولى (إسرائيل وعاصمتها السامرة) في شمال فلسطين حتى محبت على يد الآشوريين (٧٢٠ ق.م) واستمرت الثانية (يهودا وعاصمتها أورشليم) في الوسط حتى استباحها وخرّبها وخرّب الهيكل معاً، نبوخذ نصر (سنة ٥٩٢ ق.م) في السبي البابلي المعروف، وبدأ عصر الشتات اليهودي (الدياسورا) منذ ذلك الوقت، وبلغ أوجه بالطرد النهائي لكل ظل يهودي في فلسطين سنة ١٣٥ م. على يد الرومان.

في فترة الأسر البابلي كتبت في التوراة قصة الوعد الإبراهيمي وأرض الميعاد هذا في الزمن، أما في التكوين العرقي فليس ثمة عرق يهودي أبداً، ولا عبراني ولا إسرائيلي، ولا ما يزيّفون بأي معنى من معاني القوم العرقية.

الجماعة البشرية التي آمنت باليهودية كانت مجموعة خلّاط عرقية، التاريخ

القديم عرف الأولين منها باسم حابيرو، أو عبيرو، وكثير منها كان من قطاع الطرق ومن التجمعات البدوية التي لا أرض لها، وقد انضموا جميعاً، بعد أن استقروا في جوانب من شمال ووسط فلسطين، في إطار العبادة الدينية التي كانت تمارسها الجماعات المختلطة الذين خرجوا مع النبي موسى، من مصر. هذه الأخطاط العرقية والأمشاج المتفرقة، قضت أكثر من أربعة قرون وهي تجتمع في نطاق عقيدة الرب (يهوه) قبل أن تجبرها الظروف على الاتحاد مع غيرها من القبائل أيضاً تحت حكم شاول ثم داوود، يبقى أن نضيف إلى هذا أن هذه الجماعات لم تكن المجموعة السياسية الوحيدة في أيامها في فلسطين، كان هناك الكنعانيون، والفلسطينيون (من شعوب البحر)، والأوميسون، وممالك آرام (بيت عموري) والمؤابيون، والعمونيون، والمدينيون واليبوسيون....

وتلك الأحداث صوّرت في التوراة، على أنها أحداث كبرى، وأضيفت عليها الهالة القدسية أبعداً غير طبيعية وأدخلتها في الأدب الديني والفكري - ليست أكثر من أحداث متواضعة جداً لشعب صغير، تضخم تاريخه الخاص في ذاكرته الشعبية بمقدار ما كان يشعر به من صغر وضعف أمام القوى الكبرى، فتح أرباحاً لم يكن أكثر من انتصار مسكين على قرية محصنة جرى أعظم منه وجرى مثله ألف مرة في التاريخ القديم، وما كان ملك داوود وسليمان أوسع من ولاية من الولايات التابعة لمصر أو الآشوريين أو الحيثيين أو البابليين أو الفرس، وأعمال الجماعة العبرية في سفر الملوك أو القضاة قد تكرر مثله وأروع منه مئات المرات في تواريخ مختلف الشعوب وفي مختلف العصور.

العهد القديم لو حوى قصص الشعوب الأخرى تلك لما كان ثمة مكان فيه لكل تلك القصص الأسطورية بحوارياتها وتفصيلاتها وما تفضح أحياناً كثيرة من عمل مخجل!

وأما في الجانب الثقافي فيكفي أن نعلم أنه لم يكن للجماعات العبرانية من لغة مشتركة، ولا صلة بين إسرائيل القديمة واليهودية.

بعد موسى اصطنع العبرانيون الآلهة الوثنية المحلية بجانب الرب يهوه، حتى سليمان! حسب نصوص التوراة الموجودة بين الأيدي عبد آلهة زوجاته الوثنيات جميعاً، أما اليهودية التي لليهود اليوم فقد تبلورت وتكونت، على أيدي الحاخاميين بعد سقوط إسرائيل، وبخاصة بعد السبي البابلي في القرن السادس ق.م.

ويقول صاحبي: إذا كانت هذه هي حقائق التاريخ فلماذا لم نفصح أو لا نفصح هذا كله؟ أليس من واجب العلم أن يرجع الحق إلى نصابه.

وأقول لصاحبي: كل هذا ليس أكثر من بعض اللغو، من الحديث البائد، من الصراخ الضائع في الفضاء، إن للأساطير أيضاً ثمنها الباهظ جداً، ولقد فات الأوان على نقضها، وليس بالمهم أن تزلزل الأسطورة، ولكن أن تدمر الآلة والمصالح التي تختبئ وراءها، المهم أن نفهم أن الأسطورة مثلها كمثل الحقيقة سواء بسواء، أشبهه بالكيس الفارغ لا يقوم بذاته، ولكن بما يمتلئ به من قوة، والتاريخ إنما يصنعه ويكتبه الأقوياء ... أم أن الآية الكريمة (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) قد أنزلت في غيرنا، ولغيرنا؟.



حافظ الجمالي:

عاشق الحرية والعقل والجمال .. وداعاً..

لا أحد يستطيع أن يعرض سيرة الكاتب والمفكر القومي (حافظ الجمالي) بكلمات، كما فعل هو بنفسه حين كتب (إذا أردت أن ألخص حياتي في سطور قليلة، قلت: إنني شغفت منذ مطلع عمري بالقضايا الوطنية والقومية، وعشت تواقاً للعمل الدائب لأزيع عن الأمة ما هي فيه من تخلف، لتحقيق أملها بفجر جديد ينتظره كل من له أنفاس عربية).

وهذه الكلمات على إيجازها تختزل بالفعل مسيرة نصف قرن حافلة بالنضال، لتحقيق أهداف سامية يطمح لها المفكرون النابهون، فيجتدوا لها ضوء العيون ونبض العقول الخلاق..

هو واحد من أبناء مدينة (حمص)، التي أثرت ساحة الفكر بعشرات الكتاب المبدعين، والأدباء والشعراء المجليين .. ولد فيها عام ١٩١٦م، وفيها تلقى تعليمه الابتدائي، ولما انتقل مع أسرته إلى دمشق عام ١٩٣٤م أكمل تعليمه الثانوي بمكتب عنبر ثم داوم على دار المعلمين العليا، التي أهلتها للتعليم في المدارس الابتدائية، ولم تَطُل فترة عمله فيها إذ ما لبث أن نجح بمسابقة للإيقاد في بعثة دراسية إلى باريس، وكان في مقدمة الناجحين في تخصص الفلسفة، فغادر إلى فرنسا مع زميله الأديبين المرموقين د. عبد الله عبد الدائم ود. سامي الدروبي، وحصل على الإجازة في الفلسفة عام ١٩٣٩، وحين عاد إلى سوريا تسلم العمل بالتعليم في المدارس الثانوية ودار المعلمين، وتقلل بين المحافظات السورية معلماً وموجهاً لأكثر من ثماني سنين، أصبح بعدها عضواً بلجنة البحوث بوزارة التربية عام ١٩٤٧م، ونُدى من ثم للتعليم بالجامعة حيث أسهم في تحضير الخريجين لمهنة التعليم، ومرة ثانية أوفد إلى فرنسا عام ١٩٤٩م لتحضير الدكتوراه، وبُعِثَ عودته للوطن أخيراً عُيِّنَ مُدرِّساً

بكلية التربية حتى عام ١٩٦٤م، وكانت تنتظره في هذه الفترة مرحلة جديدة في مسيرته الطويلة، إذ انتقل إلى السلك الدبلوماسي فاختير سفيراً لسوريا في السودان ثم في إيطاليا .. وأصبح بعده وزيراً للتربية، ثم رئيساً لاتحاد الكتّاب العرب حتى تقاعده عام ١٩٧٣م.

عمل لا يكلّ في ميدان الثقافة:

بدأ (حافظ الجمالي) رحلته مع الفكر مبكراً، كان في السابعة عشرة من عمره حين كتب مقالات قصيرة نشرها في صحيفة ((النداء)) و((المكشوف)) ببغروت، واشتملت مقالاته على مواضيع قومية. وبعد عمله في التعليم أُلّف مجموعة كتب في علم النفس والأخلاق، وفي علم الاجتماع التربوي، وحرص على أن يضمّنّها توجيهه القومي، وأفكاره التقدمية مما كان له أكبر التأثير في نفوس طلابه، وقد اكتشف ذلك فيما بعد: ((قابلتُ رجالاً مسؤولين وهامين في الحياة العامة يرحبون بي أعظم ترحيب دون علم مني بسرّ هذه المودة ... ثم اكتشفت أن قراءتهم لكتّاب ((الأخلاق)) ولاسيما الفصل المتعلق بأسباب تقدم الأمم وتخلّفها خاصة هو الذي أثر في هؤلاء وجعلهم أصدقاء دون معرفة سابقة. ومعنى هذا: أن كل مواطن هو صورة للمواطن الآخر، بنفس العواطف ونفس المطامح، وأن هؤلاء المراهقين الذين يعجبون بما يقرؤون من أفكار ذات طابع قومي، إنما يعلنون بإعجابهم عما يشعرون به هم، من الداخل، من العواطف والمطامح، وأنني فيما أكتب لا أزيد على أن أقول بصوت عالٍ، ما يقوله المواطنون جميعاً عن آمانيهم وآمالهم، وهذا ما حملني دوماً على الضرب على الوتر نفسه، ولو بدا أنني أكتب في مواضيع مختلفة، في الظاهر، فالهدف الأول والأخير هو إيقاظ كل وجدان نائم، وكل عقل ساه، كيما يشاركني أو كيما نشترك معاً في العمل من أجل ((وحدة عربية يسعد فيها كل مواطن بكامل الحرية الشخصية والفكرية، ويحاول مع الآخرين أن يحلّ العدالة الاجتماعية في شأيا المجتمع)).

وخطر للكاتب أن يجمع مقالاته فكان له منها ثلاثة كتب ((حول المستقبل العربي)) و((بين التخلف والحضارة)) و((عربي يكفر))، وقام في الوقت نفسه بترجمة الكتب التي رأى أن فيها ما يزيد وعي الإنسان وإطلاعه على المشكلات العربية والعالمية، بأمل أن ينمي الوعي الفردي والقومي والعالمي على حد سواء.. وقد بلغت كتبه المترجمة الثلاثين، فيها ((عالم صوفي)) و((أميرة عثمانية في المنفى)) و((الديمقراطية)) وكتاب ((توفر)) حول ((تحول السلطات)) وغيرها.

الهدف تكوين إنسان عربي جديد:

جايل ((حافظ الجمالي)) نخبة رواد الفكر القومي، الدكتور عبد الله عبد الدائم، وعادل العوا، وسامي الدروبي، وعبد الكريم اليافي، وبديع الكسم، وعبد الحليم سويدان، وأمد الطرابلسي، وجميل صليبا، وفاخر عاقل، وغيرهم .. ويشهد الدكتور عبد الله عبد الدائم أن ((الجمالي)) كان فيما يتصل بميدان المعرفة إنساناً تَوَاقاً إلى المعرفة، نهماً في تقصّي مظانها وألوانها، ولديه تأكيد خاص على أهمية الديمقراطية في حياة الشعوب، وفي بناء مستقبل الأمة العربية، وهو مطلعٌ إطلاعاً واسعاً على الثقافة العربية والتراث العربي، كما أنه محيط بأبعاد الثقافة العالمية، ولا نغالي حين نقول: إن فكره هو وليد التزاوج بين الفكر العربي والثقافة العالمية.

ويتابع الدكتور ((عبد الدائم)): كان ((الجمالي)) شديد النقد للثقافة العربية أحياناً، لا إقلال من شأنها، ولكن حرصاً منه على أن يكون اليوم والغد أفضل من الأمس، وقد تميزت شخصيته بالانفتاح على الآخرين ومحبة الناس والإخلاص لإخوانه وأصدقائه .. كان قلماً يسيء الظن بإنسان، ولم يتحدث عن أي من الناس بسوء، بل لطالما غفر للآخرين أخطاءهم وإساءاتهم.

وعن المحور الأساسي الذي دار أفكار ((الجمالي)) حوله يتابع الدكتور عبد الدائم: كان المحور الأساسي لديه هو نقد مسيرة الفكر العربي والحضارة العربية

والمجتمع العربي قديماً وحديثاً، نقداً جارحاً أحياناً، اعتقاداً منه أن كثيراً من علل أمتنا الحالية، يرجع إلى بنية الذات العربية، على نحو ما آلت إليه في عصور التخلف العربي، وكان هدفه، كما ذكرت - النضال الفكري المستمر من أجل الكشف عن عيوب هذه الثقافة المتردية، ومن أجل تكوين إنسان عربي جديد، لقد ناضل ((حافظ الجمالي)) في مجال السياسة من أجل القضية العربية، ويمكن القول: إنه استطاع أن يبني ويكون البديل الفكري المتردي الذي يتحدث عنه، والذي أصاب الوطن العربي في عصر انحطاطه. ومثله مثل المفكر الراحل ((قسطنطين زريق)) كان كلاهما يؤكد على أهمية العقلانية والفكر العلمي والتحديث في بناء كيان الأمة العربية، ولكن ((زريق)) في هذا المجال كان أكثر وضوحاً وإيجابية ولم يكتفِ بأن يعدد المآخذ التي تؤخذ على الحياة والفكر العربي في عصره المتأخرة، بل قدّم زاداً علمياً جديداً من أجل الخروج من هذا المأزق، ومن أجل بناء مجتمع جديد، فهو أكثر إيجابية.

الوحدة العربية ركيزة القوة والتحرر:

ويشهد المفكر العربي ((منح الصلح)) أن ((حافظ الجمالي)) عاش في حياته الغنية والجادة، قصور بلداننا جميعاً بعد استقلالها عن الأجنبي، على أن تصنع نفسها وفقاً لمثلها ومثل العالم المتقدم، ورأى أن حالة التأخر الحضاري التي لا تزال نعاني منها، تضعنا على الساحة الدولية في حرج تاريخي، يتمثل في أن المطروح علينا - ظاهراً - كبلدان عربية أن نختار بين الحرب والسلام، ولكن واقعياً لا خيار إلا بين نصف حرب ونصف سلام، لأن الحرب والسلام كليهما يتطلب في مجتمعاتنا القدرات نفسها ولا يجدها. ((إن أخطر ما تعاني أمتنا هذه الأذن الصماء تديرها الفئة للفئة الطبقة للطبقة والقطر للقطر، وهي حال لم تشهدها هذه الأمة من قبل ... وقد استطاع الحكم الأجنبي في الماضي أن يفعل كل شيء ما عدا سلب إرادة الناس في أن يتضامنوا ويتماسكوا في وجهه، فكان استقلال لبنان وسوريا أول

استقلالين في آسيا وأفريقيا بعد الحرب العالمية الثانية ... يا له من يوم أسود، ذلك اليوم الذي تكون العروبة فيه، قد خسرت قدرتها على الحوار داخل البلد الواحد، وبين البلد العربي والبلد العربي الآخر ... وما عادت تأنس إلا لـلصوت الذات القطرية..).

عاش ((حافظ الجمالي)) وللعروبة عنده معنيان: معنى انفتاح العرب على العرب بروح الأخوة والاعتزاز بالذات والشراسة التاريخية، ومعنى آخر هو انفتاح العرب على العالم بروح الترقى والتقديم والقيم الإنسانية العليا ... إن العروبة المطلوبة ليست في اقتراب العرب من العرب فقط. بل هي في اقتراب الاثنين من كل ما يجعل الإنسان ابن عصره في احترام الحريات والحقوق، وفي التنوير والإمكانات والإنجازات وبالتالي القدرة.

اليوم يُغَيَّبُ الموتُ وجْهَ المفكر والإنسان النهضوي الذي جعل همه النقاء العربي بالعربي على قاعدة التطلع المشترك على الحداثة والعلم والحرية والتقدم الصحيح.. لقد شغلته على الدوام مشكلة التخلف في مجتمعنا، وعاش باختياره المدة الأطول من عمره حياة المعلم والباحث والكاتب أكثر مما عاش المواقع الأخرى كالسفارة والوزارة ... وهذا هو موقعه الشامخ في نظر شعبه، بسيطه وكبيره، وبعض معناه في حركة نهضتنا المعاصرة.

إذا لم نعرف تاريخنا لا يمكننا أن نبدأ ببناء المستقبل

ترى أحقاً هناك إرادات قومية طيبة ومخلصة إلى أبعد الحدود؟ أم أن هذه الإرادات هي المشكلة الأولى في حياتنا؟ أولاً يكفي أن يمر العالم العربي بتجربة "الجامعة العربية" ثم بتجربة السوق العربية المشتركة، وبتجربة حرية تنقل الرساميل والأشخاص العرب في البلاد العربية نفسها؟ وأنه في كل هذه التجارب لم نمش إلا خطوات ضئيلة، ما لبثت أن تراجعت بسرعة؟

أو ليس مما يدعو إلى الشك في سلامة هذه الإرادات القومية، أنه ما من تجربة قررتها الجامعة العربية للعمل القومي المشترك إلا وأخفقت باستمرار؟ وأنه حتى في المجال الضيق، مجال تنقل الأشخاص من قطر إلى قطر، لم تجد الحياة القومية أية استجابة، إلا من جانب صغير نسبياً، هو المجال السوري، وأن هذا التنقل أسهل للغرباء ألف مرة، من تنقل المواطنين العرب، وأن القاعدة المقبولة في هذا التنقل، هي القاعدة القائلة: كن ما شئت، إلا أن تكون عربياً حتى يسهل عليك هذا التنقل؟ أو تكون مصلحة الشعب العربي حقاً، في هذه النظرة المتوجسة خوفاً، باستمرار من كل ما هو عربي، أو أن تلك إرادة رأي عام سائد في الأقطار الخائفة، تحرص على إضعاف المشاركة العربية، تماماً كما يريد الأجنبي؟ أو ليس في هذا التماثل المتواصل منذ عشرات السنين ما يدعو إلى الاعتقاد بأن الإرادة المتحكمة فيه عربية شكلاً وأجنية مضموناً؟

الحق، أن هذا الأمر هو الشيء الذي يثير أكبر الشكوك. أو يكون حقاً من مصلحة الشعب العربي ككل أو كأجزاء أن تنفق الدول العربية كل ما أنفقته من أجل حربي الخليج؟ وأن تكون هاتان الحربان صادرتين عن إرادة عربية وطنية مخلصه؟ أم أن هذه الإرادة مملاة من الخارج علينا ونحن مرغمون عليها؟ ولئن كنا نحن أحراراً في إرادتنا، أفلا يكون من المشكوك فيه، لا إرادتنا الطيبة وحدها، بل عقلنا نفسه؟ وعلى كل حال، فإن بقاء الدول العربية على المستوى نفسه من التخلف، لا

تخادره إلا على سبيل الاستعارة من الخارج والاستيراد، لا يمكن أن يعني أن القيادات العربية كانت مضطرة اضطراراً، ومرغمة إرغاماً، على إبقاء شعوبها حيث هي من التخلف، وإذا لم يكن يعني ذلك، فإنه ينبغي أن يعني شيئاً آخر ينتهي إلى النتيجة نفسها، كعدم التوفيق، من الله تعالى، أو في أدنى الحدود، عدم البحث الجاد عن وسائل التقدم، أو يمكن أن نبحث جادين عن التقدم، ثم لا نوفق إلا إلى البقاء في عدم التوفيق؟ وهذا النوع من السلوك العربي العام اللا موفق، أي يمكنه أن يعني أن كل الشعوب العربية لم تجد بين أفرادها من يحقق أي تقدم معقول لا على صورة القفزة النوعية إلى الأمام، بل على الأقل على صورة القفزة الجزئية التي تتبعها قفزات ثم قفزات، فتصل، في آخر المطاف إلا التقدم نفسه من غير أن نقارن أنفسنا دوماً بالتقدم الغربي كله؟ ونتساءل: هل من المعقول أن يوجد بين أفراد شعبنا العربي واحد ما، أو أكثر من واحد يوفقهم الله إلى درجة التقدم أعلى مما كنا عليه في القرن الخامس الهجري أو الحادي عشر الميلادي؟ وعلى فرض أن أحداً لم يوفق بيننا، كعالم أو رجل تقنية أو فنان إلى جعل الأمة تتقدم خطوة واحدة إلى الأمام، حتى على مستوى محو الأمية، أفيمكن أن يتساوى هنا التقدميون والرجعيون؟ وأين هي التقدمية إذا لم تقدم في هذا الموضوع، وفي غيره آيات تقدميتها؟

إن نسبة الأمية في سورية الآن ما تزال في حدود ٣,٣٣% وفي مصر ٥٠% وفي الجزائر ٤,٣٩%، وفي ليبيا ٥,٣٣% وفي العراق ٥,٣٧%، وهذه هي البلاد التي تعرف بتقدميتها وثورتها وبالمقابل فإن هذه النسب تبلغ في لبنان ٧,١٨% وفي الأردن ٩,١٧% وفي السعودية ٩,٣٥% وفي البحرين ٢١%، وفي الإمارات ٣٥% وفي الكويت ٢٦% وفي عمان ٦٥%، وفي قطر ٢١%، وفي اليمن ٩,٥٨%، والمغرب ٥,٤٧% وتونس ٩,٣١ ترى أين يقع التقدم والتخلف في مكانه في هذه البلاد المحسوبة على التقدمية، أو على الرجعية؟

وحتى في التعليم العالي نجد هذه النسب تصل في العراق إلى ٨,١٣% وفي سورية ٨,١٨%، وفي ليبيا ١٨% وفي مصر ٢,١٩% وفي الجزائر ٨,١١% أما في

البلاد العربية الأخرى فتصل في المغرب إلى ٥٠،١٠% وفي تونس ٤٠،٩ وفي الأردن ٥٠،٢٤، ولبنان ٨٠،٢٧ وفي العربية السعودية ٣٠،١٣، والبحرين ١٠،١٨ والإمارات ٦٠،١٠، والكويت ٨٠،١٣، وفي قطر ٩٠،٢٥، وفي عمان ٢٠،٦ وهنا نتساءل أيضاً من هو التقدمي ومن هو الرجعي هنا؟

ونأتي إلى نوعية الحكم، ومدى ديمقراطيته، وضآلة استعماله أو اعتماده على القمع والقهر. نرى هل في وسعنا أن نقول: هنا يقوم التقدم، وهنا يقوم التخلف؟ أو هذا ثوري، وذلك غير ثوري؟ ومن غير أن نلاحظ نوعية أخرى معينة لكل حكم.

إن الرأي العام الداخلي والخارجي يريان معاً أن الأقطار العربية متخلفة، وأن الثوري منها ليس أعظم شأناً من النظام اللاتثوري، فالعراق وليبيا ومصر الناصرية وما بعد الناصرية، لا تبرز غيرها من الأنظمة المحافظة، بل كثيراً ما تكون البلاد المحافظة أرقى في المنسوب الاقتصادي، على الأقل من غيرها.

وهكذا نجد اليوم أن الوطنية ليس مجرد عاطفة، ولا مجرد قناعات فردية بسلامة ما نفعل. بل يجب أن نردد بأكثر من ذلك، أي بأجحة لا متناهية من الحرية، وبنظام يعرف كيف يحصن الآراء، ويختار أفضلها، ولا يتيسر ذلك أبداً إلا في نظام أوله وآخره النظام الديمقراطي الجاد السليم.

نرى ألم يكن إخفاق الوحدة السورية - المصرية، وكل المشاريع الإنتاجية القومية الكبيرة، حتى الآن نتيجة لاستبداد الرأي الواحد بالناس والخلط بين الرغبات الفردية وبين المصالح العامة؟

ومن المعروف أن معرفة السبب الذي تنشأ عنه نتيجة معينة لا تتم إلا بتحري العناصر المحيطة بهذه النتيجة، على صورة ما يسمى في المنطق طريقة التغيرات المتطابقة، وعندما يقول الأجانب أو المستشرقون، إننا متخلفون، فإنهم يريدون القول: إن العرب مسلمون، ولذلك تخلفوا، وإذا قيل ما الذي يبعث في الإسلام على التخلف، قيل إنه الاستبداد الشرقي، لا لأن هذا الاستبداد لم يعرف في الغرب، ولكن صورته الشرقية غريبة جداً في مأساويتها.

والمهم أن العرب جربوا الحكم المطلق عشرات القرون، ترى هل حصلوا من ذلك إلا على ما نرى أنفسنا فيه الآن. وليس أمام الباحث الغربي في التخلف العربي إلا أن يقول: إن التخلف سببه الإسلام، وهو الشيء المشترك بين جميع الشعوب الإسلامية المتخلفة، فإذا وقفنا هنا، قلنا: حقاً إن السبب هو الإسلام، وانتهى الأمر، كما يريد بعض المستشرقين. ولكن ألا يعرف كل إنسان أن القرآن يأمر بحكم الشورى، لا بحكم الاستبداد؟ وهل كانت الآية التي تقول: "وأمرهم شورى بينهم" مجرد مزاح إلهي؟ أو تعني الآية: "وأمرهم شورى بينهم" أنه يجب أن يكون شورى لا استبداد؟

لا بد إذن من الاعتراف بأن الدين، أي دين، لا يمكن أن يقبل من بعض البشر أن يكونوا أشباه آلهة، يتحكمون بمقردهم بمصالح الناس، وتقرير حاضريهم ومستقبلهم. ولئن كان الله يترك لعباده حرية الإيمان أو عدم الإيمان، ولا يسلبهم هذه الحرية، وأهمية هذا الإيمان دينية. فكيف يجيز بعض الناس لأنفسهم أن يتجاوزوا مستوى الآلهة؟

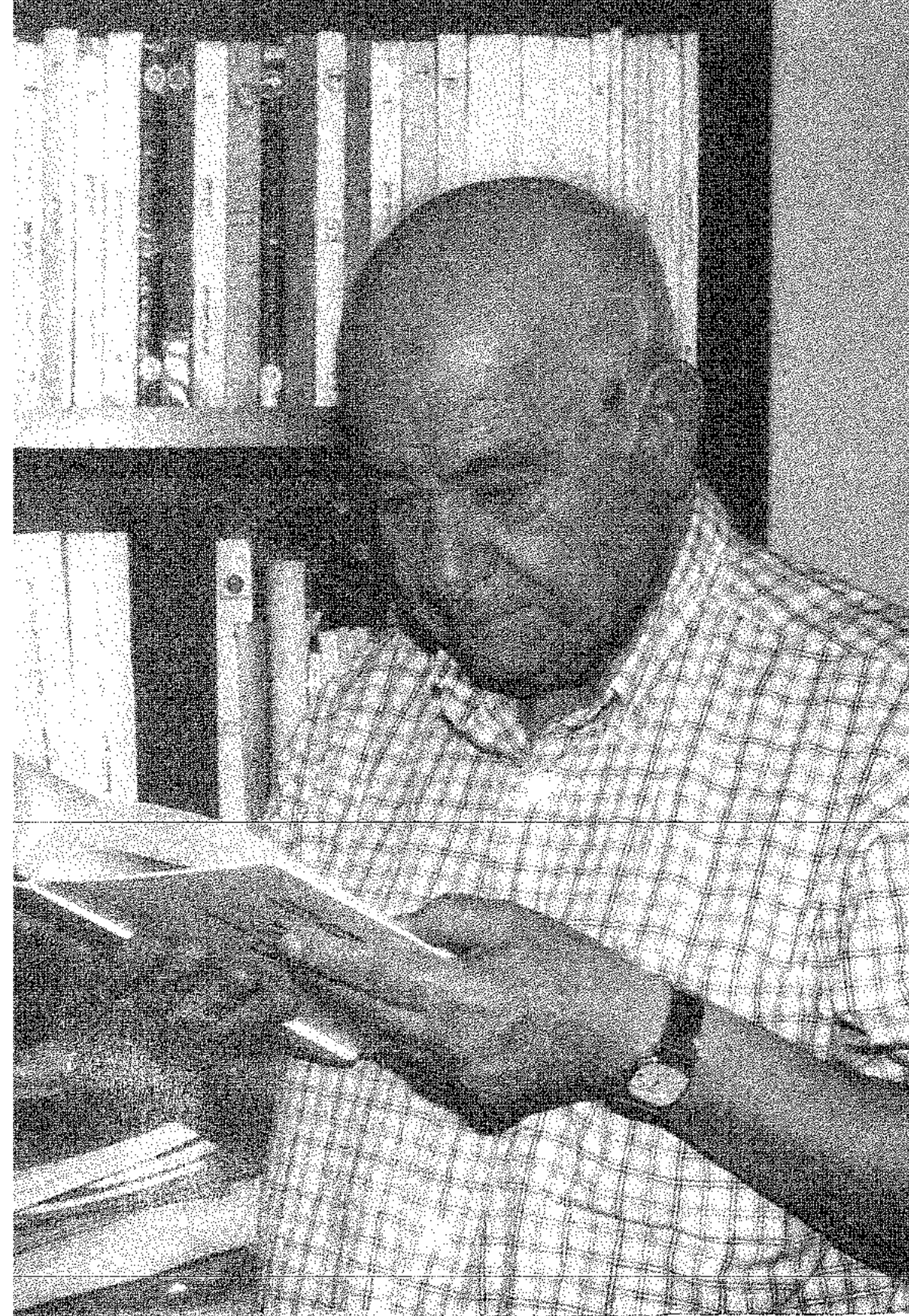
والخلاصة:

إن أمر تقدمنا أو تخلفنا بين أيدينا وأيدي قادتنا، فإذا ظل الحكم التقليدي قائماً لدينا، فليشعر العرب باستمرار التخلف، وكل تغير آخر يقتضي تغيراً جدياً في صورة الحكم التقليدي.

بقي أمر أساسي جداً، وهو تساؤل بعض الناس عن أهلية شعبنا العربي لممارسة الحرية، ومن الناس من يرى أننا لسنا أهلاً لها، بكل صراحة، وذلك لأن الشعب متخلف، لا يخضع للقانون بسهولة، ويحاول الاحتيال عليه بألف مبرر، وإن فلا بد من أن يكون الحكم ديمقراطياً.

غير أن هذا المنطق ينتهي إلى أمور خطيرة جداً، أولها أن شعبنا المتخلف لا يستحق أن يكون مجتمعاً حراً وإن فهو يستحق الاستعمار لا الاستقلال، لأن الاستعمار له رجال غير متخلفين، وسيحكموننا بعقولهم النيرة، ومهما يظلموننا

بسلطانهم، فإن حكمهم سيكون أكثر عقلانية بكثير من أي حاكم وطني، يعرف بالتخلف تلقائياً. أفيسنوي الذي يعقلون والذي لا يعقلون؟ والثاني أن الشعب المتخلف من طبيعة إنسانية أدنى من الشعوب المتقدمة، وهو لا يعيش ولا يستقر إلا في الظروف التي تبقى في التخلف. ولئن كانت الدكتاتورية تطغى أو تظلم وتفسو وتضطهد، بحق أو بغير حق، وتعاقب عقوبات قاسية جداً، فذلك لمنع الفتنة التي عرفها الناس أيام الحجاج وزيد بن أبيه وعبد الله بن زياد والتي كانت تدعو إلى اتخاذ أقصى التدابير ضد المتمردين، قلّ هذا التمرد أو كثير. ويظل المبدأ القائل: "أنج سعد فقد هلك سعيداً سليماً ومعافى بأفضل الصحة حتى يوم النشور"



د. عبد الكريم اليافي :

مثل ذاكرة الفكر العربي ماضياً وحاضراً ودافع عن الحق والحقيقة

رأيتُه وهو يتقدم إلى منبر الاحتفال في الحفل المشهود الذي أعد لتكريمه في حزيران من عام ٢٠٠٢م، وقد مشى إلى المنصة بهيئة الثمانين التي يحملها كاهله، وبقامة منتصبة وجبين سضيء بالرضى، وعينين متوقدتين بوهج العطاء الخلاق، وبعد أن زها الوسام الرفيع متلألئاً على صدره، اعترافاً بدوره البالغ التأثير في حركة التطوير وتعليم الأجيال، ونشاطه الواسع في رفد الفكر العربي بعيون المصادر التربوية والعلمية، وقف الدكتور ((عبد الكريم اليافي)) متحدثاً:

إن المعرفة هي الشعلة الخالدة التي هي أخص خصائص الإنسان، وهي أصل كل تقدم، وينبوع كل ثقافة، ونسغ كل سعادة حقيقية، وركن كل ارتقاء أكيد على المستوى الفردي والاجتماعي والإنساني.

وتابع بعفوية وإيمان صادق:

لا يكفي المعلم أن يكون دؤوباً في البحث عن جوانب الفكر وينابيه، وأن يحلّي نفسه بحلاها، ولكنه مسؤول عن بث المعرفة التي يختص بها، ونشر الثقافة على طلابه ومريديه بأفضل أسلوب وأمتع سبيل يصل على قلوبهم وعقولهم.

كنت متأكداً وأنا أصغي إلى عبارات العبارات العلامة الأديب بأنه يستعرض في ذلك الموقف شريط حياته الثرية بالعطاء والخير والمفيد من لحظة عمره الأولى.

ولد د. ((اليافي)) بحي ((باب السباع)) في مدينة حمص عام ١٩١٩ وفيها تلقى علومه الابتدائية، وكما أخذ عن مشايخها في المساجد معارف متنوعة في البلاغة والنحو والفقه والمنطق، ومن المفارقات أن معلميه لاحظوا شروده السدائم وعدم

قابليته للتعلّم، لكن الطفل ما لبث أن أبدى ذكاء متوهجاً، وذاكرة مدهشة وقدرة على الحفظ والفهم، أهّلته لمتابعة تعليمه الثانوي في فرع الرياضيات بمكتب عنبر عام ١٩٣٥، والفوز بالشهادة الثانوية بتقدير ممتاز لم يحققه أي طالب قبله، كذلك كان الأول على أقرانه في الشهادة الإعدادية لكلية الطب، وفاز بمسابقة بعثة الدولة للدراسات العليا في فرنسا عام ١٩٣٦، وهناك نال إجازة العلوم الطبيعية من السوربون عام ١٩٤٠.

حال اندلاع الحرب العالمية الثانية بين د. الياقي وبين عودته إلى الوطن، وواجه مصاعب كبيرة لم تمنعه من متابعة تحصيله في مجالات عديدة، نال بنتيجتها خمس شهادات دراسية عليا من السوربون، في: علم النفس، وعلم الجمال وفلسفة الفن، وفي تاريخ العلوم وفلسفتها، وفي الفلسفة العامة والمنطق، وفي علم الأخلاق والاجتماع، وتوجّها كلها وبالدكتوراة في الفلسفة عام ١٩٤٥، كما نال إحدى عشر شهادة ليسانس في التاريخ واللغة العربية والاقتصادية والإحصاء والأدب وغيرها.

دور المفكر في حياة الأمة:

مع انتهاء الحرب في عام ١٩٤٥، عاد الدكتور الياقي إلى الوطن، وبدأ مسيرته في التربية والتعليم بمدارس مدينة حمص، وعندما تأسست كلية الآداب في الجامعة السورية عام ١٩٤٧ انضم إليها وبدأ بتدريس علم الاجتماع فيها ثم علم السكان، وحاول أن يناقش مع طلابه أهم المشكلات الاجتماعية في الوطن العربي خاصة، وفي العالم عامة، فنشأ من ذلك بعض المؤلفات مثل: تمهيد في علم الاجتماع، ودراسات اجتماعية ونفسية، وفصول في المجتمع والنفس.

وبالنظر إلى أهمية علم الاجتماع في عالمنا المعاصر، وما تلقّيه من مسؤولية كبيرة على عاتق الباحثين فيه، فقد رأى الدكتور الياقي أن لأصحاب الفكر والسوعي من أبناء الأمة دوراً في توجيه الفكر والتأثير في الحياة، والأمر هنا لا يقتصر على عالم الاجتماع وحده، وإن كان الأقرب على القضايا الاجتماعية ممن سواه، فعليه أن

يخرج إلى المجتمع ويسهم بما لديه من خبرات في التوجيه الصحيح، ولا يتوقف دوره عند حدود الوصف والتفسير، بل يتجاوز ذلك على تقديم الحلول واقتراح الخطط المناسبة لمعالجة المشكلات الاجتماعية، بما لها من انعكاسات ثقافية وحضارية عامة، وأكد كذلك على ضرورة تضافر جهود علماء الاجتماع العرب لدراسة المعطيات الاجتماعية على المستوى القومي، واقتراح الأمور التي تساعد على وضع المجتمع العربي على المسار السليم حاضراً ومستقبلاً.

الدراسة الفنية للأدب:

كذلك كان الدكتور الباقي من جديد رائداً في مجال الاهتمام بدراسة علم الجمال، وقد أدخل تدريس علم الجمال بكلية الآداب عام ١٩٤٨، وسعى من خلال ذلك إلى رفد الدراسات الفنية للأدب العربي بزايد جديد، لأن هذه الدراسات كانت مقتصرة على الجوانب المضمونة غالباً، وقد ألف كتابه المعروف "دراسات فنية في الأدب العربي"، فلقى إقبالاً واهتماماً واسعين، ونال عنه جائزة الدولة زمن الوحدة بين سوريا ومصر، واتبعه بكتابه الآخر: "الشموع والقناديل في الشعر العربي"، وقد استطاع في الكتابين إبراز جوانب جديدة في المنحى الفني اعتماداً على دراساته الفلسفية وثقافته اللغوية.

قضية تعريب العلوم:

رغب د. الباقي في توظيف معلوماته الرياضية للوصول إلى المعايير العلمية التي تعتمد على القياس والإحصاء، فانتهى إلى الاهتمام بعلم السكان والديموغرافيا، وكان قد ألف في هذا المجال عدداً من الكتب، وألقى كثيراً من المحاضرات، وكان من أبرز أعماله "المعجم الديموغرافي المتعدد اللغات" الذي وضع نصه العربي، ولم يكن في مجال علم الاجتماع وحسب بل كان له قصب السبق إلى تدريس جملة من العلوم في جامعة دمشق ومنها: الفيزياء الحديثة بكلية العلوم، و"الإحصاء الحيوي"

في كليتي الطب والصيدلة" و"المنطق" في كلية الشريعة، وفلسفة العلوم في كلية الآداب، وألف في هذا الميدان كتابيه المتميزين "الفيزياء الحديثة والفلسفة" و"تقدم العلم" وظل مثابراً على شرح الظواهر العلمية الدقيقة في الفيزياء وما يتصل بها من نظريات، بلغة عربية علمية لا تشكو عجزاً ولا يعثر عليها لبس أو غموض، وكان يؤكد أن قضية المصطلحات ليست عائقاً أمام تعريب العلوم، فهي لم تكن في السابق كذلك ولن تكون، لأن المصطلحات تتوالد بالممارسة العلمية، والباحث أن يسلك بهما مسالك شتى فيترجم أو يعرب أو يشتق، ثم تكون الغربة والاصطفاء بعد تعدد الدراسات وتنوع المصادر، ويؤول الأمر بعدئذ إلى وضع معاجم شاملة لمصطلحات كل علم من العلوم، فليس على المختص في علم من العلوم إلا أن يبذل جهداً ويصرف وسعه في العمل الذي أو كل إليه تدريجاً وتأليفاً.

اللغة العربية تعبير وبيان بليغ:

غني عن القول أن السمة البارزة في فكر د. البياضي، هي شغفه الشديد باللغة العربية واعتزازه بها، يوضح ذلك قوله: لقد شغفت باللغة العربية منذ صباي، ولا زلت مشغولاً بها إلى الآن، فهي تجري مني مجرى الدم في العروق، ولو لم أكن مدفوعاً بهذا الشغف لما أمضيت السنين الطوال من عمري قائماً على خدمتها بكل ما أستطيع، فتقافتي بهذه اللغة واهتمامي الأول بأدائها وترانها، كل ذلك هو الأصل ثم يأتي الجانب الآخر وهو اشتغالي بالعلوم، وليس في ارتباط هذا الجانب بسابقه أي عجب، لأن المعارف يرفد بعضها بعضاً، وهكذا تشكل الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم السكان جانباً مهماً من ثقافتي وحياتي، أما عن دعاوى المغرضين بشأن اللغة العربية عاجزة عن استيعاب المصطلحات العلمية الجديدة، فهي دعاوى باطلة من الأساس، لأن لغتنا مطواع سائغة التعبير دقيقة البيان، إذا استطاع الإنسان أن يلم بها إماماً كافياً، وقد نشرت بعض المؤسسات العلمية عندنا معاجم في مفردات الفيزياء النووية، ضمن مصطلحات مقابلة لمثيلاتها في اللغات الإنجليزية والفرنسية

والروسية والأسبانية، وهذا دليل طواعية اللغة العربية وإمكان تلاقي أي نقص في كل مجال، والأمر ممكن إذا توافر لمؤسسات التعريب الرجال المحبون للعربية، العارفون بأسرارها ومواضع جمالها الكثيرة والمدهشة في آن معاً.

ظل حب العلامة الياقي للغة العربية يمتلك عليه فكره وجهده السدائب، وظلّت العربية مع الأدب سميرَتي هواء، فعكف على ترجمة ثمرات المعارف الأجنبية إلى العربية، ويصوغ بها مصطلحات جديدة، ويظهر من قدراتها البارعة ما يجنبها إلى النفوس وبديها من العقول، وقد وظف خبرته الطويلة في مجال البحث في خدمة اللغة ومصطلحاتها وتراثها، من خلال عمله في تأليف "معجم العماد الموسوعي" الذي يشتمل على نحو مائتي ألف موضوع، يعرّف بها تعريفاً مفيداً وموضوعياً، وسيكون عند إنجازه ثروة فكرية ومعرفية، ومرجعاً ثميناً لكل مهتمّ وباحث في المعارف الإنسانية.

نبح الحكمة والمعرفة الجادة:

أغنى الدكتور الياقي المكتبة العربية بعشرات من مؤلفاته في كل جوانب الفكر التي ألّم بها، ونشرت المجلات الثقافية في الوطن العربي بحوثه ودراساته القيمة، وقد نافقت تلك المؤلفات على الثلاثين كتاباً، وجد فيها الدارسون والطلاب ينبوعاً ثراً يزودهم بالحكمة والمعرفة الجادة، يذكر الكاتب المعروف محمود أمين العالم:

رجعت في الأربعينات والخمسينات من القرن الماضي إلى كتب اختلفت في محبتي وتقديري، واجتمعت محبتي واعتزازي في كتاب واحد من مؤلفات الدكتور "عبد الكريم الياقي" فقد عملت أيامها في موضوع شاق هو "المصادفة في الفيزياء الحديثة" ورحت أبحر في خضم هذا الموضوع دون الوصول إلى شاطئه، حتى وضعت يدي على الزورق الذي يقودني إلى هدفي: البساطة الرائعة والعلم الغزير، والحكمة والفكر النظري الذي يقتحم التفاصيل، ثم المصطلح العربي الجديد، وحقائق الإنسان وواقعه، وكل ذلك في كتاب الياقي: "الفلسفة والفيزياء" الذي استطعت

بفضله أن أوصل طريقي، وصار هذا الكتاب معنى حياتي:

ثقافة موسوعية مستتيرة:

اختير الدكتور الياقي بجدارة للعديد من المراكز العلمية والفكرية، فكان عضو المعهد العالمي لعلم الاجتماع، وعضو الاتحاد العالمي للدراسات العلمية للسكان، وعضو المجلس الأعلى لرعاية العلوم والفنون والآداب، وعضواً مؤسساً في اتحاد الكتاب العرب، وعضواً في مجمع اللغة العربية، كما عمل رئيساً للتحرير في مجلة التراث العربي، ورئيساً للتحرير في معجم العماد الموسوعي، فمن أين تتبع مكانة الياقي ودوره العام في مسيرة الفكر العربي؟

يوضح الدكتور "الطيب تيزيني":

لقد برهن الياقي في كل الميادين التي عمل فيها عن ثقافته الموسوعية العلمية المستتيرة، ومقدرته اللغوية، وغوصه في محيطات التراث لالتقاط المناحي التقدمية في هذا التراث، من أجل متابعة المشروع النهضوي العربي، والدعوة إلى العقلانية التي تشترط الحرية الفكرية مع وقوف صريح ضد تيار الظلامية المتستر بعباءة العودة إلى الأصول، وضمن ثنائية باللغة السداجة تقسم البشر إلى: مؤمن وكافر، ولا ثالث بينهما.

وقرأ د. الياقي الماضي على ضوء الراهن، وتصدى بشجاعة للذين يريدون تغيب التاريخ العربي وإصاق تهم السلبية به، ودافع ببراهين علمية منطقية عن التراث العربي دون أن يقف عند حدود التراث، بل لينطلق إلى آفاق رحبة تبرهن على أن هذه الأمة بما راكمته من كنوز معرفية، قادرة على النهوض مجدداً.

دفاع عن الحق والحقيقية:

يتابع د. تيزيني: لقد تبوأ العلامة اليافي مكانة مرموقة في النزعة العقلية
التتويرية التي ابتدأت منذ منتصف القرن الثامن عشر، ويمكن مقارنته بكثير من
أعلام التتوير أمثال: ابن سينا وابن رشد وفولتير والطهطاوي وطه حسين، وغيرهم
ممن أسهموا في الدفاع عن الحق والحقيقة ضمن مفهومهما الإنساني الشامل بشكل
عام، وخصوصيتها الإسلامية العربية بشكل خاص.

ويضيء الدكتور بكري علاء الدين جانباً من قراءة الدكتور اليافي لابن عربي،
الذي استقى فلسفته التصوفية من الفلسفة العربية والإسلامية، وخاصة من إخوان
الصفا ومن التيارات الفلسفية والكلامية في شرق الدولة الإسلامية وغربها، وضمن
هذا المعطيات فهم د. اليافي أهمية ابن عربي وأبرز قيمة أفكاره في كتابه المتميز
"دراسات فنية في الأدب العربي"، وأوضح قيمة الرمز في التعبير الصوفي، وأطلعنا
على جوانب مهمة عن مذهبه الفلسفي في الإنسان والخيال والحب، وهكذا صارت
مؤلفات ابن عربي تدرس كأعمال فلسفية صوفية من جهة، وأثار خالدة في النمط
الرمزي والسريالي من جهة أخرى.

لقد مثل د. عبد الكريم اليافي بحق ذاكرة الفكر العربي ماضياً وحاضراً، وحين
أراد أن يرد التحية للمتخفين به لحظة تقليده وسام الاستحقاق في السادس والعشرين
من حزيران ٢٠٠٢، اكتفى بالقول: إن اعتزازي بهذا التكريم نابع من شعور بأنه
تكريم للعلم والأدب وللمثابرة والدأب، وصرف سنوات العمر في جهد ينفع الناس
لأن ما ينفع الناس، يمكث في الأرض، وأما الزبد فيذهب جفاء، لقد عشت مؤمناً
بأن المعلم أشبه بالزارع الذي ينثر البذر، ويرعى الغراس ويشذب ويتوقف، لكي تأتي
مواسم الخير والعطاء في أجمل وأغنى آياتها.
وكان ذلك حقاً!...

مسؤوليتنا: فهم التراث ووصل الماضي بالحاضر...

أرى في الكثير مما يثار حول التراث بليلة وجدلاً لا طائل تحته، فنحن نهمل بصورة طبيعية من معين التراث العربي الإسلامي، ومن علومه وآدابه، ونستفيد من كنوزه ما يغني حياتنا ويطور مجتمعا ويجدد علومنا. كما نهمل من التراث العالمي الإغريقي والروماني والهندي وسوى ذلك. كما نستفيد ونأخذ من الفكر الحديث والمعاصر. ولا عجب في هذا، لأن مصادر المعرفة متعددة. ولا يمكن للعالم أن يكون عارفاً - بمعنى الكلمة - ما لم يكن على إطلاع واسع وثقافة متنوعة. والتراث عندنا واسع جداً، وهذا ما يجعل مسألة التراث لدى الكثيرين مشكلة، وليس هناك في الأساس مشكلة. ففي تراثا جانبان يخلط بينهما بمض الباحثين. وهما الجانب الديني الإلهي، وهو عنوان الأخلاق ومصدر الهداية. والجانب الفكري والعلمي الذي ينقسم إلى مجالات كثيرة. فالجانب الديني جوهره الحث على طلب العلم وبث الهداية والسعي إلى مكارم الأخلاق والمساواة والحرية والتعاون والتكافل الاجتماعي، ومن منا يكره هذه المبادئ، ومن منا لا يستجيب لهذه الحوافز؟. أما الجوانب الأخرى فينبغي أن نستفيد منها ونتصرف بها، لا أن نجعلها نتصرف بنا. وهذا هو الفرق بين أن نمتلك التراث، وأن يملكنا التراث. وإنسي أستطيع أن أقول لك بإيجاز: إن التراث كنز وليس عبئاً، وعلينا أن نحسن التصرف حياله أخذاً وتوظيفاً..

كل لغة رهين التطور، وكذلك اللغة العربية، فلا مجال لإنكار التطور، وهو موجود فعلاً أياً كانت مواقف اللغويين منه. ولكل لغة خصائص ومزايا يمكن أن نقسم إلى قسمين: ذاتية داخلية تتعلق بطبيعة اللغة نفسها، وخارجية زمنية - بيئية تتعلق بتقدم المجتمع والعلوم وتنوع البيئات المكانية. ففي الخصائص الذاتية أرى أن العربية لا تجارى في دقتها وطواعيتها وسعتها وغنى تراثها، وما فيها من إمكانات التوالد الاشتقاقي والتغير الدلالي والنقل المجازي. أما في الخصائص الخارجية

فالأمر لا تمس اللغة نفسها لسبب يرجع إليها، بل لسبب يتصل بالعوامل الاجتماعية والتاريخية والبيئية. وهذا هو ما جرى للعربية في العصور المتأخرة، إذ توارت عن العلوم وغابت عن ميدان الاستعمال لتقهقر أبنائها وضعف ثقافتهم وتخليهم عن مسيرة التقدم والحاضرة. فلا خوف على العربية حقاً ما دام أبنائها عاملين على خدمتها. ولنا في تجاربنا المعاصرة أدلة كثيرة على ذلك: فالناظر في حال العربية منذ مطلع هذا القرن حتى الآن يجدها قد قطعت أشواطاً بعيدة في التحديث، إذ غدت من جديد لغة التدريس والتأليف والصحافة والإعلام، ولا يعني هذا أننا راضون عن حالة العربية بين أهلها وعلى ألسنة أبنائها، بل نحن نشير إلى أمر غداً معروفاً وهو تطور اللغة في هذا العصر وتحديثها إلى درجة استطاعت بها أن تسأنف مسيرتها من جديد. أما الرضا عن جهودنا تجاهها فلن يكون إلا بعد أن نرسخ وجودها في سائر المجالات العلمية والاجتماعية، لتكون اللغة المكتوبة المنطوقة التي تتردد في ديار العروبة كلها دون حاجز من لهجة أو عجمية أو تعقيد.

لا شك في أن لأصحاب الفكر والعلم والوعي من أبناء الأمة دوراً في توجيه الفكر والتأثير في الحياة، فالأمر لا يقتصر على عالم الاجتماع دون غيره، وإن كان من المؤكد أن عالم الاجتماع أقرب إلى القضايا الاجتماعية ممن سواه. وينبغي على ذلك أن على عالم الاجتماع المعاصر أن يخرج إلى المجتمع، ويسهم بما لديه من خبرات في التوجيه الصحيح.

فعالم الاجتماع لا يتوقف عند حدود الوصف والتفسير، بل يتجاوز ذلك إلى تقديم الحلول واقتراح الخطط المناسبة لمعالجة المشكلات الاجتماعية بما لها من انعكاسات ثقافية وحضارية عامة. ومن الممكن أن تتضافر جهود العديد من علماء الاجتماع العرب لدراسة المعطيات الاجتماعية على المستوى القومي، واقتراح الأمور التي تساعد على وضع المجتمع العربي في المسار السليم حاضراً ومستقبلاً. فعلماء الاجتماع من هذه الزاوية لهم ما يؤهلهم لكي يكونوا مهندسي الحياة

الاجتماعية. وقد يجد المرء أن شيئاً من تضافر الجهود يحدث هنا أو هناك، لكنه يبقى دون ما نؤمل بكثير.

التراث في رأيي كالبحر الواسع المتلاطم، أو كأنه خزائن ملأى بالكنوز، ولا يستطيع الناس جميعاً أن يطلعوا على تلك الخزائن ولا أن يغوصوا في ذلك البحر الخضم ليلتقطوا اللؤلؤ من أعماقه. المؤسسات العليا كالجامعات، ومجامع اللغة العربية، ومراكز البحوث هي المسؤولة عن الكشف عن تلك الكنوز وإخراج اللؤلؤ من البحار، وعندئذ يمكن القيام بهنضة جديدة في التعرف على قيم التراث والأساليب المفيدة لدعم اللغة العربية، وإنقاذ البيان العربي في الوقت الحاضر.

نادى قريق، كثير العدد، بضرورة تسهيل النحو العربي وتيسير الكتابة اللغة العربية، ونحن وإن كنا من أنصار تسهيل ذلك النحو وتيسير البيان العربي مبدئياً، فإننا في الوقت الحاضر لا نرضى عن مثل هذا الاتجاه، لأن التيسير قد يؤدي بكل بلد منا، أي البلاد العربية، إلى نشوء لغات متعددة تختلف عن اللغة العربية الأصيلة. نحن الآن من أنصار التجديد في المرحلة التي نعيش فيها، بحدود أن تقوى معرفة اللغة العربية من قبل الطلاب والأساتذة، وأن يستحكم البيان العربي السليم، وأن تصبح لغة الكلام، قريبة ما أمكن من لغة الكتاب. عند هذه الظروف والإمكانات يمكن النهوض بإصلاحات جديدة ومبتكرة في تسهيل قواعد اللغة العربية وأساليب البيان فيها. وعندئذ يمكن الاستفادة من الجوانب المضيئة في تراثنا العربي، وهي كثيرة جداً لربط الماضي بالحاضر، والحاضر بالماضي.

أعود إلى التراث العربي الإسلامي فأقول، إنه واسع جداً، وغني جداً، وليس المراد منه هو الإطلاع عليه فقط، وتقديم مختصرات منه، أو متون موجزة في مجالاته، وإنما المراد هو إدراك الحركة الحافزة التي كانت وراء كل تقدم في مجال من المجالات العلمية والفكرية والفنية والسياسية في تراثنا العظيم. وأنا شخصياً أعد التراث العربي ذاكرة الأمة العربية، فهو غني بالكنوز الفكرية والعلمية، وحسن الإطلاع على هذا التراث والاستفادة منه يقتضيان الإطلاع على أحوال الفكر

العالمي الراهن، وعندئذ يمكن وصل الماضي بالحاضر، ليحصل انشاق في شخصية المفكر العربي الأصيل، والطالب الذي نعهده للمستقبل. أما العودة إلى التراث، دون فهم روحه والاستفادة من توجيهاته، فهذا لا يكفي، وكذلك في الجهة المقابلة الانقطاع عن التراث والإقبال على التراث العالمي دون الاعتماد على الذات العربية، إنما هو مسخ لهذه الذات العربية وتشويه لها.

لا أجد تناقضاً بين العودة إلى التراث العربي والنظر في مضامينه. والإطلاع على الفكر العالمي الحديث بمختلف أشكاله الروحية والعلمية، بل على العكس أجد في الجمع بين الأمرين توسيع لأفاق الذات الباحثة، وبحث عن أصالة جديدة ناضجة لا تدبر ظهرها للتراث، كما لا تقبل الإقبال كله على جميع مشتقات الحضارة الراهنة التي قد لا تتناسب وشخصيتنا وما نطمح إليه.

والمشكلة عندي ليست هنا، وإنما هي في ترويج مقولات غير طبيعية حصول الفكر العربي، والعقل العربي تحديداً، وهي دعوات عنصرية غايتها إنكار أصالة الفكر العربي، والمفاضلة بين شعب وآخر، وأمة وأخرى. وذلك لأن جميع الشعوب متساوية في إمكانية النهوض والتقدم والمشاركة في صنع جوانب الحضارة الإنسانية المتعددة. وتاريخ الحضارات، يشير بجلاء إلى أن الحضارات لم تكن وفقاً على شعب واحد، أو أمة واحدة ... وإنما كانت بفعل مشاركة شعوب متعددة. ولم توجد حضارة هي من إنجاز أفراد شعب بعينه، وإنما شارك هؤلاء الأفراد آخرون من شعوب أخرى. وتاريخ الحضارات يخبرنا دونما لبس أو مواربة بأن الحضارة العربية من أكثر الحضارات الإنسانية اتساعاً، وتقدماً، وإنسانية ... واعترافاً بأهمية القيم الإنسانية الرفيعة ... فالحضارة العربية ساهمت وتساهم في الإعلاء من شأن قيم المساواة، والعدالة، والحرية، والمحبة، والتعاون، والمواخاة ... بين مختلف شعوب الأرض. إذن دعوى التشكيك بقدرات العقل العربي أو المفكر العربي هي دعوى عنصرية غايتها معروفة ومكتشفة في آن واحد.

وعندي، أن عيب الحضارات الحديثة يتمثل في انصرافها إلى الجانب المادي مما أدى إلى إهمال الجوانب الإنسانية بعامه.



أول دروس الفلسفة: احترام الحق والحقيقة....

يعتبر الدكتور عادل العوا واحداً من أبرز أعلام الفكر العربي المعاصر.. إنه تاريخ بفكره وإسهاماته، فقد رفد المكتبة العربية بعشرات الكتب الفلسفية العربية بمضمونها الغني والقيم، وكان له الفضل في تأسيس قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية في جامعة دمشق، إلى جانب كونه واحداً ممن أرسوا دعائم كلية الآداب في جامعة دمشق.

كان الدكتور العوا على مدى سنوات طويلة، وسبقي محط اهتمام من يقدّر العلم والفكر، وقد احتل مكانة مرموقة بين زملائه وكان موضع احترام وتقدير من تلاميذه وما أكثرهم، لما قدمه من نبيل الأعمال في مجال عمله التعليمي والفكري، فاستحق أن يؤلف عنه الكتب والدراسات، ويذكر على الدوام بالاعتزاز والنقد. انطلق الفيلسوف الدكتور عادل العوا من أن (أول دروس الفلسفة وأهمها على الإطلاق هو احترام الحق والحقيقة أكثر من أي شيء آخر .. ومن يحترم الحقيقة من واجبه أن ينتقد، ومن حقه أن يخالف)..

مسيرة عطاء خيرة:

ولد الدكتور عادل العوا، في دمشق عام ١٩٢١، وتعلّم في المدارس الحكومية ونال البكالوريا السورية (فلسفة) عام ١٩٣٨، وسافر في خريف العام نفسه إلى فرنسا ليتابع دراسته العليا في كلية الآداب بجامعة باريس (السوريون)، فحاز على الإجازة ثم الدكتوراه من جامعة باريس (آداب / فلسفة) حزيران عام ١٩٤٥. عاد إلى سورية في آب ١٩٤٥، وبدأ حياته العملية بالتدريس في المدارس الثانوية وفي دار المعلمين بدمشق حتى افتتحت كلية الآداب والمعهد العالي للمعلمين

في جامعة دمشق عام ١٩٤٦، فعين فيها أستاذاً، وكلف بإدارة المعهد العالي للمعلمين حتى عام ١٩٤٩، حين أصبح أستاذاً في كلية الآداب، وترأس قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية منذ ذلك الحين وحتى إحالته إلى التقاعد بعد التمديد عام ١٩٩٠.

- ترأس إلى جانب عمله الجامعي لجنة التربية والتعليم في وزارة التربية بدمشق حتى ١٩٥٥/١٢/٢٦، حيث أصبح وكيلاً لكلية الآداب لمدة سنتين، ثم عميداً لهذه الكلية منذ عام ١٩٦٥، حتى عام ١٩٧٣.

- شارك في مؤتمرات ودورات علمية عديدة منها: اليونسكو (بيروت - ١٩٤٩) و (باريس - ١٩٥١)، ولدراسة فلسفة تربوية متجددة لعالم عربي متجدد (الجامعة الأمريكية) بيروت (١٩٥٦)، وللمستشرقين (ميونخ - ١٩٥٧)، وللفلسفة (كراتشي - ١٩٦١) ولتطوير التعليم العالي والجامعي (دمشق - ١٩٧١) وللعلوم الاجتماعية (الجزائر - ١٩٧١) وغيرها من الحلقات الفلسفية والاجتماعية.

- أسهم في أعمال اللجنة الثقافية لجامعة الدول العربية وهو عضو في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، ومقرر لجنة الترجمة والتبادل الثقافي عن القطر العربي السوري.

- عضو مجمع اللغة العربية في دمشق، حاضر ودرس في الجامعات الأردنية واللبنانية والجزائرية، وفي جامعة هلسنكي بوصفه أستاذاً زائراً، كما حاضر في جامعتي الكويت والبريموك.

- واكب الدكتور العوا الحركة العلمية والفلسفية والتعليمية، وكان فاعلاً ومؤثراً فيها وله الكثير من المحاضرات والمقالات المنشورة في المجالات والموسوعات، مثل: الموسوعة الفلسفية، ومحاضرات - وزارة الثقافة، ومجلة الثقافة، ومن مؤلفاته: الفكر الانتقادي لجماعة إخوان الصفا (بالفرنسية) بيروت ١٩٤٨، المذاهب الأخلاقية (جزءان) جامعة دمشق ١٩٥٨-١٩٥٩، القيمة

الأخلاقية - جامعة دمشق ١٩٦٢، معالم الكرامة في الفكر العربي - دمشق ١٩٦٩، الأخلاق - جامعة دمشق ١٩٧٥، الإنسان ذلك المعلوم - باريس ١٩٧٧، أسس الأخلاق الاقتصادية - جامعة دمشق ١٩٨١، المدخل إلى الفلسفة (بالاشتراك) جامعة دمشق ١٩٨٢، المذاهب الفلسفية ١٩٨٧، الفلسفة الأخلاقية ١٩٨٨، مذاهب السعادة - ١٩٩١، المزاج الحضاري في الفكر العربي دمشق ١٩٩٢، دروب الهموم والخلاص عربياً وعالمياً ١٩٩٣، لقاء القيم في الفكر العربي ١٩٩٣، أخلاقنا الاقتصادية ١٩٩٤، الفضائل العربية ...٢٠٠٢

أما ترجماته فهي كثيرة تتوف عن الستين ... وقد ترجم لريمون رويه: فلسفة القيم - عالم القيم - السيبرنتيك وأصل الإعلام، نقد المجتمع - نقد الايديولوجيات المعاصرة، الممارسة الايديولوجية، وترجم لكارل يسبرز : نهج الفلسفة - عظمة الفلسفة - فلاسفة إنسانيون، ولجان كزونوف: دعائم علم الاجتماع - السعادة والحضارة، ولشارل لالو : الفن والأخلاق - الفن والحياة الاجتماعية، وترجم لهنري آرفون: فلسفة العمل، ولجورج باستيد: المدينة سرابها ويقينها .. وترجم لروجيه غارودي حوار الحضارات ... يقول الدكتور أحمد أبو زيد تحت عنوان: ((عادل العوا بين الإبداع الفلسفي والإبداع الأخلاقي)).

إن الأستاذ عادل العوا باحث أخلاقي، عرض للمذاهب السابقة وفندها، ويتضح ذلك في معظم كتاباته ودراساته، فقد عمل على اتساق توجهه الفلسفي في سبيل فهمه الانتقادي، واقتناعه الفكري، فكان - بحق - فيلسوفاً ذا ثقافة انتقادية واعية. وما يميز الدكتور العوا - من حيث هو فيلسوف - أنه أبدع اصطلاحاته بعد أن أعمل فكره الانتقادي..

وكتب الدكتور خالد قوطرش من يقرأ مؤلفات د. عادل العوا يشعر انه يمزج الفلسفة بالأدب، كأنما يريد أن يودب الفلسفة ويفلسف الأدب، فصار بحق أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء، ويخيل أن فلسفته والفلسفة تأمل لا خيال، تقوم على

النظرة إلى الوجود بعقل تأملي وواقعية يشوبها شيء من الصوفية الرمزية الميتافيزيقية، وعلى الجملة، فإن فلسفته على قدر ما تهتم بالذات الجماعية البراجماتية، فإنها مزيج من المنطق النقايدي والتصوف الديني الشمولي، فشموليته المعرفية وشموليته الروحية تتوازنان كتوازن السماكين في كبد السماء، وقد لقبه طلابه بـ (برجسون سورية).

كان رحيل الدكتور العوا في كانون الأول ٢٠٠٢، بعد مسيرة حافلة بالعطاء المبدع، فكان جديراً بتقدير الوطن واعتزاز الأجيال.

مسؤوليتنا: فهم التراث ووصل الماضي بالحاضر...

أرى في الكثير مما يثار حول التراث بليلة وجدلاً لا طائل تحته، فحن ننهل بصورة طبيعية من معين التراث العربي الإسلامي، ومن علومه وآدابه، ونستفيد من كنوزه ما يغني حياتنا ويطور مجتمعا ويجدد علومنا. كما ننهل من التراث العالمي الإغريقي والروماني والهندي وسوى ذلك. كما نستفيد ونأخذ من الفكر الحديث والمعاصر. ولا عجب في هذا، لأن مصادر المعرفة متعددة. ولا يمكن للعالم أن يكون عارفاً - بمعنى الكلمة - ما لم يكن على اطلاع واسع وثقافة متنوعة. والتراث عندنا واسع جداً، وهذا ما يجعل مسألة التراث لدى الكثيرين مشكلة، وليس هناك في الأساس مشكلة. ففي تراثنا جانبان يخلط بينهما بعض الباحثين، وهما الجانب الديني الإلهي، وهو عنوان الأخلاق ومصدر الهداية. والجانب الفكري والعلمي الذي ينقسم إلى مجالات كثيرة. فالجانب الديني جوهره الحث على طلب العلم وبث الهداية والسعي إلى مكارم الأخلاق والمساواة والحرية والتعاون والتكافل الاجتماعي، ومن منا يكره هذه المبادئ، ومن منا لا يستجيب لهذه الحوافز؟. أما الجوانب الأخرى فينبغي أن نستفيد منها ونتصرف بها، لا أن نجعلها نتصرف بنا. وهذا هو الفرق بين أن نمثلك التراث، وأن يمتلكنا التراث. وإني أستطيع أن أقول لك بإيجاز: إن التراث كنز وليس عبئاً. علينا أن نحسن التصرف حياله أخذاً وتوظيفاً ..

كل لغة رهين التطور، وكذلك اللغة العربية. فلا مجال لإنكار التطور، وهو موجود فعلاً أيّاً كانت مواقف اللغويين منه. ولكل لغة خصائص ومزايا يمكن أن نقسم إلى قسمين: ذاتية داخلية تتعلق بطبيعة اللغة نفسها، وخارجية زمنية - بيئية تتعلق بتقدم المجتمع والعلوم وتنوع البيئات المكانية. ففي الخصائص الذاتية أرى أن العربية لا تجارى في دقتها وطواعيتها وسعتها وغنى تراثها، وما فيها من إمكانات التوالد الاشتقائي والتغير الدلالي والنقل المجازي. أما في الخصائص الخارجية

فالأمر لا تمس اللغة نفسها لسبب يرجع إليها، بل لسبب يتصل بالعوامل الاجتماعية والتاريخية والبيئية. وهذا هو ما جرى للعربية في العصور المتأخرة، إذ توارت عن العلوم وغابت عن ميدان الاستعمال لتقهقر أبنائها وضعف ثقافتهم وتخليهم عن مسيرة التقدم والحاضرة. فلا خوف على العربية حقاً ما دام أبنؤها عاملين على خدمتها. ولنا في تجاربنا المعاصرة أدلة كثيرة على ذلك: فالناظر في حال العربية منذ مطلع هذا القرن حتى الآن يجدها قد قطعت أشواطاً بعيدة في التحديث، إذ غدت من جديد لغة التدريس والتأليف والصحافة والإعلام، ولا يعني هذا أننا راضون عن حالة العربية بين أهلها وعلى السنة أبنائها، بل نحن نشير إلى أمر غدا معروفاً وهو تطور اللغة في هذا العصر وتحديثها إلى درجة استطاعت بها أن تستأنف مسيرتها من جديد. أما الرضا عن جهودنا تجاهها فلن يكون إلا بعد أن نرسخ وجودها في سائر المجالات العلمية والاجتماعية، لتكون اللغة المكتوبة المنطوقة التي تتردد في ديار العروبة كلها دون حاجز من لهجة أو عجمية أو تعقيد.

لا شك في أن لأصحاب الفكر والعلم والوعي من أبناء الأمة دوراً في توجيه الفكر والتأثير في الحياة، فالأمر لا يقتصر على عالم الاجتماع دون غيره، وإن كان من المؤكد أن عالم الاجتماع أقرب إلى القضايا الاجتماعية ممن سواه. وينبغي على ذلك أن على عالم الاجتماع المعاصر أن يخرج إلى المجتمع، ويسهم بما لديه من خبرات في توجيه الصحيح.

فعالم الاجتماع لا يتوقف عند حدود الوصف والتفسير، بل يتجاوز ذلك إلى تقديم الحلول واقتراح الخطط المناسبة لمعالجة المشكلات الاجتماعية بما لها من انعكاسات ثقافية وحضارية عامة. ومن الممكن أن تتضافر جهود العديد من علماء الاجتماع العرب لدراسة المعطيات الاجتماعية على المستوى القومي، واقتراح الأمور التي تساعد على وضع المجتمع العربي في المسار السليم حاضراً ومستقبلاً. فعلماء الاجتماع من هذه الزاوية لهم ما يؤهلهم لكي يكونوا مهندسي الحياة

الاجتماعية. وقد يجد المرء أن شيئاً من تضافر الجهود يحدث هنا أو هناك، لكنه يبقى دون ما نؤمل بكثير.

التراث في رأيي كالبحر الواسع المتلاطم، أو كأنه خزان ملأى بالكنوز، ولا يستطيع الناس جميعاً أن يطلعوا على تلك الخزائن ولا أن يغوصوا في ذلك البحر الخضم ليلنقطوا اللآلئ من أعماقه. المؤسسات العليا كالجامعات، ومجامع اللغة العربية، ومراكز البحوث هي المسؤولة عن الكشف عن تلك الكنوز وإخراج اللآلئ من البحار، وعندئذ يمكن القيام بنهضة جديدة في التعرف على قيم التراث والأساليب المفيدة لدعم اللغة العربية، وإنقاذ البيان العربي في الوقت الحاضر.

نادى فريق، كثير العدد، بضرورة تسهيل النحو العربي وتيسير الكتابة باللغة العربية، ونحن وإن كنا من أنصار تسهيل ذلك النحو وتيسير البيان العربي مبدئياً، فإننا في الوقت الحاضر لا نرضى عن مثل هذا الاتجاه، لأن التيسير قد يؤدي بكل بلد منا، أي البلاد العربية، إلى نشوء لغات متعددة تختلف عن اللغة العربية الأصيلة. نحن الآن من أنصار التجديد في المرحلة التي نعيش فيها، بحدود أن تقوى معرفة اللغة العربية من قبل الطلاب والأساتذة، وأن يستحكم البيان العربي السليم، وأن تصبح لغة الكلام، قريبة ما أمكن من لغة الكتابة. عند هذه الظروف والإمكانات يمكن النهوض بإصلاحات جديدة ومبتكرة في تسهيل قواعد اللغة العربية وأساليب البيان فيها، وعندئذ يمكن الاستفادة من الجوانب المضيئة في تراثنا العربي، وهي كثيرة جداً لربط الماضي بالحاضر، والحاضر بالماضي.

أعود إلى التراث العربي الإسلامي فأقول، إنه واسع جداً، وغني جداً، وليس المراد منه هو الاطلاع عليه فقط، وتقديم مختصرات منه، أو متون موجزة في مجالاته، وإنما المراد هو إدراك الحركة الحافزة التي كانت وراء كل تقدم في مجال من المجالات العلمية والفكرية والفنية والسياسية في تراثنا العظيم. وأنا شخصياً أعد التراث العربي ذاكرة الأمة العربية، فهو غني بالكنوز الفكرية والعلمية. وحسن الاطلاع على هذا التراث والاستفادة منه يقتضيان الاطلاع على أحوال الفكر

العالمي الراهن، وعندئذ يمكن وصل الماضي بالحاضر، ليحصل اتساق في شخصية المفكر العربي الأصيل، والطالب الذي نعهده للمستقبل. أما العودة إلى التراث، دون فهم روحه والاستفادة من توجيهاته، فهذا لا يكفي، وكذلك في الجهة المقابلة الانقطاع عن التراث والإقبال على التراث العالمي دون الاعتماد على الذات العربية، إنما هو مسخ لهذه الذات العربية وتشويه لها.

لا أجد تناقضاً بين العودة إلى التراث العربي والنظر في مضامينه. والاطلاع على الفكر العالمي الحديث بمختلف أشكاله الروحية والعلمية، بل على العكس أجد في الجمع بين الأمرين توسيع لآفاق الذات الباحثة، وبحث عن أصالة جديدة ناضجة لا تدير ظهرها للتراث، كما لا تقبل الإقبال كله على جميع مشتقات الحضارة الراهنة التي قد لا تتناسب وشخصيتنا وما نطمح إليه.

والمشكلة عندي ليست هنا، وإنما هي في ترويج مقولات غير طبيعية حول الفكر العربي، والعقل العربي تحديداً، وهي دعوات عنصرية غايتها إنكار أصالة الفكر العربي، والمفاضلة بين شعب وآخر، وأمة وأخرى. وذلك لأن جميع الشعوب متساوية في إمكانية النهوض والتقدم والمشاركة في صنع جوانب الحضارة الإنسانية المتعددة. وتاريخ الحضارات، يشير بجلاء إلى أن الحضارات لم تكن وفقاً على شعب واحد، أو أمة واحدة .. وإنما كانت بفعل مشاركة شعوب متعددة. ولم توجد حضارة هي من إنجاز أفراد شعب بعينه، وإنما شارك هؤلاء الأفراد آخرون من شعوب أخرى. وتاريخ الحضارات يخبرنا دونما لبس أو مواربة بأن الحضارة العربية من أكثر الحضارات الإنسانية اتساعاً، وتقدماً، وإنسانية .. واعترافاً بأهمية القيم الإنسانية الرفيعة .. فالحضارة العربية ساهمت وتساهم في الإعلاء من شأن قيم المساواة، والعدالة، والحرية، والمحبة، والتعاون، والمواخاة .. بين مختلف شعوب الأرض. إذن دعوى التشكيك بقدرات العقل العربي أو المفكر العربي هي دعاوى عنصرية غاياتها معروفة ومكشوفة في آن واحد.

وعندي، أن عيب الحضارات الحديثة يتمثل في انصرافها إلى الجانب المادي مما أدى إلى إهمال الجوانب الإنسانية بعامة.



الدكتور نور الدين حاطوم :

مؤرخ موسوعي جدد عمل الرواد وأسهّم في تنوير الأجيال

حفلت مسيرة الإبداع الفكري في سوريا طوال القرن الماضي، بأعمال كوكبة متميزة من الباحثين والمؤرخين، في مجالات الأدب والشعر والعلوم والتاريخ، ومثل كل واحد منهم عبقرية فذة أغنت المكتبة العربية بعشرات المؤلفات العلمية والدراسات الأدبية، أعادت للأذهان صورة الأعلام الأوائل في عصر النهضة الفكرية العربية، وبالتأكيد فإن سيرة المؤرخ والمفكر الراحل "الدكتور نور الدين حاطوم" تقف خير مثال لهذه الفكرة إذ نافقت محصلة أعماله على الثلاثين مؤلفاً في تاريخ العرب والحضارة الإنسانية وفي الاجتماع والسياسة، أنجزها من خلال بحث دائم استمر نصف قرن، واعتبره الدكتور حاطوم رسالة وطنية شريفة يتحتم عليه النهوض بها، عن طريق تنوير العقول وبناء الأجيال.

خطوات على طريق المسيرة:

ولد الدكتور نور الدين حاطوم، بحي الميدان في دمشق عام ١٩١٣، وأتم تعليمه الثانوي بمكتب عنبر، الثانوية الرسمية الوحيدة يومئذ في سوريا، وتابع في دار المعلمين ليتخرج منها عام ١٩٣٣ ويعمل بالتعليم لعدة سنوات، غادر بعدها إلى فرنسا عام ١٩٣٨ مواصلاً تحصيله العالي ليتخرج حائزاً على: الإجازة في الآداب والتاريخ، وشهادة الدراسات العليا في تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، من جامعة "مونبلييه" عام ١٩٤١، ثم شهادة الدكتوراه في الآداب والتاريخ الحديث والمعاصر من جامعة باريس عام ١٩٤٥، ولما عاد إلى الوطن بدأ مسيرته التربوية والفكرية فشغل عدداً من المراكز العلمية منها: عضوية لجنة التربية والتعليم بوزارة

المعارف، وأستاذاً مساعداً بكلية الآداب بجامعة دمشق، وأستاذاً ورئيساً لقسم التاريخ ما بين ١٩٥٤ و ١٩٦٩ ثم عميداً لكلية لعدة سنوات.

اكتسب الدكتور حاطوم خلال عمله شهرة ذائعة كواحد من أركان النهضة العلمية والثقافية في سوريا، فتنافست المؤسسات الجامعية العربية تدعوه للعمل فيها، وهكذا عمل أستاذاً زائراً بمعهد البحوث والدراسات العليا التابع لجامعة الدول العربية بالقاهرة ما بين ١٩٥٨ و ١٩٧٣، وأستاذاً زائراً بمعهد البحوث الآداب بالجامعة الأردنية منذ إحداثها عام ١٩٦٥ ولغاية عام ١٩٦٩ حين أصبح أستاذاً للتاريخ الحديث والمعاصر بجامعة الكويت ما بين ١٩٦٩ و ١٩٨٣.

إبداع فكري وعطاء متميز:

ولم تحل هذه الجهود الدائمة في ميدان التربية والتعليم بينه وبين نشاطه الفكري في البحث والتأليف والترجمة، إذ كان مشاركاً فعالاً في المحافل الفكرية والندوات الثقافية والمؤتمرات التاريخية العربية والدولية، وباحثاً ينشر دراساته في أمهات الصحف والمجالات الثقافية، ويذيع أحاديثه العلمية في أكثر من إذاعة عربية، ومن العجيب أنه وسط هذا النشاط الكبير وجد متسعاً من الوقت لإصدار مؤلفاته التاريخية القيمة التي بدأها بسلسلة من كتب التعليم الجامعي: تاريخ الحضارة، المدخل إلى التاريخ، دراسات في المجتمع العربي، تاريخ سوريا من الاستقلال إلى الوحدة، ثم كانت مجموعة محاضراته في القومية العربية، وقد اشتملت أجزاءها السبعة على دراسات في المراحل التاريخية للقومية العربية، بقطة القومية العربية، حركة القومية العربية، نحو الوحدة العربية، دراسة مقارنة للحركات القومية، ونشاطات البعثات التبشيرية في الوطن العربي.

ثم قدم الموسوعة التاريخية الحديثة المؤلفة من عشرة كتب وهي:

"تاريخ الحركات القومية في أوروبا، خمسة أجزاء" تاريخ أوروبا في العصر الوسيط "ثلاثة أجزاء"، تاريخ عنصر النهضة الأوروبية، تاريخ القرن السابع عشر

في أوروبا، تاريخ القرن الثامن عشر، وتاريخ القرن التاسع عشر، وتاريخ القرن العشرين، وتاريخ عصرنا، وقضايا عصرنا، التاريخ الدبلوماسي (جزءان)، المحاكمات الكبرى في التاريخ، وقد مثلت هذه المؤلفات مراجع قيمة لطلاب البحث التاريخي، كانوا في أمس الحاجة إليها.

كان الدكتور "حاطوم" في كل هذا العطاء السخي، عالماً مقتدرًا، ومربيًا متواضعًا يوجه طلابه ويناقشهم بموضوعية ومحبة، وأذكر أنني حين كنت واحداً من طلابه في إحدى سنوات دراستي في قسم التاريخ، فوجئت بعدم نجاحي في مادة "تاريخ القرن العشرين" رغم تقديمي إجابات صحيحة، فلما راجعته في الموضوع، استقبلني بترحيب أب حنون وقام لفوره يقلب أوراق الامتحان، وحين وضع يده على ورقتي، أخذ يعيد قراءتها معي، ثم يتوقف عند إجابة لم يعطاها درجتها المستحقة، فصيح الخطأ ليمنحني النجاح في المادة وهو يتمتم: لا بأس، إن الرجوع عن الخطأ فضيلة، وربت على كتفي باسمًا وقال: لا يضيع حق وراءه مطالب، وقد مرت سنوات عديدة بعد هذا الموقف وصرت زميلًا للدكتور حاطوم إبان عملنا في الكويت، وصرت شاهداً على مثابرته وجدّه في العمل، وهو شيخ جليل، بهمة وحماس متقد، قابله الأساتذة والطلاب بكل الاحترام والتقدير، وجعلت في كل لقاء أذكره بحادثتي معه، وسرعان ما ترتسم البسمة الوداعة نفسها على شفتيه ليقول: ولكن الحق عاد إلى نصابه..

ورحل الدكتور نور الدين حاطوم أخيراً بعد ما أدى رسالته العلمية حق الأداء، وبقي وجهه السمو متألّفاً في أعماله الفكرية الراقية، وعطاءاته العلمية السخية، ثروة للوطن وللأجيال.

ما زالت آثار العرب ماثلة للعيان

كان أذار هذا العام في باليرمو مطراً على غير عادته، تقجرت فيه عيون السماء فجاءت على الأرض انهاراً، وغام الجو فلم نر الصحو إلا لماماً، وكنت أسمع الصقليين يقولون: أصبح الطقس كالمرأة لا يعرف ما يريد، ولقد ساهمت رداءة الطقس بأوفر نصيب في إنجاز أعمال المؤتمر الثقافي، وإلا لسحر المؤتمرين جمال الطبيعة، وألهتهم حرارة الشاطئ عن العمل.

وكنا رغم هذا الجو الحول القلْب، نهئيل فرصة استجمامه لمعاودة الكرة، فننقل بين أحياء المدينة لنتعرف بمعالمها، ونمتع الطرف بآثارها الغنية التي عملت فيها شتى الحضارات والعروق منذ أقدم العصور التاريخية حتى اليوم.

إن أعجب ما يستهوي الفتى العربي في هذه الديار الكريمة المضيافة أن يرى آثار العرب ما زالت خالدة ماثلة للعيان، وما فتئ الصقليون يفخرون بماضيهم العربي، والعربي النورماندي وبجلونهما كل الإجلال، ويحفظون للعرب مآثرهم في الزراعة وأعمال الري التي جعلت من أرض باليرمو جنة شرقية تزهو ببيارات البرتقال وكروم العنب والزيتون وحقول القمح، وفي عالم الفن الذي يتجلى خاصة بقصر العزيزة وقصر القبة، وكنيسة سان جيوفاني ديغلي أرمينيت التي كانت جامعاً وظلت تحتفظ باسم (لاموسكيتا)، وغير ذلك من الكنائس والقصور المتناثرة في المدينة والتي نلمس في بنائها يد العرب، ونقرأ على جدرانها لغة القرآن، ونرى في تزييناتها أسلوب الإسلام.

وبعد أن انتهت أعمال المؤتمر يمت وجهي شطر روما، ولقد لبثت سبعة أيام مشرقة مصحبة وسبع ليال وضاءه براقعة تعرفت فيها بمعالم (المدينة الخالدة)، ولا أخال أنني رأيت إلا النذر اليسير من أوابدها العديدة، ولا عجب فروما عالم زاخر بالآثار، وكيف يمكن لمشاهدة مدة قصيرة محدودة أن تستعرض كر العصور ومر الأجيال.

على ضفاف التير الهادئ المتواضع الخجول في مشيئته، تقوم روما عشرين (الذئاب) وقد تجمعت فيها عبقرية الفن، وإبداع الإنسان، وجلائل الدين، وقدم التاريخ.

في إطلالتها القائمة يظلل النسر الروماني بأجنحته عالم الحضارة القديمة، وفي كنائسها العاجية بالحجاج والمصلين تظهر نقوى العصر الوسيط المؤمن الناسك، وفسيخساء بزئطة الفخمة، وأتوار عصر النهضة المشعة، وما أضافت إلى ذلك المدينة الحديثة من روائع تلك النفس، وتردد في خلد الإنسان شتى الذكريات التي لا تحصى.

وفي روما التاريخ، ينعكس صدى الماضي التليد والمجد الأثيل: خمسة وعشرون قرناً مضت، ويد الزمان الفنية ما زالت تجمع بهدوء وإتقان معالم ست حضارات إنسانية، وإذا بروما الآن متحف خاص، فريد بنوعه وحيد لا يضاهيه متحف آخر، وفي كل حجر من أحجار روما صفحة مجد، وتاريخ لا ينطوي، فهي تتحدى الزمان والفناء، خالدة دوماً وإلى الأبد.

الفن في روما يتجلى في كل مكان: تراه في المعابد والهيكل والأبنية الضخمة، والملاعب الواسعة، والقبور الدارسة، والمساحات الفسيحة، تراه في متناول اليد عن يمين وشمال، وعلى قارعة الطريق، فأينما ذهبت وحيثما توجهت فأنت أمام كنيسة أو تمثال، أو نصب أو مسلة، أو لوحة أو فسكة أو قوس نصر.

لقد طغى الفن في روما حتى عم مناسك الحج ودور العبادة، وأماكن الزيارات والقداسة، حتى ليبدو ونحن في الكنائس، أننا في متحف فني أو قصر فخم كل ما فيه جبار صارخ يسحر القلب ويأخذ بمجامع القلوب.

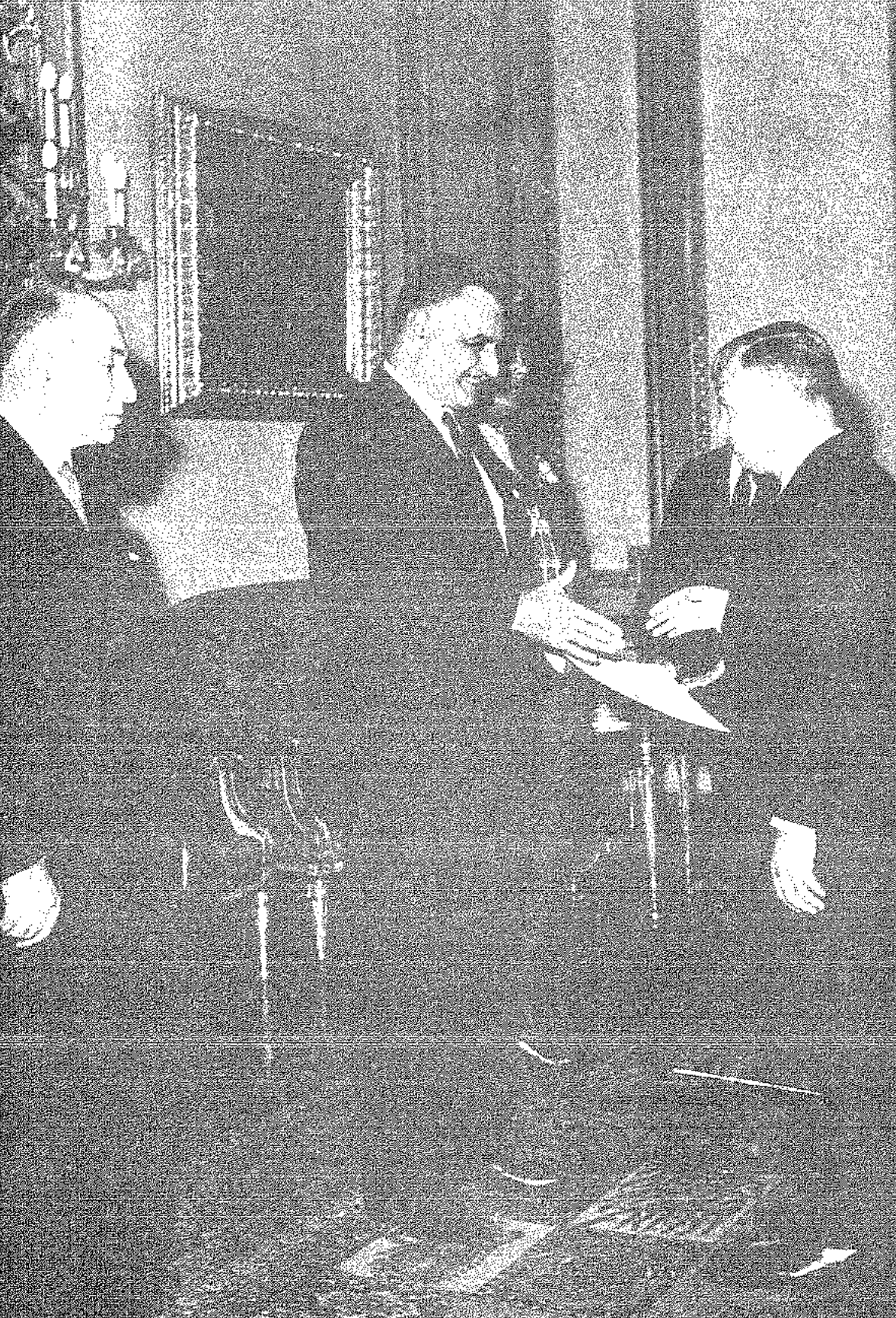
ولكن روما التي تسحر زوارها وقاصديها تأتي أن تنقل عليهم فتشغلهم بأنوارها دون أن تدعهم يعودون إلى أنفسهم ولو إلى حين، لينعموا بلذة أخرى من نوع آخر في ظل الأشجار الباسقة، والمماشى الوارفة، والمنتزهات المترامية في (فيلا بورغيزه) قلب روما الأخضر، النابض بالحياة والحب ليل نهار.

هنا يأخذ العشاق بأيدي حبيباتهم ويبادلونهن القبلات والعواطف، وعن كتب شيخ أخصى عليه الدهر، يتأمل محاسن الطبيعة الفاتنة وراء الفن، ويسعد بما تبقى له من فرصة في الجنة الدنيا ليوذعها قرير العين هادئ البال إلى الدار الآخرة، وهناك في الأفق جموع السياح الأمريكيين الخفيرة الساحقة الصاخبة، تسير بحوية ونشاط، وفي أعناقها أجهزة التصوير تلتقط المناظر، وتستجمع الذكريات.

وروما التي عرفت قيمتها في قلوب الناس وثدة إقبالهم عليها من كل حدب وصوب، ما وسعها إلا أن زادت عنايتها في الحفاظ على آثارها بكل ما أوتيت من حيلة وحذر لتجعل الماضي يعيش دوماً في الحاضر، فهي تحول الطرق والمداخل والشوارع نحو هذه الآثار لتجعلها قبلة الأنظار، أو تجانبها، أو تدور حولها لتحافظ عليها وتحميها من العبث والهدم والتخريب، وهكذا ترى أن الفن في روما لا يتكيف مع حاجات الإنسان، بل على الإنسان أن يتكيف مع حاجات الفن.

وبعد فهل من دعوة إلى باريس لمن يحب الانطلاق، أو رجعة إلى روما لمسئ بهوى الفن! ولكن الفن لا ينافي الانطلاق، ففي الفن انطلاق وفي الانطلاق فن.





نهل الثقافة العالمية وأعاد صهرها لتصبح عربية الوجه واللسان

يغبطني كثيراً كل من يتابع عناوين المؤلفات في مكتبتني، حين تقع نظرتي على مجموعة الأعمال الكاملة للكاتب الروسي الأشهر: "دوستويفسكي" في ثمانية عشر مجلداً، هي في الحقيقة عالم واسع قائم بذاته، أتاح لي سعادة امتلاكه كاتب مبدع، ومنزجماً فذاً، أترى المكتبة العربية بما يزيد عن ثمانين كتاباً مترجماً من عيون الفكر العالمي، في الأدب والفن والفلسفة والعلوم، قدّمها في آلاف الصفحات، وكتب آخر سطورها على فراش المرض، وهو في اللحظات الأخيرة من عمره، يوم الثاني عشر من شباط عام ١٩٧٦.

ولد الدكتور "سامي الدروبي" في حمص عام ١٩٢١، وتلقى علومه الابتدائية والثانوية فيها، ليتخرج من قسم الفلسفة بكلية الآداب عام ١٩٤٧ ثم حصل على الثانوية العامة وشهادة دار المعلمين العليا من دمشق، فمارس التعليم حتى إيفاده إلى مصر عام ١٩٤٣، وبعد عودته إلى القطر عين مدرساً للفلسفة بـحمص، ثم معيداً في جامعة دمشق، ليوفد من جديد إلى باريس عام ١٩٤٩، لتحضير الدكتوراه التي نالها عام ١٩٥٢، وإثر عودته أصبح مدرساً ثم أستاذاً بكلية التربية في الجامعة.

شغل الدكتور الدروبي مناصب إدارية وعلمية ودبلوماسية في عدة أقطار، فكان مديراً بوزارة الثقافة المركزية بمصر، إبان عهد الوحدة بين عامي ١٩٥٩-١٩٦٠. ثم مستشاراً ثقافياً لسوريا في البرازيل، فوزيراً للتربية عام ١٩٦٣، وسفيراً في المغرب ثم في يوغسلافيا ١٩٦٤، ومندوباً دائماً لسوريا في الجامعة العربية ١٩٦٦، وسفيراً في إسبانيا من ١٩٧١ وحتى عام ١٩٧٥، حين طلب العودة إلى دمشق لأسباب صحية، ووافته المنية بعد أربعة شهور من عودته.

سيرة المفكر الراحل الدكتور الدروبي غنية جداً بما حفلت به من عطاء إنساني وفكري، وتحتاج إلى صفحات مطوّلة.

والواقع أن المكتبة العربية كانت بأشد الحاجة للتعرف إلى الآثار الأدبية والفكرية والسياسية لعمالقة الفكر في العالم، وهو ما حمل الدكتور الدروبي عبئه، فقدم في المجال الفلسفي:

أعمال الفيلسوف الفرنسي "هنري برغسون"، بعض أعمال الفيلسوف الفرنسي "غويو"، ترجمات للفيلسوف الإيطالي كروتشه.

وله في مجال التربية وعلم النفس مؤلفه: "علم الطباع" و"علم النفس التجريبي" و"سيكولوجية المرأة" مترجمان وترجم في الفكر السياسي كتاب "موريس دوفرجيه" مدخل إلى علم السياسة" و"تفكير كارل ماركس" عن "جان إيف كلافيز" و"جسر على نهر الدرينا" لليوغسلافي "أيفو اندريتش" وهي الرواية الفائزة بجائزة نوبل للآداب عام ١٩٦١، وكان قد ترجمها ونشرها قبل أن تمنح الجائزة بعدة شهور، مما يدل على ذوقه الأدبي الرفيع، وحسه الأصيل وترجم عن الروسية "ابنة الضابط" لأكسندر بوشكين، و"بطل من زماننا، للكاتب ليرمانتوف، و"مياه الربيع" لتورغنيف، وعن الفرنسية: "معذبو الأرض" لفرانز فانون.

بلغ الدكتور الدروبي ذروة إبداعه حين عكف على ترجمة الأعمال الكاملة لدوستوفسكي، والتي تكونت من ثمانية عشر مجلداً في أكثر من ١٢,٠٠٠ صفحة، وترجم المجلدات الخمسة الأولى من أعمال "تولستوي" الكاملة، وكان في يوم وفاته مقبلاً على الصفحات الثلاثين الأخيرة من المجلد الخامس بقيت بدون ترجمة.

وأذكر هنا أن صحفياً سأل الدكتور "طه حسين" عما يقرؤه في تلك الأونة، فأجاب العميد: أقرأ ترجمات الدكتور "سامي الدروبي" لأعمال "دوستوفسكي" "الكاملة"، ومما يثير إعجابي أن هذا الإنسان يقوم بعمل مؤسسة بأكملها بل وبشكل أفضل، ويتابع الدكتور "طه حسين": أذكر أنني حين كنت مديراً عاماً للثقافة في الجامعة العربية، أنشأت لجنة من كبار الأدباء لنقل آثار "شكسبير" إلى اللغة

العربية، وكنا نملك الإمكانيات المادية والمعنوية، ولكننا لم نستطع حتى الآن، وقد انقضت ثمانية عشر عاماً، من إتمام ترجمة "شكسبير" وها نحن الآن نرى شخصاً واحداً يقوم بهذا الإنجاز العظيم، فيعطي القارئ العربي أعمال "دوستوفسكي" كاملة، وبأسلوب واحد ولغة جميلة مثينة، ويعمق وفهم لروح المؤلف.

كان الدكتور الدروبي في الواقع، فضلاً عن كونه مغرمًا بالتواصل الإنساني، يحب أن ينقل مشاعره وإحساسه بالجمال إلى الآخرين، لذلك اختار أن يكون مترجماً بكل ما في هذه الكلمة من معنى، كان غيوراً على أبناء أمته إلى حد كبير، حيث كان يصعب عليه جداً أن يجهل أبناء العروبة كنوز الثقافة الأوروبية، لذلك حرص كل الحرص كي يضع هذه الكنوز في متناول القارئ العربي.

فالترجمة في نظر الدكتور الدروبي - رسالة حضارية - ولطالما بشر بأن هذا العصر هو عصر الترجمة، والسبب في ذلك هو أن الأمة العربية بأمر الحاجة إلى أن تفتح نوافذها للهواء والشمس، وبالطبع، لم تكن الترجمة رسالة يبشر بها وحسب، بل أنبرى بنفسه لحمل لوائها فكان علماً من أعلامها البارزين.

ولم يكن عمل الدكتور الدروبي في ترجمة أعمال "دوستوفسكي" عادياً أو بسيطاً، يقول الدكتور هاني الراهب: لقد بذلت من قبل جهود كثيرة ومتعددة لجعل الترجمة عملية مبرمجة وانتقائية وذات وجهة نظر، وكانت ثمة محاولات جادة لتقديم قطاعات كاملة من الثقافات العالمية، بحيث يتمكن القارئ العربي من الإحاطة بما يريد ويحتاج إحاطة شمولية لدرجة كافية، وليس مبتورة أو منقوصة، ولكن شيئاً من هذا لم ينجح النجاح المنشود، وبقيت الصفة الغالبة لعملية الترجمة هي العشوائية التي يواجهها إما المزاج أو التجارة، ثم أصبح ذلك ممكناً بفضل سامي الدروبي، بفضل إيمانه ودأبه وحبه ... لم يتعذر بالمرض وينصرف على حياة الدعة والكسل التي ينصرف لها الآخرون بغير مرض، بل جالد ضعف قلبه الوحيد: الضعف العضوي، واستمر يعطي حتى النهاية.

يقول الدكتور جورج صدقي:

كان الدكتور الدروبي مفكراً من الطراز الأول، ولعل أبرز ما فكر به هو اعتقاده أن نهضة الأمة العربية وبعث تراثها وأمجادها يقتضيان الإطلاع الشامل على الحضارة الحديثة بوجوهها المختلفة فكراً وفلسفة وأدباً وفناً الخ... وبالإضافة إلى كونه مترجماً كبيراً وأديباً ممتازاً، كان كذلك فناناً مغرمًا بالجمال، ويصنع الجمال أيضاً، بالنسبة للغة العربية فكان يهيم بها ويتأمل جمالها وروعها كالعاشق الولهان، فإذا ما قرأت ترجماته تتسّى نفسك، وتتوهم أنك تقرأ نصاً عربياً أصيلاً، لم ينقل من لغة أخرى، ويعود السبب في ذلك إلى أسلوب الدروبي المرفه وعبارته الرشيقة الجميلة، وبيانه الساحر.

وكان وهو يترجم يمارس نوعاً من التقويم، إن صح التعبير، فكان الفكرة في الأصل مُعَبَّر عنها بلسان أعجمي معوّج، وهو بترجمتها يعبر عنها بلسان عربي مستقيم وفصيح.

لهذا اكتسب الدكتور الدروبي شهرة عظيمة على المستوى العربي والدولي، حتى أن المترجم والمستشرق الروسي - فلاديمير كراستوفسكي - الذي رافق خروتشوف رئيس الاتحاد السوفييتي السابق أثناء زيارته إلى مصر - طلب من وزير الثقافة المصري - د. ثروت عكاشة - أن يطلع على الترجمة العربية - لدوستوفسكي - ليتعرف على مدى الدقة في الترجمة، وفيما إذا كانت اللغة العربية قادرة على استيعاب تحليلات - دوستوفسكي - النفسية، فكتب لوزير الثقافة المصري بعد أن أطلع على الترجمة: لو أن دوستوفسكي كتب باللغة العربية لما كتب أجمل من هذا، وطلب وزير الثقافة في الاتحاد السوفييتي مجموعة دوستوفسكي بالعربية ليصار على حفظها في متحف - دوستوفسكي - في الاتحاد السوفييتي، فكانت أول مرجع عربي يحفظ في ذلك المتحف.

يقول الدكتور حافظ الجمالي:

إن الذين يعرفون الدكتور سامي الدروبي، يذكرون جيداً المعاني النبيلة والجميلة التي كونت شخصيته وحياته، فقد وعى المعادلة الاجتماعية التي كان يعيشها في عصره، ولم تكن هذه المعادلة جديدة في التاريخ، فمنذ ابن تيمية في القرن الرابع عشر، ومحمد عبد الوهاب، ومحمد أفغاني ومحمد عبده والكواكبي، كانت المعادلة واحدة الحدود، واحدة المجاهيل، وتتجلى في عدة أسئلة أو تحديات يطرحها المجتمع على أبنائه. فالمجتمع متخلف، ولا بد من حل لمشكلة الظلم. وأخيراً فإن الإنسان مستعبد من الداخل والخارج، ولا بد من حل لمشكلة الاستعباد.

كان جواب سامي الدروبي عن هذا كله، وكان الحل الذي ارتضاه، هو انتسابه العقائدي وهو الانتساب الذي أصبح يتردد على كل شفة ولسان: الوحدة، الحرية، الاشتراكية، وكان الدروبي في ذلك كله، واحداً من جيل كامل آمن بهذه المبادئ، كما ستؤمن بها الأجيال التالية تبعاً حتى تتحقق، أو يتحقق منها ما يمكن أن يتحقق.

لكن سامي الدروبي، كسائر رفاق نضاله، ما لبث أن عرف أن المبادئ بذاتها - مهما تكن سامية - تظل عاجزة، خائرة القوى، ما لم يكن وراءها من يحملها حملاً حضارياً معاصراً، ويغنيها بروحه، ويملؤها من عزمه، فأكبر المبادئ وأعظمها تظل صغيرة إذا حملها إنسان صغير، وأصغر المبادئ، وأدناها قيمة، تكبر وتتعاظم، إذا حملها إنسان كبير، وعبئاً يكون السمو في المبادئ وحدها، إذا لم يكن وراءها سمو الإنسان، وشموخ نفسه، وعظمة قلبه.

لا بد إذن من إغناء الإنسان العربي بروح العصر، والثقافة العالمية، وبالثقافة جملة، ومن هنا كان اهتمام سامي الدروبي بالثقافة، ينهلها من ينابيعها الثرة، لا ليبقيها لنفسه، ولكن ليعيد صهرها، لتصبح عربية الوجه واللسان، ولتكون مادة لثقافة الأجيال الجديدة، تستمد منها غنى الفكر وأصالة الروح، لتتسلق عليها على ما هو أسمى منها.

ولقد أقبل سامي الدروبي على هذه المهمة، بجد لا يعرف الكلال ولم يكن يطلب شيئاً عزيزاً، كان كل ما يريده ألا يشغل بحاجات العيش البسيطة، وألا تنقله هذه

بالهموم، فتصرفه عن مهمته الجليلة، ولقد أنتج في ظروفه هذه ما يزيد عن ثمانين كتاباً من عيون الكتب. في العلم والفلسفة و الأدب والفن، وبصورة خاصة من تلك التي تمثل حضارة العصر، وآفاقه، وبالله كم نضيق على نوابغنا أفق الحياة، فنحسر معهم الكثير مما كانوا يستطيعون أن يعطوه.

وليس القضية هنا أن الدروبي قد ترجم هذا كله. بل القضية أنه رزق فصاحة اللسان، وعروبة البيان، حتى لكان من يقرؤه يحسب أن ترجمته هي الأصل، والأصل هو الترجمة.

والغريب أنه أنتج أفضل إنتاجه، بعد أن سد المرض أمامه آفاق الحياة التي كانت آنئذ تنفتح له أكبر انفتاح، لكانه أراد أن يحيل كل حركة من حركات عضلاته، وكل خفقة من خفقات قلبه، وكل قطرة دم في شرايينه، على اثر باق يخلد هو بعد أن يموت صاحبه، ويجعل الحديث عنه متصلاً، كما لو أنه باق، حياً لا يموت، غير أن ما أراده سامي حقاً، هو أن يحيا شعبه، ويتألق حياة وغنى، وليس يعينه هو شخصياً أن تطول حياته سنة أخرى أو عدة سنوات، أما نحن فكان يعنينا دوماً أن تطول حياته، لا لأنه أثير لدنيا فحسب، بل لأن هذه الحياة ستكون كلها عطاء يتابع بعد عطاء.

وعلى ذلك فإن جواب سامي عن تحديات عصره، لم تكن في المبادئ وحدها، فما أفقر هذه، إن لم يكن وراءها الإنسان ... الإنسان الذي يرقى على مستواها، بدلاً من أن يهبط بها إلى مستواه، ويجعلها أداة التقدم أمته، بدلاً من أن يجعلها رسائل جديدة للامعان في التخلف؟ ترى هل كان جواب سامي هو الجواب المعقول؟ لا ريب أنه اختار الطريق الطويلة الصعبة، ولكني شخصياً، لا أرى عن ذلك بديلاً.

وأنا أفهم جيداً أن تكون صيحات الرواد الكبار من ابن تيمية إلى الكواكبي، وجبهة جداً، وافهم أنه يجب القضاء على الخرافات، والعودة إلى روح الدين، والتقيد بمنظومة قيمه العليا، ولكن من هو هذا الإنسان الذي يحسن هذه العودة، وهذا التقيد؟ أما منظومة القيم المثلى فما أسهلها، وما أسهل العثور عليها: فما من إنسان لا

يعرف أن الحق خير من الباطل، والخير أفضل من الشر، والوحدة أدعى إلى القوة من التناثر، لكن حمل هذه القيم، وإشاعتها في الناس، والعمل بوحى منها، لا يسوحي المنافع الذاتية والأهواء الشخصية، أمر صعب يحتاج إلى "إنسان" ما من نوع خاص، وهذا الإنسان هو الذي أراد الدروبي أن ينشئه بالتربية، ويغنيه بالثقافة، ويمأله بالعلم والأدب والفن، ولقد فعل في هذا الميدان ما استطاع، وهو كثير، لكننا سنظل بحاجة إلى ألف "دروبي" آخر، لنستطيع قلب معادلة التخلف الشائع، وخلق الإنسان الجديد القادر على حمل القيم السامية.

كان "سامي الدروبي" يقول د. هاني الراهب: أكثر من قطرة صافية عذبة، وشخصيته غنية مشعة، لقد عرف الدروبي، كيف يحافظ على ذلك كله في عصر شرس وحرباوي، ففي سوريا ومنذ نهاية الحرب العالمية الثانية، حدث من التغيير كمّ متنوع لم يحدث خلال قرون عديدة سلفت، لقد توارت قيم كانت في حكم المندثرة، وحلت محلها قيم جديدة ما لبثت أن اندثرت بدورها، لتخلفها قيم أكثر جدة صارت الآن في طور النزع، وتبدلت علاقات مختلفة، وكانت الأعمار قصيرة في معظم الميادين في الأدب، لتخلفها قيم أكثر جدة صارت الآن في طور النزع، وتبدلت علاقات متخلفة، وكانت الأعمار قصيرة في معظم الميادين في الأدب والفكر والسياسة والاجتماع، فما أن يلمع نجم ويستبشر به الناس حتى يتكشف بعد حين قليل عن نيزاك يعبر السماء الشاسعة إلى لحظة انطفاء وشيكة.

ولكن "سامي الدروبي" لم ينطفئ بل ظل خلال ربع القرن الأخير يضيء في مداره الذي حدده لنفسه، يضيء باستمرار ضوءاً مترناً، لا هو بالباهر فتعشى منه العيون ولا هو بالضئيل الهزيل فتتجاوزته العتمة على الأحداث... كان واحداً ممن نسميهم: الرعيل الأول، وهم المثقفون ثقافة عالية وعميقة، اتجهت بهم من البداية إلى المنابع الأساسية الأصيلة فنهلوا منها ووصلوا إلى مكامن انبثاقها الأولية. لذلك كان حديثهم عنها، وخوضهم فيها، حديث العارف حقاً والتوجه ببوصلة العقل والأصالة. فهم لم يقرأوا عن، وإنما قرأوا، ولم يلتقطوا أفكاراً تصلح للاستشهاد في

نقاش عصبي، وإنما تمرسوا بأنظمة فكرية، وقد أدركوا منذ بداية نضحهم الثقافي ضخامة الحاجة على المعرفة، وضرورة البدء بها فوراً وبطريقة صحيحة مجدية، فمنهم من ساهم بإنتاجه، ومعظمهم انصرف إلى تكوين مناخ ثقافي كان حجر الأساس في أغلب ما ظهر بعدئذ من تيارات فكرية محلية وإنتاج ثقافي محلي. وإذا لم يبدعوا الشيء الكثير، فقد كان لهم الفضل التاريخي في أنهم وضعوا الخميرة في العقول، وكانت خميرة فعالة، وسامي الدروبي واحد من هؤلاء إنه لم يدع ولم يتمدد إلى أكثر مما أهلتته مقدراته، ولم يعتقد يوماً أن هذه الثقافة العالية لن تتاح إلا له، وبالتالي فهو المرجع الذي لا غني عنه، على العكس، لقد وضع مقدراته وثقافته في متناول الآخرين، وخاصة الأجيال التي تلت جيله وطعمت من مائدته، ورغم أن أجيالاً قد تلت جيله. فقد ظل محافظاً على اتصاله بعصره ليس فقط عن طريق نشاطه الثقافي المتواصل، وإنما أيضاً بإدراكه المرهف للقيم التي بلورتها الحضارة الحديثة، ويحكي عنه أنه كان دائم الانضباط بمواعيده، بالغ التقيد بها. وكان يتعامل مع الزمن كقيمة حضارية ومادية، وكضابط أولي للعلاقات والإنتاج والتوجه الشخصي، وتلك مزية نادرة في العالم الثالث حتى بين المثقفين وهي دلالة على تفاعل أصيل مع معطيات العصر وعلى تحقق صحي لمعاني الحداثة.

أمثال هذا الرجل لا ينتهون بالطبع، إنهم شمس صغيرة خالدة، ضياؤها المعرفة والحب، ونحن نراها كل يوم بعين الإجلال والامتنان والعرفان.

المصدر:

- سامي الدروبي: حكاية حب وكفاح: إحسان بيات الدروبي.
- سامي الدروبي شمس خالدة: د. هاني الراهب - الثورة ١٩٧٦/٢/١٧.
- مدرسة في الترجمة: رجاء النقاش - مجلة الدوحة.
- راهب في صومعة: جورج صدقي.

أنشودة الجمال والصبر والعذاب

رحيل الدكتور سامي الدروبي، العالم والأديب والفنان والإنسان العظيم، بعد رحلة عذاب طويلة مع مرض القلب، حيث عاش وهو يناضل هذا المرض القاسي عشر سنوات متصلة، متقللاً بين الأطباء في مختلف أنحاء الدنيا. تعلم سامي في القاهرة، فدخل كلية الآداب قسم الفلسفة سنة ١٩٤٢ وتخرج فيها سنة ١٩٤٦.

ونال الدكتوراه بعد ذلك من القاهرة أيضاً، وعندما قامت الوحدة المصرية السورية سنة ١٩٥٨ جاء إلى مصر وعمل بها مستشاراً ثقافياً في وزارة الثقافة المركزية. وحين وقع الانفصال سنة ١٩٦١، عاد إلى سوريا وظل يناضل ضد الانفصاليين حتى سقط حكم الانفصال سنة ١٩٦٣، وقامت حكومة جديدة كان فيها سامي الدروبي وزيراً للتربية، ولكنه لم يصبر على البعد عن مصر، فترك الوزارة وانتهد أول فرصة ليحيى إلى مصر مندوباً لسوريا في الجامعة العربية، ثم كان أول سفير لسورية في مصر بعد الانفصال، وقد ألقى أمام الزعيم الراحل جمال عبد الناصر كلمة قصيرة بعد تقديم أوراق اعتماده، وكان ذلك في نيسان سنة ١٩٦٧، ومما قاله في هذه الكلمة الرائعة: (.. إذا كان يسعدني ويشرفني أن أقف أمامكم، مستشرفاً معاني الرجولة والبطولة، فإنه ليحز في نفسي أن تكون وقفتي هذه كوقفه أجنبي، كأنني ما كنت في يوم مجيد من أيام الشموخ مواطناً في جمهورية أنت رئيسها، إلى أن استطاع الاستعمار متحالفاً مع الرجعية أن يقسم عرى الوحدة الرائدة في صباح كالح من أصباح خريف حزين يقال له ٢٨ إيلول، صباح هو في تاريخ أمتنا لطفة ستمحي) والذين لا يعرفون سامي الدروبي لا يتصورون معنى الحزن العميق الذي كان يسيطر على قلبه، عندما شاعت الظروف له أن يكون أول سفير لسوريا في مصر بعد الانفصال، فسامي الدروبي كان مؤمناً بالوحدة العربية إيماناً شديداً العمق والصدق، وكانت الوحدة العربية هي الأمل الأكبر في خلق حضارة عربية لها قيمة، وفي خلق

إنسان عربي جديد قادر على مواجهة ظروف العصر وتحدياته الصعبة. وقد كان إيمان سامي الدروبي بمصر وحبها نابعاً من نفس النبع الصافي، نبع إيمانه بالوحدة العربية. فقد كان مدركاً أشد الإدراك أنه لا وحدة بدون مصر، وإن مصر هي الأساس في أي حركة لها قيمة في الوطن العربي كله.

لكن آراء سامي الدروبي النظرية في الوحدة العربية وفي دور مصر لم تكن مجرد آراء عقلية باردة، بل لقد تحولت هذه الآراء إلى عاطفة عميقة في قلبه، انعكست في محبته العميقة لمصر، وسعادته الغامرة عندما يكون في القاهرة عاملاً فيها أو زائراً لها، بل لقد انعكست هذه العاطفة الكبيرة نحو مصر في اختياره لأصدقائه، فقد كان أكثر أصدقائه وأهمهم وأقربهم إلى نفسه من مصر.

وإذا أردنا أن نرسم صورة عامة للدور السياسي الذي قام به سامي الدروبي فإننا نجد هذا الدور في تبشيره بالوحدة العربية تبشيراً صادقاً أميناً، وذلك دون الدخول في أي خلاقات سياسية من أي نوع، لقد حرص سامي طيلة حياته على أن يعمل في خدمة "القضية الأصلية" دون أن يغرق في الفروع والتفصيلات ولحظات التوقف والاختلاف، وهي اللحظات التي تملئها السياسية اليومية العملية، والحقيقة أن سامي الدروبي بهذا المعنى يعتبر عالماً من أعلام النضال العربي المعاصر، من خلال عمله كوزير وسفير ومفكر وأديب.

وعندما نتساءل بعد ذلك عن الدور الثقافي لسامي الدروبي فلا بد أن نعرف شيئاً عن نظريته بالنسبة للواقع العربي المعاصر، لقد كان يؤمن بأن الحضارة العربية في دور التكوين، وهي بحاجة ماسة إلى الترجمة التي تقوم على الدقة والأمانة وحسن الاختيار، ولذلك صرف الجزء الأكبر من حياته في الترجمة، وبدأ عمله بترجمة أعمال الفيلسوف الفرنسي الكبير "برجسون" وساعده الدكتور طه حسين في نشر هذه الترجمات عندما كان يرأس تحرير مجلة الكاتب المصري، ويشرف على مطبوعاتها. وترجم سامي الدروبي بعد ذلك عديداً من الأعمال الفنية والفكرية، كان أهمها رواية "جسر على نهر درينا" وهي الرواية الرائعة التي قدمت للعالم العربي كاتباً عظيماً لم

نكن نعرف عنه شيئاً قبل ترجمة سامي الدروبي لروايته، هذا الكاتب هو الروائي اليوغسلافي "يفواندريتش" ثم ترجم سامي مع صديقه الدكتور جمال الأتاسي كتاباً خطيراً آخر هو "معذبو الأرض" للكاتب والفيلسوف المناضل "فرانز فانون" الذي وقف إلى جانب ثورة الجزائر، وعاش في قلبها، واستخلص منها أعظم النتائج والخبرات في كتابه الهام الذي ساهم سامي في ترجمته كتاب "معذبو الأرض" وترجم سامي أيضاً عن الفرنسية ثلاثية الكاتب الجزائري الكبير محمد ديب: البيت والحريق، والنزل.

على أن أهم إنجاز ثقافي لسامي الدروبي هو ترجمته للأعمال الكاملة للكاتب الروسي الكبير دستوفسكي .. إن دستوفسكي بإجماع النقاد العالميين - تقريباً - هو أعظم كاتب روائي في تاريخ الأدب العالمي كله. ومن هنا حرص سامي الدروبي على ترجمته كاملاً وتقديمه للمكتبة العربية. وهذه الأعمال الكاملة نشرت في مصر، وقد أتمها سامي قبل وفاته، وبلغت حوالي ثلاثين مجلداً كبيراً، وقد حظيت هذه الترجمة باهتمام بالغ حتى في روسيا نفسها، وأخذ الروس هذه الترجمة ووضعوها في متحف دستوفسكي في موسكو، واعتبروها من أعظم الإنجازات التي تمت في أنحاء العالم بالنسبة لأدب دستوفسكي.

وفي اعتقادي أن الحياة الأدبية العربية لم تدرك بعد أهمية ترجمة سامي الدروبي لأعمال دستوفسكي، وسوف تمر سنوات أخرى قبل أن نحس بأثر هذه الترجمة على أدبنا، ولست أشك في أن الجيل الأدبي الجديد سوف يستفيد فائدة بالغة الخطوة من ترجمات دستوفسكي، وسوف تترك هذه الأعمال أثرها العميق عن الأدب العربي في الجيل القادم ... صحيح أن السينما العربية قد سارعت إلى الاستفادة من هذه الأعمال، فظهرت رواية "الأخوة الأعداء" على الشاشة العربية - وسوف تظهر بعض الأفلام الأخرى مستمدة من هذه الروايات .. ولكنني أعتقد أن الأثر الأكبر لم يظهر بعد في أدبنا وفننا السينمائي والمسرحي على صورته الحقيقية، وما زالت أعمال دستوفسكي التي ترجمها سامي الدروبي في "معدة" الحياة الأدبية العربية لم يتم هضمها بعد، ويوم

يتم هذا الهضم فإنها سوف تترك أثراً بالغ العمق على الثقافة العربية المعاصرة.
لقد ترجم سامي أعمال دستوفسكي عن الفرنسية، وكان سامي يتقن الفرنسية ويتقن العربية، ولذلك جاءت ترجمته رائعة وفذة، على أن هناك جوانب أخرى من الإبداع الفني والإنتاج الأدبي عند سامي لم تنتشر حتى الآن، فأنا أعلم أنه كان يكتب الشعر وأنه يملك ديواناً كاملاً كان يقول أنه سوف يتركه لأولاده ينشرونه بعد وفاته. وله كتاب آخر لم ينشر هو "أغاني السكاري على ضفاف نهر العاصي" يبدو أنه نوع من الذكريات التي كتبها سامي الدروبي عن حياته في "حمص" التي تقع على نهر العاصي.

هذه بعض الخطوط العامة السريعة عن حياة سامي الدروبي كسياسي ومثقف وأديب. ولكن ماذا عن الإنسان؟ لا يمكن أن نكتب عن سامي الدروبي بعقل هادئ فقد كان سامي الدروبي إنساناً رائعاً يثير الحب والإعجاب حوله في كل مكان. وكان هو نفسه شعلة من الذكاء والعاطفة معاً وفي رأبي أنه كان نموذجاً فذاً للإنسان "المتحضر" في مجتمعنا العربي المعاصر. بل كان مثلاً أعلى لهذا الإنسان المتحضر. كان مثقفاً وحريصاً أشد الحرص على تنمية ثقافته. كان مؤمناً بأن تكون له رسالة وله نفع في المجتمع الذي يعيش فيه. كان محباً للناس حريصاً على خدمتهم بأقصى ما يستطيع بل بأكثر مما يستطيع. وله في ذلك مواقف عظيمة سوف تكشف عنها الأيام وتكتبها بحروف من نور. وكان فوق ذلك كله من أكثر من رأيت في حياتي صبراً على المصائب التي واجهته بقسوة، وأهمها جميعاً مصيبة وفاة ابنه الرائعة "سلمى" في الثانية عشرة من عمرها في حادث مؤلم فقد اختنقت بالغاز في حمام منزل الأسرة بدمشق. أما مصيبتها الثانية فقد كانت مرض القلب الذي ظل يعاني منه سنوات طويلة، ومع ذلك صبر سامي الدروبي أجمل الصبر في محنته، لم يتوقف سامي الدروبي أبداً، لم يغرق في الحزن. كان يتحدى الموت بالعمل. وكان شديد الإصرار على أن تكون حياته مثمرة ومفيدة حتى اللحظة الأخيرة. والحقيقة أن سامي الدروبي انتصر في معركته، لقد ظل يعمل وينتج وقلبه ينزف قطرة قطرة حتى مات.

صورة عدنان الخطيب



عمر من الدأب والوفاء لحماية اللغة والتراث

درجت الجامعات العربية في وطننا، على أن تقتصر عضويتها على المفكرين المقتدرين الذين أفنوا العمر في الدراسة والتحقيق، ووهبوا ضوء العيون للبحث والتدقيق في المصادر، لإغناء المجتمع بمحصلة أعمالهم الراقية، ولما كان المجمع اللغوي بدمشق يختار لعضويته باحثاً شاباً، لأنه ما يزال في أول الشوط الطويل إلى هيكل الفكر العنيد، ولكن رئيس المجمع العلمي العربي في عام ١٩٦٠ الأمير مصطفى الشهابي، كسر ذلك التقليد، ورشح للعضوية ثلاثة شبان ترسم فيهم الكفاءة والدأب والجدارة: شكري فيصل، سامي الدهان، وعدنان الخطيب، وقد فاز الثلاثة بالعضوية، وحل الدكتور الخطيب محل العلامة الشيخ عبد القادر المغربي وهو العالم الذي أوقف حياته الطويلة على العلم والتوجيه والإصلاح.

في حفل استقبال العضو العامل الجديد: الدكتور عدنان الخطيب، قدمه الأمير جعفر الحسني، لأعضاء المجمع، وقال بخاطبه: "عرفتك وعاشتك طويلاً، وعرفك غيري أديباً متواضعاً، صادقاً في أقوالك، مخلصاً في أعمالك، لم يعرف الغرور على نفسك سبيلاً، متحلياً بآباء العلماء، عازفاً عن الشهرة، زاهداً في المديح وأهلها". وكان المجمع الجديد عن حسن الظن به، فقد كرس جهده وفكره لعمله في المجمع بإخلاص ونشاط بلا حدود.

ولد الدكتور عدنان الخطيب بدمشق عام ١٩١٥، في أسرة علم وأدب وتقوى، فهو ابن العالم الجليل الشيخ عبد القادر الخطيب، مفتي دمشق وخطيب الجامع الأموي الكبير، تعلم بمدرسة التجهيز الرسمية، وتلقى دروسه في اللغة والفقه على نخبة علماء دمشق، وتابع تحصيله الجامعي بكاية بغداد، حيث درس العلوم المالية والقانونية وحاز إجازتها بمرتبة الشرف الأولى ١٩٤٢، ثم غادر إلى باريس ليتزوج

دراسته بشهادة الدكتوراه في الحقوق عام ١٩٤٧.

عمل بعيد عودته للوطن في حقل القضاء، وتدرّج في مناصبه ليصبح في عام ١٩٥٣ مستشاراً بمحكمة الاستئناف بدمشق، ثم نائباً عاماً في الدائرة القانونية لوزارة العدل، إضافة إلى تدريسه القانون المسدني والجزائي بكلّيتي الحقوق والشريعة، كما كُلف بالتدريس في معهد الدراسات العليا التابع لجامعة الدول العربية بالقاهرة، وعيّن الدكتور الخطيب في عام ١٩٥٩ مستشاراً بمجلس الدولة، ورئيساً لمحكمة القضاء الإدارية في سوريا ومحافظة اللاذقية عام ١٩٦١، وأصبح نائباً لرئيس مجلس الدولة عام ١٩٦٧، ثم رئيساً له عام ١٩٦٩، وعند تقاعده عن العمل عام ١٩٧٤، انتخب نائباً لرئيس مجمع اللغة العربية، فأميناً عاماً له عام ١٩٨١، واختير عضواً عاماً بمجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٨٦، وكان قد سبق وأصبح عضواً مراسلاً في مجامع الأردن والعراق والهند.

أغنى الأديب العالم الدكتور الخطيب المكتبة العربية بنتاج خصب من أعماله الراقية في مجالات القانون والتاريخ واللغة والأدب، واهتم بشكل خاص بالدراسات الأجنبية واللغوية، وكان من أبرز مميزاته الشخصية وفأوه للشيخ والأساتذة من أعلام السلف الفكري، فحصد قرابة الثلاثين منهم بترجمات لسيرهم وأعمالهم، وكان في مقدمتهم أعضاء المجمع الراحلين من أمثال: محمد كرد علي، وعبد القادر المغربي، وعز الدين التتوخي، وساطع الحصري، وخير الدين الزركلي، ومحمد البرزم، والشيخ محمد بهجة البيطار، والأمير مصطفى الشهابي، وغيرهم، كما ترجم لثمانية من علماء دمشق الأخبار فكان له الفضل بالذكر بهم بعد أن نسي أكثرهم.

وفي مجاله العلمي، أصدر الدكتور الخطيب أكثر من اثني عشر مؤلفاً بينها: شرح قانون العقوبات، والوجيز في أصول المحاكمات وموجز القانون الجزائي، وتاريخ القضاء الإداري، ونظام مجلس الدولة في سوريا، وحقوق الإنسان في الإسلام - وقد أدت هذه المؤلفات لرجال القانون والقضاء، خدمات جلّى، إذ قدمت الشروح العلمية للقوانين، وساعدت على فهم وتفسير ما أشكل فهمه وتفسيره.

وأرخ الدكتور الخطيب لحياة الشيخ طاهر الجزائري رائد النهضة الفكرية في الشام، ولحياة مؤسس المجمع محمد كرد علي، وللمجمع العلمي في خمسين عاماً، وله بعد هذا كله، عديد من المؤلفات الأدبية البليغة في الشعر الكلاسيكي والوطني والوجداني، إضافة إلى عشرات المقالات والدراسات في الأدب والنقد، نشرت في مجلة المجمع، وفي المجلات العربية الراقية بمصر وتونس والسعودية ولبنان.

كرس الدكتور عدنان الخطيب حياته لخدمة الوطن والحفاظ على اللغة العربية، ودأب على نشر ذخائرها، مع غيرة صادقة على التراث الأصيل، وحرص على رسالة مجمع اللغة العربية ليبقى منارة مشعة بالخير والعطاء للأجيال القادمة. واستطاع بما عرف عنه من نبل وأخلاق عالية أن يكسب إعجاب واحترام كل من عرفه واتصل به، وكان من بين هؤلاء الأديب المصري الراحل: أنور الجندي، الذي أرخ لأعلام القرن الرابع عشر الهجري، وأدرج فيهم العلم الراحل فقال: "إذا أردت أن أصفه بكلمة واحدة تختصر حياته كلها لقلت: إنه أينع ثمار الأصالة العربية الإسلامية في أرض بردى، وريث المدرسة الشامية الزاهرة التي أنشأت ذلك التيار الإسلامي، الذي التمس المنابع الثرة، إنه حفيد الشيخ طاهر الجزائري، وعبد القادر المغربي، والقاسمي، وكرد علي، ومحب الدين الخطيب، هذه الصفوة من ذلك الجيل، الذي حمل لواء الفكر الإسلامي في أصفى وأنقى ما عسرف الباحثون في العصر الحديث.

أما الشاعر العربي الكبير "بدوي الجبل" فخاطبه بقوله: إنك يا أخي وسيد لتزين كرامة الشام بكرامة عبقرتك، وتجلت تاريخ الشام بجمال ألمعيتك، وتجمع إلى التفرد بقدسية القضاء، التفرد بقدسية الوفاء، وشموخ الأدباء، والعلم عندك واسع عميق، ولكنه لا يتكبر ولا يتعالى، لأنه واسع عميق".

أذنت شمس المفكر الأديب بالمغيب، في الرابع والعشرين من أيلول عام ١٩٩٥، فرحل الدكتور الخطيب ليودع مجمع اللغة العربية علماً شامخاً من أعلامه، وليوسده الوطن ركناً حميماً في صدره، مجللاً بأكاليل الاعتزاز والفخر والتقدير.

المصادر:

- معجم المؤلفين السوريين: عبد القادر عياش.
- مجلة مجمع اللغة العربية: أعداد متفرقة.
- عبقریات وأعلام: عبد الغني العطري.



د. شكيب الجابري :

الرواية التي هزت المجتمع بالاستنكار

نشرت مجلة "المقتطف الأدبية المصرية بعيد صدور رواية" نهم" عام ١٩٣٧ دراسة مطولة للرواية، اختتمتها بالعبارة التالية: "هوذا نجم أشرق في سوريا، يشير إلى ميلاد جديد في عالم القصة، وينقل الرواية العربية إلى مستوى عالمي"... ولم يكن ذلك النجم المشرق غير الروائي الأديب د. شكيب الجابري، الذي بدأ مع روايته تاريخ القصة الفنية في سوريا..

عاش الجابري حياة حافلة بالأحداث والوقائع والمغامرات في حقول السياسة والفكر وإعمار الطبيعة... وقد كان ولادته بمدينة حلب عام ١٩١٢، وتلقى تعليمه الابتدائي والثانوي في "عاليه" اللبنانية والكلية الإسلامية ببيروت، وبعد تخرجه ينتقل بين سوريا وأوروبا من أواخر العشرينات وإلى أوائل الأربعينات، ونال خلالها شهادة الهندسة في الكيمياء من جامعة برلين وأتقن عدة لغات.

اتصل "الجابري" برائد العمل الوطني الأمير شكيب أرسلان، وشارك معه في العمل السياسي الوطني، فكان خطيب التظاهرات بباريس عام ١٩٣٥، دفاعاً عن القضايا العربية، واستقلال سوريا بوجه خاص، وجانبه بجرأة وحماس غلاة الصهيونية، وتعرض لأذاهم، وفقد أكاديمهم بإيمان صادق بعرويته وتاريخه ودينه.

افتتح "الجابري" عام ١٩٣٧ عهد الرواية الفنية السورية بإصداره روايته الأولى "نهم" وقد أحدثت هزة في أوساط القراء العرب، وقوبلت باستنكار قوي في سوريا ومصر، وغدت من "الأدب المكشوف" وذلك لأن أحداثها دارت في جو أوروبي بالكامل، وأسماء أبطالها ومواقع أحداثها ألمانية غالباً، وبطلها "كازاروف" ذو ثقافة غربية وأدبية وفنية، وتستمد الرواية حبكة من علم النفس الفرويدي، في حين أن موضوعها يوضح قول الشاعر الألماني "غوته": "الأنوثة الخالدة تجذبنا أبداً"

وقد أثبتته الجابري على غلاف روايته، ولكن العاصفة ما لبثت أن هدأت، وبدأ استحسان النقاد والأدباء للرواية بالظهور في دراسات نقدية وبحوث مال أغلبها إلى تقدير أهمية الرواية، واعتبارها تجربة غنية في الأدب العربي، دللت على تمكن الدكتور شكيب الجابري من فن الرواية، وعلو كعبه، وقد ذكر بنفسه أن الرواية كانت محاولة متعمدة منه لإحداث هزة في وسط القراء العرب وشدهم إلى لون من الأدب الروائي الغربي الذي كان شائعاً أيام ذلك.

ظهرت بعد عامين رواية "الجابري" الثانية: "قدريلهو" عام ١٩٣٩ وأعقبها برواية ثالثة عام ١٩٤٦ بعنوان "قوس قزح" وكان موضوع الروايتين حب شباب شرقي لفتاة ألمانية.

وأصدر "الجابري" في عام ١٩٦٠ روايته الرابعة: "وداعاً يا أفاميا" وكانت مثل سابقتها تأكيداً للخط الفكري الفني والتماسك لدى المؤلف، ودللت على وعيه لأهمية عمله وإخلاصه لفكرة إحداث تغيير في مسيرة الأدب العربي المعاصر، وقد ذهب الأمر بأحد النقاد إلى القول، بأنه قرأ سبع روايات عالمية، منح أصحابها "جائزة نوبل" في الأدب، ولم يجد في تلك الروايات واحدة استطاعت الارتفاع إلى مستوى "وداعاً يا أفاميا": [إن هذه الرواية - يقول الناقد - أعمق فكرة، وأعظم فتنة، وأشد إثارة، وأوسع أفقاً وإنسانية من كل ما قرأت].

كانت حياة "الجابري" مسيرة متواصلة حافلة بالأحداث والتقلبات، وكان عربياً يأنف الضيم ولا يرضى أن يُغمزَ من جانب قومه أو دينه أو عرويته، ولا سيما في بدء مجابهته للرأي العام الأوروبي في مطلع الثلاثينات، إذا اكتشف عالماً جديداً قائماً على مقولات التفوق العرقي والتاريخي والحضاري ومنطلقاً من أوهام المركزية الأوروبية التي تصور لأصحابها، أن العالم كله كان - ويجب أن يبقى - دائراً في فلك الفكر والحضارة الأوروبية، ومن هنا دارت روايات الجابري، حول محور واحد هو الصراع بين الشرق والغرب، بين تقاليد الشرق وقيمه العريقة وبين مفاهيم الغرب وعناصره الحضارية المختلفة، وأبطال الجابري شرفيون يحاولون

التأكيد على أن الغرب ليس بديلاً للشرق، ولا يجوز أن نتخذة نموذجاً في الحياة بما يطرح من أفكار، ويقدم من صورة العلاقات والتعامل بين الناس ... بطل "تهم" مثلاً: شرقيّ عاشق لوطنه - وهو الجابري على الأغلب - يدافع عن أصالة بلده وعراقة قيمه، والغربي يجادل لتأكيد حضارة الغرب وسبقه، ويحاول البطل أن يكون منصفاً حين يؤكد أنه يمكن للشرق أن يتأثر بتقدم الغرب ونهضته، تماماً كما تأثرت أوروبا بحضارة العرب المسلمين، أيام نقلت عن علمائها منجزاتهم الرائدة في سائر ميادين الفكر والإبداع ... شرط أن يبقى الشرق محافظاً على أعراقه وتقاليده ويتمسك بها باعتبارها هويته الأصيلة.

على أن رحلة "الجابري" في عالم الأدب والرواية لم تستمر طويلاً، فقد شغلته أنشطة كثيرة متنوعة، صرفته عن التأليف فعدا عن المناصب المتعددة التي شغلها في الدولة كمدير للمطبوعات والإذاعة، والتدريس، وعمله في السلك الدبلوماسي وإصداره لمجلة "العالم" وبعدها "أصداء" .. فقد كان عشقه كبيراً للطبيعة وما تحفل به من الجمال والنقاء، فقام بإعمار منطقة جرداء في جبل الزبداني، وحلها بروح الفنان إلى جنة وارفة، أعطاها سنوات من عمره وجهده لتغدو معجزة عمرانية بديعة الأناقة والانسجام، وكانت "تلة الكوكو" على جبل الزبداني أمتع رواية واقعية ألفها الجابري في حياته.

"وأمضى الجابري" سنوات عمره الأخيرة حالماً بتحقيق مطامح عملية متنوعة، وإن كان في داخله شاخصاً إلى اللحظة المناسبة لمعاودة النهوض بمشروعه الفني، وكان كل من حوله من أصدقاء ومعجبين يوقظ تلك الرغبة في نفسه، ويحثه للعودة على الكتابة، ولكن خوفه من الهبوط عن المستوى الراقي الذي بلغه في ما قدمه من إبداع، إضافة إلى انقطاعه الطويل عن تطورات لغة الإبداع، أوقعه في شرك التأجيل، لعل اللحظة المنشودة تأتي في قابل الأيام.

وكانت سعادته تتوهج حين يهدي له الأدباء الشباب بواكير نتاجهم، ويدي إعجابه بما يقرأ، ثم ينصرف عن تلك الأعمال انصراف من لا يجد فيها كبير غناء.

عاش "الجابري" صديقاً طيباً ودوداً، متقدداً للوطنية، شديد الحيوية، برؤيا مجنحة وطموح متجدد، وحين رحل في الثالث عشر من تشرين الأول عام ١٩٩٦ دفن بالبقيع قريباً من المدينة المنورة، فودعت سوريا برحيله مفكراً علمياً رفيع شعلة النهضة، وظل وفياً للمبادئ الشريفة حتى آخر عمره.

المصادر:

- أخيراً ثوى: د. حسام الخطيب/الفصل ٢٤٨.

- عبقریات: عبد الغني العطري.

إمعان في الاغتراب عن المناخ العربي

كان الجابري عربياً قلباً وفكراً وأعصاباً، وقد تبدى لنا هذا بوضوح في أعماله كلها، وهو على خصوصيته العربية هذه، يمتاز بعقل شمولي من الوجهة الإنسانية. قدم الجابري أحداث روايته الأولى (نهم) بأسماء غير عربية، وفي مناخات وتقاليد أوروبية، قاصداً من ذلك إيلاخ رسالة يؤمن بها دون أن يدع سبباً - للأقلام الزمنية - في ترصد رسالته والنيل منها.

بعد (نهم) كتب الجابري (قدر يلهو) ثم (قوس قزح) ثم (وداعاً يا أقميا) بتسلسل زمني يرد على هذا النحو (١٩٣٧-١٩٣٨-١٩٤٠-١٩٦٠)، أي أنه صممت طويلاً بعد روايته الثالثة ليقدّم لنا روايته الرابعة والأخيرة ليعود إلى التزامه الصمت عن العطاء الإبداعي حتى وفاته في العام ١٩٩٦.

احتوت رواية الجابري الأولى على عدد من الرسائل تتوجه بها فتيات إلى الشخصية المحورية في الرواية (إيفان كوزاروف) تتحدث كل منهن عن دور هذا الـ (إيفان) في حياتها، وانعكاس هذا الدور عليها شخصياً، ولقد نوع المؤلف في رسم شخصيات الفتيات من حيث الدوافع والاندفاعات، والمكانة المجتمعية والاجتماعية لكل منهن، ومثلما كانت تسمية الشخصية المحورية أجنبية، كانت تسمية نسوة الرواية، أمثال: إيفلين، غريتل، هيرناه، دورويتا، هيلدا كارل هتزنجر.. وسواهن.

ولطالما لاحظ نقادنا الأسبقون إمعان هذه الرواية في الاغتراب عن المناخات العربية، وأسف بعضهم أيما أسف على هذا، حرصاً منهم على ما تميز به هذا النص من فن رفيع، نماء وبناء، إلا أن الناقد ابن ذريل كان من القلائل الذين لاحظوا ضرورة تغريب هذا النص انسجاماً مع الزمن الذي صدر فيه، فقال بعد وقت كاف على صدوره: (إني أتصور الآن، ما عسى أن يكون هذا النتاج الروائي الأول، في أدبنا العربي السوري، أو أيضاً ما عسى أن يكون أثره في الجمهور

الأدبي والقصصي آنئذ، لو أن صاحبه جعل شخوصه عربية، وسورية، أو جعل أحداثه تتسلسل في بيئة عربية وسورية)، ثم تساءل: (أو ليس في مجتمعا العربي السوري، آنئذ، أمثال هذه الشخوص، المغامرة والعاطفية، والمتأبئة على المرأة، والحب والضائعة بالأحرى).

في (قدر يلهو) رواية الجابري الثانية نجدنا هذه المرة أمام اسم عربي، هو (علاء) بيد أننا سنكون معه في بلد غربي، ألمانيا تحديداً، وبرلين منها على وجه الخصوص، في هذه المدينة يلتقي (علاء) بفتاة حكمت عليها ظروف التفكك الأسري بالتشرد، فيؤويها في بيته، ويطعمها ويسقيها، ثم تتنامى العلاقات الإنسانية في الرواية صعداً ناقلة عبرها، شهامة هذا العربي وفروسيته، لتعكسها على نفسية (إيلزا) تلك الفتاة التي غدت الآن بعد التشرد تقيم في مسكن وتتناول الطعام دون مقابل، ثم إن (علاء) الذي صارت (إيلزا) بفضلته تحب قومه وتراثه، يسعى لها في برلين عن عمل، فيوفق إليه، وهكذا تصبح (إيلزا) عاملة تتقاضي أجراً.

في (قوس قزح) الرواية الثالثة للجابري نرى متابعة لحياة (إيلزا)، بل نجد صورة بانورامية لتلك الحياة عبر المذكرات.

بعد هذه الرواية توقف الجابري عشرين سنة ليقدم بعدها روايته الأخيرة (وداعاً يا أفاميا) التي أغرم بها الباحث حسام الخطيب فخصها بدراسة وافية عبر منظاره النقدي، ومنذ صدور هذه الرواية في العام ١٩٦٠ حتى وفاته في العام ١٩٩٦ لم نقرأ له أي نص روائي جديد، لكننا سنفاجأ في العام ١٩٨٨ بما وصف بأنه (صياغة جديدة) لرواية (قدر يلهو) فلماذا هذه الصياغة؟!.



د. جودت الركابي:

إشراق الرأي وصدق الأحكام..

هو أستاذ عملاق، وأديب بارع، انحنى تلامذته أمام تجربته العميقة، وخبرته الواسعة، وفكره المتميز وقبل هذا كله أمام تواضعه الكبير، وسماحته ووقاره.

الدكتور جودت عمر الركابي أديب وباحث ومرب وأستاذ جامعي، ولد في دمشق عام ١٩١٣، وتلقى دراسته الابتدائية والإعدادية والثانوية في مدرسة التجهيز التي كانت تسمى (مكتب عنبر) وحصل على شهادة أهلية التعليم الابتدائي عام ١٩٣٣، وشهادة البكالوريا الثانية (قسم الفلسفة) عام ١٩٣٤ بدرجة جيد جداً.

- بدأ حياته العملية معلماً في مدارس دير الزور بين عامي ١٩٣٥ - ١٩٣٧، ثم نقل إلى دمشق ومارس التعليم فيها بين عامي ١٩٣٧ - ١٩٣٨.

- أوفد إلى فرنسا عام ١٩٣٨ لمتابعة دراسته العالية، فنال شهادة الليسانس في الآداب من جامعة السوربون في باريس عام ١٩٤٧ بتقدير مشرف جداً، وبعد أن عاد إلى دمشق عين مدرساً للغة العربية وآدابها في عسدد مسن ثانويات دمشق، ودور المعلمين والمعلمات، وفي عام ١٩٥٠ عين موجهاً أول للغة العربية في وزارة التربية، وأسهم إلى جانب التدريس والتوجيه في تأليف عدد من كتب الأدب واللغة والبلاغة والمطالعة للمدارس الثانوية.

- بدأ التدريس في جامعة دمشق منذ عام ١٩٤٩ بصفة أستاذ محاضر في كلية الآداب وقام بتدريس مادة الأدب الأندلسي لأول مرة ثم أصبح عميداً لكلية التربية حتى نهاية عام ١٩٧٤ حيث أحيل على التقاعد.

- أوفد للتدريس في جامعة قسنطينة - الجزائر - فقام بتدريس مادتي الأدب الأندلسي والمغربي بكلية الآداب حتى نهاية عام ١٩٨٧، وأسهم هناك في حملة التعريب.

- عاد إلى دمشق عام ١٩٨٧ وتابع نشاطه في ميدان الأدب والتأليف.
- شغل الدكتور الركابي منصب أمين سر جمعية الأدباء العرب التي تأسست في دمشق عام ١٩٥٩، وعمل عضواً في اتحاد الكتاب (جمعية النقد الأدبي) الذي تأسس عام ١٩٦٩، ومشرفاً على عدد كبير من طلاب الدراسات العليا الذين يعدّون شهادتي الماجستير والدكتوراه.

- شارك في عدد كبير من المؤتمرات والملتقيات الأدبية والثقافية في دمشق وبغداد والقاهرة والكويت، ومؤتمرات الافروآسيويين التي انعقدت خارج الأقطار العربية، كالمؤتمر الأول للشعر الذي عقد في مدريد إسبانيا في كانون الأول عام ١٩٨٩، والملتقى الدولي لدراسة النص الأدبي في ضوء اللسانيات الذي عقد في جامعة قسطنطينية في كانون الأول عام ١٩٩٣، وألقى عدداً من المحاضرات في الجامعات والأندية العربية والأجنبية، ونشر طائفة من البحوث والدراسات والمقالات الأدبية والنقدية في الصحف والمجلات العربية والعالمية، وكان له حضور أدبي ملموس في الأوساط الأدبية العربية والعالمية، ولا سيما في ميدان الأدب.

- عكف الدكتور الركابي على التدريس بجامعة دمشق، وأشرف سسنوات على مناقشة الرسائل الجامعية في الأدب الأندلسي، وكان على الدوام يحلق عالياً في ملاحظاته القيمة وفي نقده لتلك الرسائل، وكانت آراؤه وملاحظاته دقيقة وفاصلة لا لبس فيها ولا غموض، يعرف المختص وغير المختص، وقد عرف بصدقه في أحكامه، لا يجمال ولا يداهن، ويقول الحق ولو على نفسه.
وكانت آراؤه واضحة مشرقة، يشير إلى الخلل مفنداً لسه، ومعطياً البديل المنطقي والموضوعي، ثم يقمّ حكمه الصادق.

آثاره الأدبية:

أسهم الدكتور جودت الركابي - إلى جانب عمله في التدريس والتوجيه - في تأليف وتحقيق عدد من كتب الأدب واللغة والبلاغة والمطالعة للمرحلتين الثانوية والجامعية ومنها:

- ١- الشعر الدنيوي في العصر الأيوبي وممثلوه الأساسيون (باللغة الفرنسية).
- ٢- دار الطراز في عمل الموشحات لابن سناء الملك (تحقيق).
- ٣- في الأدب الأندلسي عدة طبعات منذ عام ١٩٦٠، ويعد مرجعاً مهماً في هذا الميدان.
- ٤- الطبعة في الأدب الأندلسي.
- ٥- الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار.
- ٦- طرق تدريس اللغة العربية.
- ٧- مبادئ تخطيط التعليم (ترجمة).
- ٨- الوافي في الأدب العربي الحديث (بالاشتراك).
- ٩- الأدب العربي ونصوصه (بالاشتراك).
- ١٠- منهج البحث الأدبي في إعداد الرسائل الجامعية.
- ١١- بحوث في الموسوعة الإسلامية الفرنسية والإنكليزية.

شكل إنتاج الدكتور الركابي ثروة فكرية، وخاصة في مجال الدراسات الأندلسية عامة، والأدب الأندلسي خاصة، وكتابه ((في الأدب الأندلسي))، الذي طبع لأول مرة بجامعة دمشق عام ١٩٥٠ يعد مرجعاً هاماً من مراجع الأدب الأندلسي.

وهو في الأصل محاضرات ألقاها على طلاب شهادة آداب اللغة العربية في كلية الآداب في جامعة دمشق على مدى عدة سنوات، درس فيه الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية لبلاد الأندلس بشكل عام، وصور حياة الشعراء الأندلسيين وبيئاتهم الثقافية بشكل خاص، وقد كانت الحياة الأندلسية غامضة الجوانب قليلة

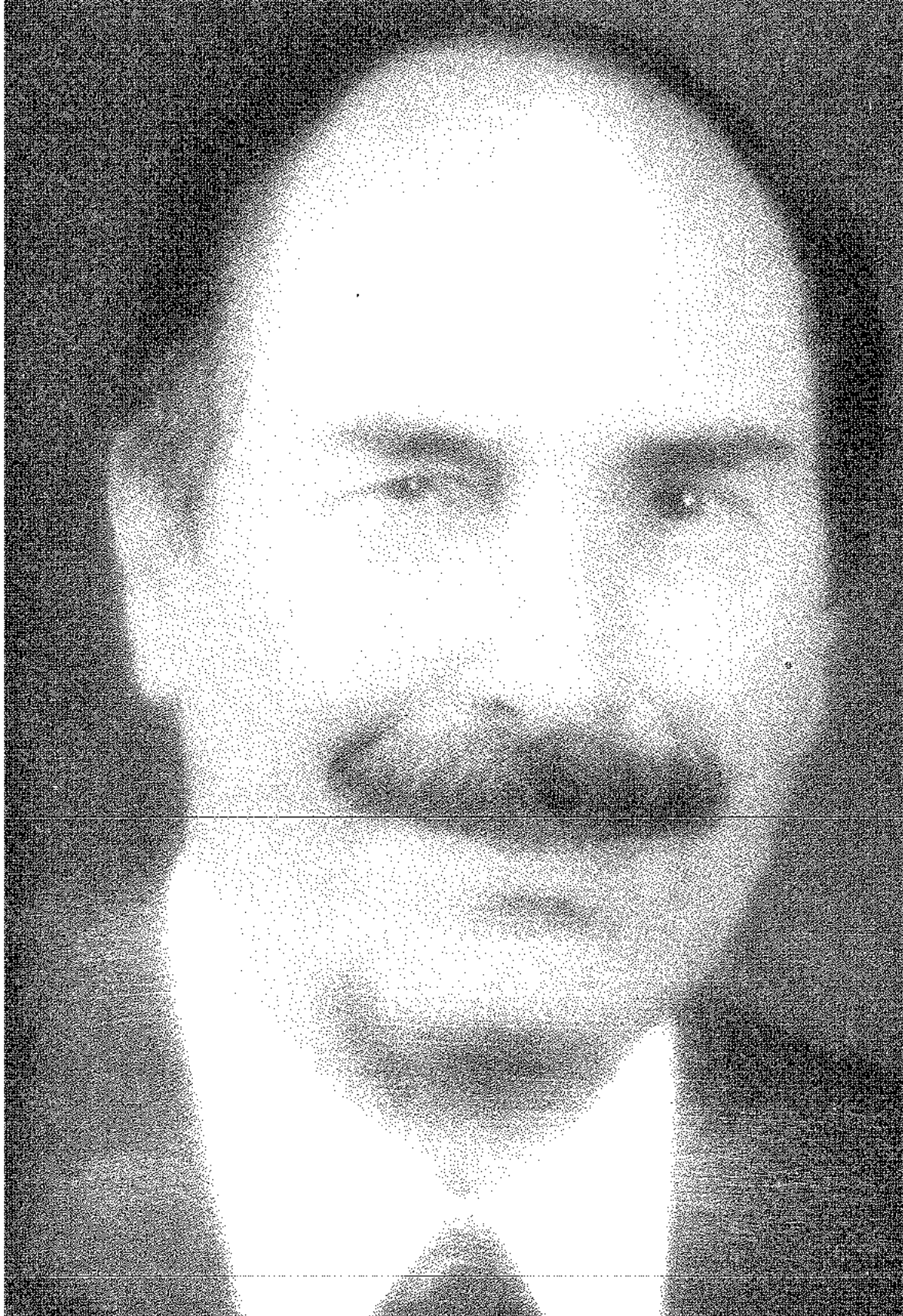
المصادر، ولذلك أفاض في وصفها بعض الشيء، لأن تفهم البيئة في رأيه يجب أن يعيره مؤرخ الأدب أقصى اهتمامه.

ثم عرض بشكل موجز الأغراض الشعرية الهامة التي طرقها شعراء الأندلس، ووقف بشكل خاص عند شعر الطبيعة، فأوضح بواعثه، وذكر خصائصه وأورد طائفة من المنتخبات الشعرية لبعض أعلامه أمثال ابن حنيس الصقلي وابن خفاجة الذي كان يلقب بـ (جنان الأندلس) وغيرهما ... كما بين أن هذا الأدب لم يعيش فقط بين جدران القصور، بل عاش أيضاً في رحاب الرياض والبساتين الأندلسية، وجاء ثمرة لتلك الطبيعة الساحرة التي عرف الشاعر الأندلسي كيف يصف جمالها، وما دار من لهو وطرب ومرح في ظلالها، في كثير من الحذق والفن والأصالة.

ثم قدم في شخص ابن زيدون مثلاً للشاعر الأندلسي، ولذلك درسه بروح جديدة عكست أصالته الأدبية ورسمت خصائص الشعر الأندلسي الذي بقي على الرغم من جديته، ينظر إلى الشرق في شوق ولهفة.

وبين أخيراً الميزة التي انفرد بها أدب الأندلس عن أدب المشرق، فقام بدراسة الموشحات، هذا الفن المستحدث الذي غذته طبيعة الأندلس الجميلة وجادت به عبقرية العرب الخالدة.

كان رحيل الأديب القدير الدكتور جودت الركابي في الحادي عشر من أيار ١٩٩٩، بعد مسيرة حافلة بالعطاء، فكان جديراً بتقدير الوطن، واحترام الأجيال.



مسيرة نصف قرن من العمل الدائب في محراب اللغة العربية المقدسة

كان في الخامسة والسبعين من عمره، مديد القامة، مهيب الطلعة، بشوش المحيا، حين اعتلى منصة مجمع اللغة العربية، يوم الثاني عشر من كانون الثاني عام ٢٠٠٤ الماضي، ليحمل وسط تصفيق الجمهور الحاشد من الباحثين والمؤرخين شارة المجمع، ترصّع صدره، معلنة انضمامه على أعضاء مجمع الخالدين ... وكان "عاصم البيطار" في اللحظة ذاتها يختزن في عقله وقلبه ذخيرة من ألق الفكر والعلم المفيد، ومن إشراق اللغة وجزالة البيان ... وكنت في الحضور مصغياً تتقلني خواطري بين كلماته في رجال العالم الخالدين، وبين مسيرته الغنية بالعمل الدائب، والنشاط الكبير في خدمة اللغة العربية والنحو والبلاغة والبيان العربي الرفيع.

أساتذته أعلام اللغة والأدب: نشأ "عاصم البيطار" في أسرة علم وأدب وصلاح، جدّه الشيخ: عبد الرزاق البيطار ووالده علامة دمشق الشيخ محمد بهجت البيطار، وكان من العلماء الأجلاء في اللغة والأدب، ومن أكثر أعضاء مجمع اللغة العربية همة وحيوية ... وقد ترعرع "عاصم" في ظلال هذه الدوحة، يرتوي من ينبوع الفصحى، ويجني من ثمرات المعرفة اليانعة ... تلقى تعليمه الابتدائي بمدرسة "خالد بن الوليد" في حين الميدان بدمشق، وكان من بين أساتذته فيها: الشيخ زين العابدين التونسي المحقق والمؤلف، و"قاسم القاسمي" شقيق علامة الشام الشيخ "جمال السدين القاسمي" كما تتلمذ على يد الأديب الشاعر أمجد الطرابلسي، وفي المرحلة الثانوية نال شهادة "القسم الأول" "العلمي" عام ١٩٤٧، ثم حصل على شهادة القسم الثاني "الفلسفة" وتوج تحصيله بالإجازة في الآداب من قسم اللغة العربية، والإجازة في

التربية والتعليم العليا عام ١٩٥٢. وحين تقدم للانتساب إلى دار المعلمين العليا، قابل لجنة من ثمانية أعضاء اختبرته في كتاب: "حياة محمد" لمحمد حسين هيكل، وناقشته في مسألة الوحي ونزول جبريل على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، فنالت أجوبته تقدير اللجنة، واجتاز الامتحان بنجاح مشهود.

عمل بعد تخرجه في التعليم الثانوي بدمشق، ثم انتقل إلى قطر مفتشاً للغة العربية، ثم إلى السعودية ليدرس اللغة في كلية اللغة العربية، وانتدب بعد عودته عام ١٩٧٠ لتدريس النحو والصرف بجامعة دمشق ولمدة ١٧ عاماً ... وبعد تقاعده طلب للعمل مجدداً للتدريس بجامعة الملك سعود في المملكة الشقيقة، وعمل في الفترة نفسها في تقويم البحوث الفكرية وتنقيحها لمجلة "الفصل" الثقافية .. ثم ليعود أخيراً إلى دمشق مختتماً بذلك مسيرة نصف قرن من الدأب والجد في التعليم والتأليف.

كتاب في النحو مقرر ٣٠ عاماً:

احتل "عاصم البيطار" منبر التعليم في المدارس والجامعات لسنوات كثيرة، محاضراً منصفاً بالتقافة الواسعة، والعلم الغزير، والباع الطويل في علوم اللغة العربية وآدابها ... وقبل ذلك بالأخلاق العالية والإنسانية الرفيعة، وقد شغف طلابه بأسلوبه الشائق في التدريس، الذي قرّب أذهانهم القواعد والنحو، وحببهم باللغة العربية الفصحى، وظل كتابه في مادة "النحو والصرف" مقررأ على طلبة الجامعة لأكثر من ثلاثين عاماً، يعلمه الأساتذة بدون تعديل، لما يجدون فيه من سهولة العبارة وبساطة الأسلوب، وما يزال طلابه - مدرسو اللغة العربية اليوم - يذكرن ما تمتع به "البيطار" من دماء الخلق، وروح الدعاية والنكته الحاضرة الممتزجة بالعلم الواسع ... فكان الشاهد أو المثل حاضراً ومرتبلاً ومن صميم الواقع المحيط بالطلاب، وما تزال أبياء المدرج الأول بكلية الآداب تردّد صوته المميز، وكذلك صورته واقفاً مهيباً يزود طلابه بما تختزنه اللغة العربية من بيان مشرق،

وبلاغة رفيعة، وقوة تعبير متميزة، وكان يحضهم على الاهتمام بها، وصونها من
سهام الأعداء المسمومة التي تخطط لتثويبها وبالتالي طمس هوية الأمة العربية.

عمل دائب في التحقيق والتأليف:

أصدر "عاصم البيطار" مجموعة من مؤلفاته في اللغة والنحو، ومن بينها:
"التسهيل" و"الدليل" و"المنهج الجديد" وشارك مع آخرين في السعودية بتحقيق "شرح
ابن عقيل على الألفية" فصدر في ثلاثة أجزاء ... وكان "البيطار" معجباً بكتاب
المفصل في النحو، للزمخشري، وشرحه لابن يعيش بأجزائه العشرة، فقام بتصنيف:
فهارس من شرح المفصل لابن يعيش وصدر عن مجمع اللغة العربية ... وله في
التحقيق أيضاً: الفصل المبين في علوم الحديث و"موعظة المؤمنين..

عاصم البيطار، شكراً:

لم يحل المرض بين "عاصم البيطار" وبين مثابرته على العمل في التدريس
لآخر فترة من حياته، وكان يتنقل بهمة ونشاط بين "مجمع النور" و"الموسوعة
العربية" ويعطيها من دأبه ونور عينيه، وقبيل رحيله بشهر واحد، تفضل علي
- وبأريحية غامرة - فدقق كتابي "من جواهر البيان العربي" وقد تتبّع صفحات
الكتاب ودققه كلمة كلمة مصوباً ما وجد من عثرات، وطوق عنقي بمقدمة جاءت
آية في اللطف والمحبة، وفي اليوم الذي توجهت فيه إليه لأهديه نسخة مطبوعة من
الكتاب ... كان هو قد التحق بالرفيق الأعلى، مودعاً بعرفان طلابه ورفاق دربه،
وتقدير أمتة التي تكن الفخر والاعتزاز لأبنائها العاملين الأوفياء ... ومطوقاً بسدعاء
القلب أن يجزيه الله تعالى خيراً عن عمله المثمر، ويثيبه مغفرة ورضواناً.

التلوث في العقول والقلوب والعلاج موجود

لا يمر يوم دون أن تتردد فيه كلمات التلوث مئات المرات ... فوسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية تحذر من مشكلات التلوث، ووسائل الاتصال جميعاً تنذر بعواقب التلوث الوخيمة، والندوات تعقد، والمؤتمرات تكثر، والاجتماعات تتعدد، والدراسات تحاول الإحاطة بالمشكلة من جميع جوانبها، والدول تسارع إلى اتخاذ وسائل السلامة، وتكثر من اصطفاغ سبل الأمان، غير أن التلوث يزداد في كل يوم، يكتسح البر والبحر، ويفسد الماء والهواء، ويهلك الحرث والنسل.

أقول هذا الكلام وأمامي مسودة التوصيات التي صدرت عن المؤتمر الإقليمي: (من بحر إلى بحر/ حول الاستخدام المستدام للبيئة البحرية) وقد حضره أكثر من خمسين ومئتي مشارك من ممثلي الحكومات والبلديات من منطقتي المنظمة الإقليمية لحماية البيئة البحرية، والهيئة الإقليمية للمحافظة على بيئة البحر الأحمر وخليج عدن.

لقد تحدث المؤتمرين طويلاً عن التلوث الذي يصيب مياه البحر والمحيطات، فيؤثر تأثيراً بالغ السوء في الأحياء المائية، وتقدموا بتوصيات كثيرة دعوا العالم بحرارة أن يأخذ بها، لما في ذلك من إيقاف لزحف التلوث المروع، وتنشيط السياحة الساحلية، وترشيد الإنفاق في استعمال مياه البحر.

أنا لا أدعي أنني خبير في هذا الميدان، ولا أصدر في رأيي عن دراسة محكمة للبحر وشؤونه، والبر وشؤونه، والعالم وآلامه، ولكنني إنسان يحس بفطرته السليمة أن هذه التوصيات وأشباهاها إنما هي مظهر من مظاهر الدفاع عن النفس لشدة الإحساس بالذنب.

إن التعاون بين الحكومات والمنظمات الإقليمية والقارية والعالمية مدعو إليه، ولكن كيف السبيل إليه والأطماع تملأ القلوب، وحب السلطان يستعبد النفوس، هم صنعوا مشكلات التلوث، وهم يلهثون لحماية أنفسهم قبل غيرهم منها.

كم قرأنا عن تلوث أفسد حياة الناس في البر والبحر والجو؟ وكم روعنا الخطر الماحق الذي نشر سرطان الجلد بسبب ثقب أحدثوه في طبقة الأوزون الذي يغلف الأرض، ويمتص من أشعة الشمس ما هو ضار، ويسمح بمرور ما هو نافع بتدبير إلهي محكم؟؟

ما أكثر المؤتمرات والندوات والدراسات في الشرق والغرب، ولكنني أتساءل لم يخطر في بال أحد من هؤلاء أن يقترح عقد ندوة باسم : ندوة معالجة تلوث العقول والقلوب، وحماية الضمير؟

لقد خلق الله الدنيا بما فيها من منافع وثروة وخيرات، وسخرها جميعاً تسخير تمكين وانتفاع، واقتضت حكمته تعالى أن يخلق فيها من يستعمرها ويفيد من خيراتها، ويحافظ على نعم الله فيها...

لقد اختار الإنسان ليكون خليفته في الأرض، ولكن الإنسان خان الأمانة، وعاث في أرض الله فساداً.

أرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين، فأمنت طائفة وكفرت طائفة، غير أن العالم بقي رازحاً تحت سطوة الجبروت والعدوان.

يقول رب الناس وخالقهم لعبيده: (وتعاونوا على البر والتقوى...) (المائدة: ٢) فلا يتعاونون إلا على الإثم والعدوان، ويقول لهم خالقهم: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم..) (الحجرات: ١٣) فتناكروا، وجعلوا مقياس الكرامة هي القوة والقدرة على مد السلطان، واستبعاد الخلق، وكنتم أنفاس المسالمين، علمهم الله أن يكونوا في دنياهم الجميلة إخواناً، فأبوا إلا أن يكونوا سادة وعبداناً، خاطب عقولهم التي خلقها نعمة لهم وسماهم: ذوي الأبواب الذي يخلصون العبادة لله حمداً وشكراً (ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه..) (آل عمران: ١٩١) فتاهت عقولهم، وجحدوا فضل ربهم، وملؤوا الدنيا كوارث ودماراً، وزرعوا في الفضاء مركباتهم وأقمارهم الصناعية للتجسس، وبث برامج الخلاعة والتهتك ..

كسا أرضهم خضرة نضرة، وأنبت لهم - جلت قدرته - الأشجار يستظلون بظلها،
ويأكلون من ثمرها، وتعمل على تلطيف الجو، وتقية الهواء الذي نستنشق استدامة
للحياة، فأحرقنا الخضرة، واستأصلنا الأشجار، وقطعنا عيدانها وجعلناها أدوات لقتل
الحياة.

كلما أنبت الزمان قناة ركب المسرع للقناة سناناً

إن العالم تعلو صرخاته حتى تبج الأصوات، يحذر من مرض الإيدز، وانتشار
السرطان، وفك الأمراض الاجتماعية من فساد في العلاقات بين الناس، وتفكك في
الأسر، وإباحية في الأخلاق، وهناك للأعراض، وواد للمروءات في مستقعات
الخمور والمخدرات.. أليست قوانين البشر هي التي مهدت لذلك كله، ثم راحت
تحاول عبثاً رأب الصدع بعد أن اتسع الخرق على الراقع، إنها لن تفلح أبداً لأن
الارتفاع صعب المرتقى، ولأن الهبوط مزلق سهل.

فتح الله لهذا الإنسان أبواب العلم على مصاريعها، وأمره أن يخوض غمارها،
ويتتبع حقائقها لعمارة الأرض التي استخلفه فيها، غير أنه اكتشف نفثت الذرة،
فصنع منها قنابل جهنمية خرب بها الديار، وقضى على الأعمار، وخلف بعد ذلك
مئات الألوف من المشوهين والعجزة الذين يرون بطن الأرض خيراً من ظهرها،
بنوا البواخر، وسيروها بالطاقة الذرية، ولكنهم أنقلوها بالمدافع والصواريخ
وراجمات النار والدمار، أحكموا صنع الطائرات فاستعملوها فيما ينفع الناس،
ولكنهم سلحوها أيضاً فحملوا فيها الموت الزؤام.

لقد خنت الأمانة أيها الإنسان، ولم تحمد الله على الدرجة الرفيعة التي يسرها
لك فجعلك في أرضه، مؤثراً إياك على ملائكة قدسه الذين لا يكفرون ولا يعصون،
والذين يذكرون الله ليل نهار لا يفترون، يقول سبحانه: (وإذ قال ربك للملائكة إني
جاءل في الأرض خليفة قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح
بحمدك ونقدس لك، قال: إني أعلم ما لا تعلمون). (البقرة ٣٠).

لقد خنت الأمانة أيها الإنسان فلا عجب إن وصفت بالجهل والظلم، يقول الله تعالى: (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان، إنه كان ظلوماً جهولاً). (الأحزاب: ٧٢).

شعوب مستضعفة يفتك بها الجوع، وتأكل أجسادها الأمراض، وأخرى تسبح في النعيم، وتتفق على لذائذها ما .. لو حول جزء منه إلى أولئك لعاش الجميع في نعمة وسلام.

شعوب يمنع عنها سلاح تدفع به عن نفسها العدوان، وأعداؤها يغزون بالسلاح من كل مكان، ولا ذنب لهاتيك الشعوب إلا أنها تقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

ما كان إبليس اللعين في يوم من الأيام أسعد حالاً منه في زماننا هذا، فقد كثر أعداؤه وزيائنه، وأحكموا قبضتهم على العالم، وادعوا أنهم رسل الحضارة وبنساء التقدم، فهذه فرنسا والصين تجريان تجاربهما النووية ولا تأبهان لاعتراض المعترضين وجماعات السلام الأخضر وحماية البيئة في الدنيا كلها، لأنهما أسسنا قيادهما للشيطان عدو الإنسان الأكبر.

ماتت قلوبهم وتحكمت أهواؤهم: إذا رأوا طريق الحق تعاملوا عنه وإذا تذوقوا طعم الباطل استساغوه واستكثروا منه .. لقد ظنوا أنهم غدوا أقسوى من عاديات الزمان، ومن سنن الله في الكائنات، ولو عقلوا لأحسوا بالسوس ينخر في أساس بنيانهم، وأنهم صائرون إلى ما صارت إليه أمم أخرى قبلهم: أتى على الكل أمر لا مرد لسه حتى مضوا فكأن القوم ما كانوا

لو تبصروا لاعتبروا يقول الله في كتابه الكريم: (قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد، فخر عليهم السقف من فوقهم، وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون). (النحل: ٢٦).

خلق الله هذه الدنيا وجعلها دار امتحان: (تبارك الذي بيده الملك وهو على كل

شيء قدير، الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور (المالك: ٢٠١). وملأها بالخيرات والنعم فمن الناس من شكر ومنهم من كفر: (ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم، إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين، ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب...). (آل عمران: ١٧٨، ١٧٩).

أليس كل ما مضى - وكثير غيره - لوحات تصور ألواناً من تلوث الضمائر، وفساد القلوب، وضلال العقول؟! وما نفع ناطحات السحاب، وإنشاء المصانع، وشق الطرقات، وبناء ما يسمى بالحضارات إذا كانت تقام بيد، وفي اليد الأخرى وسائل تدميرها وضياع الغاية منها؟! أليس من حق الشاعر أن يقول:

وجبله الناس الفساد فضّل من يسعى بحكمته إلى تهذيبها
قال هذا والحياة كانت أفضل حالاً والناس آنذاك لا يعرفون أدوات التدمير
الشامل، والحروب الكيماوية والجرثومية، نعوذ بك اللهم من ذلك كله.

أيها الناس: إنكم تسعون إلى الاجتماعات والمؤتمرات لتشخيص المرض بعد استفحاله، ولمحاولة إيجاد العلاج له بعد استعصائه، فهلا فكرتم مرة في الاجتماع لدراسة أعراض تلوث العقول والقلوب، وفساد الضمائر؟

إن العلاج موجود: إنه الإسلام، إنه الإيمان، إنه المؤتمر العالمي الذي يعقد تحت شعار: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداداً فأسأف بين قلوبكم فأصبحتن بنعمته إخواناً، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون، ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون، ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات، وأولئك لهم عذاب عظيم) (آل عمران: ١٠٢، ١٠٥).

لا تلم أحداً أيها الإنسان، بل لم نفسك على انحدارك في الهوة التي تشقى فيها، فإنك أنت السبب، وقديماً قبل في المثل: (يداك أوكنا وفوك نفخ).



د. سعيد محمد الحفار:

حمل هموم البيئة، وجاهد لحمايتها طوال نصف قرن..

هذا مفكر من طراز مختلف، وكانت رسالته مختلفة أيضاً...
أوقف جهد عقله، ونبض قلبه لقضية بالغة الأهمية في حياة البشرية: البيئة...
حاله مثل كل الغيورين على مستقبل الإنسان ورفاهه ما تتعرض له البيئة من
تشويه وتخریب، وخبر بفكره العلمي ما يجره العدوان المتواصل على عناصر
الحياة من كوارث وأخطار، فأنضم إلى كوكبة العاملين بإخلاص، لنشر الوعي
البيئي بكل وسيلة متاحة وفي أي مكان، وتوجيه الجماهير لتعمل على صون
البيئة، والتنعم بخيراتها الوفيرة....

عمل في مجالات كثيرة خبيراً وإدارياً وموجهاً ومعلماً ونشر نتاج أعماله
وأتاحه للجميع كي يكتسبوا حباً صادقاً للطبيعة، ويكونوا بدورهم مجتدين لحماية
البيئة والحياة تواصلت مسيرته طوال نصف قرن، ولما رحل أخيراً، كان قد ترك
لأمتة ثروة من المؤلفات والأبحاث، غنية بالمعلومات والأفكار العلمية، لتكون
مرشداً للأجيال في الطريق الطويلة إلى حياة أكثر سعادة، وإشراقاً للأجيال وأمناً
وسلاماً..

هو واحد من أبرز علماء سوريا، عمل طوال حياته في مجالات الفكر والتأليف
العلمي، وأمضى عمره بين كتبه وأبحاثه.

- من مواليد دمشق عام ١٩٣١.

- حاز على درجة الليسانس في العلوم الطبيعية من جامعة دمشق، وتخرج من
دار المعلمين العليا، كما حصل على دبلوم التربية وأصول التدريس، ليمارس
مهنة التعليم في ثانويات دمشق لعدة سنوات.

- أوفد للدراسة في بلجيكا (جامعة بروكسل الحرة) وجامعة باريس (معهد باستور) للدراسات تطليها تخصصه في تحضير دكتوراه دولة في العلوم.
- حصل من جامعة بروكسل على (ليسانس تخصص تأثير الأشعة على الأحياء)، وعلى (دكتوراه دولة في العلوم) (قسم الاختبارات، إنتاج مضادات حيوية، وخاصة البنسلين والستربتوميسين وحمض الليمون) أساس الصناعات كلها تقريباً.
- أستاذ في جامعة دمشق، رئيس قسم العلوم الأساسية في كلية الزراعة، وعضو قسم ما قبل السريري في كلية الطب،
- أستاذ في جامعة قطر، ومؤسس وحدة الدراسات البيئية فيها.
- عضو عامل في مركز البحوث الأوروبية في (ريكسان سار) في بلجيكا، حيث تتم بحوث الشركات الدولية الكبرى.
- عضو في المجلس الأعلى للعلوم منذ إنشائه ورئيس اللجنة الوطنية للإنسان والبيئة، وعضو مجلس التعليم العالي في سوريا.
- خبير ومستشار خاص لمدة ثماني عشرة سنة في مكتب التربية العربي لدول الخليج العربي بالرياض، خبير في المنظمة الاجتماعية والاقتصادية لغربي آسيا، مستشار لوزارة النقل في سوريا حول البيئة.
- عضو منتخب في البرنامج الدولي للحفاظ على البيئة في جنيف، خبير استشاري دولي في الأمم المتحدة في اليونسكو، خبير في برنامج الأمم المتحدة للبيئة UNDP.
- اختير في مطلع شهر كانون الأول عام ٢٠٠١ مديراً عاماً لهيئة الموسوعة العربية التابعة لرئاسة الجمهورية العربية السورية.
- عمل على إعداد أكثر من ستمائة وعشرين دراسة ونيف، من بينها دراسة محورية رئيسية للمؤتمر العربي الوزاري الأول لوزارة البيئة والتنمية، الذي عقدته جامعة الدول العربية سنة ١٩٨٦ في تونس، بتكليف من الأمين العام

مؤلفاته:

قام بإعداد سلسلة كتب ميسرة للجمهور على شاكلة سلسلة (ماذا أعرف) صدر

منها:

- كتاب عن (الإيدز كمشكلة بيئية عالمية).
- كتاب عن (المخدرات مشكلة العالم الغني والفقير).
- كما ألف خلال وجوده في جامعة دمشق عشرة كتب جامعية من مطبوعات الجامعة، وتسعة عشر كتاباً خلال وجوده في الأمم المتحدة منها:
- كتاب (الإنسان ومشكلات البيئة) جامعة قطر ١٩٨١.
- كتاب (نحو بيئة أفضل) دار الثقافة، الدوحة قطر ١٩٩٥.
- كتاب (بيئة من أجل البقاء) دار الثقافة الدوحة، قطر ١٩٩٠.
- الموسوعة البيئية الشعبية: وتتكون من عدة برامج توعية بيئية جماهيرية، تم التخطيط لها بشكل حصيف، وتتكون من مائتين وإحدى وثلاثين حلقة تلفزيونية مدة كل منها ٦٠،٥٧ دقيقة.

تناول البرنامج أهم المشكلات البيئية لمنطقة الخليج العربي والوطن العربي

وهي:

- ١- برنامج أنت والبيئة المعاصرة.
 - ٢- برنامج البيئة والحياة.
 - ٣- برنامج أخطاء تصحيحها حقائق.
- وقد حازت هذه الموسوعة الشعبية في إطار الإعلام البيئي الشعبي على جائزة الإعلام الجماهيري الدولية مع البروفسور جاك كوستو.
- يضاف إلى ذلك ست وسبعون حلقة قصيرة بعنوان (رمضانيات) مدة الواحدة منها ١٣ دقيقة.

وقد توج أعماله بإصدار أكبر عمل تأليفى موسوعي في الوطن العربي في مجال البيئة وهو:

- الموسوعة البيئية العربية الكبرى للباحثين: وتقع في (٢٥٠٠٠) صفحة، وقد جاءت في عشرة مجلدات تخصصية + مجلد حادي عشر هو (الدليل)، وقد أعدت في الفترة ما بين ١٩٧٨ ولغاية شهر آب عام ٢٠٠٠.

وقد شرع الحفار مؤخراً بإنجاز مجلدها الثاني عشر يدخل فيها الجديد بالتميم المستدامة ومشكلاتها، بعد عوبته من مؤتمر قمة الأرض في جوهانسبرغ الذي انعقد خلال الفترة ٥/٢٦ ولغاية ١٢ سبتمبر ٢٠٠٢.

كذلك ألف كتاباً في أحدث العلوم التي تؤكد مسؤولية البيئة في إثارة الأورام السرطانية، كما ألف عدة كتب بتكليف من الإدارة العليا في جامعة قطر منها: كتاب (هندية الأحياء وبيئة المستقبل) (للدراستات العليا)..

كتاب (المخدرات مأساة البيئة المعاصرة) (دراسة علمية مقارنة لستين دولة من حيث خبراتها لمعالجة الإدمان، ٩٠٠ صفحة)، كتاب (البيولوجيا ومصير الإنسان) سلسلة عالم المعرفة (طبع مرتين).

وكان قد أعد كتابين للأليكسو: الأول: في مجال التربية البيئية، الثاني: في مجال الحفاظ على البيئة.

وأصدر كتابين في مجال علم السرطان البيئي هما: علم السرطان البيئي ١٩٨٣، البيئة والأورام ١٩٩٢.

كما أصدر مع قدوم الألفية الثالث من مجلدات الموسوعة المجلدات: ٦,٥,٤,٣ حتى نهاية عام ٢٠٠٢.

- حقق فكرة استصدار كتيبات إلى جانب مجلدات الموسوعة كإسهام في تثقيف الناشئة من شتى الطبقات في المجتمع العربي، تكون موضوعاتها مما يدور على ألسنة الناس وتثير اهتمامهم، وتكون ميسرة في الأداء وعميقة في بعدها العلمي.

وكان الدكتور الحفار قد أصدر كتابين:

الأول: بعنوان (دراسة مقارنة لـ ٦٢ دولة حول معالجة المدمنين على المخدرات) طبع في قطر.

الثاني: وهو بعنوان (دراسة مقارنة لـ ٦٢ دولة حول الوقاية من المخدرات) صدر في الشهر ٨ من عام ٢٠٠٢.

وله كتابان هامن حول هندسة الوراثة ومشكلاتها:

الأول: صدر عام ١٩٨٥ بعنوان (هندسة الوراثة وبيئة المستقبل) للدراسات العليا في قطر.

الثاني: صدر عام ١٩٨٥ بعنوان (البيولوجيا ومصير البشرية) سلسلة عالم المعرفة (طبع مرتان)...

البحوث والدراسات:

للدكتور الحفار بحوث كثيرة في صناعة المضادات الحيوية قام بها لصالح فايرز الأمريكية للعقاقير، له (٤٧٨) دراسة منها (٤٠٣) دراسات أدمجت في الموسوعة، ومنها: الدراسة المحورية باسم الأمين العام لجامعة الدول العربية لأول مؤتمر عربي على مستوى الوزراء لوزراء التنمية والبيئة، تقع في (٥٠٠) صفحة.

- أعد ١٢ دراسة موجزة ومقالات متنوعة في مجال التنمية الحقيقية، التنمية والبيئة، صحة البيئة، العلاقة بين البيئة والأورام، التنمية المستدامة... نشرت في الصحف والمجلات العربية.

- له باع طويل في مجال التعريب، وله في الموضوع دراسات عديدة متعمقة.

- له العديد من الدراسات المتعمقة في مجال الإصلاح الإداري وما يرتبط به (المتنقيات الإدارية الثلاثة + كتاب (الثورة الإدارية في القرن الحادي والعشرين).

وقد أعدت الدراسات كلها بناء على تكليف من جامعات ومنظمات عربية فسي

طليعتها الأليكسو، ومنظمات دولية ومراكز بحوث ومركز التربية لدول الخليج العربي، ومجلس الوزراء في سوريا.

المحاضرات والندوات:

للدكتور الحفار برنامج تلفزيوني شعبي بث من دمشق تحت عنوان (أنت تسأل ونحن نجيب) لمدة ساعة أو ساعة ونصف، وله أكثر من ١٨٠ حديثاً إذاعياً في مجالات البيئة لإذاعتي دمشق وقطر.

وله ندوات تلفزيونية عامة في أبو ظبي ودبي والشارقة ودمشق.

قدم العشرات من المحاضرات العامة في دولة قطر، ألقى العديد من المحاضرات العامة المتخصصة في النقابات المهنية، وألقى في مجالات زراعية دقيقة تدور حول الأسمدة والمبيدات، تغذية النبات، العسل الهرمونات الزراعية واستخدامها في تربية، النبات خطورتها، وفي مجالات طبية متعددة.

دعي للجزائر كاستشاري في مشروع هيئة الموسوعة الجزائرية عام ٢٠٠٣، وقدم ثلاث محاضرات علمية.

تكريم وجوائز:

حصل في عام ١٩٨٨ وبعدها في عام ١٩٩٠ على جائزة العالم للبيئة (العالميون الخمسمائة).

ونال على جائزة العالم لتعليم الجماهير بالتربية الحلزونية.

كما حصل على جائزة المدينة العربية بعقد التسعينيات من القرن الماضي مناصفة مع الشيخ زايد آل نهيان أمير دولة الإمارات السابق.

وحدة جوهر الإنسان والطبيعة تفرض فهماً جديداً للعالم

إن الإنسان ابن بيئته وهو جزء لا يتجزأ منها:
فمن طين أديمها أنسجته وخلاياه، ومن حجارة صخورها شيد أبنيته ومأواه،
ومن مائها شرب وارتوى، ومن غذائها أكل ونما، ومن خيوطها نسج واكتسى ...
ورغم ذلك فهو في كثير من الأحيان وكعادته في الجحود والكران يتصور أن
البيئة خصمه، وأنه لابد أن يعمل على مواجهتها ليصرعها وينتصر عليها، فهو
سيدها المطلق، ولابد إذن من إذلالها وتشويه معالم وجهها العذري.
وكي لا تتباهى بيئته الطبيعية بذلك الوجه الجميل، خيل للإنسان أنه إذا ما
استطاع أن يفسد بدخانه وإشعاعاته هواءها، ويقرر بآلات حفره بطنها، ويلوث
بمخلفات صناعات مياهها، ويقل بكيماويات مصانعه عضوياتها، يقتلع بمناجله
أشجارها، فإنه بذلك سوف يعيش هادئ العين قريراً، وفي غمرة من السعادة
ويحبوحة من العيش.

ولكنه حينما وقف ليفرح مزهواً لهذا (الانتصار) وليمايل الرأس غروراً بهذه
(الفتوحات) وجد نفسه إنما أفسد عيشته وجلب الوبال على نفسه ومجتمعه، فأحس
به الخطر وركبته الأمراض فعاد يتباكى على بيئته البكر، ومزارعه الخضر وهوائه
النقي، ومائه العذب، ومن هنا فقد عملت الموسوعة البيئية العربية، على توضيح
فهم جديد للعالم من خلال إدراك (وحدة جوهر الإنسان والطبيعة) وهي نظرة جديدة
ثورية إلى الصلة بين الإنسان وبيئته الطبيعية، تستهدف الارتقاء بإطار الحياة في
المستقبل، بمكافحة تلوث الأرض، والماء، والهواء، والقضاء، بمخلفات الصناعات
المعدنية والكيمياوية وفضلات المدن والزراعة والاقتصاد في استهلاك الموارد
الطبيعية، ذلك أن التوسع المكاني الهائل، وكذا ازدياد الأنشطة الصناعية والعادات
الحديثة التي أوجدتها المدنية، كل ذلك يستثير وفرة هائلة من الفضلات، وأصبحت

معالجة الفضلات موضوع الساعة.

كما ظهرت في العالم بعض الأفكار الفلسفية عن الوجود وعن المادة والشكل وبكلمة موجزة: إن وحدة جوهر الإنسان والطبيعة تفرض فهماً جديداً للعالم، وينبغي أن يستثير العلم والتقنية المعاني الكامنة في الطبيعة، فالإنسان والطبيعة شريكان في الإنتاج، فالمجتمع الصناعي اليوم يلتقي علم البيئة لأن عصرنا اليوم أضحى يوصف (بعصر القمامة).

وإن فكرة الدفاع عن البيئة حافلة بالمعاني المبهمة، وبخاصة أن فكرة البيئة نفسها غامضة، وقد تم إدراك الوحدة بين الطبيعة والإنسان من خلال الأدب، وليس أدل على ذلك من مقال للألماني غوته عن الطبيعة نذكر وجيزاً عنه في الترجمة الآتية.

يقول غوته:

(الطبيعة تحيط بنا وتعانقنا، ونحن عاجزون عن الخروج منها، كما نحن عاجزون عن الغور فيها، تأخذنا في مدارها الراقص دون إنذار وتحملنا في مسارها حتى يصيبنا الإعياء فنسقط بين ذراعيها).

على الدوام تخلق أشكال جديدة: ما يوجد، لم يوجد من قبل، وما كان لا يعود فكل شيء جديد، وبالرغم من ذلك فهو دائماً قديم، نعيش في أحضانه، ولكننا نعيش في أحضانهها غرباء عنها، وهي تحدثنا بلا انقطاع، دون أن نقصح عن طويتها، نحن نؤثر فيها على الدوام ولكن لا نملك أمرها، تطبع كل شيء بطابع خاص، ولكن ليس في عرفها شيء خاص، تبني بلا انقطاع وتهدم بلا انقطاع.

إننا أطفالها، لكن الأم، أين الأم؟ إنها الفنانة الوحيدة، فهي تخلق من أبسط المواد أعظم المتباينات، ودون بريق من جهد تخلق الكمال كسل عمل من أعمالها مخلوق بعينه، وكل ظاهرة من ظواهرها كيان بذاته، وعلى الرغم من ذلك فالكل واحد، تمارس لعبها الفاسي بكل شيء وتمرح لكل كسب منها.

اللا طبيعي هو أيضاً من الطبيعة، تحب ذاتها وتعشق ذاتها بأعينها وقلوبها التي لا تحصى ... تفرح بالوهم، وتنزل غضبها كأعظم الطغاة بمن يفسد وهمه ووهم الآخرين، من يتبعها بإخلاص، تحنو عليه كطفل حبيب، ليس لأطفالها حصر، ولا تبخل على أحد، ولكن لها أبحاؤها الذين تبذل لهم العطاء وتضحي لهم بالكثير ... لعبها دائماً جديد، لأنها تخلق المتفرجين دائماً من جديد، الحياة أجمل مبتكراتها، والموت وسيلتها لإثراء الحياة، تغلف الإنسان في غفلته وتحفره إلى النور على الدوام.

تقيده بسلاسل الأرض، بطيء الحركة، مثقل الجناح ومن جديد توقظه من سباته، تخلق الحاجات لأنها تحب الحركة ... تتطلق في كل لحظة إلى أطول المسافات وتحط كل لحظة عند نهاية المطاف ... نخضع لقوانينها، حتى حين ننفر من هذه القوانين، وحين نشور ضد هذه القوانين....

تمثل مسرحية، ولكن هل ننظر إلى ما تمثل؟ لا نعرف! ومع ذلك فهي تقوم بهذه التمثيلية من أجلنا، نحن الذين نقف في الركن.

تنبض بالحياة دون نهاية، وبالكينونة والحركة، ولكن دون أن تحيد عن مكانها تلبس شتى الأشكال بلا نهاية ولا تكف لحظة عن الحركة.

لا تعرف التوقف، والسكون لديها لعنة، وبالرغم من ذلك فهي ثابتة راسخة، حركتها بمقياس وقوانينها لا تتغير، ويندر أن تحيد.

تفكر وتتأمل دون انقطاع، ولكن لا تفكر كإنسان وإنما كطبيعة، تحمل مغزاها الشامل في ذاتها، وإن بدت دون مغزى، الناس جميعاً في باطنها وهي في باطن الجميع.

إنها كل شيء تكافئ نفسها وتعاقب نفسها، تفرح بنفسها وتؤذي نفسها، إنها خشنة ووديدة، محبة ومخيفة، ولا نهاية لقوتها، كل شيء حاضر في أحضانها، لا تعرف الماضي ولا المستقبل، ودائماً الحاضر حياتها وخلودها، إنها كل، وإنما لم تكتمل، وكما تمضي الآن، تستطيع المضي إلى الأبد.

تظهر للكل في صورة خاصة، وتخفي في آلاف الأسماء والتعاريف، ولكنها دائماً هي قادتني إلى العالم وستخرجني من العالم، سلمت لها المقود، فلتفعل ما تريد، لن نكره ما صنعت، لم أتحدث عنها، كلا كل شيء خطيئتها وكل شيء مجدها..

ثم تطورت الافتراضات العلمية دون أن تفقد طبيعتها العقلانية في نطاق تجريبي، وانتهت إلى مفاهيم مختلفة بشأن الطبيعة وبرز سؤال فلسفي مفاده:

■ هل تكف الطبيعة عن أن تكون خاضعة للسيطرة فنصبح شريكاً كاملاً للإنسان؟

إن هذه الوحدة، وحدة جوهر الإنسان والطبيعة، تفرض فهماً جديداً للعالم، وبالتالي علماً آخر وتقنية أخرى، أما العلوم والتقنيات التي تطورت، فإنها ما زالت بعيدة كل البعد عن صفات الطبيعة ومعناها.

وأوضحت (الموسوعة البيئية العربية) أن التكنولوجيا تبدأ في خبرة الإنسان بمثابة كيفية لرؤية الطبيعة، والإحساس بها.

أما عالم البيئة فإنه يلقى على الطبيعة نظرة أخرى، ومن ثم يجعل منها شريكاً مساوياً للإنسان، ويقيم معها صلة مستمرة من التعاطف والتعايش في العلاقة. وهنا لابد لنا من طرح عدد من التساؤلات حول الإنسان والطبيعة.

■ هل هناك حقاً اتحاد بين الإنسان والطبيعة؟

إننا إذا أخذنا بالاعتبار مذهب وحدة الوجود الذي أشرنا إليه بإسهاب في كتابنا (هندسة الأحياء وبيئة المستقبل) والذي يذكرنا بالرأي الفلسفي القائل: إن المجتمع هو الذي يحقق الاتحاد بين الإنسان الذي أثر في الطبيعة، فإننا سنجد بالفعل اتحاداً صميماً بين الإنسان والطبيعة، لكن هذا الاتحاد من أجل إدراكه يتطلب فهماً جديداً للعلم، وبالتالي يتطلب علماً جديداً، وتكنولوجيا جديدة، ذلك أن العلم والتكنولوجيا

الذين ظهروا حتى بعيدان كل البعد عن التفكير في تحسين نوعية الطبيعة، وإدراك معناها الصحيح.

ومن شأن الفكر الحاسب الذي يركز على كل ما هو كمي أن يحول إلى مادة كل ما يتصل به ويجمده، ويرى بعض فلاسفة الفكر البيئي اليوم تياراً دافئاً من روح التحرر، وتحقيق العالم المثالي المنشود، وتياراً بارداً تسيطر عليه الرغبة في إخضاع كل شيء للتحليل والتجربة.

■ ترى من الناحية العلمية، هل لنا أن نرفض كل منهج عمل يتفق مع الجانب الكمي للكون؟

لطالما أن الكون لا يمكن إنكاره، فلا يجوز من الناحية العلمية أن نرفض كل منهج وعمل يتفق مع الجانب الكمي للكون، بيد أن النماذج الرياضية، والوسائل التكنولوجية لا تترك، ولا تستخدم سوى جانب واحد من الحقيقة.

وهنا أذكر ما قاله جيرار روليه: إن التكنولوجيا التي ترفض ترويض الطبيعة كما يروض الحيوان قد تصبح وسيلة للتحالف الحقيقي معها، وتعيد الاتصال بين الإنسان والبيئة الذي بدونه تصبح كل مظاهر الطبيعة غريبة عن الإنسان.

وهنا يتضح أن بعض منظري الفلسفة البيئية لا ينكرون التجربة التكنولوجية ولكنهم يسلكون في نقد العلم والتكنولوجيا مسلكاً يشبه مسلك روسو، الذي يستنكر الظروف الاجتماعية والإيديولوجية التي أفسدت المعرفة العلمية من الناحية التاريخية، كما أفسدت استخدامها واستغلالها، ولذلك يجب أن تهدف التكنولوجيا الجديدة إلى إبراز المعاني الطبيعية الكامنة بحيث يصبح الإنسان والطبيعة شريكين في الإنتاج، ويعملان معاً على تحقيق العالم المثالي المنشود وتحسين نوعية البيئة.

■ ترى هل الطبيعة بحد ذاتها فاعلة أو منفعة، وما يترتب عن ذلك في الفكر الفلسفي للبيئة؟

الحقيقة أن الطبيعة قاعلة لا منفعة، وهذا يهيئ لنظرة عالمية جديدة وبيعث الرغبة في تغيير صورة العالم، وليس المقصود بذلك رفض المظهر الكمي للطبيعة، بل المقصود تغيير الطريقة التي تعامل بها الطبيعة.

حقاً (إن التكنولوجيا هي المظهر العنيف للمعرفة) كما ورد في مسرحية أنتيجون، وفي الوقت الذي أصبح فيه المجتمع الصناعي عالمياً لكل المجتمعات البشرية، يتضح لكل ذي عينين في الشرق والغرب أن التكنولوجيا تؤدي إلى غزو الطبيعة بطريقة وحشية.

ويفسر لنا التوسع العالمي في استخدام أساليب العنف السبب في مشروع تحسين البيئة الذي يرفض الخضوع لحكم أي نظام من النظم الاقتصادية.

وإن الاستقلال الذي أعلنه علماء البيئة نظرياً منذ الانتخابات التشريعية الفرنسية في عام ١٩٧٨ يفسر لنا هذه الرغبة الجامعة في البيئات العالمية، في تجاوز الأشكال الحالية لكل من الرأسمالية والاشتراكية سواء بسواء، إنه حقاً مشروع هائل، لأنه يتطلب تغييراً جذرياً في الاتجاهات السائدة، فالمجتمع الصناعي يدين بنجاحه الضخم الذي لا ينكر إلى تأكيده العنيف لموقفه، وهذا هو صميم التكنولوجيا باعتباره عملاً سابقاً على كل تجارب الكائنات والأشياء، إذ تبدأ التكنولوجيا باتباع الإنسان أسلوباً خاصاً في رؤية الطبيعة، واستشعارها والإحساس بها.

أما العالم البيئي، فإنه ينظر إلى البيئة نظرة مختلفة، ويعاملها على قدم المساواة مع الإنسان، إنه يهدف إلى استمرار التعاطف مع الطبيعة، وسبيله إلى تعديل المعاملة التقنية للبيئة هو: نبذ كل تطور غير طبيعي في المشروعات الإنشائية، واتباع التكنولوجيا اللينة أو المتوسطة ونبذ أساليب القهر والقمع في معاملة الإنسان.

وتحاول المجتمعات البشرية في الوقت الحاضر، حقن هذه النظرات الجديدة في التطور بجرعات صغيرة، كما تتجلى في الصيغة البيئية لكل برامج الأحزاب السياسية.

▪ ولكن هل البرنامج البيئي الصحيح يتعارض مع الإيديولوجيات العامة للكفاية والربح؟

الواقع أن البرنامج البيئي الصحيح يتعارض مع الإيديولوجيات العامة للكفاية والربح بحيث لا يعد إصلاحاً في ظاهر الأمر فمن هذا المعنى يمكن أن يعد برنامجاً ثورياً يخالف كل ما تعارف عليه الناس في الماضي، ويؤذن بمستقبل جديد تظهر فيه خطوط مشروع جديد لمجتمع تسود فيه علاقات اجتماعية واقتصادية وسياسية مختلفة تماماً عما نعرفه اليوم.

وأنا أرى أن العلم لن يكون عبداً للتكنولوجيا، ولا رقيقاً لها، ولن يضع نفسه في خدمة إنتاج مكثف لسلع مادية تكون غالباً عديمة القيمة أو مجرد مصدر للربح. ولسوف يقف العلم بمعزل عن كل شيء ليعنى بمعرفة الكون معرفة منزهة عن الغرض.

وإلى جانب تجريد الطبيعة من النزعات المادية سوف تسود المجتمع الاستهلاكي نزعة روحية تؤدي إلى تنشيط إنتاج السلع الثقافية.

▪ هل من برنامج جاد لتحسين العلاقة بين الإنسان والطبيعة؟

الحقيقة أن برنامج تحسين البيئة ونوعيتها وخاصة من حيث صلاحية المواد الداعمة للحياة من هواء وماء، وتربة، والارتفاع بتعامل الإنسان مع بيئته كجزء منها لا سيّداً جسّاعاً مستبداً فيها، أقول إن برنامج تحسين البيئة قد يكون مجرد إعلان برغبات تستعصي على التحقيق، ألفاظ تعبر عن خيالات وأوهام، ولكن قد يكون أيضاً برنامجاً يتضمن الرغبة الصادقة في ارتياد طبيعة جديدة ذات روح، ومعنى جديد، برنامجاً هائلاً لتحرير قوى الطبيعة من قبضة السيطرة الوحشية، ومن هنا وجب أن نتحاشى خطر التحليق في سماء الأفكار السامية الجوفاء.

▪ بعد هذا ألسنا بحاجة إلى فكر جديد في علاقة الإنسان بالطبيعة؟

الفكر الجديد يحتاج إلى عقل جديد، نحن نحيا اليوم في عالم جديد، ما بعد الصناعي الشديد التغيير المتسارع التبدل من حال إلى حال، بحيث أضحي الجهاز الذهني البشري يعجز عن تفهم العالم الجديد، وأضحى حواسنا لا تدرك العالم كما هو، لأن جهازنا العصبي قد تطور بحيث ينتقي من الأحداث خلاصة صغيرة، ويهمل ما عداها، وبدلاً من أن ينقل هذا الجهاز كل شيء عن العالم، فإنه لا يستأثر إلا بالتغيرات المثيرة، وهذه البؤرة الداخلية تجعلنا نحس ببدايات الأحداث ونهاياتها أكثر من إحساسنا بالتغيرات الوسطية.

■ إذا كان الأمر كذلك، فما هو المخرج في رأيكم؟

إن المخرج لن يكون إلا بعد أن نعيد تدريب أنفسنا للتعامل مع المستقبل في عالم جديد بتهديدات لم يسبق لها مثيل.

إن زمن تركيز العقل الإنساني البسيط على (المثير) في البيئة قد انتهى مع تعقيد الحياة المعاصرة، لأننا نواجه بأخطار في البيئة المعاصرة لا قبل لنا بها، ولم يدرّب عقلنا التقليدي الذي يهتم بالتغيرات الفيزيائية المفاجئة في العالم القديم على التعامل معها، لقد أصبح جهازنا العصبي غير متلائم اليوم مع عالمنا.

إن المشكلة الكبرى في بيئة اليوم المتسارعة التغيير، لن يحلها مشروع سياسي جديد، أو برنامج حكومي، أو مقالات في نقد التربية، أو مؤتمر دولي، إنها مشكلة مستقبل البشرية، تلك المشكلة التي تتعلق بكيفية إدراكنا لبيئتنا، وأنفسنا، فنحن لسو نتبعنا التاريخ، لاستطعنا أن نتعرف على العالم الذي تطور منه جنسنا والعالم الذي صنعنا، وشكل فينا طرقاً معينة لفهم بيئتنا، طرقاً عززت بقاينا، لكن هذه الطرق القديمة ليست بالضرورة ملائمة لنا في عالم يختلف تماماً عن العالم الذي عاش فيه أسلافنا، لذا لابد لصناع القرار من أن يعملوا على تغيير عقولهم، وتغيير الطريقة التي يتخذون بها قراراتهم، وهو ما يؤهل للتغير في اتجاه يؤمن مستقبل البشرية.

■ هل انتصارات البشرية في بيئة اليوم قد تكون عامل دمارها؟

لقد استهلكنا نحن البشر مواردنا غير المتجددة من الوقود الأحفوري، وركاز المعادن، والأرض الزراعية الخصبة، والمياه الجوفية، وملايين الأنواع الأخرى التي عمرت معنا الأرض، دون أن نتذكر أن تجميع هذا التراث العظيم تم في بلايين السنين، وهانحن نبذده في عقود.

إننا نتصرف بطريقة لم تكن ضارة عندما بدأت البشرية بتبديد ثروتها، لكن بطريقة أصبحت اليوم سفيهة ومدمرة.

لذا فإن الانتصاراتنا قد تدمرنا، فالبشر يجاهدون، وما يزالون كي يمدوا سيطرتهم أبعد وأبعد، وهم بذلك إنما يحولون التجمعات السكانية في المدن لتصبح كوكباً قاحلاً يخنق المدينة.

والمشكلة الجوهرية في رأينا أن رأس المال الذي يبده الإنسان المعاصر، لا يتجدد يومياً مثل ضوء الشمس، إنه نتاج آلاف أو ملايين السنين من التطور الجيولوجي والبيولوجي (الإحيائي)، ولا يمكن اقتراض رأس المال الذي يبده الإنسان المعاصر في معظم الحالات بأسرع من الوقت الذي تكون فيه أصلاً، ورغم ذلك فإننا نبذده في فترة تراوح ما بين عشر وواحد على مليون من زمن إنتاجه.

هل ندري أن السيارات في الولايات المتحدة تحرق من البترول في عام واحد ما يزيد عما جمعه حقل ألاسكا البترولي في مائة ألف عام.

وهل ندري أن ما ينقرض من أنواع الكائنات الحية في الغابات الاستوائية كل عام في هذا الزمان، يزيد عما يمكن لعملية التنوع أن تحققه في مليون عام. وأنا أعتقد أن (الزراعة) تعتبر النقطة الفاصلة التي مكنت الإنسان من تغيير بيئته بشكل مؤثر، فكان ابتكار الزراعة أساس نجاح البشرية في تكيفها مع العالم الخارجي، وتحويله إلى مكان أكثر ملاءمة لحياة الجنس البشري، لكنها أي الزراعة اليوم هي مصدر من كبريات مصادر التلوث البيئي.

■ هل يعني حديثنا السابق أن الموضوع مرتبط بضعف إدراك الإنسان لخطورة المشكلة البيئية؟

أعتقد أن عقولنا القديمة تقودنا إلى إهمال اتجاهات خطيرة، واتخاذ قرارات يومية غير صائبة.

والسبب أن العالم الصغير الذي تخلفه أجهزة الإعلام يعزز العقل القديم في تشكيل خططه، فالمشاهد العادي للشاشة الصغيرة يرى مئات عمليات القتل، ولكنسه بشكل لها تخطيطاً أعنف من الواقع، فالتلفاز يخطط أو ينمذج المجتمع، وعقولنا نخطط ما نراه بالتلفاز، والناس يهتمون بالأخطار الثابتة المألوفة في الحياة اليومية، حتى تلك التي تهدد بالموت.

والنتيجة في رأينا، أن الموت غير ضروري، وأن العيش على حافة القناء في بيئة اليوم ليست سوى ثمن ندفعه لأننا لم نتكيف مع العالم الذي صنعناه أي البيئة التي أبدعها الإنسان لنفسه.

وإذا ما استمر عمى العقل تجاه التغيرات البيئية (الطبيعية والاجتماعية والثقافية) المتسارعة، فلسوف نصل في نهاية المطاف إلى نشرة جوية نقول (السماء صحو ما عدا بعض الانفجارات النووية المتفرقة بالمناطق الشمالية الغربية مع احتمال سقوط الجليد في غير أوانه لفترة تصل إلى بضعة شهور).

حقيقة الأمر أن هذا ليس بغريب مطلقاً، فقد أشرت في المجلد الثاني من الموسوعة البيئية المرجعية، إلى القضايا المذهلة التي ستنمخص عن حدوث كارثة نووية لا سمح الله، وخاصة في عصر الرعب الحالي حيث الترسانة النووية لم تعد تحت الرقابة الصارمة، ولم تعد تتفق على صيانتها آلاف الملايين حالياً.

وهنا أشير إلى ضرورة تغيير عقليتنا، وأسلوب تفكيرنا، ونهتم بالجور قبل المظهر.

■ وما هو طريق الخلاص، أو ما يجب اتباعه والقيام به للحفاظ على بيئتنا

المشتركة (كوكب الأرض)؟

هذا هو بيت القصيد، أعتقد أن جوهر الحل مرتبط بمرونة العقل وتدريبه. إنني أعتقد من خلال خبرتي المتواضعة في الإطار البيئي والتي تمخضت عن تأليف موسوعة بيئية مرجعية هامة، أن المحور الأساسي للحل، هو البدء بتغيير حقيقي يعتمد على مرونة العقل البشري وقابليته للتدريب. إن التحول الواسع النطاق إلى العقل الجديد قد يأتي في النهاية طبيعياً مع التطور الحضاري.

صحيح أن البشرية قد أحرزت نجاحات سريعة نتيجة وجود إدراك عام، وجدل عام، وقرار بالعمل الجماعي من قبل فئات اتسمت عقولها بالمرونة ومسايرة التغيرات، إلا أنني أرى أن عاملاً أساسياً آخر قد لعب دوره في إدراك المشكلات البيئية العالمية الكبرى، وهو التعاضد بين الجانبين العقلي والروحي فكان هذا أحد منطلقات النجاح لعدد من الحركات البيئية في العالم.

إنني في هذا المجال، ومن أجل تنمية تفكير مرن جديد وعقلية جديدة قادرة على التلاؤم مع التغيير، أرى الأمر:

يتطلب ثورة في طرق تربية الجيل، ويتطلب ثورة في طرائق التدريس التي ندرس بها، لأن من المعروف أن التعليم يغير من تركيب عقل الطفل، فإما هي الكتابة والحساب التي يدرسها الجميع، ليست من أفعال العقل الفطرية، وإنما هي تحولات أساسية للطريقة التي يعمل بها الجهاز العصبي.

إن مراكز المخزون بالعقل تختص بالكلام والاستماع، لكن التعليم ينمي صيغاً جديدة في مخ الطفل، تشكل عقلاً جديداً قادراً على القراءة والكتابة.

والمقصود هنا أن نتساءل قائلين: ترى لماذا لا نفيد برمجة مخزوننا في بناء عقل جديد أو فكر جديد يتوافق مع حاجات العالم الجديد، البيئة المعاصرة؟.

والجواب: إننا بحاجة بالفعل إلى تربية من أجل عقل جديد من خلال مناهج جديدة، وعندها يستطيع الناس توجيه انتباههم إلى مخططاتهم للواقع وإلى العالم

الجديد نفسه.

عندئذ فقط يتمكنون من التفرير الصحيح لنتائج أفعالهم في العالم.
وهنا أعني أننا نريد تربية عصرية تتبنى أجيال مجتمع مدربة على مواجهة
تحديات بيئية تتغير بسرعة.
ولا ننسى أن الطبيعة البشرية تتغير خلال سنوات قليلة من عمر المجتمع،
فتغير مخزون العقل الجاهز لن يحدث إلا بخطوة التطور البيولوجي البطيئة.
وليس ثمة طريقة سهلة للخلاص من الورطة البشرية، لكن قد تكون هناك
فرصة للعقل الإنساني كي يبدأ بداية جديدة.

■ إذن ما هو المنهج التطبيقي الذي ترويه لحل المشكلة؟

المنهج التطبيقي الذي أراه مناسباً للخروج من أزمة الإدراك البيئي في المجتمع
يتلخص في اللجوء إلى تطوير بعض القدرات الذهنية العديدة والمتنوعة القابعة
داخلنا، فإذا عرفنا طريقة تفكيرنا، وعرفنا بنيان عقلنا عرفنا حينذاك كيف نتغلب
على العجز المألزم لعقلنا ونحيزاتنا.



د. إبراهيم الكيلاني:

حقق فرائد التراث، وعلم الأجيال حب اللغة العربية

في أمسية أدبية انعقدت مؤخراً بحضور حشد من الباحثين والمهتمين بشؤون الثقافة، تقدم الشيخ الوديع بخطي متمهلة، واتخذ مجلسه بين الحضور مصغياً على المحاضرة بشغف واهتمام بالعين.

تفرست في الوجه الأليف أتبع آثار السنين، فرأيت السمات الإنسانية الرقيقة التي عرفتھا من نصف قرن: العينان متألقتان خلف النظارة بنور شفاف، واقتراة المحيا رقراة على غضون الجبين، والقامة الناحلة ذاتھا منتصبه برغم أثقال الأيام، ها أنذا بعد عمر من الغربة أصافح بغامر سعادتي الأديب الموسوعي د. إبراهيم كيلاني، وأستعيد في خاطري قديم لقاءاتي به، طالباً وباحثاً ومهتماً بالفكر والتراث، وقد بهرني دوماً بما عرفته عنه وبالذات ما يمثلھ من مكانة أدبية مرموقة، وما أداه للفكر من إنجاز متميز.

استعدت صفحات كتابه "الوجيز في الأدب العربي" الذي ألفه بمشاركة فريق من مجاليه أساتذة الأدب واللغة، وحدثته يومها أنني - مثل أترابي - تتلمذت على ذلك الأثر الأدبي البديع، وقد لفتني بإعجاب بالغ في ذلك اللقاء حديثه اللطيف وبديته الحاضرة، وإطلاعه العميق، وقبل ذلك كله تواضعه الرفيق، وتأكدت أن هذه الصفات السامية لا تكون إلا لعالم واسع الثقافة، ومرتب متور نبيل، وأتيح لي أن أتبع مسيرته من المحطة الأولى.

رحلة عطاء طوال نصف قرن:

ولد الدكتور إبراهيم الكيلاني في دمشق عام ١٩١٦م، وتلقى علومه الابتدائية والثانوية فيها، وبعد نيّله شهادة التعليم الثانوي، تابع دراسته العليا في باريس، فنال

الإجازة الجامعية عام ١٩٣٧، وعاد إليها من جديد عام ١٩٤٨ ليحصل من السوريين على الدكتوراة في الآداب، وكان موضوع أطروحته: أديب العرب الرائد "أبا حيان التوحيدي".

رجع الدكتور الكيلاني إلى الوطن وتنقل بين مدارس دمشق الثانوية يعلم الأدب واللغة العربية، فوجد فيه تلامذته أديباً موسوعياً يعطيهم من ينبوع ثرّ، وقد سحرهم بلغته الجزلة وأسلوبه البليغ، حين راح يعرفهم على مواطن الجمال في اللغة العربية، من خلال الشواهد المتألقة من النثر والشعر التي كان يختارها لهم بمهارة المنقّب الخبير بجواهر التراث الفكري العربي.

وأسندت له لعدة سنوات مهمة الإشراف على تحرير مجلة "الآداب الأجنبية"، واختير عضواً في هيئة تحرير مجلة التراث العربي، ولم يمنعه عمله الجاد في هذه المهمات من مواصلة مسيرته الغنية في التأليف والتحقيق والترجمة، فأنفق سنوات عمره ساهراً وراء مكتبه يقدم لقرائه ثمرات فكره اليناعة: ٢٥ كتاباً في السيرة والأدب والنقد، من بينها: الوجيز في الأدب العربي، عبقریات شامية، الأوراق، شخصيات وصور أدبية، أسمار وأحاديث، أدبيات من العرب، أدباء من الجزائر، محمد البرم شاعر العربية، أحمد الصافي النجفي، وغيرها.

التراث العربي في حلة زاهية:

كان "أبو الحيان التوحيدي" رفيق الباحث المحقق من بداية تعرفه عليه خلال تحضيره لرسالته الجامعية، فجعله محور عمله في تحقيق التراث ... كانت آثار "التوحيدي" الكثيرة مخطوطات لم تمتد إليها يد لترقع الستار عن مكوناتها لثمينية، ولم يتهيأ لها العقل المبدع المجند لمراجعتها وتدقيقها، فتصدى "الكيلاني" للمهمة بدأب واضح، وسهر على الصفحات سنوات طويلة يعيد لها الألق ونبض الحياة، ويقدمها لقراء العربية في حلة زاهية من اللغة الراقية، والأسلوب المتدفق والدقة العلمية، ثم بخرجها لتكون ثمرة من كنوز التراث الخالد: مثالب الوزيرين "الصدقة

والصديق، الإمتاع والمؤانسة (في مجلدين)، البصائر والذخائر في سبعة مجلدات، إضافة على رسائل التوجيهي العديدة، وما كتبه عنه بالعربية والفرنسية. وتنفق عطاء الباحث المدقق د. كيلاني في مجرى آخر هو الترجمة عن الفرنسية، وقد أتاح له إطلاعه الواسع على آثار المفكرين الفرنسيين أن ينقل إلى قراء العربية عيون المؤلفات في الأدب والفن والمسرح، وبالذات ما اتصل منها بالأدب العربي، فبلغت حصيلته منها كتاباً من أبرزها: مجلدات تاريخ الأدب العربي لبلاشير، وتاريخ السينما في العالم لجورج سادول، الغزل عند العرب لجان كلود، الأدب الجزائري المعاصر لجان ديجو، النقد الكلاسيكي: "أعلامه وأصوله" لا ليرتيوديه، ومسرحيات لمالرو وبانيول ورومان، وسير أعلام ورجال فكر.

شهادات الأوفياء في حفل التكريم:

كان د. كيلاني يتابع نشر هذه الروائع بنشاط وشغف بعيداً عن الأضواء والمظاهر، مكتفياً بما يخلفه أداء الرسالة في نفسه من رضى وسعادة، وظل ذلك دأبه في سائر مراحل حياته وحتى في شيخوخته المهيبة، وفي الحفل المشهود الذي نظمته مجلة الثقافة الدمشقية ووزارة الثقافة تكريماً لمسيرته وعمله الخلاق، جلس الأديب المتألق منصتاً بحياء واضح إلى كوكبة الأدباء والشعراء يقدمون شهاداتهم فيه.

قال بديع حقي: "علمني إبراهيم أن الصداقة أئمن من الحب، لأن الحب يأخذ ويستبد ويستأثر، في حين أن الصداقة تبذل وتعطي بلا مقابل، ويظل الوفاء الخالص، الصفة الثابتة الراسخة في خلق الكيلاني".

وصدحت الشاعرة "سعاد ميرزا" تخاطبه:

"يا حاملاً أدباً يفوح أريجيه في كل شبر من ثرى أوطاني

يكفيك فخراً أن تكون منارة للعلم ... للتاريخ، للأزمان
فندت أفكار الألى صنعوا العلى وسموت في علم على الأقران
وتركت للأجيال هدي خطاهم حين اعتليت مدارج العرفان

وترقرقت دمة في عيني الأديب الكبير، أخبرت حضور المهرجان بأن جهد
الكيلائي لم يذهب هباء، وأن غرسه القيم أعطى ثماره الياقة للجميع، وذلك حسب.

في أعماق شخصيته طبيعة فنان وأديب أصيل..

لا يكاد أحد من المثقفين ودارسي الأدب يجهل الدكتور إبراهيم الكيلاني، فقد تخرجت به وبآثاره أجيال عديدة وسيرته العلمية طويلة حافلة: تحصيلاً مبكراً للعلم وعملاً دائماً فيه: تدريساً وتأليفاً وتحقيقاً وترجمة وإشرافاً علمياً في مؤسسات ثقافية، وهو بهذه السيرة الفنية المتعددة الجوانب أحد وجوه الثقافة العربية الحديثة في سورية وفي الوطن العربي.

أحرز الدكتور شهادتي الابتدائية والثانوية في دمشق، وكان لدراسته في المرحلة الثانوية في المدرسة العلمانية "اللايك" أثر في تمكنه من اللغة الفرنسية استطاع معه أن يتابع المرحلة الجامعية في باريس موفداً من الحكومة السورية. فأحرز الإجازة العامة في الآداب "الليسانس" سنة ١٩٣٧ ثم الدكتوراه من جامعة السوربون سنة ١٩٤٨ بدرجة الشرف الممتازة.

أشرف على إدارة الدروس العربية في اللايك منذ وقت مبكر، إلى تدريسه الأدب العربي فيها وفي ثانويات دمشق.. حاضر في الجامعة السورية "جامعة دمشق الآن" أستاذاً للأدب العربي ثم أستاذاً لمقرر اللغة الفرنسية في أواسط الستينيات من القرن العشرين، وقد رشحه علمه الواسع بالآداب الأجنبية فوق علمه بالأدب العربي، لأن يكون مديراً للفنون والتأليف والترجمة بوزارة الثقافة، ورئيساً لتحرير مجلة الآداب الأجنبية لمدة سبع سنوات إلى عضويته في هيئة تحرير مجلة التراث العربي وهما مجلتان يصدرهما إتحاد الكتاب العرب.

نال الجائزة التقديرية من اتحاد الكتاب العرب ١٩٩٣، وكان مجمع اللغة العربية بدمشق قد رشحه لجائزة الملك فيصل العالمية، ذروة معاني التقدير والتكريم التي لقيها الدكتور الكيلاني وسام الاستحقاق وهو نهاية الشوط في تاريخ حياته الخير المثمر.

وجوه التميز:

بعض أعمال الدكتور إبراهيم الكيلاني، وهي تعد بالعشرات - كاف لإدراج اسمه مع الأسماء الكبيرة في تاريخ الثقافة العربية الحديثة، وفي هذه الأعمال من وجوه التميز ما هو جدير بانتباه الباحث والمنصف وتقديره. ولا ريب في أنه بمجموعها قد عملت عملها في تكوين صورة عامة له في الوجدان المعاصر. ومن أشهر هذه الوجوه عند القارئ العام وعند الباحث المتتبع على حد سواء وجهان اثنان:

- اقتران اسمه باسم أبي حيان التوحيدي، دراسة له وتحقيقاً لأثاره.
- واقتران اسمه مترجماً مبدعاً لبعض الكتب ذات الشأن في تاريخ الأدب العربي وفي الثقافة الإنسانية عامة.

أما أبو حيان فمعه الدكتور به قديم، وقد كانت رسالته للدكتوراه التي قدمها في السوربون عن أبي حيان وهي أول دراسة جامعية عالية عن الرجل في العالم العربي /فيما نعلم/ وثاني اللغات جاد موسع إليه سبقه إلى التتويه بأبي حيان المحقق المصري حسن السندوبي، حين أخرج كتابه "المقابسات" وقدم له بمقدمة أظهرت مكانته وفضله، ثم تتابع الاهتمام بأبي حيان في العالم العربي بعد ذلك.

رسالة الدكتور عن أبي حيان بالفرنسية لم تترجم إلى العربية بعد، إلا أنه ضمن لبابها كتاباً آخر لطيفاً بالعربية عن أبي حيان.

أول آثار أبي حيان التي نشرها الدكتور: ثلاث رسائل له وهي "رسالة السقيفة" و"رسالة في علم الكتابة" و"رسالة الحياة" نشرت في كتاب واحد بالمعهد الفرنسي بدمشق ١٩٥١.

ثم عكف الدكتور على طائفة من أعمال أبي حيان الكبيرة فأخرج "مثالب الوزراء" ١٩٦١ و "الصدقة والصديق" ١٩٦٤، و "البصائر والذخائر" في ستة مجلدات عام ١٩٦٤ وما بعده. وهو أكبر آثار أبي حيان المعروفة، وقد اتسعت دائرة العلم بأبي حيان عند القارئ العربي بما أخرج الكيلاني من آثار، وكانت هي المرجع في دراسة أبي حيان إلى أن صدرت لبعضها طبعات أوثق وأتم كما هو

الشأن في تاريخ العلم كله، باقياً للرواد مع ذلك فضل ريادتهم وسبقهم وتقدمهم.
أما عمله في الترجمة فهو اثر من آثار موهبته الأدبية وعلمه عامة وتمكنه من
الفرنسية كما تقدم، ورغبته في أن يخدم العربية بنقل جملة من أكابر الأعمال إليها
في نطاق الاستشراق وفي غيره.

وهكذا فقد ترجم "الجاحظ" لشارل بيللا، و"تاريخ الأدب العربي" في ثلاثة أجزاء
لبلاشير و"المنتبي" لبلاشير أيضاً، و"الغزل عند العرب" في جزأين لجان كلود،
و"الأدب الجزائري المعاصر" لجان ديجو، وترجم خارج نطاق الأدب العربي كتاب
جورج ساندول "تاريخ السينما في العالم" مع الباحث فايز كم نقش وغير ذلك.
والقول في علم الدكتور الكيلاني وأنبه يتسع لكثرة آثاره وتنوعها، وقد سر
رحمه الله حين أخبرته منذ سنوات قليلة إن وقفت مصادفة على نسخة من كتابه
"أصول المراسلات التجارية" المطبوع في دمشق سنة ١٩٣٩!!

صورة مجملة:

لا يخطئ من عرف الدكتور الكيلاني معرفة عن كُتب ووقف على شيء من
آثاره أن يتبين فيما وقف عليه ملامح شخصية أدبية مطبوعة اكتملت لها أدواتها
بالاطلاع الواسع المستمر .. من حضور ذهن ودقة ملاحظة ورعاية نفس وأفق،
تسهل معها ملاحظة المعاني الإنسانية في منشآت الأدب والفن، إلى جمال العبارة
وشغافية دلالتها على المعنى الذي تجيش به النفس أو يلمح الفكر.
وبموهبة المطبوعة وباطلاعه الواسع أشرف على قديم الآداب ومحدثها،
شرقيها وغربيها باقتدار مرهف واحد.

وبهذه الموهبة وهذا الاطلاع أقبل منذ وقت مبكر على قدره الأدبي بخطا جادة
ثابتة، فنشر في "الرسالة" أشهر مجلات الثقافة والأدب في العالم العربي، وقد قال
ذات مرة بأعداد خفي وباطف وظرف معروفين فيه: (من نشر في الرسالة شيئاً فقد

تكرس أدبياً وبطبيعة الحال أنت تستطيع بسهولة أن تصل إلى النتيجة المطلوبة لهذه القضية المنطقية.

وبانغماس الدكتور في عالم الأدب كان مراسلاً أدبياً لمجلة "الكتاب" التي كانت تصدرها دار المعارف "١٩٤٥-١٩٥٣"، وهي مجلة فكرية وأدبية راقية كسان رئيس تحريرها الأديب الشاعر المجود عادل الغضبان، وكانت - كالرسالة - ملتقى أقلام كبار الكتاب في مصر والعالم العربي.

وفي أعماق شخصية الدكتور طبيعة فنان ككل أديب أصيل، مع ميل إلى السخرية المرفهة التي يولدها الانتباه الحاد للمفارقات. وأحسب أن ميله إلى هذا الضرب من السخرية هو الذي قرّب ما بينه وبين أبي حيان، لا مجرد العطف عليه أو التعاطف معه لما لقي في حياته من بؤس وشقاء كما ذكر هذا مرة في بعض مساهمات كتبه.

وطبيعته الفنية هذه وانتباهه الحاد للمفارقات في أطواء المعاني، هما اللذان جعلاه قارئاً للنص يكاد يكون مسرحياً، وقد شهد منه هذا النوع من القراءة طلابه القداماء في جامعة دمشق حين كان يحاضر في أبي حيان ويقرأ من نصوصه ما اقتضاه المقام.

وبهذه الطبيعة الفنية الأصيلة والشباب الهاجع في موضع بعيد خفي من نفس كل فنان، كان منه ذلك المشهد في حفل تكريمه الذي أقامه له الأستاذ مدحت عكاش بالتعاون مع وزارة الثقافة، وقد شهد منه الحاضرون حينذاك مشهداً عجباً إلا أن مثله في أصحاب المواهب ليس بنادر ولا عزيز: أقبل العالم الأديب الشيخ ابن التمانين على المنبر كما يقبل عليه من كان في سنده. حتى إذا تمكن من نفسه وأخذ في حديثه نفّض عن نفسه غبار السنين، وأنهدم الزمن بوثبة نفس واحدة وتطابق الأداء الحي الكامل الحياة مع الفن الشاب أبداً الذي تشتمل عليه نفسه الأصيلة، وعبر الرجل عن نفسه في مشهد بديع متفوق.



د. أحمد منيف العائدي:

الإنسان العالم والطبيب، والمربي، والاقتصادي في رجل واحد...

يقاس تقدم الأمم ورفعتها بعباء أبنائها الصادق، وتضحيات قادتها، كما تقاس عظمتها وسموها بوفائها لرجالها المخلصين، الذين نذروا حياتهم لتقدمها ونهضتها، وحينما تحيي الأمة تاريخ عظمائها وأعلامها فهي تذكر بعطائهم، وتقدمهم للأجيال الجديدة، قدوة صالحة تسير على نهجها، وتواصل العمل والبناء، وتمضي إلى تحقيق الأهداف النبيلة بجد وإخلاص، كما تؤدي الواجب الوطني على وجهه الأمثل.

إن سجل سوريا الذهبي يضم صفحات ذهبية كتبها الرجال الأفاضل بصدق الإيمان ونقاء المحبة، ورفعة الإيثار، وسمو التفاني، لتكون سوريا وطناً للحق والخير والسعادة في كل ميدان وزمان ... وهنا نقم سطوراً من سيرة رجل وطني قدير عمل، بجد وصمت وشجاعة في تنشئة الأجيال التي تقوم عليها أركان الأمة في ميادين الطب والعلوم والسياسة والاقتصاد والإدارة وسواها، هذه الأجيال التي تربت على يديه منتشرة في مختلف المدن السورية وفي البلاد العربية، فمنهم من رجل بعد أن أدى واجبه نحو وطنه وأمته، ومنهم من لا يزال يعمل بجد ونشاط وإخلاص في دعم المبادئ والتعاليم الوطنية والقومية، التي تلقوها على مقاعد الدرس وكانت لأعمالهم آثارها البارزة في كل مجال.

بداية المسيرة:

ينتمي الدكتور أحمد العائدي إلى أسرة عربية عريقة يعود أصلها إلى فخذ من جذام جاء على مصر مع عمرو بن العاص عند فتحها، نزلوا قريباً من القاهرة،

وكان كبيرهم شيخ العرب إبراهيم العائدي مسيطراً على قبيلة العائدي حتى زمن الاحتلال الفرنسي، وفي مصر العربية منطقة واسعة تدعى كفور العائدي تتوارث فيها الإمارة كابرا عن كابر، إلى أن كان رأسها المرحوم محمد العائدي الذي رافق إبراهيم باشا في حملته على بلاد الشام، وبعدها طابت له الإقامة في دمشق وأنجب فيها الأولاد، وكان أحدهم عثمان الذي اختار زوجة من أسرة عريقة هاجرت من ليبيا على أثر الاحتلال الإيطالي، أنجبت في (١٨٨٦) ولدها الأول (أحمد) فتربى تربية مثالية.

ترعرع العائدي في أحضان أبويه، وكان لأمه الحكيمة قسط كبيراً في تربيته الصالحة، فأخذ يزداد نموه ويكبر وعيه مبكراً وعندما بلغ سنة الثالثة أحجم أبوه عن إرساله إلى الكتاتيب، لأنها لم تكن أكثر من ملجأ يحضر فيه الأطفال الصغار الذكور والإناث، يجلسون على أرض مفروشة بالحصير وليس فيها شيء من أسباب النظافة ولا من أسباب التربية والتعليم، فأخذ والده بتربيته في الدار على يد مربية صالحة، حتى إذا بلغ السادسة من عمره دخل المدرسة الأميرية فلاحظ أهله ومعلموه ملامح الذكاء عليه، فأضافوا إلى اسمه الأول (أحمد) كلمة (منيف) وصار اسمه أحمد منيف، وبعد تخطيه المرحلة الابتدائية نقل إلى المدرسة الإعدادية الوحيدة في دمشق آنذاك ومنها انتقل إلى الدراسة الثانوية، وفي الخامسة عشرة من عمره أبدى ميولاً لدراسة الطب فالحق بمدرسة الطب التابعة لمدرسة الطب في اسطنبول، وقد أرسلت إليها الحكومة العثمانية أفضل الأساتذة فتابع دراسته فيها بنجاح، ولاحظ أساتذته حدة ذكائه مما حمل أستاذ الفيزيولوجيا على اختياره لمساعدته في الدروس السريرية، وصار يتردد على شعبي الأمراض الداخلية وأمراض الأطفال في المستشفى الوطني، والمستشفى العسكري، حيث تقام الدروس السريرية، وهكذا جمع بين دراسته وعمله مساعداً لأستاذ الفيزيولوجيا، وبين تدرسه على قسمي الأمراض الداخلية وأمراض الأطفال، غير أنه أكمل دراسته في كلية الطب بجامعة اسطنبول، ونال منها شهادة الدكتوراه عام ١٩٠٦ وعاد يمارس الطب

في عيادته، وعند قيام الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ ألحق الدكتور أحمد منيف طبيباً عسكرياً في الجيش التركي، ولما كان ضليعاً في الفيزياء والتشريح فقد تم تكليفه بتدريسها لطلاب المدرسة الحربية، واستمر كذلك إلى أن نفيت أسرته إلى أقصى بلاد الأناضول.

المساهمة في الجمعيات الوطنية السرية أيام الأتراك:

عمل أحرار العرب الوطنيون الناقمون على الحكم التركي، وعلى الظلم والجهل والفساد وعلى الأسلوب الغاشم الذي كانت تتبعه السلطات العثمانية ضد الجمعيات الوطنية التي تعمل لنيل الحرية والخلاص من الحكم العثماني، فتألفت جمعية الإصلاح الوطني النمشقية، وكان أحمد منيف العائدي أحد أركانها ومؤسسيها، ولكثرة عيون الرقباء من جواسيس الحكام الأتراك إنسل فريسق من أعضائها إلى فرنسا، فتأسست في باريس (جمعية سورية الفتاة) التي أخذت تنشر المقالات الوطنية وتحت فيها على مقاومة الحكم العثماني.

تأسيس المعهد الطبي العربي:

بعد مداولات بين المسؤولين في ذلك العهد وحرصاً على البدء بتأسيس الجامعة السورية المستقلة تمت الموافقة على تأسيس مدرسة لتعليم الطب باللغة العربية تدعى مدرسة الطب العربية، غير أن هذه التسمية لم تدم طويلاً فاتخذ لها اسم المعهد الطبي العربي وقد تألفت لجنة من خمسة من كبار الأطباء من بينهم الدكتور أحمد منيف العائدي، وأخذت هذه اللجنة تدعو من الأطباء من تتوسم فيهم الاستعداد للمشاركة في الانضمام إلى هيئة التدريس، واختارت للجنة المؤسسة الأماكن التي تصلح للدروس والمخابر، أما الأستاذ العائدي فقد أسند إليه تدريس الفيزيولوجيا إضافة لإدارته الكلية العلمية الوطنية، وقيامه بتدريس أمراض الأطفال، وبتنظيم برامج التدريس الأسبوعية فوق دروسه المشار إليها إذ كان خبيراً بهذا التنظيم،

ونظراً لخبرته في الفيزياء أسند إليه كذلك تدريس الطبيعة الطبية لطلاب السنة الثالثة، كما أنه قصد باريس عدة مرات وكان يعود بجديد في كل مرة، فألف بعد عودته الثانية كتابه "الطب التجريبي وأمراض الأطفال"، وكان تدريسه لعلم الغرائز ينقسم إلى قسمين: النظري والعملي.

الدروس السريرية في طب الأطفال:

مارس الأستاذ العائدي في عيادته الخاصة الطب الداخلي وطب الأطفال الذي يتمرن عليه في المستشفى التعليمي منذ كان طالباً، فأسند إليه حين تأسيس المعهد الطبي العربي تدريس أمراض الأطفال، فأتخذ جناحاً في المستشفى التعليمي الوحيد وجهزه بأسرة صغيرة للرضع، وبأسرة كبيرة للأطفال من سن الثالثة حتى العاشرة، وكان يعرج بعد أن ينهي درسه العملي في مخبر الفيزيولوجيا على جناح الأطفال في المستشفى الوطني، فيقوم بفحص الأطفال ويطلع على مجرى معالجتهم ودرجة نموهم وسيرهم نحو الشفاء وبعد أن يطمئن إلى حسن سير العمل في جناح الأطفال مع الطلاب الذين استمعوا للدرس، ينصرف إلى أعماله الكثيرة الأخرى إذ لم يكن يضيع دقيقة واحدة دون عمل مثمر، كما كان يعالج كل الأمور المعروضة عليه بحنكة ونظام وحزم.

الرحلات العلمية:

اتخذ القرار بندب الدكتور العائدي للسفر إلى باريس للاستزادة من علوم الفيزيولوجيا وما استجد فيها، فسافر إليها عام ١٩٢٠ وتابع الدروس النظرية والعملية لدى الأستاذ الكبير (شارل ريشة) وقضى في إطلاعه نحو ستة، ثم عاد ليشرف على التدريس في المعهد الطبي من جديد، وقد ازداد معرفة وتجربة بهذه الرحلة العلمية الأولى.

وبعد سنوات رغب بمزيد من الإطلاع على ما استجد في علوم الفيزيولوجيا،

فسافر إلى باريس في السنة الدراسية عام ١٩٣١ مزوداً بقرار من مجلس المعهد الطبي للاستزادة في اختصاصه، وفي دراسة الطب التجريبي، وقد أقيمت له قبيل سفره حفلة وداعية حضر فيها زملاؤه وبعض طلابه الأدباء والشعراء وسافر مودعاً بالحفاوة، ثم عاد إلى دمشق داعياً الأستاذ الكبير (شارل ريشة) الذي ازدادت بينهما الصداقة خلال إقامته هناك، ولبي الأستاذ الدعوة بعد فترة وحل ضيفاً فسي رحاب الدكتور العائدي.

تعريب الطب:

رأى الدكتور العائدي أنه لا مستقبل لأمنته إن لم تعلم أبنائها كل العلوم بلغتهم، لاسيما وأن هذه اللغة تعتبر اليوم من أوسع لغات العالم، وأنها لغة غنية بقواعد الاشتقاق لتستوعب كل المفردات الجديدة التي يستلزمها العلم.

انطلق الدكتور العائدي من مركزه كطبي متمكن، وكونه أحد مؤسسي المعهد الطبي العربي يعمل هو وكل كوكبة العلماء الأطباء المؤسسين في هذا المجال حتى نجحوا، ولكن بقي الاعتراف بذلك من الوسط الطبي العربي والدولي، ولتكون لشهادة المعهد الطبي العربي في دمشق قيمة لا تقل عن شهادات يسوعية بيروت، والجامعات الأمريكية في المشرق العربي والجامعة المصرية، وكان لابد لذلك من جهد دؤوب، فباشّر الدكتور العائدي الاتصال بالأطباء المصريين الكبار وأقنعهم بذكائه وحميته بأن يأتوا إلى دمشق لعقد مؤتمرهم السنوي ... وقد عقد هذا المؤتمر بدمشق عام ١٩٣٦ وجمع أبناء مصر والعراق وفلسطين ولبنان وسورية، وسمي (المؤتمر الطبي الأول)، ومنذ ذلك الحين اعترف المصريون والعرب كلهم بالطب السوري وبالشهادة التي يمنحها المعهد الطبي العربي.

العمل الاقتصادي:

كان الدكتور أحمد منيف العائدي أحد الرواد الذين يجربون، ووجد بحق أن سورية بلد زراعي، فاندفع مبكراً ورائداً في زراعات متنوعة ولاسيما زراعة القطن الذي أصبح اليوم أحد أعمدة دخلنا القومي، وفي الصناعة المكملة لهذه الزراعات أهتم بصناعة حفظ الخضار والفواكه وتعليبها نظيفة ومعقمة وقابلة للتصدير، مما يرفع ثمنها ويدخل المزارعين الذي يعملون في مجالهم التقليدي وتم ذلك عام ١٩٣٤.

العمل الزراعي:

اتخذ الدكتور العائدي مشروعاً زراعياً في إحدى قرى الغوطة، وبالنظر لأعماله الكثيرة فقد عاونه ابنه الدكتور عدنان في الزراعة كما في إدارة مدارس العلمية الوطنية، وكان ابنه قد أتم دراسته في الجامعة الأمريكية في بيروت، كما نال شهادة الدكتوراه في التربة وعلم النفس من جامعة السوربون في فرنسا. ولم يرغب الدكتور أحمد بالتقاعد بعد بلوغه الستين من عمره، فقرر إقامة مشروع لزراعة القطن، واتخذ لذلك أرضاً واسعة في بطاح منطقة الحولة المشرفة على فلسطين، ولكن لحساسية تلك المنطقة وأخطارها، تحول من زراعة القطن إلى غيرها من الأعمال المجدية المثمرة والتي هي جزء لا يتجزأ من نشاطاته العديدة.

مدارس الكلية العلمية الوطنية:

لم تكن توجد في دمشق مدرسة أهلية، وكانت السلطة التركية قد سمحت بتأسيس المدرسة العازرية، غير أن عائلات دمشق المحافظة أحجمت عن إرسال أبنائها إليها، ولما لم تكن السلطة التركية راغبة بتعليم أبناء العرب، هب فريق من كرام الوطنيين الأفاضل للعمل على تأسيس مدرسة أهلية وطنية، وأقر المجتمعون أن يعهد بإدارة المدرسة وتسلم جميع شؤونها إليه، وبدأوا بتنفيذ المشروع دون أن يخشوا ما كان يبيته الحكام آنذاك، فعهد الدكتور العائدي إلى نقل المدرسة إلى دار

كبيرة واسعة وحازت المدرسة على ثقة الأهالي الذين أخذوا يدخلون أبناءهم فيها لما لمسوه من النتائج التي حققها لدى التلاميذ المنتسبين إليها، وبعد توسع المدرسة وانتساب أعداد كبيرة إليها قام الدكتور العائدي ببناء جناح خاص كبير وداخلي يتسع لما يقرب من مائة تلميذ.

وقد تولت التعليم والتوجيه في الكلية العلمية الوطنية كوكبة من أقدر الشيوخ والمربين العلماء، ومن بينهم: الشيخ عبد القادر المغربي، والشيخ جميل الميداني والشيخ كامل القصاب، والدكتور عبد القادر العظم، والشاعر سليم الزركلي، والشيخ راشد القوتلي، وشاعر الشام: خليل مردم بك، والمجاهد الوطني عثمان الحوراني، والأديب المحقق: منير العجلاني، وأعلام الخط العربي: ممدوح الشريف، وبدوي الديراني، وحلمي حباب، والأساتذة الأجلاء: عابدين حمادة، وأيوب النقي، عبد الله رضوان، رشيد بقونس، خيري الطرزي، محي الدين القضماني، لطفي طالو، شوكة الطرزي، وغيرهم من أعلام الأدب والعلم والفكر والتوجيه الفكري والوطني...

كلية البنات:

كانت كلية الذكور موضع ثقة الأهالي وأعجابهم، إذ زاد عدد التلاميذ فيها على ألف تلميذ، ولذلك تقدمت مجموعة من الأهالي الحريصين على تعليم بناتهم في مدرسة لائقة وموثقة يطلب إلى الدكتور الأستاذ العائدي لتأسيس مدرسة أو كلية للإناث على غرار كلية الذكور، فقام العائدي بتلبية طلب الأهالي، وأقام الكلية على أحدث الطرق، واستقدم للتعليم والإدارة بعض الاختصاصيين والاختصاصيات بشؤون الإدارة والتعليم من البلاد الغربية، واتخذ جناحاً كبيراً للإناث في القسم الداخلي، وكانت العناية كبيرة في سائر الفروع التعليمية مع العناية الكبيرة في تعليم اللغات الأجنبية على أحدث طرق التعليم، وكان قد تأسس فرع للحضانة تشرف عليه معلمة أجنبية قديرة أقبل الأهالي على تسجيل أطفالهم فيها.

الخريجون الأوائل:

لقد تخرج جيل كامل من الناجحين على يد الدكتور أحمد منيف عثمان العائدي، وبرز الكثير من الأطباء والأساتذة من أبرزهم: عبد الحميد دياب، الأستاذ عادل الخجا، الدكتور مدحت شيخ الأرض، الأستاذ خالد بوظو، الدكتور رشدي الجابي، أنور الدسوقي، الدكتور جمال الدين نصار، الصيدلي سعيد الرشاش، الشاعر الكبير نزار قباني، الدكتور عزة مريدن، الشاعر عدنان مردم بك، د. صباح قباني، د. يديع الكسم، د. يسار البيطار، المهندس موفق الميداني، د. صلاح الدين المنجد، عبد الحميد دركل، كمال فوزي الشراي، وعبد الغني العطري، وغيرهم كثيرون من أعلام الوطن وقادة للرأي ورواد الحركة العلمية والاقتصادية.

أبناء الدكتور أحمد منيف العائدي:

- الدكتور عدنان العائدي، وهو بكر أولاده وكان مساعداً لأبيه في معظم أعماله.
- المهندس الدكتور غسان العائدي: وهو الابن الثاني، نال شهادة الهندسة في باريس وتخصص في الكيمياء الصناعية ونال الدكتوراه في العلوم الكيميائية ورحل مبكراً بحادث سيارة أليم.
- الدكتور المهندس عثمان العائدي: تخرج من فرنسا حاملاً شهادة الهندسة باختصاص في السدود والعلوم المالية والكهربائية، وتخرج بنجاح كبير، ثم انتسب إلى جامعة السوربون في باريس للقيام بالبحث العلمي والإبداع والاختراع بقصد الحصول على درجة الدكتوراه بنشاط مثالي رائع، وتم اختياره لوظيفة مدير للشؤون الفنية للمشاريع الكبرى في سوريا بما في ذلك مشروع الغاب، وعندها افتتح مكتباً للهندسة وأخذ يمارس الأعمال الهندسية الحرة في بناء السدود كسد الرستن ومحددة، وكذلك دراسة وإنجاز شبكة الارتباط الكهربائية ما بين المدن السورية، كما درس الهندسة المائية والهيدروليك في كليتي الهندسة بجامعة

حلب ودمشق، ولما تأسست الشركة العربية السورية للمنشآت السياحية واكتسب فيها المساهمون، انتخب رئيساً لها ونظراً لما اكتسبه من ثقة المساهمين تم انتخابه ثانية، وكانت باكورة أعماله أن أتم البناء الذي أشتمل على فندق الشام وعلى المحلات التجارية الملحقة به (مجمع وفندق الشام) واكتسب بعد ذلك ثقة رفيعة ومد نشاطه لكافة المدن السورية بإقامة سلسلة فنادق الشام.

من ناحية أخرى تابعت بنتاه (التوعم) الدراسة الثانوية واللغة الفرنسية، وكانتا تهويان العزف على آلة البيانو وشاركت إحداهما بتدريس اللغة الفرنسية في كلية البنات وتزوجت الثانية من الأستاذ الدكتور عزة مريدن، ولما بنت الصغرى لمياء فدخلت قسم الصيدلة في المعهد الطبي العربي (كلية الصيدلة اليوم) وكانت أول فتاة تحمل شهادة الصيدلة.

العمل الخيري حتى آخر أيام حياته:

حقق الدكتور العائدي نجاحاً متلاحقاً في حياته بما أمثلك من ذكاء حاد وطموح لا حدود له في الإقدام على الأعمال المثمرة المفيدة التي ترفع شأن وطنه، لقد كان الجد والعمل ديدنه، وكأنه قطعة من صميم وجوده وحياته، وضمت مكتبته العامة كتباً طبية وعلمية وتاريخية ودينية، وقد أوصى بأن تهدي الكتب الدينية إلى مكتبة جامع الروضة القريب من داره، والذي كان يقضي فيه صلواته، وبقية الكتب إلى مكتبة جامعة دمشق، كما كانت له أعمال خيرية كثيرة سواء بإرساله على نفقته الخاصة بعض الطلاب المتفوقين الفقراء للاختصاص في ديار الغرب، والعودة لإقادة الوطن بما جنوه وتعلموه، أو بمساعدته لكثير من الأسر الفقيرة ولاسيما العائلات المستورة، وكان يقوم بذلك سرّاً ودون تبجح ولا ظهور، وقد أوصى بمبالغ مجزية للأعمال الخيرية المختلفة، ففي دار السعادة للمسنين والمسنات جناح كبير يضم غرفاً عديدة مخصصة لنزلاء هذه الدار، وقد وضعت على بابه لوحة رخامية كتب عليها: (جناح المرحوم الأستاذ الدكتور أحمد منيف عثمان العائدي).

لقد كان واجباً وطنياً تقدير هذا الرجل، والاعتراف بفضله وأعماله الكثيرة المثمرة، فأطلق اسمه على إحدى مدارس دمشق الثانوية، وعلى الشارع الممتد من الحريقة إلى قصر العظم الأثري، مروراً بالبناء الضخم الفسيح الذي كانت تقوم فيه مدرسة الكلية العلمية الوطنية، وفي بلدة الزبداني طريق ممتدة من أمام دار الحكومة صعوداً إلى القصر الصيفي الذي بناه المرحوم، وقد دعي الطريق باسمه أيضاً.

كانت حياة هذا الرجل مفعمة بالخير والبركة، وقد انتهت رحلته الغنية بالأعمال الجليلة في أول يوم من شهر رمضان عام ١٣١١ الموافق ٥ شباط ١٩٦٢م.

وما أن ذاع خبر وفاته حتى هرع إلى داره جمع غفير من العلماء والمسؤولين وأساتذة الجامعة وكثير من الأطباء والمهندسين، حضروا يعزون أسرته ومحبيه المقربين والبعيد، وكلهم ألسنة تلهج بفضله ومزاياه الكريمة النادرة، التي صارت ملكاً للتاريخ العلمي والثقافي والاجتماعي في وطننا الحبيب.

رحم الله الدكتور أحمد منيف العائدي، حامل راية العلم ومشعل المعرفة، وتحية عطرة إلى روحه الطاهرة في عالم الخلود، جزاء ما قدم لأمته ووطنه من أعمال خيرة، تبقى في ذاكرة الأجيال إلى آخر الزمان.

المصادر:

- سيرة العائدي: د. عزة مريدن
- د. العائدي: عبد الغني العطري
- شخصيات بارزة: زهير الصباغ

من حوار مع أحمد منيف العائدي ...

السواعد الحرة هي أمل الوطن في نهضته

- نقولون بفكرة التطور الفجائي في نهضتنا الحاضرة، أم نؤثرون أن نسير سيراً بطيئاً في هذا المضمار؟

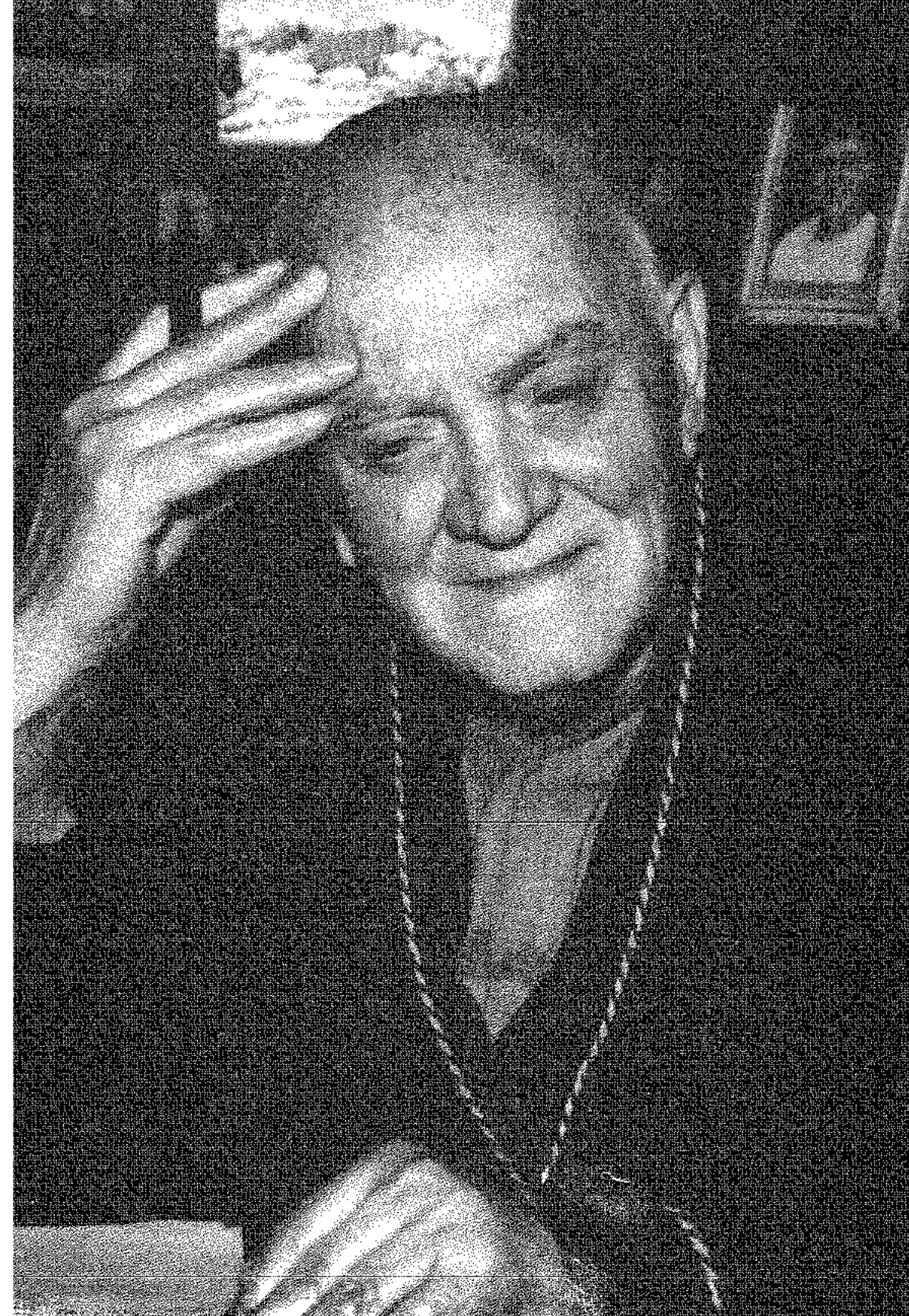
- إن النهضة الحاضرة نهضة مبتورة على الرغم من أننا نتقدم عملياً وصناعياً وزراعياً، فنحن نتأخر ونتقهقر بأمور معنوية هي أشد خطورة من تلك، وإذا عالجنا الأمر من هذه الجهة، نحس أن المستقبل مظلم محفوف بالأخطار والمخاوف، فعلى المفكرين والذين يشتغلون في إعداد العدة للمستقبل تقع التبعة.

فالتطور الفجائي في هذه النهضة المزمعة هو لازم محتتم، إذا كان يقوم على سواعد عاملة حرة ومخلصة، أقول إن التطور الفجائي محتتم، وذلك مجارة للعالم، ولا سيما الجوار الذي يسير بخطى واسعة في مناحي الاجتماع والأدب والصناعة والزراعة والتجارة والخ، وبالنظر لمخترعات هذا الزمن الذي أصبح فيه البعيد قريباً في المواصلات والأخبار، وهبطت الدول في المعاملات والمبادلات من المجموع إلى حالة التفرد في التوريد والاستصدار وفي النقد والاعتبار.

لما إذا لم يكن لدينا تلك السواعد العاملة المخلصة، التي يجب أن تتبنى النهضة بها، فالتطور يجب أن يكون بطيئاً، عسى أن تتمكن بعض الشخصيات المخلصة من الإصلاح أو يأتي الله بالفرج.

- ما هو المثل الأعلى الذي تنشدونه في الشباب العربي؟

- المثل الأعلى الذي أنشده للشباب العربي هو أن يكون مفادياً في سبيل قوميته، جباراً بشخصيته ومعنوياته، متفائلاً بالمستقبل، على الماضي، مستعداً للطوارئ (كشافاً حقيقياً) ثابتاً في العمل ومؤمناً بالهدف النبيل، ومطيعاً لكل مخلص حر.



عبد المعين الملوحي:

تسعون كتاباً ومئة مخطوطة والنبيع ما يزال متدفقاً بالعطاء^(١)

"لقد عشت بحاراً قضى العمر تائهاً ولاح له شط فالقى المراسيا"

تسعون كتاباً مطبوعاً، وأكثر من مئة مخطوطة تنتظر خروجها إلى النور، وقامة مهيبة ما تزال، برغم السنوات الثمانين، منتصبة بشموخ، وذاكرة صافية متوهجة، وينبوع إبداع خير ما يزال شفافاً وتدفقاً، ومع هذا فأنت تجلس إليه لأول مرة، فتملئ نفسك بمشاعر المودة المشعة في قسامته، وفي حديثه اللطيف الرقيق. أدت نظرتي بين مئات الكتب التي احتلت رفوف جدران الغرفة الأربعة، وبين عينيهِ المفترتين ببسمة وادعة لا تقايل، وأصغيت إليه يقدم شريط حياته الحافلة:

هو عبد المعين الملوحي الأديب والشاعر والمحقق، ولد عام ١٩١٧ بمدينة حمص، في أسرة متواضعة، رباه أبوه الشيخ سعيد الملوحي إمام الجامع النوري الكبير، وتلقى تعليمه الابتدائي وقسماً من التعليم الثانوي فيها، ثم تابع تحصيله الثانوي بدار المعلمين العليا بدمشق، غادر إلى القاهرة وحصل على الإجازة في الأدب من الجامعة المصرية عام ١٩٤٥، وكان من بين أساتذته فيها: الدكتور شوقي ضيف الذي علمه حب العمل وتواضع العلماء، وأحمد أمين الذي أوحى إليه محبة الجمال والحياة. وإنثر عودته إلى دمشق عمل في التدريس بثانويات القطر حتى عام ١٩٦٠، حين انتقل إلى وزارة الثقافة ليصبح مديراً للمركز الثقافي في كل

(١) رحل الأديب عبد المعين ملوحي بتاريخ ٢١/٣/٢٠٠٦م.

من حمص ودمشق لأكثر من عشر سنوات، وانتهى به المطاف في العمل الوظيفي مستشاراً ثقافياً في القصر الجمهوري، وشهدت مسيرته بعدها محطة جديدة عندما سافر إلى الصين، ونال لقب أستاذ شرف بجامعة بكين عام ١٩٧٧، واضطره المرض للعودة أخيراً إلى الوطن، والتفرغ للتأليف والنشر..

عقل حر وقلب متفتح على الحياة:

بدأ اهتمام "الملوحي" بالأدب منذ حداثته، فكان يخط مشاعره وإحساسه عن كل ما يقرأ في نفاث خاصة به، وفي الرابعة عشرة من عمره وحسب نظم أول قصائده، ونشرتها له جريدة "ألف باء" الدمشقية عام ١٩٣٦، ومن بين العوامل الكثيرة التي كونت ثقافة كما يقول: "من خلال معايشة الواقع بقلب متفتح وعيون ترى وأيد تلمس، لا يحتاج الإنسان لأكثر من قلب وعقل وعينين ليتفاعل مع الواقع، إضافة إلى روافد ثقافية علمية وإنسانية فسرت أوضاع الإنسان في العالم من الناحية الفلسفية والفكرية والأدبية، كما أثرت الحرب العالمية الثانية تأثيراً كبيراً في تكوين عقلي".

تزين مكتبة "الملوحي" لوحة مخطوطة فيها عبارة "غاندي": لا أريد ليبتي أن يكون مسوراً من جميع الجهات، ولا أريد أن تكون نوافذي مغلقة، أريد أن تهب على بيتي ثقافات كل الأمم بكل ما أمكن من حرية، ولكنني أنكر على أي منها أن تقتلني من أقدامي"، وقد مارس "الملوحي" ذلك عملياً فهو مؤمن وقومي عربي واشتراكي، يدور إيمانه حول محاور ثلاثة:

الإيمان بالله بدون تعصب، الإيمان بالقومية العربية، والإيمان بالاشتراكية بمعناها الواسع: العدالة الاجتماعية لكل البشر.

عطاء خير في كل مجالات الفكر:

ربما لم يعط أي مفكر آخر في وطننا ما أعطاه "عبد المعين الملوحي" للمكتبة

العربية من ثمرات إبداعه الخير... فقد مارس كل ألوان الفنون الأدبية الشعر والنثر والترجمة وتحقيق التراث العربي، والتأريخ في الحياة الاجتماعية والأدبية وكانت المحصلة: ١٥ جلدًا في تحقيق التراث، و١٧ مجلدًا في التأليف والدراسات والأدب الذاتي، و٣٥ كتابًا في تراجم الآداب العالمية شرقاً وغرباً، و٤ دولوين شعر.

أصدر في البداية ديوان "ديك الجن الحمصي" ثم توالى تحقيقاته لديوان "عروة... شاعر الصعاليك" و"الحماسة الشجرية" ونشر كتاب "مواقف إنسانية في الشعر العربي" عرض فيه ستين موقفاً من روائع الشعر العربي والعالمي، كما روى في مجموعته القصصية: "من تاريخ فرنسا في سوريا" حكايات من نضال الشعب ضد الاستعمار الفرنسي، ويعتبر من أهم أعماله مؤلفه "دفاعاً عن أبي العلاء"، ومجلداته الثلاثة في "أشعار اللصوص وأخبارهم" (٩٠٠ صفحة) التي أصدرها بعد جهود وبحث تواصل لأكثر من أربعين عاماً، أمضاها في تقصي أخبار الشعراء اللصوص وجمع تراثهم، وتسلط هذه المجلدات الضوء على ظاهرة شبيهة بالصعلكة لم تدرس بعد في العصر الإسلامي "لقد أعجبني طرافة شعر اللصوص، واندفاعاته، وتصويره لحياة فئة من الناس خيل إليها أن اللصوصية يمكن أن تحل مشكلة الغنى والفقر، فثاروا على المجتمع ثورة فردية، فقتل بعض، وسجن بعض، وهرب بعض إلى القفار يعاشر الضباع والذئاب، وقضى بعض حياته فقيراً... هذه الطرافة في شعر اللصوص وهذا التصوير لحياتهم دفعاني لتتبع شعرهم في كل مظانه، ووصلت إلى صيد يمكن أن اعتبره ثميناً.

عيون آداب الشرق بالعربية:

تتجلى اهتمام "الملوحي" بالآداب الشرقية في ترجمته لعيون الأعمال الأدبية لكوكبة المفكرين في الأدب الفيتنامي (٤ مجلدات)، و"تاريخ الأدب والشعر الصيني القديم والحديث" (مجلدان) "جناح جبريل" لمحمد إقبال "وداغستان بلدي" لرسول

حمزاتوف، إلى جانب مؤلفات "غوركي" و"ليني" وديستوفسكي" وكان اهتمامه بهذه الآداب عائداً لسببين، الأول: رفع وصاية الغرب وتحكمه في أدبنا وثقافتنا والتي تسبب في جهلنا بآداب الشعوب الشرقية، والثاني: أن هذه الآداب تحمل في مضمونها الكثير من تطلعاتنا وأفكارنا، فهي تحارب الرجعية والاستعمار والمظالم الاجتماعية، أي أنها تنقل لنا تجارب تلك الشعوب التي أنقذت نفسها، ويذكر "الملوحي" أنه زار الدكتور "شوقي ضيف" حين حاز على جائزة الملك فيصل في الأدب، فسأله: لماذا لم ترسل لي تاريخ الأدب الفيتنامي؟ فأجابه: أنت عميد الأدب العربي فماذا تصنع بالأدب الفيتنامي؟ رد الدكتور ضيف: "يا عبد المعين، إنك لا يمكن أن تكون أديباً عربياً إن لم تكن أديباً عالمياً" وأهتم "الملوحي" من جانب آخر، بالأدب الأوروبي والثقافة المعاصرة فأصدر مجلداً في الأدب السويدي من أول عصوره وحتى اليوم، إضافة إلى مجلدين لبرنادشو، ومجلدين لهنري هايني من الأدب الألماني، ومجلد لكوستانتنوتون: "دور الأفكار النقدية في تطوير المجتمع" وقد طبع أربع مرات متتابعة، وكل من يقرأ ترجمات "عبد المعين الملوحي" لروائع الأدب العالمي، يشعر بأنها كتبت أصلاً باللغة العربية، ويعود ذلك إلى أنه يقوم بالترجمة مرتين: "الأولى ترجمة حرفية يتقيد فيها بالنص الأصلي، والثانية ترجمة أسلوبية تحافظ على البيان العربي المشرق.

أمير شعراء الرثاء:

مثل الشعر للملوحي عالماً من السحر والجمال قائماً بذاته فخلق فيه منذ يفاعته تحليق شاعر مجلّ، كان في الواقع نتيجة زلازل نفسية عاتية، وقد أجبرته مآسي حياته على أن يكون شاعر رثاء، إذ ذاق منذ طفولته مرارة فقد الأخ بعد الأخ، ثم الزوجة والبنات، ولعله تنبأ بهذه المآسي حين قال في رثاء صديق عام ١٩١٨:

"ما فيك يا ديوان شعري بسمه بل أنت قطر دم ونقع جهاد"

واستعاد هذه الفكرة حين تحولت النبؤة إلى واقع، فردد في رثاء ابنته "ورود":

"سا طفلتسي هذا أبوك يظل ينعب كالغراب
أشعاره سود تعشعش في الظلام وفي الخراب"

وربما لم تتل قصيدة رثاء عريبة من الشهرة والخلود ما نالته قصيدته في رثاء زوجته الحبيبة "بهيرة"، ومن بعدها قصيدته في رثاء زهرته الياضعة ابنته "ورود"، كانت الأولى ثمرة هزة عاطفية عنيفة عاشها الشاعر حين اختطف الموت رفيقة عمره، فرسم في ٢٥٠ بيتاً من الشعر الباكي لوحة فنية رائعة غنية بالصور واللمح الشجي، وعكست سخطاً على الحياة وصل بالشاعر إلى حد الإلحاد:

"الموت - مات الموت - وحش كاسر الأتياب قاس
يلهو بأفراح الحياة فتستحيل إلى مآسي"
"أبهيرتي ... هذا الجنون، فعفو قلبك عن جنوني
لم أستطع فهماً لموتك يسابهييرة ... فاعذريني"
"بيني وبين الموت حرب لم تزل حرباً عوانا
وسقطت فيها فاثثيت أجرع النفس الهواتا"

ولكن الشاعر في قصيدته الثانية والتي أفرغ فيها نوب جوانحه من المعاناة والعذاب لفقده ابنته، عاد من جنيد إلى حوزة الإيمان الصادق ورجاء العفو والمغفرة:

"يا رب عفوك - إن أطق العفو - عن تلك القصيدة
هذا اعتذارى سطرته اليوم مأساة جديدة
جريتني يومين - يوم رضا عليّ ويوم نقمة
في تلك إيمان العذاب، وهذه إيمان رحمة
آمنت لا إني أريد الريح، أو أخشى الخسارة

آمنت إيمان الهدى، وتركت للناس التجارة

كانت القصيدتان مثل شعر "الملوحي" كله مشبعتين بالأفكار الإنسانية والفلسفية العميقة، وتعكسان المخزون اللغوي والثقافي والغني والفكري الكبير الذي يمتاز به. من جانب آخر لم ينس الشاعر في غمار مصابه الشخصي مأساة وطنه وأمته، بل بقيت تشغله، فيشخصها بدقة الخبير ولوعة الغيور الذي عرّض حياته للمخاطر في سبيل تحرر وتقدم بلاده والإنسانية كلها:

"مأساة شعب كدت أنسى عندها مأساة بيتي
واحسرتا ... دعت المصاب أمتي وقتلن بنتي
وطنّي الكبير ممزّق، فلكل مزرعة حدود
شعبي العظيم موزّع فلكل مقتصب عبيد"

نبع رقرق من نفس صافية:

آمن "الملوحي" بالإنسان، وبالمستقبل المشرق الذي ينتظر الإنسانية، ولخص سيرته في هذه الحياة المليئة بألوان العطاء، والتي لم ينتظر مقابلاً لها، وهو شعور نابع من أصالة نفسه، وعفته وقناعته.

"قصرت علي ربي وشعبي مودتي	فيآليتهم يبدو لهم ما بدا لي
وما خنت عهدي للشعوب، وإنما	دعاني - فلبيت - الهدى إذ دعاني
وآمنت بالإنسان يبني حضارة	ويهدم في الإنسان ما كان باليا
ولم أترقب - حين أعطي - عطاءهم	كفاتي أني ما حجت عطائيا
أصالة نفسي لا تضن بنفسها	تدقق مثل النبع رقرق صافيا
وعشت عفيفاً راضي النفس قانعاً	يراني صاحبي ناعم العيش هانئاً"

لقد تجمعت لشعر "الملوحي" كل عناصر البلاغة والفصاحة والصور الفنية والموسيقا الشفافة، كما اجتمعت في نفسه مبادئ خيرة مبنية على الوضوح والصدق والإيمان والعمل، وكان في كل ما أنجزه من إبداع، منسجماً مع ذاته، وطنياً في سيرته، محباً لأُمته، وبقي يردد على الدوام بتأؤل صادق:

يقولون لي: لن تشهد الفجر ساطعاً	بلى كنت قبل الفجر للفجر هاديساً
إذا ما طواني الموت قبل انبلاجه	فحسبي أني كنت في الركب حادياً
لقد عشت بحاراً قضى العمر تالهياً	ولاح له شط فالقى المراسياً
ولو خيروني لستم تغر حبيبتي	ولثم ثسرى أرضي لثمت ترايبياً

موسوعة الملوحي ... قصص وتاريخ وأشعار

أصدر الملوحي موسوعة الطير والحمام في الأدب العربي، في أربعة أجزاء، وفي هذه الموسوعة سجل واف لكل ما قيل في الطيور والحمام من أشعار عبر الأحقاب، وفي هذه الأشعار رصد تاريخي للشعر العربي في معالجته لقضية واحدة هي الطير.

وقد استخدم الشاعر العربي الطير والحمام بخاصة، لبث لواعج روحه وتوجداته، وهي لحظات الحزن لدى الشاعر في أغلب الأحيان ومن الطريف أن كل هذه الأشعار التي غطت حوالي /٨٠٠/ صفحة تبين مدى أهمية الحمام والطيور بعامة، في بث حركات النفس واللوعة عند الشعراء العرب.

وقد تبذرت لنا عبر هذه الأشعار قصص طريفة عن الحمام وموقعها في النفس العربية، هذا في باب الشعر، أما باب النثر فقد أفرد الملوحي فصلاً عن الطير (الحمام) في القرآن الكريم وفي الحديث الشريف وفي الأمثال العربية وما فيها من جمالية وجزالة تعبير ولغة.

يستهل الكاتب هذه الموسوعة بقصة حمامة صدحت قرب الشاعر جهم بن خلف المازني أنشدها أبو بكر بن دريد فقال:

أبكيت أن صدحت حمامة أيكاً عجباً	ورقاء تهتف في الأراك وتسجع
عجباً لمبكي عينها وجمودها	وللوعة في صدرها ما تفلع
غردت بلحن فاستجاب لصوتها	ورق على فتن الغصون تفجع

وحينما يهيم شاعر بحبيبته التي فارقته، كان يتخذ من الحمامة رمزاً للبوح بما تختزنه روحه من وجد وهيام، وهذا ابن الترية يقول:

تذكرت ليلى أن تغت حمامة وأنسى ليلى والفؤاد قريح

إنّ الحمام رمز للبكاء والنوح، ومقدمة للوجد والبوح في الأدب العربي،
والشعر تحديداً وهذا ابن المعتز ينوح لنوح الحمامة فيقول:

وبكيت من حزن لنوح حمامة ودعت الهديل فظل غير مجيبها
ناحت ونحنا غير أن بكاءنا بعيوننا و بكاءها بقلوبها

لقد اتخذت النساء من الطيور وبخاصة النسور رمزاً لوصف الحبيب فهذه
جنوب الهذلية (أخت عمرو ذي كلب) تصف الحبيب قائلة:
تمشي النسور إليه لاهية مشي العذاري عليهن جلابيب

ومن الطير ما هو نذير شؤم كالبوم والغربان، ومنها ما هو آية للجمال
كالجمل، وكذلك النعام التي تحسب مع الطيور وهي أشبه بالبعير وفيها يقول
الشاعر مزدرياً آخر:

كمثل نعامة تدعى بعيراً تعاضمها إذا ما قيل طيري
فان قيل احملني قالت فإني من الطير المرتب في الوكور

أما الفخر فيرمز إليه بالنسر:
لا تعجبوا من صيد صقر بازيما إن الأسود تصاد بالخرفان

ومن أشعار عنبرة ذات الأوجاع والحزن، تلك التي استخدم فيها الطير ومنها:
وسألت طير الدوح كم مثلي بأنينه وحنينه المتردد
شجا ناديته ومدامعي منهلة أين الخلي من الشجي المكمد
لو كان مثلي مالبست ملوناً وهتفت في غصن النقا المتأود

وفي باب النثر أفرد الأستاذ الملوحى فصلاً خاصاً بمميزات الطيور فنذكر أعمارها:

الورشان: ١٠٠ سنة، العقاب: ١٠٠٠ سنة، النسر: ٢٠٠٠ سنة.

وعن حنان الطيور نذكر مما جاء في كتاب الحيوان الكبرى، أن ليس في الأرض طائراً أو سبع ولا بهيمة أحسن من العصفور على ولده ولا أشد له عشقاً.

ونذكر قصة علي لسان علي بن العباس النوبختي عن أبي الحسن علي بن العباس بن جريح الرومي الذي كان غليلاً فعاده لبواسيه وبعد طويل كلام نختصر قول ابن جريح بما يلي: واسكن في دار قليب وهو مشتق من الانقلاب، فقد انقلبت بي الدنيا كما ترى واعظم ما علي: يجتمع في السدرة في داري كل يوم العصافير يصيحون في وجهي: سيق سيق فأنا في (السياق) فغادره فإذا هو قد مات والطيور أجناس كما جاء في سرور النفس للتيفاشي.

كل طائر يهدل ويرجع مثل: القمري / هو الحمام عند العرب والدباسي / والفاخته: جنس من القماري وهو هجين لا عنق له، والورشان واليمامة واليعقوب.

ثم أورد الكاتب الطيور في فقه اللغة العربية وفي غيره من بطون التراجم العربية وأما الكتب والمراجع الكبرى، وأفاض في دراسته شرحاً وتفصيلاً ونقداً في معالجه للشعر العربي من بلاغة واستعارة وتشبيه وصور... الخ، في موضوعه الذي اختاره وهو الطير ووقف على الأساليب الأدبية في شعر الحمام في مختلف العصور من طبع وتطبيع وصناعة وتصنع فهي كما قال تختلف من العصر الجاهلي إلى الأموي ومنه إلى العباسي لكن تشابهاً بين هذه العصور والمواقف في شعر الحمام وكذلك التعبيرات.



خليل مردم بك:

أنشد للوطن والقيم الإنسانية السامية

يعد شاعر الشام خليل مردم بك، علماً من أعلام الأدب في سوريا وواحداً ممن اغنوا ساحة الفكر العربي بمؤلفاتهم ما بين كتب محققة، ومجموعات شعرية راقية.

وقد سجل خليل مردم، الشاعر والأديب سيرة حياته بقلمه، فقال: "ولدت في دمشق سنة ١٨٩٥م وقبل أن أبلغ السنة السابعة من عمري جعلت أذهب إلى الكتاب، ولما تجاوزت العاشرة، دخلت إلى مدرسة الملك الظاهر الابتدائية الرسمية، وكنت منذ عقلت على نفسي، وصرت أقرأ وأكتب أجدي ميالاً للشعر وقراءته وحفظه، وفي هذه المدرسة وجدتي أقول الشعر دون أن يكون لي إلمام بشيء من علوم العربية.

وانتقلت بعد ثلاث سنوات إلى المدرسة الإعدادية الرسمية، ولم أمكث بها إلا سنة، وبعضها، ثم شرعت أتلقى دروساً خاصة في العربية وآدابها، كما أخذت مع النحو طرفاً من الفقه عن الشيخ عطا الكسم، وطرفاً من الحديث عن الشيخ بدر الدين الحسني، وكنت مع رفاق لي في الطلب نجتمع في أوقات معينة لمراجعة الدروس، ومطالعة بعض كتب الأدب، وكان أكثر اعتمادي في الأدب على دراستي الشخصية.

ولما جلا الأتراك عن دمشق في أواخر سنة ١٩١٨م، وقامت الحكومة العربية عينت مميّزاً لديوان الرسائل العامة، وفي سنة ١٩١٩م عينت مدرساً للإنشاء في مدرسة الكتاب والمنشئين التي جعلتها الحكومة لموظفيها خاصة، وحين أعلن استقلال سورية الأول، وبويع الملك فيصل ملكاً عليها وتألّفت أول وزارة سورية نقلت من ديوان الرسائل العامة وسميت معاوناً لمدير ديوان الوزراء، وعند دخول الجيش الفرنسي دمشق وبرحها الملك فيصل صرّفت من عمل الحكومة.

وفي سنة ١٩٢١م أسس فريق من الأدباء في دمشق جمعية (الرابطة الأدبية) فانتخب رئيساً لها وكان من أعمال هذه الجمعية أن أصدرت مجلة "الرابطة الأدبية"

ونشرت كتاب "معاني الشعر" للأشنانداني وكان لي فيهما عمل.

ولم يطل عمر هذه الجمعية لأن السلطة الفرنسية أمرت بإلغائها، وفي سنة ١٩٢٥م انتخبت عضواً في (المجمع العلمي العربي) وكانت أطروحتي كتاب "شعراء الشام في القرن الثالث"

وكنيت قد درست بدمشق اللغة الإنكليزية مدة يسيرة ثم ذهبت سنة ١٩٢٦م إلى لندن لأتمم دراستها بين أهلها، فمكثت في لندن ثلاث سنوات حضرت في أثناءها محاضرات في اللغة الإنكليزية وآدابها بجامعة لندن فضلاً عن الدروس الخاصة التي كنت ألقاها هناك.

وفي سنة ١٩٢٩م درست الأدب العربي في الكلية العلمية الوطنية بدمشق، واستمر عملي بها تسع سنوات ألقت في أثناءها سلسلة "أئمة الأدب العربي" طبع منها خمسة أجزاء وهي (الجاحظ، ابن المقفع، ابن العميد، الصاحب بن عباد، الفرزدق)، وفي سنة ١٩٣٢م أصدرت مع الدكاترة جميل صليبا وكامل عياد وكاظم الداعستاني مجلة "الثقافة" عاشت سنة واحدة.

وفي سنة ١٩٤١م انتخبت أميناً عاماً لسر المجمع العلمي العربي، وفي سنة ١٩٤٢م عهد إلي بوزارة المعارف، وفي سنة ١٩٤٨م أعيد انتخابي لأمانة سر المجمع العلمي العربي، وفي هذه السنة انتخبت عضواً مراسلاً للمجمع العلمي العراقي، وفي سنة ١٩٥١م رجعت إلى أمانة سر المجمع العلمي العربي، وفي سنة ١٩٥٢م عهد إلي بوزارتي المعارف والخارجية، وفي سنة ١٩٥٣م انتخبت رئيساً للمجمع العلمي العربي.

وظاهر من هذه السيرة عن حياته أنه كتبها في فترة رئاسته للمجمع العلمي العربي لتحفظ في ملف المجمع، كما جرت العادة بالنسبة لأعضاء العاملين في المجمع.

نشأته:

ولد خليل مردم بك في أسرة لها اهتماماتها الكبيرة بالأدب والسياسة، ومن هنا نمت لديه وترعرعت الموهبة الأدبية، ففي ديار أسرته من آل مردم (النقى بالدكتور عبد الرحمن الشهبندر خطيب الثورة السورية، وشكري العسلي، وعبد الوهاب الإنكليزي، ورشدي الشمعة، وهم من أعلام النهضة العربية وممن حكم عليهم جمال باشا بالإعدام سنة ١٩١٦، كما النقى بالعلامة محمد كركلي، وفارس الخوري، وأنيس سلوم، وجورج حداد، وسامي العظم، وعارف الشهابي، وفي الدار أيضاً انعقدت حلقة الرابطة الأدبية التي ضمت نخبة من رجال الأدب أمثال: سليم الجندي، وأحمد شاكر الكرمي، وعز الدين التتوخي، وشفيق جبيري، ومحمد الشريفي، وماري العجمي، وفخري البارودي، وعبد الله النجار، وحليم دموس، وغيرهم..)، انتخبوا خليل مردم رئيساً لهذه الرابطة التي كانت تعقد جلساتها في داره، كما كانت هذه الدار تشهد حلقات أدبية خاصة من فرسانها الأمير شكيب أرسلان، والأساتذة: محمد كرد علي، وعبد القادر المغربي، وإسعاف النشاشيبي، وسليم الجندي، وجميل صليبا، وكامل عياد، وكاظم الداغستاني، وجميل مردم، حيث كانوا يعقدون الندوات الأدبية ويتبادلون فيها الآراء ويبحثون في الأوضاع السياسية والقومية.

كما كانت دار خليل محجاً لرجال الفكر والأدب من خارج سوريا أمثال الشاعر أحمد شوقي حين زار دمشق سنة ألف وتسع مئة وأربع وعشرين، والشاعرين العراقيين: جميل صدقي الزهاوي، ومعروف الرصافي، والشعراء: خليل مطران، وبشارة الخوري، وإيليا أبو ماضي، كما كانت محجاً لكبار الكتاب من مصر أمثال: أحمد حسن الزيات، وإبراهيم عبد القادر المازني، ومحمود تيمور، وزكي المبارك.

هذا الجو الفكري الذي أحاط بدار الشاعر، طبعه بطباع أدبية وسياسية تجلّت في صقل موهبته الشعرية التي بدت طلائعها في زمن مبكر، كما تجلّت في شحذ نزعه الوطنية والقومية، وفي تعلقه بالشام وبأهلها وفي انكبابه على دراسة تاريخها وثقافة وعادات أهلها حتى أصدر كتباً عديدة في هذا المجال من أبرزها: شعراء الشام في

القرن الثالث الذي كان أطروحته حين دخوله إلى المجمع العلمي العربي، بالإضافة إلى تحقيقه وجمعه ونشره لشعر العديد من الشعراء الشاميين، كما فعل في دواوين ابن عنين وابن حيوس، وابن الخياط.

كذلك أكتب الشاعر على التأليف في سن مبكرة، وكان باكورة إنتاجه الأدبي مؤلفه الأول "جمهرة المغنين"، أتمه وهو في الثامنة عشرة من عمره، وأعقب جمهرته بكتاب "الأعرابيات".

إن إنتاج الشاعر الأدبي، شعراً ونثراً ظهر في وقت مبكر من حياته وقد مرت بنا إشارته إلى محاولاته في نظم الشعر وهو لا يزال في المرحلة الابتدائية، كما أننا نلمح نضجاً فنياً في شعره الذي قاله في الخامسة عشرة من عمره وفي مرحلة المراهقة فهو في رثائه لأبيه ووصف جنازته يقول:

لا أقول ونعشه يختال تيهياً تحيط به المهابة والجلال
خليلسي احسرا دمعي قليلاً لأنظر كيف سيرت الجبال

ويحس القارئ لهذه الأبيات نغمة الجزالة التي تطبعها بطابعها، كما أن المعاني والصور التي وردت فيها تنبئ عن مخزون شعري من التراث ترك طابعه على الفتى منذ مطلع حياته الشعرية، وهذه الأبيات هي تقليد للصور القديمة: قوموا انظروا كيف تسير الجبال. ولا شك أن كل شاعر يبدأ حياته الشعرية مقلداً ثم يبلغ مرحلة الإبداع إذا كانت ملكته الشعرية مواتية.

وقد حاول الخليل ترجمة بعض روائع الشعر العالمي، فترجم شعراً عدداً من القصائد عن الألمانية والفرنسية والفارسية، وكان في ذلك يستجيب لنزعة التعريب لروائع الآثار العلمية التي سادت في مطلع هذا القرن، والتي كان من فرسانها في مصر مصطفى لطفى المنفلوطي، وفي ديوان الخليل نجد عدداً من هذه القصائد المترجمة، ونسوق هنا مقطعاً من ترجمة شعرية لقصيدة فرنسية عنوانها (حتى القبر) لندال على بروز هذه النزعة في أدب الخليل وهذا المقطع هو مطلع القصيدة وهو:

آليت في حبك رعي العهد حتى أبيت هامداً في لحدي
 جعلت نفسي لك وقفاً عندي وما أراك تحفظين ودي
 فذاك أمي وأبي ونفسي يا أملي ووحشتي وأنسي
 كم ذا لقيت من شقاً ونحس كي تظهر يوماً بمجلى السعد

تميز الخليل بحبه لعمله وتقانيه فيه سواء حين كان موظفاً أو مدرساً أو وزيراً أو سفيراً أو مجمعيًا، وهذه الصفة الأخيرة هي التي اختلف معها وأمضى شطراً من عمره فيها، تضاف إلى هذه السجايا خصال عرف بها وهي نزاهته وهدوءه، ولطف معشره، وعكوفه على المصادر القديمة. وكانت مجالسه في المجمع أشبه بمجالس القدماء حافلة بالنشاط الأدبي، ولم تكن تخلو من ذكر النوارد الأدبية التي كانت تلطف الجلسات بالرغم مما عرف عن الرجل من هدوء واتزان وميل إلى التشاؤم والاعتكاف، ومما يدل على إخلاصه في عمله، أنه حين كلف بتدريس الإنشاء العربي لموظفي ديوان الحكومة الفيصلية انكب على كتابة محاضراته لتخرج غاية في التركيز، فلم يترك الخليل بالرغم من إيجازها شيئاً إلا وأشار إليه، فقد ابتدأ بتاريخ الكتابة عند العرب، ثم عصر النبي صلى الله عليه وسلم، فالخلفاء الراشدين، فعصر بني أمية، فعصر بني العباس، وصولاً إلى الفترة التي كان يعيشها وذكر باباً في شروط الإنشاء، وآخر للمختارات التي اختارها من شتى العصور، كما كتب فصلاً عن الشعر، وذكر في آخر الكتاب أسماء طائفة من الكتب التي يمكن للدارس أن يستفيد منها، وأعتقد أن مدرسي الإنشاء العربي سيجدون في محاضرات الخليل عوناً لهم ومرشداً، وبالرغم من أنه كتب هذه المحاضرات وهو لا يزال في ريعه الصبا ولم يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره.

كما أن إحدى الصفات البارزة في الخليل هي دراسته الشخصية فلم يقبل أن يحصر تعليمه ضمن مناهج محددة، بل تعداها إلى دراسات خاصة موسعة سواء في دمشق أو في لندن.

وفي ولبه بالشام الذي تحدث عنه دارسوه لا نستطيع أن نفصل هذه النزعة عن
تعلقه بوطنه وقومه وعروبته، فالشام لديه رمز للأهل والقوم والوطن.
أجاد الشاعر في قصائده الوطنية أيما إجادة، وأثار المشاعر اللاهبة ليس في بلاد
الشام فقط، بل في أرجاء المشرق العربي كله، فانتشرت قصائده في كل مكان، وهي
المليئة بالمعاني الوطنية، وبالقيم التي كان يؤمن بها.
اعتمد الخليل أسلوباً خاصاً في التحريض وإثارة النفوس، وهو أسلوب تبيان
الحقيقة عارية ولو بشكلها البشع في محاولة منه للتحريض والثورة، كما جاء في
قصيدته "الحلف والجار" التي قيلت بمناسبة حوادث لواء الإسكندرونة الذي اغتصبه
الأتراك من سورية.

بني (العروبة) كم من صيحة ذهبت	لو يستثثار بسها الموتى إذن ثاروا
إن الحوادث لو أدركتم عبس	فأين - لا أين - الباب وأبصار
الرحم وأشجة والدار جامعة	فلم تقطع أرحام وأقطار

إلى أن يأتي على ذكر فلسطين التي أصبحت فيما بعد في قمة اهتماماته القومية.
إخوانكم في فلسطين تتسألهم بالسيوء والعنف أنيساب وأظفار

والأسلوب نفسه اتبعه في ذكرى المولد النبوي، حين خاطب النبي الكريم، وقال:	
نحس في الششام نقاسسي	فسوق أهوال السقيامة
مالسنا من أمرنا حتى	ولا مثل قلامنة
أخذوا الأمر وأعطوا	نسا السمعالي والفخامة
هل يصير الهير ليثاً	هيسن تدعسوه أسامة؟

وكان الخليل شديد الإعجاب ببعض معاصريه من الشعراء، وكتب عن بعضهم
كتابات نقدية ضمنها آراء في فهمهم، وفي ترجحاتهم، ومن الشعراء الذين أعجب بهم

الخليل أحمد شوقي، فقد كتب عنه دراسة تدلنا على نظرته إلى شعره وإلى سلوكه، يقول فيه:

(يمتاز شوقي بقوة طبعه، ودقة حسه، وسرعة ملاحظته قبل كل شيء ويكمل ذلك فصاحة أسلوبه، وروعة بيانه، وكرم ديباجته وذوقه الموسيقي الشعري في ألفاظه وتركيبه، فهو بذلك قد استكمل أدوات الشاعر الخلقية والكسبية فهو إذن الشاعر حقاً، لا أعرف شاعراً قادراً على تصوير كل ما يجول في نفسه، مجيداً في كل فن من فنون الشعر مثل شوقي فتراه يلج إلى الشعر من كل باب ويترجم به عن كل خالجة، وهو أطوع له من ظله، فتراه ينظم في المواضيع السياسية والتاريخية والاجتماعية، والفلسفية، والأدبية، والقصصية، وفي باب التربية والعلم ويتغزل ويتصايب، ويصف الخمر ومجالس الأتس والرياض، ومناظر الطبيعة والآثار الخالدة ويمدح ويرثي، ويفخر، ويعزي، ويتهم، حتى أنه لم يشأ أن يتخلّى نظم الشعر العامي المعروف بالموالية).

ويتحدث خليل مردم عن قصيدة شوقي في دمشق فيصفها بأنها: (غاية في البراعة، فلقد ضرب بها على الوتر الحساس من الدمشقيين، وبلغ مكامن عواطفهم، فاستثارها، فذكر لهم عدنان، وغسان، وأمّية، وعبد الشمس، ومروان.

وحين يتحدث عن فلسفة شوقي في الحياة وعن انعكاس هذه الفلسفة في شعره

يلمح التناقض بين أفكاره وسلوكه وينكر عليه أن تكون له هذه الفلسفة فيقول:

"ليس لشوقي فلسفة خاصة في الحياة، ولكنه مولع بالدعوة إلى مكارم الأخلاق على شكل سطحي عام، هي بالموعظة أشبه بالرأي الذي يعتمد على أسس وقواعد، قال:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وهو مع ذلك كثير التمتع بلذائذ الحياة"، ويريد الخليل من خلال حديثه عن شوقي

وفلسفته، (ومن خلال عملية إسقاط نفسي)، أن يقول إنه صاحب فلسفة في الحياة وأن

سلوكه ينسجم مع ما يؤمن به من أفكار وقيم، وما يطرحه من آراء، عكس ما كان عليه الحال عند شوقي.

وكان الخليل معجباً أيضاً بحافظ إبراهيم الذي حرص على لقائه في مصر والكتابة عنه. وكان في الوقت ذاته معجباً بمصر محباً لأديانها، وكان يهتم بكل إنتاج أدبي يصدر عن مصر من منطلق الاعتزاز بها وبدورها العربي ولهذا فهو حينما اضطر إلى مغادرة سورية اختار مصر ملجأ له.

سافر الخليل إلى الإسكندرية بعد فراره من السلطة الفرنسية، وفي الإسكندرية تأثر بجوها وثقافتها ورأى في هذا الشعر الجميل أثر الحضارة الغربية مما كان له الأثر التحريضي في سفره إلى بريطانيا وانتسابه إلى جامعة لندن لاستكمال دراسته العالية التي حرم منها في دمشق، وفي مقامه في مصر اطلع بشكل واسع على إنتاج شعراء مصر، واجتمع إليهم وحضر منتديات الشعر مما ترك في نفسه ذكريات عزيزة سجلها في مقالات كتبها بعد عودته إلى سورية ونشر معظمها في مجلة المجمع .. كما أفاد من وجوده في لندن ووقوفه على الأدب الإنكليزي حيث انقطع لدراسته وأعطاه وقته وجهده، وفي لندن توقف عن نظم الشعر في محاولة للترغ لطلاب العلم والاطلاع على الثقافة الغربية، ولكنه خلال فترة اغترابه لم ينقطع عن الحنين إلى مراح صباه ومراح قومه في دمشق، ولكن عاطفته الوطنية التي طال احتباسها في الغربة تفجرت حين عودته إلى دمشق سنة ١٩٢٩ بعد صدور العفو عنه وتجلت في قصيدة وطنية مطلعها:

تلاقوا بعد ما افترقوا طويلاً فما ملكوا المدامع أن تسبلا

وفي هذه القصيدة عبر عن مشاعر انتابته بعد لقاء الأحبة، وفيها يهيب الشاعر بقومه أن يقلدوا الغرب في علومه، ويدعو العرب أن يجعلوا القوة شعارهم وأن يركبوا الأخطار، وأن لا يهادنوا في حقهم الصريح وأن لا يحسبوا حساب المستحيل وأن يحطموا القيود والأغلال.

وكان لغريبته أثر واضح في دراساته الأدبية، فقد كتب عن أعلام الأدب العالمي وخاصة الأديب الإنكليزي (جورج برناردشو).

لقد اختير الخليل بعد تركه لوزارة المعارف ليكون أميناً لسر المجمع العلمي العربي إلى جانب صديقه الرئيس محمد كرد علي، كما أصبح عضواً مراسلاً في المجمع العلمية وفي المؤسسات الثقافية العربية والأجنبية، فقد منح عضوية مجمع اللغة العربية بمصر عام ١٩٤٨م والمجمع العلمي العراقي عام ١٩٤٩م، ودائرة المعارف الإسلامية سنة ألف وتسع مئة وواحد وخمسين، ومدرسة الدراسات الشرقية بلندن في السنة نفسها، ومجمع البحر المتوسط في باليرمو في السنة التي تليها، والمجمع العلمي السوفياتي عام ١٩٨٥م، وفي عام ١٩٥٣م اختير وزيراً للخارجية السورية، وفي السنة نفسها انتخبه المجمع العلمي العربي رئيساً له، "فحقق أسمى ما يصبو إليه أديب، أو عالم".

وانصرف إلى الاهتمام الكلي بالمجمع والعناية بشؤونه وتشجيع المؤلفين والمحققين بكل الوسائل المتاحة له، وبقي رئيساً للمجمع حتى عام ١٩٥٩م عام وفاته، وكان يحس في أخريات أيام بغصة على أيام الشباب.

واهياً لأيام الشباب الغض ما كان أهنا العيش لو لم تمض

وكان رحيل الشاعر صبيحة الثلاثاء الحادي والعشرين من الشهر السابع عام ١٩٥٩م عن عمر يناهز الرابعة والستين، عمل فيها مكافحاً في سبيل اللغة العربية وتراثها وتطوراتها ونشرها وتطوير فنونها ومجالاتها، وكان لفقدانه أثر عميق في قلوب الأدباء، والمفكرين العرب في شتى أقطار العروبة، مما يدل على المكانة الكبيرة التي حققها بجهد ودأبه وإخلاصه وموهبته ووطنيته.

نستطيع أن نلخص ملامح تكوين الخليل الثقافي ونحدد أنه في مراحل ثلاث

هي:

١- مرحلة التحصيل الأولى:

وهي مرحلة مختلفة المشارب والاتجاهات، والطابع العام لهذه المرحلة أنها كانت على الطرق القديمة المألوفة شعراً ونثراً، وذروة نتاج الخليل العلمي الممثل لهذه المرحلة هو كتابه " شعراء الشام في القرن الثالث"، الذي قدمه أطروحة للمجمع العلمي سنة ١٩٢٥م.

٢- مرحلة التحصيل الرافد:

وهي المرحلة التي قضاها في مصر أولاً ثم في بريطانيا، حيث التقى في الأولى كبار الشعراء والأدباء وتأثر بمدارسهم، ودرس في الثانية الإنكليزية و آدابها مطلقاً عن كثر على أسلوب في الحياة والثقافة مختلف اختلافاً كبيراً عن الأسلوب الذي درج عليه وتعلمه في المرحلة الأولى، ولم يفتح أثراً في إنتاجه بشكل غير مباشر، وقد بدأ تأثير هذه المرحلة واضحاً في دراسته عن أئمة الأدب العربي حين تدريسه في الكلية العلمية.

٣- مرحلة التكوين الأدبي المتعمق:

وهي المرحلة التي تلت مرحلة التدريس وامتزج فيها نتاجه بنشاط سياسي وثقافي واضح، وقد اختتم هذه المرحلة برئاسته للمجمع العلمي العربي وبإصداره دراسات وتحقيقات معمقة بالإضافة إلى نضوج في الصياغة والمضمون.

نفسي ومالي في سبيل بلادي

ولد والقرن التاسع عشر يلفظ أنفاسه، في دمشق لأب هو أحمد مختار مردم بك، وأم هي السيدة فاطمة الحمزاوي ابنة السيد محمود الحمزاوي مفتي الشام وعلامته، وكان ذلك عام ١٨٩٥.

وما كاد يبلغ الخامسة عشرة من عمره حتى فقد أباه، ثم أمه بعد أربع سنوات، فعلفت هذه الصورة الحزينة بذنه منذ صباه فراح ينظم في رثائهما ويصور حزنه وأساه، قال في أبيه:

(أقول ونعشه يختال تيهاً تحيط به المهابة والجلال
خليلي احسرا دمعي قليلاً لأنظر كيف سيرت الجبال)

وقال في أمه يرثيها، ويفتخر بنسبها:

(يا قير لم تدر ما ضمنت من شرف عال تفرع من (فهر) و(عدنان)
أماه أبدلت بالأمالك مكرمة (أهلاً بأهل وجيراناً بجيران)
ذهبت قانتة لله صائمة فكان عيدك لقرى الله ذي الشأن)

وهكذا افتتح حياته بالحزن والفاجعة، ففقد أبويه في مطلع عمره، وراح يسير في الدنيا يتيماً وحيداً يعتمد على الحذر والصمت، والصبر في حياء وخجل وتردد وقلق، فانطبعت شخصيته بذلك، وعاش كل عمره قليل الكلام، شديد التأمل، هادئاً متزاناً، ووراء ابتسامته الدمشقية حزن قديم عميق، يستشفه الذين عرفوا نشأة الشاعر وتمرسه بالصبر والمكون..

ومضى الشاب في طريق التعليم على أسلوب ذلك العصر .. أقبل على الحديث والفقهاء والصرف، فدرس الحديث على المحدث الخالد الشيخ بدر الدين الحصري، والفقهاء على قاضي الشام الشيخ عطا الكسم، والصرف والنحو على الشيخ عبد القادر

الاسكندراني، وكان هؤلاء بمثابة الجامعة الكبرى في عصرهم.

كانت الدنيا العربية في مطلع شباب الشاعر تتحضر فتقفز، وكانت الحركة الأدبية عند أدباء العربية في المهجر في أوجها، فأنار (الرابطة القلمية) بدأت تصل إلى الشام التي فتحت أذانها على أصداء النغمات الحلوة، وتلققت الأسماع والأفهام، شعر إيليا أبي ماضي، وأدب جبران ونعيمة والريحاني، ونسيب عريضة، وندرة حداد، فإذا بالأصداء تنعكس في الشام فتتشكل الرابطة الأدبية برئاسة خليل مردم يعاونه في ذلك المطران إيفانيوس (وكان شماساً آنذاك)، كما عاونه عدد غير قليل من الأدباء، وأصدروا مجلة باسم هذه الرابطة خدمت الأدب العربي خدمات جلى، كما خدمت بشكل خاص الصاعدين على سلم الأدب..

حين اقتحم الفرنسيون دمشق بحراهم ترك الشاعر الوظيفة وانصرف إلى ميدان النضال العريض يغذي ديوانه بالشعر القومي، ويسلم إليه أجمل ودائعه وثقافته الحرة، ويجعل نفسه فداء للوطن، ويقول:

(أنا ما حبيت فقدت لأمتي نفسي ومالي فسي سبيل بلادي)

وهكذا بدأ الشاعر يرتقي سلم المجد الأدبي ركضاً..

- عام ١٩٣٤ أصبح عضواً بارزاً في المجمع العلمي العربي. ثم رئيساً له.

- عام ١٩٤٨ صار عضواً في المجمع اللغوي بالقاهرة.

- عام ١٩٥١ انتخب عضواً في معهد الدراسات الشرقية بجامعة لندن.

وخلال هذه الآونة عكف على الشعراء الشاميين يحيي أدبهم، ويجمع مخطوطاتهم، ويقابل بين أوراقها ويصحح أخطاءها ويعلق على غوامضها، ويفسر المستغلق منها، فكانه أصبح رجلاً آخر، يعني بشعر زملائه ممن تقدموه سبعة قرون على الأقل، فأخرج للناس دواوين:

(ابن عنين الدمشقي، وابن حيوس الدمشقي، وابن الخياط الدمشقي، وعلي بن

الجهنم). وقد كان شعر هؤلاء بعيداً عن مظانه، لا يعرف الأدباء منه إلا ما حوت كتب المختارات، فيسره ووطأ أكنافه على تدقيق واف، ومقدمات ودراسات.. وخلال هذه الفترة من حياته بدأ يتولى المناصب الوزارية، كما تولى السفارة السورية في العراق.

كان يقترب من المناصب الوزارية كلما أحس باقتراب المنصب من الأدب العربي، ويبتعد عنها كلما ابتعدت عن احترامها للإرث والتراث.. كان أستاذاً .. معلماً كما يقولون في الأوساط الأكاديمية. رجل صارم إذا تعلق الأمر باللغة العربية وآدابها وفنونها، عذب أعظم العذوبة إذا تعلق بالكياسة الشامية، ومنه سمعت ذات مرة تعريفاً للفظـة (تدمشق)، لقد سأله أحد أدباء الفارسية: ماذا تعني كلمة (تدمشق)، فأجاب بصرامة وجدية: إنها تعني (تحضر)

قاس كل القسوة إذا تعلق الأمر بماضي الأدب العربي العريق.. كان يحرس مع القلائل من إخوانه هذا الصرح العظيم المسمى (الشعر العربي الشامي)، وكان هذا الشعر قد تعرض لكل ما تتعرض له الأصالة حين تجور عليها الأيدي المختلسة.

لهذا رأينا وسط دنيا لم تعد القيمة فيها للشعر الأصيل، ووسط جو صار فيه تملق غرائز المستمع والقارئ أسهل من تربية روحه وتغذيتها .. وسط هذا الجو راح الخليل ينبش الإرث الشامي، والتراث الشامي .. وكان متعصباً لثلاثة أشياء: الإسلام .. الشام .. اللغة العربية

ولم يكن تعصبه ينبئ عن إحساس فائر أو دعوى عاطفية، إنما كان يؤمن أن دنيا الشعر الشامي أغنى آلاف المرات من دنيا غيره .. لقد كان يرى في حب الشام وآدابها غاية مضيئة الوجود، وعطراً كونياً تنتشي به الروح .. ولعل هذا كان من حظ الشام التي أنجبته:

((أدال الله جلىق من عداها
فكم حملت عن العرب الرزايا
وأحسن عن أصاديها عزاها
كذلك الأم تدفع عن حماها))

ثم يلتفت إلى الشهيد يوسف العظمة:
((أيوسف والضحايا اليوم كثر
فديتك قائداً حياً وميتاً
فيا لك راقداً نبهت شعباً
ويا لك عاشراً أنهضت مناً
ليهنك كنت أول من بداها
رفعت لكل مكرمة صواها
وأيقظت النواظر من كراها
عزائم بعدما وهنت عراها))

ويختتم القصيدة بقوله:
(سأقصر فـالـقوافي الـيوم جـمر
أخاف على المسامع من لظاها)

وبينما ينظم للشام نشيدها الوطني (حماة الديار) نجده ينتقل في حبه إلى
الغوطة، غوطة الشام، فيخاطبها:

((كم في أراهير الرياض لناظر
ماست أماليد الغصون بوشيهها
لله ما صنعت وما جاءت به
بسطت وثير قطيفة فوق الثرى
من أحمر قلان، وأصفر فلقع
وكست وحلت سمحة آثارها
معقودة الإكليل، زهراء الحللى
أرخت من الظل الظليل غصونها
من مقلة وسنى وخذ ناضر
معطارة وأزينت بجواهر
في الغوطتين يد الربيع الباكر
خضراء فيها كل لسون زاهر
أو أزرق زاه، وأبيض ساسر
فجلت عرائسها بوشي فآخر
خفاقة الأقرط، ذات أساور
طرراً وأذبالاً وفضل ماآزر))

من هذه الحمى التي يسمونها الحب، صاغ الخليل كتابه (الشعراء الشاميون)، لقد اعتمد المؤلف في دراسته عن هؤلاء على النص وحده، أي على ديوان الشعر المخطوط، وقام باستقرائه واستطاع من قراءة النص النفاذ إلى البواطن الخفية للشاعر، إلى ثقافته العامة .. خياله الشعري .. لغته وإلى العصر الذي عاش به، وأعطى المؤلف لكل شاعر كتب عنه الصورة الكاملة لمجتمعة السياسي والفكري والاقتصادي، وذكر ما لهذه العوامل من أثر فعال في حياة الشاعر، كما أن المؤلف لم يهمل العامل النفسي والفطري وبيان ما لهذا العامل من أثر فعال.



شفيق جبري :

شع في شعره النور من قلب النكبات

هو أحد رواد الحركة الثقافية والأدبية في مطلع هذا القرن، وكان مع أصحابه الشعراء: خير الدين الزركلي، وعمر أبو ريشة، وخليل مردم، وبدوي الجبل، ومحمد اليزم، وغيرهم، يمثلون الرعيل الأول من النخبة الواعية التي تصدت للاحتلال الأجنبي في سورية، وأذكت الحماس لدى الشعب العربي، للوقوف بحزم وصلابة في وجه هذا المستعمر الدخيل، وأشاعت بشعرها نور الأمل من قلب النكبات، واستلهمت نسائم الخلاص من أعماق الظلم والاستبداد، وأذكت أشعاره روح الثورة في إضراب الخمسين يوماً، عام ١٩٣٦، والذي سقطت على أثره الحكومة، واضطر الفرنسيون يومها إلى أن يمدوا أيديهم للتفاوض مع الكتلة الوطنية.

ولد الشاعر (شفيق جبري) كما خط بقلمه - يوم الأربعاء في (١٤) من شعبان عام ١٣١٤هـ الموافق لسنة ١٨٩٨م، فأرسله أبوه وهو من تجار دمشق إلى كتاب المحي، على عادة زمانه يتعلم القراءة والكتابة، فدرس القرآن الكريم، وتمرس في الخط والحساب، حتى بلغ السادسة من عمره، وانتقل إلى مدرسة للعزازيين بدمشق، فبقي فيها تسع سنوات، حصل في ختامها على الشهادة الثانوية.

ثم سافر الشاعر إلى (إفا) في فلسطين، وإلى (الإسكندرية) في مصر، متنقلاً مع أبيه من بلد إلى بلد، وفي مدينة الإسكندرية، وقع على ديوان (المتنبي) وبعض (المعلقات)، وقرأ شعر البحري والشريف الرضي، ثم عاد إلى دمشق عام ١٩١٨م، وانتسب إلى وظائف الدولة فأصبح رئيساً لديوان المعارف في أواخر الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨م وكان ينشر المقالات والقصائد في الصحف، فامتلك قدرة على الشعر والنثر قلما تنشأ لغيره.

في كلية الآداب:

حين أنشأت وزارة المعارف كلية الآداب الأولى سنة ١٩٢٨م، عين أستاذاً فيها ووكيلاً لمديرها، وألقى خلال سنتين عدة محاضرات عن الجاحظ والمتنبي، كان لها أثرها في نفوس الطلاب.

وبقي مدة في الوظائف الحكومية، ثم انقطع عنها خمس عشرة سنة .. ثم عاد إليها عميداً لكلية الآداب، وقد اختير عضواً للمجمع العلمي العربي بدمشق، يملأ مجلته الرفيعة بمقالاته وبحوثه، ثم عضواً في اتحاد الكتاب العرب بدمشق، ومقرراً في لجنة النشر بالمجلس الأعلى للآداب والفنون بالقاهرة، واستمر عميداً لكلية الآداب حتى عام ١٩٥٨م، حين أحيل على التقاعد، وبعدها آلى على نفسه أن يظل رهين متنزهه في (بلودان) يعايش الشعر والفكر حتى وافته المنية، ورحل عن هذا العالم لينضم إلى قافلة الخالدين.

شخصيته:

يتحدث الشاعر عن نفسه في كتابيه: (أنا والشعر) و (أنا والنثر)، ومن صفاته قلة الضحك، وقلة الكلام، أما قلة الضحك فناشئة عن كآبة دخلت على قلبه منذ صغره، فأضفت عليه طابع الحزن الذي غلب على حياته، وكان علامتها المميزة، وأما قلة الكلام فناشئة عن كثرة تفكيره وتأملاته.

كذلك اشتهر بحب العزلة، والابتعاد عن مخالطة الناس، فهو رقيق الشعور، تؤذيه الكلمة النابية، والنكتة الجارحة، ووصف حالته بأبيات تصور نفسه وعزلته عن العالم، فقال:

ترى عيسهم يشراً وبشرهم عيساً	(تجافت عن الدهماء لم تحتفل بهم)
ولا هي ناغت في رفيف الضحى الشمساً	فما ألفت بالليل بارقة الدجى
فما وصلهم نعى ولا هجرهم يؤسساً	ومالي وما للناس أبغي وصلهم

لقد أثر جبري أن يحدث الطبيعة، وأن تحدثه، فهي جميلة الوشي، عظيمة التنسيق، تبرز مفاتيها لمن يفهم ويتنوق المفاتن، وشاعرنا صحتها طويلاً فأخلص لها وعاف الناس، فوجد عندها كما قال: (راحة البال ومتعة القلب وهدوء الأعصاب).

والذي دفعه إلى حب الأدب والتعلق به، زميل له في الدراسة، صرفه إلى مكتبة صغيرة عامة، أقبل إليها ينهل من كتبها مرة أو مرتين في كل أسبوع فينسخ شعر المتنبي في شرح اليازجي، أو يعلق بمجلة الضياء لليازجي نفسه، فيحفظ من هذا ويردده، ويتقن تقليده حتى وقع في حب الأدب، وتعشقه مدى حياته.

وعندما انقضت الحرب العالمية الأولى، دخل شاعرنا غمار الحياة، وكانت البلاد في ثورة فكرية شديدة - ثورة على الحلفاء الذين نقضوا عهودهم ومواثيقهم - فاندفع في قول الشعر معبراً عن عواطف البلاد الوطنية، ونزاعاتها نحو التحرر والاستقلال، فكانت قصائده ترجمان هذه الثورة، ومع كونه لم ينتسب إلى حزب من الأحزاب، ولا مارس السياسة بالفعل، فإنه كان صوت كل حزب وطني، رغم بعده عن الناس وإيثاره العزلة في أغلب حياته العامة.

ولم يعيش الشاعر في محيط معين، وإنما عاش في محيط نفسه، فقد خلق لهذه النفس أفقاً يناسب مزاجها وتفكيرها وشعورها، إن نظمه للشعر ينبع من عاطفة جياشة منقّدة، ولفظ منمق مختار، وأسلوب متين جزل، وقد كان (المتنبي) و(البحراني) أثرهم الكبير في نفسه وشعره، أخذ عن الأول الروح العالية، وأخذ عن الثاني سلاسة التعبير.

وتأثر بالكاتب (ابن المقفع) والأديب الفرنسي (أناطول فرانس) فاقتبس عن ابن المقفع وضع اللفظ في موضعه، حتى أصبح له أسلوب خاص يعرف به، وانصرف إلى أناطول فرانس، فأخذ عنه وضوح التعبير ودقة التصوير.

ويملك شاعرنا أربع صفات، اتسمت بها شخصيته خلال مراحل حياته، أولها الالتزام الأخلاقي، وثانيها صدق الحس الجمالي، وثالثها علم واسع، ورابعها الأسلوب

المنطقي العملي.

آثار المطبوعة:

- (المقتبى مالى الدنيا وشاغل الناس)
- (محاضرات عن محمد كرد علي)
- (الجاحظ معلم العقل والأدب)
- (أنا والشعر)
- (العناصر النفسية في سياسة العرب)
- (أنا والنثر)
- (بين البحر والصحراء) سلسلة (اقرأ)
- (أرض السحر)
- (دراسة الأغاني)
- (نوح العندليب)
- (أبو الفرج الأصفهاني)

آثار التي لم تطبع:

- (على صخور صقلية) رحلة إلى أوربة.
- (جبار القرن التاسع عشر أحمد فارس الشدياق).
- (أفكاري) مجموعة مقالات ومحاضرات.

شاعريته:

امتاز جبري بالروح العالية، والخيال المصقول، والأسلوب المشرق، وتبدو الذاتية قوية في كل سطر من سطور مقالاته وكتابات وأشعاره، وطرق موضوعات مختلفة وحاكى المقتبى والبحثري والشريف الرضي في شعره وتمثل شعرهم المتن، واختزن منه صوراً رائعة، كانت تدفعه وتعينه، كلما دعاه شيطان الشعر إلى النظم. وبدأ الشاعر بنشر قصائده في الصحف والمجلات منذ بلوغه العشرين من عمره، واقتفى آثار القدامى في نظم تلك القصائد، وضمت أغراض ذلك الزمان من مديح أو رثاء أو غزل.

فقد أورد في كتابه (أنا والشعر) أبياتاً، قالها في رثاء تاجر كان صديقاً لأبيه،

وجاء فيها:

(أودى العنّون بواحد الأحـاد وعدت على ربيع الكرام عواد
والدهر يعثر بالكرام وقلمـا عثرت صروف الدهر بالأوغـاد
شلت يد الأحداث كيف تخرمت شرخ الشباب ونضرة الأعـواد)

فهذا الشعر على ما فيه من تقليد الشريف الرضي في رثاء الصابي، كما يعترف صاحبه، فهو جميل السبك لفتى في العشرين من عمره، ويبشر بولادة شاعر أتقن موسيقى الشعر، وكأنه موصول النشأة بمن قبله من الشعراء، ضمن سلسلة متصلة الحلقات.

شاعر النضال:

وخاض جبري ميدان النضال، كزملائه الشعراء، فجسد بشعره أماني العرب جميعها لا يقتصر على قطر دون قطر، وقد امتدح العرب وافتخر بهم، وألمح للوحدة الشاملة فقال:

(لله ثورات تبارك أهلها أثنى عليها الواحد القهار
في (النيل) منها ضجة مسمونة حسنت بها من ربعه الآثار
ومشى الضجيج إلى الشام فرددت أصداؤه الأكجاد والأغـوار
أكرم بوادي النيل إن رجاله كرهوا الخضوع فلم يشنهم عار)

لقد جمع ثورة الشام إلى ثورة مصر، ورأى أن العرب ينهضون في ثورة عارمة، ثم يقول ثانية يعرض للعراق كما عرض لمصر:

أيثور أهل النيل دون لهانم وعلى الفرات لهانم وصفائح

دخل الفرنسيون بلاد الشام، في شهر تموز سنة ١٩٢٠م، وحلت الكارثة بالبلاد،

وضاع الحلم العذب الذي راود عيون السوريين، فانبرى الشعراء ليكون حال بلادهم،
ويندبون بالتفرق والذل، فقال (شفيق جبري) يصف حال البلاد:

(أيها المسائل عن أربغنا	إنما الأربيع صارت بمننا
ليس في أفيانها غير فتى	واجف الأضلع يشكو الزمننا
يرسل الأدمع من أجفانه	فيسلي بالدموع الأجفنا
فمروج الشمام تشكو ضميمها	أين من يكشف عنها المحننا؟)

وقلما تمر حادثة في مصر، أو في سورية، أو في قطر عربي، دون أن يقول فيها
شعراً، قال في الذكرى الثالثة لوفاة (سعد زغلول) الزعيم المصري، وكأن قد تجاوز
الثلاثين من عمره:

(لا خير في شعب يسسا	ق إلى الأذى سوق الضنين
من هان في طلب الحقو	ق قضى بغصات المهين
عاشت لنا مصروعنا	ش رجال مصير الأكرمون
وطن بناه كل تـرر	ب للمحامد أو خـدين)

إنه يهيب بالشعب السوري، أن ينهض كالشعب المصري لبناء الوطن، فما بينيه
إلا أبناءه، وما يذود حماءه إلا جنوده، وقد ظل الشاعر يفضل أشعار النضال والثورة،
فكانت أكثر زاده في الأدب، كذلك تحدث عن بطولات العرب، في مهرجان الشعر
الأول بدمشق عام ١٩٥٩م، فقال:

(يا دامي الجرح لا جرح ولا ألم	الجرح بعد انتفاض العرب مستلم
اصبح دموعك إن ماجت موانجها	فكل تغر على الأيام مبتسم
تلك البطولات كالأهرام راسخة	فأين ما طمسوا منها وما هدموا)

وشارك جبري في رسم البطولات، وتحدث عن الأبطال، والرجال العظام في الأدب والفكر والتاريخ، فرسم لوحة رائعة للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، وأطلق في ختامها صيحة جديدة في فلسطين بعد صيحاته ضد الأتراك والفرنسيين، فقال:

(فأين رسول الله يشهد أمّة تئن أنين الطير من كل ذابح؟
فهل صيحة في العرب تبعث ملكهم ألا ربما هبوا بصيحة صالِح!)

أصبحت فلسطين شغل شعره الشاغل، فأعاد القول فيها بقصيدته (ثورة العرب) ووصف اليهود الصهاينة كما يستحقون أن يوصفوا به، فقال:

(أيعيث اليهود في حرم القد س فسداداً والنوم يأخذ منا
لفظتهم جوانب الأرض شذاً ذاً فتاهوا القرون قرناً فقرنا
ضجرت منهم الشياطين والأنس س فأنى نحنو عليهم أنى؟
أحصدهم حصد السنابل حتى تتداعى (صهيون) ركناً فركنا)

فالصهاينة شذاذ الآفاق، لفظتهم الأرض، فتاهوا وسيظلون تائهين أبد الدهر، ولن تكون فلسطين موطناً لهم، ولا بد من تحريرها بعد طردهم منها وتدمير بيوتهم ركناً .. ركناً.

وبلغ جبري السبعين من عمره، وهو ما يزال يعتلي المنابر ليصدح بصوته الجمهوري أغانيه في تمجيد العروبة والبطولات حتى وافته المنية، وهو يتحدث عن قضايا الأدب والوطن.

شاعر الطبيعة:

اشتهر (شفيق جبري) بحب العزلة عن الناس، يحدث الطبيعة وتحدثه، فهو شاعر مرهف الإحساس، يتأثر بأدنى المؤثرات قوة، وينفعل لأقل الانفعالات شدة، فالطبيعة جميلة الوشي، عظيمة التنسيق، تبرز مفاتها لمن يتذوقها، وقف مرة على شاطئ

بيروت، فبهره البحر، فقال:

مأج الخضم وزلزل الصدر	مالي ومالك أيها البحر
للعاصفات على شواطئه	حنق على الأيام محمسر
فكانما هاجت بـوادره	أمم يهدم حوضها الدهر

وسمع مرة هديل الحمام، فقال:

نأح الحمام على الغصو	ن فهاج معتلج الشجون
وصبا إلى مضض الهوى	وأنا صبوت إلى العيون
لكنه حبس الدمـو	ع وماج دمعي بالجفون

اختار الشاعر بلدة (بلودان) مصيفاً، وبنى فيها داراً صغيرة، تطل على الروابي الخضراء وهي محاطة بحديقة صغيرة امتلأت بأشجار التفاح، ودمشق الفيحاء على جمال غوطتها لم تلق من الشاعر إلا التحية بعد التحية، والدعاء بعد الدعاء، فرسم لها لوحة مزدانة بالألوان والظلال:

قالت دمشق وقد ناجيت غوطتها	ومأج الدوح في جنبتي مطرد
أترك الروض والأنغام تملؤه	وتنتحي البید لا روض ولا غرد
ما تسمع الأذن حساً في مسارحها	كانما المسوت فسي أطرافها لبد

شاعر الرثاء:

رثى (شفيق جبري) الزعماء والرؤساء وأعلام الفكر، وقد وفق هنا أكثر مما وفق في عواطف الطبيعة والحب، وقد تأثر من غير شك بالرثاء في الأدب العربي القديم، لقد رثى ولي الدين يكن سنة ١٩٢١، فقال:

(يا حاوي الآفاق مسن آياته كيف احتوتك رموسها وقبورها

وضحت لك الظلمات في أجواننا فطمت كيف تضيئها وتسيرها
بصحائف بيض تلالاً نورها تجلو الظلام عن القلوب سطورها

صور المرثي في أوج حياته ومجده، ثم رسمه ميتاً قد خلف الأمجاد والمفاخر
وقضى، وبذلك يكون قد جمع المديح والبكاء معاً.

ورثي الشاعر أحمد كرد علي (شقيق العلامة محمد كرد علي) سنة ١٩٢٧ فقال:
لم ألف وجهك في الحوادث عابساً تلهو وتضحك في عنيف وثابها
لك في عواقبها منى معسولة ما كنت تياس في كثيف حجابها
كنت الضنين بأن تسفوتك لذة لم تشرب اللاآء من أكوابها

تحدث عن صفات الفقيد ومنها طلاقة الوجه، واللهو والبعد عن اليأس، إنها
صورة صادقة قوية، رثى الشريف الحسين بن علي سنة ١٩٣١م فقال:

يا ابن النبي وما الآذان سامعة فهل تلبي زحواً أنت داعيها
لما رأيت قلوب العرب واجفة من الشدائد ما تسجو سواجيها
وأهل جلق بالأعواد عاقفة أعناقهم وسيوف القوم تفريها
مبعثرون عن الأوطان تلحظهم عين المنيّة ما تغفو غوافيها
بعثتها ثورة دهواء مائجة بالهائمين مخضوباً حواشيها
حمراء أوقد جنبها القتا وسقى فتيانها من نجيع التبرك ساقبيها

وصف فيها حال العرب في الشام، وقد علقت المشانق وشرد الأحرار، فثار
الحسين وبعثها حمراء دامية من نجيع الترك.

موهبة النشر:

إن اهتمام (شقيق جبري) بالنثر، لا يقل عنه في الشعر، وهو موصول النسب

بكلتا الموهبتين، موهبة الشعر، وموهبة النثر، فأسلوبه جميل ينزل من النفس منزلة سهلة، فهو لا يتقعر بألفاظه، ولا تتنافر كلماته، بل نرى التماسك قوياً بين جميع جملة، منذ بداية البحث حتى نهايته، وقد أصدر عدداً من المؤلفات النثرية، التي تضم مقالاته المنشورة في الصحف والمجلات، والمحاضرات التي ألقاها على طلاب كلية الآداب، وهي على جانب كبير من القيمة الأدبية.

في مقالة له، بعنوان: (وطننا الروحاني) يقول: "لم يعد الوطن، على ما قرره أحد علماء الاجتماع، عبارة عن أرض الآباء والأجداد الذين يتم نسلهم حياتهم الأولى، ولكن الوطن إنما هو جملة تقاليد وأفكار وعواطف مشتركة، تجعل أهل البلد الواحد يشعرون بأنهم أخوة، وإذا أردنا أن نؤمن بقوة هذا التعريف فلننقل رجالاً من وطنهم إلى وطن رجال آخرين، حتى يدركوا أعماق المهاوي الروحية التي تفصل بين شعوب تختلف حالاتهم الذهنية، ونستطيع أن نشهد هذا الأمر في مؤتمر يجتمع فيه رجال من أوطان شتى فلا تلبث أن تنشأ الاختلافات بينهم، ولا تنشأ اختلافات المصالح وحدها، ولكننا نرى اختلافات العواطف والأفكار التي تمنعهم عن أن يفهم بعضهم روح بعض، وقد تُولف بينهم المعتقدات السياسية ساعة من الزمن، ولكن ماضيهم البعيد لا يلبث أن يفصل بعضهم عن بعض، وهذا أمر لا يطول زمن شعورهم فيه".

في هذه المقالة، يسكب (شفيق جبري) روحه بالوطن، ويمزج نفسه بالعروبة، ونراه موصول الأسباب ما بين شعر ونثر فقد وقف حياته ولسانه على التغني بوطنه وعروبته، فبرع فيهما، وسكت عن كل ما عداهما، حتى وافته المنية ولسانه يلهج بالوطن والأدب والشعر.

ويمتاز شعر (شفيق جبري) - كما رأينا - بقوة الألفاظ، وتدفق الأحاسيس لأنه يسكب فيه من روحه، وهو متين ذو جرس جميل، وقوي التراكيب ومنسجم الأبيات في وحدة متكاملة متسلسلة، لا يتقدم بيت ولا يتأخر بيت، واهتمامه بالنثر لا يقل عنه في الشعر.



شاعر جاهلي في القرن العشرين

"أنا الفحل في صوغ القوا في مجرب وإن ضللاً أن يُزار المجرَّب
وإني أفعى الشعر أحمي ذماره وإن دبَّت الضراء للشعر عقرب"

مما يثير الدهشة أن قائل هذا الشعر ليس واحداً من عمالقة العصر الجاهلي، الذين تميز شعرهم بجزالة اللفظ، وعبقرية السبك، ومتانة القوافي، بل هو شاعر معاصر من جيلنا، وواحد من أربعة شعراء يحملون لقب "شاعر الشام" وهم: خليل مردم بك، شفيق جبري، خير الدين الزركلي، ومحمد البزم، وكلهم جدير باللقب وأهل للتكريم والتقدير، ولكن البزم ينفرد من بينهم بنفحة جاهلية في أكثر شعره، وفحولة في لغته، ولهذا لُقِّبَ بعض النقاد بالشاعر الجاهلي الذي يعيش في القرن العشرين.

"محمد البزم" الذي مرت على رحيله في الثاني عشر من أيلول عام ١٩٥٥ قرابة نصف قرن، من مواليد دمشق عام ١٨٨٧، بعد حياة حافلة علم فيها مواكب من تلاميذه، وقدم للمكتبة العربية عشرات المؤلفات في اللغة والنحو والشعر، ومن المفارقات العجيبة في سيرته، أنه بلغ العشرين من عمره وهو لا يعرف من القراءة غير سور قصيرة من القرآن الكريم، فلما سحبت له زيارة دار الكتب الظاهرية تنبّه لضرورة تعلّم العربية وفنونها، فأخذ يتردد مع صديقه الشاعر والمؤرخ: "خير الدين الزركلي" على حلقات شبوخ الفيحاء وعلمائها، يقرأ عندهم دواوين فحول الشعراء، وأمّهات كتب اللغة والبلاغة والنحو والمنطق، فكان من أساتذته: الشيخ الأديب عبد القادر بدران، وجمال الدين القاسمي، وصالح التونسي، وغيرهم، ثم انصرف للمطالعة بنفسه، وخاصة في كتب النحو، وما لبث أن انتدبه الشيخ كامل القصاب

لتدريس فنون البلاغة والإنشاء في المدرسة العثمانية وكان في السادسة والعشرين من عمره، وفي تلك الفترة المبكرة بدأ ينظم الشعر، مقلداً القدماء فسي ألفاظهم وأساليبهم، فلقى حظوة وتشجيعاً من ذوي الخبرة في الأدب والشعر، مما دفعه لنشر قصائده ومقالاته النقدية في الصحف والمجلات، وخاصة مجلة "الميزان" لصاحبها أحمد شاكر الكرمي" والتي صدرت بعيد الحرب العالمية الأولى، حافلة بالنقد الرفيع، والدراسات الراقية.

تقلّب "البزم" لمدة خمسة وعشرين عاماً في منابر التعليم، وأمضى أكثرها في مدرسة التجهيز (الثانوية الأولى)، وكانت تجمع نخبة المدرسين في مختلف فروع التعليم، وبالذات في قسم اللغة العربية، الذي ضم الفطاحل من أعضاء المجمع العلمي العربي أمثال الشيخ: عبد القادر المبارك، علّم اللغة، وسليم الجندي: حجة النحو، وعز الدين التتوخي، وآخرين وراحت تدور بينهم محاورات ونقاش في الأدب واللغة والنحو والشعر، ليتحول القسم إلى مجلس من مجالس القدماء في الكوفة والبصرة وبغداد، حتى إذا خلا "البزم" إلى نفسه التفت إلى نظم الشعر في أبوابه المختلفة، وخاصة الفخر بأجداده العرب، والإيمان بوحدة الأمة وعبقريّة لغتها، ومدح شعراء العربية الأفاضل، كما أبدع في شعره الوطني الحماسي، وفي نقده لأخلاق الناس والمجتمع.

اعتزّ البزم بوطنه العربي الكبير فأنشد يقول:

"جأق منبت جسمي وعلى	دجلة محتد قسومي الغابرين
وإلى بغداد مهوى النفس لي	أنّة تنتابني حيناً فحين
وحشاً تهفو على أم القرى	مهبط الوحي ومهد الراشدين
وفؤاد سؤله في يثرب	كاهل المجد وارض الفاتحين
وبنجد لا تعدّاها الحيا	منعة العرب ومثوى المتقين
وبصنعاء تخطأها الأذى	عزة البيت إذا ملّ العرين

وهكذا جعل اليزم لكل أرض في دنيا العروبة ركن في قلبه جدير بساعتزازه
وفخره، وشغاف الشاعر بمدينةته "دمشق" فخاطبها بقصيدة اربت على المئة وستين
بيتاً تعدّ في فرائد الشعر العربي المعاصر، يقول فيها:

"رفعت على حرم الخلود بنوداً ومضت تحلق في الإباء صعوداً
بنت العصور الحاليات نحورها بالزهر تسطع ما عرفن خموداً
ريحانة السدنيا وظل نعيمها من قبل مولد يعرب وثمروداً

وترنم بنهرها الخالد "بردى":

"أخت الخلود وما الخلود مفارق برداك ما عشق الأنس خلوداً
صاف كالأخلاق الكرام يحثه كرم النجار لينعش المفؤودا
مترقرق طوع النسيم مسلسل كخاطر الشعراء رمن قصيدا
متهلل الجنبات بسام البشري يغريك بالحسن الجديد تليدا"

وأشد لغوطة دمشق الغناء: التي تألفت بمفاتيح الطبيعة، وسحرها الباهر:

"وثنت معاطفها الغصون فكلها ثمل يعانق من أخيه ميودا
يتمازج الدمعان دمع غمامها بحبيس خضرتها فتضرب عودا"

أنقلت الهموم على "اليزم" وواجه الحسد والضعينة، وتملك اليأس نفسه، فصاح
يناجي أبا العلاء المعري هاتفاً:

"وعلمتني أن أصحب اليأس رامياً سعيداً وبعض اليأس ينعم زاخره
يمزق جلد الصبر صبري على الأسى كأن الأسى في مهجتي شبة عاصره
وبرم بالناس وخذاعهم فيرع في نقدهم ونمهم، وسل عليهم سيف هجائه فقال:

"لا يَخدَعَنَّكَ من خِيبِ موادعة
 إن أنسوا الضعف من ذي غرة دلفت
 فكلهم وأبيك الخير، حرباء
 إليه مواراة بالنشر شهباء
 لهم نفوس بغير اللوم ما نزلت
 وهل تقوم بغير الجسم حواء"

كانت الشكوى من الناس في صميم شعره الإنساني، فغمرت ديوانه مساحة من
 الكتابة التي رافقته في الهزيع الأخير من عمره، فعاش بعيداً عن الناس في حجرة
 نائية بالمشفى العسكري، وأصابه العمى وركبه الشلل، وقضى وحيداً غريباً بعدما
 ملأ الصحف بقصائده الرائعة ومقالاته النقدية البليغة.

وبعد وفاته قام المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب بنشر ديوانه الكبير، كما
 طبع عدداً من مؤلفاته في النقد، وما تزال مخطوطاته الكثيرة والقيمة تنتظر الطباعة
 والنشر، لتحكي ذكرى عَلمٍ غيورٍ على لغته عاشق لوطنه، تخرجت على يديه أجيال
 من المعلمين والأدباء، ورجال السياسة، يفخرون جميعاً بأنهم من تلامذة الشاعر
 الخالد: محمد البرم

المصادر:

- الشعراء الأعلام في سوريا: د. سامي الدمان
- موسوعة الأعلام: خير الدين الزركلي
- حديث العبقريات: عبد الغني العطري

ولو شئت سيرت القوافي جحافاً

أولع محمد اليزم باللغة العربية الفصحى، وماله ما يعاني الطلبة من صعوبة في النحو، مما ينفر الطلبة من اللغة العربية وهي روح هذه الأمة، فراح يجهد نفسه في البحث عن حل يسهل الأمر على الدارسين، ويقرب اللغة لطلابها، فعكف على كتب الأقدمين - الكتب الصفراء - درساً وتتقياً وبحثاً وحفظاً، وراح يتكلم الفصحى في كل موقف ومكان، حتى صارت عادة لديه، في حين كان سواه لا يتكلمها إلا بين جدران الصفوف ومما يروى عنه، أنه كان يكلم خادم المطعم قائلاً: "اننتي بقصعة من الحمص، وإياك أن تذر عليه شيئاً من التوابل والأفوايه، وجنبني ما استطعت الحامض والزيت" فجدد الخادم في مكانه وراح ينظر إلى رفاق اليزم لعلهم ينفقونه من هذه الورطة، فلما لم يضحكوا أدرك أن الأمر جد وليس هزلاً، كما أن طلبته يروون عنه الكثير من الأقوال الفصيحة التي تجمع النكتة والبلاغة معاً، مثل قوله لمن كان يلعب بقدميه في الصف لإحداث أصوات مزعجة: يا هذا أليس لعقلك سلطان على رجلك ؟ أو مناداته لطالب يقعد في زاوية الصف: قم يا جار الحائط، أو قوله لطالب يتكلم برطانة: "يا هذ ابحث عن أرومك لعاك تنتسب إلى جد أرمني أو بربري أو أعجمي".

إن استعماله الفصحى للتخاطب والحديث جعل خصومه ينعته بالمتفصح، لكن كل الذي عرفوه عن كتب كانوا يدركون عمق الدوافع لتصرفه هذا، والمتمثلة في حبه للتميز عن سواه. وما يمنحه شرف التفوق بتحقيق ما يعجز عنه الآخرون. لقد كان اليزم متعصباً للعربية وللعرب، ولليزم آراء طريفة ولطيفة في النحو، وأفكار جديدة وجيدة في طرائق وأساليب تدريسه يسرته لطلابه وحببته لمريديه، منطلقاً في ذلك من قول أبي سعيد السيرافي "منطق اليونان فطنة، ونحو العرب فطرة" وقد صاغ اليزم تعريفات جديدة وتأويلات لطيفة لا نجد لها مثيلاً في النحو المدرسي مثال ذلك تعريفه للحال: نعت خالف منعوته بالتعريف فعوقب بالنصب

وقال في أن: استحققت إن الزعامة على أخواتها بشدة نفوذها، أي أنها تعمل وهي غائبة، ولأنها كثيرة الورد في الكلام..

كان اليزم يثق بنفسه وبقدرته على تجديد النحو، وكان ينظر للنحو على أنه جسم سليم، وأعضاء كلها سليمة، لولا غدد عقلت فنقرحت وأصبح الصديد يسيل منها.

والنحو في نظر اليزم بسيط أصيل، وعملي لا تجريدي، لذلك لا بد من إعادته لبساطته وعملياته "يجب أن يكون عملياً لا نظرياً ظنياً، فيرى ويلمس أثره في كل كلمة من كلام العرب، لا أن تتكلف له وضع الأمثلة مما يجود به خاطر سليم، أو لسان فصيح، ولا نكذب على العرب بما لم يقوله، ولا نحرف لهم ما قذفته خواطرهم حسب طبيعة إقليمتهم ووفق لغتهم، ولا نخلق على ألسنتهم ما لم تجر به ألسنتهم، ولا نتبع ما أثر عنهم من ضرائر شعرية فنوسع بها القواعد سعة لا تحتملها أمة في لغتها، ولا نترك الأمانة في النقل والرواية، فلا يبقى في كثير من شعر الشواهد إلا ما يعين على تعدد القواعد، وتبليغها خدمة لشيء اسمه أغراض النحاة، تلك الأغراض التي انتهت بالنحو إلى أبعد غاية، وأقصى مدى من الوثوب على كلام العرب. فأصبح النحو وليس في الأرض من يدعي الإحاطة به، ولو لم يقرأ من عمره شيئاً سواه، مهما طال عمره، وتراخى أجله، لكن اليزم لم يجمع أفكاره، الموزعة في كراريس تلاميذه على مدى خمس وعشرين سنة قضاها في التدريس، منها سبع عشرة في التجهيز التي كانت أشبه بكلية الآداب، حيث كان أكثر أعضاء المجمع العلمي العربي يدرسون فيها، يقول الدكتور سامي الدهان في كتابه "الشعراء الأعلام في سورية" متحدثاً عن اليزم "وتخرج على أيدي اليزم جيل من المثقفين يحفظون له يده في شرح قواعد النحو ومعرفة أسرار الإعراب، وإدراك غور اللغة والمفردات، وتملك ناصية الفصاحة والبيان، فكان في نظرهم حجة قوية، ومصدراً كريماً وينبوعاً فياضاً، يرجعون البصر إليه في ذكرى مقدسة وإكبار عظيم.

البزم الشاعر:

يتألف ديوان البزم من جزأين، ضم كل ما تركه من أشعار، إلا تلك الأشعار التي فقدتها أثناء الحرب العالمية الأولى، وكان قد أودعها والدته لتخفيها عن عيون الأتراك، والديوان حافل بالقصائد الجيدة، التي تدل على شاعرية البزم من جهة، وعلى لغته المتينة من جهة ثانية، كما يلمس القارئ المتمعن أن أفكاره ومشاعره تتواء تحت وطأة الكلمات الفخمة والضحمة المنتقاة بيد خبير لغوي، والمستلة من ذاكرة حافظة للتراث. البزم شاعر مقلد أكثر منه مجدد، اقتفى آثار القدامى، ونهج منهجهم أو صاغ على منوالهم، ولا ينفي البزم ذاته ذلك فيقول: إن أول ما نظمت من القصائد قصيدة عنوانها "اليوم خمر وغداً أمر" يقلد فيها امرؤ القيس ومنها قوله:

(خيلي هيا نلعلى أو دعانيسيا فقد يدرك العلياء من بات ساعيا
عققت العلى إن لم أكن ذا نباهة أحلي عويسات وأظهر خافيسا
لقد ذل من يهوى ظبي الغيد والمها وعز امرؤ يهوى الطبسا والعواليا)

إلا أن المتنبي والمعري كانا أكثر تأثيراً في البزم وشاعريته، حيث وجد نفسه في كليهما، فقد كان ثائراً متمرداً على زمانه، مترفعاً على الناس مستصغراً لشأنهم كالمتنبي. وكان سوداوياً، انزالياً، ناقماً على الحياة كالمعري.

عبر البزم عن إعجابه بالمتنبي في مطولته - وهو مولى بالمطولات - التي

ألقاها في ذكرى المتنبي ومنها قوله:

كسوت بنات الضاد نسجاً مسرداً ترف على عمر الزمان غلائله
وأثبت في جيد الزمان قلائداً سينزعها إن مات ذا الدهر غاسله
تصيح له أذن الزمان وتنتشي برناته أسحاره وأصائله
تهب له الموتى، ويكتب البلى وتعتو له شمس النهى وتراسله

وقاده إعجابه بالمتنبي إلى تقليده، في فخره وافتخاره، وفي حكمه وأقواله، ولا

سيما وأن المتنبّي أعظم من افتخر وأقدر من أرسل الحكم ونظم الدرر:
وهاهو ذا البزم ينسج على منواله:

ولا تكنزن المال ضناً ببذله فلست بدار من يكون له الكنز
أو:

ولو شئت سيرت القوافي جفافاً وأوقرت اسماعاً وكان لي الفوز
وإن قنّاة الشعر لوماد منتهها لقومها مني ومن قلّمي غمز

أما إعجابه وتأثره بالمعري - فيلسوف الشعراء وشاعر الفلاسفة - فواضح في
العديد من المقطوعات أو الأدبيات المتفرقة التي تدفع بمواقف أبي العلاء إلى
الخاطر مثل قوله:

نزلت من الوجود بدار غي	وداء الغي في الدنيا قديس
نحب حياتنا ونذب عنها	وفي أجسامها منها كل يوم
إذا نزل المصاب بنا وجمنا	كأن الهول يدفعه الوجوم
نهدد بالجحيم إذا نبذنا	أموراً مجها العقل السليم
لعمرك ما بنو حواء إلا	لنم صحب النهى أبداً خصوم

ويعترف البزم بتلمذته وأستاذية المعري في قصيدته المطولة التي ألفها في
ذكرى المعري والتي كانت السبب في خلاقه مع صديقه محمد كر علي، ومنها
قوله:

فما في قريض الأرض أو في	معاذ لمن يوفيك ما هو تاديه
وما أنا إلى صوب مزك هامراً	وروض توالى بعد عد مواطنه
نقعت غليلي من خضمك حقبة	أنت بالربيع الفخم ترهو حبانره
هو الشاعر الأعلى فمن ذا يكابره	وقد طبق الدنيا فمن ذا ينافره

ولو نشرت أي النوايغ جملة
لربيت عليها آية ومآثره

وقد اهتم اليزم بقضايا أمته ومشاكلها، فكان للهم القومي الحظ الأوفر في شعره، فهو طوراً يستنهض الهمم ويستفز العزائم ويصور واقع حاله لعل من يجيب:

يا أيها الوطن الذي عبثت به	أبناءؤه فترأست جهاله
وتناوبته الكارثات فساسه	في النازلات المصميات رذاله
وتفرقت شيعاً به أبناءؤه	وتخاذلوا فتقطعت أوصاله
جالت به خيل العدا فاستوبلت	أرباعه وسهوله وجباله

وظمح إلى أن يرى العرب أسرة واحدة ، والعروبة الدم الجاري في عروقهم، فإذا أملت بأي قطر ملمة، نادى مذكراً مستجداً:

بني الجزيرة والأسساب جامعة	والحازم الشهم يلقي الدهر يقظانا
أين الحمية، بل أين العروبة هل	غاض الوفاء وأض الود هجرانا
أما سمعتم ورسل البرق جائلة	بما تعانيه إسراراً وإعلناً

أو يصف حال الأمة، والأمراض التي اعتورتها، واختلال القيم والموازين وتفشي الفساد والفوضى. إنه شاعر صاحب رسالة ورسالته تقتضي أن يزود عن أمته، وأن يثير عزائم أبنائها:

إذا أنا لم أنهض لإسعاد أمتي	عزائم مرخاة عليها ستورها
فلا حملت كفي البراعة وترتمي	على مهرق يصمي القلوب صريها

كذلك لم يهمل الشاعر وصف الطبيعة الساحرة في دمشق والمدن السورية الأخرى، كما أنه لم يهمل الحياة الاجتماعية، وديوانه حافل بالقصائد الرائعة.

وبالإجمال فإن شعر البزم يتسم بصورة عامة بالفصاحة والجزالة، ومتانة التركيب واستعمال الغريب - نوعاً ما- لعرض عضلاته اللغوية، ساعده في ذلك حفظه شعر الأقدمين وثقافته العربية، وتمكنه من اللغة، لذلك صفت ديباجته وبرزت مقدرته اللغوية، وتنوعت موضوعاته، وبالمقابل غاصت عواطفه ومشاعره في ردائها اللغوي، إذ لا بد للوصول إليها من نزع هذا الرداء اللغوي.

البزم الكاتب الأديب:

بالرغم من قسوة النقد عليه، وقسوته ضدهم، فإن هناك جانباً مشرقاً من حياة البزم ما يزال مجهولاً وهو النزعة الأدبية التي كان يفرغها في جريدة (الميزان).. وجريدة الميزان حدث أدبي في تاريخ سورية، وكان صاحبها (أحمد شاكر الكرمي) على ذكاء واسع وقوة خارقة في أدب النقد، فاتفق الرجلان في هذا السبيل، وغدت مقالات (الميزان) موضع الحديث في الأسمار والمجالس وفي المدارس.. ولقد وجد البزم في هذه الجريدة متنفساً لأدبه ومجالاً لشعره، وتسدل المقالات التي كتبها البزم على ثقافته العربية الواسعة، وعلى عمق معرفته وإطلاعه على التراث، إلا أن مقالاته النقدية لم تجمع ولم تنتشر في كتاب بل بقيت موزعة في صفحات الصحف، ورغم إلحاح أصدقائه ومريديه، فإنه لم يعمد إلى جمعها ونشرها كما فعل سواه.. وله كلمات في شعراء دمشق، رسالة نشرها متابعة في جريدة الميزان لكنها لم تر النور مجتمعة.

وكان رفاق محمد البزم في التجهيز، ومنهم سليم الجندي شيخ الأدب العربي لجيله، وعبد القادر مبارك شيخ اللغة في أيامه يشكلون الثلاثي الأدبي، وكانت مجالسهم من أروع ما حفلت به مجالس تلك الأيام الحلوة، فيها الآراء الأدبية، والنكات النحوية، والمشاكل الإعرابية، وربما احتدم الجدل أو ربما بلغ حد التفاخر والتهاجي بحيث ينتهي ذلك كله إلى التقاطع والتباعد إلى أن يقيض لهذا الثالوث ما يجمع شمله ويرأب صدعه.

تحدث البزم مرة عن أحد الأدباء فقال: إنه معدن الغلاظة - بفتح الغين - فأجابه المبارك بأن صواب هذه اللفظة بكسر الغين (غلاظة)، ولم يطق البزم أن يرد عليه أحد في هذا الباب، ولجأوا إلى القاموس، فثبت خطأ فما كان منه إلا أن قال على البديهة: (الحمد لله على أنه غلبني بغلاظته).

وكان البزم يقول إن (إنما) الشرطية حرف لا اسم، وكان أحد الأدباء يقول بأنها اسم، وسئل الجندي فقال: نحن هذه الأيام بأزمة (إنما)، وروي أن أحدهم اعترض على حرفية (إنما) ونقل الاعتراض للبزم فقال: (إن هذا القائل يجب أن يصفع على قفاه مدة ستة أشهر متوالية)، وعلق الجندي على ذلك فقال: (نحن حاثرون الآن من المظلوم؟ المصفرع أم الصافع؟ الذي سيستمر على العمل المضني كل هذه المدة الطويلة).

كانت هناك حكاية في مجلس عباس محمود العقاد، وفي حضور الشاعر كامل الشناوي، والرسام محمد عبد المنعم رخا، والصحفي الأديب محمود العزب موسى، والأديب الظريف محمد مصطفى حمام، وتكلم الحضور عن الشعر والشعراء في دنيانا العربية والعقاد صامت ... كان يريد أن يفرغ الجميع من الكلام ليتكلم، وحين يتكلم العقاد يصمت التلاميذ في حضرة الأستاذ.

كان حديث العقاد في تلك الأمسية الحاملة أشبه ما يكون بملحمة ساخرة، فيه النقد اللاذع لمعظم من عاصروا أديب العربية من الشعراء، وفيه أيضاً الكثير من النقد المر لكل شاعر ارتزق.. الوحيد الذي أفلت من لسان العقاد هو محمد البزم .. الذي وصفه العقاد يومها بقوله: (حرام أن يغيب اسم هذا الشاعر الفحل، ومن الجريمة الأدبية أن يعقه تلاميذه الذي أدبهم فأحسن تأديبهم .. فكل ما سكبته محمد البزم من شعر، يحس مستمعه أو قارئه أنه نبع من عقل الشاعر ليستقر في عقول الناس .. وتلك هي أشعة الإلهام التي يهبها الله لمن يشاء من عباده الموهوبين..

إننا لنحس في شعر محمد البزم قسوة الإنسان المترفع عن الدنانيا الحريص على كرامته ألا تهان أو تمس .. وليس عجباً أن يكون البزم مدافعاً عن عمود

الشعر وأصالة اللغة، فإن رسالة الفنان هي الذود عن كرامة لغة القرآن، فإذا فقد الشاعر هذه الأصول فقد أضاع رسالته..

من المؤسف أن عديداً من مؤلفات اليزم ضاعت، ولم يتيسر لأحد أن يعثر عليها. ومنها كتاب في اللحن الذي سرى في كلام العرب، ودرس أسبابه وأنواعه، وكتاب (النحو الواقع) حرره نتيجة تجاربه على منابر التدريس وقراءاته في كتب العربية، وكتاب عنوانه: (الجواب المسكت) وهو مجموعة كبيرة لكل جواب مسكت قالته العرب، وكتاب آخر هو (الجحيم) وفيه أقام الدليل على أن اللغة العربية سهلة جميلة في عامة فنونها، وهي قادرة على السير مع الحياة التي سارت، وفيه حملة على الشعوبيين من اللغويين والنحاة الذي عقدوا قواعدهم، ليختصوا بعملها ويجعلوه وسيلة إلى كسبهم، وامتطاء أعناق الناس، وفيه الدليل المشرق على أن ما أحكمته الطبيعة من جمال العربية وفتنتها لم يكن خاصاً بقواعدها بل هو شامل لكل فنونها..

تكاثبت الأمراض على الشاعر والأديب "محمد اليزم" في هزيع عمره الأخير، وفقد بصره، ثم بارح الحياة عام ١٩٥٥ بعد رحلة عطاء خيرة، اقتترنت بالألم والضنك الشديدين.



قاوم الاستعمار بشعره، وأغنى مكتبة الفكر بمؤلفاته

ثمة في الناس نماذج مجسدة للإبداع الفكري الخلاق، وللعطاء الإنساني الخير، تفتحت عيونهم مبكراً على كنوز التراث العربي الإسلامي الخالد، فملكوا البسبب، وأصبح محور حياتهم الرئيسي، فوطدوا العزم على إضاعتها، وجندوا طاقاتهم للكشف عن فرائدها، وتقديمها للأجيال نابضة ومتألقة بالحياة، وقد عرفت تلك النخبة من المحققين والباحثين المبدعين، من البداية، ما ينتظرها من مشاق، وهي تخوض عمار بحر واسع من المصادر والمخطوطات، تتطلب في الواقع جهود مؤسسات ثقافية متكاملة ... ولم يثنها ذلك ويوهن همتها، بل وعلى العكس، ازدادت إيماناً بقدسية الهدف الذي تسعى لبلوغه، وتصميماً على المضي فيما نذرت لسه عزيمتها الوثابة.

وسط هذه الكوكبة المبدعة من أعلام الفكر الذين أثروا المكتبة العربية بألوان المنجزات الثقافية الباهرة، يتألق الباحث والشاعر والمجاهد "خير الدين الزركلي" رائداً متميزاً قدم لأمتة عملاً موسوعياً فريداً، بذل له سنوات طويلة من عمره، وهو ساهر مستغرق في أكوام المجلدات والمذكرات والوثائق والفهارس، يتتبع سير الأشخاص وصورهم ورسوم أعمالهم وخطوطهم وتواقيعهم، يتأمل ويدقق، ويدرس ويقارن ويفحص ويقوم، لا تفوته كلمة ولا فاصلة، حتى إذا أنجز مهمته كما رجا، خرج مشروعه القيم إلى النور، موسوعة "الأعلام" في ثمانية أجزاء ضخمة، مثلت للمحققين مرجعاً غنياً والباحثين مصدراً موثقاً في تراجم الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين.

ومما يثير الدهشة حقاً أن "الأعلام" حقق للزركلي صيتاً ذائعاً كموسوعي قدير، ومحقق بارع، وحجب - إلى حد ما - صورته كشاعر محلق تلك التي سمت

حياته ومسيرته الفكرية، فكان بحق واحداً من أربعة شعراء رفعوا راية الشعر الرفيع في سوريا في النصف الأول من القرن الماضي، وهو مرحلة الثورة والجهاد ضد المحتل الأجنبي.

ولد "الزركلي" في بيروت عام ١٨٩٣ لأسرة دمشقية، وعاد فترعرع بدمشق، وتعلم بمدارسها الأهلية، وتلقى على مشايخه علوم اللغة العربية، فعشقها وأولع بالتراث العربي، وتنفس أريج الشعر في صباه لكثرة ما ردد من الشعر القديم، ودأب في المكتبة الظاهرية، مصاحباً كتبها كأنها جزء منه، وما لبث أن أصدر مجلة "الأصمعي" لينشر فيها خلاصة فكره، ويحث على حب العروبة، مما دفع السلطة العثمانية التي كانت تحصى على العرب أنفاسهم، إلى إغلاق الصحيفة.

انتقل "الزركلي" إلى بيروت وتعلم الفرنسية، وأصبح مدرساً للأدب والتاريخ العربي وهو بعد في الخامسة والعشرين من عمره، ولما عاد إلى دمشق ثانية أصدر مجلة "لسان العرب" التي حدد لها خطة قومية، وهدفاً وطنياً خالصاً، فلم تعمّر طويلاً، وما لبث أن نشر جريدة "المفيد" اليومية وصادف ذلك دخول قوات الاحتلال الفرنسي إلى سوريا وصُدور حكم بإعدامه لمواقفه الوطنية الجريئة التي تجسدت في شعره المتدفق حماساً، وقصائده التي أجبت مرّجلاً الثورة ضد المحتلين، فقرأه يهتف في وجه الغاصب:

تأبى لها الغلى أن تطيقا	"إن في الشام أمة لا تطيق الضيم..
سقوها من الخداع رقيقا	أوسعوها تعلّة ووعوداً
إذا كان للحياة طريقاً	أنذرونا بالموت ما أعذب الصوت

ويصور نكبة دمشق يوم ساط عليها المستعمر الغاصب نيرانه:

وشعار وادي التيربين شعاري	"الأهل أهلي والسديار دياري
واري الزناد، فزنده بي واري	ما كان من ألم بجلق نازل

إن الدم المهرق في جنباتها لدمي، وإن شفقها لشفقاري
النار محذقة بجأق بعدما تركت "حماة" على شفق هار
فإذا المنازل وهي شامخة النرى متهار أطلال على منهاار

وتلاحق سلطات الاحتلال "الزركلي" فيضطر للتقل بني فلسطين ومصر
والحجاز، والالتحاق برجال الثورة العربية، مناضلاً معهم لتحقيق الوحدة الكبرى،
ويمتلئ قلبه بالحنين للوطن فينشد:

"العين بعد فراقها الوطناً لا ساكننا ألفست ولا سـكنا
والقلب لولا أنفة صعدت أنكرته وشككت فيه أنا
يسا موطناً عبث الزمان به من ذا الذي أغرى بك الزمنا
إن الغريب معذب أبداً إن حل لم ينعم، وإن ظلنا

أمضى "الزركلي" عامين في "عمان" تولى خلالها منصب مفتش المعارف
العام، ورئيس ديوان الحكومة، وأكسبه ذلك خبرة في الحكم وتمرساً في السياسة،
فلما اندلعت الثورة السورية ضد الفرنسيين عام ١٩٢٥، وتزايد نشاطه الوطني،
وانتشرت قصائده الحماسية، صدر حكم جديد بإعدامه، وانتقل مرة أخرى إلى القدس
ليصدر فيها جريدة "الحياة" اليومية، التي عطلتها سلطات الاستعمار البريطاني.

وتواصل عطاؤه الشعري، مؤثراً في النفوس، ومثيراً للعواطف، وجاءت
قصائده متوهجة الألفاظ، قوية المعاني، يسكب فيها روحه بأسلوب عميق مشرق،
طافح برهافة الحس ورقة الجرس ... جاهد الزركلي مع المجاهدين بالكلمة ورفع
صوت الوطن عالياً في العالم، ونادى بوحدة الأمة العربية، طريقها الصحيح إلى
الاستقلال والحرية.

وفي تلك الفترة اختارته الحكومة السعودية ليعمل مستشاراً بمفوضيتها في

القاهرة وانتخب في العام نفسه عضواً بالمجمع العلمي العربي، وتدرّج من جانب آخر في المناصب السياسية ليغدو أخيراً سفيراً للسعودية في المغرب. وفي الهزيع الأخير من حياته أقام الزركلي في بيروت، ولم يمنعه المرض من متابعة مسيرته الحافلة في التأليف فأنجز ديوانه الشعري، وعدداً من الكتب النثرية، منها قصة شعرية بعنوان: ماجدولين والشاعر، وكتاب "الملك عبد العزيز في ذمة التاريخ" وغيرها، إضافة لمراجعة موسوعته "الأعلام" وكسان في زيارة عابرة للقاهرة حين وافته المنية في تشرين الثاني من عام ١٩٧٦، فدفن فيها مودعاً بالإجلال والإكبار اللائقين بالمجاهد والشاعر والموسوعي الرائد، الخالد بشعره ومؤلفاته.

المصادر:

- الأعلام - ج ٨.
- الشعراء الأعلام في سوريا: د. سامي الدهان.
- عبقريات من بلادي: عبد الغني العطري.





عمر أبو ريثة :

مقهي العروبة ... وفارسها الحزين

في أوائل الأربعينيات كان مقهى البرازيل في دمشق مؤنلاً للكتاب والشعراء،
تتعدد الحلقات حول طاولاته، وكان أبو ريثة ذو القامة الفارعة والهندام الجميل،
والمحبياؤن المؤنس والعينين الشهلأوبن المؤطرتين بنظارة أنيقة مذهبة، مركزاً لنلك
الحلقات (سيد الكلمة الشاعرة)، (كما يصفه د.بديع حقي).

وأصبح الشاعر فيما بعد سفيراً، ليس لبلاده فقط بل للغة العربية وللشعر
العربي، مجدداً في صورته ورافضاً الخروج بنفس الوقت عن نمطية الأشرطة
المتساوية (التفعيلات) في القصيدة العربية.

نعرف أننا، ولو قدمناك، لا نفيك حقك من التقديم، لذلك نترك لك تقديم نفسك
بنفسك وشعراً إذا شئت.

((تتساعلن على م يحنس هؤلاء الأشسقاء
المتعبون ودربههم قفر ومرسأهم هبساء
الذأهلون الواجمون أمام نعش الكبرساء
الصأبرون على الجراح المطرقون على الحياء
أنستهم الأوسام ما ضحك الحياء وما البكاء
تتسألن وكيف أعلم ما يسرون على البقاء!
امضي لشأنك ... اسكني ... أنا وأحد من هؤلاء!!))

وأوضح من هذه الصورة، الصورة التالية:

((رب ضاقت ملاعبي في الدروب المقيده!
 أنا عمر مخضبة وأمان مشرده
 ونشيد خنقت في كبريائي تنهده
 رب ما زلت ضارياً من زماني تمرده
 بسماتي سخية وجراحي مضمده))

وأوجع من الصورتين السابقتين الصورة التالية:

((صاح وكؤوسي لا تشقي	غصصي، لا تسكر آلامي
أسستعرض أيامي فأرى	ما تنفر منه أيامي
فجفوني لا تعرفها إلا	أحلامي تقتل أحلامي
ودروبي لا تذكر أنمي	نقلت عليها أقلامي!
صاح وأحبك يا منيسا	في الوهج، من الشفق الدامي
ما أوجع نفرة أهواني	منسي، وتساوب أصنامي!!))

■ قال أحد الفلاسفة: القصور الوحيدة التي لا عيب فيها هي تلك التي يبنها أصحابها في الأحلام، ماذا يبنيت في الأحلام وأنت صغير؟

- أحلامي في الكبر هي امتداد لأحلامي في الصغر، نشأت في بيئة متصوفة، كنت وأنا طفل أستمع فيها إلى أناشيد لم أكن أسمع مثلها خارج تلك البيئة، كنت أردد ما مع الأهل وأصدقاء الأهل دون أن أدرك أبعاد معانيها، كانت مع ذلك تتقني إلى أجواء جمالية تتجلى فيها الذات الكبرى في أروع وأسمى التجليات، كانت تلك الأناشيد لكبار المتصوفين، أمثال ابن مشيش وجر الصفا وعلي وفا وابن العربي وعبد القادر الحمصي وابن زروق، وكان حلمي الكبير أن أصل إلى ما وصل إليه هؤلاء السادة في تجاليم الروحي وسعائيم الحياتية.

▪ عفواً، هل تذكر شيئاً من تلك الأناشيد؟

- أجل أذكر الشيء الكثير منها ومازلت أشعر بفيض من النشوة يغمرنني عند ذكري لها ولإيقاعها الحنون. خذ على سبيل المثال قول الحمصي:

((لاح برق الذات من ذاك اللوا - قد بدا حبي
وبه قد زال من عيني الشوى - وانجلي قلبي
يا ندامى كل من يصبنا - ما عليه باس
سار في بحر الصفا مركبنا - ريحه الأنفاس
ليس يدري في الهوى مشربنا - غير ذي قلب))

كما أذكر قول بحر الصفا:

((إني أنا شيء عجب - لمن رآني
أنا المحب والحبيب - ما ثم ثان))

كما أذكر قوله:

((علم التوحيد - كشف العيون
أصل التجريد - هدم الحصون
حل التقييد - جمع الشؤون
عز التأييد - أن لا تكون!))

وهكذا تعودت أدني على استساغة ألحان الشعر لكثرة ما كنت أردد تلك الأناشيد، ولطول ما كنت أصغي إلى ما كان يجري بين أُمي وأبي وأقاربي من مساجلات شعرية، كانت تعرف (بمذكرة الأنفاس) فلم أكن في المستقبل بحاجة إلى تعلم الأوزان الشعرية، تلك الأوزان التي مازلت أجهل أسماءها وتفاعيلها حتى اليوم.

■ وفي المدرسة، ألم تتعلم قواعد اللغة وأوزان الشعر؟

- درست قواعد اللغة بتوجيه وعناية أساتذتي: جبرائيل شاهين، وجرجس المقدسي وجبرائيل جبور، وأنيس المقدسي، أما دراستي للشعر وأوزانه فلم تتجاوز الشهرين، ولذلك سبب غير مجرى حياتي: فقد جاءنا أستاذ مؤقت وأراد أن يفرض علينا آراء في رواة الشعر في الماضي السحيق، وأنا منذ الصغر تعلمت في البيت أن أتمرد على كل ما لا يستسيغه العقل والسذوق، ففي أحد الأيام طلب إلينا هذا الأستاذ أن نناقش قول القائل (أراد البحتري أن يشعر فغنى)، فما كان مني إلا أن سفهت هذا القول واصفاً البحتري بأنه متسول مسكين، يريق ماء وجهه على أقدام ذوي الجاه وأصحاب الثروة، وليس بالشاعر الذي يستمد وحيه من عالم أسمى!.

قرأ الأستاذ على التلاميذ ما كتبت بلهجة استهزاء دون أن يشير إلى اسمي، فما كان مني أن وقفت بعد فراغه من القراءة، ودافعت عن وجهتي نظري بكل عناد واعتزاز، فطرمني الأستاذ من الصف، وغادرته إلى غير رجعة وعندها تحولت إلى فرع العلوم، هذه الحادثة جعلتني أستغل سليقتي الشعرية للتفريغ عن نفسي، ولأول مرة أكتب قصيدة مازلت نادماً على مضمونها التافه، أذكر منها واصفاً الأستاذ:

((لم يدر من لغة الجدود سوى قفا	نبيكي على الثرائر في هذباته
وإذا تكلمم والتراجم ودعست	فافهم من الأستاذ سحر بيانه
قد شاء ربي أن يصور هيكلأ	ويدس سر العقل في آذانه
وأراد إعلاء المنار لمعهد	أعلامه أولى بممارساته))

■ وكيف استطعت بعد ذلك أن تؤلف بين سليقتك الشعرية هذه وانطلاقك صوب العلوم؟

- تستعرب إذا قلت لك: إن سليقتي الشعرية هذه قد حققت لي بعض المكاسب أيام

دراستي الابتدائية والثانوية، وعلى سبيل المثال أذكر أن علم النبات كان أكره العلوم إلى نفسي، وكان من المستحيل علي أن أحفظ أسماء المئات من الأصناف النباتية وفوارق نموها وتفاعلها الحيائي كالكلوروفيسيا والرودوفيسيا، والفوفوفيسيا، والألج والفنج والفرن والزواوسبور والأووسبور، والزايغوت إلى ما لا حصر له من مشتقات، وكانت دهشة الأستاذ والتلاميذ بالغة حدها عندما كنت في كل الامتحانات ذلك الفارس المجلي، استدعاني الأستاذ بعد أن نلت العلامة الكاملة في الفحص النهائي، وسألني أمام إخواني الطلاب عن سر المعجزة التي لم يحققها غيري - السر، قلت له: أني طويت أسبوعاً كاملاً في نظم كتاب علم النبات فيما يشبه ألفية لبن مالك وبلغت أنفسه لا يفهمها إلا صاحبها، فسألني على الفور، ما الفرق بين الكين والفوليكل من فئة الكلوروفيسيا فأجبته على الفور:

واكيننسنا فاقنت على فاكيلك بالحجم يوماً ثم بالفلق الكثير!

أي أنهما متشابهان في جميع المميزات فيما عدا الحجم وكثرة المسامات! وهنا انفجر الجمع بالضحك والإعجاب، والعجيب في الأمر أني حتى اليوم أستطيع أن أتلقى أي فحص في علم النبات وأنجح بتفوق!.

■ نعلم أنك بعد أن أتممت دراستك الثانوية ذهبت إلى إنكلترا وتخصصت هناك بالعلوم، فما فعلت بموهبتك الشعرية؟

- كنت أكتب في أوقات فراغي ما كانت تتركه في نفسي بعض أهوائي من هواجس، كنت أكتبها للتسلية وللتسلية فحسب، ولا أقيم لها أي وزن، فقد كانت في منتهى السطحية والتفاهة، أذكر أني قبل وصولي إلى إنكلترا، بقيت أسبوعاً في باريس وخرجت منها بقصائد خالعة، ندمت فيما بعد كل الندم على

تعميمها بين أصدقائي، إنها تذكرني بقصائد بعض شيوخنا المراهقين في هذه الأيام.

■ هل تذكر شيئاً منها؟

- كيف لا ؟ أقول في إحدى القصائد:

((أفدي الحسنان وأي صب لا يكون فداءهنه
اللينات قدودهن المضرمت خدودهنه
المسيلات شعورهن الشقر فوق نحورهنه
الساحرات بطرفهن وذاك أضعف ما بهنّه))

إلى أن أقول:

((سقى لعهدك يا زمان تنعمي بوصالهنه
العيش مخضل الأديم ولمتسي ذوب الدجئة!
كم حاية علقتهما قبلاً على أعناقهنه
كم قد غضبت تدلاً وهممت أترك جمعهنه
فلحقن بي وجذبني ولثمنسي ولثمتهنه
ورتعست في نعم السشاب
وماثنت له الأعنّه!))

إلى أن أقول:

((كم من ليال قد مضت	وعشائهن كفجرهنه!
نشوان من حلق العيون	وكم لها في القلب طعنه
لله كم عاهدت نفسي	أن أشبع خبئه
في الصبح أبرمت العهد	وقسي المساء نقضته
هذي ذنوبي إنما	العشرون تشفع لي بهنّه!))

▪ تقول إنك نادم على كتابه مثل هذا الشعر؟!

- أجل، كل الندم.

▪ ومتى إذن بدأت تنظر إلى الشعر بمنظار آخر؟

- في أعقاب حادث عاطفي كان له الأثر العميق في حياتي، لقد أوحى إلي هذا الحادث بمجموعة من القصائد قدمت لها بهذين البيتين:

((يا فؤادي أما تزال كئيباً شاكياً باكياً على غير جدوى
لا تكن ظالماً فإنك إن --- ست تركت الآلام من غير مأوى))

وقد تناول هذه القصائد وكتب عنها أديبنا الراحل الدكتور سامي الدهان في كتابه عني، وكنت خلال دراستي العلمية أملاً أوقات فراغي بقراءة نتاج الشعراء المفضلين لدي أمثال: روبرت براوننغ، وادكار آلان بو، وأوسكار وايلد، وكيتس، وروبرت بروك بالانكليزية، وبودلير، وفاليري، وسولي برودوم بالفرنسية، إنني في تلك الأيام ما كنت أعرف غير هاتين اللغتين، ولكن فيما بعد اتجهت إلى تعلم لغات أخرى فأعجبت بعد الحق حامد التركي، وأورويندو وساروجيني نايدو الهنديين، كما أعجبت بالشعراء الذين كتبوا بالأسبانية والبرتغالية أمثال: مشادو، والبرتودا اليفيرا، وأولافو بيلاك، وكاسترو ألفس.

▪ هل تأثرت بشاعر معين من بين هؤلاء الشعراء وقبست عنه؟

- إنهم في مجموعهم وعلى اختلاف وتباين أساليبهم ونزعاتهم، لم يكونوا مقلدين لأسلافهم، لقد كانوا مبدعين، كل في طاقته الوجدانية والفنية، لقد مهدوا لي السبيل لأن أخلق شيئاً جديداً، فأنا بنيت بيدي الكوخ الذي أحبه وأقيم فيه، وليس لأحد منهم حجر واحد بين أحجاره.

■ وكيف إذن أصبحت تقيّم أو تقوم الشعر بعد هذه المعاناة الطويلة؟
- إنه التمرد على واقع الحياة، والحياة فيه حكاية عابرة، أما هو فثلك الأكذوبة المبدعة التي تصبح حقيقة، إنه وليد الحرمان الذي يدر عطاء، وقيمته تتوقف على عمق التجربة الفردية وقوة التعبير هذه التجربة.

■ أستاذ عمر و في ضوء ما تقدم، ما هو موقفك من الشعر الحديث؟
- ليس هناك شعر قديم أو شعر حديث، هناك شعر، وشعر فحسب، فبينما تراه مقيداً بلون ونغم في بعض الأحيان، تراه مطلقاً من هذين القيدين في كثير من الأحيان، وهو هو يفعل في النفس بمقدار ما يحمل من عطاء، وبمقدار ما عند تلك النفس من قدرة على التلقي، إن بعض الشعراء تأثروا كثيراً بدراسة الإنسان وعقله الباطن الذي أسميه الخزان الأكبر، فالصور التي يطلقها العقل الباطن غير واضحة ولا يبلغ العقل الواعي منها غير كلمات مبعثرة لا رابط بين الواحدة والأخرى منها، فتأتي القصيدة إن شئت أن تسميها قصيدة، مجموعة من الألفاظ المتباعدة التي كانت إطاراً كاملاً بصورة من صور العقل الباطن، فكان الشعر السريالي والتشكيلي وما يتفرع منهما، ولكن لم اعمل به لأن ما يهمني من الصورة أو الفكرة هو الكل لا الجزء، أذكر أنني تعرفت إلى سيدة ذات عينين عجيبتين، وفي أحد الأيام وبينما كنت أتأمل جمالها سمعت عقلي الباطن يقذف بالكلمات التالية:

- العيان وحشيتان، اهرب، النيل، الكهان، المعبد، رأيت السيدة مطرقة في زهول، شعرت أنني عشت مع هاتين العينين في عصر من العصور البعيدة، سألت السيدة إن شعرت بشيء فظننتي أهذي، الشاعر السريالي المخلص يكتفي بتسجيل هذه الكلمات الست ويعتبرها قصيدة، أما بالنسبة لي أنا المؤمن بخلود الروح، وبأنني زرت هذا الكوكب أكثر من مرة، فقد جمعت تلك الكلمات الست وجعلتها إطاراً بصورة ارتاحت إليها نفسي فقلت:

((عيناك سوداوان وحشيتان
فكم طواني في مداه الزمان
فهذه ليلتنا الحالية
ليلة نام النيل مفتسراً
أقرأ في طرفيها عمري
وما طوت نجواهما صبري!
عادت بأشبات المنى الغالية
محتضاً حسناؤه البكر

وزمر الحسان - في رقصها الفتان - نواكب الألحان بالصنج المزهر
- والنسد والعنبر - وخلفها الكهان والمعبد الأكبر!
ونحن؟ هل تذكرين - كيف اتسللنا كيف شقينا الحنين
وفي حمى نخله ترنحت قبله فسلسلت نهله فأطقت غلله

وبعدها، لم نلمح الفجرا ولم تزل ليلتنا سرا
أعرف منها هذه الذكرى ما بك يا حسناء، يا سمرا

أراك لا تسددين ماما ماما
من أنت؟ ردي عليّ سوالي
ولا تحدي مادي خيالي
أعرفيني؟ وتكريني؟ وتسايني؟ وتمنعيني؟
ويح يقيني. لابد أن يحنو علي الزمان
وأن تلاقيني بفيض الحنان
عينتان سوداوان وحشيتان!

■ طالما وصلنا إلى أبواب مملكة المرأة، و ما رأيك أن ندخل تلك الأبواب
المرصودة لنفسالك عن تلك التي تملأ الدنيا وتشغل الناس، إلى أي حد شغلتك

وملأت دنياك؟

- لقد درجت في هذه الحياة الدنيا وليس في قلبي فراغ أو متسع لغير الحب،
الحب المتجلي في المرأة، في الوجود، في القيم التي أؤمن بها، وكان للمرأة
نصيبها الأوفر مني، أول ما عرفتيا، وأنا في فجر العمر، قلت فيها:

((ألفتها سســـــاهمة شـــــاردة تـــــأملأ
طيف على أهدابها كســـــترها تـــــنقلأ
شـــــق وشـــــاح فجرها خميلة وجـــــدولأ
ومـــــاج فيها رعشة حـــــرى وشـــــوقأ، منزلأ
ناديتها فالتفتت نهـــــدا وشـــــعرا مرسلأ
واللحـــــظ فـــــي ذهولـــــه مـــــغرورق تملأ
طوقها يســـــا للـــــشذا مطوقأ مقـــــبلأ
فمـــــا انتشيت حـــــائرة ولا رنـــــت تـــــدلأ
ولا درت وجنتها مـــــن خجل تـــــبدلأ
كأنها في طهرها أطهر من أن تخرجلا!))

واستوقفتني في يوم من الأيام، ورددت إليها رسائلها حتى تطمئن ومعها هذه
الآبيات:

((فـــــا أشـــــقاك أشـــــقاني	((فـــــي لا تخجلـــــي منـــــي
مســـــرور المتعب الـــــواني	كلاسا مســـــر بـــــالنعـــــمي
قـــــي أهدـــــدق ســـــكران	وغادرها كســـــومضن الشـــــو
عـــــتاب المـــــدنف العـــــاني	قـــــي لـــــن تـــــسمعي منـــــي

فبعد اليوم لن أسأ
خذي ما سطرّت كفاك
صحائف طالما هزّت
خلعت بها على قدميك
لنطسو الأمس ولنسدد
فإن أبصرتني ابتسمي
وسيري سسير حالممة

ل عن كأسني وندماني
من وجد وأشجان
بسوحي منك ألحساني
حلم العالم الفاني
ل عليه ذيل نسيان
وحينني بي بتحسان
وقولي كان يهواني))

ورأيته بعد عشر سنوات فإذا ذلك الجمال أثر بعد عين، وأول ما وقع عليه
بصري بعد عودتي إلى بيتي كان تمثال فينوس الواقف في إحدى زوايا المكتب
فقلت:

((حسنا هذي دمية
طلعت على الدنيا طلوا
ومشت إلى حرم الخلود
عريانة سكر الخيا
أبدأ ممتعة بينبسو
نرنبو إليها في وجو
والطرف بسين منقل
وشى بها إبداع ناحته
ومضى وبننت رؤا
حسناه ما أقسى فجأ
أخشى تمسوت رؤا

منحوتة من مرمر
ع الساخر المستهتر
على رقاب الأعصر!
ل بعريها المتكبر!
ع الصبا المتفجر
م الحالم المستفسر
فسي سحرها ومسمر
ها الجمال العبقري
ه لم تكبر ولم تتغير
عات الزمان الأثور
ي، ان تتغيري ... فتجيري))

وأسير مع الأيام وتبدأ خيوط الشيب تطل من شعري فأنصرف عن الزهو

والإدلال إلى التواضع والمداراة، فأراني أردد بيني وبين نفسي:

(وحددي لو أنك أقصى	من ظل كأسى ظلاً
أبلى عليك الليالي	بهاجس ليس يبلى
ولسم أزل في ذهولي	أبغسي لسترك حلاً
أردت أننت انطلاقي	إلى الخباء المعلى
إلى ملاعب دنيا	ما زارها السوهم قبلاً
ولم أكن لك كفوا	ولا لحبك أهلاً
وغبت لم تترك لي	من القليل الأقل
لم أدر كيف تصدى	لي النعيم وولى
لعنه كان أشهى	من أن يمدوم وأحلى!!

وكتبت في إحدى الليالي في كتمندو عاصمة النيبال الرابضة على إحدى
هضاب الهملايا، وكانت هذه المدينة الجميلة مكسوة بالتلوج ومطفأة الأنوار:

(قالت مللتك، إذهب، لست	على فراقك .. إن الحب ليس لنا
نادمة سقيتك المر من كأسى شفيت	حقدي عليك فما لي عن شفاك غنى
بها حسبت دنيا نعيم فيك ماثلة	فخاب ظني فألقيت النعيم ضنى!
لا أشتي بعد هذا اليوم أمنية	لقد حملت إليها النعش والكفنا!
قالت، وقالت ولم أهمس بمسمعها	ما ثار من غصصي الحرى وما سكنا
تركت حجرتها والدفع منسرباً	والعطر منسكباً والعمر مرتها
وسرت في وحشتي والليل ملتحف	بالزمهرير وما في الأفق ومض سنا
ولم أكد أجتلي دربي على حدس	واستلين عليه المركب الخشنا
حتى سمعت ورائي رجع زفرتها	حتى لمست حيالي قسّما اللدنا
نسيت ما بي هزنتي فجاءتها	وفجرت من حناني كل ما سكنا
وصحت: يا فتنتي ما تفعلين هنا	البرد يؤذيك.. عودي.. لن أعود أنا!

وأسير مع الأيام ويشتعل الرأس شيئاً، فانصرف عن المداراة إلى الاستسلام
فأردد:

((وتسأليني: ما يريحك؟
غالبت فيك غوايتي
وتبعث طيفك عاقداً
وأهنت تحت لهاتها
كم وقفة لي دون دا
وغضضت من طرفي كأ
وتسأليني: ما يريحك؟
أنا إن ذكرت نسخت عا
ما أجيبك؟ لست أدري
فحسرت فيها كل كبري
بالذيل منه زمام أمري!
ما كان من زهري وعطري
رك خضبت بالذل صبري
ني ما لمحت خيال غيري
ما أجيبك؟ لست أدري!
ري، أو نسيت طويت عمري!))

وهنا أطلب إليها أن تحتفظ بأوراقي، إنها أوراق ميت:

((إنها حجرتي! لقد صدئ النـ
ادخلي بالشموع فهي من الظلمـ
وانقلي الخطو باتناد يجمـ
عند كأس الميسور حزمة أورا
أحليها، ماضي شبابك فيها
أقربها، لا تحجبي الخلد عني
يان فيها وشاخ فيها السكوت
مة وكرفي صدرها منحوت
قل منك الغبار والعكبوت
ق وعمر في دفتيها شتيت
والفتون الذي عليه شقيت
انشرها ... لا تتركيني أموت!))

وفيها أقول:

((لم أزل أسحب قيدي متعباً
أنا أقبست عليه راضياً
كل أهوائك كانت بدعة
وجراحي لم تسزل تشتم قيدي
بعدما غيبت في عينيك رشدي
من غوايات عييدات التحدي

أخذت من كبريائي ما اشتكت
 انطوى في غيب النسيان ذكرى
 وجفائي كل أترابي فما
 ما تبقى غير هذا القيد لي
 إنسه عمري، فلن أرمي به
 وتلهت بتبارجي ووجدي
 وانتهى في ذلّة الغفران حقدي
 حفظوا ودي ولا أوفسوا بعهدي
 في بقايا الليل من هم وسهد
 لا أطيق السير في الوحشة وحدي))

تجليات المرأة، ومعاناتي الحياتية معها، يطول الحديث عنها، هل لي أن
 أختصرها بقولي:

((هسي والدنيا، وما بينهما
 رحلة للشوق لم أبلغ بها
 طال دربسي وانتهى زادي لسه
 غصصي الحري وأهوائي العنيدة!
 ما أرتني من فراديس يعيده!
 ومضى عمري على ظهر قصيده!))

جاء كاهن إلى الفيلسوف الفرنسي الكافر فولتير وطلب منه أن يتوب عن كفره
 وهو على عتبة الثمانين، وكان فولتير مشهوراً بانصبابه على العمل، فأشار إلى
 الكتب والأوراق حوله وصاح بالكاهن، أترى عندي وقتاً لكي أموت يا محترم؟

■ فكرة الموت ماذا تعني بالنسبة إليك؟

- نحن لا نموت، بل لا نقدر أن نموت، ولكننا نتغير، الروح قوة، والقوة لا تفنى،
 الكون كله قائم على روعة التماسق بين النقيضين الروح والمادة، الروح باقية
 والمادة زائلة، من يدري، قد يأتي يوم يسمع فيه أحفاد أحفادنا خطبة طارق ابن
 زياد على الشاطئ الاسبنيولي، أو خطبة نابليون أمام أسوار عكا، هذا الإيمان
 العلمي انتزع من عقلي فكرة الخوف من الموت، من عهد قريب ركبت الطائرة
 في جو عاصف من لندن إلى واشنطن لإجراء العملية الجراحية في قلبي في

مستشفى كليفلاند، كنت أتخيل شبح الموت يجالسني حيناً وينفر مني أحياناً، لم أخف، رأيتني أتناول القلم وأكتب:

((حبيبتي لا تخبري إخوتي	كيف الردى، كيف عليّ اعتدى
إن يسألوا عني وقد راعهم	أن أبصروا هيكلي الموصدا
لا تجزعي، لا تطرقي خشعة	لا تسمح لي للحزن أن يولدا
قولي لهم سافر ... قولي لهم	إن له في كوكب موعدا))

إن هذا الإيمان العلمي المطلق بخلود الجواهر وزوال العرض، أي بخلود الروح وزوال المادة حبيب إلى دنيانا هذه الحياة فيها، فلم يكن بإمكانني أن أتجنى عليها كما يتجنى عليها من دب فيهم العجز والهرم من أهل العلم والأدب في العالمين الشرقي والغربي، إنني في حالتي المرضية كنت دائماً أردد بيني وبين نفسي ما فيه من حبي للأرض وتقديسي لها على كل ما فيها من أتراح وأفراح، وأكثر ما كنت أردد كان قولي:

((ملاك الموت طاف بي الأعالي	وشق بها غياهب كل تيه
وأبرز لي النجوم وكل نجم	يتيه بما لديه على أخيه
وقال لي انتق المأوى قباني	أريدك تنتقي ما تشتهييه
فأنت طويت عمرك بالتغني	بفر دوس الجمال وساكنيه
وأنت شقيت في دنياك مما	بلوت بها من العيش الكريه
فأين تريد أن تحيا بعيداً	عن القلق المرير وعن بنيه!
ولاح إلي نجم من بعيد	تفألت من مواكب راصديه
توشح بالغيوب فكان بدعاً	يتيم الند منفرد الشبيه
فقلت: هناك ! قال بكل رفيق	هو النجم الذي قدمت فيه!))

وكننت وأنا مثخن بالجراح وملقى على سرير في المستشفى، أستعرض

الماضي واتلفت إلى ما أنا عليه، فأسمعني أنشد وبسمة السخرية لا تفارق شفتي:

بـطـرف الكبرياء خـضيب	((كلما الموت لاح لي كنت أرميه
مة شكر إلى شـبابي اللعوب!	وابتسامي على شفاهي ترنيد
رائـح راصـد عليّ دروبي	وتمر الأيام والموت غاد
وولي فسي صمته المستريب	كلما شئت أن أصافحه أزور
عن حقه وقار مشيبي	إنه حاقـد علي وما يثنيه
في التلاقي من قلـة التهذيب!))	ليس ينسى الماضي وما كان مني

- لا حظت في كل ما أوردت من قصائد أن البيت الأخير هو بيت مفاجأة يخلق فكرة لم نتوقعها، فهل كان ذلك صدفة أم عن سابق تخطيط؟
- هذا أسلوب في الكتابة، القصيدة عندي وحدة متكاملة تحمل فكرة جديدة، تعودت أن أختتمها ببيت الاستثارة أو كما تقول بيت المفاجأة.

■ هل لنا أن نعرف ما يوضح هذا الأسلوب في مواضيع أخرى؟

- في قريتي، أيام العز، كان هناك طلل روماني لا يستطيع غير الظن أن يتحدث عن ماضيه، وقد استرعى انتباهي نظافة تربه وخلوه من العناكب والأشواك، فقلت في نفسي هنا يقف الموت مجروح الكبرياء، فنشأت الفكرة وتبلورت في خيالي فقلت:

ن يغيب به المرء عن نفسه	((قفي قدمي إن هذا المكا
أعاليه تبحث عن أسفه	رمال وأنقاض صرح هوت
وأسأل يومي عن أمسه	أقلب طرفي به ذاهلاً
وتغفو الجفون على أنسه	أكانت تسيل عليه الحياة
وتجري المقادير في نحسه	وتشدو البلايل في سعده

أستنطق الصخر عن ناحتيه
حوافر خيل الزمان المسشت
فما يرضع الشوك من صدره
وتلك العناكب مذعورة
لقد تعبت منه كسف الدما
هنا ينفض السوهم أشباحه
وأستنهض الميت من رمسه
تكساد تحدث عن يؤسه
ولا ينعب اليوم في رأسه
تريد التفلس من حيسه
ر، وباتت تخاف أذى لمسه
وينتحر الموت من يأسه!!

وكثيراً ما سمعت الناس يقولون في جميع بقاع الدنيا : إن المرأة حريصة كل
الحرص على كتم حقيقة عمرها، والواقع أن الرجل أحرص بكثير من المرأة في كتم
حقيقة عمره، فقلت في ذلك:

((هذي الربى كم ضاق في فضاؤها
شبه الحصى فيها ودون زحامه
وملاعبتي ومجر أذيلي بها
مالي على جنباتها أتعثر
درب يغيب وآخر يتكسر
بعدت فما ترقى إليها الأتسر

ما كنت أحسب أنها تتغير!

و الخمر، ويح الخمر، كان ألقها
ويطوف بي دنيا مخضلة الجنى
واليسوم لا وهج، ولا أرج بها
يوري أماني الرحاب ويسقر
لا أنتقي منها ولا أخير
فكانها من مرنة تتحدر

ما كنت أحسب أنها تتغير

وأرى الشتاء تطاولت أيامه
كم زارني وكشفت عن صدري له
مازلت أذكر كيف كان لهانسه
وازداد عسفاً قلبه المتحجر
فأقام لا يزهر ولا يتكبر
من دفء أضلاعي يذوب ويقطر

ما كنت أحسب أنه يتغير

وأيت مرآتي، وعطري في يدي
فبصرت مالا كنت فيها أبصر

ففضضت طرفي ذاهلاً متوجعاً ونفرت منها عاتباً استنكر
خانت عهد مودتي فتغيرت ما كنت أحسب أنها تتغير!))

« وأخيراً ماذا قلت، وهو من أجمل ما قيل في التوبة؟

((عشتُ ياربَ مرة عبد أهوا
كم تركت الهوى يطل على تـيـ
كم شققت الدجى ونار غوايا
كم بلوتُ الشجون تمضغ في رو
إن أمسي إذا التفتتُ إليه
ذلك العهد لن أحنَ إليه
صرتُ حراً، بلغتُ جنة دنيا
إنها نعمة أقطع فيها السـ
أعف عني يارب، بدد همو
ئسي شريداً لا أعرف الوجلا
سهي ويندى جبينها خجلاً
تي الغوالي تنير لي السبلا
حي وتزكي جراحها غللاً
جُنَ في الخيال واقتلا
إنه عن مناهلي ارتحلا
ي... وجفني بنورها اكتحلا
عمر مستغفراً ومبتهلاً
مي، فلقد عشت مرة رجلاً))



غنى للوطن على قيثارته..

لم يعرف الشعر العربي المعاصر .. صاحب ديباجة جميلة ولا لفظة مترفة غنية تقطر عسلاً وحلاوة، وتكتنز شهداً وجنى .. ولا عبارة فيها السهل الممتنع وإياء النفس وعزتها وسموها .. مثل ألفاظ وعبارات بدوي الجبل .. هذا الذي يعد أهم القمم التي عرفها الشعر العربي في العصر الحديث، وما زال رغم غنى هذا الشعر بأسماء وقامات سامقة يقصر عن بلوغها السحاب!!

ولد الشعر محمد سليمان الأحمد عام ١٩٠٣م في قرية (ديفة) التابعة لمنطقة الحفة في محافظة اللاذقية، عروس الساحل السوري، كان أبوه الشيخ سليمان الأحمد من أعلام الديار الشامية فقهاً ولغة وأديباً. وقد تلقى علومه الابتدائية والثانوية في مدارس اللاذقية، وشب ونفسه ميالة إلى الأدب، قرأ أكثر دواوين العرب، ورسائل أئمة البلاغة، ويكاد يكون القرآن الكريم، الكتاب الوحيد السذي أدام القسراءة فيه، وتمثل بالكثير من آياته البينات.

بدت فيه ملامح الشاعرية، وهو في العقد الثاني من عمره، وبرز على أقرانه، وحوالي هذه السن أظهر ديوانه الأول، فأقبل العلماء والأدباء عليه إقبالا لم يشهده شعر شاب قبله، فكتب رئيس المجمع العلمي بدمشق (محمد كرد علي) يرحب به، ويثني على نبوغه، كما رحب به خليل مردم وغيره، وقد كتب عنه (سليم الجندي) أحد أعضاء المجمع العلمي يقول:

(ضرب في الإجادة في الشعر بسهم وافر، وانقاد إليه من المعاني الأدبية والقوافي الصعبة، وهو في صحوة عمره، ما يقصر عن إدراكه فيه كثير ممن بلغ الأصيل من حياته، وإن الواقف على ديوانه هذا ليرى في تضاعيف شعره الشباب من جزالة اللفظ، ومتانة التأليف، والمعاني الغضة ما ينم عن موهبة واسعة،

وقريحة مطواعة، وحذق في صناعة الشعر. وإذا صح أن يبنى حكم المستقبل على الحاضر ساغ لنا أن نقول إن بدوي الجبل سيكون شاعر الشيوخ غداً كما كان شاعر الشباب اليوم!

عرف الشاعر محمد سليمان الأحمد بلقب (بدوي الجبل) أكثر مما عرف باسمه، ذلك أنه أرسل في بدء حياته الأدبية قصيدة إلى جريدة (ألف باء) الدمشقية، مطلعها:

أتقتى وما أجدى الحسام ولا أغنى قوافٍ من الأشعار تبقى ولا تفتنى

أعجبت صاحب الجريدة الأستاذ يوسف العيسى، وخشية من أن لا يلتفت إليها القراء نشر القصيدة غفلاً من اسمه، ونسبه لبدوي الجبل، وحين ظهرت جاء الشاعر يسأل الأستاذ العيسى عن هذا الإغفال فأجابه بقوله: لقد ابتدعت لك هذا اللقب لأن القصيدة فائقة الجمال، وخشيت أن لا تقرأ من كثرة الأدياء، فاستعرت هذا اللقب لأجلب نظر القراء فيعرفوا الأديب من قراءة قصيدته، ثم يقول: (والقصيدة جزلة كشعر الياضية، فناظمها بدوي، ولكن ما هذا البدوي؟ إنه من الجبل) وبسرعة البرق جرى هذا التفكير في مخيلتي وظهر هذا اللقب.

خاض (بدوي الجبل) المعامع السياسية في عهد الانتداب الفرنسي على سورية، فكان في طليعة شباب الكتلة الوطنية المكافحين عن حرية الوطن وسيادته، وكان من الشعراء الذين اندفع صوتهم في تلك الفترات. ولقد انتخب لسن مبكرة في (المجلس التمثيلي) مرات عدة، نائباً عن اللانقية ودخل الوزارة، ولكنه ظل الشاعر المغرد لكل حدث كبير بشعره، وانتخبه (المجمع العلمي العربي) بدمشق عضواً عاملاً بسين أعضائه، لمتانة شعره وشدة أسره.

حقد عليه الفرنسيون لمواقفه الوطنية، فلاحقوه، واعتقلوه، وأدموا قدميه ضرباً، وبعد عام ١٩٣٩ لاز بالعراق محتتماً بصديقه أكرم زعيتر، وشارك مشاركة إعلامية في ثورة الكيلاني عام ١٩٤١م، ولما عاد إلى سورية اعتقله الفرنسيون،

ولم يستطع الشاعر السجين حضور تعازي والده الذي توفي أثناء سجنه .. وتشرد بعد عام ١٩٥٦م ست سنوات بين بيروت والأستانة وروما وفيينا وجنيف، ثم عاد إلى العراق فاستفزته هزيمة حزيران في فلسطين سنة ١٩٦٧م، فأطلق عاصفته المدوية (من وحي الهزيمة) في مائة وخمسة وستين بيتاً مطلعها:

(رمل سيناء قبرنا المحفور وعلى القبر منكر ونكير)

أمضى بقية حياته في دمشق مع أخيه الشاعر احمد سليمان الأحمد، حتى وافته المنية، طبع ديوانه كاملاً عام ١٩٧٨م، تحت عنوان (ديوان بدوي الجبل) ويقع في (٥٥٥) صفحة من القطع الكبير ويضم (١١٥) قصيدة، وقدم له الأستاذ أكرم زعيتر بمقدمة قيمة.

شخصيته:

الشاعر بدوي الجبل، ربع القامة - إلى القصر أقرب - أسمر اللون، وفي عينيه بريق وإشعاع ينم عن عبقرية وشاعرية، تعلو البشاشة وجهه، نحيف في طفولته وشبابه، ممتلئ الإهاب في كهولته، يفيض بالحس الدقيق والشعور المرهف، سريع الحركة، جم النشاط، يتأثر لكل شيء، ويكي على كل شيء:

(أنا أبكي لليل أوحشه البـد ر، وللقلب هذه الحرمان
أنا أبكي اللهم ياوي إلى القلب ب فيقسو على الغريب المكان
أنا أبكي لكل قيد فأبكي لقريض تفلته الأوزان)

وديع كالحمل، متواضع كالبنفسجة، طاهر الضمير كزنابق الحقل، يكره الظهور، ويمقت الأبهة، ويعشق البساطة في جميع مظاهرها، يرفه عن نفسه بالمأكول والمشرب والملبس، ويغتسل بالماء البارد صيفاً شتاءً، خريفاً ربيعاً، فهو مترف أنيق:

(وأننا المتترف الأنيق ولكن ترفي من صاغه الرحمن)

دمت الأخلاق، سمح، طاهر، نقي السريرة، همومه كبرى، حلو النادرة، سارع
النكتة، متواضع لصديقه، لطيف المعشر، حلو الحديث، ذرب اللسان، حاضر
البديهة، معتز بمواهب وعروبته، ومن كلماته "..... لم أته على الدنيا لأنني خلقت
عبرياً، ولكنني تهت على الدنيا لأنني خلقت عربياً..."

شعره:

يمتلك (بدوي الجبل) أدوات الشعر العالي: الخيال واللفظ والعاطفة واللغة
والنغم والموسيقا.

يتسم خياله بالجدة والطرافة والعمق. إنه مخترع أخيلة، وألفاظه أنيقة مصطفاة
قصيدة، تسامر الأخيلة والمعاني وإشراقه وجزالة أو رقة ولوناً، كأن لها أرواحاً.
إن قصائده تدخل في منهاج المدرسة القديمة، فلا تخرج على الأوزان المعتادة،
ولا تتحرر من القافية الواحدة إلا ما كان من اندفاعات طارئة أيام الصبا في ديوانه.
أما قصائده بعد الديوان فهي القصائد العربية ذات القافية الواحدة، والسوزن الواحد
والموضوعات المتعددة، ففيها الوصف والنسب والمدح والعتاب والسياسة والهجاء،
وكانها قصيدة جاهلية أغناها الشاعر بتجاربه.

ما من حدث قومي إلا وله في وصفه قصيدة كبرى، لا تكاد تذاع حتى تنتقلها
الصحف، وتصبح على لسان الكثيرين من الشيوخ والشباب، وتسرى الصحافة
السورية أنه الشاعر الذي غنت البلاد على قيثارته في أفراحها، ومسحت بشعره
الدموع في أحزانها.

في شعره جدة وقوة وانسجام، وفي عاطفته صدق ونقاء وحنان، وفي إلقائه
عذوبة وفصاحة وبيان.

وصف (بدوي الجبل) حال قومه بالشام خلال الانتداب الفرنسي، وما أصاب
الأبنة من زعمائه، فأصبحوا بين نازح وسجين.. ويطوف فسي جلال التواريخ

بالعظماء ، فيذكر قومه بالأبطال القدماء، يقول:

(هذا صلاح الدين فاخشع إنه ملك الملوك مسالماً ومغيراً
طاف الجلال به مليكاً فاتحاً حياً وطاف بلحده مقبوراً)

ونلاحظ أن الشاعر يعمد في شعره الوطني إلى إيقاظ الحمية العربية، وإثارة الذكريات الماضية من أمجاد سالفه، ومفاخر موروثه.

وقف مرة في نادي (المتنى) ببغداد خريف عام ١٩٨٠، يندد بالمستعمرين في

قصيدته:

(يا سامر الحي هل تغنيك شكوانا رق الحديد وما رقوا لبوانا
خلّ العتاب دموعاً لا غناء بها وعائب القوم أشلاء ونيرانا)

وماج النادي حين جلجل الشاعر:

(إني لأشمت بالجبار يصصرعه طاغ ويرهقه ظمأ وعدوانا
سمعت باريس تشكو زهو فاتحها هلا تذكرت يا باريس شكوانا
عشرين عاماً شربنا الكأس مترعة من الأذى فتملأ صرفها الآنا)

واستتارة الحس الوطني، والدفاع عن العروبة، من أغراض الشاعر.. فهو

يدعو إلى الحق الوطني على المحتل الظالم، ويقول:

(آمنت بالحق يذكي من عزائنا وأبعد الله إشفاقاً وتحناتنا
ويل الشعوب التي لم تسقى من ثاراتها الحمر أحقاداً وأضغانا)

وفلسطين، قضية العرب الأولى، وشاعرنا يثير النخوات، ويؤجج الثارات من

أجلها، ويندد، وينذر، ويهدد:

(قد استرد السبائيا كل منهزم لم تبق في رقها إلا سبائنا
وما لمحت سياط الظلم دامية إلا عرفت عليها لحم أسراننا)

وفي أغرودة الجلاء عن سورية، يقول:

(يا فلسطين هوى مستعر من ربي الشام ونصر وولاء
وتحيات الرضى من نجاة وسلام الله من غار حراء)

وهكذا نرى أن شعره الوطني والقومي، لا ينفصل عن الفخر بوحدة العرب وبطولاتهم.

وقف البدوي على قبر (إبراهيم هنانو) أكثر من مرة، يذكر المآسي التي مرت بالبلاد، ويحفز قومه إلى العمل وحب العرب والعروبة:

(أبا طارق) هذي سراياك أقبلت يرف على أعلامها النسر والنصر
لقد قذتها حياً وميتاً فما ثنى شكيمتها عنف ولا هدها ذعر)

أما شعره في وصف الطبيعة والغزل، فقليل، ويقتفي آثار القدماء في صورته، ويصف محبوبته أوصافاً حسية تقليدية، قال مرة في وصف محبوبته:

(من بسمات الحور قد صاغها ومن شذاه الطهر سواها
لله عيناها: فقد أنزلت علي أي الشعر عيناها
وئغرها: آها على قبلة طهورة من ئغرها آها)

إن شاعرنا عفيف الهوى في شعره، فإذا أحب اعترف بحبه، وفي مهرجان أبي العلاء المعري، يعاتب (المعري) في انصرافه عن المرأة، ويقول:

(يا ظالم التفاح في وجناتها لو ذقت بعض شمائل التفاح)

إن أبياته في المرأة تتم عن حب عميق لها، وهذا يدل على أن شاعرنا تغزل بها كثيراً، ولعل ما قاله قد طوى أكثره، ولم يصلنا. فالشاعر (بدوي الجبل) قوي

الأسلوب، دقيق التعبير، بديع الصياغة اللفظية، ويمتاز بروحه المثالية، وبموسيقاه الشعرية، وبقدرته الفائقة على رسم نبضات القلوب، وخلجات الصدور، وانطباعات العواطف. بارع في وصف الطبيعة، وتصوير أرضها وسمائها، وحسنها وبهائها. ينقلنا على أجنحة الخيال إلى عوالم ثانية كلها زهر وظلال. وإذا حمل على الجور والباطل، فعاصفة هوجاء تقتلع جذور الشر، وتجتاح دعاة سوء.

مضى الشاعر الكبير (بدوي الجبل) شاعر العربية، مع قافلة الخالدين. عاش حياة حافلة بالمجد والعطاء، فقد صارح الانتداب الفرنسي، وقال كلمته بكل جرأة وعناد، وسجن وعذب وشرّد أكثر من مرة، لمواقفه الوطنية الصادقة.

ومن يقرأ قصائده، يألّف روحاً شاعرية صادقة، يجد أن ما من قصيدة له تخلو من بيت سائر يستشهد به، تلخص فيه حكمة، وتختصر تجربة.

لقد كانت قصيدته الطويلة (الكعبة الزهراء) المهداة إلى أعتاب أبي الزهراء، محمد صلوات الله عليه من أروع ما نظم البدوي، وفيها قوله:

(ينور على أم القرى وبطيسب	غسلت قوايدي من أسى ولهيب
لثمت الثرى سبعا وكحلت مقلتسي	بحسن كأسرار السماء مهيب
وأمسكت قلبي لا يطير إلى (منى)	بأعبائه من لهفة ووجيب
فيا مهجتي: وادي الأمين محمد	خصيب الهدى: والزرع غير خصيب
هنا الكعبة الزهراء والوحي والشذا	هنا النور فأفني في هواه وذوبي
ويا مهجتي: بين الحطيم وزمزم	تركت دموعي شافعا لذنوبي
وفي الكعبة الزهراء زينت لوعتي	وعطر أبواب السماء نحيسي

المراجع:

- ١- الأدب العربي المعاصر في سورية: سامر الكيالي - ص ٣٤٧.
- ٢- الشعراء الأعلام في سورية: الدكتور سامي الدهان - ص ٢٢٧.
- ٣- المدارس الأدبية: الدكتور نسيب نشاوي - ص ١٣٥.
- ٤- ديوان بدوي الجبل - دار العودة - بيروت - ١٩٧٨م.
- ٥- بدوي الجبل: حياته وشعره: محمد الخطيب - ص ١٥.



تحدي اليتيم والغربة وعلم الأجيال الاعتزاز بالتراث

كانت مجلة "الرسالة" القاهرية كبرى مجلات الثقافة الجادة في الوطن العربي لسنوات عديدة في القرن الماضي، بالنظر للبحوث والمقالات الرافقة والمواضيع المختارة، التي حررها مشاهير المفكرين العرب ... ومن هنا يبدو مثيراً للدهشة أن تظهر في "الرسالة" عام ١٩٣٤ قصيدة لشاعر ناشئ لم تسمع به ساحة الأدب قبلاً، سماها مؤلفها: "اليتيم" ليتحدث فيها عن أمه، وما أشعله فقدها في جوانحه من لواعج الحسرة والأسى:

يا فحـــــــــــــــــه الوجدـــــــــــــــــد	"ما لـــــــــــــــــوادي ذاب
ولســـــــــــــــــم انـــــــــــــــــم بـــــــــــــــــد	واللـــــــــــــــــجى قـــــــــــــــــد شـــــــــــــــــاب
فسي كـــــــــــــــــدي الحـــــــــــــــــرى	ما للـــــــــــــــــسى قـــــــــــــــــد ثـــــــــــــــــار
فسي مـــــــــــــــــلقتـــــــــــــــــي الحـــــــــــــــــيرى؟	ومـــــــــــــــــا لـــــــــــــــــدمـــــــــــــــــعـــــــــــــــــي حـــــــــــــــــار
ولـــــــــــــــــيس مـــــــــــــــــن ذكـــــــــــــــــرى	أحـــــــــــــــــنوا إـــــــــــــــــلى التـــــــــــــــــنكـــــــــــــــــار
والفـــــــــــــــــي المـــــــــــــــــهـــــــــــــــــد	خيـــــــــــــــــال أـــــــــــــــــمـــــــــــــــــي غـــــــــــــــــاب
ولـــــــــــــــــم يـــــــــــــــــزل يـــــــــــــــــعدو	غـــــــــــــــــدا مـــــــــــــــــع الأـــــــــــــــــحـــــــــــــــــقـــــــــــــــــاب
لـــــــــــــــــيس لـــــــــــــــــه عـــــــــــــــــهـــــــــــــــــد	فـــــــــــــــــي زـــــــــــــــــمــــــــــــــــن نـــــــــــــــــعـــــــــــــــــاب
وبـــــــــــــــــالجوى يـــــــــــــــــغـــــــــــــــــدو؟	يـــــــــــــــــســـــــــــــــــروح بالـــــــــــــــــأوصـــــــــــــــــاب

وقد حظيت القصيدة باستحسان القراء المتقنين، لأنها دلت على إحساس الشاعر المرهف، ومشاعره الرقيقة، وكشفت أيضاً عن قدرته وتفوقه، وامتلاكه ناصية اللغة وأسرار البيان وهو بعد في السابعة عشرة من عمره وحسب.

كان ذلك الشاعر الشاب هو كما تنبأ له أصدقائه في وقت مبكر، المربي القدير والكاتب المحقق الدكتور "أمجد الطرابلسي".

على طريق مسيرة طويلة:

أحاط الحزن بالشعر منذ طفولته ... كان في الثانية من عمره عام ١٩١٨ حين فقد أمه، وفي التاسعة لحق بها أبوه، فعاش يتيماً في رعاية جده وأعمامه، وبعد مرحلة التعليم الابتدائي، انتسب "الطرابلسي" إلى "مكتب عنبر" أول مدرسة ثانوية في سوريا، وكانت في الواقع مؤسسة تربوية قائمة بذاتها، ولها نظمها وطرائقها، كما كانت حصناً من حصون الفصحى، ومعقلاً من معازل الوطنية الصادقة، وقد ضمت كوكبة من فحول اللغة العربية: عبد القادر المبارك، وسليم الجندي - عضوي المجمع العلمي العربي - ومحمد البزم، الذي تتلمذ الشاعر على يديه سنتين، وكان قريباً منه خلال سبع سنوات، فروى نفسه من علوم العربية وآدابها، وامتلك ناصية اللغة العربية وأسرار البيان، وبدا ذلك جلياً في قصيدته "اليتم" التي نظمها وهو يودع مدرسته بعد نيله الشهادة الثانوية - قسم الفلسفة - ونشرها في الرسالة فاتحة سلسلة من القصائد: عاصفة في قلب، عرس في مآتم، وفي الروض المحزون، والتي عبرت عن إحساسه المرهف، ومشاعره الرقيقة، اختار "الطرابلسي" العمل في التعليم فعين معلماً في مدارس وزارة المعارف، وتابع أثناءها الدراسة في معهد المعلمين العالي فلما نال شهادته، حصل على بعثة للدراسة في فرنسا عام ١٩٣٨، وقد أمضى فيها نحو سبع سنين، نال بعدها الإجازة الجامعية في اللغة العربية والدكتوراه في الأدب العربي عن أطروحته التي عالج فيها قضايا "المعنى والمبنى في النقد العربي" في القرن الرابع الهجري، باللغة الفرنسية، ثم عاد إلى الوطن عام ١٩٤٥، ليحتل كرسية في كلية الآداب بجامعة دمشق ويبدأ مرحلة جديدة في حياته امتدت اثنتي عشرة سنة، درّس فيها الأدب العربي، وأرسى قواعده، وضرب المثل الصالح في طرائق التدريس التي سلكها لينشئ طلابه وفد

تزوّدوا بالمعرفة وحب البحث، مما يمكنهم من أداء رسالتهم العلمية على الوجه المرضي، وطالما أتى طلابه وعارفوه على طريقته البارعة في التدريس، وأفاضوا في ذكر سعة علمه وتمكّنه من مادته.

التعبير عن مشاعر الأمة:

أفصح الدكتور الطرابلسي متسعاً من وقته لتأليف كتب تعزّز مواقفه في دراسة الأدب، وتعين طلابه فكان من نتاج هذه المرحلة عدداً من المؤلفات القيمة من بينها: كتاب "النقد واللغة في رسالة الغفران (١٠٥١)"، نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب (١٩٥٥) وهو الكتاب الذي ترك بصمات عميقة في ثقافة الشباب الذين درسوا بجامعة دمشق وفي المغرب بعدها، وقد صدر في عدة طبعات، كان المؤلف يضيف إليه في كل طبعة لمسات وأفكاراً جديدة، ثم أصدر كتابه: "محاضرات عن شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام" من أواخر القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين، أراد المؤلف منها أن يعبر عن مشاعر الأمة ويستثير حميتها، ويحدو بها أن تمضي في طريق النهضة التقدم لتعيد سالف مجدها".

"لقد قدّمت فصول الكتاب الكثير المفيد عن شعر العروبة الحماسي منذ جذوره البعيدة إلى أيام النهضة الحديثة والبعث الجديد، وأوضحت نضال شعرائنا في المعارك القومية، وتمجدهم بطولات الأبطال والشهداء، وتنديدهم بمظالم المستعمرين الطغاة، وتعلّقهم الراسخ بالوحدة العربية المنشودة.

طقس احتفالي بالشعر والشعراء:

مثلّ عام ١٩٥٨ محطة بارزة في مسيرة المربي والشاعر، فقد قامت الوحسدة بين القطرين الشقيقين: مصر وسوريا، فحملت للأمة العربية آمالاً كباراً، وأفاقساً فساحاً، وأسندت إلى الدكتور الطرابلسي وزارة التربية والتعليم في الإقليم الشمالي، فأدى عمله فيها بوطنية وإخلاص صادق، ولكن التجربة القومية لم تمض إلى غايتها

وحدث الانفصال بين القطرين، مما دفعه للمغادرة إلى "المغرب" ليعمل في التدريس بجامعة الدار البيضاء، وفاس والرباط، طوال ثلاثين عاماً، أشرف خلاله على أكثر من ٦٠ رسالة دكتوراه وماجستير، كون أجيالاً من الأساتذة والعلماء، درّبوا على أساليب البحث العلمي الرفيع، وتمرسوا بتقدير العلم والاستزادة منه على الدوام، يذكر أحد طلابه بكلية الآداب في فاس "لقد كنا ونحن بين يدي أستاذنا العلامة الطرابلسي نعيش في طقس احتفالي بالشعر والشعراء في الجاهلية والإسلام وفي العصور الأخرى، طقس يستحضر فيه أستاذنا النصوص والأخبار والشروح والتعليق والهوامش، يستنطقها ويمحصها وينخلها ويلقي بها في أفئدتنا ووجداننا، لقد تعلمنا منه الصبر والمجاهدة، وتعلمنا السفر والإبحار خلف رصيد وكنوز الأدب العربي القديم" وفي هذه السريحة (١٩٦٠) انتخب الدكتور الطرابلسي عضواً في مجمع اللغة العربية خلفاً للشاعر محمد البزم وظل على صلة المجمع يتصل بزملائه فيه ويشاركهم في مباحثهم ويبادلهم الرأي في القضايا التي يطرحونها.

ولم يتوقف عطاء الدكتور الطرابلسي الفكري، بل تابع إصدار مؤلفاته، فنشر تحقيقه الممتاز لكتابي "أبي العلاء المعري" زجر النابح (١٩٦٥) ورسالة "الصاهل والشاحج" (١٩٧٤) كما صدرت عام ١٩٩٣ أطروحته للدكتوراه: نقد الشعر عند العرب حتى القرن الخامس للهجرة، بعد أن ترجمها إلى العربية إدريس بلمليح (المغرب ١٩٩٣) الذي يعبر عن احترامه وتقديره للدكتور الطرابلسي في مقدمته للكتاب: "لقد كان رائدي في التعلق والاعتزاز بالتراث العربي والإسلامي، رجلاً عشق التاريخ العربي إلى حد التصوف، ولكن عشقه ذاك لم يكن انفعالاً متشنجاً، أو انكفاء على الذات التي تجتر وتعيد ما قيل سلفاً، بل هو عشق الباحث المتفتح والعالم الذي يضمن التوازن الحيوي والفعال بين مقومات الذات العربية والإسلامية، وبين معطيات الفكر والحضارة الإنسانية أياً كان مصدرها".

نفس حرة، وشموخ حتى النهاية، وسط عمله الدائب في التدريس وفي التحقيق والتأليف ظلت مشاعره القومية متوهجة في عقله ومشاعره وبقيت إمارات الإباء

والشموخ العربي سمة من سماته المميزة "لقد كان منتصباً في وقفته ومشيته وتحيته، كما كان شامخاً في أفكاره وقناعاته وقد عبرت قصائده العديدة عن تمسكه بالعزة والشمم والكرامة:

"أحسب الجبال الشامخات كأنها	على جبهة الدنيا تصول عواتيا
تضاحك من عصف الرياح وزأرها	وتحتضن السيل الحرون المعاديا
وتلهو عن الزلزال وهو مزمر	يضج ببطن الأرض غضبان واريا
واحتقر الكثبان مرعشها الصيا	ويفزعها الإعصار إن مر لاهيا
وتحملها الأرياح أنسى توجهت	ألا عيب في أسفارها والاهيا"

ويتابع في قصيدة أخرى بحس الأبي الصلب:

"أحب الفتى والغلّ يثقل عنقه	وسيف المنايا بسين عينيه مشهر
يصيح بأعلى صوته ينكر الأذى	ويضحك من بطش الطغاة ويسخر
ويشمخ بالأغلال رأساً وإن غدت	تحز ومن أنيابها الدم يقطر
وأحتقر الأحرار يحنون هامهم	وليس عليهم سيد أو مسيطر
إذا كان قلب المرء عبداً ورأيه	فقل لي - هديت الخير - ماذا تحرر؟

ولم يقطع "الطرابلسي: صلته بالشعر بل راح ينشد وينظم على فترات وفي مواضيع مختلفة جمع منها أربعين نصاً في مجموعته كان شاعراً (١٩٩٣) استلها بقوله:

"قالوا: سكنت عن الغناء فقلت: لا	في مسمع الأكوان رجع غنائي
الكون لحنني كله رتلته	في نشوة الإصباح والإمساء
ألفته من أهتي وتبسمي	فاستشدوه يُعِدُّ لكم أصدائي"

غربة لا انتهاء:

ورحل أوجد الطرابلسي في الثامن والعشرين من كانون الثاني عام ٢٠٠٠م وانتهت مسيرة مثألفة حافلة بالحب والعطاء، ولوح الشاعر من بعيد لأحبائه ومقري مكانته الأدبية والتربوية:

يومياً لها انقضاء	"كننا نقول: غربة
البعيد والـشقاء	ثم نعود حيث ننسى
أهلاً وأصداً	ونلتقي في حينها
وانكشاف العماء	ها هي ذي تصرمت
غربة الفناء	من بعد غربة الحياة
ليس لها انتهاء	وهذه يسا صاحبها



الشاعر الحزين الذي أنشد للوطن والحب والجمال

في ذكرياتي، ثمة صفحة أثيرة إلى قلبي، تطوف سطورها في خاطري كلما تردد اسم الشاعر الكبير "أنور العطار" لقد كنت واحداً من طلابه في مرحلة الدراسة الثانوية، وفي احتفال المدرسة بذكرى جلاء الفرنسيين المحتلين عن سوريا، شاركت بأبيات نظمها بالمناسبة، نالت تقديره واستحسان الحضور، وكان أن كرمني بإهدائي نسخة من ديوانه: "ظلال الأيام" وجدت فيها آنذاك هدية رائعة لم أكن أحلم بها يوماً. وسارعت إلى البيت ألقب فخوراً صفحات الديوان، وأنقل بين قصائده نتقل الفراشات على أفواف الزهر النضير، ثم أتوقف عند قصيدة بعينها وأقرأ مشغولاً:

"كل شيء يحيا بذّر فالسطح يغني والسدوح يندى ويعبق
والنسيم الرقيق ينفخ بسالعطر وينشي كالبايلي المعتق
والأزاهير في الدروب تهادي بين ورد نضير وفلّ وزنبق
وهفا الياسمين مذّ على الصخر شباكاً من نوره وتألّق
تتغنى الحقول سكرى من العطر ومن سجعه الحمام المطوق
بلبل في غصونه يتشكّى ونهيس بدمعه يترقرق"

ويمضي هزيع طويل من الليل وأنا مستغرق في حنايا القصائد، هائم في فضائها، وعرفت حينها سرّ شهرة العطار، ومكانته المرموقة في ساحة الفكر: شاعراً مجدداً تنبض قصائده بالحياة، وتتألق بالصور المشرقة والموسيقا الشجية.

بداية المسيرة:

ولد أنور العطار بمدينة بعلبك عام ١٩١٣ لأبوين دمشقيين، وتلقى تعليمه بعد انتقال أسرته لدمشق بمكتب عنبر - أول ثانوية رسمية في سوريا - ثم تابع دراسته العالية بكلية الآداب في الجامعة السورية، وتخرج منها حائزاً شهادة الليسانس في اللغة العربية وآدابها، هو ما أهله لتعليم اللغة في المدارس الثانوية بدمشق، وينتقل بعدها إلى بغداد ليُعلم في معاهد وزارة المعارف العالية لمدة أربع سنين، وبعد عودته إلى سوريا عهد إليه برئاسة ديوان الإنشاء، ثم ساهم بتأسيس المجمع الأدبي بدمشق، وفي هذه الآونة أصدر ديوانه الأول والوحيد "ظلال الأيام" عام ١٩٤٨، وقد ترجم المستشرق الإنكليزي (أريي) عدداً من قصائده إلى الإنكليزية شعراً في كتابه: "أزهار الشعر" المطبوع في لندن.

عطاء خير لم ير النور:

بدأ أنور العطار ينظم الشعر منذ حدثته المبكرة، وكانت قصيدته "الشاعر" باكورة إنتاجه، وتألّفت من ستة وخمسين بيتاً، عبّر فيها الشاعر عن خلجاته وعواطفه المتدفقة، ثم توالى قصائده حافلة بالمعاني المبتكرة والألفاظ البليغة، وبدأ اسمه يذيع في دنيا الأدب مترافقاً مع ظهور شاعرين مجديدين: زكي المحاسني، وجميل سلطان، مما حفز مجمع اللغة العربية لإقامة حفل تكريم تشجيعاً لهم وتقديراً لنبوغهم، ونشر "العطار" طائفة من قصائده في مجلة "الزهراء" الأدبية التي كانت تصدر قبل عام ١٩٢٨، وفي المجلة الأدبية الكبرى "الرسالة" ويعيد إصداره ديوان "ظلال الأيام" أخذ الشاعر يجمع قصائده في عدد من الدواوين، من بينها: وادي الأحلام، ربيع بلا أحبة" منعطف النهر، البواكير، والبلبل المسحور، إضافة إلى مجموعة من كتب النثر وبينها: الوصف والتزويق عند البحري، أسرة الغزل في العصر الأموي، الخلاصة الأدبية، وشوقيات لم تنشرها الشوقيات، وألف بيت وبيت، ولم يقتر الشاعر نشرها، فبقيت لدى أسرته تنتظر من يخرجها إلى النور. غربة في عالم مزدحم:

لم يكن "أنور العطار" فتى عادياً منذ صباه وتعلمه في مكتب عنبر، ويصفه صديقه ورفيق فتوته العلامة الأديب "علي الطنطاوي" بأنه "كان شاردًا ومحباً للعزلة ... نظراته حاملة وهمساته حائرة، يتأمل الزهرة وكأنه يناجيها، ويبحر بنظراته في الأفق فترسم على شفته ابتسامة رائقة تنبئ بالغبطة والسعادة، ثيابه تدل على فقره، ونحول جسمه ينطق بمعاناته وقلقه، ورافقت هذه السمات الشاعر في مراحل حياته، فعاش منطوياً على نفسه، بعيداً عن الناس والمجتمع، وبالتأكيد فقد طبع ذلك قصائد الشاعر بطابعه المميز، فجاءت قصائد حافلة بتصويره لأحزانه، وشعوره بالغربة في عالم يموج بالزحام، ويضطخب بالكذب والنفاق، والتلوث الخداع، يقول العطار:

"مررت بصحراء هذي الحياة كما مرّ في الغمض طيف الكرى
على منكبي بياض النهار وفي مقلتي سواد الدجى"

وكثيراً ما شكّا من وحدته الصماء ووحشة قلبه فيقول:

"أقتات بالأوهام في وحدة الرعب فيها شيخ يمثل
تطفح بالأهوال أرجاءها والفكر تيساه بها يحفل"

وأول ما نلمس في شعره تلك النبرة الرومانسية الحادة الممتزجة بالصوفية حيناً وبالمثالية حيناً آخر فهو يكثر من تصوير حالاته النفسية وانفعالاته الجياشة وعواطفه العطشى، يرى في قلبه الذي لم يخلق إلا للحب والعذاب مضى بشقيه:

"في قوادي اللهيف داء قد استعصى وجرح يمضني تعذيباً
صاغه الله للعذاب وللحب وأحراه بالدماء خضيباً"

أما همومه وشجونه ومعاناته، فهي ثقيلة ولا تكاد تنتهي حتى تبدأ:

"تعال!... قلليل حزن طويسل وهول إذا ما تناهى ابتداءً"

ولا ينتشله من هذه التصورات المرعبة غير طيف حبيب يعانق أحلامه
ويناغها:

يجمجم في الحلم أحلى اللقى	"وعيني على ملك نسائم
فيبسم والقلب منه هفا	أناديه من طول شوقي الملح
يعطفك حتى ازدهاني الرضا	وأنت أيا طيف ظلتني
وفي شفقتك كلام يرى؟"	تكلم علام تطيل السكوت

وهو على الرغم من شجونه التي تمضته، يبقى جذلان كالشمعة التي تضيء
وهي تحترق:

أظل في غمرته أجنل	"يهديني شجوي لكنما
وفي ضلوعي زهرة تذبل"	على فمي فيثارة تشتكي

ينبوع نشوة وانفعال:

كذلك كان حب العطار رومانسياً مثل الينبوع الأبدي للنشوة والانفعال.
ومن خلاله حاول الشاعر أن يتعرف على الوجود وحقائقه، ويطل على مملكة
الروح ويقيم فيها، وهو حين يخاطب محبوبته يتدفق رقة وشاعرية فسي تصوّره
لسحرها وعذوبة حديثها:

وتغرك اللماح أم سلسل	"وجهك هذا أم روى هلسوة
آذار في أعطافه يرفل	يفتنني فيك صبا ناضر
كأنه من ضحكه جدول	مزوق الأقياء يندى منى
وما يماني القلب وما يحمل"	تضيع في أمواهه حسرتي

ويعود فيؤكد هذه الصفات المعنوية البعيدة عن الماديات التي كثيراً ما يغرق
فيها الشعراء فيقول:

"أحببتها مغريرة كالدنا لا سحره يغني ولا يبطل
تترك في النفس أحاديثها أعذب ما يترك البلبل
أشتم منها عالماً عاطراً يكاد من فرط الشذا يثمل"

هيام بالطبيعة والجمال:

ومثل الشعراء الرومانسيين هام "القطار" بالطبيعة، ولجأ إليها يتلمس في أحضانها عزاء لقلبه المهموم، ومن يقرأ قصائده تطالعه مفاتن الطبيعة بكل سماتها الساحرة، وتفصيلها الخلابة: الأشجار والأزهار والأنهار والأنوار، الأنسام والقطور، الألوان والألحان ... كل نسمة وكل رفة لها في شعره حضور، وهو جاهد لجعل الطبيعة تفصح عن مظاهرها المتألقة من خلال اندماجه فيها بروحه ومشاعره وانفعاله برونقها الأخاذ إن الطبيعة كما يقول:

"عالم من نضارة واخضرار فائن الوشي عبقري الإطار
ضمّ دنيا من البشاشة والبشر وما تشتهيه من الأوطار
وينابيع حُفْل بالأغاريد تناجي بالسكاب الهدار
وحقول بالزهر مؤتلفات من أقاح ونرجس وبهار
ونسيم يُنشئ النفوس ندي أرج نافح الشذا معطار
وأفاصيص تسكر القلب والروح روتها فيثارة الأطيّار"

سمو فوق تفاهات الحياة:

وإضافة لهذا فإن النبرة الرومانسية في شعر "أنور القطار" تتمزج عنده بالصوفية التي تدعو إلى السمو والارتفاع بالنفس الإنسانية فوق تفاهات الحياة اليومية، وفي هذا المجال نجد في عديد من قصائد "القطار" ابتهاًلاً هو مزيج من الحب والخوف والرجاء:

"يا إلهي! قلبي الرقيق تنهد منذ صدك الحبيب فيه تردّد"

يا إلهي! طيف الغناء يتاجيس
يا إلهي! أنا الغناء أناديك
يا إلهي! عنا لوجهك وجهي
فنيست مهجتي بحبك يار
أجد القرحة العظيمة في الذل لو
شفني الحب فاستحلت نداء
وأنا العبد هام جداً بمولا

سك ونجواه أنسة تنصعد
وأنت البقاء ترجى وتقصد
وفؤادي من طول حمدك معبد
ب وغلغت في الغناء لأشهد
بي في انكساري سؤدد
ومن الحب أن تذوب وتسهد
ه وإن أفن في المحبة أوجد

وعاش العطار بوطنية صادقة، مرحلة كفاح سوريا من أجل حريتها واستقلالها
كما عاش مأساة فلسطين، المغتصبة، وتجلى إبداعه في هذا المجال في قصائده
الوطنية والقومية التي تغنى فيها بوطنه ونضال مجاهديه، وبأبطال فلسطين الذين
افتقدوها بأوراحهم ودمائهم.

بقي "أنور العطار" ملتزماً بكل القضايا التي وهب لها عصاره قلبه وفكره،
وبقي شعره صادقاً بالحب والإيمان والخير والجمال إلى آخر نبضة في حياته، ثم
رحل بصمت كما ترحل العنادل، بعد ربيع أخضر سخي العطاء.

من رباعيات أنور العطار

أرضي الطيبة:

ملك أرضي، عزت على الدهر أرضي	علمتني الحياة أن حياتي
من شحاريرها تعلمت قرضي	من ينابيعها تلقيت شدي
بالحب ما إن يلم ببغض	فجرتني هوى فبغضي حب
والخيالات إن جنحت لغض	هي نجواي إن جنحت لصحو

الأمانى أزهار:

ر نسدايا بالحب والإشفاق	علمتني أن الأمانى أزهارها
ولم تدر حسرة الاخفاق	عاشت العمر كله بالأعالي
ويحول الفراق دون التلاقي	يذبل الزهر في الرياض ويذوي
كان النعيم في الأرض باقى!	الأمانى لا تزال على العهد

الوجود عراك :

وشباك منصوبة وشراك	علمتني أن الوجود عراك
برياض أورادها الأشواق	ينقضي العمر والأمانى تلهى
فهى تنجيك والطريق هلاك	فارتقب ساعة الخلاص ارتقاها
رفان النجاة منه فكاك	وامض لا تلتفت إلى عالم الغد

السلاسة:

علمتني أن السلاسة أن يصدق شعري بأعذب الأنغام

وأصوغ القصيد من أرج الزهر، ووشي الضحى ، وسجع الحمام
من دموع الندى على وجنة الفجر ، ومن در ثغره البسام
هكذا أسكب الطبيعة في قلبي ، وأسقى الرحيق من أحلامي

الصلاة:

علمتني أن الصلاة هي الأصل لمن شام في العبادة أصلاً
هي سر الخلود ما عرف الخلد جنان من بابها قد تولى
صلة القلب بالذى جعل القلب ملاذاً ومولاً ومصلى
كل معاك لا يعد إذا فانتك فارح الصلاة فرضاً ونفلاً

الاستقامة:

علمتني أن أسنقيم فلا أترك	بررى ولا أقسارق نسكي
نظراتي إلى الوجود اعتباراً	ويقينني محاسن وسواس شكي
أدبتني الدنيا فصمتي فكر	وحديثي ذكر وضحكى موبك
وانتهائي من الحياة ابتداء	وبقائي حتم إذا حان هلكي

الصدقة ورده:

علمتني أن الصدقة كالور	دعة خلوأ من شوكة وأذاها
تنفخ الكون بالعبير، ويحيى	العالم الرحب عطرها وشذاها
ينضب السورد في الرياض، ولا	ينضب منها رواؤها ونداها
رب ذكرى صدقة عاودتني	لم يزل بعد الفؤاد صداها

الجمال:

علمتني أن الجمال هو النور لعين تميز الأشياء
طابع الله قد تجلى على الخلق فزان الحياة والأحياء
وهوى القلب بالذي فجر القلب اشتياقاً ولوعة وبكاء
مالآلي الفنون إلا عطاياه ، ولولا الجمال كانت هباء

التغنى بالديار:

علمتني الحياة أن أتغنى	بدياري ، واسكب الروح لحنا
هي مهد الصبا وعش الأماني	وأخو الحب بالديار معنى
مر قلبي على مراعها الخضراء	فقنسى الرياض غصناً فقصنا
ويراه الهوى فذاب حنيناً	ومن الحب أن تذوب وتغنى

روعة الحسن:

علمتني أن الصباية شعر	والمحبون كلهم شعراء
فتذوقت لذة الحب والشعر	كأنني الأزهار والأنداء
وتغنيت بالجمال مليحاً	ولكم أسكر الجمال القناء
وسباني من روعة الحسن معنى	حار في درك كنهه الحكماء

النسيان:

علمتني الحياة أن من النسيان ما يزدهي به النسيان
تتخفى الأزراء في صدره الرحب وتطوى الهموم والأحزان
هو أنسي الساري إذا اعتكر الليل، وغابت في صمتها الأكوان
وهو يراء الجروح إن مضه الجرح وعز الآسي وجار الزمان

الكون شعر :

علمتني أن أجعل الصمت فكراً
أقرأ الكون خيسر من قرأ الكون
وأرى في السماء ما يخلب اللب
فإذا ما أطل فجر جديد

والدنا عبرة ، وقولي ذكراً
وأتلو النهار والليل شعراً
وما يملأ النواظر سحراً
صحت من فرحتي : تباركت فجراً

البشاشة:

علمتني أن البشاشة نور
كرم النفس ينجلي في حماها
إنما الوجود فرحة وانطلاق
تغمره الثغر قد علاه ابتسام

وكتاب من الندى مسطور
وهي عنوانه الحبيب الأثير
ليس فيه من ولا تكدير
وجهه الوجه قد جللاه الحبور

البسمة نور:

علمتني الحياة أن من البسمة
فابتسم تشرق السموات والأر
إنها النفس دمعاً وابتسام
وابتهج فالوجود يوم ويمضي

ما يملأ السدياجير نوراً
ض انشراحاً وفرحة وحبوراً
فامح سطر الأسى، واخل السرورا
ليس يرجى لطيفه أن يزورا



زكي المحاسني :

أحيا تراث العرب الفكري وجسد مضمونه الإنساني ورصد نهضة الأدب الحديث وقدرته على استيعاب قضايا العروبة

عُرف عن علامة الشام الراحل "محمد كرد علي" أول رئيس للمجمع العلمي العربي، حرصه الكبير على تشجيع المواهب الناشئة، التي يتوسم في نتاج أصحابها الأدبي وعداً بعطاء قيم، وإبداع فكري متميز، وكان من وسائله التي سلكها في مجال التشجيع، أنه دعا شاعرين شائين هما: زكي المحاسني وأنور العطار، فقدما قصائد لهما، حظيت بإعجاب الحضور، وأكدت فيما بعد صدق نبوءة العلامة "كرد علي" في نبوغهما، إذ غدا كل منهما مرموقاً بين معاصريه، ومحققاً في فضاء الشعر:

ترنم "المحاسني" أمام الجمهور صادحاً:

يا راوي الشعر كم رويت ظمآننا	وكم تركت الهوى بالود يلقاننا
الشعب بالأدب الخلاق عزته	كما روى الماء تحت الزهر يستانا
والشعر حق على شعب له سند	من مجده، وحوى التاريخ أزمانا
وما يقوم لجمهورية وطن	بغير شعب يزيد العهد بنيانا
وللبنيان على الأباد حارسه	باق على الدهر في الآيات قرآنا

وقد أدرج الشاعر بتلك القصيدة اسمه في كوكبة شعراء الشام المتألقين، متابعاً بذلك سيرة أسلافه من العلماء والأدباء والقضاة في أسرة "المحاسني" وبيستهم: "البوريني" المؤرخ والخطيب الشهير وسليمان بن أحمد الإمام الشاعر، ومحمد المحاسني شيخ القضاة بدمشق وغيرهم.

ولد الأديب الشاعر الدكتور "زكي المحاسني" بدمشق عام ١٩٠٩، ونال شهادته الثانوية بمكتب عنبر، ثم تابع تخصصه العلمي بجامعة دمشق فحصل على شهادته الحقوق والآداب عام ١٩٣٦، ليغدو معلماً للغة العربية في مدينة "أنطاكية" وبعده في التجهيز الأولي بدمشق وحتى إيفاده إلى القاهرة عام ١٩٤٣، ونيله الدكتوراه من الجامعة المصرية، وهو أول عربي يحوز عليه من غير المصريين. وبعيد عودته إلى دمشق عمل بالتدريس في كلية الآداب، ليوفد من جديد إلى مصر ملحقاً ثقافياً بالسفارة السورية، ومندوباً للشؤون الثقافية بالجامعة العربية، وشغل بعد ذلك عديداً من المناصب الثقافية: مديراً للتراث بوزارة الثقافة، وأستاذاً للآداب العربي بجامعة مكة، ومحاضراً بالجامعة اللبنانية، كما اختير عضواً مراسلاً في المجمع الملكي الأدبي الإسباني، ومجمع اللغة العربية بالقاهرة.

شغل "المحاسني" مبكراً بالأدب، وعرف بنهمه في طلب العلم بالكتب قديمها وحديثها، وكانت الكتب عنده ولود، وكل كتاب إنما يسلمه إلى عشرات غيره.. وهكذا..

انكب على التأليف والنظم والتحقيق، فأثرى المكتبة العربية بأكثر من سبعة عشر مؤلفاً قيماً مطبوعاً، في ألوان الثقافة من أدب وشعر، ومن بحث ونقد، خاطرة وملحمة، وكان في إنتاجه يتفجر عن طاقات إبداعية كبيرة، ترفدها الحياة بمعطياتها، ويخصبها التمرس، ويطلقها الزمن في دورانه، كان يعمل مخلصاً على تصوير الماضي وإحيائه بتجسيد مضمونه الإنساني، ليصله بالحاضر المتوهج بالثورة الفكرية، وبالتحول الاجتماعي.

أدب الحرب في شعر العرب:

أصدر كتابه "شعر الحرب في أدب العرب" أول مرة عام ١٩٤٧، فاستقبله النقاد والمفكرون بحفاوة بالغة، وكان بينهم الكاتب الرائد: "عباس الحقاد" الذي اعتبر مؤلف "المحاسني" نفيساً بمنهجه العلمي وأسلوبه البليغ "لقد جاء زبدة منقولة وذخيرة

ممتعة تجمع للقارئ ما تفرق من مئات المراجع، وتزيد علي ما لا يجد في تكل المراجع من تعليقات النقاد ومواضع الاستدراك ويودعها خلاصة تفكيره وملاحظاته في هذا الموضوع، كذلك نوّه الدكتور "عبد الوهاب عزام" في تقديمه للكتاب أن الدراسة انطوت على عناصر الريادة والأصالة والجدة، خاصة وأن المُؤدّنين لم يتركوا هذا الموضوع من قبل، وقد أعيدت طباعة الكتاب مرات فيما بعد.

أمضى المحاسني ثلاث سنوات بطولها عاكفاً على كنز ثمين من المجلدات الضخمة المذهبة خصّه بها أمين دار الكتب الكبرى بالقاهرة، حين توسّم فيه الألمعية والمثابرة، ووجد المحاسني فيها مسرح الوطن العربي الحربي والحضاري منذ عهد الرشيد إلى أواخر عهد سيف الدولة، ووجد شعر المتنبي مترجماً بقصائده وأوصاف الحروب بين العرب والروم... فسجد شكراً لله الذي ساقه من دمشق للقاهرة ليرى صور المجد الذي عاش فيه العرب وهم يقرعون بحوافر خيولهم على نجوم السماء...

وكان "المحاسني" في مؤلفاته الأخرى أديباً ملتزماً، ومتصفاً برقّة الحسن ويقظة الوجدان، متجاوباً مع آمال أمته ومجتمعه، ومتأثراً بمن يشاطره مشاعر الوفاء والإخاء، وكان في مباحثه الفكرية - كما في كتابه: "تظرات في أدبنا المعاصر" يعالج مواضيعه بحصافة العالم، وذوق الفنان، ويرصد نهضة الأدب الحديث فيما واكبها، وما تجدد فيها من خلال ظروف الأقطار العربية التي أكسبت هذا الأدب مقوماته، وأسفرت عن القيم الجديدة المتأثرة بالمثل الحضارية، وبمدى قدرة هذا الأدب على التفاعل مع الأحداث، واستيعاب الإنسان العربي في سائر الأقطار والإعراب عنها بطلاقة وإخلاص.

المحاسني الشاعر:

في ميدان الشعر الراقي كان "زكي المحاسني" ناظماً درّ، ومبدع صور متأقّسة، نابعة من قريحة خصبة، وكثيراً ما كان يستجيب لشعوره وخياله، فتفيض على

لسانه القصائد في سائر المواقف والسانحات، ولطالما جاءت لحظات الإلهام وهو بين الناس فيتدفق شعره بالمعاني والصور المواجهة بالظلال والألوان، وفي ألفاظ موسيقية معبرة أرقّ تعبّر عن مكنون جوانحه.

نظم "المحاسني" في نكبة فلسطين شعراً يفيض بصدق الشعور، والحس الوطني وحظي الأندلس "الفردوس المفقود" بعنايته، فطالت مناجاته له، ووقفه عند أمجاده، رابطاً بني الفروسية العربية والأمجاد الإسلامية الغابرة في تلك الربوع البهية.

يا بنت أندلس مريّ بخاطرة	فحقق قلبك منهم في دم سكباً
وأنت يا فتنة الأنظار طيف ندى	قد جال فيك من العرباء وانسكبا
العين فيك بها كحلّ بأسوده	عيون غيد عرابٍ رفرقت هُذباً
والقصر في جنّة الحمراء آتية	أرواحه من خيام شدّت الطنبا
في أرض "قرطبة" لي مسجد عبق	بالطيب قرآنه ما زال مقترباً
جنّ الدم العربي اليوم في دمها	فأطلعت في هوى عدنان ما غرباً

وبرع الدكتور المحاسني في لون آخر من ألوان الشعر، فنظم الملحمة العربية الإسلامية، ونشر عدداً من الأناشيد صوراً فيها بطولات الأمة وأمجادها، فكان نشيده الأول عن واقعة "ذي قار" بين العرب والفرس، ثم تناول "داحس والغبراء" في الجاهلية، وفروسيات العرب منحدرأ إلى عهد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، ثم تتبّع المعارك الكبرى التي ألّفت المجد الأول للعرب في عصر الأمويين، وكان آخرها وقعة اليرموك ... وحال الموت بينه وبين إكمال أناشيده التي دلت على طول باعه وموهبته الشعرية الفياضة..

أدب الرسائل والأخوانيات:

ثمة لون آخر من ألوان الإبداع الأدبي برع فيه الشاعر وتسلق وهو "أدب الرسائل" الذي سما به إلى قمة ربما لم يضارعه في بلوغها غير الريحاني وآخرون من كبار المترسلين.

وقد تناول المحاسني في رسائله شؤون الأدب والفكر، وأبدى آراءه في الأدباء وآثارهم، وروى ذكريات من حياته وعلاقاته بأعلام الفكر والأدب في مصر وأفطار العروبة، راح يذبجها بأسلوبه المعروف فتأتي مطبوعة ببلاغته وذوقه، ويتصل بهذا المجال موضوع "الأخوانيات" التي ازدحمت بها حياته في سنواته الأخيرة، ودلت على وفاء الأديب وعاطفته الصادقة، وقد صاغ أغلبها في قالب شعري، وإن جمع أحياناً في الأخوانية الواحدة بين النثر والشعر معاً، جاء في إحدى أخوانياته الموجهة إلى (البير أديب) رئيس تحرير مجلة "الأديب" الشهيرة قوله:

قال للأديب وعينُ الله ترعاه	أقمتُ أديباً يعلو به الجاه
فأنت جامعةٌ تسعى روائعها	من كل قطرٍ له في العرب مغناه
إن قيل مدرسة للفكر كنتُ بها	مريدها، وبها لفظي ومعناه
"البير" أنت كشمسٍ غير حاجبة	لدى السطوع، كنجم شغ مسراه
في دولة الأفكار مشرقها	ترداد عمراً بمجد طاب ريساه

ومجالات "الأخوانيات" عند المحاسني تتسع باتساع المناسبات التي تقرضها، والظروف التي توحى بها وتملئها، فهو ثلوة يهنيء أخاً بصدر كتاب له، ويحيي تارة أخاً بعودته من ديار الغرب سالماً، ولم تكُ واحدة من إخوانياته تخلو من المحسنات البديعية، حتى عدّها الكثيرون "بحترية" في رشاقة اللفظ وجمال الصور وموسيقية الجرس، وكأنه كان يستسهل النظم أكثر من نثر الكلام، ومن الطرف أن أصدقاءه شاركوه في النظم، لكنه في الغالب كان البادئ في إثارتها ودفع إخوانه إلى مجاراته، أما مضمونها فكان دوماً صادراً عن روح الوفاء، وصدق الإخوة،

ومشاعر الوفاء والإنسانية الدفاقة...

حتى آخر لحظة من عمره، كان الدكتور زكي المحاسني، متفائلاً، متفتح القلب للحياة، وعلى رغم المرض الذي عاناه، ظل منصرفاً إلى التأليف، مقبلاً على نظم الشعر إقباله على حب الحياة وحب الربيع...

وفي اليوم الأخير من حياته "ودّع الشاعر دنياه بأبياته الأخيرة التي يقول فيها:

دَلَّعَ الربيعَ ولستُ أنساه	قد هَيَّجَ الأرواحَ ذكراه
سماعتُ إلهامي وخاطرتي	وأنا ضجيجٌ، كيف ألقاه
فتمللَ الجسمُ الذي شقيتُ	أعضاؤه كحبـيس دنياه
فَنَسَفْتُ أشعاري وقلتُ لها:	خلي الهوى يُدني سجاياه
أنسا هائمٌ بالله أنشدُه	رحماتِه، وحميمٍ ملقاه

ولم يكتب له أن يلقي الربيع .. بل رحل بعد ساعات، مخلفاً للأجيال روائع فكرية متميزة، وقبلها وجه إنسان عفاً اللسان، طيب النفس، مشرق البسمة، ومثله لا يغيب وإن مات..

أكد على أصالة العرب الحضارية ورفضهم الهزيمة الفكرية

حسب الأدب السوري الحديث أن يغدو الدكتور زكي المحاسني أحد رواده الناهضين في جيلنا الحاضر القلق، إنه ما انفك يواصل ترحاله في كل مسار ومدار، ما كف عن ارتياد شتى الآفاق، واستشرف التيارات والاتجاهات تطلباً لإبعادها وأصدائها، التقاطاً لأنوارها وخطوطها، وعياً لمفاهيمها ومضامينها وبحثاً عن جمالاتها وخصائصها، تغريه بذلك كله نزعة مكينة تحتضن التالد والطارف، وروح مجنحة تؤثر التحليق والانطلاق، وفكر مشبوب يستجلي الحياة ما فيها ومن فيها، ويستقطب المجتمع ما له وما عليه.

من هنا ما في اعتزاز الأدب العربي بسورية برجل تجلب فيه سمات النبوغ، ونكاء القلب ونقاء المعدن كالمحاسني من دلالة، حيث أوسع له وأحلّه المحل الحري به إنساناً وأستاذاً، باحثاً وشاعراً، مفكراً ومحققاً.

كفاه أنه من نوابغ دمشق، ومن بناء مجدها الأدبي الأصيل على مدى طويل ناهز الأربعين سنة وأن التاريخ يعرف كيف ينصفه، وكيف يقدر الرسالة التي أداها وقد قاد قافلة الأدب الحديث رائداً طليعياً إلى جانب عشرينه وزملائه يرتقي معهم سلم المجد، ويدعم النهضة الجديدة، وقد ازدهى به عمق الرؤية وشوق الفن وأمانة الغاية.

ومن أجل هذا كله نفخ المحاسني الخزانة العربية بأثار بارزة هي ألوان من الثقافة المعاصرة في مجالها وفحواها من فكر وشعر، من بحث ومقالة، ومن نقد وملحمة ومن خاطرة وسانحة.

المحاسني في إنتاجه يتفجر عن طاقات إبداعية ضخمة، ترفدها الحياة بما تهبها ومعطياتها، ويخصبها التمرس وتجربة الذات، ويطلقها الزمن عبر سيره ودورانه.

إنه يحاول مخلصاً تصوير الماضي وإحياءه بتجسيد مضمونه الإنساني، وليصله بالحاضر المائج بالثورة الفكرية، بالتحول الاجتماعي، وبالنكالب المادي لبلوغ

المطامح الجائلة في أغوار الوجدان العربي، إيماناً منه بضرورة نفث غبار التخلف عنها، وإسقاط السلبيات ومعانقة التجدد والتطور، ثم إرهاباً برؤية ثابتة لغد أعم جوداً وثراء وأعظم بهجة وجدوى، غد يحبو إلينا بحكم ناموس الوجود، حتى أنك لترى المحاسني في مؤلفاته مؤكداً من جهة على أصالة العرب الحضارية ورفضهم التبعية والهزيمة الفكرية .. ومعبراً من جهة أخرى عن الشخصية الشرقية الإسلامية ذات المقومات الخاصة والمتميزة برصيدها الروحي والعقلي، وبإثارتها لهذا الرصيد. لأنه طالما رقد حضارة الغرب وتمازج معها قصد التأثير فيها والتأثر بها.

وأحسب أن المحاسني على حق في قوله: (وإذا كان شعر الحرب في الأدب العربي هو أقوى ما نظم الشعراء من ترادف الأحقاب، فذلك لأنه يتصل بالأمة فيضم مجد ماضيها إلى عزة حاضرها. إنه وحده سجل فخرها، وعنوان بأسها وأنشيد بطولتها).

يتعمد المحاسني هذا كله لاستغلاله كآلة دفع يحض بها قومه تبصرة لهم وتذكرة بأن لا مندوحة عن السير في هذا الدرب الطويل الشاق .. لتجديد الثقة بأنفسهم وتوطيدها على توالي الأيام، ولاعتماد العلم والعمل أساساً في التنظيم والإبداع، ولالتماس بواعث المجازاة للأمم البالغة السمو الحضاري، وذلك حفاظاً على كنوزهم وذخائرهم وتحقيقاً لما يخالجهم من الطموحات والأمنيات .. وهي مقياس التشوف والإطلال. معنى هذا أن المحاسني دينه، أولاً وآخراً، وحدة الهدف بعد وحدة الفكر، فقد قال: (إن فكرة "الأدب للأدب" لا تدخل في أعمالي الأدبية، وأن عديد الكتب التي ألفتها حتى الآن لا يقوم إلا على التربية الأخلاقية وبناء الجيل العربي بالمثل العليا).

مجال القول في المحاسني موسوعياً متقفاً .. يعاني تجربة الفن الشعري، ويخوض مهامه الأبحاث الجادة، ويزاول مختلف ضروب التفكير والتعبير .. ذو سعة، يقتضي مني ومن غيري تفرغاً وانكباباً لا أملك من أسبابهما ما يعينني على ذلك، إذ تتعذر علي الإحاطة الكاملة بأعمال المحاسني الأدبية، وإشباعها دراسة وتحليلاً، خشية أن يفقد النهج العلمي، الذي لا أحيد عنه، عناصره، إضافة إلى كونها

مجانفة لمهمة التركيز التي أتوخاها في كتاباتي، على أن هذا لا يحول دون الزعم بأنني أوليت الجانب الملفت للانتباه في أعمال المحاسني الاهتمام الخاص الحقيق به، فالتركيب الفني لشخصية المحاسني الأدبية يمكن أن يتحدد في ثلاث نقاط، تلك هي رسائله الجامعية، ودراساته الأدبية وموهبته الشخصية في الشعر وإعداده للملحمة العربية.

ومن الفضائل العلمية التي يتحلى بها المحاسني في رسائله الجامعية إلزامه نفسه بقواعد صارمة من المنهجية في التأليف، والتجرد في البحث، والأمانة في القصد والإشارة إلى المصادر.

على أن اعتماده الأسلوب الموضوعي، وركوبه المركب الخشن في رسائله، وإن كان عملاً صعباً يتطلب المثابرة والجلد، فإنه لا يتهاون فيه، ولا يتعاجز عنه ولا يستهين به. قال فيه "شاعر الأهرام" محمد عبد الغني حسن: (.. وحين يسلك الدكتور زكي المحاسني المسالك الوعرة في التأليف يذهب مذهب الاعتدال والنزاهة في الأحكام، فلا يجور أو يبتسر الأحكام، أو يتابع في الآراء من غير تحقيق، ولكنه يقرأ ويحقق ويوازن ويزن ويحكم بعد اقتناع واعتقاد).

ومن خلال رسائله هذه، ذات الطابع الأكاديمي البحث، يتجلى لنا مذهبه كباحث علمي ومحقق أصيل، ويتضح حياده الفكري في معرض الآراء والأحكام المتعددة المضطربة، كذلك تبرز قدرته الفنية في التمهيد والتنسيق والاستقصاء.

فإنما هو يغربل الحقائق التي يلتقطها، ويحلل الوقائع التي يتلمس خطوطها بأمانة وثقة ثم يربط المقدمات بالنتائج بخيط دقيق يكاد لا يستبين، مؤلفاً ما بين أطراف المادة المبعثرة ومتدرجاً من التفصيل إلى التركيز .. ومن التركيب إلى التحليل.

ولئن كان من المسلمات أن عبد الوهاب عزام علامة جليل في نهضتنا الفكرية الحديثة، وهب حياته للبحث عن العلم في أنصع مظاهره وأنبل غاياته، وقصد الأصالة والأمانة في ما ألف وأنتج، فإننا لنندرك في الحال إلى أي مدى تتبع خطاه تلميذه المحاسني على البعد والقرب، مقتفياً أثره، مغترفاً من ينبوعه ثم معترفاً بفضلته. أوليس

هو القائل:

(ونتبعنا عزاماً رائد الأدب والبيان في مقالاته التي كان ينشرها في "الرسالة" و "الثقافة" كل أسبوع وكأنه، على البعد، من أساتذتي الذي علموني في دمشق وكان لهم فضل التوجيه في حياتي الأدبية؟ ثم أليس هو القائل أيضاً: (وحين التقيت بالدكتور عزام كنت كحافر الأرض زمناً حتى بلغ إلى مواقع الكنز فيها)؟

ومن هنا جاءت رسالته "شعر الحرب في أدب العرب" - وقد نال بها درجة الدكتوراه - منطوية على عناصر الريادة والأصالة والجدة، لأن المحدثين لم يطرقوا هذا الموضوع - على حد قوله - من قبل. وفي المقدمة القيمة التي كتبها الدكتور عبد الوهاب عزام لهذه الأطروحة وقال: (وقد عكف فيها - أي المحاسني - عكوف الباحث المخلص المتسبب، الذي لا يقنع بما دون الغاية، ولا يسكن إلى الدعة ولا ينوء به النصب والدأب).

أما المحاسني نفسه فيقول: (وقد اتخذت لبحثي النهج العلمي في التتويب والتفصيل والترقيم، معتمداً على التحليل والتحصيص حيناً وعلى المقارنة والنقد حيناً آخر.. لاستكشاف الظواهر الأدبية الحماسية وربطها - إذا دعا الأمر - بأسباب السياسة والتاريخ).

والمحاسني مجدد على مستوى الأدب الصحيح، إن في قيامه بدراسة بعض الشخصيات الشهيرة في تاريخ العرب الأدبي، كأبي العلاء المعري وأبي الطيب المتنبي وأبي نواس من القدامى، وكأحمد أمين وعبد الوهاب عزام وإبراهيم طوقان ومن إليهم من المحدثين، معنى من معاني الوفاء الإنساني .. ودلالة من دلالات تخليد الثقافة العربية، في آفاقها وأعماقها، في عظمتها ومثالياتها، لا لشيء إلا لأن هاتيك الشخصيات أفنت نواتها وجندت قواها العقلية والشعورية من أجل تعميق القيم الحياتية والمبادئ الاجتماعية والحضارية التي أمنت بها الذات العربية واستمدت منها روح يقطتها ومفتاح شخصيتها ومهماز بقائها على العصور والأجيال، كذلك سخرت إمكاناتها وملكاتهما في سبيل تطوير الأساليب الأدبية والمقاييس الفنية لتعمل تأثيراً

وتوغلاً في مجرى الأذهان ومسارب الأحاسيس .. ولتبقى قاعدة عريضة يلتقي على صعيدها القديم والجديد، الماضي والحاضر.

وكيف لا يعير المحاسني الشاعر أهمية لشعر كالمعتبي وهو، كما يقال، أبو المعاني، وهو أيضاً أعم شاعر في سمو الفكر وقوة الشعور، أنجبته الأمة العربية مفرداً في جميع عصورها الأدبية المتطاوفة؟
ودع كل صوت غير صوتي فسانني أنا الطائر المحكي، والآخر الصدى

وأما أبو العلاء، الذي تناوله المحاسني في أطروحته التي نال بها درجة الماجستير، فحسبه أنه الرائد الذي أدخل الفلسفة في الشعر العربي بإقرار من تاريخ الأدب، والذي نقد المجتمع في أفكاره وأشعاره ذلك النقد الرائع العميق. إجهاضاً لثرهاته وسقطاته، وإيجاداً لمناخ الحق والعدل فيه ثم نهوضاً بأفراذه المنتمين إلى الجماعة الإنسانية، لذا يقول المحاسني: كذلك أحببت أبا العلاء على ريق الشيايب، فأخذت بكتبه مدارس وممارسة، وخطوت الشباب، فإذا أنا بصفاف النيل أكتب عن شاعر، ولئن سبقني الكتاب، على كثرتهم، في التصنيف عنه لداعية ألف عام مرت على مولده أو لسوانح تسنح لهم في أدب هذا العبقرى الشامي الذي خلد على الزمان، فما واحد منهم وقف كتاباً على نقده للمجتمع، وهل أبو العلاء إلا ناقد المجتمع في كل شعره وعميم نثره؟).

ثم من الذي يتجاهل أبا نواس، داعية الثورة على الأطلال الدارسة وداعية الحياة في تطلعاتها، فيه يقول المحاسني: (لقد كان هذا الكتاب من بواكير أعمالي الأدبية منذ ثلاثين عاماً، يوم لم يكن أحد من المعاصرين قد تقدم بدراسة جامعية ومنهجية لشعر أبي نواس وأدبه).

والمحاسني، كاديب ملتزم داخلياً، متصف بنقّة الحس ويقظة الوجدان، لا بد، أن يتجاوب مع الأحوال التي تحيط بشخصه، ومجتمعه وأمنه، وأن يتأثر بمن يشاطره مشاعر الوفاء والإخاء ويساقيه كؤوس العلم والمعرفة.

ومن هنا كان كتابه "طوقان: شاعر فلسطين" وليد تفاعله مع الأحداث المفجعة التي رافقت قضية العرب الأولى.

فقد قال: (وإذ كان شعر طوقان قد ارتبط بقضية بلاده قبل النكبة وبعدها .. وعبر فيه عما لا يسها قبل احتدامها فقد رأيت جديراً بالدراسة والتمحيص).

بينما كتاباه "أحمد أمين" و"عبد الوهاب عزام" هما عصارة زمالة، أو صداقة روحية استغرقتنا شطراً من عمره واستوعبتنا، بالنسبة إليه، وجوده الذاتي والفكري. وقد صور هاتين الشخصيتين، الرائدتين بلمساتهما، تصويراً واقعياً .. وعبر عن مبلغ تعلقه بهما تعبيراً أميناً. مثلاً يقول عن أحمد أمين: (.. أما أحمد أمين فقد رأيت صورته في كتابه "حياتي" كما رأيت في العيان والممارسة، ولم أجد الشخص الذي في الوجود مخالفاً للشخص الذي صور نفسه على الورق .. بل لمست فيه تواضع العلماء والبعد عن التبحر والغرور).

دراسات المحاسني للشخصيات تراوح ما بين الطريقة الكلاسيكية البحتة والطريقة التحليلية المعاصرة. فإذا كان كتاباه "المتنبي" و"طوقان: شاعر فلسطين" يخضعان لأسس الطريقة الكلاسيكية فإن كتابيه "أحمد أمين" و"عبد الوهاب عزام" يختلفان عنهما من حيث التعليل والتفصيل، والاستقرار والاستنتاج، ثم يحويان شيئاً غير ضئيل من عناصر الخلق والصدق. ولعل لعلاقة المحاسني الوطيدة بالرجلين دخلاً كبيراً في ذلك كله. لننظر ما يقول المحاسني بهذا الصدد: (.. وهكذا كنت أقرأ "أحمد أمين" فأتحيله في شكله وسمته .. وأستخرج صوراً حية من عاداته وصفاته من طول التنقيب في كتبه ومقالاته قبل أن أعرفه من قريب .. وتجمعني إليه مودة فكرية وتبعات حكومية).

أما كتاباه الآخرين "أبو نواس" و"أبو العلاء ناقد المجتمع" فتتمثل فيهما الطريقة المعاصرة بالرغم من كون الأول صادراً قبيل الأربعينات وبعدها، إلا أنه دليل ساطع على ملكة المؤلف الفذة في البحث والمقارنة والدراسة، لقد أصاب الدكتور فوزي عطوي كبد الحقيقة حين عرج على المحاسني في كتابه "أبو نواس" بقوله: (.. وقد

انعكس في الكتاب أثر الثقافة العالية التي يتمتع بها الدكتور زكي المحاسني، وذلك من خلال الدراسات المقارنة التي أجراها ولو بصورة عاجلة).

وللمباحث الفكرية قدر كاف في آثار المحاسني، استهل بها اهتماماته الأدبية الأولى معالجاً إياها بحصافة العالم.. وحساسية الأديب وذوق الفنان، تحديداً لملاحم الأدب المعاصر وتطورات وأصداؤه.. وتسمية لقادته من شعراء وأدباء ممن شيّدوا صرحه الشامخ، القائم أبد الدهر.

ففي كتاب "تظرات في أدبنا المعاصر" يرصد المحاسني نهضة الأدب الحديث فيما واكبها، وما اشترج حولها وما تجدد فيها، من خلال الظروف الموضوعية للأقطار العربية التي بلورت هذا الأدب وأكسبته مقوماته الخاصة.. وأسفرت عن القيم الجديدة المتأثرة بالمثل الحضارية، وبمدى قدرة هذا الأدب على التفاعل مع الأحداث.. واستيعاب قضايا الإنسان العربي في جميع البلدان والإعراب عنها بطلاقة وإخلاص.

على أن الشيء الحري بالانتباه هو أن المحاسني، وإن كان مؤمناً في قرارة نفسه بالأدب العربي بسبب خصائصه الذاتية والإنسانية، فإنه يرى أن هذا الأدب غير جدير بالارتقاء على المستوى العالمي.. أو إلى درجة القياس به.. لافتقاره إلى مياسم العالمية في الأصالة والعمق والجدة والتأثير. يقول المحاسني: (إن الحقيقة، التي هي بغية كل باحث، تقول: "ليس لدينا من آثار أدبائنا شيوفاً ومحدثين، إلا القليل الضئيل مما نستطيع أن نقدمه إلى جنب الأدب العالمي").

ولكن هذا ليس بمانعه من الاعتراف بأنه كان لنا أدب عالمي، ولكن أين هو الآن؟ بل أين نحن منه.. ولم لم نصله بالحاضر الراهن؟ لقد تخلفنا وتخاذلنا، وغيرنا ما بأنفسنا، مستمرئين نشوة الخمول والخدر، حتى غدونا حيث نحن اليوم.

(لقد كان لنا أدب عالمي في العصر العباسي والأندلسي، وكان لدينا أفذاذ فيه عالميون. وحين نذكر الجاحظ، وأبا الطيب المتنبّي وأبا العلاء المعري نعتز بهم في كل عصر).

ومع هذا كله فالمحاسني لا يكفر بالضمير العربي ولا يفقد أمله، معتقداً أن بالإمكان اللحاق بالركب العالمي في ميدان الأدب والفكر إذا عرفنا كيف نقتحم آفاق هذا الميدان، وكيف نطبع ذواتنا بطوابع العصر وتحولاته، والحضارة ومبدعاتها والواقع ومتطلباته، ثم إذا عرفنا كيف نصور تجاربنا وما تعانیه نفوسنا. وعبرنا عن أصالتنا الإنسانية وراثتنا الحضاري بالارتفاع إلى ذروة الفن الحقيقي والفكر الواقعي لنتميز أدينا العربي المعاصر بالعالمية في المعنى والمبنى.

و المحاسني المؤمن، يصوغ الحياة الأدبية بكل مناحيها وأهوائها على أساس من الدين .. متمثل في "القرآن الكريم" و"الحديث". إنه يدعو الناس إلى الالتزام بالقيم الإسلامية التي أخرجت البشرية النათية من ظلام الجهالة إلى نور الهدى والرشاد، ويرى أن الأدب لا يمكن أن يزدهر إلا في ظلال الدين، فيقول: (لا يعيش الأدب منضوح البيان بالسحر الحلال وفصل الخطاب إلا في حمى الدين، ولقد عرفت الأمم القدامى في حياة الشعر والفن تراثيل العبادة في طقوس الدين).

صحيح ذلك .. ما دام الأدب هو النتيجة الطبيعية لدراسة الدين .. وكشف خصائصه وحقائقه بعد النفوذ إلى أغواره وجذوره وترك ما لا صلة له به. يتجلى ذلك كله في كتاب المحاسني "الأدب الديني"، الذي ينتظم دراسات أدبية في منتهى الروعة والتوافق الفكري .. لا لشيء إلا لأنه اعتمد "القرآن الكريم" و"الحديث" أساساً في طريقة تناوله الموضوعات الكونية والوجودية، والقضايا الفردية والبشرية في الجاهلية والحياة المعاصرة، علاوة على المذاهب الأخلاقية والأدبية في ضوء التطورات الحديثة ... وعلاوة على قصص بعض الشخصيات الإسلامية التي غيرت وجه التاريخ وأرهست، في ظهورها، بمفاهيم لم يكن للمجتمع العربي قبل بها. ومن مطاوي هذا الكتاب: "التجسيم النفسي في القرآن الكريم"، "الوجودية المذهبية في الفلق"، "من آثار القرآن الكريم في الآداب العالمية"، "شعر الجهاد في أدب الإسلام"، "الفلسفة الإسلامية عند ابن تيمية"، "الرسول يصنع وحدة العروبة"، وفي هذا الفصل الأخير يقول: (... ولا شيء يؤلف بين القلوب كالسلاح بين المجاهدين، فإن أجناد

الرسول وقواده كانوا كتلة واحدة كأنهم البنيان المرصوص، فخرجت هذه القبائل من معركة بدر تجرر أذيال النصر و تخفق فوق رؤوسها رايات العزة يظفر الرسول وصحبه. وقد تركت هذه المعركة في أدب العرب القديم شعراً كثيراً قيل في الفخر والثناء .. ما زال إلى اليوم يهيج كامن العظمة في العروبة على الزمان).

وفي نهاية المطاف ينبغي أن نقف على ما هو واقع .. نشداناً للحقيقة العلمية التي عمل المحاسني من أجلها ولأجلها، إن المحاسني، وإن تمسك بنظرية "تين" في البحث والنقد، وهي التي تعنى بدراسة بيئة الكاتب أو الشاعر وظروفه الموضوعية .. وتحليل العوامل المؤثرة في تكوينه وثقافته، فإنه كمجدد، يؤمن بمبدأ التطور والانفتاح على العالم، لا يغلّق أبواب المباحث العلمية التي يعالجها .. بل يفتحها على مصاريعها ليجلوها من يشاء من بعدها وبما يشاء .. ومن طبيعة الأشياء أن يظل باب العلم مفتوحاً، هذا هو الصحيح.

على أن أسلوب المحاسني تكتنفه بوجه عام، استطرادات، ولعله بهذه الظاهرة التي شملت حتى رسائله الخاصة متأثر بالجاحظ، الرائد الذي اختص بهذه الخصيصة الفنية الفريدة، ثم هو - أعني المحاسني - في طريقة معالجته الموضوعات يستعير من القديم ثوبه ومن الحديث روحه، عملاً بقاعدة الجمع بين الأول لأصالته وفخامته وبين الثاني لطرافته وجدته.

وبسبب من سعة ثقافة المحاسني .. وتنوع روافدها العربية والغربية .. يتولى مهمة الموازنة ما بين الكتاب والشعراء في الشرق والغرب ممن رافقهم في رحلة الفكر، وذلك من خلال تفسيره لبعض الظواهر الأدبية المعينة، مع ما في الأمر من تعزيز لآرائه وأفكاره، وإفصاح عن غزارة علمه وتناهي أفقه، كما فعل حين وازن ما بين مالتوس وأبي العلاء المعري. وما بين رامبو وأبي نواس. وما بين فيكتور هيجو وأحمد شوقي .. الخ.

هذا والبعد الذاتي يترامى أمامنا واضحاً كلما توغلنا في دراسات المحاسني حيث يدخل طرفاً في الموضوع، فيبدأ بالتحدث عن ذاته في مساق الكلام، حديثاً تلقائياً

مستطاباً، محاولاً أن يربط، بينه وبين أسباب الموضوع الذي يتناوله بعامل فني، وتفسير هذا كله هو أن المحاسني يندمج بما يعالج اندماج المستغرق .. ليضفي على ذلك بعداً ذاتياً. والأديب الصادق يعبر، عبر سطورهِ ومؤلفاته، عن تجاربه ومعاناته بعفوية لحياتها الأصالة، وسداها الإخلاص.



شاعر وروائي صور الحياة بلغة ساحرة وجسد قضايا الوطن بأعماله المتميزة

تلقى المثقفون وعشاق الكلمة الحلوة في منتصف الخمسينات من القرن الماضي، بالترحيب والتقدير مجموعة شعرية أنيقة أصدرها الشاعر "بديع حقي" بعنوان "سحر"، ورأوا فيها ظاهرة جديدة في الشعر العربي في سوريا مقارنة بالمشهد الشعري الذي كان سائداً في تلك الفترة من خلال أعلام الشعر: شفيق جبري ومحمد البزم وعمر أبي ريشة وبدوي الجبل وغيرهم، ولم تكن قصائد المجموعة منتمة إلى الكلاسيكية الجديدة أو الرومانسية أو الغزل، الذي فاجأ به "نزار قباني" الساحة الأدبية يوم ذاك، لقد كان شعر "بديع حقي" شيئاً مختلفاً، وأقرب إلى المدرسة الشعرية اللبنانية الجديدة التي تمثلت في شعر سعيد عقل، وصلاح الأسير، وبشر فارس، وصلاح لبكي، وآخرين كانت قصائدهم عابقة برائحة الحداثة، فيها من أريج العطور الفرنسية، ومن أصالة البيسان العربي، ما كان يصونها عن الانجراف نحو التبعية العمياء... وهكذا بدا أن "بديع حقي" هو أحد المرشحين البارزين لأن يلعبوا دوراً هاماً في "حركة التجديد الشعري".

محطات في مسيرة طويلة: ولد الدكتور "بديع حقي" في ٢٦ حزيران من عام ١٩٢٠ بحي "سوق ساروجا" الشعبي بدمشق، ونشأ يتيم الأب لتتولى أمه تربيته، وقد شغف بالمطالعة منذ حداثة المبكرة، فقرأ بتشجيع من معلميه بمكتب عنبر مثل الشيخ "عبد القادر المبارك"، بسدائع البيان العربي كمؤلفات الجاحظ و"الأغاني"، الذي صحبه - فيما بعد - في سنوات غربته خلال أكثر من ثلاثين عاماً، وقرأ خلالها أربع مرات... كذلك

استهوتته مؤلفات المنفلوطي وجبران ونعيمة وجلّ شعراء المهجر، وشغفته أعمال الروائيين الكبار مثل: ديستوفكسك وبليزك وبروست وكامو وغيرهم.

وتابع "حقي" تحصيله العالي في فرنسا، فنال من "السوربون" عام ١٩٥٠ شهادة الدكتوراه في الحقوق الدولية، ودبلوماسياً في الحقوق الجزائية وكانت أطروحته حول القضية الفلسطينية، التحق بعد عودته بالسلك الدبلوماسي، وتدرج فيه حتى مرتبة السفير، متنقلاً بين عدد من العواصم العربية والأجنبية، وعرف في عمله مثلاً في الإخلاص للوطن، بما أثر عنه من أدب رفيع وتواضع عظيم، وروح شفاقة، ومكنته إجادته للفرنسية والإنكليزية والروسية من نقل الكثير من روائع الأدب العالمي إلى اللغة العربية.

ترجم خلال عمله في السفارة بموسكو روايتي "غو غول": المعطف واللوحة، ورائعة "هيمنجواي" و"لا تزال الشمس تشرق"، وبتشجيع من الفيلسوف الهندي "راد كريشنان" قام بترجمة ثمانية من مؤلفات شاعر الهند الكبير "طاغور" سنة نواوين ومسرحيتين، ولما انتقل إلى "كوناكري" عام ١٩٧٣ ترجم إلى العربية ديوان "قصائد مناضلة" للزعيم الغيني "أحمد سيكوتوري".

رائد مدرسة الشعر الحر:

بدأ "بديع حقي" بالشعر، كما يبدأ كل مبدع، فكان رائداً من رواد الشعر الحر، نظم شعر التفعيلة فكان سباقاً في الخروج على بحر الخليل، وكسر طوق الأطر، ومثلت قصائده انعطافاً في التجربة الشعرية العربية لتلائم الإيقاع الجديد في الحياة والفن، وتشير الشاعرة المبدعة "نازك الملائكة" في كتابها "قضايا الشعر العربي المعاصر" إلى أن الإرهاصات الأولى للشعر

الحر، انبجست من "بديع حقي" في قصيدته "غابة بولونيا" التي نظمها عام ١٩٤٦ وهو يصغي في مقهى بغابة بولونيا بباريس، إلى لحن لبتهوفن سماه "إلى أليز".

يوضح الدكتور حقي نظريته إلى الشعر فيقول: "كنت وما أزال أنظر إلى الشعر وإلى الفن الشعري على أنه الفن الوحيد الذي تأتي له أن يصور النفس الإنسانية وأن يسبر أغوارها فيجلو ما يضطرم فيها من نزوات وصبوات، ويخيل لي أن الفنون الأخرى التي ابتدعها الإنسان، إنما تعدّ في جوهرها ولبابها لحقاً وتبعاً له، والنفس الإنسانية لغز ليس سهلاً فهمه وإدراكه، إنها كالبحر عمقاً وامتداداً وهيجاناً، وأمواجاً متلاحقة يأخذ بعضها برقاب بعض، لكن الشاعر الحق يمكنه الغوص في أعماق النفس الإنسانية التي لا ينفذ إليها النظر إلى اللاوعي كأعظم عظماء التحليل النفسي، وفي هذا المضطرب الواسع يصطبغ شعره بألوان زاهية، ويمنح من الرعشات الدفينة ظلالها القلقة الحائرة وما ينبغي للشاعر أن يكون شعره مبهماً، وكافاً بالغموض وحده، إثارة منه للوضوح، فقد تغنى الإشارة والإيماءة عن الإفصاح... على الشاعر أن يقبس من خلجات النفس، الواضح ومنها والمبهم، ويحظى اللفظ والمعنى بقاء لا تهينه المصادفة، ولكن حظاً سعيداً خلافاً هو أزلي يهيئه ويعدّ أسبابه، ولعل اللفظ وهو يسرب المعنى، يبدو كالثوب الذي ينتظم إهاب الغادة الحسناء فتتخيل العين المفتان التي تختبئ وراء الثوب، وتمتلئها في شوق ونزوع وتطلع متصل.

مأساة فلسطين حولته إلى القصة:

لقد كان منتظراً للدكتور حقي بعد صدور ديوانه الوحيد "سحر" عن دار الآداب عام ١٩٥٣ أن يحتل مكانة مرموقة بين شعراء عصره، لكنه تحول فجأة إلى كتابة القصة القصيرة والرواية (لأنني وجدت أكثر تعبيراً

عن روح العصر، وأرحب من الشعر أفقاً وأوسع مدى، وقد يكون أنسي أمسكت عن النظم بعدما استنفدت مفرداتي الشعرية على نحو ما أشار إليه بول فاليري، حين وجه له مثل هذا السؤال ... ولكنني بالتأكيد انصرفت إلى القصة ومن ثم للرواية إثر زيارتي لمدينة "قبيسة" الجريحة حيث التقيت امرأة تثن بجانب كومة من الحجارة، هي كل ما تبقى من بيتها المهدم تلوح بمنديل مخضب الدم، وذراعها ترتفع به كجناح طائر يرقص مذبوحاً من الألم ... وحين صليت في المسجد الأقصى، راحت دموعي تغسل وجنتي، ولحظتها أدركت أن قدّر أدبي موصول بقضية فلسطين فنذرت قلبي وفكري للأرض الطاهرة المعذبة ... وهكذا تركت الشعر وأنا في قمة العطاء".

ولكن "بديع حقي" لم يهجر الشعر ولم يفارقه، بل امتلأت قصصه ورواياته بروح الشعر ولغته، وكان في اختياره المفردة المشحونة بحرارة الروح وحساسيتها والصياغة المصقولة التي تقطر أنيقة وعذوبة، ونغمات يبعث الحياة في أبسط المشاهد وأصغر الكائنات حتى ليعجب القارئ أحياناً كيف تجتمع له هذه المعاني والمشاعر الدافقة، وذلك كله لا يكون إلا من خصوبة نفس وقوة ملاحظة وعمق إحساس بالأشياء، وقدرة الخيال على إحياء المشهد وبث الحركة في ثناياه، وهو يقول: إن لغتي الشعرية كانت عوناً لي على نفث المشاعر الجياشة في نفسي، وعلى تصوير مشاهد الحياة على نحو يشد القارئ ويجذبه، بما أرسمه من صور مجنحة تداعب أوتار القلب وتغمر حنايا الروح ... إن القارئ للأدب لا بد أن يجد لغة أدبية صرفاً فيما يقرأ أو أفكاراً عظيمة، وإذا ما اجتمعت اللغة الأدبية، مع الفكرة العظيمة كانت المحصلة أدباً راقياً، خذ مثلاً قصة "حكاية النهر والجسد" التي ضمها كتابي "قوس قزح، فوق بيت ساحور" لقد كتبتها كما أكتب "سوناتا" موسيقية بحركاتها الثلاث، بانتقاء صورها وألفاظها وحروفها،

فتحولت إلى ما يشبه القصيدة، وكذلك الأمر في روايتي: "العكازة المسكينة"، وهي عمل جاد لموسقة الرواية، وهذه الموسقة تتبع من اللغة الشعرية... وهكذا ترى أن الشعر يسكنني وإن كنت قد هجرته ظاهرياً.

هكذا انعكست مشاعره الصادقة في مجموعته الأولى: "التراب الحزين" (١٩٦١) والتي مثلت محطة هامة في مسيرته الأدبية حين فازت بجائزة الدولة التقديرية، ومن بعدها رواية "أحلام على الرصيف المجهول" (١٩٧٣)، حين يورق الحجر، وقوس فزح فوق بيت ساحور (١٩٩٣) وفلسطينيات عام ١٩٩٥.

الحياة والنضال في أعمال حقي:

تتابعت أعمال "بديع حقي" القصصية والروائية (التي استمدتها من معين نفسه الراهقة، واختار مواضيعها من خلال تفاعل ذاته مع الواقع المحيط به)، ويمكن تصنيف هذه المواضيع في بابين عريضين:

الأول: القصص القومية الوطنية وتتساءل قضية فلسطين وهم الانتفاضة، وهذه الأعمال لها جذورها في شخصية الأديب الدكتور حقي وحياته ومن يقرأ سيرته الذاتية في كتابه: "الشجرة التي غرسها أمي" (١٩٨٦) يتبين أن تكوينه الوطني قد اكتمل في طفولته، فهو سائل أسرة تمرست بالنضال والكفاح، إذ قضى عمه شهيداً وهو يقاتل المحتلين الفرنسيين، ونفي أخوه الطبيب إلى العراق بعد اتهامه بمعالجة الجرحى من الثوار، وقد اقتدى "بديع حقي" بمسيرة أفراد أسرته وشارك في المظاهرات وسجن، وقد عاش خلال عمله الدبلوماسي مأساة فلسطين والآلام التي يكابدها أبناءها في نضالهم لتحرير وطنهم، وأما الباب الثاني فهو القصص الذاتية التي تناولت مواقف وشخصيات من حياته الخاصة انطبعت آثارها في نفسه، واختمرت في لا وعيه، إلا أنه جسدها في مواقف قصصية تعود

في أساسها إلى وقائع حياته، ولكن الكاتب لم يسجلها تسجيلاً وثائقياً مطابقاً للواقع بل اختار بعض الواقع ليفصح عنه بمعادل فني تلتقي فيه الذات بالموضوع.

ومن أبرز أعماله في هذا الباب رواياته "جنسون تستحق الصور" (١٩٦٨)، أحلام على الرصيف المجروح (١٩٧٣) حيث تتميزق الظلال (قصص ١٩٨٠) همسات العكازة المسكينة (رواية ١٩٨٧) وأخيراً: جمرة الحرف وخمرة النغم، "صور في مقالات" و"مذاهب وأعلام في الأدب العالمي" و"تجوى زهرة البوكيسيا".

جسر إلى الأدب الخالد:

هكذا أبدع الدكتور حقي في مجالات الأدب والشعر والقصة والرواية والترجمة، وقدم للمكتبة العربية طوال أكثر من نصف قرن أعمالاً راقية تميزت بأسلوبه المميز، ولغته الأنيقة، وإحساسه المرهف، مما أهله للوقوف في صف الأدباء العالميين الذين تزهو بهم بلادهم، وتصفق لهم بإكبار وتقدير.

رحل "بديع حقي" في الثالث والعشرين من كانون الثاني عام ٢٠٠٠ وودع أصدقاءه وعشاق شعره ملوحاً لهم بكلماته "لقد ذهب شغفي بالنحل إلى أمنية مستحيلة من أمانى الطفولة البريئة، فتمنيت أن أحور إلى نحلة تهب جناحيها الخفافين لغوارب النسيم، حرة منطلقاً، وتهب العسل الطيب للناس كافة... وقد حقق الله طلبي بعد أن صمرت نحلة صغيرة هائمة بين أترابها من السحلات في رياض الأدب وأفانينه وأزاهيره لأبني خلية متواضعة، لحل راحة ما تنقرى مكانها وتستشتر الشهد الذي نسجته من ذوب نظراتي المتوثبة ومن خلجات قلبي العميد ولقد ذهب بي طموح الشباب - ويا لسره المخادع - إلى التمني بأن أضحي ملاكة من ملاكات النحل

المرموقة وأن أحل من خليتها الأدبية ما أحلته عمالقة الأدب من مكان سام رفيع، ولكن هيهات فإن النحلة الصغيرة - فيما هي تستشرف الآن الخامسة والسبعين - لم تستطع أن تمنح سوى الشيء اليسير من الشهد أزجيه بمؤلفاتي، وأشعر أن على الرغم من ضآلته وقصوره عن مثلي الأعلى سعيت إليه بنشوة عارمة من الاعتزاز، لأنني ألفت من يتوقه ويفصح عن حبه وإعجابه مردداً لنفسي بأني وجيلي من الأدباء المعاصرين لسنا سوى جسور مفضية إلى الأدب الخالد....

الطائر المحلق الذي جفا سماء الشعر

حين نقرأ "بديع حتى" تأسرك نغمة إنسانية تتبدى في غلالة من ألفاظ وتعبيرات عذبة، وحين تلتقي به تحس أنك بإزاء نبع ثري من المشاعر، الإحساس المرهف الذي يصل إلى حد الشفافية. وإذا كان الرجل زاهداً في الشهرة، فإن التاريخ يسجل له ريادته في بعض مجالات الأدب، وسبقه فيها الآخرين، ورؤيته الأدبية المتميزة.

■ من المعلوم أنك بدأت حياتك الأدبية شاعراً، وأصدرت مجموعتك الشعرية "سحرا" عام ١٩٥٣ ثم غلب عليك الاتجاه إلى القصة والرواية، فهل تراك وجدتتهما أكثر تعبيراً عن روح العصر؟

ربما كان ما ذكرت صحيحاً من أنني وجدت القصة والرواية أكثر تعبيراً عن روح العصر وأنهما أرحب منه أفقاً وأوسع مضطرباً، ولئن بدأت بنظم الشعر وكتابة القصة معاً، في مستهل حياتي الأدبية، فقد كان ميلي إلى الشعر ظاهراً، وقد جاء في مقدمة ديواني "سحر": (إن الشعر هو الفن الذي يتأتى له أكثر من غيره أن يصور النفس وأن يسير أغوارها، فيجلو ما يصطرع فيها من نزوات وبدوات، ويخيل إلي أن الفنون الأخرى التي ابتدعها الإنسان، إنما تعد في جوهرها لاحقاً به وتبعاً له).

ولعلي أمسكت عن النظم لأنني استنفدت كل مفرداتي الشعرية وصوري الجمالية، أخذاً بمدرجة الشاعر الفرنسي "بول فاليري" الذي أمسك عن نظم الشعر، بعد ليلة مؤرقة في مدينة "جنوا" فقال: (لقد استنفدت كل الكلمات الشعرية التي صغتها من قبل، فعلام أكرر نفسي؟، ولعلي لويت بصري عن الشعر، إثر أزمة عاطفية ألمت بي، حتى لقد دار في خلدي، أنني لست بقادر على القريض، بعد أن غابت من أحب، وأن معين إلهامي، من دونها، قد نضب، وأن كل ما ضمه ديواني من صور غنية بأطياب الغزل والوجد ليس إلا عيثاً وسراباً، بيد أنني أحب أن أشير

إلى أنني انصرفت إلى القصة تمام الانصراف، منذ أن بلينا بمأساتنا الكبرى، مأساة فلسطين، فبينما كانت جبتي تلثم سجادة المسجد الأقصى في القدس مصلياً، باكياً، إثر زيارة لقبته الشهيرة، ضمن وفد سوري، عام ١٩٥٣، آليت على نفسي، أن أنثر، بعد الآن، على تراب فلسطين أندى كلماتي ودموعي، في قصص وروايات، وكذلك كتبت مجموعة قصص "التراب الحزين" التي نالت جائزة الدولة للقصّة عام ١٩٦١، ورواية "أحلام على الرصيف المجروح" التي استوحيتها من هزيمة حزيران "يونيو" عام ١٩٦٧، ومقالات "حين يورق الشجر" التي استوحيتها من ملحمة الحجارة، وأخيراً مجموعة "قوس قزح فوق بيت ساحور" التي ستصدر قريباً.

رائد شعر التفعيلة:

■ هناك أمر قد لا يعرفه الكثيرون، حتى معظم الذين كتبوا عن بدايات الشعر الحديث أو شعر التفعيلة، فقد اعتاد الباحثون، أن ينسبوا أولوية هذا الشعر إلى نازك الملائكة وبدر شاكر السياب أو إلى أحمد باكثير في مسرحيته الشعرية "أخانات ونفرتيتي"، أو إلى محاولات لويس عوض أو إلى غير هؤلاء، معيدين كتابة أول قصيدة على نسق الشعر الحر إلى عام ١٩٤٦، في حين أنك كنت أسبق من هؤلاء جميعاً، إذ كنت، في الواقع، أول من نظم قصيدة التفعيلة، وهي حقيقة أشارت إليها نازك الملائكة، في كتابها "قضايا الشعر المعاصر"، ماذا تقول في هذا الشأن؟

كان إنصافاً من الشاعرة نازك الملائكة أن تشير إلى ذلك في كتابها المذكور حول إرهابيات الشعر الحر في أدبنا المعاصر، مستشهدة بقصيدة "خريف غابة بولونيا" التي نظمها بباريس عام ١٩٤٦، غير أنني أحب أن أشير، هنا، إلى أنني نظمت قصائد أخرى سبقت هذه القصيدة، منها قصيدة "أرق" التي نشرتها صحيفة "الصباح" التي كان يشرف عليها الأستاذ عبد الغني العطري وذلك بتاريخ

١٩٤٣/٨/١٦، ثم تابعت هذه التجربة المثيرة، بعد أن استمرأتها، علماً بأنني لم أعر سبقي إليها أية أهمية، حين يثار موضوع الإرهاصات الأولى في شعر التفعيلة، بعد أن هجرت الشعر وهجرني.

روائع طاغور:

▪ لا يذكر اسم بديع حقي، إلا ويمثل في الذهن، ترجمتك لروائع طاغور، ولعل كثيرين من القراء سمعوا باسمك لأول مرة، من خلال تلك الترجمة، علماً بأن مترجمين بعدك نقلوا طاغور إلى العربية، إلا أن فضل الريادة يبقى، هنا، لسك أيضاً، أضف إلى ذلك أنك جعلت القارئ العربي يعيش روحانية طاغور ويتلمس شفافيته، ويتأثر برمزيته المشوبة برومانسية عذبة؟

بين كل ما نقلت من آثار أدبية أجنبية، إلى اللغة العربية، تظل روائع طاغور في الشعر والمسرح أثرها إلى قلبي، لما يترقق في أدب طاغور كله من نزعة إنسانية وصور شفاف رمزية تأتلف مع نزعتي الرمزية المتجلية في ديواني "سحر". وقد بدأت بديوان "جيتجالي" بعد أن قرأته مترجماً إلى الفرنسية بقلم "أنديس جيد" فأعجبت به أشد الإعجاب، وأفصح عن رغبتني المتقدة في ترجمته مع بقية روائع طاغور إلى العربية، لسفير الهند في موسكو رادا كريشنان، المفكر الهندي الراحل، الذي أضحي فيما بعد رئيساً لجمهورية الهند، وكنت في ذلك العام ١٩٥٢ قائماً بالأعمال في سفارتنا بموسكو، فأهدى إلي رحمه الله، مجموعة تضم أهم آثار طاغور الشعرية والمسرحية، التي نقلها طاغور نفسه من البنغالية إلى الإنجليزية "طبعة ماكميلان - لندن" وقمت بترجمة خمسة دواوين ومسرحيتين، نشرتها كلها في بيروت ودمشق وأعيد طبعها في القاهرة عام ١٩٦١ ضمن سلسلة الألف كتاب، بمناسبة مرور مائة عام على مولد طاغور، وقد راجع أكثرها الأستاذ مصطفى حبيب، كما راجعت مسرحية "دورة الربيع" الدكتورة نجاح العطار، ونشرتها وزارة الثقافة عام ١٩٦٥. ورأيت فيما بعد أن أضف كل ما ترجمت، في مجموعة واحدة

تحت عنوان "روائع طاغور"، ونهضت دار العلم للملايين بنشرها خمسمس مسرات، وأشاد بهذه الترجمة كثير من النقاد والباحثين.

لقد أعانني على هذه الترجمة الشائقة الممتعة، أنني كنت شاعراً، ويبدو لي أنه يحسن بأي مترجم يتصدى لنقل شعر طاغور إلى العربية أن يكون شاعراً، يتذوق الكلمة الموحية الملهمة، المجنحة، ويعرف كيف ينتقيها، ولعل تقدير القارئ العربي لترجمتي ورواجها في الوطن العربي كله هو خير مكافأة معنوية أصبتها، بيد أنني ما زلت أذكر موقفاً غصت فيه عيناى بالدموع، في مؤتمر العلاقات الدولية الذي دعيت إليه في نيودلهي عام ١٩٨٧، حين طلب رئيس الجلسة إلى أعضاء المؤتمر الوقوف لتحية بديع حقى الكاتب العربي السوري الذي نذر قلمه لنقل روائع طاغور إلى العربية، مسهماً بذلك في توطيد العلاقات العربية - الهندية الثقافية، ونهضت آنذاك، ودموع التأثر تفيض متدفقة على وجنتي، معانقة هدير التصفيق المدوي في أرجاء القاعة، كانت دموعي أنقى تحية أزجيتها إلى أصدقائي الهنود الذين يعرفون كيف يقدرون وكيف يحبون.

النثر .. ولغة الشعر:

■ من يقرأ قصصك ورواياتك، يشعر بأنك لم تغادر فضاء الشعر، حتى وأنت تكتب القصة والرواية، وربما كنت من كتاب القصة الأوائل الذين يدققون في اختيار ألفاظهم ويكتبون بأسلوب ونفس شعريين بدءاً من مجموعة "التسراب الحزين" حتى آخر رواية لك.

في مقال نشره الصديق الدكتور عبد السلام العجيلي، بمجلة الأديب اللبنانية، عقب صدور كتابي "التراب الحزين" أورد فيه أنني كالطائر المحلق الذي جفا سماء الشعر، ونزل إلى رحاب القصة، محتفظاً بزغب الطائر وريشه.

ولئن لم يعد الشعر ينزل في أوزانه وقوافيه، لأنفض ما يَمُور في الصدر من مشاعر، لقد ظلت أحتفظ في نثري بصور الشعر وألفاظه وموسيقاه، أريقها في

رئات كلماتي وحروفي، فعلي أضحيت - كما كتبت ذات مرة، كالنعامة التي لا تقوى على الطيران والتدويم في الفضاء، ولكنها لا تزال تنسب إلى الطير، وتزفر مثلها، بجناحيها على استحياء، وتسبق الغزال السائح، إن راق لها أن تسابق، ولعل هذا يفسر علام راق لي، في رواياتي كلها وبعض قصصي، أن أطمح إلى ما طمح إليه الروائي البريطاني "الدوس هكسلي" في موسقة الرواية والقصة، في حرصه الدائب، المتصل، على إيقاع الجملة، وتناسق حروفها وتناغم ألفاظها، لتكون الرواية أشبه بسمفونية، والقصة أشبه بسوناتا، حيث تجد، مثلاً، أن فقرات العكازة في رواية "همسات العكازة المسكينة" تتجاوب، حلوة الجرس، شجية، كأنها جملة موسيقية تتردد ضمن سمفونية عذبة، رحية. ولئن كنت أعد، حين نظمت قصائد "سحر" الرمزية، مؤثراً الألفاظ الموسيقية الشفافة، من عبيد الشعر الذين يرون أن خير الشعر هو الحولي المحك، لقد أضحيت في نثري أيضاً، من عبيد النثر وخدامه، وإنني لأعتر بأن أكون خادماً للغتي العربية الرائعة. هنا يطيب لي أن أورد ما ذكره الناقد الدكتور حسام الخطيب، في الندوة التي أقيمت تكريماً لأدبي، منذ قرابة خمس سنوات في اتحاد الكتاب العرب، فيما كان يتحدث عن جمالية نثري وموسيقاه، قال: (إن بديع حقي يسعى، حتى وهو يصور الشر أو القبح، في رواياته وقصصه، إلى أن ينفض صورهم بأسلوب أسر جميل) ولا أنكر هذا أو أنفيه، لأن استجلاء القبح على النحو الذي ارتضيت، قد يحسر بعض أسرار الجمال المتوارية خلف القبح، واستجلاء الشر، على نحو صاف، معبر، قد يبرز أبعاده وخوافيه، كما تبرز عدسة المجهر النقية، دقائق الجراثيم الصغيرة غير المرئية. وللشعر، فيما أحسب، جراثيم أكثر ضراوة من الجراثيم المعدية. وهنا أحب أن أشير إلى أن الروائي الأمريكي "فوكنر" يتكئ على الجمل الموسيقية الشعرية، في جل رواياته، لا سيما في "الصخب والعنف"، "النخيل البري" لأنه قرزم الشعر قبل أن يضحي روائياً، وأننا لنجد هذه النزعة الشعرية في الأسلوب المتكئ على الصورة والأسطورة في روايات "ماركيز" كما نجدها لدى "داريل" في "رباعية الإسكندرية" بسردها المشحون بـصور شعرية

خلاصة، حتى لقد شبه أحد النقاد روايته هذه بسمفونية تنتظم في أربع حركات.

السيرة الذاتية.. وشجرة التاريخ:

■ سيرتك الذاتية "الشجرة التي غرستها أمي" ربما جاءت بعيدة كثيراً أو قليلاً، عما ألفناه في السير الذاتية، إذ ليس المهم ذكر تواريخ ووقائع، بل كنت مخلصاً لبديع حقي الشاعر ذي الشفافية، هكذا كان الحديث عن الأم وعن ذكريات بيت الطفولة، يعني الحديث عن البيئة الدمشقية والعادات والتقاليد ونشوة الماضي، بنفس رومانسي عذب.

- كانت أمي رحمها الله امرأة بسيطة الفطرة، متواضعة مستقيمة، ذكية الفؤاد، وقد بنى بها والدي ولها من العمر أربعة عشر عاماً، وتوفي وهي لا تزال صبية، فلم تشأ أن تتزوج بعد أن تزلت وسهرت على تربية طفلها الصغيرين - أنا وأختي - وكانت تربيتها مزيجاً من القسوة والعطف والحنان، وقد غرست هذه الأم الطيبة في حديقة دارنا بسوق ساروجة، شجرة نارنج، انسأقت في فينيتها أحلام طفولتي وشبابي، مظلة كتبي وأوراق قلمي. من هذه الشجرة تسلسلت الذكريات الرفافة، الحزينة، الهنيئة معاً، لتصف الحارة الدمشقية، وفناء الدار القديمة، تهزج في فنائها بحرة مثرثرة، وتتأود على جنباتها أصص الفل والياسمين والتمر حنة، وتجلو إلى ذلك كله، مواجع الحياة القاسية المضنية التي عشتها، وتقاليد المجتمع القديم وعاداته، وفي هذا النسق من الذكريات، لا سبيل إلى إيراد تاريخ، فإن كل حجر، كل ذرة من تراب، كاف وحده، لينفض مدارج الطفولة ومعالـم الدار الدمشقية ومـتـاهـات الحارة الظليلة، في نفس حميمي رومانسي - كما شئت أن تصفه - وفي مقال غمز أوتار قلبي، كتبه صديق العمر الدكتور عبد السلام العجيلي أخيراً، يقول: (لقد غرست أم بديع شجرتين: شجرة، نارنج عرفتـها في الأيام الفائتة، وتغيأت ظلها، ومتعت نظري بخضرة

أوراقها، والشجرة الثانية هي بديع نفسه الذي غرسه أمه في أرض الوطن،
وفي حديقة الأدب وروضة الفن من هذا الوطن).

نحلة لم تمنح سوى القليل من الشهد

حين كنت طفلاً صغيراً، سعيداً، قريب البسال، في حديقة دارنا الممرعة الخضراء، بسوق ساروجة، كانت النحلة الرشيقة الدؤوب تستهوي عيني المتطلعتين إليها، أكثر من الفراشة المزهوة بجناحيها المفوقين بأجمل الألوان والثياب، كان يحلو لي أن أتبعها ببصري تطوف حول برعم منور من الزهر، مسفة مصعدة، كما لو أنها تود أن تقضي إليه ببوحها ونجواها، ناقلة إليه من برعم مجاور أو بعيد، شذاه وغبار طلعه وبعض أسرار الخفية، وكنت معجباً بعطائها السائع، بعد أن عرفت أنها ترتشف أعذب ما في الزهرة من ماء وحلاوة لتمجده شهداً حلالاً في خلية قائمة من مكان مجهول في حديقتي الواسعة، وكنت أتساءل: ترى أين تتوارى تلك الخلية المترعة بعسلها الشهي، ودفعني الفضول ذات مرة على الإمساك بنحلة عاكفة على زهرتها، مغزلة تويجها، مرتشفة نداها، فاعلمها أن ترشدني إلى كنزها الخبيء، ولم تثني لسعتها المؤلمة عن تعلقي بها حتى لقد ذهب شغفي بالنحل إلى أمنية مستحيلة من أمانتي الطفولة البريئة، فتمنيت أن أحور إلى نحلة تهب جناحيها الخفاقين لغوارب النسيم، حرة، منطلقة، وتهب العسل الطيب للناس كافة.

وقد حقق الله طلبتي وأمنيتي، بعد أن أصبحت نحلة صغيرة، هائمة بين أترابها من النحلات في رياض الأدب وأفانينه وأزاهيره، لأبني خلية متواضعة، لعل راحة ما، تتقرى مكانها، وتشتار الشهد الذي نسجته من ذوب نظراتسي المتوثبة، ومن خفقات أجنحة أحلامي الرفافة، ومن خلجات قلبي العميد، أجل أنا نحلة صغيرة من خلية كبرى تضم نحلات معطاء، راضية بأن تبذل أغلى مالديها وأحلاه وألذه مساعاً للجيل القادم، لعله أن يستطيه، مقوماً أدبي، حادياً عليه، حفيماً به ولقد ذهب بي طموح الشباب - وبالسره المخادع - إلى التمني بأن أضحي، أنا النحلة المولعة برحيق الزهر، ملكة من ملكات النحل، المرموقة، وأن أحتل من خليتها الأدبية، ما احتله عمالقة الأدب من مكان سام رفيع، ولكن هيهات، هيهات، لقد انتسخت كل

الأماني وتلاشت، ولم تستطع هذه النحلة الصغيرة، بديع حقي، فيما تستشرف الآن الخامسة والسبعين، أن تمنح سوى الشيء اليسير من الشهد، أزجيته بمؤلفاتي، وأشعر على الرغم من ضالة وقصوره عن مثلي الأعلى الذي سعيت إليه، بنشوة عارمة من الاعتزاز والهناء، لأنني ألفت من يتذوقه ويفصح عن حبه وإعجابه، في هذا الحفل الكريم، مردداً لنفسي مع ذلك، بأنني، أنا وجيلي من الأدباء المعاصرين، لسنا - كما أفضى لي ذات مرة صديقي المرحوم فؤاد الشائب رحمه الله، لسنا سوى جسور مفضية إلى الأدب الخالد، فلا تقع نفسي، إذن، بأنني جسر صغير، صغير من هذه الجسور.

ولا أخفي أنني أشعر، أحياناً، بالقنوط والإحباط ويمثل في وهمي أن كل ما ألفت لم يكن إلا عبثاً وسراباً، ويجاذبني، آنذا، ما كان جاذباً أبا حيان للتوحيدي من خيبة ومرارة حين دفع بكل ما تبقى لديه من مؤلفات إلى النار، ضناً بها على من لا يعرف قدرها وقيمتها في زمانه، بيد أنني ظلت، أتمنى ما تمناه الكاتب الفرنسي (موروا) بأن يختطفني الموت، مابين نقطة وفاصلة، من جملة أكتبها في قصة أو رواية أو دراسة، لأقيء إلى التناول، أملاً أن يكون الجيل القادم أقرب إلى التقدير والنصفة، من بعض من يرى في جمال الأسلوب الذي أنشده، غمزة تغض من شأن أدبي، في حين أن (أندره جيد)، أحد فرسان الكلمة في فرنسا، كان يردد، معترساً، نياهاً، أن للنسيان سوف يستبد بجميع أفكاره، فيما عدا جمالية أسلوبه، هذا الأسلوب الأسر، الساحر، بيد أن جمال الأسلوب لم يستأثر وحده باهتمامي، فأنا أعترف بأنني أناجي كلماتي، أضمها، أتذوق حروفها، أستشفيها، دون أن يصرفني ذلك عن القيم الانسانية التي تسربلها وتهب لها الحياة، والتي تقود قلبي وتهديه فيما هو يسعى فوق مضطربه الأبيض الملبس.

أجل، كان الشعر أول منهل عذب متحت منه من بين مناهل الأدب، وكانت الرمزية هي التي شددت، في البدء، نظري إلى أفق مستحدث، شائق في الشعر، تهوم في مداه وتتفياً ظلاله الغائمة.

ولسائل يشاء أن يستوضحني: علام لويت نظري عن الشعر، بعد أن وسدت جفوني فوق رؤاه؟ تراني عزفت عنه، مثلما اتفق لقاليري بعد ليلة مؤرقة في (جنوا)، خيل إليه فيها أن كل ما نظمته ليس إلا عبثاً وقبض الريح، غير أنني أود أن أثير، هنا، إلى أنني أثرت الرواية والقصة، كمنسرح ملثم لإلهامي، بعد مأساة فلسطين، التي نكأت جراحي الرغبة، فأليت على نفسي - إثر زيارة قمت بها، عضواً في الوفد السوري الرسمي، لقبية الشهيدة، عام ١٩٥٣ فيما كانت جبهتي تلثم سجادة في المسجد الأقصى، مصلياً، باكياً - أليت أن أنثر، بعد الآن على تراب فلسطين أندي كلماتي ودموعي، ومن خيوط هذه السجادة المقدسة المخضلة بعبراتي، تسلسلت قصصي ورواياتي ومقالاتي، كانت قبية إذن هي التي أشعلت الحرائق في حروفي، لأؤلف أربعة كتب عن فلسطين الغالية، المعذبة.

وكان ينبغي لهذه النحلة أن تنحو إلى افق بعيد، بعيد، لتنتقل بين أراهير طاغور، شاعر الهند العظيم، وكذلك نقلت إلى العربية سبعة من مؤلفاته، من بينها ديوان (البستاني) وكنت بسبيل ترجمته، وأنا إلى جانب سرير أمي المريضة، رحمها الله، حين لمحت اللحاف ينحسر عن قدمها النحيلة، لأقرب شفتي منها وألثمها، قبل أن أعطيها فإذا هي تغمغم بدعائها الصالح المبارك، وتتطفئ، فجأة، وكذلك أهدي كتاب (البستاني) إلى روحها الطاهرة، لأن آخر أنفاسها في الحياة كانت تناسم كلمات طاغور الانسانية.

وكالنحلة التي تتذكر مكان خليتها فلا تخطئه وهي تتسمته وتتجه إليه، فإن ذاكرتي ظلت منوطة بسوق ساروجة ودورها المتعاقبة، الظليلة، على نحو كنت أجدني أستعير حجارة جدرانها لأبني بها بيوت قصصي ورواياتي. بل هي ذي النحلة الصغيرة، الهيمى، تبسط خليتها المتواضعة، الضئيلة، وتشعر فرحة جذلي، بأن هناك من يستطيب شهدها وعطاها.

وهاهي ذي النحلة الصغيرة نفسها، يجاذبها الفخر والاعتزاز والعرفان، فيما هي تلمس التقدير والمحبة والرعاية الكريمة، وهأنذا، أفي نفسي أشبه بطفل صغير،

ساذج، فاجأته هدية حلوة، فارتبك، ولم يدر كيف يجلو مشاعره، فيما هو يرامق
العيون المحبة، الرانية إليه.



عدنان مردم بك :

القاضي الذي كتب بدايات المسرح الشعري في سوريا في مطلع العصر الحديث

اهتم عدد من شعراء العرب بدراسة الأدب الأوربي، وأولوا اهتمامهم للمسرحية الغربية، التي لم يكن لها في الأدب العربي أصل يُرجع إليه، فعمد بعضهم إلى ترجمتها إلى العربية كما فعل "خليل مطران" الذي نقل بعض مسرحيات شكسبير، واقتبس آخرون منها مثل أديب أسحق وسليم عنحوري وأبي خليل القباني ولم يحالفهم التوفيق، ثم طلع "أحمد شوقي" الذي يُعد رائد المسرحية العربية بمسرحيته "مصرع كليوباترة" و"مجنون ليلى" متأثراً بالمسرحية الفرنسية إبان دراسته في السوربون، وكذلك شأن عزيز أباظة الذي كان في مسرحياته أقرب إلى الشاعر الملحمي منه إلى الشاعر المسرحي، ويعتمد على سرد الأحداث كأنه قصاص كما يلاحظ في "غروب الأندلس".

لفت ذلك انتباه الشاعر الراحل عدنان مردم بك (١٩١٧-١٩٨٨)، وأدرك حاجة المسرح العربي إلى مسرحيات شعرية ذات مستوى جيد، تلتزم بقضايا الأمة القومية والوطنية وتعالج مشكلات المجتمع، وتستعيد بطولات العرب وأمجادهم، فلجأ إلى خزانة التاريخ العربي الإسلامي وأخرج منها مواضيع العديد من رواياته الشعرية ومنها: فتح عمورية (١٩٣٣) وكان في السابعة عشرة من عمره، نشرها في مجلة "الشام" لصاحبها: خليل المحصل، و"عبد الرحمن الداخل" (١٩٣٤) التي نشرها في مجلة "العرفان" لصاحبها "عارف الزين" وجميل وبثينة" (١٩٣٦) ونشرها بمجلة "الإنسانية" لصاحبها "وجيه بيضون" وتوالت مسرحياته بعده تباعاً: عادة أفاميا، العباسة، الملكة زنوبيا، "الحلاج"، رابعة العدوية، "مصرع غرناطة"، فلسطين الثائرة"، "دير ياسين".

لقيت أعمال عدنان مردم بك إعجاب وتقدير النقاد والأدباء عُلَى المستويين العربي والعالمي، فترجم له البروفيسور "خران فرننت جونيس" فصولاً من مسرحية "مصرع غرناطة" إلى الإسبانية وحازت "رابعة العنودية" على الجائزة العالمية الثالثة بمهرجان الكتاب الصوفي العالمي الذي، أقامته "اليونسكو" عام ١٩٧٢ في جامعة "بوناسيروس" ومنح الشاعر عنها لقب "بروفيسور"، كما نال شهادة الدكتوراه من جامعة المركز "جنوب سيكلونا" عام ١٩٨٧، بعد سنوات من إدراج اسمه بين أعلام المسرح في الموسوعة الإنكليزية العالمية لتراجم الأعلام.

وقد وثق الشاعر في هذه المسرحيات لنضال سوريا ضد المستعمر الأجنبي، ومجد ماضي الأمة وتاريخها العريق فكانت كل واحدة منها تعكس حسه الوطني، وفكره الاجتماعي.

ثم صدرت له روايات مسرحية أخرى تنوعت مواضيعها مثل: فاجعة مايريلنج، ديوجين الحكيم، الاثنتيذ، السففل، القزم، ويوسف وزليخة (مخطوطة) وغيرها.

لم يكن عجباً أن يحظى "عدنان مردم بك" بهذا التكريم، بل كان في الحقيقة أهلاً له، وجديرًا بكل صور التقدير فقد ظل طوال سنوات ملء العين والقلب ينثر أشعاره وأعماله في الصحف والمجلات، ويخرج إلى القراء بقصائده ومسرحياته الرائعة.

ولد "عدنان مردم بك" بدمشق عام ١٩١٧، في أسرة عربية، وهو ابن العلامة "خليل مردم بك"، شاعر الشام وأديبها الكبير، الذي علم أجيالاً الأدب واللغة والبلاغة والعروض، وتخرجت في مدرسته مواكب من الأديباء والشعراء، منحهم من علمه الواسع، وأدبه الرفيع، وتهذيبه العالي وكان له أكبر التأثير في مسيرة ابنه الشاعر وعطاءه الأدبي: "لقد كان أبي صاحب مدرسة جديدة في فن الوصف بالشعر العربي، وقد درست عليه الأدب العربي أربع سنوات، استقي من معينه، واستفيد من توجيهه، ونظرت به العميقة التي يشرحها لي، كان نقاداً نفاذ البصيرة، ذواقاً بمواقع

الحسن، ولهذا كان دراستي عليه عظيمة النفع، لقد أعطى "الخليل" باب الوصف لوناً جديداً لم يسبقه إليه شاعر معاصر، وجعل من القصيدة وحدة تامة في موضوعها، مع بيان مشرق وأصيل.

تلقى الشاعر علومه الابتدائية في الكلية العلمية الوطنية، ونال إجازة الحقوق من الجامعة السورية في عام ١٩٤٠، ومارس المحاماة سبع سنوات، انتسب بعدها للقضاء، فعين قاضياً للتحقيق في عام ١٩٤٨، وتدرّج في السلك حتى عُيّن مستشاراً بمحكمة النقض في عام ١٩٦٢، واستقال عام ١٩٦٦ ليتفرغ لأعماله الأدبية.

بدأ الشاعر بنشر قصائده وهو في الخامسة عشرة من عمره في جريدة "البرق" لصاحبها الشاعر "بشارة الخوري" (الأخطل الصغير)، ثم نشر فصولاً من مسرحياته في عدد من المجلات العربية، وإضافة لتلك المسرحيات صدرت للشاعر مجموعاته الشعرية: نجوى، صفحة ذكرى، عبير من دمشق، ونفحات شامية، وقد نهج فيها أسلوب أبيه من حيث الوصف الجميل، والتصوير البارع. وقد تغنى في المجموعتين الأخيرتين بالوطن والأرض، وخصّ مدينته الأثيرة "دمشق" مثل سوابقه من شعراء الشام، بغزله الراقى، وعواطفه الصادقة.

وكان الشاعر في أعماله كلها، عاشقاً للغة العربية الجميلة، يدافع عنها بحماس، ويصف المروجين للهجة العامية في الأدب بأبواق الاستعمار الذين يشنون على العرب حرباً صليبية جديدة، باسم الدعوة إلى تسهيل اللغة أو التحرر من قيود الأقدمين الرجعيين، وذلك بهدف طمس الهوية العربية، وإبعاد العرب عن أهم مقوماتهم التاريخية.

تعهد "عدنان مردم بك" أعمال أبيه الأديب والشاعر الكبير، وآثاره الفكرية، فقام بتحقيقها ونشرها، ومن بينها: ديوانه الشعري، ومؤلفاته: جمهرة المغنين، الإعرابيات، أعيان القرن الثالث عشر الهجري، شعراء الأعراب، دمشق والقدس في العشرينيات.

ويوم رحل الشاعر، ودعته دمشق، ممثلة بأدبائها ومفكرها، الذين عرفوا فيه

عفة اللسان، وصدق الوعد، ونبل المعاملة، فكان حفل التأبين تحية إجلال ووفاء لعلم
خالد من أعلام الأدب العربي في سوريا.

المصادر:

- المسرح والحياة: حسين علي محمد / مجلة الفيصل.
- الأدب العربي المعاصر في سوريا: سامي الكيالي.
- عبقريات وأعلام: عبد الغني العطري.

الدعوة للعامة، حرب صليبية جديدة..

■ كتبت الشعر والمسرحية الشعرية، فلماذا استأثرت المسرحية الشعرية باهتمامك أكثر؟

في الواقع لم تستأثر المسرحية الشعرية باهتمامي فقط، وإنما عاشت مع أكثر أيام حياتي، فقد نظمت المسرحية الشعرية قبل أربعين عاماً، وأنا في السابعة عشرة من عمري، وظهرت في أول مسرحية شعرية عام ١٩٣٢م، (فتح عمورية)، على صفحات مجلة (الشام)، لصاحبها الأستاذ خليل المحصل، وفي عام ١٩٣٤م ظهرت في مسرحية (عبد الرحمن الداخل)، ونشرت مقدار خمسمئة بيت من الشعر على صفحات مجلة "العرفان" أيضاً لصاحبها الأستاذ عارف الزين، ونظمت مسرحية "مصرع الحسين" عام ١٩٣٥م، ونشرت للفصل الأول والثاني على صفحات مجلة "العرفان" أيضاً! ونظمت في عام ١٩٣٦م مسرحية "جميل وبثينة"، ونشرت الفصل الأول على صفحات مجلة "الإنسانية" الدمشقية، لصاحبها الأستاذ وجيه بيضون، ثم إنني نظمت عام ١٩٤٠، مسرحية "الدون كارلوس" وهي مخطوطة، وفي عام ١٩٤٥م، نظمت مسرحية "يوسف وزليخة"، وهي مخطوطة أيضاً.

فيبتين مما تقدم، بأن المسرحية الشعرية لم تستأثر باهتمامي منذ أمد قصير فحسب، وإنما استأثرت باهتمامي منذ كنت بافعا، وكان حبي لها حبا قديماً مستأصلاً في حنايا نفسي.

■ صدرت لك عشر مسرحيات شعرية، بم تفسر هذه الغزارة في الإنتاج؟ وهل تؤثر الغزارة على مستوى العمل الأدبي؟

نعم، صدرت لي حتى اليوم المسرحيات التالية: غادة أقاميا، العباسة، الملكة زنوبيا، الحلاج، رابعة العدوية، مصرع غرناطة، فلسطين الثائرة، فاجعة مسايرلغ، ديوجين الحكيم، دير ياسين.

إن صدور عشر مسرحيات لشاعر مسرحي ليس بالعدد الكبير، ذلك أن إنتاج الشاعر المسرحي الأوروبي يكون أضعاف هذا العدد، ولا شأن للوزارة في الإنتاج على مستوى العمل الأدبي، لأن قدرة الشاعر المتمكن من فنه، كفيلة بنجاح كل أثر فني يصدر عنه.

■ كان والدك الأستاذ خليل مردم بك، من أكبر شعراء الشام وباحثيها فما تأثيره في فنك؟

لا شك أن الوالد من أكبر شعراء الشام، وهو صاحب مدرسة جديدة في فن الوصف بالشعر العربي، وقد تأثرت به كثيراً واستفدت منه في ذلك، سبق ودرست على يديه الأدب العربي مدة أربع سنوات، أستقي من معينه بصدد التوجيهات التي يوجهني نحوها، وفي نظراته العميقة التي يشرحها لي، فقد كان نقاداً نافذ البصيرة، ذواقة بمواقع الحسن، فكانت دراستي عليه عظيمة الفائدة، كما أنني أعتبر نفسي تلميذاً له في فن الشعر، إذ سبق وأبنت بأنه صاحب مدرسة جديدة، فقد أعطى باب الوصف، لوناً جديداً لم يسبقه إليه شاعر معاصر، وجعل من القصيدة وحدة تامة في موضوعها، مع بيان مشرق وأصيل، وقد قام بطبع ديوانه المجمع العلمي العربي في دمشق، وديوانه شاهد عدل على ما ذكرت.

■ ما مدى تأثير المسرح الفرنسي في مسرحك، خاصة وقد تحدثت أكثر من مرة عن إعجابك بكورني وراسين؟

إن المسرح الفرنسي الكلاسيكي التراجيدي مسرح عظيم ولا شك، رغم ضعف الحركة فيه، فقد اعتاض عن الحركة بروعة التحليل النفسي، في دراسة الطبيعة البشرية، فالتحليل النفسي بارع حقاً، والعبارات اللفظية مشرقة ساطعة، واللفظة نفسها تقطر عذوبة.

فتأثير المسرح الفرنسي علي من هذه الناحية بين الأثر، فأنا استفدت ولا ريب

من ناحية التحليل النفسي للطبيعة البشرية، والحرص على جمال العبارة وصحة الأسلوب، كما أنني استفدت من قراءتي لمسرح شكسبير الشاعر الإنكليزي، في عالمه المسرحي الكبير المترامي الأطراف، وفي تنوع الحركة عنده، ذلك أن المسرح الكلاسيكي الفرنسي على أهميته وقوته تكاد تكون الحركة فيه معدومة، وهو أقرب على المحاوره منه على المسرح، الذي أبدعه شيخ المسرحية شكسبير.

■ نود أن نتعرف على عملية الإبداع عندك: متى تكتب؟ وأين؟ وهل لك عادات خاصة أثناء الكتابة؟

إن الشيء المهم لدى كل شاعر أو كاتب، أن يكون بادئ ذي بدء هاضماً لموضوعه، وعارفاً تمام المعرفة بما سيقوم به من عمل فني، إذ أنه متى توضحت عنده الفكرة في مراميها الخفية وأبعادها الشاسعة وقابضاً على زمامها، فإنه يرى نفسه مدفوعاً إليها بكلية لا يستطيع أن يتحرر من ربقته، فهو يريد أن ينظم إن كان شاعراً، ويريد أن يكتب إن كان كاتباً، تحت تأثير أثر الفكرة المسيطرة عليه، دون أن يكون للزمان أو المكان أي أثر عليه، لأن كل زمان موات له، وكل مكان صالح له.

وليس لي من عادة خاصة حين أنظم الشعر، سوى الانزواء عن الناس، والانطواء على نفسي، وإن المسرحية الشعرية عندي لا تسطر دفعة واحدة، لأنها وليدة تفكير عميق، وإنما تسطر على دفعات.

■ أين أنت من مسرحياتك؟ وهل تحمل بعضها أجزاء من حياتك؟

لا شك أن أكثر مسرحياتي الشعرية - إن لم تكن كلها - تنف من مشاعري وحياتي، وسبق أن كتبت في مقدمة مسرحيتي "غادة أفاميا"، إنها في الواقع تسطير لنضال الأمة السورية ضد المستعمر، وتمجيد للحاضر في ماضيه الأصيل، فبلدة أفاميا، قطعة من الأرض السورية، ناضلت المستعمر الروماني، فكانت حين أسطر

ملاحم أفاميا، أتخيل نضال أمتي ضد المستعمر الفرنسي، وما كان يجري من عنف آنذاك، وفي مسرحية "رابعة العدوية" تلك المسرحية الشعرية التي أعتز بها، فهي تحمل مشاعري الحقيقية في كرهني الشديد للرق في شتى ألوانه الاجتماعية، وأبنست بها مشاعري الصوفية بلسان الإنسانية الكبيرة رابعة.

وفي مسرحية "قاجعة مايرلنغ" بكيت الشباب الذوي، الشباب النائر على التقاليد الاجتماعية، النائر على الظلم، والشباب المحب للحياة في شخص رودولف، الذي كنت أرى فيه شخص شقيقي هيثم، الذي قصفته يد المنون ولما يكمل العشرين من عمره.

وهكذا، فإن كل مسرحية شعرية من مسرحياتي تحمل قطعة من نفسي أو قسماً من أفكارني الاجتماعية.

■ هل ترى أن المسرحية الغربية أثرت في نشأة المسرحية الشعرية؟ وفيما يتضح هذا الأمر؟

إن الأدب العربي بمجمله أدب غنائي، وهو بطبيعته بعيد عن المسرح واستساعة المسرحية، وحين قام خلفاء بني العباس أيام الرشيد والمأمون بالتشجيع على ترجمة كتب اليونان إلى العربية، أقبل أهل الاختصاص على نقل الفلسفة اليونانية وعلومها، ولم يقربوا المسرحية اليونانية، التي كانت للأوروبيين المصدر الرائد والنهج لمسرحهم، ومرد ذلك بالنسبة للمسلمين عامل الدين.

فاليونان وثيون يقولون بتعدد الآلهة، يضاف إلى ذلك أنه يتقاسم العمل في المسرحية رجال ونساء، والدين الإسلامي، يمنع مثل هذا الاختلاط، أضف إلى ذلك أيضاً تباين المفهوم ما بين الفكر الغربي والفكر العربي الشرقي، فالأدب العربي أدب غنائي وليس بتركيبي، يكتفي باللمحة الخاطفة، والإشارة الرقيقة، في حين أن المسرحية بناء هندسي شاق محكم، يركز على الحوار والمنطق، وعلى التحليل النفسي، كل هذا صرف الأديب العربي عن معاناة فن المسرحية.

إلا أنه في مطلع العصر الحاضر، عكف قسم من أدباء العرب على دراسة الأدب الغربي في أوروبا، وقام محاولاً بتذوق المسرحية الغربية، التي لم يكن لها في الأدب العربي من أصل يرجع إليه، فحاول أن ينتقل هذا الفن بترجمته إلى اللغة العربية، كما فعل الشاعر خليل مطران بنقل بعض مسرحيات الشاعر شكسبير، ومنهم من حاول أن يحاكي هذا الفن بالاقتباس، كالأديب سليم عنصورى وأديب أسحق ويوسف شاهين وأبى خليل القبانى، ولكنهم لم يوفقوا، حتى طلسع الشاعر شوقى بمسرحيته "مصرع كليوباترا" و"مجنون ليلى" وهو يعد الرائد الأول للمسرحية العربية، وقد تأثر بالمسرحية الفرنسية، حينما كان يدرس الحقوق في كلية الحقوق بالسوربون، وقد نظم آنذاك مسرحية "علي بك الكبير"، وأرسلها إلى الخديوى، ولكنه لم يشجعه على النهج الجديد، فانقطع مدة طويلة من الزمن، حتى عام ١٩٢٨م، حين صدرت له مسرحية "مصرع كليوباترة"، وهكذا كان شأن أكثر الشعراء المسرحيين العرب متأثراً بالمسرحية الغربية شأن الشاعر أحمد شوقى.

■ ما رأيك في فن المسرح الشعري عند أحمد شوقى وباكثير وعزيز أباظة، وهل استطاع هؤلاء أن يكتبوا المسرحية الشعرية بكل مقوماتها؟
لم يتح لواحد من أولئك الشعراء الثلاثة، أن يكتب المسرحية بكل مقوماتها، على ما كان بينهم من تفاوت في الطبقة والفهم الفنى للمسرحية.
فأحمد شوقى، وهو أكبرهم منزلة، شاعر عبقرى، أدلى بسوءه في عباب المسرحية الشعرية، وكان بحق الرائد الأول لها في الوطن العربى الكبير لا في مصر وحدها، ولكنه مع هذا لم يتح له أن يكتب المسرحية الشعرية بكل مقوماتها الفنية، فالعقدة المسرحية الواحدة عنده عقدتان، والفصول الجانبية التي لا تمت إلى صلب موضوع المسرحية قائمة، والاستطراد كثير في أكثر مسرحياته، ونشاهد ما ذكرته آنفاً في مسرحية "مصرع كليوباترة" ومسرحية "مجنون ليلى" وهما من غرر مسرحياته.

فالعقدة في "مصرع كليوباترة" عقدتان: حب كليوباترة لأنطونيوس وحبها لها من جهة، وحب حابي لهيلانة من جهة ثانية، في حين أن هذا الحب ليس بكبير أو بالأمر المهم في سير المسرحية الفني، ونشاهد في مسرحية "مجنون ليلي" فصلاً مستقلاً، ولعله الرابع، يصور الجن وأرضهم، وهو فصل دخیل لو حذف لما أثر على المسرحية بشيء.

أما الاستطرادات فهي كثيرة، وهي من النوع الغنائي ومبثوثة في كل مسرحياته تقريباً.

أما الشاعر عزيز أباطة، فهو في مسرحياته أقرب إلى الشاعر الملحمي منه على الشاعر المسرحي، فوثباته خاطفة وسريعة، ويقودك إلى أجواء عديدة لا صلة وثيقة بينهما، ويعتمد على سرد الحوادث كأنه قصاص، فمسرحية "غروب الأندلس" فيها سرد لخصام أبي عبد الله الصغير وزوج أبيه، وكيف وقع بادئ ذي بدء أسيراً لدى الإسبانيين، بها سرد للخصومة ما بينه وبين عمه الزعل، فيخيل إليك أنك تطالع قصة لا تطالع مسرحية، كما أن الشاعر أباطة في مسرحيته "العباسة"، أكثر المشاهد بها، وجعل رقعة المسرح أوسع من مكان واحد لعمل مقنن، فقد جعل جعفر اليرمكي ينتقل في أكثر من مدينة واحدة، وأتى على سرد أشياء لا تتسع للمسرحية. وكذلك كان شأن الشاعر باكتير في مسرحياته في عدم التقيد بالمقومات الفنية مع العلم أن حظه في التجويد أقل شأنًا من الشاعر أحمد سوقي وعزيز أباطة.

• ظهرت بعض المسرحيات الشعرية باللهجات العامية المحلية، وظهرت بعض المسرحيات المكتوبة في إطار شعر التفعيلة، ما رأيك بهذه المحاولات؟

إن لكل لغة من اللغات المعروفة، ضوابطها المقررة، وقواعدها المقننة، إذ لا يجوز لفرد أن يخل بتلك القواعد والضوابط، وكل أديب وقع في الخطأ فلغته ضعيفة، لا يعتد به عند بني قومه، ولا يعذره قارئ منهم عليها.

في حين أن اللهجة العامية لا يمكن أن ترقى على لغة تخاطب وأدب، نلذك أن

في القطر الواحد لهجات عديدة، حتى أن في البلدة والواحدة كمدينة دمشق مثلاً، عدة لهجات تختلف من حي إلى حي آخر، فلهجة "حي القصاع" هي غير لهجة "أهل الشاغور"، ولهجة باب السريحة هي غير لهجة حي الأكراد، فهل معنى هذا أن نكتب لكل حي بلهجته الخاصة؟ ومن الذي يقوم بضبط الأقيسة لكل لهجة ويقوم بين القواعد؟ وكيف يمكن لابن سورية أن يفهم اللهجة العامية المصرية، أو لابن مصر أن يفهم اللهجة العامية اللبنانية أو المغربية أو الجزائرية، وهكذا دواليك في كل قطر أو مدينة.

إن المروجين لمثل هذه البدع هم أبواق المستعمرين الذي أدركوا حقيقة الخطر العربي الحاضر، فراحوا يشنون حرباً صليبية جديدة في ثوب جديد، باسم الدعوة إلى تسهيل اللغة أو التحرر من قيود الأقدمين الرجعيين، ووجوب مساهمة ركب الحضارة باستعمال الأحرف اللاتينية.

إن أولئك الأشخاص مشبهون وشعوبيون، لأنهم يريدون أن يبعدوا المسلمين والعرب عن حظيرة لغة القرآن الكريم، حتى يتعذر على العرب والمسلمين فهم لغتهم، وإذا تم لهم ما يبتغون، تم التباعده والتقاطع ما بين الشعوب العربية المسلمة باعتبار أن من أهم مقومات القومية: وحدة اللغة والتاريخ المشترك.

وسبق منذ ستين عاماً تقريباً، أن قام بعض المستشرقين المشبهين الذين عرفوا بكرههم للعرب، ببث مثل هذه الآراء العقيمة، وقد رد عليهم فحول من الأدباء أمثال: عباس محمود العقاد ومصطفى صادق الرافعي، وانتهت الزوبعة بسلام.

■ ما رأيك بقصيدة النثر التي انتشرت في ربع القرن الأخير في سورية ولبنان ... وهل يمكن أن تقوم بدور في إثراء الحركة الأدبية العربية؟
من الأمور المسلم بها، أن الأدب لدى كل أمة عريقة يقسم إلى قسمين: النثر والشعر، ولكل من هذين الفنين مقوماته الخاصة به، ولئن كان الكاتب يشبه الشاعر

أحياناً، في استعماله الخيال والمحسنات اللفظية والمعنوية، ولكن الفارق مع هذا يبقى متميزاً ما بين الاثنين.

قام في الربع الأخير من هذا القرن، بعض الأدباء في سورية ولبنان، محاولين أن يحققوا ما يسمى بقصيدة النثر، إن هاذ الشيء له جنوره، فمنذ ستين عاماً تقريباً، قدّم مصطفى لطفي المنفلوطي أسلوباً جديداً على نمط آخر، ولكنه مع هذا لفت إليه أنظار الناشئة من المتأدبين، وحاول الشبان آنذاك تقليد كل من الكاتبين (المنفلوطي وجبران)، ولا شك أن الإنشاء أخذ طابعاً جديداً على أيدي هذين الكاتبين، وكسان أن قام مؤخراً بعض المتأدبين بكتابة قصيدة النثر، كما أطلق عليها لفيف من الناس هذا الاسم، وهي حتى الآن لا تعدو عن كونها محاولة في مرحلتها الأولية، إذ لم تأخذ هذه القصيدة سمتها النهائي رغم ضعف أكثرها بيانياً وفنياً، ولعل كاتباً شاباً جديداً، يأتي ببراعة قلم الأستاذ أحمد حسن الزيات، ويعيد للقصيدة النثرية إشراقها وبلاغتها.

■ ما هي السمات العامة للمسرح الشعري العربي؟ ولمساذا تحتل المسرحية التاريخية جزءاً لا يستهان به من المسرح العربي؟

مما يتميز به المسرح العربي في هذا العصر، أنه مسرح ملتزم، يعالج القضايا الوطنية، والقومية، والاجتماعية، وليس بدعاً أن يكون الشاعر العربي المسرحي اليوم، أو الكاتب العربي المسرحي ملتزماً، وقضايانا اليومية، سواء أكانت اجتماعية أم قومية أم فكرية تقتضي ذلك الشيء.

أنا لا أود الإسهاب والتدليل على ذلك الأمر، وحالنا الحاضرة ليست بخافية، فالتخلف الاجتماعي في أكثر البلاد العربية أمر راهن، والفارق الطبقي لدى أكثر الشعوب العربية شيء محسوس ومشاهد، يضاف إلى ذلك الخطر الصهيوتي الجاثم، فلذلك اتجه الشعراء المسرحيون إلى ناحية الالتزام.

هذا، وإن احتلال المسرحية التاريخية محل الصدارة لم يكن بالأمر العجيب،

فإذا رجعنا إلى أعلام المسرح الأوروبي، أمثال شكسبير وكورني وراسين وشيللر، نجد أن أكثر مسرحياتهم مستمدة من النصوص التاريخية، ومرد ذلك أن التاريخ نبع ثر، وقبس منير يعكس على الحاضر ظلاله فيستخرج منه العبر، ولا شيء يؤثر على النفس كالتاريخ، فهو صورة الإنسانية الماضية المتمثلة بالحاضر.

هذا ما دعا الشاعر أحمد شوقي أن يقتبس جل مسرحياته من صلب التاريخ، كمصرع كليوباترة، وعنترة، وقمبيز، وعلي بك الكبير، وأميرة الأندلس، وقد حسذا حذوه الشاعر عزيز أباظة في مسرحياته: الناصر، والعباسة، وغروب الأندلس، وست الشام وغيرها.

فلا بدع إذا ما قصد الشاعر المسرحي خزانة التاريخ، باحثاً عن النص الذي يبيغيه لمسرحيته، وللتاريخ هالته في نفس القارئ لنص المسرحية وللمشاهد معاً.



"أيها الصديقة الغالية ...
لا أنزال في آخر الدنيا ... أنتظر
الشريط الذي يحمل أغنيتنا "أيظن"
تعيه في الصحف .. في أسرار
وحد صفاء الأرباب ... وفي كل
رواية من المرحى العربية ...
وأبقى أنا محروما من الأوفى التي
أكلت أخصابها ...



صورة نادية لنزار وهو فتى

بالله منه أم قاسية يا نبأة ..
أربيت "المولود" الجميل لكل إن ...
وتفانيت بجماله في كل مكان .. ذكر
أباه يشرب الشاي في بيته ،
ويجمل بطفل أنزعه العيشية
يعيشه مع أمه في القاهرة ..
لا تضحك يا نبأة إذا طلبت
ممارسة أبوتى ، فانا لا يمكن
أن أقنع بتلق رسالتك التهنئة
"المولود" ردك أن أراه .. فانه
علا لدي وصول رسالتى ، وضم
"المولود" في طرد بريد صغير ...
وابعث به إلى عنواني .. إذا فعله
هنا كنت أمانه معه وصقوة
أما إذا تمررت فاطلبه إلى
بيت الطاعة رفح معرفتي بأند
نكرهه ...



نزار قباني عام
١٩٣٥ دمشق



طالب في كلية
الحقوق بدمشق
١٩٤٤

الشعراء الذين يكتبون بلا أصابع، يظلون خارج الأبواب

زرت بيت نزار قباني "القديم بمكننة الشحم في الشاغور" منذ يومين ... ومع خطواتي الأولى في الباحة الفسيحة التي حولها الذوق الدمشقي الخلاق إلى جنة وارفة، كان الربيع البهي قد سبقني إليها، وزرع هداياه الملونة في كل ركن ... زهوراً نضرة، وعطراً وألقاً، وكانت نافورة البحرة تتراقص في الهواء ثم تتثال خيوطاً رقيقة لتلتئم صفحة الماء، وبدأت سيمفونيتها الحاملة تسقسق همساً ونجوى وموسيقاً لم تدر ببالي، وعلى غصون الليمون تعانق الحمام الأبيض بيث ترجيعه الحنون وطوف الفراش رفوفاً بأجنحة معجزة الوشي على الورد الجوري يعب من رحيقه حتى الثمالة...

وفي لحظة كالحلم، دخل نزار إلى الجنة الأسطورية، وشرع يطوف في أرجاء البيت مثل طفل رشيق ملهوف، يلمس الأبواب والنوافذ والجدران، ويسلم على شجرات النارج والكباد، ويمسح بكفه جبين الشمسير والقرطاسية، ويطوق عنقه بخصلات الياسمين المعرشة على الشبابيك، فتمطره أزراراً ونجوماً مباللة بالعطر والندى، ومن غفوتها على النيوان العريض في الليوان، فتحت القطرة البيضاء عينيها ثم نطت إلى صدر الشاعر، فحملها بين ذراعية وراح يدور بها مستفسراً عن حالها ... تحلقنا حول الفسقية الرخامية نلاحق سمكات ملونة تسرح في مائها الصافي، فقال:

"هنا ولدت في ٢١ آذار ١٩٢٣، وكانت الأرض هي الأخرى في حالة ولادة، والربيع يستعد لفتح حقائبه الخضراء ... الأرض وأمي حملتا في وقت واحد، ووضعنا في وقت واحد ... هل كانت مصادفة يا ترى أن تكون ولادتي في الفصل الذي تثور فيه الأرض على نفسها، وترمي فيه الأشجار كل أثوابها القديمة، أم كان

مكتوباً عليّ أن أكون كشهر آذار، شهر التغير والتحوّلات؟... كل الذي أعرفه أنسي يوم وادّت، كانت الطبيعة تتفدّ انقلابها على الشتاء، وتطلب من الحقول والحشائش والأزهار والعصافير أن تؤيدها في انقلابها على روتين الأرض... أنا من أسرة تمتلئ العشق، والحب يولد مع أطفال الأسرة، كما يولد السكر في التفاحة.

جدي كان هكذا... وأبي كان هكذا... وإخوتي، كلهم يسقطون في أول عينين كبيرتين يرونهما، يسقطون بسهولة، ويخرجون من الماء بسهولة... كل أفراد الأسرة يحبون حتى الذبح. بيت أسرتي الدمشقي الأنيق هذا كان القصيدة الأولى التي نقلت عنها قصائدي... إنه البطل الحقيقي في تاريخي الشعري، فهو الذي أعطاني الأقلام والفراشي وعلبة الألوان وقال لي:

ارسم... فرسمت بالكلمات، وهو الذي أعطاني أول كاميرا من كاميرات الهواة، فصورت بها كل وردة رأيته، وكل حمامة أطعمتها، وكل امرأة عشقتها، حتى انتهت أفلامي، ولم ينته الكحل في عيوني حبيباتي...

مصادري الشعرية الأولى، شامية من الألف إلى الياء، فياسمين دمشق، ووردها وريحانها وحمائمها، وسيمفونية الماء في باحات بيوتها القديمة، وقاعاتها المطعمة بالصدف والفسيفساء هي المتحف الذي لملت منه لغتي الشعرية...

في السادسة عشرة من عمري، وعلى ظهر مركب مسافر من بيروت إلى إيطاليا، خطر في بالي أن أرمي نفسي في بحر الشعر، لم أكن أعرف شيئاً عن العوم، أو عن أخلاق البحر، أو عن أسماء المرافئ، أو عن الحوريات اللواتي نصفهن أسماك ونصفهن نساء، ومع هذا فقد واجهت قدري الأزرق، وبقيت خمسين عاماً أصارع الرياح والأمواج، حتى دخلت في قصة حب عاصفة مع إحدى الحوريات، فأخذتني إلى بيتها، وتزوجتني على شريعة البحر، وعلمتني لغة مائسة جميلة، وأنجبنا قصائد فيها شيء من جنون السمك وأشياء من أنوثة النساء... يطوف الشاعر بعينيّه ما بين أصص الفل الندي وأحواض الغاردينيا. ويتابع:

في عام ١٩٤٤ باعت أمي أساورها الذهبية، وساعدتني في طباعة مجموعتي الشعرية الأولى: "قالت لي السمراء"، ولولا هذا القرض "الأوممي" لما تمكن من تحقيق حلمي الأول في تحويل صرخاتي الشعرية الأولى، إلى كتاب مطبوع، أساور أمي هي التي فتحت لي الطريق إلى المطبعة، وهي التي جعلتني أدمن رائحة الحبر والورق.

كانت قصيدة "تهداك" في ذلك الديوان الشرارة التي أطلقتني، والمفتاح إلى شهرتي، ولذا كان مدخلي الثاني على جسد المرأة معزوناً بديواني الثاني "طفولة نهد" عام ١٩٤٨، وكان الشعر أيامها يتوجه صوب ثورة جديدة في القول، مترددة بين بقايا المواضيع الرومانسية، وفي مقدمتها الحب، وبين المواضيع الأخرى التي جرفت بتيارها هذه الموجة، وكان "طفولة نهد، نقلة حضارية هامة بالنسبة لشعري، وما كتبتّه عن المرأة لم يكن اختراعاً وتأليفاً، وإنما معاناة ميدانية، النساء عالم فيه المرأة الحمامة، والهرة، والمرأة التي تقول عيناها شعراً، وأنا إنسان كسائر البشر يرضى ويغضب، ويثور ويتسامح، ويمزق في حالات احتراق الأعصاب كل ما بين يديه بما في ذلك رسوم الحبيبة ورسائلها المقدسة.

قالوا في البداية: إني شاعر المرأة ... وهي تهمة جميلة لا أنكرها، فالمرأة هي الريحانة واللؤلؤة والقمر في حياتنا، وكنت أيام المراهقة أحوم على القشرة الخارجية للمرأة حيث كنت منبهراً بعالم النساء، لكنني ابتداء من الخمسينات، وبعد ذهابي إلى لندن تحولت المرأة إلى صديقة، لم تعد تعني لي الأسوار والأقراط ... صارت المرأة حواراً، وهي موضوع إبداع كبير، وهدف لبناء الحضارة ... قل لسي كيف تنظر إلى المرأة، أقل لك من أنت...

أنا لم أخترع الأشياء من عندي ... أنا ولدت فرجدت الأشياء فتفاعلت معها وثرث عليها ... وجدت المرأة مضطهدة ومقموعة، ولم أكن أنا الذي سجنها واضطهدها، فحاولت بأسناني أن أدافع عن قضيتها، أن أكسر أقفال معتقلها وأطلقها كعصفور في السماوات الرحبية، وأقول لك إننا معجونون بالمرأة ومختلطون بها

عضوياً وكيميائياً، ومهما أدعينا الذكورة، فنحن مرتبطون بها بواسطة حبل المشيمة منذ ميلادنا وحتى موتنا.

والرجل الذي يقول: إنه قطع حبل مشيمته وانفصل نهائياً عن المرأة، يتحول إلى شجرة يابسة بلا جذور ولا أوراق ولا رائحة؛ المرأة مجموعة من الأسئلة والفواير يمضي الرجل حياته وهو يحاول حلها، ومتى وصل إلى الحل، سقط ميتاً، ولكن ليس من مصلحة الرجل أن يصل إلى اليقين، ويكتشف خريطة المغارة المسحورة، فحين تفتح المغارة أبوابها لألوف السياح، تتحول إلى مهرجان مكشوف كعروض الصوت والضوء.

لقد كانت نظرتي للمرأة دائماً نظرة حضارية، فأنا مع المرأة التي تعرف كيف تتوازن مع العصر حتى لا تصبح جارية، أو مجرد نقاعة فسي يد الرجل ... إن الأنوثة ليست مرادفة للضعف، ووداعة المرأة شيء يختلف عن كونها امرأة مهزومة ... ما أردته من المرأة العربية أن تبقى عربية في كبرياتها وحياتها، وتظل محتفظة بكل ملامح المرأة الشرقية، شرط أن تكسر وتدمر عالم الجواري ... وعلى مدى خمسين عاماً حولت المرأة في شعري من ذبيحة تؤكل بالأصابع إلى زهرة فواحة في حديقة المجتمع.

لقد كانت أفضل هواياتي وأقربها إلى قلبي: الخروج على القانون ... علاقتي مع القانون لم تكن في يوم من الأيام طيبة، جدي "أبو خليل القباني" حاول قبلي الخروج على القانون، فقام بتحويل "خان أسعد باشا العظم" إلى مسرح، فهدمه المحافظون على رأسه، وشحنوه في قطار بضائع إلى مصر وبقي فيها حتى وفاته ... وحين نشرت قصيدتي: "خبز وحشيش وقمر" حاولوا أن يعيدوا حكاية جدي معي ولكنني رفضت وقاومت، في الواقع أنا لا أعتبر القصيدة قصيدة إلا إذا أحدثت ثقباً في غلاف الأوزون، إن القصيدة التي تحاكم وتوضع في السجن الانفرادي، تعيش مائة عام دون أن يتجدد وجهها أو يشيب شعرها، بغير الخروج على القانون لا توجد قصيدة جميلة، ولا وردة جميلة، ولا امرأة جميلة، ولكي تكون القصيدة

ناجحة يجب أن تتجاوز الكلام الذي جاء قبلها، ولكي تكون المرأة رائعة وطاغية الجمال، يجب أن تلغي كل النساء قبلها.

يتساءل الكثيرون عن سر جماهيرية "نزار قباني"، وليس في الأمر سراً.. أنا شاعر أكتب قصيدتي، وعلى الورقة البيضاء تطل وجوه مسانتي مليون عربي، لو نقصوا واحداً لاعتبرت نفسي مقصراً.. وأنا لا أؤمن بالأقليات الشعرية أبداً... الشعر خبز يومي يُخبز لكل الناس، وقماش شعبي يرتديه جميع الباحثين عن الدفء والعدل والحرية، على الشاعر طبعاً أن يعبر عن قضايا الناس، وأن يكون صوت من لا صوت لهم، وإذا لم يعبر الشاعر عن هموم الناس وأفراحهم وأحزانهم، فهل يعبر عن هموم الملائكة؟ ومنذ الخمسينات بدأ الشعر السياسي يلوح في قصائدي فكانت "خبز وحيشيش وقمر ثم" قصة راشيل شوار زينبرغ"، لقد كانت "لندن" محطة شعرية حاسمة في تاريخ الشعري، وأضرمت بي عسشرات الحداثات الداخلية، ومنذ تلك الأيام بدأت أحب اللون الرمادي وأسئلة العيون الرمادية. وكانت السنوات الست من ١٩٦٦ إلى ١٩٧٢ من أخصب سنوات إنتاجي الشعري وأكثرها تنوعاً، فقد نشرت ستة دواوين، ثم توقفت سنوات ستاً أخرى، وذلك لأن توقفت الشعر مثل توقيت الزلازل... عمل مستحيل، في سنوات الخصب كانت حياتي في بيروت شعراً خالصاً، أتمشى على كورنيش البحر فيكون الشعر رقيقاً، وأشرب قهوة الصباح فتختلط رائحة البن برائحة الشعر.

سألني أحدهم يوماً: من أنت؟ فقلت: أنا شاعر بسيط، يخاطب جيساً من البسطاء، إن طفولتي الدائمة هي التي فتحت أبواب الوطن العربي أمام قصائدي، لأن العرب يحبون البراءة ويحبون الصدق، أما الشعراء الذين يكتبون بلا أصابع ولا لغة، ولا إحساس بقضايا الناس... فقد ظلوا خارج الأبواب...

وماذا عن قضايا الأمة، وما تواجهه في هذا المنعطف الحاسم من تاريخها؟

الأحرار يدفعون دائماً ثمن حريتهم، والموهوبون يدفعون ثمن موهبتهم، والوطن العربي ما يزال يدفع ثمن جماله وذكائه وحضارته ... والمعركة اليوم دائرة بين شيلوك المراهبي اليهودي، وبين العقيدة العربية الخالقة، يريد "بيريز بيميز" أن يكون سمسار الشرق الأوسط بعد فرض السلام المزيف، وأن يكون صاحب السوبر ماركت الوحيد الذي يحتكر عمليات التسويق، ولكن العنفوان العربي يقف شوكة في حلق المراهبي "شيلوك"، ولذا كان لابد من ضرب الوطن العربي وتهديم أركانه، وهذا ما يفعله الحلف الأمريكي - الصهيوني غير المقدس ولكنهم لن يفلحوا، ولن يفرضوا استسلاماً على الأمة ... وسيبقى الوطن العربي قنبلة موقوتة سوف تنفجر بعد زمن طال أو قصر ... لا أعرف متى، لأن انفجارات التاريخ لا توقت لها.

... ساعة وبعضها، ثم همّ الشاعر بالخروج من بيته الدمشقي، وعند الباب الخشبي الأنيق سأل "نزار" صبية وقفت تتأمله بانبهار، إذا كانت تعرفه، فاحمر وجهها خجلاً وقالت:

أنا لا أعرفك، ولكن أُمّي تضع مجموعتك الشعرية إلى جوار سريرها ... وعدتُ أنا إلى نفسي بعد سرحة طويلة طويلة..

صهيل جميل على الورق

- وظيفة الشعر الأولى أن يزيد مساحة اللون الأخضر في هذا العالم، وينقص مساحة التصحر وظيفته أن يجعل الحياة، ويمزق خارطة القبح، وظيفته أن يزرع فداناً واحداً من الحب، لقاء مئة فدان من الكراهية، وظيفته أن يكون من حزب الإنسان، فلا يمكن للشاعر أن يقف في المنطقة الوسطى بين الأبيض والأسود، بين الحرية وبين المعتقل، بين البحر وبين الزنزانة، بين حبل المشنقة وبين عنق المشنوق، بين الله وبين الشيطان.
- لا قواسم مشتركة في الشعر، ولا مناطق منزوعة السلاح، ولا اتفاقيات هدنة. الشعر هو صهيل جميل على الورق، ومتى توقف الشاعر عن صهيله، تحول إلى حصان من خشب في مدينة الملامى!!.
- لا يمكن للشاعر الكبير أن يكتب في أحضان السلطة، لأن الشعر بحد ذاته سلطة، ولا يمكن للقصيدة أن تشتغل وصيفة، أو عارضة أزياء، أو مضيفة، أو (جيشاً) يابانية، تمارس عمليات التدليك لسيد القصر، فالقصيدة تكون السيدة الأولى، أو لا تكون.
- الشعر جبهة مقاومة، لا جبهة موالة، وعلى الشاعر أن يعرف منذ أن يدخل (برلمان الشعر) أنهم سيضعون تحت كرسيه المتفجرات، ويقطعون أسلاك الميكروفونات، ويضعون في صندوق سيارته المخدرات، ويخترعون له ألف فضيحة مالية أو جنسية أو أخلاقية حتى يتم تدجينه، هذا ليس جديداً على السلطة وعلى الشعر، فالعلاقة بينهما على مدى التاريخ كانت علاقة سيئة وعدوانية، كالعلاقة بين القط والفأر.
- الشاعر لا يعرف شيئاً عن جنس المولود الذي بداخله، هل هو ذكر أم أنثى؟ فهو مثل السلك الذي ينقل الكهرباء، دون أن يعرف شيئاً عن طبيعة الكهرباء ومثل المرأة التي يقال لها: أنت حامل، فتسأل طبيبتها: (أنى يكون لي غلام، ولم

يمسني بشر، ولم أك بغياً....) وإن كان الشاعر يشبه الزوج المخدوع، الذي لا يعرف شيئاً عن علاقات زوجته - القصيدة التي تجري من وراء ظهره، وعن موعد خروجها من البيت وموعد عودتها، وعن الرسائل الغرامية التي تخفيها تحت ثيابها، فلماذا نطلب من الشاعر أن يقدم لنا تقريراً مفصلاً عن فن الزواج، وأسرار السعادة الزوجية؟؟

والحقيقة أن الزواج من قصيدة، هو مهمة انتحارية، والشاعر الذي يقول إنه صاحب السيادة المطلقة على قصيدته، وأن العصمة الزوجية هي بيده، هو شاعر يخاف أن يقول الحقيقة. فالعصمة الشعرية هي بيد القصيدة دائماً، وهي التي تستطيع أن تتعاش معنا في منزل واحد، أو ترسل إلينا ورقة الطلاق !!

• ثمة فوضى كثيرة حول الحداثة، حتى صارت الضوضاء أقوى من الحداثة فأريد حداثة نريد ؟ إذا كانت الحداثة تعني أن أعيد النظر في الخطاب الشعري الموروث، وأن أغير الديكورات الداخلية للقصيدة العربية، وأجدد أثاثها القديم، وأصبغ جدرانها، وأشتري لها ثلاجة جديدة .. وغسالة جديدة، وتلفزيوناً ملوناً فعلى العين والرأس. نحن لا نريد من القصيدة العربية أن تبقى جالسة في خيمتها خمسة عشر قرناً آخر، وإلا أصابها الديسك، لكنني من جهة أخرى، لا أريد حداثة تقطع حبل المشيمة بيني وبين تاريخي وتحولني إلى معلوك يجمع أعقاب سجناء المنفيين الأوروبيين ويعيد تدخينها، عندما أريد أن أدخن، فأبني أفضل أن ألفت سيجارتي بيدي، وعندما أريد أن أسكر، فأبني أفضل أن أعصر نبيذي، وعندما أريد أن أعشق، فإن نساء بلادي أجمل.

• هل نحن بحاجة إلى شعر في العالم الثالث؟ أم نحن بحاجة إلى تكنولوجيا؟... هل الشعر هو فضيلتنا أم هو نقيصتنا؟ هل هو شرفنا أم فضيحتنا؟ وبالتالي هل علينا أن نبيع كتب الشعر لنشتري آلة حاسبة يابانية؟.

هناك أشياء تتعلق بقلب الإنسان لا يمكن المقايضة عليها ... أو إدخالها في عمليات الاستيراد والتصدير...

إن مصر لا تستطيع أن تبيع أهراماتها لقاء شحنة من القمح الأمريكي، ودمشق لا تستطيع أن تبيع قبر صلاح الدين الأيوبي، لقاء بناء سد على نهر الفرات، والعراق لا يستطيع أن يبيع برج بابل وحضارة ما بين النهرين، لقاء بناء مصنع للبيبيسي كولا.....

إن الحضارات لا تباع أبداً لقاء قرض من البنك الدولي....
والشعر العربي ليس أبداً معروضاً للبيع، لأن روح الأمم غير قابلة للبيع....

غرناطة

من ديوان الرسم بالكلمات

في مدخل (الحمراء) كان لقاءنا...
عينان سوداوان.. في حجرهما
هل أنت إسبانية.. ساءلتها
غرناطة! وصحت قرون سبعة
وأمية.. راياتها مرفوعة
ما أغرب التاريخ... كيف أعادني
وجه دمشق... رأيت خلاله
ورأيت منزلنا القديم.. وحجرة
والياسمينه رصعت بنجومها
(ودمشق.. أين تكون؟) قلت: ترينها
في وجهك العربي في الثغر السذي
في طيب (جنات العريف) ومائها
سارت معي... والشعر يلهث خلفها
يتألق القرط الطويل بجيدها
ومشيت مثل الطفل خلف دليلتي
الزخرفات أكاد أسمع نبضها

ما أطيب اللقيا بلاميعاد
تتوالد الأبعاد من أبعاد...
قالت: (وفي غرناطة ميلادي)
في تينك العينين... بعد رقاد
وجيادها موصولة بجياد
لحفيدة سمراء... من أحفادي
أجفان بلقيس.. وجيد سعاد
كانت بها أُمي تمد وسادي
والبركة الذهبية الإتشاد...
في شعرك المنساب نهر سواد
مازال مختزناً شمس بلادي
في الفل، في الريحان، في الكباد
كسنا بل تُركت بغير حصاد...
مثل الشموع بليلة الميلاد...
وورائي التاريخ.. كوم رماد...
والزركشات على السقوف تنادي

قالت: هنا الحمراء... زهو جدودنا
أمجادها ؟ ومسحت جرحاً نازفاً
يا لست وارثتي الجميلة أدركت
عانقت فيها عندما ودعتها

فاقرأ على جدرانها أمجادي
ومسحت جرحاً ثانياً بفؤادي
أن الذين عنتهمو أجداي..
رجلاً يسمى (طارق بن زياد)..

لا أمسح الغبار عن أحذية القياصرة

▪ إذا أردت أن تعرفنا بنفسك فماذا نقول؟

أنا شاعر حب جوال..
تعرفه كل الشرفات..
تعرفه كل الحلوات..
عندي للحب تعابير..
ما مرت في بال دواة

(من ديوان حبيبتي)

▪ وما الذي قاله توفيق الحكيم عنك؟

قال: "إنني شاعر نسائي دخلت مقاصير النساء ولم أخرج" ولكنني كتبت قصيدة قلت فيها:

ويقول عني الأغبياء
إنني دخلت مقاصير النساء وما خرجت.
ويطالبون بنصب مشنقتي
لأنني عن شؤون حبيبتي..
شعراً كتبت
أنا لم أتاجر مثل غيري بالحشيش
ولا سرقت ولا قتلت
لكنني أحببت في وضوح النهار
فهل تراني قد كفرت؟...

▪ ولكنك واجهت الكثير من النقد فلماذا هذا الهجوم ضدك؟

لأنني لا أمسح الغبار عن أحذية القياصرة

لأنني أقاوم الطعون في مدينتي المحاصرة
لأن شعري كله..
حرب على المغول .. والتتار .. والبرابرة
يشتمني الأقزام والسماصرة

■ ولمن تكتب الشعر؟

أنا أكتب الشعر للشعر
لا للوصول إلى جنة المعجبات
ولا أخلط الشعر بالعشق
ولست أساوم يوماً على مقتنياتي
فأقدس مقتنياتي هي الكلمات

■ وما هي صفات المرأة التي يكتب لها نزار قباني شعره؟

لا بد من ثلاثة شروط: أولاً أن تكون تشبهني وثانيها أن تكون أُمي
وثالثها أن يكون شعري وفني جزءاً من عمرها كما هو جزء من عمري

■ وماذا تقول لشعراء الأرض المحتلة الآن؟

شعراء الأرض المحتلة..
يا من أوراق دفاتركم
بالدمع مغمسة .. والطين..
يا من نبرات حناجركم
تشبه حشرجة المشنوقين
يا من ألوان محابركم

تبدو كرقاب المذبوحين..
نتعلم منكم منذ سنين
نحن الشعراء المهزومين..
نحن الغرباء عن التاريخ وعن أحزان المحزونين..
نتعلم منكم
كيف الحزن يكون له شكل السكين..

■ هل أنت إرهابي؟

متهمون نحن بالإرهاب
إن نحن دافعنا عن الوردة .. والمرأة
والقصيدة العصماء
وزرقة السماء
عن وطن لم يبق في أرجائه
ماء .. ولا هواء
لم تبق فيه خيمة أو نافذة
أو قهوة سوداء
متهمون نحن بالإرهاب

■ وما هو حلمك القومي؟

مازلت برغم صراع الأخوة .. أخترع الأحلام
وأقول بإذن الله سيجمع يوماً .. ما بين الأرحام
جسدي يشتاق إلى بغداد .. وقلبي عند نساء الشام

▪ وماذا عن حلمك الشخصي؟

أنا الذي أعطي مراسيم الهوى
للوافات أمام باب مزاري
وأنا أرتب دولتي .. وخرائطي
وأنا الذي أقرر من سيدخل جنتي..
وأنا الذي أقرر من سيدخل ناري

▪ لو أردت أن تقول شيئاً إلى امرأة تمردت عليك فماذا تقول؟

لماذا كسرت الإناء؟
وأصبحت ضد الكتابة .. ضد الثقافة
ضد الأنوثة .. ضد الطفولة .. ضد النقاء
لماذا خلعت القصيدة عنك
أنا من جعلتك بالشعر ست النساء....
لماذا كفرت بآلاء شعري عليك؟...
ألا تعرفين أنني اخترعت بياض يديك
وأني اشتغلت نهاراً .. وليال وليلاً
لأرسم بالفحم .. غمازتيك، فكيف كسرت المرايا؟
وحطمت ما صنعت يدايا
وكيف تكونين في مثل هذا الغباء؟

▪ ومن أنت حتى تقول لها مثل هذا الكلام؟

لا تسأليني من أنا .. وما الذي أفعله
كي أتحدى الموت والزمان
أنا الذي أسقطت ألف دولة .. ودولة

لكي أقيم دولة الإنسان

■ الآن في الوطن العربي قضية حرية الصحافة. فما رأيك فيها؟

الكاتب في وطني يتكلم كل لغات العالم.

إلا العربية

فلدينا لغة مرعبة..

قد سدوا فيها كل ثغوب الحرية.

■ وبماذا تنصح الصحفيين والكاتب في الأمة العربية؟

ادخل إلى المدرسة. تعلم الأمية

اكتب بلا أصابع .. وكن بلا قضية

امسح حذاء الدولة العليا

اشطب من القاموس كلمة الحرية

لا نتحدث عن شؤون الفقر والثورة في الشوارع الخلفية..

لا تنتقد أجهزة القمع.

ولا تضع أنفك في المسائل القومية

كن غامضاً في كل ما تكتب

والزم مبدأ النقية

خصّص عمودك اليومي للأزياء والأزهار والفضائح الجنسية

■ وفي الاعتراف .. ماذا نقول؟

تورطت في الحب خمسين عاما

ولا زلت أجهل ماذا يدور برأس النساء

وكيف يفكرن .. كيف يخططن

كيف يرتبن أشياءهن

قرأت كتابة الألوثة
حرفاً فحرفاً
ولم أتعلم إلى الآن
شيئاً من الأبجدية

» متى تتوب عن الحب؟ فقال:

لا إجابة عندي لمثل هذه الأسئلة المستحيلة سأجيبكم بعد موتي.
ورحل نزار قباني بعيداً في نهاية نيسان ١٩٩٨.

من نزار قباني إلى جمال عبد الناصر

زمانك بستان، وعصرك أخضر
ملأنا لك الأفداح... يا من بحبه
دخلت على تاريخنا ذات ليلة
وكنت... فكانت في الحقول سنابل
لمست أمانينا، فصارت جدولا
تأخرت.. عن وعد الهوى، يا حبيبنا
سهدنا، وفكرنا، وشاقت دموعنا
تعساودني ذكرك كل عشية
وتأبى جراحي أن تضخم شفافها
أحبك، لا تفسر عندي لصوتي
تأخرت يا أغلى الرجال، فلينا
تأخرت.. فالساعات تأكل نفسها
أتسأل عن أعمارنا؟ أنت عمرنا
وأنت أبو الثورات، أنت وقودها
تضيئ قبور الميتين بمن بها....
تأخرت عنا. فالجساد حزينة
حصانك فسي سينا، يشرب دمه
رواياتك الخضراء تمضغ دربها
تأخرت عنا... فالمسيح معذب
نساء فلسطين تكحلن بالأسى

وذكراك عصفور من القلب ينقر
سكرنا كما الصوفي بالله يسكر
فرائحة التساريخ مسسك وعنبر
وكانت عسافير.. وكان صنوبر
وأمرتنا حبا، ولا زلت تمطر..
وما كنت عن وعد الهوى تتأخر...
وشابت ليالينا، وما كنت تحضر
ويورق فكري حين فيك أفكر
كان جراح الحب لا تتأخر
أفسر ماذا؟ والهوى لا يفسر
طويل، وأضواء القناديل تسهر
وأيماننا في بعضها تتعثر....
وأنت لنا المهدي، أنت المحرر
وأنت انبعاث الأرض أنت التغير
وفي كل يوم، أنت في القبر تكبر.
وسيفك من أشواقه، كاد يكفر
ويا لعذاب الخيل إذ تتذكر
وفوقك آلاف الأكاليل تضفر
هناك. وجرح المجذبة أحمر
وفي بيت لحم، قاصرات وقصر

وليمون يافا يابس في حقوله
رفيق صلاح الدين .. هل لك عودة
رفاقك في الأغوار، شدوا سروجهم
تغنى بك الدنيا.. كأنك طارق
تناديك من شوق مآذن مكة
ويكيك صفصاف الشآم ووردها
تعال إلينا... فالمروعات أطرقت
هزمتنا.. ومازلنا شتات قبائل
يحاصرنا كالموت.. ألف خليفة
أبا خالد... أشكو إليك مواجعي
أنا شجر الأحزان، أنزف دائماً
يثير حزيران جنوني ونقمتي
واذبح أهل الكهف، فوق فراشهم
وأترك خلفي... ناقتي وعباءتي
واصرخ: يا أرض الخرافات، احبلي

وهل شجر في قبضة الظلم يسهر
فإن جيوش الروم تنهى وتأمّر
وجندك في حطين صلّوا.. وكبروا..
على بركات الله .. يرسو، ويبحر
وتبكيك بدر، يا حبيبي، وخيبر
ويكيك زهر الغوطتين، ودمر
وموطن آبائي.. زجاج مكسّر
تعيش على الحقد الدفين وتثار
ففي الشرق هولاءكو.. وفي الغرب قيصر
ومتلّي له عذر، ومثلّك يعذر
وفي الثلج، والأكواء، أعطي وأثمر
فاغتال أوثنائي... وأبكي.. واكفر
جميعاً.. ومن بوابة الموت أعبّر
وأمشي.. أنا في رقبة الشمس خنجر
لعل مسيحا ثانيا..سوف يظهر



الفن إبداع ... والإبداع ثورة...

أكد الدكتور عفيف بهنسي في أغلب مؤلفاته أن هناك علم جمال عربياً ذا مواصفات معينة.. فما هي تلك المواصفات؟

عندما قدم أفلاطون مبادئ فلسفة الفن كان يتحدث عن الفن الإغريقي، ذلك الفن القائم على قانون جمالي محدد تركز في أنظمة معمارية ثابتة هي النظام النوري والنظام الإيواني والنظام الكورنثي، وكان النحت يعتمد على نسب جمالية محددة ٧/١، ٨/١، ٩/١، وكان النموذج الجمالي الأمثل مأخوذاً من النموذج الهرقلي، حتى الآلهة كانت ذات جمال أولمبي وامتدت قواعد الجمال الأفلاطوني حتى وصلت إلى كمالها عند "بومبارتن"، وكان كأسلافه يعتمد على الجمال الفني.

أما الجمال في المفهوم العربي، فإنه لا يقوم على مقاييس الجمال الإنساني الرياضي، بل على مقاييس مطلقة تبدت في الخروج عن الطبيعة وعدم الخضوع للواقع المادي، فكان الفن العربي، الروحاني النزعة المتحرر من تأثير الواقع، ولقد فسر علماء الجمال سابقاً هذا الفن على أنه بدني، لأنه لم يصل إلى الكمال الرياضي، ولكنهم وجدوا أنفسهم أمام فنون حديثة خرجت كلياً عن القاعدة والقانون، فعادوا لتمجيد الفن العربي الإسلامي، كما مجدوا الفن الإغريقي والفن الإقيانوسي والفن الصيني، وتبين لهم أن وراء كل فن فلسفة متميزة، هكذا رأينا منذ البدء أن الخلفية الفلسفية للفن العربي متميزة عن غيرها من الخلفيات، وإنه بقراءة متعمقة للتراث الفني الإسلامي والعربي نستطيع أن نستقري مبادئ هذه الفلسفة، إذ أن عدم محاكاة الواقع لم تكن نتيجة المنع، كذلك لم يكن تحريض الواقع مجرد خشية الوقوع في شبهة مضاهاة الخالق في قدرته على الخلق، بل إن الفن التشبيهي سواء كان ترقيناً (تصويراً إيضاحياً) في مخطوط، أو كان منمنمة فارسية تزين ملحمة أو ديواناً، قد نشأ عن فكر

إبداعى يرفض التبعية ويسعى نحو الرؤية الذاتية المتفردة القائمة على حذف العناصر الهامشية، وتقديم الصورة بعيداً عن المحسنات البديعية والبلاغة المصطنعة والقاعدية التي تفرض نفسها على الفنان.

إن فلسفة الجمال العربى هي فلسفة روحانية وليست رياضية، إنها تقوم على مقاييس مطلقة وليست نسبية، وتسعى للتعبير عن المثل والتقرب منه سواء في العمارة أو التشكيل، والفن العربى فن الحياة، ففي كل الأشياء والأزياء فن، فليس من تفريق بين ما يسمى الفن الرفيع - والفن الوضع - وهو فن الأدوات والأشياء، ولذلك فإن السجادة والمصباح والسيف والمنمنمة هي فنون إبداعية رفيعة المقام، ولم تكن وضعية لمجرد كونها استعمالية، ثم إن العمل الفنى وكذلك التذوق يقوم على الحدس وليس على الإدراك العقلي كما قال "ليوناردو دافنشي".

■ لقد كان هدفك من البحث عن جمالية الفن العربى الإسلامى وعن شخصية مستقلة للإبداع العربى، إيضاح ملامح فلسفية متميزة تساعد على التأصيل فما هو المقصود بالتأصيل؟

إن سعيانا المستمر، منذ نصف قرن لتوضيح معالم الفكر الجمالى العربى يهدف إلى وضع الأسس التى يمكن أن يقوم عليها الفن العربى اليوم، إن فننا الحديث كان وليد التيارات الغربية، وما زال تابعاً لها، ونحن نبحث عن فن يتم مسيرة الحركة الفنية العريقة، فن متصل غير مبتور، فن أصيل وليس فناً دخيلاً هجيناً، ومن أجل ذلك، كان لا بد من توضيح ملامح شخصية الفن العربى، وذلك عن طريق تقديم التراث المعماري والتصويرى وتحليله، وعن طريق تحديد مصطلحاته العربية وتخليصها من العجمة والروطنة، ثم عن طريق توضيح أبعاد الجمالية العربية من خلال آراء المفكرين القدماء، وخاصة أبا حيان التوحيدي.

« ما العلاقة بين الإبداع والثورة والفن، وبرأيك هل الفن الحديث هو ثورة؟
الفن هو إبداع، وهذا يعني أن الفنان يقدم شيئاً جديداً يختلف عن الأشياء المألوفة،
وفي كل عمل يحدد الفنان موقفه من الواقع، والمتنوق يبحث عن الطريف ويبحث عن
المدحش. هذا التغيير هو ثورة مستمرة عن الواقع المألوف، فالإبداع هو بحد ذاته
ثورة، وهذا العصر ثوري لأنه يقوم على المغامرة الإبداعية والتحول من موقع إلى
موقع مضاد، إنه في دوامة دياكتيكية بالمعنى الهيغلي، فهو ثورة ولا شك، إن جميع
تيارات الفن كانت نتيجة جدل بين الذات والموضوع، بين التاريخ والطبيعة، بين
السكون والحركة، ومحصلة هذا الجدل كانت قطباً جديداً يفرز محصلة أخرى، هكذا
هو مسار الجدلية الثورية.

« أنت تصر على أن تحديد حضارة أمة ما يبدأ من تحديد خصائص العمارة، فما
هي خصائص العمارة العربية؟

إن العمارة وعاء حضاري وهي شكل الحضارة المرئي والمشخص، وهوية
مجتمع ما أو مدينة ما، تتوضح أولاً من خلال شكل العمارة، فالمدينة القديمة التي
تدخر عبق التاريخ ما زالت رغم هرمها وفقرها المادي أغلى وأصدق تعبيراً عن
الشخصية الحضارية لسكانها، ولذلك فإن دعوتنا لحماية المدن القديمة، هي دعوة
لحماية هذه الشخصية الحضارية المشخصة، وتجنّاح الهجاة طابع المدينة الحديثة،
حتى إننا لم نعد نفرق بينها وبين أية مدينة حديثة أمريكية أو استرالية، ونبحث وراء
المشهد الحضري لمدينتنا الحديثة عن شخصيتنا القومية فلا نراها أبداً، هكذا نعيش
غربة في مدننا، إن مشهد المدينة الحديثة التي انتبقت منها العمارات السحابية إلى
جانِب العمارات القزمية دون تنسيق، وامتدت فيها الحدائق بفراغات تخطيطية غير
متوازنة مع كثافة العمارة في مركز المدينة وضواحيها، هذا المشهد لا يعبر عن
مدينتنا وعن هويتنا، إن مشهد مدينة فاس أو القيروان أو حلب، بالبيوت المتداخلة التي
تكون نسيجاً ملتحمًا في مستوى واحد هو أخفض من مستوى المآذن التي تهيم وحدها

على مشهد المدينة، هذه المدينة الهادئة المتلاحمة هي المدينة العربية التي يعيش فيها الناس بالتحام وتواضع وراحة وأمن قابعين في فردوسهم الداخلي، حيث أفنية الدور المضمخة بروائح الياسمين والنانج، وحيث خرير المياه يلحن هذا السكون الوجداني الخاشع إلى المطلق والحق.

■ ما هو دور العرب في تقدم فن العمارة؟

في مؤلفاتي الجامعية (الفن عبر التاريخ، اتجاهات الفنون المعاصرة، الفن والعمارة في العالم)، تحدثت عن جميع مراحل الفن والعمارة في العالم، بما يفيد الدارس ويساعده للرجوع إلى مصدر عربي موسع عن تاريخ الفن والعمارة، وكان عليّ أن أكون موضوعياً، فقدمت منهاجاً معرفياً أكاديمياً، وخارج نطاق الجامعة توسعت في موضوعين كان اهتمامي بهما بالغا، حتى إنني قدمت بهما رسالتين جامعتين أتبعتهما بكتب متعددة. الموضوع الأول هو (أثر العرب في الفن الحديث) وهذا يعني أنني جعلت المناخ الجمالي العربي مصدراً أساسياً من مصادر الفن الحديث في العالم. والموضوع الثاني هو (فلسفة العمارة والفن)، فلقد تبين لي أن وراء هذه الإبداعات العربية والإسلامية، يكمن فكر جمالي لا بد من إيضاحه، ولأنني شديد الإعجاب باتجاهات الفن الحديث التي استمدت مواضيعها وأساليبها من الشرق، قدمت كتابي "أثر العرب في الفن الحديث" ثم كتابي "الاستشراق والفن" ولأنني شديد الاهتمام بالفلسفة الجمالية العربية، أفردت لها عدداً من مؤلفاتي، مثل "جمالية الخط العربي" و "العمارة العربية، الجمالية، الوحدة والتنوع" و "مصور الزخرفة العربية" و "جمالية الفن العربي".

■ كيف نعود إلى التراث بعد غيبة الفن العربي الإسلامي طويلاً عن ساحة الاهتمام العالمي؟

لا أعتقد أن الفن العربي الإسلامي غاب عن الساحة العالمية، فمعارض هذا الفن

الإسلامي التي أقيمت في عواصم العالم، وروائعه التي ما زالت أعلى ما اقتنته المتاحف العالمية. ويجب أن أقول إن تدريس هذا الفن في باريس أوفي شيكاغو أو في كامبردج وهارفرد وإكسفورد، تاريخاً وفلسفة، هو أوسع وأقوى من أية دراسة تتم في أية جامعة عربية أو إسلامية. وإن المؤلفات والمراجع التي كتبها المؤرخون والفلاسفة والنقاد عن الفن العربي والإسلامي باللغات العالمية، ما زالت وحدها هي المرجع لكل باحث وإن عددها باللغة العربية ضئيل جداً، وفي البداية لم نقرأ الترجمات لهذه المراجع الأجنبية، مما دفعني إلى تأليف كتب تراثية في "الفن الإسلامي" و "العمارة العربية". وإذا أردنا اليوم أن نبحث عن التراث فإن ذلك يكون لرדם القطيعة التي تمت بين الفن الحديث وبين الفن العربي الأصيل الذي آمن بأهميته جميع الباحثين في العالم، إن يوماً نعيشه، ويزدهر في الحاضر وليس في المستقبل، نرى فيه الفن التشكيلي العربي في مكان مرموق، ونراه يخوض غمار الحركات الفنية العالمية، وإذا تمسك هذا التيار المعاصر بهويته العربية فإنه يستطيع أن يحتل مكاناً عالمياً وتقديراً، ونحن نلمس هذا في دراسات كثيرة لكتاب الغرب.

■ ما دور الفن في التعبير عن الأحداث التاريخية التي تمر بها أمتنا العربية؟
ليست مهمة الفن صحفية وليست تاريخية، ولكني أعتقد أنه من سمات الأصالة "الانتماء" الانتماء للتاريخ، للأحداث، للأمة، والفن غير المنتمي للتاريخ، للأحداث، للأمة، والفن غير المنتمي هو فن معلق في الهواء تذروه الرياح، إن عدم الانتماء والحياد والهامشية هي آفة تيارات الفن الحديث في العالم، وفي جزء من اتجاهات الفن في البلاد العربية، ولقد تحدثت في ذلك مطولاً في كتابي "الفن الحديث في البلاد العربية" الذي صدر عن منظمة اليونسكو في باريس. ويجب أن نميز بين الانتماء للتاريخ بآناته الثلاثة الماضي والحاضر والمستقبل، وبين الانتماء للماضي فقط. إن الإنسان كائن تاريخي وليس كائناً سلفياً غير موجود في الحاضر والمستقبل، ولذل فإن الدعوة السلفية، هي دعوة فاسدة، إذ أنها تلغي الحضور الزمني للإنسان، وتلغي

الوحدة العضوية للتاريخ، والانتماء للتراث لا يعني الانتماء للماضي، والذين يقولون هذا القول يفسدون معنى التراث. التراث هو تراكم العطاء الإنساني عبر التاريخ، وما أنجز اليوم في الحاضر هو تراث الغد والمستقبل، وهكذا فإن الانتماء للتراث هو انتماء للتراث القومي عبر التاريخ بجميع أاناته.

■ أي المدارس الفنية الحديثة أنت من أنصارها وإلى أي مدرسة تنتسب كفنان وناقدا؟

من الصعب على مؤرخ الفن أن يفضل عصراً على عصر أو أسلوباً على أسلوب، ولكنني كمصور ونحات فإنني أنتمي للمدرسة التعبيرية التي تحاول الدخول إلى أعماق الذات الإنسانية، والتي تسقط على الأشياء الجامدة المعاني والهموم والمطامح الإنسانية، ومثلي الأعلى في عملي الفني هو الفنان "فانسنت فان غوخ" الهولندي الذي أصدرت له كتاباً منذ نعومة أظفاري، وها هو اليوم يقدم للعالم بأعلى سعر عرفه تاريخ أسعار اللوحات الزيتية. هكذا أقول إن الفن لغة إنسانية وأنا أحاول أن أتحدث بهذه اللغة في أعمالي الفنية النحتية والتصويرية، وأنفق عمري في الكتابة عن هذه اللغة الإنسانية التي تعبر عن أرقى مراحل حضارة الإنسان.

ستون كتاباً في الفن والتراث والحضارة العربية

- نهضة الأمة العربية تبدأ بالثقافة مع التمسك بالهوية القومية والتراثية.
- الهجانة شوهدت مدننا العربية، وأفقدتنا شخصيتنا القومية.
- ليكن هدفاً إحياء تراثنا ردم القطيعة بين الأصالة والحداثة.
- التنقيبات الأثرية في القدس، قوّضت أسطورة الوجود الصهيوني في فلسطين.
- عرضُ تراثنا العريق بأسلوب علمي، هو السبيل لتحقيق الحوار والتواصل مع الآخرين.

يبرز اسمه في مقدمة الكوكبة اللامعة التي جندت فكرها وعملها البحثي الدائب للكشف عن كنوز التراث العربي الإسلامي، والتصدي لحملات التشويه والحط من الدور الحضاري الهام للأمة العربية، أثنى الدكتور "عفيف البهنسي" المكتبة العربية بما يزيد عن ستين مؤلفاً ومرجعاً بحثياً، لإضاءة وجوه الحضارة الإسلامية، وقُدِّم الدراسات الموثقة للدفاع عن الهوية القومية، فكان جديراً بما يحاط به تكريم وتقدير على المستويين العربي والدولي.

استغرقت رحلة الدكتور البهنسي في محراب الفكر قرابة نصف قرن من الزمن، توقف فيها عند محطات عديدة، وحين يعود بنا إلى أولى تلك المحطات. نتعرف إلى بدايات المرحلة:

ولدت بأحد أحياء "الصالحية" بدمشق، وهي منطقة شعبية عريقة، وفيها تلقيت تعليمي الابتدائي والثانوي وتابعت دراستي الجامعية بكلية الحقوق رغم أن ميولي كانت دوماً الكتابة والرسم والموسيقا، وبعد تخرجي سافرت إلى باريس، وانتسبت إلى مدرسة "الوفر" وهي مدرسة خاصة بتاريخ الفنون، وهناك تعرفت إلى مجموعة من الأساتذة المتخصصين، وبدأت أول خطوة في طريق تاريخ الفن والعمارة، وقد بهرتني أعمال عمالقة الانطباعيين، كما استحوذت على فكسري شواهد التراث

الإسلامي... ففي معهد الفنون والآثار بشارع "ميشليه" في باريس، حيث تابعت دراستي، عثرت على أرقى مؤلفات المستشرقين حول الفن الإسلامي، من عمارة ونقش وزخرفة وخط، وهو ما دفعني للتعلم أكثر في أسرار الفن، وبعد نبلي شهادة دكتوراه الدولة في فلسفة الفن الإسلامي، وعودتي للوطن، تنقلت بين عدد من المراكز الإدارية التي ساعدتني في أداء رسالتي الفنية، سواء حين كنت مديراً للفنون الجميلة، أو مؤسساً لكلية الفنون الجميلة، أو مديراً عاماً للآثار والمتاحف، وقد ساعدني ذلك إلى نقل أفكارني إلى حيز الواقع، كذلك عكفت على التأليف، فنشرت مجموعة من المؤلفات نافذة على ٦٠ كتاباً مرجعياً طبعت في عدد من العواصم العربية، وترجمت إلى الإنكليزية والفرنسية، دارت حول ما أطلقت عليه اسم "الجمالية" كتعبير عن فلسفة الفن، مثل كتابي: "جمالية الفن الإسلامي" في سلسلة "عالم المعرفة" الذي أصبح مرجعاً للباحثين في مجالات الفن العربي الإسلامي، ويبدأ حوارني مع الدكتور عفيف بهنسي.

النهضة تبدأ بالثقافة:

■ خلال مسيرتك الحافلة ما هو الهدف الذي سعيت لتحقيقه، وقدر لك أن تنجزه فعلاً؟

كان نصب عيني دوماً سؤال: من نحن؟ وإلى أي مدى نريد أن نحقق أهدافاً كبيرة فيما يتعلق بنهضتنا؟ وكنت أعلم بأن النهضة لا تتجلى في ميدان السياسة فقط، بل تبدأ بالثقافة مع التمسك بالهوية... الهوية القومية، والهوية التراثية، والخطوة الأولى في هذا المجال: العودة إلى الكنوز التي تركها الأجداد، وكسان أن عشت خلال عملي مديراً للآثار والمتاحف لمدة زادت عن عشرين عاماً، ذلك الهاجس، ورافقت كل المكتشفات التي أسفرت عنها الحفريات في مناطق عديدة من سوريا، وأذكر أنني أشرفت على نقل معرض ضخيم بلغ التأمين عليه ١٠٠ مليون دولار، من اليابان إلى أمريكا عبر أوروبا، وطاف في سبع وثلاثين مدينة كبيرة

خلال عشر سنوات، تحت عنوان "الفن والآثار في سوريا خلال عشرة آلاف عام"، وقدم المعرض نماذج مشرقة للحارة العريقة التي كانت مناطق عدة في سوريا مهداً لها، وحث الجمهور الحاشد على السؤال: من هي سوريا، التي تقدم هذا الفن الجميل الناضج خلال عشرة آلاف عام ... أي في الوقت الذي لم تكن فيه أوربا، ولا الغرب كله ... معروفين...؟

الفن العربي روحاني النزعة، ويعبر عن المثل:

■ تؤكد في دراساتك أن هناك علم جمال عربياً، بمواصفات محددة...فما هي تلك المواصفات؟

الجمال في مفهومه العربي لا يقوم على مقاييس الجمال الإنساني الرياضي (الإغريقي) كما حدده "أفلاطون" في "فلسفة الفن"... بل على مقاييس مطلقة، تتجلى في الخروج عن الطبيعة، وعدم الخضوع للواقع المادي، ويرى علماء الجمال أن الفن العربي الروحاني النزعة، المتحرر من تأثير الواقع، هو فن حديث خرج عن القاعدة والقانون، إن الفن العربي بكل صوره سواء أكان نمومة نزين ملحمة أو ديواناً، أو تصويراً إضاحياً، نشأ عن فكر إبداعى يرفض التبعية، ويسعى نحو الرؤية الذاتية المنفردة القائمة على حذف العناصر الهامشية، وتقديم الصورة بعيداً عن المحسنات البيعية والبلاغة المصطنعة والقواعد التي تفرض نفسها على الفنان.

إن فلسفة الجمال العربي هي فلسفة روحانية وليست رياضية، وتقوم على مقاييس مطلقة وليست نسبية، وتسعى للتعبير عن المثل، سواء في التشكيل والعمارة، والفن العربي بعد هذا هو فن الحياة ... في كل الأشياء والأدوات والأزياء فن، السجادة والمصباح والسيف والمنمنمة هي فنون إبداعية رفيعة، ومن ثم فإن العمل الفني وكذلك التذوق يقوم على الحدس وليس على الإدراك العقلي.

هدف التأصيل تخلص الفن العربي من الهجانة:

كان هدفك من البحث في جمالية الفن العربي الإسلامي والشخصية المستقلة للإبداع العربي ملامح فلسفية تساعد على التأصيل ... فما هو هذا التأصيل في نظرك؟

من المعلوم أن فننا الحديث اليوم، هو وليد التيارات الغربية، وجلّ فنانينا العرب يتبعون مدارس غربية يحكم دراستهم في البلدان الأجنبية، ونحن نبحت عن فن يكمل مسيرة الحركة الفنية العريقة، فن متصل وغير مبتور ... فن أصيل وليس دخيلاً هجيناً، ولهذا لابد لنا من توضيح ملامح شخصية الفن العربي، وذلك عن طريق تقديم التراث المعماري والتصويري وتحليله، وعن طريق تحديد مصطلحاته العربية، وتخليصها من العجمة والרטانة، ثم عن طريق توضيح أبعاد الجمالية العربية، من خلال آراء المفكرين القدماء وبخاصة "أبي حيان التوحيدي".

■ تلح في بحثك ومقالاتك على أن تحديد سمات حضارة أمة ما، يبدأ من تحديد خصائص عمارتها ... فما هي خصائص العمارة العربية الإسلامية؟

العمارة وعاء حضاري، وهي شكل الحضارة المرئي والمجسد، وهوية مدينة ما، أو مجتمع ما، تتضح من خلال شكل العمارة ... فالمدينة القديمة التي تدخر التاريخ، ما تزال برغم هرمها وفقرها المادي، أقوى وأصدق تعبيراً عن الشخصية الحضارية لسكانها، ومن هنا فإن دعوتنا لحماية المدينة القديمة وصيانة نسيجها المعماري، هي دعوة لحماية هذه الشخصية الحضارية المجسدة.

وكما نرى فإن الهجانة تحتاج طابع المدن العربية الحديثة، حتى إننا لم نعد نميز بينها وبين أية مدينة أجنبية حديثة، ونبحت عبثاً وراء المشهد الحضاري لمدينتنا الحديثة عن شخصيتنا القومية، فلا نعرّ عليها أبداً، وهكذا نعيش غربة في مدينتنا ... تأمل كيف تتراس العمارات العالية جنباً على جنب مع العمارات القزمية بلا تنسيق أو تنظيم، وكيف تتناثر الحقائق في فراغات غير متوازنة مع

كثافة العمارات في وسط المدينة وضواحيها، تجد أننا أمام مشهد لا يعبر عن مدينتنا الجميلة، وهويتنا المتميزة، ثم أدر نظرتك إلى مدن فاس والقيروان وحلب تجد بيوتاً متداخلة تكون نسيجاً ملتحمًا في مستوى واحد، هو أخفض من مستوى المسآذن المهيمنة وحدها على مشهد المدينة ... هنا ترى مدينة هادئة متلاحمة هي المدينة العربية التي يعيش فيها الناس بالتحام وتواضع وأمن وراحة، يحتصنهم فردوس حقيقي، حيث باحات البيوت الرحبية المعطرة بروائح الياسمين والفيل والنارنج، وحيث رذاذ الماء الرقراق يموسق الفضاء، ويلحن هذا السكون الوجداني الخاشع إلى الحق المطلق.

الفن المعاصر المتمسك بالهوية العربية يحتل مكانة عالمية:

■ كيف نعود إلى التراث بعدما غاب الفن العربي الإسلامي طويلاً عن ساحة الاهتمام العالمي؟

من المؤكد أن الفن العربي الإسلامي لم يغيب عن الساحة العالمية، فمعارض هذا الفن تقام يومياً في عواصم العالم، وروائعه المتألقة ما تزال قبلة الأنظار، تتطلع لاقتنائها المتاحف والمراكز الفنية الراقية، وأؤكد لك بأن تدريس هذا الفن في باريس وكامبردج وهارفارد وأكسفورد، تاريخاً وفلسفة هو أوسع وأكبر من أية دراسة تتم في أية جامعة عربية أو إسلامية وأضيف بأن المؤلفات والمراجع التي كتبها المؤرخون والفلاسفة والنقاد عن الفن العربي الإسلامي باللغات العالمية ما تزال وحدها المرجع لكل باحث ... في حين أن عددها باللغة العربية ضئيل جداً وفي البداية لم نقرأ إلا ترجمات لهذه المؤلفات الأجنبية، ومن هنا فإن هدف بحثنا عن التراث اليوم هو ردم القطيعة التي تمت بنى الفن الحديث وبين الفن العربي الأصيل، الذي آمن بأهميته الباحثون في العالم، ومن ثم إيصاله إلى المكنسة المرموقة التي يستحقها ... إن التيار المعاصر المتمسك بهويته العربية قادر على أن يحتل مستوى عالمية متميزاً، ونحن نقرأ هذا في دراسات كثيرة لكاتب الغرب.

آثارنا قدّمت التاريخ الصحيح للعامل القديم:

▪ إلى جانب اهتمامه بالفن وعلم الجمال، شغل التراث المعماري العربي الإسلامي الدكتور عفيف البهنسي، فأعطاه سنوات من فكره وجهده، أمضاها في البحث والدراسة ... فماذا كان محصلة هذه البحوث؟

رافقت في عهدي السبعينات والثمانينات من القرن الماضي بعثات تنقيب عالمية متعددة، شمل نشاطها منطقة الغمر في وادي الفرات، حيث تم العمل - قبل المباشرة ببناء سد الفرات - في أكثر من مئة موقع، عثر فيها على آثار كثيرة بالغة القيمة يعود بعضها إلى عشرة آلاف عام، إضافة إلى بعثات أخرى نفذت حفريات علمية في مواقع هامة، كما في موقع "إيبلا"، وتم اكتشاف مكتبات تضم ألواحاً طينية منقوشة بالكتابة القديمة، استطاع العلماء من خلالها استقراء التاريخ الصحيح للعالم القديم، وقد أثار ذلك حفيظة التوراتيين الذين وجدوا في هذا الألواح قصة التاريخ والحضارة مختلفة تماماً عما ورد في كتاب "العهد القديم" التوراة.

كذلك عثر في موقع آخر على أقدم موقع سكني يعود إلى الألف الثامنة قبل الميلاد، وعثر على أقدم أبجدية في أوغاريت، وعلى أقدم اللهجات العربية مكتوبة بالخط المسماري، وعلى أقدم نوتة موسيقية سابقة للمدرج السباعي الفيناعورثي اليوناني بألف عام، إضافة إلى وجود العقيدة السماوية في تلك المنطقة منذ آلاف السنين.

▪ وكيف تمت حماية هذه المكتشفات الأثرية الثمينة، لتقدمها للعالم بوجهها التاريخي المتألق؟

لقد جرى إنشاء ما يزيد عن ثلاثين متحفاً في سوريا، جمعت فيها اللقى الأثرية التي ما تزال المنقبون يعثرون عليها في مواقع كثيرة من البلد، وتم ترميم العشرات من الأولاد الأثرية القديمة مثل مدينة "أفاميا" و"الرقّة" إضافة لتسجيل العمائر والمباني الهامة في السجلات الدولية لليونسكو، بهدف حمايتها من العبث والتعدي،

ونذكر بفخر إنشاء متاحف للفسيفاء، وللطب والعلوم عند العرب، ومتحف للخط العربي، مع تأسيس كلية للفنون بجامعة دمشق، ومراكز للفنون في محافظات القطر، ومعاهد للفنون والآثار، ومركز للتوثيق... ويتخرج من هذه المعاهد والمراكز كل عام عشرات الخبراء والمتخصصين الذين يجتهدون في مهمات الحفاظ على التراث المعماري وصيانتته، وعرض وجوهه الجميلة بأساليب علمية وفنية راقية.

التنقيبات الأثرية تكذب مزاعم الصهيونية:

■ وأسأل الدكتور عفيف البهنسي، عما يردده إعلام العدو الصهيوني من مزاعم حول المكتشفات الأثرية في القدس وأريحا، والوجود الإسرائيلي عبر التاريخ؟ فيجيب:

قام علماء صهيانية بإجراء تنقيبات عديدة في القدس وأريحا، ونشروا نتائج عملهم عن محصلة اكتشافاتهم، بهدف تأكيد الوجود الإسرائيلي في فلسطين، وقمت من جانبي باستقراء دراسات ١٧ عالماً في انفترة ما بين ١٩٧٦-١٩٩٩، ونشرت بحثي الموثق في مجلة "وجهات نظر" مؤكداً أن أياً من أولئك العلماء لم يكتشف أي أثر للهيكل أو أي أثر آخر يبرهن عن وجود مدينة "داود". بل وأكثر من هذا لم يتوصلوا حتى على مجرد عمود يمكن أن يُنسب إلى ما قبل القرن الثاني الميلادي - أي العصر الروماني، الذي ساد في المنطقة - وهذا الإقرار العلمي له خطورته البالغة، لأن العدو الصهيوني يقيم كيانه على أسطورة تاريخية مدعّمة بأفكار توراتية، علماً بأن التوراة المتداولة هي توراة مكتوبة خلال أربعة قرون من قبل أحبار اليهود، علينا إذن أن نقوم بعرض هذه الحقيقة للآخرين بأسلوب علمي، بفضح مزاعم الصهيانية، ويدعم حججنا في نضالنا لتثبيت حقوقنا وتأكيد عدالة مطالبنا.

■ ويطرح السؤال نفسه: إن العالم يعيش اليوم في جو مشحون بالقلق والأزمات الملتهبة، ومن جديد تجد المنطقة العربية - بوجه خاص - نفسها بؤرة للأطماع الاستعمارية، فكيف يرى الدكتور البهنسي سبيل الخلاص والنجاة من الطوفان القادم؟

القائلون بصراع الحضارات يجهلون معنى الحضارة العربية:

يبقى الحوار الحضاري طريق الخلاص أمام البشر، وأمام المتقنين بشكل خاص، وهو الموضوع الذي يشغلي فعلاً، وقد أتيت لي الفرص لأطلع جيداً على الحضارة في المنطقة العربية قبل الإسلام وبعدها، ولهذا أشعر بقدرتي أن أستغل هذه الخلفية الحضارية لتحقيق الحوار مع الغرب الذي يؤمن بعراقلة التاريخ في منطقتنا، ولكنه يحتاج إلى وسيلة لتعريفه بترائنا ... وهذه الوسيلة هي الحوار، الذي يتجلى في تقديم الكتاب الجيد باللغة الأكثر عالمية، أو بأكثر من لغة وبجميع وسائل الاتصال الحديثة ... إنني مهتم حالياً بنقل مؤلفاتي إلى اللغات العالمية لاحتوائها على كثير من المعلومات التاريخية والحضارية الموثقة، والتي تساعد على تحقيق الحوار والتواصل، ومن جانب آخر فإن القائلين بصراع الحضارات أثبتوا أنهم يجهلون فعلاً ماذا تعني الحضارة العربية، وعلينا أن نغم ثباتاً موثقاً بهذه الحضارة، لكي ينقلب الصراع إلى حوار، وينقلب العدو إلى صديق، لأن الإنسان عدو ما يجهل، فلا بد أن نزيل هذه الجهالة لتقديم أقصى ما نستطيع من التعريف سواء عن طريق المعارض الضخمة أو عن طريق الكتابة والترجمة أو وسائل الاتصال الحديثة. إن مسألة الحوار صارت أساسية في تصحيح كثير من المواقف التي يمكن أن تفكك العرى الإنسانية بين شعوب العالم، نحن نرفض هذا التفكيك ونؤمن بالعالمية كتصحيح للعولمة، لأن العالمية بحسب مفهومها، هي فضاء رحب تعيش فهي سائر الأمم، وتتفاعل فهي كل الثقافات بعيداً عن التسلط والهيمنة.

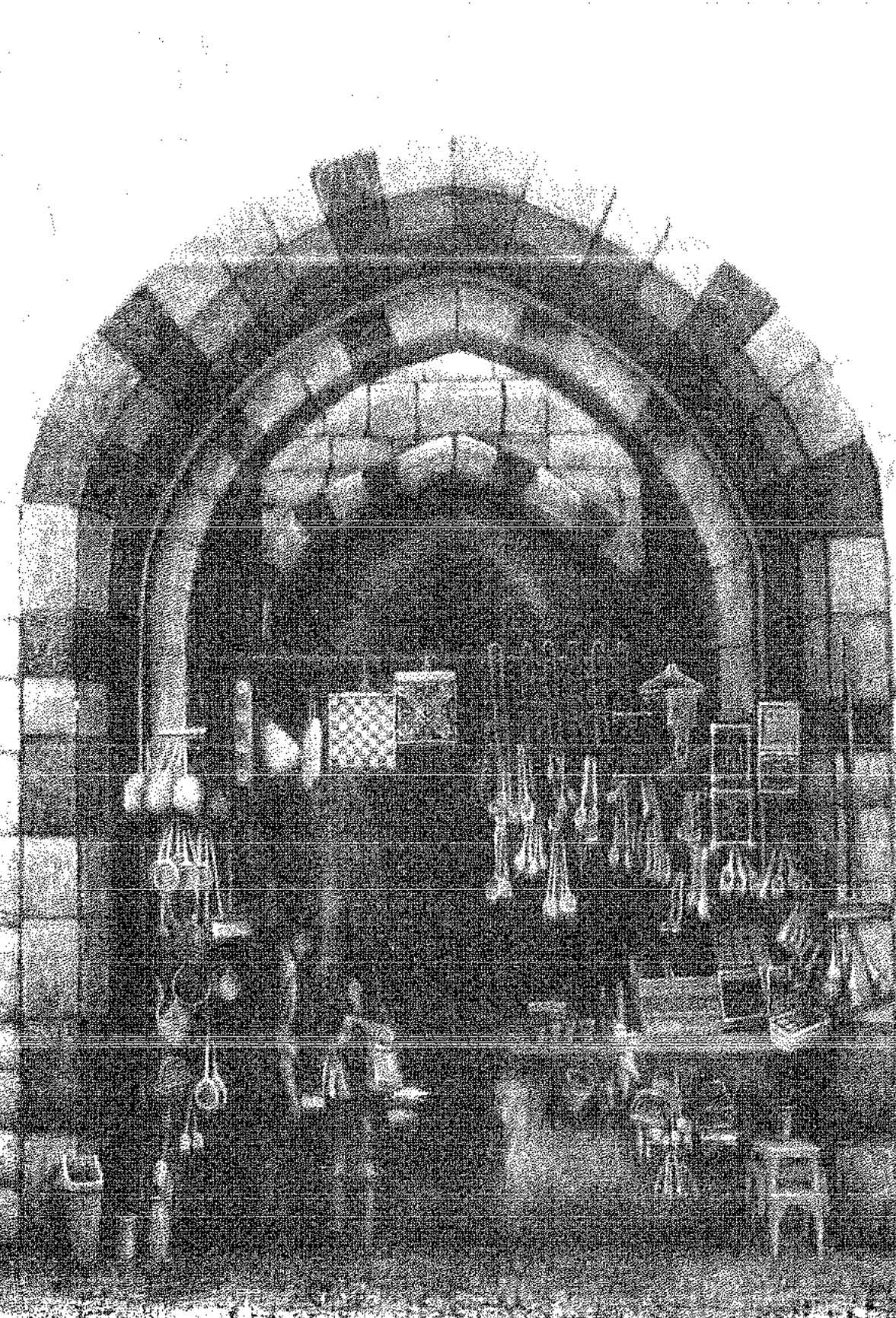
البطاقة الشخصية:

- ولد في دمشق عام ١٩٢٨/.
- إجازة دار المعلمين عام ١٩٤٦.
- إجازة في الحقوق ودبلوم العلوم الإدارية من جامعة دمشق عام ١٩٥٠.
- درس الفن في معهد (أندريه لوت) في باريس، ودرس تاريخ الفن في معهد اللوفر.
- حصل على الدكتوراه في تاريخ الفن من جامعة السوربون عام ١٩٦٤.
- حصل على دكتوراه الدولة في فلسفة الفن والعمارة العربية الإسلامية عام ١٩٧٨ من جامعة باريس أيضاً.
- مدير الفنون الجميلة ١٩٦٢ - ١٩٧١.
- المدير العام للآثار والمتاحف ١٩٧١ - ١٩٨٨.
- أستاذ تاريخ الفن والعمارة من عام ١٩٦٠ وحتى الآن في جامعة دمشق.
- يحمل العديد من الأوسمة والميداليات والجوائز.
- خمسون مؤلفاً مرجعياً في الفن والتاريخ وخاصة الفن العربي الإسلامي وفلسفته، وقد ترجم أكثرها إلى لغات أجنبية كالفرنسية والإنكليزية والإيطالية، وله تحت الطبع ثلاثة معاجم، معجم العمارة - ومعجم الخط والخطاطين - ومعجم الزحرفة. عدا معجمه عن مصطلحات الفنون الذي صدر عن مجمع اللغة العربية.

من مؤلفاته:

- الفن الإسلامي - العمارة عبر التاريخ - الفن والقومية - تاريخ الفن والعمارة - الثورة والفن - الشام الحضارة - الجامع الأموي - الفن والاستشراق - الخط العربي - فلسفة الفن عند التوحيدي - الفن الحديث في البلاد العربية. وآخر مؤلف صدر له في روما هو العمارة العربية.





دمشق .. في عيون طبيب عاشق للأصالة والجمال

ربما ليس في العالم كله مدينة حظيت بهذا الاهتمام الطاعي، الذي حظيت به مدينة دمشق، التي كتب التاريخ اسمها مرادفاً للحضارة والمجد والخلود.

لقد أسرت هذه المدينة خيال الرحالة والمؤرخين، والشعراء الملهمين، فما من مؤلف في شتى مجالات الفكر، لم يفرد لها صفحات يعرض فيها صور الحياة المتألقة التي استمرت نابضة في المدينة طوال العصور، فلماذا دمشق وحدها، تستأثر بهذا الاهتمام الذي يصل إلى درجة العشق؟ ربما كان سرها، أن الذي يطوف بدمشق، يقطع مسافات قليلة في المكان، ولكنه يجوب أحقاباً متطاولة في الزمان.... إن كل خطوة على أديم دمشق في الحاضر تقابل مئات السنين في الزمن الغابر، لقد ورثت ((دمشق)) عديداً من الممالك والحضارات، وخبأت في خزانها كنوزاً من الذكريات، وأصبحت بعد شروق شمس الحضارة الإسلامية جوهرة متفردة بالجمال، ومركزاً سياسياً من مراكز الإشعاع.

واليوم وأنت تمر في طرقات دمشق وشوارعها، تنتقل من تراث إلى تراث ومن حضارة إلى حضارة، فلا عجب أن يغدو فؤاد الدمشقي ممتزجاً بعطرها، ويصبح كل واحد من أبنائها شاعراً ومؤرخاً كما لم يعرف في مدينة قبلاً، ولكن مؤلفاً بذاته، صار حديث الدمشقيين منذ سنوات قليلة حين بدأت مؤلفاته عن (دمشق) تنصدر واجهات المكتبات، لتعرض وجوه (دمشق) القديمة الأسرة، التي كانت إلى عهد قريب مجهولة أو مهجورة وراء ستار من الإهمال والنسيان.....

لقد حرصت كخيري على اقتناء هذه المؤلفات القيمة التي بلغ عددها إلى اليوم، ثمانية كتب، غير مجموعة أخرى جاهزة للنشر، ولمست الجيود المضنية التي بذلها المؤلف لكل سطر فيها، وتطلعت للتعرف بشوق إلى هذا الدمشقي العاشق للتاريخ

والفن والجمال، ولكن ذلك لم يكن يسيراً كما تخيلت، لأن يوم الرجل يكون دوماً موزعاً على أنشطة عديدة، وعليك أن تترصده في أمكنة مختلفة لتحاوره وهو يمارس أنشطته في عيادته الخاصة التي يعمل فيها كطبيب للأَسنان، وفي حارات (دمشق) القديمة، التي يحولها بفرشاته واللوانه، إلى لوحات فنية نابضة بإشراق الحياة، أو في أركان الأبنية الأثرية التي تغص بها المدينة، حيث يصور بعدسته الشفافة، التفاصيل الدقيقة لكل حجر وقوس وزخرفة وكلمة، ويكشف ما خفي من أسرارها.

وهكذا كان علي أن أصبر أياماً، حتى استطعت أن ألقاه في ركن قصي من أركان زقاق شعبي ضيق، يضم أبنية قديمة ... وكان الرجل إلى دقائق، قد ارتقى سلماً، ليصل إلى لوحة فرق بوابة، ويسجل ما بقي من حروفها الباهتة التي تؤرخ للبناء وتعرف به.

ليلة لا تنسى:

دمشق أول ما قاله لي: هذه المدينة صديقتي الأثرية، التي أعطت لحياتي طعماً مختلفاً، هو مزيج من العذوبة والفن والأصالة، وأنا مدين لها بكل أيام الفرح والألق والسعادة ...

وقد بدأت صداقتنا الحميمة في لحظة لا تنسى، كنت قد أقمت معرضاً خاصاً لرسمي الزيتية، وهوري الفوتوغرافية عن دمشق عام ١٩٨٥م، ووسط حشد من المهتمين ببحوث الفن والتراث، فوجئت بالسيدة الدكتورة (نجاح العطار) وزيرة الثقافة - كانت تعرف عن مجموعتي الكبيرة من صور دمشق القديمة (الكارت بوستال) تعود إلى القرن التاسع وسطلع القرن العشرين، والتي جمعتها بصبر ودأب من بلدان كثيرة....

فوجئت بها تكلفني بتأليف كتاب عن (دمشق القديمة) وتراثها العريق ... وقد فاجأني التكليف فعلاً، وسهرت ليلة بطولها أقلب الفكرة ومن هنا بدأت رحلتي

مع حاضرة الأمويين دمشق : حيث جمعت بمساعدة أصدقائي، خرائط وصوراً قديمة لدمشق، وحصلت على مؤلفات منسية في رفوف المساجد العتيقة ومنها مثلاً : (كتاب الروضة البهية في فضائل دمشق الحميمة) لمحمد عز الدين عربي كاتبني الصيادي من عام ١٩١٢، ومنتخبات التواريخ لدمشق، لنقي الدين الحصني ١٩٢٧، وعشرات غيرها، ثم التقيت كثيراً من المعمرين ونقلت عنهم معلومات سدت ثغرات عديدة في النصوص، وصححت عبارات كان مسلماً بها، ثم رحت أمسح الغبار بأناة وصبر عن اللوحات والكتابات والتواريخ، وناقشت ذلك كله، مع المتخصصين والمهتمين، وكانت الحصيلة، مجموعة المؤلفات العديدة التي صدرت تباعاً وما تزال، سألته ما هي أول المؤلفات في ذلك فقال :

(دمشق تاريخ وصور):

اعتبر الباحثون والمؤرخون هذا المؤلف، (ببيلوغرافيا) مصورة، لكل ركن وزاوية في مدينة دمشق، فقد ضم حوالي ٥٠٠ صورة لمعالم دمشق قديماً وحديثاً، وعشرين خريطة توضح مواقع هذه المعالم، إضافة إلى ٥٠ صورة لشخصيات وطنية وأجنبية لها ارتباط بالمدينة، عدا عن صور لأنشطة الحياة اليومية والاجتماعية في تلك الأيام، ولم يمر غير سنوات قليلة حتى أتبعته بمؤلف آخر هو (معالم دمشق التاريخية) وثالث بعنوان (أسواق دمشق القديمة ومشيداتها التاريخية) وبذا أصبح لدى الناس مجموعة متكاملة، تعرفهم بالمرافق والمباني والمشيدات، والتطور الذي شهدته بمرور الزمان، وتحرر (الدمشقي) من جهلته القديم بتاريخ الحي الذي يسكنه، أو المسجد الذي يصلي فيه، أو المدرسة التي تعلم فيها، والجديد في هذا كله أن الصورة هي الأساس في تلك المؤلفات لأن المؤرخ قد يخطئ، ولكن الصورة لا تخطئ، وهو قد يسهو أو يمر ببعض التفاصيل مر الكرام، لكن الصورة لا تترك حتى الجزيئات الدقيقة، وقد يكتب المؤرخ من وجهة نظره

الخاصة ملتزماً بفكر مسبق، لكن الصورة لا تعرف الالتزام، ومن هنا كانت مصداقية العمل، ومعها ينتهي الخطأ والشك إلى الأبد....

مآذن دمشق ... طراز عريق:

خرجت الكتب إلى الناس، واستقبلت بترحيب واسع، وأعيدت طباعة بعضها مرات عديدة، وترجم (أسواق دمشق) في الولايات المتحدة، مما شجع المؤلف على التقدم خطوة جديدة في هذا المجال، فعكف على موضوع جديد، طالما تشوق إليه (مآذن دمشق .. تاريخ وطراز) وسألته:

- لماذا المآذن بالذات؟ فقال:

هذا الموضوع يلقي الضوء على معالم عمرانية لم تتوفر لها ظروف البحث بشكل علمي موثق، ويقدر يغطي دراستها من جوانب أربعة: التاريخ، الطراز، نسبة التسمية، الصورة وفي (دمشق) تنتشر إلى اليوم أعداد كبيرة من المآذن القديمة والمعاصرة، وتتوزع أساليب عمارتها في اتجاهات شتى كانتشار الضوء عن سطح كثير الانكسار، فمنها ما حافظ على طابعه الأصيل لخصائص العهد السذي أقيمت فيه، ومنها ما تعرض للتجديد أو الترميم، أو حتى إعادة البناء، الأمر الذي أدى إلى تغير معالمها الأصلية كلياً أو جزئياً (تهجن) عناصرها المعمارية، ومنها أيضاً ما شيد أصلاً بأساليب لا تلتزم بنهج محدد، مما أفقدها هويتها الطرازية الخاصة.

لقد كانت مآذن دمشق أمامه في الشوارع والأحياء ينفقدها ويصل إليها حتى في مناطق الجبل القصية، ثم يضع المعلومات التي حصل عليها ضمن إطار علمي، فهو يتحدث أولاً عن نشوء المآذن، والفترات التاريخية التي بنيت فيها، ويعدد الطرز التي بلغت ١٩ طرازاً عمرانياً، منذ العهد الأموي وإلى يومنا.

ويشرح أهميتها الأثرية، ويفسر التسميات الفنية لتفاصيل المئذنة وعناصرها المعمارية (الجدوع والأقواس، والنوافذ والرؤوس، والمقرنصات، وغيرها)، وقام المؤلف بنفسه بإعداد الرسوم الموضحة لهذه العناصر، ووضع خرائط ميدانية

لمواقع المآذن في المدينة، ومخططات لأماكن إنتشار الطراز العمرانية المختلفة، وكذلك جداول تبين خصائص ومميزات هذه المآذن، ولم يترك واحدة منها دون أن يقدمها بصورة وبالألوان، فاحتشدت كلها أمام القارئ في عمل فني وتقني غير مسبوق.

مشيدات دمشق:

اعتقد الدكتور (فتية الشهابي) أن مهمته لم تكتمل بعد، وإن عمله سيظل ناقصاً ما لم يوثق لمعالم أخرى من أبنية دمشق التاريخية، فكان مؤلفه الجديد : (مشيدات دمشق ذوات الأضرحة وعناصرها الجمالية) ويبرز الباحث اهتمامه الجديد بقوله: (لقد أصبح كل معلم أثري في دمشق يشدني ويحتني على رفع الستار عن صورته الجميلة، ومثلت لي (مشيدات دمشق ذوات الأضرحة) دافعاً جديداً لمتابعة العمل الذي بدأت به منذ سنوات .. وهذه المشيدات تنتشر في حارات المدينة ودروبها، وتتمثل في الأضرحة المبنية لتضم بين جنباتها مقامات الصالحين، وأضرحة المشاهير ومنها ما أقيم أصلاً للعبادة أو للتدريس، ومنها ما شيد لتخليد ذكرى معينة، وكثير منها اندثر.

وكانت فكرة بناء التربة أو المدفن قد نشأت بنشوء الحضارات القديمة، تخليداً للملوك والقادة والكهنة وما أهرام الفراعنة، ومدافن الحثثيين، وقبور الأنبساط والتمريين إلا شواهد على أن فكرة (التخليد) كانت عقيدة راسخة لدى تلك الشعوب، ويرجح أن أول تربة أقامها (المنذر بن امرئ القيس) بظاهر الكوفة بالعراق، كما تذكر المصادر أن أول قبة في الإسلام، هي تلك التي بناها الخليفة العباسي (هارون الرشيد) فوق ضريح الإمام علي رضي الله عنه، بالنجف، وذلك بعد عام ١٧٠هـ، وقد ظهرت عمارة الأتابكة والزنكيين، وشهدت عمارات التربة والقباب أوج ازدهارها في العصرين الأيوبي والمملوكي، وصارت أكثر غنى وترفاً معماريين، نتيجة

الاستقرار الذي ساد إبان هذين العهدين وولع السلاطين ونوابهم بإضفاء لمسة العظمة على أنظمتهم.

تواصلت رحلات الدكتور (الشهابي) ما بين هذه المشيدات وعكف شهوراً يدرس تواريخها والترميمات التي أقيمت عليها، وصور زخارفها ونقوشها وكتاباتهما لتكون هذه الصور (وثيقة حقيقية لا جدال فيها لبيان الشكل الواقعي للعمائر التي استمر تواجدها إلى اليوم.

جاء الكتاب في ٦٧٨ صفحة من القطع الكبير، وضمت فصوله : تاريخ التربة عبر العصور وخصائص عمارتها في كل عصر، منذ الأمويين وحتى عصرنا، واشتمل الكتاب على صور ملونة لـ ١٦٠ تربة وضريحاً ومدرسة مشيدة، إضافة إلى ١٧ تربة مجبولة، لم تتوفر لها المصادر والمعلومات، وألحق ذلك بتسعة مخططات توضح مواقع هذه المشيدات في المدينة.

بوابات دمشق:

يتابع الدكتور (الشهابي) حكايته الممتعة بانفعال جلي:

- لقد ظل شعور عجيب مفعم بالخشوع والإجلال، يمرور في داخلي، بعد صدور هذا الكتاب، وكنت أحس كلما مررت بأبواب دمشق المهيبة، بأي أعير من بوابات التاريخ وأسمع صهيل الخيول، وقرع الطبول، وصليل السيوف، وأشهد بعيني تقدم الغزاة وصمود الفاتحين ... تدافع أقوام، وتنوع أعراق، وغرابة ألسن، وتناقض أنساب ... بلى وأشهد ملاحم وأساطير وأهازيج انتصار ... لقد اختصرت لي أبواب دمشق التاريخية، حكاية صمودها، ودفاع رجالها الميامين عن حياضها، ورأيت بألم عيني - وكأنني أقرأ في كتاب مفتوح - خالداً وأبسا عبدة ويزيداً وشرحبيل وهم يدخلون (دمشق) تحت رايات التوحيد، وكنت أسأئل بعجب:

- ولماذا لم تثل هذه البواب حقها من اهتمام المؤرخين، ولماذا مروا عليها مر

الكرام، ولم يلحظوا أهمية دورها في حماية وجودهم، أيام الحملات والشدائد والغزوات؟ وأدركت أن المهمة تنادينني، فتأبطت أدواتي مرة أخرى، وقضيت سنتين في عمل لا يكل، كنت خلالهما مقيماً عند تلك الأبواب، أصور كل نقطة وفاصلة، وأدرس كل حرف وكلمة خطت عليها، رسمت مخططات، وخرائط وصورت التفاصيل الدقيقة، ونقلت التواريخ، حتى أنجزت كتاب (أبواب دمشق، وإحداثها التاريخية).

زخارف العمارة الإسلامية:

ويقول الدكتور (الشهابي) : حول بحثه (زخارف العمارة الإسلامية في دمشق) (إن الفنان المسلم، اتجه إلى رسم الطبيعة، التراماً منه مبدأً منع تصوير كل ذي روح، فكانت الأشجار والنباتات والأزهار، ملهمه الأول، لإبداع تكوينات تجريدية وجمالية وزخرفية، من تشجير وتوريق وتزهير، وكذلك الأشكال الهندسية، والخط العربي، وقد برع هذا الفنان في إخضاع تشكيلات الزخارف وتطويعها لتتلاءم مع حسه الجمالي، ولم تطويعه هي، فكانت مدرسة الرقش العربي، أو فن الزخرفة العربي الذي يعتمد على توازن عناصر المساحة واللون والخط، ترابطها وانسجامها، والذي يطلق عليه في أوروبا، اسم: الأرابيسك.

وقد انتشرت الزخرفة كوسيلة وهدف في عمارات العصر الأموي (جامع بني أمية الكبير) وأمثاله، ثم ظهرت جلية في العهدين السلجوقي والمملوكي، وبلغت أوجها في الأشكال والتكوينات المتنوعة، ما بين قباب مقرنصة، وحجارة مزركشة، ومداميك حجرية متناوبة الألوان، وتيجان الأعمدة والفسيفساء الرخامي المشقف والملون، وكذلك الرنوك، واستخدام الجص والخشب والرخام والحجر والحشو بالصدف.

أوابد دمشق:

لا أحد في دمشق يعرف - على وجه التأكيد - ماذا تخبئ جعبة المؤلف من حكايات وأخبار تاريخ مدينة دمشق ولكنني عرفت مؤخراً أن المطبعة تدور الآن لتخرج مؤلفه الجديد : (النقوش الكتابية على أوابد دمشق) لينضم بدوره إلى قائمة مؤلفاته الجميلة.

طويت أوراقه، مستعداً لوداع الشهابي ولكن سؤالاً أخيراً ظل يلح على خاطري فأطلقته على عجل:

- أنت طبيب ورسام، ومصور وباحث ومحقق، وكل واحد منها عالم قائم بذاته، فكيف تستطيع أن توائم بين هذه العوالم كلها دفعة واحدة؟
رد الشهابي بابتسامة رضا:

- سئل (روبنس) سفير بريطانيا بباريس، وكان فناناً شهيراً:
- هل يلهو سيدي السفير بالرسم ؟ فأجاب لا ... ولكنني ألهو بالسفارة.

والحقيقة أن كوني طبيباً وفناناً وباحثاً، أمر يقع في إطار العطاء الإنساني الفكري.. إن الطبيب بحاجة إلى الفن لينتج ويعالج بطريقة سليمة، ويحتاج الفنان كذلك للطب، لأن الفن عمل فكري قبل أن يكون إبداعاً عاطفياً كما يروجون والفنان الذي يملك الثقافة قادر على معالجة الأمور لونياً وشكلياً أكثر ممن لا يملكها.

الدكتور فتية الشهابي في سطور:

- مواليد دمشق ١٩٣٤م، - باحث في التراث.

مؤلفاته المنشورة:

- دمشق تاريخ وصور، ط١ وزارة الثقافة ١٩٦٨، ط٢ مؤسسة النوري بدمشق ١٩٩٠.
- هنا بدأت الحضارة (سورية تاريخ وصور)، دار الأبجدية بدمشق ١٩٨٨.
- أسواق دمشق القديمة ومشيداتها التاريخية، وزارة الثقافة ١٩٩٠.
- مآذن دمشق القديمة (تاريخ وطرز)، وزارة الثقافة ١٩٩٢.
- معجم ألقاب أرباب السلطان في الدول الإسلامية، وزارة الثقافة ١٩٩٥.
- مشيدات دمشق زوات الأضرحة، وزارة الثقافة ١٩٩٦.
- معالم دمشق التاريخية (بالمشاركة)، وزارة الثقافة ١٩٩٦.
- أبواب دمشق وأحداثها التاريخية، وزارة الثقافة ١٩٩٦.
- زخارف العمارة الإسلامية في دمشق، وزارة الثقافة ١٩٩٧.
- النقوش الكتابية في أبواب دمشق - وزارة الثقافة ١٩٩٧.
- دمشق الشام في نصوص الرحالة والجغرافيين - وزارة الثقافة - جزءان ١٩٩٨.
- صمود دمشق أمام الحملات الصليبية - وزارة الثقافة - ١٩٩٨.
- طريف النداء في دمشق الفيحاء - جزءان - وزارة الثقافة ١٩٩٨.
- معجم الآثار السورية - وزارة الثقافة - ٢٠٠٦.

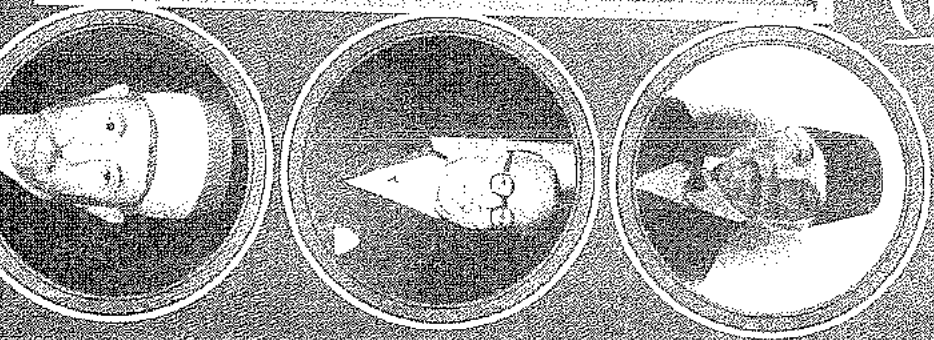


اعلام و مثال علم

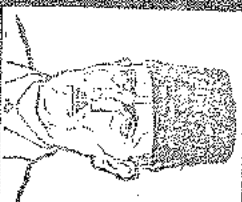
عبدالله بن محمد بن عبدالحق

عبدالله بن محمد بن عبدالحق

عبدالله بن محمد بن عبدالحق



د. عبدالرشيد كاتر



عبد الغني العطري :

بعد نصف قرن طويت صفحات العطاء والوفاء وبالبسمة المشرقة

يقترن اسم (عبد الغني العطري) بلقب شيخ الصحافة في سورية وذلك حق، لأن مسيرته الطويلة في عالم الأدب والصحافة، قطعها بحماس وانسداد كبيرين، وأعطاهما من عمره ودأبه ما لم تعطه غير قلة من أرباب الفكر والقلم. فأصدر مجلة الدنيا، وقبلها الصباح اللتان كانتا ملتقى أسبوعياً يتبارى فيه أعلام الأدب والفن لتتويز الناس... وظل صاحبها طوال خمسين عاماً مخلصاً للكلمة وفياً للمبدأ، وحين توقفت الدنيا لم يطو الرحالة شراعه ويستريح، بل تابع رحلته في إصدار المؤلفات وإلقاء المحاضرات بنفس العزم والروح الوثابة. وكان في مرحلة دراسته الثانوية، حين بدأت كتاباته وقصصه المترجمة تظهر في أشهر المجالات العربية، وطاب له أن يدخل إلى (قاعة المؤلفين) في المكتبة الظاهرية ليتصفح بعض الكتب النادرة والمخطوطات ولهذا طلب من مدير المكتبة - وكان يومها (يوسف العش) - بطاقة تخوله ارتياد القاعة، فنظر له المدير باستخفاف، ودار بينهما الحوار:

- هذه القاعة مخصصة للمؤلفين وليس لصغار السن يا بني...

- ولكنني أيضاً من الأبناء، وأكتب وأنشر في المجالات...

- وأين تنشر حضرتك؟

- في مجلة (الرسالة) المصرية..

- في (الرسالة) مرة واحدة؟

- نعم يا أستاذ وسأوافيك غداً بعدد من المجلة لتحكم بنفسك..

وبالفعل قدم الفتى في اليوم التالي لمدير المكتبة نسخة من مجلة الرسالة، وفيها

قصص مترجمة تحمل اسمه وتوقيعه ... فما كان من المدير إلا أن سلمه بطاقة

تخوله دخول قاعة المؤلفين.

يسرد (عبد الغني العطري) تلك الواقعة بمتعة غامرة، ويستعيد تفاصيل حياته المثيرة فيما مضى من أيام العمر ... خلال تلك الفترة المبكرة من حداثتي، كانت الصحافة قد استهوتني وملكت علي فكري، فرحت أطلع الصحف اليومية والمجالات الفرنسية بنهم عجيب، وكتبت للمجلات العربية، فما أنهيت المرحلة الثانوية حتى كان اسمي يتردد في المطبوعات الشهيرة في ثلاثينيات القرن الماضي وبينها: (الرسالة للزيات) و(المكشوف اللبنانية لفؤاد حبيش) عام ١٩٤١، ثم حققت مغامرتي الكبرى باستئجار امتياز جريدة متوقفة عن الصدور، وخرجت بالعدد الأول من مجلة الصباح عام ١٩٤١، وكانت مفاجأة للمتقنين ورجال الصحافة، بما تضمنته من مواضع ومقالات للأعلام الأدياء والشعراء العرب، الذين قدموا روائع إبداعهم الفكري، وقد تألفت على صفحات المجلة أسماء: محمود تيمور، زكي مبارك، علي أحمد باكثير، سهيل أدريس، عبد السلام العجيلي، بدیع حقسي، فؤاد الشايب، عدنان مردم بك، نزار قباني وغيرهم...

ويواصل (العطري) حديثه مضيئاً تلك الفترة من نشاطه الصحفي، ثم يترى ليعلمني بأن المجلة واصلت صدورها متألقة لمدة سنتين كاملتين، توقفت بعدها عن الصدور لظروف القاهرة، وهو ما اضطره للعمل رئيساً للتحريير بصحيفة الأخيار الدمشقية التي كان يصدرها (يسيم مراد) ومن ثم للتنقل بين فلسطين والأردن لتقديم أحاديث في إذاعة القدس، ومحاضرات في النادي الثقافي بعمان.

ثم جاءت الخطوة الرائعة الحاسمة: صممتُ على المغامرة مجدداً، وقررت أن أصدر أرقى مجلة عرفت (سورية) في حينه وكان ذلك إبان الحرب العالمية الثانية، حين منعت السلطات المستعمرة ترخيص الصحف، كما كان الورق غالباً ونادراً، لذلك سموه الذهب الأبيض لكن حماسي للمشروع كان طاغياً، فاشترت بمبلغ حصلت عليه من بيع أرض الأسرة، امتياز جريدة الوطن اليومية، بمئة ليرة ذهبية، وحولتها إلى مجلة أسبوعية جامعة باسم (الدنيا).

منّت (الدنيا) وثبة كبيرة في الصحافة الأسبوعية السورية وخرجت المجلة بحلة جديدة، وإخراج راقٍ ومضمون ثرٍ وبسعر زهيد حملها خسائر كبيرة مع كل عدد جديد، مما اضطرها للتعثر مرات عديدة لكنها كانت تعود وتنهض أقوى واشدد عنفواناً، فلما ألغيت امتيازات الصحف مع الانقلاب العسكري الأول عام ١٩٤٩، استتيت مجلة الدنيا وبقيت المجلة الوحيدة في البلاد، وهو ما أتاح لي إصدارها بشكل متميز إخراجاً ومضموناً، وأتاحت لقراءها فرصة المشاركة في تحرير أبوابها، وبمسابقاتها المتكررة، فما لبثت الدنيا أن حققت رواجاً كبيراً وانتشاراً لم تعرفه أرقى الصحف أيامها، وتوالت على سورية الأحداث السياسية، وانعكس ذلك على المجلة فالغي امتيازها عام ١٩٥٨ لفترة لم تطل، ثم عادت للصدور عام ١٩٦١، لتتوقف نهائياً عام ١٩٦٣ مع إلغاء امتيازات كافة المطبوعات.

رحلت للملكة العربية السعودية، وعملت في وزارة الإعلام مستشاراً، ورئيساً لتحرير مجلة الإذاعة ونشرت مقالاتي الأدبية في مطبوعات المملكة ... ولما عدت لدمشق تفرغت لنشر مقالاتي في المجلات الثقافية العربية وأصدرت في تلك الأونة كتابي "أدينا الضاحك" الذي ضمّته أجمل ما في تراثنا العربي من طرائف وحكايات، وأتبعته فيما بعد بكتاب (دفاع عن الضحك) ثم عبقریات من بلادی وهو الأول في سلسلة مؤلفات ألفت الضوء على سير أعلام الفكر والفن والصحافة والسياسة في سورية.

وحفرتني الاستقبال الرائع الذي حظي به ذلك الكتاب على إصدارات مجموعات في ذلك المضممار بلغ عددها إلى اليوم ست مجموعات. أما آخر مؤلفاتي فكان (اعترافات شامي عتيق) عرضت فيه حكايات واقعية، وصوراً لطيفة للحياة الشعبية، تستطيع أن ترى فيها وجه دمشق الحقيقي في القرن الماضي... وكانت من بين الحكايات الحكاية التالية: مع النسوان في حمام السوق: "كانت أمي تحب حمام السوق كثيراً شأنها بنات الشام، وتستعد له قبل يوم، فتتهيء بفتح الثياب النظيفة المعطرة بالصابون الحلي، كما تعد أطايسب الطعمام

والفاكهة، وكانت لفرط محبتها لي تصر على اصطحابي معها كي تفرك لي ظهري، وتليقني بليفتها الخاصة مرتين بعد أن تغسل رأسي بصابونتها الحلبية المطيبة نسلات مرات، ثم تسمح لي أن أجلس على المسطبة لأستريح بعض الوقت، ريثما تنتهي من حمامها..

وأخر مرة صحبتني فيها أمي لحمام السوق، وكنت في السابعة من عمري، وهناك تصدت لها امرأة قاتلة بغضب كبير:

- شو جايبة معك، رجال لحمام النسوان ... موحرام عليك؟

أجابتها أمي بهدوء:

- يه... شو ها الحكي، والله بعدو طفل صغير.

فردت المرأة بخبث واضح:

- إذن ثاني مرة ابقى جيبني أبوه معك كمان...

وبعد هذا الحوار، لم أعد أعرف حمام السوق ولا حمام النسوان ... كانت تلك آخر مرة..

استغرق حوارنا ساعة وبعضها، من الدقيقة التي انتشلت فيها (العطري) من بين أكوام الصحف والمجالات على مكتبه، فلما هممت بطيء أوراقني لوداعه، سألته عن مشاريعه القادمة، فأجاب:

نشرت مؤخراً كتابي: (بخلاء معاصرون) وهو مجموعة حكايات عن بخلاء معاصرين عاشوا بيننا، وهي حافلة بالظرف والطرافة، وتلقي ضوءاً على حقبة من حياة المجتمع، وبالذات بعض شخصياته المعروفة بالبخل ... وطبعاً دون ذكر الأسماء ... أضف إلى ذلك ارتباطي بمقالين أسبوعيين لمجلة (فنون) وجريدة (تشرين) ومشاركتي بتقديم محاضرات ثقافية واجتماعية في المراكز الثقافية والمكتبات العامة، كما أتابع العمل في مؤلف جديد عن عبقریات سياسية وفكرية واجتماعية، أمل أن أنتهي منه قريباً ... لكن عبد الغني العطري سرعان ما ودّعنا طائياً الصفحة الأخيرة من مسيرة طويلة حافلة بالعطاء والوفاء والبسمة المشرقة...

اعترافات رمضانية

منذ أن تفتحت عيوننا على الحياة، وحب شهر رمضان مغروس في الصدور، لأنه الشهر الذي أنزل فيه القرآن، وهو شهر الطاعة والتوبة والمغفرة، وفيه ليلة القدر، التي هي خير من ألف شهر.

والحديث عن شهر رمضان واسع طويل، يعرفه كل مؤمن بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر.

منذ أن وعينا على الدنيا، في سن الطفولة المبكرة، ونحن نحب هذا الشهر، ونهيب النفس لاستقباله، ونروضها على تقبل الجوع، وأداء ما نعرف ونستطيع من واجبات دينية.

كنا نشارك الأهل بفرحة استقبال الشهر. كان أهلونا يستعدون لاستقباله استعداداً كاملاً: يغسلون ويغتسلون ويشطفون، وينظفون البيت تنظيفاً مضاعفاً، لأن عيد الفطر يقبل مع انتهاء رمضان، ولأن أعمال التنظيف والتعزيل ترهق الصائم، فهم يؤثرون القيام بها قبيل رمضان.

ومع أعمال التنظيف والتعزيل، والغسيل، يتفقدون "بيت المونة" وما يحويه من سمن وزيت وأرز، وبرغل وسكر. فإذا ما لمسوا نقصاً في بعض هذه المواد أو غيرها، بادروا إلى تداركها، وتأمين ضعف ما تحتاجه الأسرة منها في الأيام العادية.. لأن شهر رمضان، شهر الصيام والجوع من جهة، وشهر إكرام البطون الخاوية وتدليلها من جهات أخرى.. ولا بد من الاعتراف هنا، بأن أهل دمشق يعشقون بطونهم، ويؤثرون اللقمة الطيبة، على سائر ملذات الدنيا..

ومع "حفلات" التنظيف والتعزيل والتموين يأخذون بإعداد برامج موسعة للزيارات العائلية والتهنئة بالشهر المبارك. وبعضهم يعيد الحياة إلى حلقات الأصدقاء وتنظيم السهرات، التي تبدأ عادة عقب صلاة العشاء والتراويح، ولا تنتهي إلا مع بدء السحور.

ونقبل أخيراً ليلة الشك مساء التاسع والعشرين من شعبان ليلة التماس هلال رمضان، وهي تبدأ عقب غروب الشمس. هذه الساعات كنا منذ الطفولة، وما زلنا وسنظل نعيشها بكثير من الحيرة والقلق ... وتتساءل عما إذا كان رمضان سيهلّ الليلة بطلعته البهية، أم يأبى إلا أن يزيد في دلاله والشوق إليه، ويتأخر إلى الغد، ليكمل شعبان أيامه الثلاثين ... إنها ساعات قليلة في عددها، ولكنها كثيرة وطويلة لمن يعيشها، منتظراً شيئاً مهماً، أو جدّاً معيناً.

وما يكاد أول مدفع من مدافع إثبات الشهر يدوي في الفضاء، وقد يكون ذلك عند منتصف الليل أو بعده، حتى يتعالى صياحنا نحن الأطفال، بعد أن سهرنا طويلاً مع أهلينا بانتظار البشرى. ويطل الجيران، بعضهم على بعض، فيتبادلون التهاني والتبريك، والأمانى الطيبة للأهل والأصدقاء. وتفتح الأسواق من جديد، لتزويد الأهلين بما ينقصهم من جبن ولبن وقمر الدين ونقوع وغير ذلك.

مسحر رمضان:

ولشهر رمضان في الماضي البعيد، أيام الطفولة الضاحكة، ذكريات حلوة. ذكريات لا تمحى ولا تزول. ولعل من أحلى الذكريات، أننا كنا نحن أطفال الحي، وسائر الأحياء الدمشقية، عشاقاً للمسحر، الذي يحمل طبلته الصغيرة بإحدى يديه، وبين إصبعيه فانوسه الصغير. ويتأبط باليد الأخرى سلة كبيرة، تحوي مختلف أنواع الطعام، وقد اختلط بعضها ببعض، وصارت مضرِباً للسخرية بين العائلات، وعندما يخطئون، فيمزجون لوناً من الطعام بأخر، فيصفونه بأنه شبيه بطعام المسحر!.. كنا أيام الطفولة عشاقاً للمسحر، وطبلته، وفانوسه، وسلة طعامه الكبيرة .. وقبل هذا كله، كنا عشاقاً لقصصه الخرافية، التي يرويها لنا، بعد أن نغرقه بإلحاحنا، ونمطره بتوسلاتنا. كان المسحر يتقن رواية الأساطير، ولا سيما أنه كان وهو يرويها ينقر على طبلته نقرتين، بين كل جملة وأخرى. كنا نجد كل السعادة بسماع هذه الأقاصيص الخرافية، ونجد في سماعها متعة لا تعدلها متعة. كنا نصدق ما يقوله في هذه

الأساطير. وما إن يفرغ منها، حتى نستعيدها منه، ونكرر إلحاحنا بطلب سماعها، أو سماع ما يمثّلها من جديد.

كان المسحر يأبى إلا أن يطوف، بعد مغرب كل يوم في جميع الأحياء، حاملاً سلته الكبيرة، وفانوسه ذا الضوء الهزيل، وطبلته الصغيرة. كان يقف أمام كل بيت طالباً الطعام بشكل مؤدّب ومهذب. كان يقرع على طبلته مرتين ثم يقول:

- كل سنة وأنتم سالمين.

ويكرر القرع على طبلته ثم يقول:

- وأولادكم سالمين.

ويقرع على طبلته للمرة الثالثة، ويقول:

- أحياكم الله إلى كل عام.

وتخرج إحدى سيدات البيت، حاملة إليه ما تيسر لديها من طعام، تتاوله إياه من خلف الباب، فيسكه فوق ما في سلته من ألوان الطعام، ويعيد إليها الأطباق، وهو يدعو لها ولصاحب البيت بالخير والبركة والرزق الحلال.

خلال ذلك، نكون نحن أطفال الحي، قد أحطنا بالمسحر من كل جانب، ونصيح

به متوسلين:

- عمو احكي لنا حكاية.. الله يخليك بدنا حكاية.

فينهرنا بشيء من اللطف وهو يقول:

- يا الله يا ولاد.. تركونا نعرف نتسبّب!.

فنكرر رجاءنا وإلحاحنا:

- دخياك يا عمو.. الله يخليك يا عمو... بدنا حكاية يا عمو!!

ويعود المسحر ليقول لنا بشيء من اللطف:

- الله يرضى عليكم.. تركونا نعرف نشوف شغلنا!

ومرة أخرى نكرر صياحنا وتوسلاتنا!

- بس هالمرة يا عمو... حكاية زغيرة يا عمو.. الله يخليك يا عمو!!

وهنا يصيح المسحر بشيء من التذمر والاستسلام:

- لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ويبدأ صديقنا المسحر حكايته، ثم يقرع على طبلته مرتين، بعد كل فقرة، ويروي لنا حكايته المشهورة:

- كمشت البرغوت وفركتو

عنفظ وجبلي ولاد اختو

ولاد اختو هالشجعاني

ألفين يطبلوا بالمطبال

وألفين يزمرؤا بالمزمار

هربت منهم عالتربة

لحقوني سربة .. سربة

أستعفر الله ما بكذب

أبو بريص رئيسها

والقط الأسود حارسها

أحياكم الله إلى كل عام .. يا كرام

حلويات رمضان:

وفي طفولتنا المبكرة، كنا نصوم إلى منتصف النهار فحسب، ونسمي هذا الصيام بسـ "درجات المادنة" .. أما من يستطيع متابعة الصيام إلى المساء، فكانوا يصنعون له سفرة خاصة تشجيعاً له، ويضعون له في أطباق صغيرة، ألواناً من الطعام التي يفضلها.

ويبقى الحديث عن حفلات الإفطار في رمضان، التي تقام للأهل والأصدقاء، وتقدم فيها مختلف ألوان الطعام الشهي، وكله من صنع سيدات البيت. وما إن يفرغ المدعوون من تناول طعامهم، حتى تحل مكانه الحلويات الفاخرة، التي يصفها أحد

الشعراء بقوله:

وكنافة محشوة بقطائف طافت بنا أكرم بها من طائف
شبهتها صفت على أطباقها بوصائف قامت بجنب وصائف

أو كما قال الشاعر الآخر:

وقطائف مقرونة بكنافة من فوقهن السكر المدرور
هاتيك تطربني بنظم رائق وبيروقتي من هذه المنظور

لم يكن أحد يستنجد في موائد رمضان السخية أو غيرها من الدعوات بالمطاعم أو الفنادق أو الأندية. كنا نشعر بأن الطعام الذي يطبخ في البيت أشهى، وألذ، وأنظف، وأرخص بكثير .. أما اليوم فقد تبدل كل شيء ... صارت سيدات معظم البيوت كسولات، لم يعد يطيب لهن الطبخ في البيت، صار استدعاء الطعام بالهاتف، من هذا المطعم الكبير، أو ذاك الفندق الضخم، أكثر راحة، وأضمن للوجاهة .. ولا مانع لديهن أن يدفع الزوج ضعف التكاليف ... ويكفيهن فخراً أمام الزميلات، أن الطعام وصل جاهزاً، وحسب الطلب، وفي الموعد المحدد ... ودون أي عناء.

والناس فيما "يأكلون" مذاهب...



كتبت القصة بروح المرأة، وحلقت في النقد والبحث وأدب السيرة والتزمت بالقيم الإنسانية بوعي من ذاتها وإحساس صديق بحاجات المجتمع

مرت اثنتا عشر سنة على رحيل الأديبة الرائدة السيدة "وداد سكاكيني" في اليوم الثالث من كانون الثاني عام ١٩٩١ المنصرم، ومضى نصف قرن تقريباً منذ أسعدتني الفرصة بلقاء الكاتبة القديرة لأول مرة، وكان ذلك إبان رحلة طلابية إلى القاهرة، أشرف عليها أستاذنا المفكر والمؤرخ الراحل د. شاكر مصطفى رحمه الله تعالى، وفي حفل أقامته وزارة التربية هنا، تحلقت كوكبة من رجال الأدب والإعلام في مصر، حول شخصيتين فكريتين مرموقتين هما الشاعر الأديب د. زكي المحاسني، مراقب البعثات العلمية والملحق الثقافي السوري بالسفارة، وعقيلته الأديبة والناقدة وإحدى رائدات السيرة والقصة العربية السيدة وداد سكاكيني... وراح الحضور يشيدون بأدب الزوجين، ويثنون على ما صدر لهما من أعمال أدبية، كان جديدها أيام ذاك كتاب الدكتور المحاسني "شعر الحرب في أدب العرب" وكتاب "العاشقة المتصوفة" للأديبة سكاكيني، وقد استقبل المثقفون والأدباء كليهما بحفاوة واهتمام كبيرين، وصار الأديبان ملئ السمع والبصر في سائر الأقطار العربية، وقد توالى صدور أعمالهما المتميزة التي تفردت في مواضيعها، وسدت فراغاً كبيراً في المكتبة العربية.

ولدت "وداد سكاكيني" بمدينة صيدا جنوب لبنان، ونشأت وتعلّمت في بيروت، وكان منذ حداثتها متفوقة في تعليمها، متعشقة للغة العربية، وكان أستاذها الشيخ مصطفى الغلاييني بوجهها لحفظ القرآن الكريم قائلاً: "إنه قاموس الفقراء يعلم اللغة والبيان والدين والتاريخ" وأجادت "وداد" الكتابة فأنشأت مجموعة مقالات أدبية

وخواطر جمعتها، فيما بعد، في باكورة نتاجها "الخطرات" الذي نال رضي العلامة الغلاييني، وأشاد به في مقالة له، وما لبثت الكاتبة أن شقت طريقها إلى مجلات الثقافة الرائدة في سوريا ولبنان ومصر، حيث نشرت مقالات أدبية وقصصاً قصيرة، بدا فيها نبوغها وإبداعها المبكرين.

في العام ١٩٣٧ شاركت "وداد سكاكيني" في مسابقة القصة القصيرة لمجلة "المكشوف" البيروتية، وكانت في عداد نيف وستين كاتباً وأديباً، عرضت مشاركاتهم على لجنة محكمة تكونت من رجال الفكر والقلم الأعلام: عمر فاخوري، توفيق عواد، فزاد البستاني، خليل تقي الدين يوسف غصوب، وعبد الله المشنوق، وفازت قصتها: "الشيخ حمدي" بالجائزة الأولى، وترافق ذلك مع اقترانها بالأديب الشاعر "د. زكي المحاسني" لينطلقا معاً في مسيرة فكرية مثاقفة، وقد توسم فيها علامة دمشق "محمد كرد علي" خيراً واعدأ فرعاها بتوجيهه، وأضاف إلى محصلتها ما كان تأثرت به من أساليب أساطين الأدب: طه حسين والرافعي والزيات فشع أدبها باللفظ الجميل، والصورة المعبرة، والأسلوب الأنيق، وتكاملت لها عناصر الأدب الرفيع، ومقومات العطاء الفكري الخلاق.

انطلقت الكاتبة مع زوجها إلى القاهرة وأقاما فيها اثني عشر عاماً، فسنت لها الفرصة للاتصال بالمفكرين الأعلام: طه حسين، العقاد، تيمور، المازني، الزيات والحكيم، وغيرهم، وتألقت نشاطها الأدبي مشاركة في الندوات والمؤتمرات الثقافية وإطلاعا على ذخائر التراث، وتألقت في إنتاجها الأدبي المتنوع، الذي توزع بين مجموعات قصص قصيرة مثل: "مرايا الناس" التي استلهمتها من أحوال الناس في مجتمعها الدمشقي، وتفوقت في تصويرها الفني للحياة الاجتماعية، والتحليل النفسي لأبطالها الحقيقيين.

أما مجموعتها الثانية فكانت "بين النيل والنخيل" التي عكست صوراً عن حياة المجتمع المصري بأجمل تفاصيلها ولطف مشاعرها، ونشر لها نادي القصة بمصر مجموعة جديدة بعنوان: "الستار المرفوع" اعتبرها النقاد لونا من الأدب الرفيع

وقد كتبت لها الشاعرة الرقيقة "فدوى طوقان" إثر ظهور الكتاب: "صدقيني، لقد انتزعت - من زمن بعيد - أعماق إعجابي، فأنت تكتبين دائماً بروح المرأة وقلبها وإحساسها، وهذا في نظري أهم عناصر الإبداع الإنساني:

كما بادر الأعلام من الأبناء والمتقنين لاعتبارها ركناً من أركان الأدب العربي الحديث، ورائدة من رواد الفكر المستنير، فهذا عميد الأدب العربي "د. طه حسين" يقول في مقال له: "اقرأوا هذه الكاتبة بروية، فهي مجلّبة في باب البحث وأدب السيرة" وهذا "د. محمد مندور" الناقد المشهور يكشف عن منهجها في الإبداع فيقول:

"بالرغم من "وداد سكاكيني" كتب القصة والرواية، قبل أن تشيع عالمنا العربي فكرة الالتزام بالأدب آتية من أحدث المذاهب الأدبية في العالم، لكنها اهتمت إلى هذه الفكرة في أدبها، بوحى من ذاتها وإحساس صادق بحاجات المجتمع العربي، وكما عرفها القراء روائية وقصصية ملتزمة بالقيم الإنسانية الرقيقة، عرفوها أيضاً في مقالاتها ناقدة ملتزمة أيضاً".

وكان في عداد اهتمامات الكاتبة الراحلة مجال أدبي آخر، حققت فيه نجاحاً مشهوداً، وهو مجال النقد الأدبي والترجمة الأدبية، فتناولت بالدراسة سير شخصيات مرموقة في عالم الفكر، وجمعتها في كتابها: "شعيرات من الشرق" وعادت فأضافت إليه مجموعة شخصيات جيدة لتصدر في آخر مؤلفاتها "سابقات العصر: وعياً وسعياً وفناً"، وقد اشتمل على سير خمس وخمسين شخصية نسائية عربية جمعها العمل الفكر والاجتماعي لخدمة قضايا الوطن الكبرى. وأقررت المؤلفة الصفحة الأخيرة لتحكي بتواضع شديد سطوراً من ملحمة حياتها الرائعة، التي تتلخص في حكاية عمل دؤوب ومشرف أعطته الكثير من روحها ووجدانها. ورحلت "وداد سكاكيني" في مطلع عام جديد بعدما أضاعت طريقاً طويلاً لقادمين بعدها.. ولكن موقعها ظل شاغراً..

المصادر:

- وداد سكاكيني: سابقات العصر.
- رائدة الأدب العربي سماء زكي المحاسني/الأسبوع الأدبي.
- الرائدة في السيرة والقصة: جان الكسان/المجلة العربية.
- رائدة الأدب النسائي: عبد الغني العطري/عقريات وأعلام.

راضت نفسها على طلب المعارف في بطون الكتب دون أن تزدهيها بوارق النجاح أو تسكرها نشوة التقدير

إذا كانت القاعدة التي يقاس عليها الأديب هي قدرته على الإتيان بجديد مبدع، وامتلاكه ناصية البيان لبصوغ الأثر البديع في قالب أدبي رفيع، فإن وداد سكاكيني هي في الطليعة من كبريات الكاتبات المعاصرات، ولعلها تتقدم على كثيرات من حاملات الألقاب الجامعية، وكثيرات غيرهن من اللاتي ذاع صيتهن وشغلن الرأي العام على نحو أو آخر.

فمنذ ما انتضت وداد سكاكيني قلمها وهي بعد في طليعة الشباب، كانت مأخوذة في جميع أثارها القلمية بقاعدة الأسلوب والفكرة، فلا تتزخض في أسلوبها بل تجاري فيه أعلام البلاغة كالجاحظ وعبد الحميد للكاتب وابن العميد، ولا تستهويها الفكر السطحية، وإنما تتشغل بجلائل الأفكار وأمهات القضايا دون أن تضحي في أسلوبها وفكرتها بالملاحج الأنثوية الكريمة والأصيلة فيها.

وداد سكاكيني صانعة نفسها، فقد نالت من العلم المدرسي حظاً غير موفور لكنها تعلمت على السلف الصالح، ولا سيما الشيخ مصطفى الغلاييني الذي اكتشف موهبتها ورعاها وشجعها على الاعتراف من موائد الأدب حتى منكت عليها هوية الأدب جميع حياتها، وبدأت مع ريق الصبا تعكف على مطالعة أمهات الكتب في الأدب العربي، وترجمات الآثار الغربية الباقية، حتى إذا تكاملت لها ثقافة ثرة من حصول هذه المطالعات جربت حظها في الكتابة، وإذا الطريق أمامها مسهدة، والشهرة على الباب، ولكنها مع ذلك راضت نفسها على المضي في طلب المعارف في بطون الكتب وفي غمار الحياة، دون أن تزدهيها بوارق النجاح المواتية، أو تسكرها نشوة التقدير التي صاحبت أول ظهورها.

ولئن عرفت وداد سكاكيني في الخافقين العرب، بانشغالها بالأدب، فلم يكن ذلك منها احترافاً يؤودها بباطل الثمن، بل كان هواية تتخلل حياتها الدارجة كزوجة وأم

وربة بيت، فلم يُعرف عنها أنها أذعنت لمطالب المطبعة الملحة، ولا أنها اشتغلت بالكتابة الصحفية اليومية التي تعدو على العمل الأدبي بما تفرضه على الكاتب من سرعة ولهفة، ولكنها كانت تسيخ دائماً إلى هاتف القلم كلما ناداهما من خلال هموم الحياة، فتخلو إليه، وقد تتركه إلى حين تتفرغ إلى إعداد طعام الأسرة، أو تفرغ إلى طفل مريض لا يجد لحنان الأم بديلاً.

وإن المنتبج لأثار وداد سكاكيني لا يعيبه أن يصنفها في أبواب خمسة هي: القصة، والترجمة للأعلام، والنقد الأدبي، والدفاع عن قضايا المرأة، والدين.

فلها في القصة مجموعات عنواناتها: (مرايا الناس) و(بين الذيل والنخيل) و(الستار المرفوع) و(الحب المحرم) و(أروى بنت الخطوب) و(نفوس تتكلم) و(أقوى من السنين) ولها في النقد: (نقاط على الحروف) و(سواد في بياض) و(شوك في الحصيد).

ولها في السيرة: (نساء شهيرات من الشرق والغرب) بالاشتراك مع تماضر توفيق، و(قاسم أمين) و(مي زيادة في حياتها وآثارها) و(عمر فاخوري أديب الإبداع والجماهير) و(العاشقة المتصوفة) و(سابقات العصر)، ولها في الدفاع: عن المرأة (إنصاف المرأة).

ولها في الدين: (أمهات المؤمنين وأخوات الشهداء) وقد بدلت عنوانه في طبعته الثانية إلى (أمهات المؤمنين وبنات الرسول)، ولها كتاب مخطوط عن (مصر كما عرفتها).

وهي في جميع ما أخرجت من مصنفات اندرجت تحت الأبواب الخمسة السالفة الذكر تعرف أنها كاتبة أنثوية، فتنير تلك السمات الأنثوية في كل ما تخطه على الطرس. ففي القصة نراها جادة في تصوير منازع المرأة وأشواقها في جميع مراحل حياتها، وفي النقد نرى وداد راصدة لجميع آثار المرأة، تعالجها بالتقويم والتقييم غير تاركة كاتبة واحدة دون أن تقول فيها كلمة صادقة لا تخلو من صراحة، وقد تكون صراحة جارحة إذا ما اقتضى المقام ذلك، وفي السيرة نرى

وداد سكاكيني معنية بالسير الملهم للنساء الماجدات، أو الرجال الذين كان لهم في مناصرة المرأة فضل مقدور، فليس أحب إليها من أن تجلو للناشئة صوراً ناصعة من حياة الرائدات في كل إصلاح، والعاملات عملاً باقياً، وما أقدرها في استصاف العبر واستخلاص الدروس من كل سيرة تسجلها بقلمها الصنّاع.

على أن الأئوثة الكريمة في وداد سكاكيني لم تكن لتنتهاها عن خوض المعارك الأدبية بفروسية نادرة، وكان بعض هذه المعارك مع لدات لها من الكاتبات، وكان بعضها الآخر مع فحول من كبار الكتاب، ولم تكن تحدوها في تلك المعارك رغبة في المخالفة ابتغاء إثارة الغبار واجتذاب الأنظار، وإنما كان الصدق حادياً، والحق العلمي رائداً، والسمو الخلقي عاصمها من العثار ومبغاهاء، فلم تكن معاركها شخصية في جوهرها، وإنما كانت تدور على محور قضية عامة من مؤداهها الانتصاف للقيم، ولعل أكبر معارك وداد سكاكيني هي معاركها في سبيل إحقاق حقوق المرأة الكاملة، لا لكي تتطلق في رحاب الحريات بغير حد، بل لكي تكتشف المرأة ذاتها، وتضطلع بدورها الأصيل في خدمة الأسرة والجماعة مراعية قواعد الاحتشام، حريصة على أقداس أنوثتها وخصائص جنسها، فإذا دعت إلى مساواة المرأة بالرجل، فإنها ترفض الاسترجال الذي يحول المرأة إلى مسيخ منبوذ، وإذا طالبت بحق المرأة في أن تشغل بالحياة العامة، فما ذلك ابتغاء التعاون طرد الرجل من مجالي الحياة، بل ابتغاء التعاون في جو من المودة المتبادلة والكرامة المرعية، وإذا نادى بأن للمرأة أن تجهر بعواطفها وتكشف عن أهواء قلبها، فما ذلك عن تبادل بل عن رغبة أكيدة في صون أركان البيت ودعم قواعد الأسرة، فالسفور عند وداد سكاكيني هو سفور عاقل يزيل الجفوة بين المرأة والرجل، ولكنه لا يرفع الكلفة بينهما بغير حساب.

ولقد بلغ من غيرة وداد سكاكيني على قضية المرأة أن خصتها بكتاب برأسه عالجت فيه هذه القضية بواقعية العصر ومنطق العقل، كما تناولت سيرة قاسم أمين ببحث كبير اعترافاً منها بأياديه على حرية المرأة، وإلى هذا وذاك أشادت بكثيرات

من الناهضات بالمرأة، وفي طليعتهن هدى شعراوي وروز أنطون حداد، فأُنصفت فيهما كفاحاً دافعاً عن المرأة وحقوقها وقيمتها في المجتمع، ودفعت عن بنات جنسها جحوداً تلقاء المجاهدات في سبيل التحرر الكريم للمرأة العربية الشرقية.

ولوداد سكاكيني أسلوب بياني ناصع يتميز عن جميع أساليب الكتابة التي تجري عليها الكاتبات المعاصرات، ولا أكاد أستثني منهن واحدة، فهو أسلوب يستمد رصانته من فحولة الضاد، ويستقي رشاقته من سلاسة البلاغة، ويتدفق على قلمها كأنه ماء نمر عذب، فألفاظها مستقرة في السياق، لا تتلعل ولا تتضجر، ومعانيها مصوغة في قالب يجمع بين جمال الأداء وبلاغة التعبير النافذة إلى صريح المعنى، ولها بصر بفنون الكتابة يقىها سوءات اللحن ومزلق الخطأ، ولها قدرة على التصوير بالقلم تبرز التصوير بالريشة لدى أعلام المصورين، وهذه البلاغة الأخاذة كثيراً ما تصرف قارئ وداد سكاكيني عن متابعة أقاصيصها، لأن فتنة الألفاظ تستهوي العقل فتباعد بين العاطفة والانفعال السريع في معرض القصص المسرودة، ولهذا أراني إزاء بهرة اللفظ أعيد قراءة القصة وأستعيدها في تلاوة ثالثة حتى لا تفوتني بادرة من بواردها أو لفظة من ذكي لفتاتها، فلكن أقاصيص وداد سكاكيني عرائس ساييات ألبس ثياباً من غالي الحرير، فالعين لا تملك إلا أن تربغ بين فتنة الجمال وفتنة الشباب، ولا يد إذن من إنعام النظر وإطالة التحديق حتى يتأتى للعين أن تلملم أطراف الصورة بكامل بهائها وفائق روائها.

فها هي وداد سكاكيني تصور بطله إحدى أقاصيصها، وتسجل ما ظهر وما خفي من مشاعرها فتقول: (لقد استبدت الكهولة (بهاجر)، والرجل الذي يملأ خيالها ويلم بها في أحلامها بنجوة منها، لم تبعث به الأقدار إليها، إذ كانت تعبت بشبابها الريان وقلبها الضمآن، فظلت غريزتها حية مكبوتة لا تسمع نداءها الملحاح، ولا تعبر عن شعورها المبهم، فتخامرها ذلة الأيمة لا ينقذها منها إلا صوت العقل وأنفة الطبع، ثم خوف السماتة من الأهل والأتراب، إذا حاولت أن تنفس عن صدرها هذا الهم الدفين الذي ينقل على روحها، وما همها إلا الرجل الذي توزع على حواسها

جميعاً، فصارت ترى شبحه خافقاً في يقطتها وفي منامها، وتتوهم صوته وهو يداعبها ويلقي في سمعها أعذب النغمات).

استطاعت وداد سكاكيني في هذه الكلم القصار أن تصور بعمق واقتدار، بل ببراعة معجزة، انفعالات امرأة تعاني من العنوسة، توزعت عواطفها بين رغبة ورهبة، بين ذلة وأنفة، بين واقع وحلم، بين إقبال وإدبار، وقد رسمت هذه الصورة بجمهرة من خيرة الألفاظ احسنت انتقاءها ببراعة الصانع النقاد، فلم تفلت منها لفظة خسيصة المعنى، ولا انفرطت من عقدها المنظوم حبة نابية ناشزة.

كذلك تبده القارئ في اسلوب وداد سكاكيني سهولة مأتاه وقرب معانيه، فلا غموض يسربل الألفاظ، ولا رمز يغلف العبارات، وإنما هو السهل الممتنع عن كثيرين من كرام الكاتبين، وإن لم يمتنع عن أستاذية الكاتبة وداد سكاكيني، أضف إلى ذلك أن القلم الشريف الذي تحمله هذه الكاتبة قد جنبها كل مبتذل من المعاني والألفاظ، فهي أبداً مترفعة عن السوقية، عارفة أنها تستطيع أن تصل إلى كل معنى متوسلة إليه بعفة اللفظ وشرف الأداء.

وهذه العفة في الأسلوب إنما تمتاح من معين العفة الخلقية التي نشأت عليها وداد سكاكيني بتربيتها الدينية في بيئة محافظة في جنوب لبنان، ومن ثمة انطبعت جميع كتاباتها بطابع المحافظة، ولكنها محافظة على غوالي القيم وغوالي المثل، ولا غرو أن تجيء جميع السير التي كتبتها وداد سكاكيني دالة على عناحي الخير في الإنسانية، منصرفة عن منازع الشر بألوانها وأشكالها، فهي لا تكتب عن شخص إلا إذا ملأ بالفضائل نفسها، وبرهن على أنه خالق بعناية كاتبة مبرزة مثلاً، ولئن أنست في شخصية ما قصوراً أو عيباً، تجاوزت عنه بكياسة أو أشارت إليه تلميحاً أو روته تسجيلاً لحقيقة تاريخية، ثم ذهبت تبحث له عن تعليل مقبول أو تفسير يقوم له عذراً.

وإذا استوقفنا بيان وداد سكاكيني، فذلك لندرة هذا المستوى الرفيع في يومنا هذا، فقد استبدت بالكاتبين في عامتهم رغبة في مزاوله أيسر الأساليب وأبعدها عن

لغة البيان، حتى تساوت الأساليب جميعاً على أقلام الكتاب، ولم يعد في وسع المرء أن يميز بين كاتب وكاتب من حيث الأداء الأدبي.

ولكن وداد سكاكيني جعلت من بلاغة التعبير خصيصة ثابتة من خصائص شخصيتها الأدبية الناضجة، حتى قال عنها أديب من كبار أدباء لبنان هو المرحوم كرم ملحم كرم:

(لا أراني أسخو عليها بالمديح في قلبي إنها ذات بيان يكشف بهرجة عدد كبير من المنشئين الذاهب لهم في دولة القلم صوت بعيد، ففي أسلوبها بلاغة وجمال، ومتى بلغت المرأة هذا المقام الأدبي السامق، أضحت من الموهوبين، فجاز لها الطموح، وكانت ذات حق في التفوق، وقد ضارعت الرجل حيث توهم أن ليس للمرأة أن تجاريه).

ولئن قيل إننا نغلو في تقدير وداد سكاكيني ونجزل لها تقديراً يكاد يجعلها فوق النقد، فلست أبرئ نفسي من تهمة الإعجاب بهذه الكاتبة المجيدة التي عرفتها على امتداد سنوات طويلة، وقرأت لها معظم آثارها، ولا يضيرني أن أحيي معترفاً بأن أسلوب وداد سكاكيني طالعني في فجر حياتي بآيات التحدي، فاجتهدت في أن أحتذيه، وجاهدت في أن آخذ النفس بمثله عسى أن ترتفع أسهمي في أعين القارئ، وإذا كان شيء من عدوى أسلوب وداد سكاكيني قد نالني، فأنعم بهذه العدوى وأكرم، ولينتي كنت مستطيعاً أن استزيد منها فوق ما استزدت.

سئلت وداد سكاكيني مرة: لماذا أنت مفتونة بالأساليب البيانية؟

فأجابت: لأنني أعتقد أن الكتابة فن من فنون الجمال المتناهي، وإذا كان الرسام يتوخى أشد التدقيق في اختيار ألوانه وأصباغه وفرشاته ومناظره وسائر أدواته، متأنياً في إبداع ما يطيف بذهنه من لطيف الصور، فإن الأديب بدوره مجبور على أن يتأنى ويتأنق في إرسال أفكاره على الورق، حتى وإن طاولته المعاني وانثالت عليه الصور، فالأدب الأصل يقاس بنفاسته لا بحجمه بكيفه لا بكمه، بعمقه لا بوفرة ثرثرته، ولا ريب في أن الكاتب ذا الأسلوب أعلى مقاماً من الكاتب الذي

يطرد في كتاباته على كلام مكرور، وألفاظ معادة، ومعان مزجاة وصور سبق إليها أدباء تقدموا عليه، وإذا كان التطريز والوشى يغليان ثمن الثوب، فإن النصاعة في الديباجة الأدبية تعلي شأن الأثر المكتوب وترشحه للخلود إن كان ثمة خلود).

واستطراداً مع السليقة المحافظة التي فطرت عليها وداد سكاكيني، كان عليها أن تتجه للكثير من مذاهب الكتابة المعاصرة استكثاراً لها ونفوراً منها، ومن ثم رفعت عالي الصوت في مناهضة ألوان العبث التي تسلت إلى الأدب تحت أسماء منها اللامبالاة، وغير المعقول، والتجريد، والواقعية، وعدم الانتماء، والسفور العاطفي الفج، وازدادت ثورة وداد سكاكيني عندما تبين أن تلك المذاهب صادفت هوى في نفوس جلة من الأدبيات العربيات الطالعات، فانتضت قلمها وشتت عليهن حرباً عواناً فزعن منها وإن لم يرتدعن، وفي هذا قالت وداد: (لقد زعم الرجل بأن المرأة أقدر منه وهي أدبية على تصوير نفسها وعالمها، وصدقته المرأة، فاستجابت لدعوته متغزلة به تارة، وثارة ثائرة عليه باحثة عن حريتها التي اغتصبها منها، حتى انطلقت في حلقة مفرغة لا تدري كيف تدور فيها على ذاتها، وإذ بأقلام غثشة فجة تدوخها الدوامة الساغانية - نسبة إلى فرانسواز ساغان - ويستتهويها ثناء الرجل الذي يطالبها بأن تحيا على خاطرها وتعبر بقلمها عن خفايا هذه الحياة دون خجل أو تخوف، على ما يسمى بالنقايد التي صنعتها المجتمعات المتخلفة، إنه يريد أن تعري نفسها وحسها بيدها، وأن تتغزل به وبمفانيتها، فيسمعه منها ويقرؤه بأدبها، وإذا بهذا الأدب خرافات وسخافات).

والذي لا ريب فيه أن وداد سكاكيني في مجامع أقاصيصها قد استطاعت أن تصور المرأة أنق تصوير، فصورتها في أمومتها المجاهدة، وحنوتها المستسلمة، وصورته حياة الضرة والحماة والشيخة ولية الله، والمدرسة المتعالمية، والسادجة المتعاطمة، والعقيم المحرومة، والولود المنجاب، وصورتها في حياة الحریم وفي مقاصير الثراء، وصورتها في شبابها المنفتح وفي كهولتها الذابلة وفي شيخوختها الفانية، وصورتها في سعادتها وعذابها، في آمالها وفي خيبتها، وفي إيمانها وفي

إذعانها للسحر والشعوذات، وصورتها غيرية بانلة وأنانية مأكرة، وصورتها جانبية ومغلوبة على أمرها، ولم تترك المرأة على حال إلا رصنته بقلمها الرشيق، وإذا القارئ في معرض حي من معارض الوجوه والشخوص، يرى من المرأة أطوراً، ويأنس منها صنوفاً وألواناً، وكلهن ملء الحياة والحركة وكأنهن انتزعن من خضم المجتمع، وصرن نماذج بعضها يتكرر وبعضها فريد أو قليل المثل، فالمرأة هي العالم الذي تعرفه وداد سكاكيني جيد المعرفة، وهي بجبالتها الأنثوية وقدرتها على الملاحظة وموهبتها الأدبية كفؤ لتقديم هذا العالم إلى القراء نابضاً بالحياة، عامراً بالحركة، جياشاً بالمعاطف والأحاسيس، مضطرباً بالانفعالات المتباينة.

ولما رغبت وداد سكاكيني في الاستشهاد من الحياة الواقعية بسيدات فضليات مثليات وقع اختيارها على سيدات كريمات عظيمات مثل هدى شعراوي ومي زيادة ونازك العابد وسهير القلماوي وليلى دوس وفدوى طوقان وماري عجمي وغيرهن وغيرهن.

ولكن هذا العالم الأثير عند وداد سكاكيني لم يستأثر بكل اهتمامها، إذ وجهت شطراً مقدوراً من عنايتها إلى عالم الرجل، فتناولت كثيرين من أعلام الفكر تتاولاً يبعث على الثناء والإطراء، فرسمت صوراً سريعة، وإن تكن عميقة بليغة، لرجال تسنموا قمم الحياة الفكرية، وتهاياً لوداد أن تعرفهم في حياتها الأدبية الزاخرة، ومن أولئك فؤاد صروف ومحب الدين الخطيب ومحي الدين النصولي، وحبيب جاماتي ونقولا الحداد و خليل مطران، و خليل ثابت وسلامة موسى والمجاهد محمد علي الطاهر، وكرم ملحم كرم وبشير فارس وواصف بارودي، ونجيب العقيلي وعادل الغضبان وغيرهم وغيرهم، فلم يعيها أن تضع يدها على مكانم العظمة في كل منهم، وأن تحصي لكل واحد منهم خصائص يمتاز بها ويتفرد، فذلت بذلك على أمرين، أولهما: أن لها نظرة بصيرة لا تخيب، وثانيهما: أنها أشربت روح الإنصاف فذهبت توزعه على من يستحقه بقسطاس أمين، كما أن إنسانيتها ككاتبة ماجدة اتسعت فاستوعبت الذين تقف معهم على طرف نقيض، فقالت كلمة حق في سلامة

موسى وإن خالفته في كثير من آرائه، وجهرت بتقدير بشر فارس وإن ازورت عن رمزيته المستغلة، وهكذا هان عليها أن تفرق بين هوى ذاتي وحق باهر يفرض نفسه على تاريخ الأدب فرضاً.

على أن وداد ذات شخصية مستقلة تأبى عليها أن تسير في الركاب أو تتساق مع الإجماع، فالمعارضة يدينها إذا خالف ضميرها ما استقر عليه ناموس الرأي بين سواد الناس، وعندها من الشجاعة الأدبية ما تستعصم به وقفاتها أمام التيار العرم، وما أمجد هذه الكتابة الأدبية وهي تذود عن الكتاب من غائلة أسباب الترفيه والتسلية والترويج كالمذيع والتلفاز والمجلة المصورة وأشرطة السينما، وما أسناها وهي تدفع عن الضاد الشريفة كل ضيم وترد كل كيد من القائلين بالعامية، الآخذين بالسوقية، الداعين إلى استبدال الرطانات والكلمات باللغة العربية الفصحى الشريفة.

ثم إننا نرى وداد، في سعيها وراء الإنصاف، تنفض آثار الزمن عن طائفة من الذين أدوا دورهم في الحياة العامة ثم غمرتهم غمرات النسيان حتى وهم على قيد الحياة.

وهكذا تنقب وداد سكاكيني عن القيم الأدبية حيث تكون، فتزح عنها الستار، وتجلوها للعيان بكل مقوماتها وآياتها وذخائرها وعبرياتها، ولست أنسى أن أستاذنا الكبير عباس محمود العقاد قال لي ذات يوم (إن وداد سكاكيني أديبة من هامة الرأس إلى أخمص القدم، وهي راسخة الأصل في دنيا الأدب تعنو لها جباه النقاد في تقدير وإعزاز)، واستطرد العقاد العظيم فقال: (إنه كان يتوهم أن وراء وداد رجلاً يكتب لها وينطق باسمها، وأنها هي، (شبح كاتب) ولكنه تبين مدى ما ألحقه بها من ظلم عندما زارته وحادثته في شؤون الأدب والفكر، وناقشته في قضايا اللغة والبلاغة، وحاورته في طرائق الكتابة ومناهجها، فكانت له من أنداد الأفاضل).

ولئن كانت وداد قد عالجت صنوفاً من ألوان الكتابة الأدبية، فإن ميدانها الأول هو القصة بشكلياتها الطويل والقصير، وهي في أقاصيصها جميعاً، سواء استمدت خامتها من حياة الواقع أو استلهمتها من خيال لا يحلق كثيراً فيناى عن الواقع،

قادرة على أن تقدم لنا صوراً نابضة بالحياة تنقراها اليدان باللمس، وتتفرس فيها الأعين فلا ترى نكراً، فوداد سكاكيني تعرف أن القصة مشهد من مشاهد الحياة مستقل بذاته، منفصل عن سائر مشاهد الحياة، ولا بد للقصص من أن يصب عليه كل اهتمامه، فيسلط عليه كل أضوائه الساطعة حتى يصور خلجات النفس وسكناتها، وحقيقة المشاعر ويواعثها، فلا يزيد في الأقصوصة زيادة تبتذل، ولا ينقص منها نقصاً يشين، وعلى أساس هذا الفهم الصحيح لفن القصة، كتبت وداد مجموعات من الأقاصيص الفاخرة، فلم يكن بدعاً أن يجيء التوفيق حليفها من حيث إثارة متعة القارئ وحبك أطراف الأقصوصة فلا تتمزق، ومعالجة أمور النفس معالجة بصيرة فطنة، ودفع عجلة الحوادث دفعاً فيه سلاسة منطقية وبعد عن أسباب التكلف التي لا تخفى عن العين النفاذة النقاد.

ولن يعيبنا أن نلتمس في أقاصيص وداد سكاكيني دلائل على الصدق الفعلي والفني، ولن نعدم الاهتمام في الحياة إلى شخوص يذكروننا بالشخوص الذين ابتدعتهم هذه الأدبية البارعة، ولا ريب في أن القلم البارع الذي ينصاع انصياعاً ليناً في يد وداد سكاكيني يسبغ على أقاصيصها جواً من البيان المطلق لا يتهيأ لكل حامل قلم.

فهي بموهبتها الفطرية، وبصيرتها الذكية، وقدرتها التعبيرية، ودرائتها الفنية، أدبية مكيئة تعرف كيف تكتب، وكيف تكسب الإعجاب، وتؤدي للأدب وللبيان فوق حقيقتهما.



يخرج اسم دمشق من قلبي كعصفور صغير

"نكهة شامية" انتشر شذاها من كلمات نقية صافية، حملت صفات أقدم المدن على مقصوة الجمال .. لكن ألفة ادلبي ظلت خائفة على نسيج من العلاقات الإنسانية والاجتماعية، فسجلته في مؤلفات خرجت من قلبها مثل عصفور صغير.

ولدت في حي الصالحية، في تشرين الثاني من عام ١٩١٢، من أبوين دمشقيين، هما أبو الخير عمر باشا إدلبي ونجيبية الداغستاني. تلقيت علمي الأولى في مدرسة تجهيز البنات، وترعرعت في كنف والدي الذي لم يكن أديباً، وإنما كان ذواقاً أدب، يحب الأدب القديم. وكنت مدللة عنده (فأنا وحيدة لخمسة أخوة ذكور) كان والدي يقرأ لي نصوصاً أدبية يحبها هو، ويقص علي أخباراً تاريخية استهوت، أظن أنني بدأت أقرأ في كتاب "الأغاني"، وعمرى لم يتجاوز الاثنتي عشرة سنة. كان لوالدي الفضل الأول في توجيهي الوجهة الأدبية، كان ينعم علي بالهدايا لأحفظ أبياتاً من المعلقات، وسواها من الشعر العربي القديم الجميل.

كانت مكتبته زاخرة بأمهات الكتب، مثل الأمالي والأغاني، والعقد الفريد .. وكان أترابي يتعجبون من قدرتي وصبري على قراءة تلك الكتب القديمة الصعبة. وكان لخالي كاظم الداغستاني الفضل الكبير في دفعي إلى كتابة القصة القصيرة تحديداً، إذ كان أديباً مرموقاً في تلك الفترة.

عرفني بالأدب الحديث بعدما عرفني والدي بالأدب القديم، عرفني بأدب طه حسين، وبمعارك النقد الأدبي التي كانت تثار على صفحات المجلات المصرية الحديثة مثل: "الرسالة" و"المقطف". وكان لديه مكتبة كبيرة جداً. كنت أتجول فيها، وأنتقي منها ما أشاء من الكتب، وأقرأها.

في سنة ١٩٢٠ تحول التبريس من اللغة التركية إلى اللغة العربية، وعاد الملك

فيصل الأول من باريس، خرجت لاستقباله بزي مدرسي أعد خصيصاً لهذه المناسبة التاريخية. وفي السنة التالية أصيبت بالحمى التيفية ونجوت منها بأعجوبة، فتأخرت عن الالتحاق بالمدرسة سنة كاملة، ولما أسست مدرسة (العفيف) القريبة من منزلي انتميت إليها، وكنت من المتفوقات في دروسي. وسنة ١٩٢٧ حصلت على الشهادة الابتدائية وانتقلت إلى دار المعلمات. وكان صفي قليل العدد لا يتجاوز ستة عشر تلميذاً، أما التلميذات فلا يكاد عددهن يذكر. وفي السنة ذاتها خرجت مع رفيقاتي في مظاهرة ضد الفرنسيين، وأنا محجبة.

تزوجت سنة ١٩٢٩ من الدكتور حمدي الإدلبي من دون أن أراه، ولكنه استطاع هو أن يراني خلسة بمساعدة صديقة للطرفين، وأنجبت منه ثلاثة أولاد هم: ليلى وياسر وزيناد. وبدأت سنة ١٩٣٠ كتابة الخواطر لنفسي من غير أن أفكر بنشرها.

سنة ١٩٣٢ أنجبت ولدي ياسر، وأصبت بمرض أقعدي في الفراش سنة كاملة انقطعت خلالها عن القراءة انقطاعاً تاماً، وكان أحب هدية تحمل إلي في أثناء المرض هي الكتاب، وبعد شفائي تابعت القراءة وعشت حياة طبيعية، وانتسبت خلال هذه الفترة إلى عدة جمعيات خيرية وثقافية كجمعية دوحة الأدب، وكانت تعقد في داري ندوة شهرية يشترك فيها عدد من أدباء دمشق وأدبياتها لتبادل الآراء حول الأدب والثقافة. وبعد خمس سنوات أنجبت ابن الثاني زيناد، وعاونني المرض ولكن بشكل أخف، وزرت القاهرة لأول مرة فبهرت بها، وكنت أزور لبنان كل صيف حيث توقفت عرى الصداقة بيني وبين السيدة نازك العابد بيهم.

انتميت سنة ١٩٤٠ إلى جمعية الندوة وإلى حلقة الزهراء الأدبية. والتحقّت بجمعية الرابطة الثقافية النسائية سنة ١٩٤٥، وكان من أبرز أعمال هذه الجمعية إصدار كتاب (مختارات من الشعر والنثر) لماري عجمي.

كتبت أول قصة سنة ١٩٤٧ (القرار الأخير) وأرسلتها للاشتراك في مسابقة إذاعة لندن، وحصلت على الجائزة الثالثة. وذات يوم أخبرت خالي الأديب كاظم

الداغستاني) أنني كتبت قصتين وأرسلتهما إلى مجلة الرسالة، وعندها ضحك كثيراً وقال لي: (الم تجدي مجلة أقل تواضعاً من مجلة الرسالة .. كيف ترسلين بواكير نتاجك إلى تلك المجلة التي لا يكتب فيها (إلا العمالقة) وصدر العدد الجديد من مجلة الرسالة وفيها القصة الأولى وهي بعنوان القرار الأخير. ثم صدر العدد الثاني وفيه قصة الدرس القاسي والاثنتان موجدتان في كتابي الأول (قصص شامية) الذي صدر سنة ١٩٥٣ وضم عدة قصص منها: مهدي أفندي، الكاسات المعدودة، ثوب سلمان، انتقام، الستائر الزرق، الدرس القاسي، كان سيئ الخلق..

أركز في هذه المجموعة على لحظة التغير النفسي في الشخصية الرئيسية، فهي تتماوج بين محورين نقيضين من نزعة تمرد إلى اطمئنان في قصة (الستائر الزرق)، ومن حركة وتفاؤل إلى ذبول وتشاؤم في قصة (مهدي أفندي) ومن شر وغلطية إلى خنوع ومصالحة في قصة (الأغا أبو الدب) ومن إيمان على المنكر إلى تقوى وورع في قصة (الكاسات المعدودات). ويأخذ هذا التغير النفسي مداه في عام زمني ينتقل من الماضي إلى الحاضر، وفي عامل اجتماعي حيث تغوص الشخصيات القصصية في مجتمع دمشقي أصيل، يحافظ على عاداته وتقاليده وإيمانه بالقضاء والقدر والسحر والتعاويذ والخرافات..

ويعلق الناقد حسام الخطيب على مجموعتي القصصية الأولى:

تؤمن معظم شخصيات (قصص شامية) بالقدر الذي يلعب دائماً لعبته الأثرية، يعاقب الشر ويكافئ الخير، ويعقد المصادفات، ويجمع الأشتات، ويسخر من التوقعات، وينذر أن تصنع شخصية ما مصيرها بيدها. فهناك يد خفية حائكة تتسج خيوط المصير، ولكن الأشخاص مع ذلك ليسوا دمي فارغة بالمعنى القدري للمأساة اليونانية القديمة. وتصر يد القدر دائماً على جميع الأشتات، في عالم ألفة القصص حتى يخيّل إلى القارئ أنه لا يمكن لأية شخصية أن تفرق إلى الأبد عن الأخرى. وسبق أن أوضحنا أن السبب يعود إلى انحصار الشخصيات في بيئة دمشقية محدودة (مجتمع ما فوق الطبقة الوسطى) ولكن إلى جانب ذلك هناك تفسير قدرى لا يمكن

استبعاده".

وبعد عشر سنوات أصدرت مجموعتي القصص الثانية "وداعاً يا دمشق" وضمت قصص: الرقبة المجربة، وداعاً يا دمشق، انهزم أمام طفل، سلاطين مخيفة، نسمة الصبا، الله كريم، خيط العنكبوت، سراب، ماتت قريسة العين .. وشكلت امتداداً لمجموعتي الأولى في عشق دمشق بأشجارها وزهورها وحرارتها، بشجيرات الياسمين الغضة التي تسيج أسوار منازلها .. وحرصت على تسجيل كل تقليد من تقاليدها لأصونها من الضياع والاندثار.

واستجابت قصصي للأحداث القومية في مجموعة "ويضحك الشيطان" (سنة ١٩٧٠) وضمت عدة قصص منها: الحل الوحيد، وراء الحدود، قضية خاسرة، بعد سبعين عاماً. وفي مجموعتي "عصي الدمع" (سنة ١٩٧٦) وضمت عدة قصص منها: على الدهر العلامة، الابتسامة المتوعدة، كبرياء التحدي، في العيون الجامدة، الصراع الذي لا ينتهي، المتبوعة، وعصي الدمع. نظرت إلى الوطن بصورته المطلقة. فناديت بالتضامن العربي في قصة (رسالة إلى مغتربة في أميركا)، وباركت العمليات الفدائية في (كبرياء التحدي في العيون الجامدة) وكيست طويلاً لثوقف القتال في حرب تشرين في (عصي الدمع). كان عصي الدمع على الرغم من إصابته وعجزه، ولكنه بكى عندما سمع وقف إطلاق النار مع العدو الغاصب.

أصدرت سنة ١٩٦٤ كتاباً بعنوان "المنوليا في دمشق وأحاديث أخرى" ضم طائفة من المحاضرات والأحاديث التي ألفتها في مناسبات عديدة. وما كانت المنوليا إلا باباً للحديث عن سيدة أجنبية الأصل سيرتها أقرب إلى الأسطورة منها إلى الواقع، لأنها جمعت كل التناقضات في حياتها الجديدة .. إنها "جين دكبي" الفاتنة المغامرة التي نشأت في مدينة "تورفوك" في إنكلترا، وانتهت في حي "مسجد الأقباص" بدمشق، بعد حياة حافلة بالعشق والتمرد والطموح، مليئة بالفرزوات والمخاطرات.

ثم أتطرق في المحاضرة الثانية إلى "قصصنا القومي"، فتحدثت عن رواد القصة العربية في العهد العثماني، وفترة الانتداب الفرنسي، وتوقفت عند فرنسيس المراس مؤلف قصة "غابة الحق" عام ١٨٦٢ فاعتبرتها أقدم مشروع قصصي في الأدب العربي الحديث، وهي قصة رمزية عن مفهوم الحرية وتحرر الإنسان من العبودية.

أما المحاضرة الثالثة فتصور تخطيط الشباب العربي في خضم من المذاهب الفكرية، وفي محاضرتي الرابعة عن "المرأة العربية والعقيدة" بينت أن المرأة أكثر ثباتاً على العقيدة من الرجل فهي نادراً ما تتقلب أو ترتد ولو أوردتها ذلك الهلاك، وأخذت أمثلة من التاريخ العربي.

أما للمحاضرة الخامسة، فهي عبارة عن جولة في الربوع الأدلسية، وفي محاضرتي الأخيرة تقيمت شخصية المحامي للدفاع عن المرأة العربية من النواحي التشريعية والتنفيذية والقضائية.

سنة ١٩٧٤ أصدرت كتاب "نظرة في أدبنا الشعبي" ويشمل على سيرة الملك سيف بن ذي يزن، وعلى دراسة موسعة عن "ألف ليلة وليلة".

وأصدرت بعد ذلك "تفحات دمشقية" توخيت أن أرسم فيها صورة لدمشق الماضي في المحاضرة الأولى. اسم دمشق يخرج من قلبي كعصفور صغير.. ويأتي بلا قصد في أكثر كتبي. واكتشف في محاضرتي الثانية "إسرائيليات" ومن خلال العودة إلى التاريخ عن تحريف الصهاينة للتجارة لأغراض سياسية، وأقيمت نظرة عجل على الصين ماضيها وحاضرها في المحاضرة الثالثة. ورصدت سيرة النحاتة الفرنسية كميل كلوديل، وما حدث للأدبية اللبنانية من زيادة والأدبية الشامية ماري عجمي. وسجلت "خواطر وتذاعيات في رحلة إلى الشرق الأقصى". وفي الختام تناولت "المرأة والأم في الأساطير القديمة".

ترجمت قصصي إلى خمس عشرة لغة أجنبية هي: الألمانية، الإنكليزية، الفرنسية، الروسية، الأوزبكستانية، الشوفاكية (لغة إحدى جمهوريات الاتحاد

المسوقياتي)، الهنغارية، الهولندية، السويدية، الإسبانية، الصينية، الإيطالية،
البرتغالية، التركية والفارسية .. ولدي نسخ من جميع هذه الترجمات.

ابتسامة تمحو جفوة!

(من وحي اسبانيا)

ما كان أغناني عن الاسترسال في هذا الجدل العنيف الذي نشب بيني وبين زميلي الشاب حتى انتهني بنا إلى جفوة أمضت نفسي رغم أنها لم تدم إلا قليلاً.
كان أول ما عرفت زميلي في مركز شركة للسياحة في مدينة (مدريد) وكان كلانا قاصداً زيارة الأندلس، فآثرنا الانضمام إلى شركة من تلك الشركات التي اشتهرت بتأمين الراحة والرفاهية لمشتريها، وكان من البديهي وقد عرف القيم على رحلتنا أنني وزميلي من بلد واحد أن يخصصنا بمقعدين متلازمين في السيارة الكبيرة المعدة لرحلتنا، وان يتركنا في مائدة واحدة في كل فندق ننزل به، فاستأنست بزميلتي وأستأنس بي أنس الغريب يلتقي مصادفة بمواطن له في بلد بعيد.

وما أظن أن هذا الأنس يكون قوياً كما لو كان بين عربيين التقيا في اسبانيا التي لها في كبد كل عربي لوعة لا تنطفي مهما بعد العهد بالمأساة.

ولم نلبث حتى أصبحت وزميلي صديقين أو كالصديقين، رغم ما بيننا من تفاوت في العمر وتباين في الرأي، فهو لم يتخط مرحلة الشباب وأنا قد مضيت في الكهولة، وهو على عكسي تماماً مندفع اندفاعاً أعمى وراء كل جديد على علته لاسيما إذا كان هذا الجديد غريباً، لقد فقد الإيمان بماضينا المجيد وأنكر، ما كان للعرب من تقدم في العلم والفن، ومن هنا نشأ الخلاف بيننا.

فلما صرنا في قصر الحمراء شعرت أنا كأنني دخلت حرماً مقدساً، لقد رأيت فيه - شهد الله - فوق ما كنت أسمع وأكثر مما كنت أتوقع.

ففي قاعة السفراء ذات الأعمدة الرشيقة والقبّة العالية التي نقشت كلها من أسفل الجدران حتى نهاية القبّة نقوشاً فنية بلغت غاية الدقة والاتقان، في هذه القاعة، تمكّنتي زهو واعتزاز، كنت أحب أن أقول إلى كل من هم حولي من السياح: أنا عربية

ولكن آه يا لعقلي الطفل! مالي أوغل في الماضي فأتناسى المأساة وأتجاهل الحاضر؟؟

في هذه القاعة بالذات عقد أمراء العرب آخر اجتماع لهم قرروا فيه مصير العرب في اسبانيا إلى الأبد!!
ووجدتني أخرج من القاعة منكسة الرأس أكفكف دموعاً أبت إلا أن تتحدر سخية على مجد لنا ضاع!

وواجهتني باحة الأسود ذات الفسقية الشهيرة التي تحملها أسود تتدفق من أفواهها المياه، من هذه الباحة يبدو القصر بأجمعه بالغ الروعة والعظمة أين زميلي الشاب؟ هنا أستطيع أن أندحض مزاعمه بدلائل ملموسة تطل علينا من كل جانب، ولما عثرت عليه قلت له:

مالك يا أخي ألا تقف الآن أمام هذا البنيان الخالد وتسأله عن أخبار ذويه كما سأله معروف الرصافي الشاعر العراقي، دعه يحدثك حديث المجد والعيش الرفيع، فلا بد لقلبك إن كنت عربياً حقاً أن يقول آها، ولا بد لأذنك أن تقول إيه، طالبة المزيد من هذا الحديث العجيب على ما فيه من لوعة وأسى، فإذا ابتسامة كلياً تهكم تعلو شفثته ثم يقول لي: لقد بارت بضاعة الكلام...

فقلت له: أما هنا فدلائل ملموسة، ألا تجد أن فننا العربي نسيج وحده؟ ألا ترى في هذه الزخارف الهندسية فناً مجرداً بعيداً عن التقليد؟ إن فيه لخلقاً وإبداعاً، هنا حقاً كلما ابتعد الفنان عن الطبيعة كلما اقترب من الفن.
فهز برأسه وقال: علنتا هي لا تتبدل ولا تتغير، دائماً ننتحل الأعذار لتقصيرنا ثم نقنع بها أنفسنا ونبقى حيث نحن.

قلت: كأنك لا تفهم ما أقول، أنا لا أدافع عن تقصيرنا في بقية الفنون، وكل ما أريده منك هو ألا تبخس هذا الفن العربي حقه، ولا تنقص لهذا الأثر الخالد قيمته، وأنت وأمثالك أول من يشيد بهما، والآن استحلفك بالله وقد علمت منك انك زرت أفخر قصور أوروبا أمثال وندسور وفرساي وفونتين بلو وغيرها، لو قدر لك أن

تختار أحدها أكنت تفضل على الحمراء مسكناً؟

فجاءت إلى فمه الإيتسامة الساخرة وقال: بعض آفاتنا الادعاء والغرور.

فكظمت غيظي وقلت له: لنفرض أنك استيقظت ذات صباح فإذا أنت رب قصر فرساي ... وأحببت أن تستحم فماذا ستجد في حمامك؟ وعاء صغيراً لا أدري كيف كانت ماري انطوانيت الملكة المدللة تتكوم فيه، ثم تحمل إليك المياه بالجرادل من الطابق السفلي، بينما هنا في قصر الحمراء ما عليك إلا أن تخرج من غرفة نومك، فتبهبط بضع درجات فإذا أنت في حمام أنيق لا يقل اتقاناً عن أحدث الحمامات في عصرنا هذا، أمامك مغطس قد سلطت عليه ثلاثة صنابير أحدها للماء البارد والثاني للساخن والثالث للعطور، ألم تر هؤلاء الناس الذين أتوا إلى الأندلس من جميع أصقاع الأرض ليشاهدوا هذه الآثار العربية الخالدة، كيف فغروا أفواههم دهشة عندما قال لهم الدليل بأن العطور كانت تجري في الأنابيب في قصر الحمراء، ولفت نظرهم في غرفة الزينة الخاصة بسيدة القصر، إلى رخامة ذات نقوب عديدة كانت تنفذ إليها العطور بأنواعها من الطابق السفلي فتعطر السيدة بالنوع الذي ترغب.

فإذا انتهيت من حمامك وعدت إلى غرفة نومك، وطاب لك أن تستمع إلى شيء من الموسيقى ولكنك كنت زاهداً برأى الجوقة الموسيقية، فما عليك إلا أن تأمر الجوقة تصعد من درج خفي إلى شرفة خصصت لها، وبقيت على سدة في نصف جدار غرفة النوم، فتأتيك الأنغام دون أن ترى عازفيها، كذلك مثلاً تستمع إلى الراديو.

وكانني بمهندسي هذا القصر ومبدعي زخارفه قد خافوا عليك مغبة العظمة والكبرياء فكتبوا لك على الجدران فيما كتبوا: (العظمة لله) و (لا غالب إلا الله) فجاءت الكتابة منساقة مع النقش لم تقم فيه إقحاماً كأنها فيه وكأنه منها، وأعجب الاسبانويون بهذه النقوش فقلدوها كما هي تماماً بآياتها القرآنية وخطها العربي الصميم، وزينوا بها فنادقهم الحديثة ودورهم الأنيفة، وهم يفخرون أشد الفخر بهذا

الفن الذي كانت بلادهم مرتعاً له حقبة طويلة من الدهر، حتى جعل لها طابعاً خاصاً يميزها عن غيرها من مدن أوروبا، فأخذ السياح يؤمونها من كل جانب ليروا هذه الآثار الخالدة، فكانت لإسبانيا مورداً لا ينضب، بينما أنت وأمثالك تتكبرون لهذا الماضي المجيد، فأجابني على الفور متأففاً: يا لهذه الأغنية التي لا تنتهي، دائماً وأبداً: الماضي المجيد، وماذا جئنا منه؟ وأية أمة على وجه الأرض لا تستطيع أن تدعي أن لها الماضي المجيد؟؟ وشعرت أنا أن كلمة (تدعي) تخز قلبي وخزاً، فلم أعد املك نفسي فقلت له:

إليك عني لقد أفسدت علي نشوتي بمراى هذه الآثار العزيزة علي، أنا التي تجشمت ما تجشمت وتكلفت ما تكلفت لزيارتها، إنه لسخف مني أن أدخل معك في جدل كهذا الجدل، وأنا أدرك تماماً أنك وأمثالك ثمرة جهود المستعمر الذي استطاع بعد جهد أن يفقدكم الأيمان بماضيكم الذي يخشاه، ويخشى أن يكون أساساً متيناً لبناء مستقبلنا، وانحرفت عنه وأنا أحاول ألا أسمع ما يتقوه به من مزعجات.

وأخذت أصعد وحدي إلى جنة العريف التي هي على مرمى غير بعيد من قصر الحمراء، هنالك في جنة العريف دار صغيرة أظن أن أرباب قصر الحمراء كانوا يلجئون إليها مع خلصائهم للاستجمام والهدوء، في صحن الدار تجري ساقية دفاقة قد زرعت على حافتيها أشجار السرو الواحدة تلو الأخرى، ومن أمام كل سروة انبتت نافورة تلتقي بالتي أمامها فتشكل أقواساً مائتة رائعة الشكل.

وأخذ النسيم يحمل إلي نفحات الورد البلدي والريحان والياسمين العبقرة بذكريات الماضي، لقد بدأت أستعيد هدوئي، فإذا دليلنا السيور ألبرتو ذو الأنف الطويل والرقبة الهزيلة يفسد علي متعتي هذه، إذ جاء يدعوني بشيء من الضجر للعودة إلى الفندق، آن أوان الغذاء، وقد سئم وهو يجري خلف السياح يحاول جمعهم ليعود بهم إلى الفندق فلا يفلح، لقد تفرقوا في المنعطفات الفيح الندايا وحول النافورات الدفاقة، وقد عز عليهم ترك الجنة، هنالك في الفندق في قاعة الطعام رأيت زميلي يزور عن المائدة التي أعدت لي وله، وينخرط مع زمرة من

الأميركان، بينما تأتي عجوز أمريكية تقاسمني مائدتي، أخذت تتحدث بدهشة وإعجاب عن الآثار العربية، وتسألني بكثير من الفضول: هل العرب الذين كانوا يسكنون في اسبانيا في الماضي يمتون بصلّة إلى عرب سورية وفلسطين؟ وهل كانوا يتكلمون ذات اللغة ويتدينون بنفس الدين؟ ولما أفهمتها أن العرب أمة واحدة ذات تاريخ واحد وحضارة واحدة، بدا لي أنها تتلقى كلامي بكثير من التحفظ والاستغراب فقد قر في ذهنها ما تزوجه إسرائيل عنا من أننا أمة لا نصيب لها من الحضارة والمدنية إن في الماضي ... أو الحاضر.

بعد الغذاء أعلن القيم على رحلتنا بأنه سيتركنا أحراراً في الساعات الثلاث القادمة، لناخذ قسطاً من الراحة أو نجوب الأسواق إن شئنا.

أما أنا فلم أشبع من جنة العريف ووجدت في نفسي رغبة للعودة إليها، وهممت أن أعود إلى زميلي فأدعوه لمرافقتي وأزيل ما بيننا من جفاء، ولكني خشيت ابتسامته الساخرة، وخشيت ألا أملك نفسي إذا رأيتها تعود إلى شفتيه مرة أخرى، فيحدث بيننا ما يجعلنا أضحوكة أمام هذا الجمع الرفيع التهذيب، فآثرت السلامة وسرت وحدي، وأخذت أصعد مرتفعات جنة العريف كلما انتهيت من بضع درجات واجهتني فسحة صغيرة فيها فسقية ذات نافورة عالية، فلما صرت في آخرها جلست على إحدى هذه الدرجات حيث تتحدر من على يميني ويساري شلالات صغيرات، وقد أشرفت على غرناطة من عل. ما أشبهها بمشق تتخللها بساطين وارفنة وتحوطها أشجار خلف أشجار، وفي أفقها البعيد جبال صغيرة محدوبات كالتلال، وهذا جبل تعلو قامته الثلوج كأنه جبل الشيخ، واسترسلت في تأملاتي، وأخذ يمر في خاطري كل ما وعته الذاكرة من تاريخ الأندلس وأدب الأندلس، هذه الطبيعة الخضراء الضاحكة ذات المناظر الأخاذة، أهي التي أوحى إلى ابن خفاجة روائعه في وصف الطبيعة؟ وإلى ابن زيدون وولادة رقيق الغزل؟ وإلى غيرهم وغيرهم فرأى الشعر؟! ...

إنها والله لخليقة أن توحى.....

وهذا الوادي الذي ينحدر من على يميني ذو الظلال الحائيات حنّو المراضع
على الفطيم، أهي التي كانت ترد الشمس عن حمدونة الشاعرة أنسى واجهتها
فتحببها، وتأذن للنسيم أن يلثم وجناتها، حتى وصفت الشاعرة الوادي بأبدع ما
توصف به الأودية؟

فجأة، إذا صوت غير غريب عني يقطع عليّ تأملاتي، فقمّت من مكاني
واتجهت نحو الصوت، فإذا زميلي الشاب ... نعم هو بعينه يقف خطيباً أو
كالخطيب في زمرة من زملائنا السياح يحدثهم عن تراثنا العربي بلغة فرنسية،
وبلهجة تنم عن إيمان صادق، وحماسة أين منها حماستي!!
كان يقول لهم فيما يقول:

ألم تروا أن فننا العربي نسيج وحده؟ ألم تجدوا فيه خلقاً وإبداعاً؟ إنه الفن
المجرد، ألم تلاحظوا أن في قصر الحمراء وجنة العريف من الفن الهندسي والذوق
المعماري ما لا يوجد مثيله في كثير من الآثار القديمة، وأن هذه المياه الدفافة التي
ترونها تأتي من السدود الضخمة التي أقامها العرب، وحسبوا لها الحسابات الدقيقة
كي تكفل جريان المياه مدى الصيف....

يا للعجب! أحقاً هذا زميلي المجادل العنيف العنيد ذو الابتسامة الساخرة؟
كدت أنكر ما أرى وأسمع فوقفت واجمة أصغي إليه، وكان كلامه يرتد برداً
وسلاماً على كبدي، وأخذت أنفهم كلماته كلمة، كأن هذه الآراء ليست آرائي بل
كأنني أسمعها لأول مرة.

ولما انتهى من حديثه وهم بالانصراف هو ومن معه أتيت بحركة بين
الأغصان لألفت نظره إلي، فرفع رأسه فإذا نظراتنا تلتقي، فقلت له: ها أنت ذا قد
عدت وكأنك مثلي لم تشبع من جنة العريف وماضيها المجيد، فغض الطرف وقال
بصوت خاشع:

وهل يُشبع من الجنة؟

ثم ابتسم ابتسامة ود ورضى محبت ما بيننا من جفاء.



صورة سلمى الكزبري

يجب أن تكون الرواية ذات هدف ومضمون اجتماعي

كنت في الرابعة من عمري من عام ١٩٢٦، عندما نفي والدي، وكان وزيراً في حكومة المفوض السامي الفرنسي، مع ثلاثة وزراء آخرين هم أصدقائه في النضال: فارس الخوري، وسعد الله الجابري، وحسني البرازي، إلى منطقة (الحزيرة) شمال سورية مدة شهرين، بعدها نقلوا جميعهم إلى منطقة (الكورة) شمال لبنان وتحديداً قرية (أميون)، فسمح لعائلاتهم بعدها بالالتحاق بهم، قضيت في شمال لبنان فترة سنتين حتى بلغت السادسة من عمري، وأنا أحفظ إلى اليوم وداً ومحبة لهذه القرية الشمالية.

لم أتعلم في تلك الفترة ولم أدخل المدرسة، لكنني كنت ألقى قصائد ترحيبية بالوفود الوطنية من لبنان وسورية التي كانت تزد لزيارة والدي، وكان والدي يدريني على تلك القصائد مع رفاق الدرب في المنفى، وبينهم صحافيون من آل الصفدي، ومن هذه القصائد: "سلام من صبا بردى..". لأمير الشعراء "أحمد شوقي"، وبعد سنتين أطلقت سلطات الانتداب الفرنسي سراح المنفيين، فعشت فترة في بيروت، عدنا إلى دمشق وأسس والدي مع رفاقه حزباً وطنياً عقد نجاحه في انتخابات الجمعية التأسيسية لكتلتهم.

رفض والدي في تلك الفترة فكرة التحاق بالمدرسة، وأرادني أن أتمكن من اللغة العربية، وتعلمت في حي الشاغور على يد الحاجة الشیخة عائشة، فعلمتني القرآن الكريم والنطق واللغة العربية الصحيحة مع إختوتي، لأدخل بعدها مدرسة "الراهبات الفرنسيكان" حيث قضيت تسع سنوات، وبدأت أكتب وعمري ١٣ عاماً. أول مقالة لي حملت عنوان "كيف يجب أن نستفيد من الزمن؟" ويومها كنت مقهورة أتساءل: لماذا تمضي النسوة أوقاتهن لوحدهن بعيداً عن الرجال الذين يلهون

وبمرحون في المقاهي، فكنت بذلك أتمرد على المجتمع، وقد نشرت المقالة في مجلة "الأحد" الدمشقية، بعدها كتبت شعراً بالفرنسية ومن ثم "يوميات هالة" الذي صدر عام ١٩٥٠.

و"يوميات هالة" جاءت انعكاساً لي، وأذكر أن أصدقاء والدي وأعمامي، والشاعر العظيم "بدوي الجبل" طلبوا إلي عدم مس أي جملة أو كلمة، لأن الكتاب سهل ممتنع فيه لغة بسيطة عفوية.

نشأتي كانت سياسية اجتماعية في بيت محافظ، والدي من الرعيل الأول فعشت تاريخاً مع رفاقه المناضلين السياسيين في سورية ولبنان ومصر والعراق. وأنفق والدي المال الذي ورثه عن أبيه في سبيل سورية وحربتها واستقلالها. وقد أنشأني وعلمني وشجعني وقد كتبت كتابين عنه هما "عنبر ورماد" و"لطف الحفار.. مذكراته وحياته وعصره" فوالدي مثلي الأعلى في الحياة وقد توفي عام ١٩٦٨.

تزوجت أول مرة من محمد رشيد كرامي شقيق الزعيم عبد الحميد كرامي في لبنان، لكن زوجي توفي بعدما وضعت ابني البكر نزيه وله من العمر ٥١ يوماً فقط، فصدمت، لكن الصبر والإيمان بالله ورعاية الأهل والحب الذي أحاطني به آل كرامي، كل ذلك دفعني إلى أن أقضي خمس سنوات جديدة منتقلة بين دمشق وطرابلس، وخلال تلك الفترة رحت أتابع دراستي في اللغة العربية فنتلمذت على يد الأستاذ أبو الخير القواص، فتناولت معه كل الأدب العربي والتاريخ الإسلامي، وراسلت الجامعة اليسوعية في بيروت، وحصلت من خلال دراستي على إجازة في العلوم السياسية باللغة الفرنسية، وبدأت أكتب مقالات في مجلة "صوت المرأة" في بيروت في تلك الفترة، أما ابني البكر نزيه فقد تابع تحصيله المدرسي في مدرسة "برمانا" بمنطقة المتن، ليدرس بعدها الحقوق في القاهرة ويصبح محامياً لامعاً.

في تلك الفترة بلغت الـ ٢٦ ربيعاً، فدفعني أهلي وعائلة زوجي الراحل إلى الزواج، فتزوجت من نادر الكزبري، وهو دكتور في الحقوق من جامعة السوربون،

في جامعة دمشق وعضو مجلس الشورى.

أنا مدينة لرجلين في حياتي: والدي الذي علمني وشجعني ودرّسني، وزوجي الذي عرف بقصتي، وكان مصراً على رفيقة درب من نوعي، وهو محب للفن والأدب وله ذوق رفيع في تلك الأمور، وقد استفدت من آرائه كثيراً، وأتمنى أن يكون لكل السيدات أزواج مثل رفيق عمري "نادر".

من المعروف أن صداقة عائلية جمعتك بالشاعر الكبير الراحل نزار قباني: العلاقة بيني وبين نزار علاقة زمالة أولاً، فأنا ناثرة وهو شاعر، وكنا نقرأ لبعضنا بعضاً قبل مرحلة إسبانيا التي انتقلت إليها مع زوجي بحكم عمله الدبلوماسي. ونزار كان تلميذاً لزوجي نادر ويكبرني بسنة واحدة فقط، وعمل كمستشار في السفارة السورية في إسبانيا حتى ١٩٦٦، ليعتزل بعدها العمل الدبلوماسي، وفي تلك الفترة أصبح جزءاً من العائلة، إضافة إلى الأعضاء الآخرين في السلك الدبلوماسي السوري في إسبانيا، فكان نقضي سهرات عائلية، ولم يكن يومها نزار قد تزوج للمرة الثانية من المرأة التي أحب "بليسي"، وكان له أولاد من زوجته الأولى، فتعرفت، زوجي وأنا، إلى نزار الدبلوماسي والصديق والإنسان والشاعر، وأنا أتعجب أحياناً عندما أقرأ شعر ومغامرات الحب لنزار، فهذا أمر لا يصدق، لأن نزار رجل خجول جداً في علاقاته الشخصية. مرحلة نزار قباني في إسبانيا كانت مهمة جداً، فتعرفنا نادر ونزار وأنا على الوسط الثقافي والمستشرقين في إسبانيا، وزرنا بلاد الأندلس وحضرت ولادة قصائد نزار عن غرناطة وعن والدته أيضاً، وشاركنا في مهرجان ابن حزم ١٩٦٣.

خلال تلك الفترة وبعدما تعلمت الإسبانية وبت أتحديث بها بطلاقة، شرعت في كتابة رواية من واقع الحرب الأهلية الإسبانية وذيولها، وكنت قد عدت إلى دمشق مع زوجي وعملت على مراسلة نزار، لأستوضح منه عن بعض الأماكن الجغرافية، لكن عندما انتهيت من الرواية توقفت عند عنوانها، واتصلت به مستجدة وقلت له:

يا نزار أنا لا أجد عنواناً لتلك الرواية، وقد أطلق لي عنواناً بعدما عرف تفاصيل
عن البطلة والرواية والحبكة هو (عينان من إشبيلية) فالبطلة صاحبة عينين جميلتين
وموطنها إشبيلية.

■ هل احتل الرجل البطل حيزاً مهماً في رواياتك؟

لا يمكن أن تكون هنالك رواية من دون رجل بطل حتى أحياناً في الرواية
البوليسية أو التاريخية. فالواقعية ضرورية في الرواية لتشويق القارئ. والروايتان
اللتان كتبتهما (البرتقال المر) و(عينان من إشبيلية) كانتا من قلب الواقع، والرواية
يجب أن تكون ذات هدف وتحمل في طياتها دراسة اجتماعية. وهي رسالة تقدم
لشخص حزين أو سعيد على السواء.

■ ماذا عن الصداقة بين الرجل والمرأة؟

الرجل إما معلم أو أستاذ أو صديق. وأتوقف عند كلمة "صديق" لأقول إن
الصداقة مهمة بين الرجل والمرأة، لكن يلزمها زمن معين من العمر وتحديداً
الشيخوخة، لا أؤمن بالصداقة بين شاب وشابة، إذ هنالك رغبة وعلاقة من نوع
آخر تجذبهما إلى بعضهما بعضاً. والصديق عادة هو الذي نحكي له ونشكو له
همومنا ومشاكلنا ومشاعرنا.

والشاب والشابة عادة هم رفاق وليسوا أصدقاء، والصداقة هي فوق الحب
أحياناً، كما ذكر أبو حيان التوحيدي في كتابه الشهير (البيان والتبيين)؟.

صداقات أدبية:

■ بمن تأثرت من الرواد في القرن الماضي؟

تأثرت بما قرأت للمفلوطي والمازني، وتأثرت بمعروف الأرنؤوط في
دمشق، وتعرفت إلى توفيق يوسف عواد في لبنان، كما تأثرت أيضاً بأحمد أمين.

■ من هم أقرب الأصدقاء إليك في الصالون الأدبي؟

لم تكن هناك صالونات أدبية عاصرتها بالمعنى الصحيح، ففي مطلع القرن الماضي وجد صالون "ماري عجمي" وهي أستاذة كبيرة، إضافة إلى صالون الأدبية "مي زيادة"، وفي بيروت عاصرت الندوات الأدبية في مدينة تجمع كل الأدواق والأهواء.

وأصدقائي كانوا أغلبهم في الجامعة الأمريكية في بيروت، ومنهم الدكتور فزاد صروف وهو من كبار الأساتذة، وقد شجعتني على دراساتي وانكباني على إصدار كتاب عن "مي زيادة" بتأثر مباشر من عمه يعقوب صروف، صاحب جريدة "المقتطف"، إضافة إلى صداقتي مع الدكتور قسطنطين زريق رئيس الجامعة سابقاً، وشيخ المؤرخين الدكتور نقولا زيادة.

■ وهل تعتبرين أنك حققت كل ما تتمنيه؟

لا، على الإطلاق، فأنا لست مغرورة لأقول عن نفسي هذا، على الصعيد الشخصي ككاتبة قد لا أكون تأسفت على أي شيء نشرته، فكل مرحلة زمنية كان لها نضج معين، فالكاتب عادة يتكبرج والإنسان يتعلم وينضج، وقد تأثرت حقيقة في مرحلة النضوج، إضافة إلى كتاب عرفتهم، بشعراء عاصرتهم التقيت بهم أو شاهدتهم، ومنهم من رحلوا، لكنهم خلدوا عبر أعمالهم، وهم على سبيل المثال عمر أبو ريشة، بدوي الجبل، أمين نخلة، و الياس أبو شبكة. وأتمنى اليوم حقيقة أن أقدم الأفضل والأحسن، أعد للألف قبل أن أنشر أي عمل جديد حتى يكون في المستوى المطلوب.

يا أيها الملك المأمون طائره...

سلمى الحفار الكزبري الأدبية الكبيرة، مؤرخة الأندلس، حضارة وأدباً في عصرنا الحديث، لم تزل تنهل من معين الأندلس وتروينا مؤلفاتها القيمة، أبحاثاً وروايات (اندلساً خالصاً) عناوين ومحتويات: (في ظل الأندلس) (عينان من اشبيلية) و (البرتقال المر).

اقتفت الأدبية سلمى الحفار آثار زرياب في بغداد ... وأوضحت أنه ولد لأبوين قدامى إلى بغداد من سواحل إفريقيا الجنوبية عقب الفتوحات، وقد ظهرت على (علي بن نافع) وهو الاسم الأصلي لزرياب، دلائل النبوغ منذ طفولته، كذلك ولعه بالفنون الجميلة ولا سيما بالموسيقى والغناء، مع ذاكرة قوية في حفظ الشعر والألحان، وعندما بلغ الرابعة عشرة من العمر، توجهت الأنظار إلى مواهبه المتعددة، فاستدراه الخليفة العباسي المهدي، ابن أبي جعفر المنصور ليكون أحد مواليه، ولما سمع المهدي صوته الساحر أعجب به وأطلق عليه اسم (زرياب) الذي اشتهر به تشبيهاً له بطائر أسود اللون ساحر الصوت، يدعى زرياب هذا الطائر معروف في بعض بلادنا العربية باسم (أبر زريق)، ومعناه باللغة الفارسية السذهب المصفى.

كان زرياب، يحفظ من الأشعار أجودها، ويستتبط من العود أنغاماً رائعة ويغني فيطرب، لهذا رعاه الخليفة رعاية فائقة، ومن أجل استكمال ثقافته الموسيقية، اعتقه بعد أربع سنوات قضاها في بلاطه، موصياً به أكبر فنانين موسيقيين في ذلك العصر، إبراهيم الموصلي وابنه إسحاق، فانتسب (زرياب) وهو في ربيع التاسع عشر إلى معهدهما الذي كان يخرج كل عام عشرات العازفين على العود، والمغنيين والراقصين من قيان وجوار وغلمان كانت تنتظرهم القصور لإحياء سهرات السمر والطرب في بغداد، قضى زرياب ما يقرب من عامين في معهد إسحاق الموصلي، تألق خلالهما في العزف على العود.

ويعود تفوق زرياب في الموسيقى والغناء وضبط الإيقاع، في رأي الباحثين، إلى أصله الإفريقي، لأن العنصر الأسود في إفريقيا، تميز منذ العصور القديمة، بإتقان الموسيقى والرقص، وقوة الأبدان وجمال الأصوات، وفي إحدى الأمسيات، طلب الخليفة هارون الرشيد من نديمه كبير الفنانين في ذلك العصر إسحاق الموصلي أن يأتي بالمع تلاميذ المعهد الموسيقي، فاصطحب إسحاق زرياب معه إلى مجلس الخليفة، وأراد الخليفة أن يمتحن الفتى، فسأله رأيه في الموسيقى والغناء، فأجابه زرياب بأدب وجرأة: إن هذا الفن غذاء للروح والعقل، وإذا سمح لسي أمير المؤمنين بالعزف على العود والغناء، فأسمعه ما لم تسمع مثله أذن، أعجب الرشيد باعتداد زرياب بنفسه، فأمر أستاذه اسحق بإحضار العود ليستمع إلى عزف تلميذه وغناؤه ففعل، ولما جيء بالعود، تشجع زرياب وخاطب الخليفة.

- إن لي عوداً تحته بنفسى، وأرهفته بإحكامي له، فهل تأذن لسي بالعزف عليه أمامك؟.

وكان زرياب قد أحضر عوده معه وتركه خارج المجلس، فسمح له الخليفة بإدخاله، ولما رآه معه قال له مستغرباً:

- إنني لا أرى عودك مختلفاً عن عود أستاذك، فما الذي منعك من العزف عليه.

أجاب زرياب: صدقت يا مولاي، النظر إلى العودين لا يشير إلى الفارق بينهما، ولكن عودي أقل وزناً من عود أستاذي بما يقارب الثلث، وإن كان حجمه مماثلاً، وإن الأوتار في عودي اتخذتها من أمعاء شبل لأن لها أضعاف القوة التي لغيرها المصنوعة من أمعاء حيوانات أخرى، ولقد زدت على عودي وترّاً خامساً يعطي صدى عميقاً، ومساحة للأنغام أكبر، أما الريشة التي أعزف بها فهي من قوائم النسر، اعتمدتها بعد تجارب متعددة قمت بها، لأنها أخف من المضارب الخشبية التي يستعملها العازفون وأرق وقعاً على الأوتار.

كان اسحق الموصلي يصغي إلى ابتكارات تلميذه التي فوجئ بها والحسد

يمزقه غيظاً لسببين: أولهما: خوفه من منافسة زرياب له في فنه ببغداد، لأنه كان زعيم الفنانين الأوحـد فيها، والسبب الثاني: غيرته من أن يحتل زرياب مكانته في قصر الخليفة، أما زرياب، ذلك الفتى العبقرى العارف قدر نفسه، فقد أدرك بذكائه أن حضوره إلى مجلس هارون الرشيد هو فرصته الكبيرة لإظهار براعته فانتبهزها ولا سيما أن أستاذه اسحق كان متكبراً عليه يعامله أسوأ معاملته في المعهد، ويستخف به وبأصله، لذا احتضن عوده مستأزناً للخليفة وبدأ يعزف عليه بمهارة، ثم غنى له قصيدة في مدحه مطلعها:

يا أيها الملك الميمون طائره هارون، راح إليك الناس وابتكروا

وفي نهاية الجلسة، سمع زرياب عتب الرشيد على اسحق الموصلي لأنه كسـم عنه وجود زرياب ونبوغه، وفي صبيحة اليوم التالي استدعاه أستاذه الذي لم تغمض له عين في الليلة السابقة وقال له: لقد تفوقت علي البارحة يا زرياب أمام أمير المؤمنين، وهذا مالا أرتضيه لنفسى، لأن الشراكة في الصناعة، تولد العداوة و أنت مخير الآن بين أمرين: فإما أن تنقى في هذه المدينة وتستهدفك سهامى، وإما أن ترحل عن بغداد ولا تعود نهائياً.

صدم زرياب بحقد أستاذه (وقرر الخروج من بغداد وكان في الواحدة والعشرين من العمر عندما بلغ (مصر) التي استقر بها عدة سنوات تزوج أثائها وأنجب أربعة ذكور وبنتين، وظل حينئذ لبغداد ومرابع طفولته، يتأرجح في صدره، فغنى في القاهرة هذه الأبيات:

بـالله قـل للنـيل عـنى إنـسى نـم أشـف من مـاء الفـرات غـليلاً
وسـل قـوادي فإـنـه لى شـاهد إـن كـان طـرفى بالبـكاء بـخيلاً

وبفضل صاحب (نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب)، نعلم أن زرياب غادر مصر مع عائلته إلى القيروان في تونس والفرقة الموسيقية الخاصة به،

وجاريتيه البارعتين في العزف والغناء وهما: مصابيح ومتعة.

وقد استقر بتوئس إبان عهد حاكمها الملك زيادة الله الأغلب في الربع الأول من القرن التاسع الميلادي، ولقد وجد زرياب من ملكها زيادة الله ترحيباً وتقديراً كبيرين لأنه كان أديباً مولعاً بالشعر والموسيقى والغناء فكرمه، وقد استطاع زرياب أن يعلم العزف على العود والغناء لفريق كبير من سكان القيروان، فتحول أحد أقدم أحيائها إلى دارة للفنون، مؤلفة من زرياب رئيساً وفرقتة التي ضمت أولاده وجواريه حتى سمي ذلك الحي باسمه، فأصبح معروفاً في القيروان باسم (الحي الزريابي).





لا توجد امرأة حرة في مجتمع غير حر...

الحياة قصة كبيرة وأخبارنا اليومية مجرد فصول تجمعت لتزيد من تفاصيلها، وكأننا لا نكتفي بالأحداث الحية، فلجأ إلى الكتب لنستعرض قصصاً جديدة تبدأ عند أول مجلد وتنتهي في آخر صفحة منه.

وهذه القصص ليست جديدة بمضمونها لأنها مأخوذة من واقع نكثُر فيه العجائب والغرائب، لكننا أحياناً نستمتع بقصة ما فيشدنا جمال السرد ويدفعنا سحر التشويق لمتابعة الأحداث ليل نهار، بينما يسبقنا الغبار إلى كتب أخرى تخليها عنها في منتصف الطريق، الخبر لم يجد يوماً طريقاً إلى كتب غادة السمان، لأن الكاتبة تعيش القصة بأحاسيسها فتحركها وتدعو القارئ للمشاركة بها فيعيش قصته من خلال ما يقرأ، لماذا؟

لأنه عندما تكتب غادة السمان (يلتهب السداخل وتشتعل الأرض الداخلية الغامضة)، كما نقول، فتفجر الأحاسيس صادقة ما بين السطور، الأدب هو فن الكتابة والأديب أو الفنان حساس لدرجة أنه يستطيع التقاط صور مستقبلية تتجلى في كتاباته بالحدس.

غادة السمان كتبت (ليل الغرباء) في صيف ١٩٦٦، فانتقدها البعض بإغراق الكتاب في الحزن والتشاؤم ووصفه (كغروب ليلة هزيمة في ساحة حرب مغسولة بالأوجاع)... كان ذلك قبل هزيمة ١٩٦٧ بأشهر قليلة، (بيروت ٧٥) كتاب آخر صدر في مطلع العام ١٩٧٥، مات على صفحاته أبطال كثيرون... أحداث مأساوية تخيلتها الأدبية لتشبك بها حلقات قصتها، فإذا بساحات بيروت تشهدها حية بدمائها وضحاياها بعد فترة وجيزة.

عالم الأدب مزدحم، فكيف تتميز كاتبة وسط حشد لا يُحَدّ من الأدباء؟ لا بد

لغادة السمان أن تتميز لأن (شهية الاستمرار عندها متوهجة، وحاسة التحدي المقترنة بالدهشة لا تنام)، هذا بالإضافة إلى ما يتمتع به من إحساس صادق وفلسفة أدبية عميقة وعفوية.

غادة السمان لا ترى في الغيم إنذاراً للمطر، بل مركباً يحملها بعيداً عن عالم الملموس لتعوض في دنيا لا تحتاج فيها للعين لكي ترى ولا للأذن لكي تسمع، الفرق بينها وبين الأشخاص العاديين أنها قادرة على إعطاء تفسير لكل ما يدور حولها، همها الكبير هو العالم الكبير والوجود والأسرار والخفايا، أما الهموم اليومية فلا ترهقها لأنها تراها على حقيقتها وتعتبرها (مجرد إلهاء يومي عن موتنا اليومي).

كتبت كثيراً عن الحروب، والموت تردد كثيراً في كتاباتها وأحاديثها. عن وحدتها مثلاً قالت: (وحدتي هي المسافة بين لحظة ولادتي ولحظة موتي، بين لحظة سقوطي في سجن الولادة ولحظة يطلق الموت سراحني)، (خوفي الكبير أن لا يكون الموت يوماً بلا أحلام، وأن يكون مثقلاً بالكوابيس التي لا نملك لها شيئاً).

الكتابة عن الشقاء والحزن والموت لا تعني بالضرورة أن يكون الكاتب مصاباً بمرض السوداوي، بل ذلك يخلف وراءه صورة واضحة عن تمرده ورفضه لتقبل ما يدور من حوله.

غادة السمان امرأة لها وجودها، ليس فقط في عالم الأدب، بل هي من خلال أدبها تبدي تمردها على المجتمع الصغير والمجتمع الكبير، وتطالب بحقوق المرأة والرجل في آن، لذلك قيل: إن أعمالها ليست محصورة في بيت أو بيئة أو مدينة بل إنها تخاطب الإنسان في كل مكان، إنها في الأدب فنانة وفي الفن امرأة، ولكنها ترفض التحدث عن المرأة الكاتبة بمعزل عن الكتاب، وترفض فكرة تقييمها كأدب نوعي منفصل، فمن الطبيعي جداً، برأيها أن تكتب المرأة عن معاناة المرأة عامة، (وهل نعتبر نزار قباني في طليعة نجومات الأدب النسائي لأنه وصف مشاعر

المرأة؟) إن القصة في النهاية هي قضية إبداع سواء تحدثت الكاتبة الرجل عن قضية المرأة أو تحدثت الكاتبة المرأة عن قضايا العمال).

لم توافق على تسمية أدب الأدبيات (أدباً نسائياً)، ولم تطلب الحرية يوماً للمرأة فقط، عادة السمان مع الفرد الناجح ومع الأدب الجيد، لم ترض بتسمية أدبها (نسائياً)، عادة السمان مع الفرد الناجح ومع الأدب الجيد. لأنه لم يعد من المسموح أن يتحول التصنيف في الأدب كالمسألة التقليدي الذي كان يطرح على القابلة القانونية (بنت أم صبي)؟ أنها مع الإنسان وحرية الفرد ذكراً وأنثى، لأن (المرأة العربية لن تنال قضية واحدة من رغيف الحرية إلا إذا كان ذلك الرغيف متوفراً للشعب بأكمله، والخطأ الذي يجب ألا تقع فيه المرأة العربية عامة، هو التوهم بأنه يمكن لمشاكلها أن تحل بمعزل عن حل مشاكل المجتمع ككل، لا يمكن وجود امرأة حرة في مجتمع غير حر، لا يمكن أن تعمل المرأة بعدل في مجتمع غير عادل، لا يمكن للمرأة أن تجد السلام في مجتمع بائس ... خلاص المرأة لا يمكن أن يكون خلاصاً فردياً).

التعبير عن الرأي والذات بهذه الطريقة دليل واضح على الرحلات الطويلة التي تقوم بها الأدبية في العمق والأعماق.

ربما ليست قصصها نتيجة تجارب شخصية ولكن تحليلها العميق ومعاناة أبطال روايتها نابعة عن شخصية مميزة لا ترضى لنفسها مركزاً إلا في العمق.

وغادة التي نشرت جميع أعمالها غير الكاملة من قصة ومقالة ورواية شعر، والتي طبقت شهرتها الوطن العربي بين أدبيات عصرها، ما تزال تعطي وتعطي وتكتب وتكتب وتشر كتبها ضمن (دار نشر خاصة) بها أعطتها شعار (البومة).

و(البومة) هي رمز التفاؤل، حسبما نقول لا كما يعتبر البعض بأنها رمز التشاؤم.

ولدت غادة السمان بدمشق وهي: ابنة الدكتور أحمد السمان الأستاذ الجامعي الذي أصبح عميداً لكلية الحقوق طوال عقدين من الزمن، فريساً للجامعة، فوزيراً

للتربية والتعليم، وهي نفسها بدأت حياتها العملية كأستاذة محاضرة في جامعة دمشق، ولكنها سرعان ما تمردت على المجتمع البورجوازي السوري، فتركت الأسرة والجامعة ودخلت إلى أوروبا الغربية في جولات من التجارب الإنسانية الحرة والعميقة، ثم عادت لتستقر في لبنان وتعمل كصحافية وكاتبة فقط.

وقد كانت عادة (مفاجأة) لجيلها من الرجال والنساء لأنها قدمت نموذجاً جديداً على الحياة العربية المحافظة، جديداً في الفكر والسلوك، ومن هنا كان إبداعها الأدبي مغايراً ومختلفاً عن القيم الأدبية السائدة في الوطن العربي.

وهي بالطبع ليست مقطوعة الصلة بتراثها الأدبي، فهي جزء من التقاليد العريقة لأدب بلادها، ولكنها جزء أضاف إلى هذه التقاليد تجربة غنية لامرأة عربية من المشرق تعمل بالكتابة، وتتقف بأهم تيارات الثقافة الإنسانية في الغرب، وخاصة الآداب الإنكليزية والفرنسية، وهي أيضاً تجربة (البنات الشابة) التي تركت وراءها الحياة البرجوازية لتعمل وتعيش في عالم قاس سريع التغيير، وقد ترك ذلك كله آثاراً واضحة على أدبها، سواء في القصة القصيرة أو في الرواية.

والملاحظ أن عادة السمان لم تكتب الرواية حتى العام ١٩٧٤ حين شرعت في كتابة (بيروت ٧٥) كانت تكتب القصة القصيرة طيلة الأربعة عشر عاماً السابقة، وكان أهم إنتاجها في القصة القصيرة هو كتاب (رحيل المرافئ القديمة) الذي كتبت قصصه الست على أثر الهزيمة العربية عام ١٩٦٧، ولكنها في أواخر عام ١٩٧٤ وقبل بداية الحرب اللبنانية ١٩٧٥ فاجأت القراء بأول رواية في حياتها الأدبية والرواية العربية الوحيدة التي سجلت البدايات غير المرئية للحرب، ففتنأت بها على نحو من الأنحاء وهي رواية قصيرة من حيث الحجم ولكنها ليست قصة قصيرة طويلة). (كوايبس بيروت).

وفي أثناء الحرب نفسها أنجزت عادة السمان روايتها الثانية الطويلة جداً (كوايبس بيروت).

وأتارت هذه الأعمال الثلاثة مجموعة من الأسئلة حول علاقة نوع الحرب

بالنوع الأدبي من ناحية ثانية.

فلماذا كانت القصة القصيرة هي التعبير الأدبي عن الحرب الوطنية عام ١٩٦٧؟ ولماذا كانت الرواية هي التعبير الأدبي عن الحرب اللبنانية عام ١٩٧٥؟ وما مغزى أن تكون رواية النبوءة قصيرة ورواية المعاشة طويلة؟ من الملاحظ أنه بالرغم من أن بعضاً من أهم أعمال غادة السمان قد تمت ترجمته إلى لغات أخرى غير العربية، كالإنكليزية والألمانية والإسبانية والروسية والفارسية والبولندية والرومانية، إلا أن شيئاً لم يترجم لها إلى الفرنسية، بعض النقاد كتبوا عنها بالفرنسية ولكن أدبها لم ينقل إلى هذه اللغة.

غادة السمان بصفتها أنثى تنتمي إلى الأقلية الجنسية التي كتبت عن الحرب، فكان هذا الحدث أحد عناصر التحرر الإنساني الذي حصلت عليه المرأة العربية، وكانت الكتابة من مظاهر هذا التحرر، ولكن غادة السمان لا تكتب أدباً خالياً من العقد النفسية كالكتب: وإن المجتمع الذي ظهر فيه (عمل) غادة السمان قد شارك في (إبداع) هذا العمل، بما يسمى في علم اجتماع الأدب، بالإبداع الجماعي، وإن المجموعات البشرية التي ساهمت في الحرب بواسطة السلاح أو بدونه هي شريك أساسي في صياغة البنى الذهنية التي برز عمل غادة السمان من داخلها.

ولا بد من الحديث عن مكانة أعمال غادة السمان في المجتمع كونها الوجه البارز في الأدب العربي الحديث، ولأنها في الأصل امرأة برجوازية فهي حظيت باهتمام أجهزة الإعلام العربية، والنقد الأدبي وقد أدركت غادة في وقت مبكر أهمية (الوسيط) وبسبب بعض صفاتها الشخصية وبسبب القيمة الأدبية لعملها، فقد تمكنت من السيطرة على هذا الوسيط: في الصحافة والنقد الأدبي، فلأنها أنثى تمارس الكتابة، ولأنها من أسرة دمشقية معروفة، ولأنها مارست تجربة الحياة في الغرب والشرق بحرية نسبية، جذبت إليها الكاميرات والتلفزيون والأقلام والصحفيين، ولأنها تعمل في الصحافة قامت بتحقيقات مثيرة وغريبة على الصحافة العربية - داخل السجون ومستشفيات الأمراض العقلية، ولأنها تميزت بالشجاعة والأسلوب

الجميل الذي يجمع بين التراث العربي والتأثيرات الأجنبية، بسبب ذلك كله تمكنت
غادة السمان من تحقيق شهرة واسعة، لا في الأوساط العربية المنقفة فقط، وإنما في
دوائر البورجوازيات العربية الصغيرة من المتعلمين تعليماً متوسطاً.
إن اهتمام معظم تيارات النقد الأدبي العربي بغادة السمان لا يعني أنها حظيت
بإعجاب الجميع، ولكنها في كل الأحوال حظيت بالاهتمام الواسع في عالم الأدب
الرحيب.

الكتابة .. هي الطغنة والدواء في اللحظة نارية واحدة..

تروي إحدى القصص، (ألف ليلة وليلة) أن رجلاً وجد نفسه في قصر، فأعطي مفتاحاً لأربعين غرفة، وسمح له أن يفتح الغرف كلها ما عدا غرفة واحدة، لكنه لم يستطع أن يقاوم رغبته أمام المغلق.

• لو كانت عادة السمان مكان هذا الرجل، هل كانت تتجراً على فتح الغرفة الأربعين، وهي القائلة بأن (للأدراج المغلقة سحراً يتغلب على كل حس) وإنها كانت في طفولتها تعالج الأدراج المغلقة (سراً) في بيوت الأقارب والمعارف؟
لم أعد أعالجها سراً، صبرت أفعل ذلك علناً أينما وجدتتها واتقاضي مقابل ذلك راتباً باهظاً!.. إنها حرفة الكتابة، ومحاولة كشف أسرار النفس البشرية .. والفنان لا يعاقب على (سرقاته) لكنه يعاقب إذا لم يتقنها! هل أتجراً على فتح الغرفة الأربعين؟ أي أديب يستطيع مقاومة سحر المعرفة حتى ولو عوقب بدرجعة صخرة (سيزيف)، أو سهل وهج الحقيقة عينه كما حدث لـ (بروميثيوس)؟ الفن محاولة بشرية متواضعة لملامسة شمس غرفة الأسرار وتعرية صناديقها (المختومة بشمع اللعنة الأحمر) للضوء .. وتفكيك الغاز الصدا الحي، لحروف أزمان مكتوبة بالدم والمعادن المائية الغامضة...

إن جوعي للمعرفة لا يوازيه غير وعيي بأحزان ما يقع خارج تلك الغرفة المحرمة الشهيية، فأنا من جيل فتح عينيه على مأساة ضياع فلسطين، وانكسر صسباه على حد شفرة هزيمة ١٩٦٧، وعائش نكبات هذا الوطن العربي، أحزان ما كان، ومخاوف ما قد يكون ... في زمن كهذا، تعجز حروفي عن ارتداء الدانتيل والذهب إلى غابة النسيان لصيد الفراشات الملونة، والدم يسيل على أطراف أصابع زمننا العربي...

مازلت أشتعل شهية أمام الغرفة الأربعين، لكن واقع أمتنا يخطف إليه قلبي

وحروفي .. لا أستطيع مثلاً أن أراقب على شاشة التلفزيون عريضة الصهاينة واحتفالاتهم بمناسبة (عيد) دولتهم العنصرية لإسرائيل، العيد رقم ٣٩، (كما كنت أفعل منذ دقائق)، ثم انفض عني المشاهد كريش الطيور، وأتابع الكتابة عن الغرفة الأربعين دون أن ألحظ سجادة الأرض التي تكاد تسرق من تحت أقدامي، مأساة الفنان العربي (وميزته في آن) هو أن يحاول سبر تلك الغرفة الشهيبة دون أن يفقد ارتباطه بما يقع خارج عتبتها، ولعل ذلك الهاجس المسكون بهموم ملايين القلوب العربية يمنح حروفه مذاقاً خاصاً شرساً ومتأججاً ... وطوبى لمن يحترف النوم على عتبة تلك الغرفة، والشخير على إيقاع النرجسية لا مبالياً بما يدور خارجها أو يقع داخلها!!!!...

■ هل تصدقن الأبراج، ما هو برجك؟ وهل تؤمنين بالصدفة والحظ؟

بالتأكيد لا أصدق الأبراج، خصوصاً وأنني كنت أكتبها ذات يوم لإحدى المجلات التي عملت بها!!! ولكنني أيضاً أثبتناها دفعة واحدة، وباستثناء (الأبراج العاجية)، الأبراج كلها لي ... وكل إنسان هو الأبراج كلها ... أنا (الدلو) حينما تكون أنفاسه بحراً من الأسرار.. وأنا (الحمل) حين يبسط حنانه غابات عطاء .. وأنا (العقرب) إذا لدغني بغدره، وأنا (الثور) الخرافي الذي يجعل الكسرة الأرضية على قرنيه وهمومها في قلبه، وأنا (الجدي) الأسطوري الذي يطير بالأبجدية العجوز إلى قمم السحر، رغم قصف الذاكرة والنزوات وحتى الأحباب، وأنا (القوس) بين يدي حبيبي إذا عزم، وأنا (الحوت) الذي يعود دوماً إلى وطنه ليموت .. هناك.

■ تسألين هل أؤمن بالصدفة والحظ؟

الحظ يا سيدي هو الاسم الذي يطلقه البعض على نعمة لا يستحقونها، أو لا يستحقها سواهم في نظرهم! وكل ما حصلت عليه في حياتي مدحت لأجله، وأعتقد

أن الحظ الكبير هو العمل ورفض اليأس .. إنني أؤمن بتصنيع الصدفة وترويض الحظ.

■ اسم غادة السمان مرادف لما هو غير مألوف، حتى في علاقتها مع الحيوانات، فمن الطيور مثلاً، طائر البوم هو طائرها المفضل، ما الذي يلفتك في هذا الطائر؟

يلفتني موقف الناس منه: الكراهية المتوارثة والتحامل المسبق، أكرر: أنا لا أنفعل بالبوم ولا أتشأم منه، لكنني أراه بعين جديدة، فأحب عينيه الواسعتين الحزینتین (تبارك خالق هذا الكون)، اللتين يخافهما البعض لأنهما تذكرانهم بأثامهم، الناس يسقطون ذنوبهم على البوم، البعض يتوهم أن سبب موت طفله هو (زيارة البوم، لا التغذية الرديئة والفقر والافتقار إلى الدواء .. وثمة من يعتاش من تغذية هذه الأوهام، لإلهاء صاحب العلاقة عن مواجهة العدو الحقيقي، وتحمله المسؤولية، بدلاً من إلقائها على قوى ما وراء الطبيعة الغامضة .. وإذا كان المألوف هو تبني الخرافات هرباً من مواجهة الواقع المرير فأنا أقع خارج المألوف، وفي صدري مجاعة لمواجهة الواقع بلا أقنعة الأوهام المتوارثة ... وكرمز لتلك المواقف قررت أن يكون شعار (منشورات غادة السمان) التي أسستها عام ١٩٧٧ طائر اليسوم .. وها هي معظم كتبي في طبعتها التاسعة ونجاحها ليس مديناً للبوم، كما أنها لو فشلت لما كان البوم مسؤولاً عن ذلك .. المألوف أحياناً هو أخطر المخدرات .. أنه هيرويين الاستسلام بدل الرفض العفوي للشباعة المتوارثة أو المكتسبة والرغبة في مقارعتها.

■ هل تحب غادة السمان أن تحلم؟ ما هو أجمل ما تحلم به؟
أحب كثيراً أن أحلم، وأجمل ما أحلم به هو الصحو.

▪ كيف تستطيع امرأة حاملة أن تتحمل العودة إلى اليقظة؟

لا أستطيع أن أتحمل حلمي إذا لم أحمله لأعود به إلى اليقظة، وأعمل على تحويله إلى واقع ملموس، أنا حاملة من نوع خاص أداتها الحقيقة المعاشة .. لست من أتباع (الحلم للحلم) بل (الحلم للبناء)، هل كان يشتعل (برج إيفل) كل ليلة دانتيلا معدنياً ضوئياً لو لم يحلم المهندس السيد إيفل ذات لحظة جنون، بتلك المنارة التي تحول الحديد إلى مادة شفافة؟... الأعمال الجميلة كلها في تاريخ الإنسانية لم تكن ثمرة تلقيح اصطناعي في أنابيب المصالح العملية الجامدة، بل جاءت نتيجة زواج جميل بين الحلم المجنون وشهية العمل في رحم العطاء..

أنا حاملة حتى ثمالة اليقظة لا الإغماء ... يمتعني أن أحلم بالصحر لأن معظم ما في حياتنا مكرس لتخدير أصواتنا الداخلية، وحتى الذين نحبهم يتحولون أحياناً إلى جرعات منومة وكمامات وقفازات مخملية لكنها قيسود .. في الحلم تخلع الأصوات كماماتها وتركض حافية القدمين على شطآن الإبداع...

▪ قلت مرة (يخيّل إلي إنني أعشق الحب وأكره الحبيب، الحب يطلق سراحي والحبيب يقيدني)، هل يمكن أن يكون ثمة حب بلا حبيب، هل ثمة نغم يسلا وتر؟

أحلى الأنغام هي تلك التي تسري بلا وتر، تمر بك كحلم نصف منسي، وكوجه حبيب خلف نافذة قطار مسرع في ليلة ماطرة ... الموسيقى هي محاولة بائسة للالتقاط تلك الموسيقى الكونية الخفية المرهفة، التي تبث باستمرار رسالة المحبة وترومى إلى الضوء والحنان والود، وتبوح بأسرار مدارات كواكب النفس البشرية والكون...

لقد اخترع الوتر في محاولة بائسة لتقليد تلك الموسيقى الكونية، التي قلما نتوقف عن عدونا في سباق الفران لننصت إليها، وهي التي تصدح في أعماق كل إنسان، ويخفت صوتها كلما ابتدعنا عن الطفولة والحب والبراءة والطبيعة، ولوثنا

الزمن بالهموم أو الشهوات الهزلية .. بيتهوفن (الأطرش) كان الأقدر على سماعها وقضى عمره وهو يحاول أن يكتبها لنا على الورق .. والحب كالموسيقى الخفية .. وأولئك الأحباب الذين نتعلق بهم واحداً بعد الآخر (أو بواحد منهم) هم سفراء من مملكة الحب الشاسعة .. يوقظون أعماقنا المطحونة بزعيق المترو وهمسات التحلق وقصص الرصاص العدوانى الخارجى والداخلى، وينعشون فيها تلك الواحة المنفية التي يحرص كل منا على نقائها .. فيحتفظ بها لنفسه ملاذاً أخيراً من الاستلاب تحت شعار الحب!.. دوماً يحدث الأمر على هذا النحو، وترتكب أبشع الجرائم تحت أعذب الشعارات! فيصير الحبيب قصصاً، بينما يظل الحب تحليقاً صوب لحظة حرية.

▪ كيف يتمثل حبك للحب؟ ماذا يعني لك الحب في المطلق؟

الحب بالنسبة لي ليس حالات عابرة، ورجالاً يحضرون ويمضون في المسافة بين الدمع والابتزاز ولعبة شد حبال التكبر المتبادل، بل أجده موقفاً من الوجود والآخرين من الكون.

إذا لم تلهيني كل صباح تلك الفرحة المتأججة المجانية لمجرد أنني حية ومعافاة، وممتلئة بشيء حار ويضيء اسمه المحبة، لا أقدر على مواجهة أوراقي ولا على الهبوط للسباحة داخل محبرتي ... الحب هو اتخاذ موقف غير عدواني من كوكبي، وهو تدفق إيجابي صوب عالم لا أهدف إلى امتلاكه بل إلى التفاعل معه وبه، وإذا تصادمنا فمن أجل المزيد من الانسجام...

في المطلق، الحب الكبير هو أن أغني على عود بلا وتر ... وأنا التي تغني على عود بلا وتر، وتجد ذلك ممعناً!...

▪ ماذا يعني لك الرجل؟ أية علاقة يمكن أن تقيمين معه؟

الرجل ليس وثناً ولا شيطناً، ولم أثقل عليه يوماً بالتعامل أو طلب الكمال ...

الرجل العربي يعني لي منجم كنوز لا نهاية لِعطائها إنه كالحصان العربي من أنبل السلالات، في نظري يمنح غالباً بلا حساب شرط احترام كبريائه وعدم السقوط في فخ محاولة ترويضه ... ثمة شيء لا يطيقه الرجل العربي ولا يسكت عليه، هو محاولة إذلاله وتركيعه كما تفعل أقلية من مريضات النفوس اللواتي يتوهمن أن الدليل على حريتهن وقوتهن هو في إذلال رجلهن وسلبه حياته العامة والخاصة وتحويله إلى كائن هجين، بدلا من المساهمة في تغذية ازدهاره، ولزدهارها إذا كانت قادرة على بناء نفسها في الحياة العامة وليس على أشلائه...

لا أنزه الرجل العربي عن الأخطاء، ولكن من قال أن المرأة معصومة عن الخطأ؟... لا أريد الدخول في الحالات الفردية الشاذة المتبادلة لأنني أريد أن أتحدث عن الجوهر، ومن حيث الجوهر أرى أن تحرر المرأة هو حالة حية من تبادل العطاء والتفاهم وجهات النظر .. وليس في العلاقات رجل شرير وامرأة نعجة - بوجه عام - ولا العكس، بل ثمة عصور من التخلف وسوء التفاهم المتبادل تركت رواسبها (وحساسياتها)، والحل ليس بنبذ الرجل ووجهة نظره والعيش في (يوتوبيا) نسوية وهمية من الحس بالعظمة والاضطهاد في آن، بل في الانفتاح الصحي الودي على نصفنا الخشن ملمساً والناعم قلباً وعطاء...

أقيم مع الرجل كل الصلات التي تؤكد إنسانيتي وتساهم في ازدهاري ومجتمعي ووطني، وتشعل أصابعي وتنكس رايات أحزاني ... لقد عرفت الرجل الزميل في العمل، والرجل الحبيب، والرجل المواطن رفيقي في الهم القومي العروبي، والرجل الأخ والشريك ... وعرفت أيضاً (الرجل - الحرب) فأنا لست رومانسية تجري عمليات تجميل للحقائق، عرفت علاقات الأظافر والأنياب والحد كما الضوء والفرح والأزهار ... وظل الرجل العربي هو ذلك الرفيق الذي امتسك احترامنا رغم تخلفنا المشترك وسقطاتنا المتشابهة ... المهم أن نتعاون للزحف صوب الضوء لا أن نقتل فيما بيننا والعاصفة عدوانية، والزمن يحاول سحقنا معاً بحذاء التاريخ..

■ هل تفضلين أو تقصدين أكثر الشخصيات التي تملئها عليك مخيلتك في رواياتك وقصصك، أم الشخصيات التي تطالعك في الواقع؟
أفضل الشخصيات التي تطالعني في الواقع و لأن القدر هو أعظم روائي ... أحاول أن أتعلم من الشخصيات التي تمر بي (أو تقيم!)، فالسلوك البشري مذهش، والإنسان العفوي مدرسة .. تلك العجوز مثلاً التي كانت تدخن بشراهة وظلت تسعل في المقهى حتى كادت تختنق وأرعبتنا، ماذا فعلت حين هدأت؟ أقسمت أن تكف عن التدخين؟ لا! وسط دمولنا، أشعلت سيجارة أخرى!... وذلك الشاب (البانك) الذي أخافني منظره ورفاقه آخر الليل، هل غرس سكينه في عنقي حين جاءني؟ لا، بل سألني خائفاً عن موقف التاكسي، ورافقه وصحبه المذعورين من ليل باريس وقد حملوا لي حقيبة أوراقي!... الحياة مدرسة مذهلة، ووحده الفنان الذي انتهى يقع صريع حب شخصياته، وكيف عن تأمل متحف الحياة حوله.

■ كتبت مرة (اهجر صديقاتي، وأخون أحبابي مع أبطال قصصي) هل هذا يعني أنك تفضلين شخصيات رواياتك لأنك تبتكرينها أنت وتضبطين حركتها، بينما الشخصيات في الواقع هي غير ذلك؟

شخصيات رواياتي أفضل أن ابتكرها، لكنها هي التي تضبط حركتها الذاتية وتتمرد على أي إيقاع مسبق، وتختار لنفسها مسارها المنسجم مع شخصيتها وواقعها الاجتماعي والتاريخي ... بل إنني قادرة على التدخل في حياة الذين حولي أكثر من قدرتي على تبديل رفة عين في جفن أحد أبطالتي ... إنهم يكتبون أنفسهم، وكل ما أفعله هو أنني أرصدهم وأنقل اصواتهم (واتجسس) على سلوكهم ... وهذا يتطلب التفرد لهم في مرحلة الكتابة وهجر صداقات العالم الخارجي ريثما تنتهي الرواية، ويتابعون حياتهم خارجها .. بدوني!...

■ ماهي المسافة بين تجربة روايتك (كوابيس بيروت) كواقع معاش، وبين كتابة

هذه الكوابيس؟

شاسعة كالمسافة بين المذكرات التي تنقل الواقع المعاش، والفن الذي يخرج بها من ذاتيتها لتصوير تجربة تخص كل إنسان يواجه حرباً مركبة كريهة ... لقد ترجمت هذه الرواية حتى الآن إلى (البولونية) و (الروسية) و (الألمانية) ضمن نطاق النشر الواسع، وإلى (الفرنسية) ضمن إطار اطروحة دكتوراة للمسوريون .. وأولئك ليسوا معنيين بما عشت (بعضهم لا يعرف إن كنت كاتبة أو كاتباً، كدار نشري الروسية التي طبعت ٥٠ ألف نسخة من عملي كطبعة أولى وتخططني في رسائلها بعبارة: مستر السمان!) ... وتلك المسافة ليست بالضرورة شاسعة كالمسافة بين ألف ليلة وليلة وألف كابوس وكابوس، فالمهم هو لمسة قوس قزح الغنية التي تخرج بالتفاصيل من الذات إلى العام دونماً افتعال أو إفسار .. وتنقل هموم شعب في محرق أفراد أحياء يتعذبون ويشتعلون ويصارعون، أقدارهم وحقاقتهم وعدوان الآخرين عليهم، قدمت المستشرقة حنا يانكوفسكا التي نقلتها إلى البولونية للرواية بأنها حكاية المأساة الفلسطينية، وواقعي المعاش يقول أنني لست فلسطينية، ولكن روايتي في أحد مستوياتها تترجم ذلك الهم ... وذلك ما لفت إليها المترجمة ودار النشر .. إذن، مع الكتابة يذهب الفنان ليصطاد كلمة مضيئة دون أن يعرف بالضبط ماذا، وإذا لم يفضل وجد الناس في عمله أشياء مختلفة وهواجس متعددة ... وتناولها كل من الزاوية التي يجد نفسه معنياً بها والكاتب معني بشيء واحد: محاولة الانطلاق من واقعه المعاش لرسم حقيقة فنية إنسانية.

■ معروف عن عادة السمان أنها تهجس وتخاف من الموت، هل ضاعفت الحرب هذا الهاجس عندك؟ هل إن اللجوء إلى الكتابة هو سلاحك في مواجهة الموت، وطريقة ما في الاستمرار؟

أخاف الموت العبي الذي لا يجدي، ويفجعني في لبنان (الالتهام الأخوي) بدلاً من الانقضاض على العدو، أهمس أيضاً بأشكال الموت المتعددة الأخرى: مسوت

الأحياء وهم يتابعون حياتهم الخاملة ... موت الأشياء الجميلة ... موت القيم، الحرب ضاعفت وعيي بأهمية الحياة، لأنها المادة الوحيدة لصنع طموحاتنا (ما عدا الموت الاستثنائي، حين يكتب المرء سيمفونية حياة خارقة بضربة موت واحدة، كما فعل أولئك النبلاء الذين فجرُوا أنفسهم بالعدو، وكما فعل خليل حاوي حين سطر قصيدة احتجاجه على التخاذل العربي برصاصة على صفحة جمجمته).

ككاتبة، صار هاجسي عدم هدر الوقت قبل كتابة ما اشتهى قوله .. وفي المرات العديدة التي واجهت الموت فيها في بيروت، تحت القصف، وبين شظية وأخرى، وفي طوابير الأحباب الذين مزقتهم قذيفة أمام يائع الخبز واكتفت بجرحي، كنت أقول له: دعني أنجز هذا السطر ... أعرف أنك حق. وإنني لن أملك ذات يوم إلا ركوب قطارك، ولكن محبرتي مازالت ممثلة كبحر

أقول له ذلك وأنا أعرف انه لم يستأذن أحداً من قبل ... هكذا نحن البشر ... هزليون تضحك منا ستائر مسرح الوجود! اللجوء إلى الكتابة قد يكون أحد الأسلحة العتيقة لمواجهة الموت لكنه استحضار للموت في آن معاً، لأنه الوعي والصحو، وكل وعي ينفي الموت يتحول إلى نكتة مملة تفهقه فقاعاتها وهي تتفقد، الكتابة هي الطعنة والدواء في لحظة نارية واحدة ... أنها استحضار الموت من النسيان، ونفيسه إلى الذاكرة في آن! ...

■ بين الماضي والحاضر والمستقبل، أين تعيش عادة السمان اليوم؟

ماذا يتبقى من جلدي إذا تخليت عن طعنات الماضي التي ترصعه؟ ارتدي الحاضر، وعيني على المستقبل، وأعيش امتزاج الأزمنة .. فالماضي لا يغادرنا حقاً، وشهية الحاضر تعني الانتماء إلى المستقبل كي يصير للأزمنة كلها معنى التفاؤل، بالنسبة لي، الماضي حاضر في حاضري، وحصان جميل علي أن أتعلم كيف أروضه في ركضي إلى المستقبل، وإلا سقطت تحت سناكه....

■ من المعروف أنك سافرت كثيراً، وإنك مستقرة دائماً للرحيل، ما هو سر هذا الرحيل، وإلى أين؟

أعي بوضوح أنني في زيارة قصيرة على هذا الكوكب، وأريد أن أراه جيداً كأية سائحة مثالية قبل أن أمضي بعيداً لكن القلب لا يستطيع أن يكون مجرد سائح على جلد زمنه وحين نرحل، نحمل معنا هواجسنا وهمومنا، وكلما ابتعدنا عن الوطن نراه بمزيد من الوضوح كالنجوم في ليلة صافية صحراوية ... كأن الغربية رحيل سري إلى الوطن، والدروب كلها تقضي في النهاية إلى مسقط القلب...

الغربة توجعني أحياناً لكنها لا تخيفني، المرعب حقاً غربة الإنسان في بلده بين صاحبه وأهله وخلانه .. وغربة المرء عن ذاته، عن جلده، عن صوته الداخلي الحقيقي ... الفراق الذي يكسر قلبي هو فراق المرء عن جوهره وحقيقته...

■ نشعر أمام عنوان كتابك (رحيل المرافئ القديمة) وكأن الرحيل قد رحل، وما عاد ثمة مرافئ يحط عليها المسافر رحاله..

ذلك يعني ببساطة أن علينا غربة (المرافئ القديمة)، وإعادة بناء جميلها بالمعنى الإنساني حتى ولو كان تراثياً ومتوارثاً، والتخلي عن الهياكل الفارغة الضخمة حتى ولو شفع التراث بها .. ويعني أيضاً أن علينا بناء مرافئ جديدة من صنعنا، لا يضيرها - ولا يشفع بها- أن تكون جنورها مغروسة في تربتنا منذ أقدم العصور.

حزين هو رحيل المرافئ أن يركض قطارك، والمحطات تهزول أمامه على السكك اللامتناهية، بلا توقف .. بلا عصفور يؤنس النافذة أو وردة تثبت في قحط الهباب المعدني .. لكن المفجع حقاً هو التخلي عن حلم بناء محطات ومنسارات جديدة..

وعز الشرق أوله دمشق

دمشق في القلب:

ثمة جراح لا تتدمل مهما مر عليها الزمن... وجرح الابتعاد عن المكان الأول من هذا النمط مع الأيام تنمو له قشرة سطحية كالقناع، لكنه يتابع حياته السرية الداخلية متوجعاً نازفاً باكياً كالولد الصغير الضال عن أمه فسي سوبر ماركت العصر.

تحتفظ الذاكرة بالمكان الأول داخل ما يشبه المصح العقلي الذاتي، تحتفظه بإتقان كما كان يوم فارقتَه كفرعوني محذك، تحافظ على كل ما فيه من أصوات وروائح وأشجار ووجوه وشوارع وأعداء وأحباب... تتقيه غالباً من الشوائب، فتزيد من جرعة السعادة الماضية، الموهومة أحياناً، ورائحة الياسمين الغابر تتضاعف داخل الذاكرة... ويرحل المرء وداخل رأسه مدينة تولى تحجيرها كما كانت بضوئها وألوانها وهمساتها وصرخاتها، يرفض القلب أن يصدق أن تلك المدينة تبدلت، وكبرت، ودخلت العصر من أوسع أبوابه، ويتذكر أحياناً بفرح أن ملايين الأطفال الذين ولدوا خلال غيابه صاروا شباناً، ثمة جزء منه يفرح بازدهار المدينة ونموها، كما أفرح بدمشق الحاضر وأباهي بها الناس في الغربة، معلنة أنها مسقط قلبي ورأسي بمناسبة وبلا مناسبة، بالمقابل ثمة جزء آخر مني هزلي كمهرج حزين وعنيد كبغل مناكد، ومكسور الخاطر كيتيم، جزء يحاول الحفاظ على صورة الماضي متحجرة داخل رأسه بأحبابه، فيها شباناً كما كانوا يوم فارقتهم، وبشوارع الماضي على حالها وببساتينه خالية من أي مبنى جديد، وبشبحه الشخصي، وحتى الذين ماتوا يرفض شطبهم من تلك اللوحة فأنا مثلاً مازلت أحتفظ بالشاعر الراحل أديب عزت وسواه نضراً وشاباً داخل ذاكرتي، ورفيقاً لأخي سلمان في المدرسة بالرغم من وفاة الشاعر منذ أسابيع كهلاً.

لقد هاجرت ذات يوم من سوريا لكنني لم أهجرها، وصحيح أن جرثومة النسيان تقرض الذاكرة كحشرة العث الأسطورية، وبالكثير من الوقت تأتي على

صبرات الحنين، لكن ذلك لم يحدث لي، ربما لأنني بحاجة إلى دمشق في قلبي كي أستمّر.. فالحب الكبير يغني الدورة الدموية الكتابية برعشات الحنين وشهوات المستحيل، ويخيل إلي أنني في اللاوعي أريد أن أحافظ على ذلك العشق مع مدينتي الأم، وهو غرام حوله الزمن من فحم إلى ماس.

سئل مرة فتان بالتومس: ألا تعود من وقت إلى آخر لزيارة باريس؟ (جريدة الفيغارو ١٩٩٥/٧/٢٨) أجاب: لا أشعر بالرغبة في العودة إلى باريس، لدي انطباع بأنني سأرى شبحي هناك، ولدي من الذكريات فيها أكثر مما ينبغي.

ثم إننا - في حالات الحب الكبير - يجب أن لا نتوقع دائماً سلوكاً منطقياً حسابياً بسيطاً من نمط أنا مشتاق إذن أنا ذاهب إلى الحبيب، يحدث أحياناً العكس تماماً، نتحاشى بعض الذين نحبهم كثيراً، فالحب جرح كبير، والوصول أحياناً نمسط من إدارة السكين داخل الوجع الدامي أو هو ببساطة انطفاء، ثمة فرح مروع وحزن مروع في العودة إلى مدينة الطفولة والصبا بعد فسراق دام زهاء ربع قرن... وأشعر أحياناً أنني لم أعد أجرو على مواجهة هذا الحب الكبير ولا على مواجهة احتمال خسارته، ولا على مواجهة شبحي الذي مازال يتجول هناك كما كان يوم رحيلي.

ابتسم، فكل شيء مظلّم!

الحزن البهيج:

حرت هل اكتب لكم اليوم عن مذابح الكونغو كنموذج لمذابح العالم الثالث التي لا نجهلها أم عن الأزمة الإيرانية، الطالينية أم عن الدراما شبه الهزلية لكنتون/مونيكام أم عن أحزاننا العربية وهمومنا وأزماننا وحمقاتنا وخلافتنا، أم عن صورتنا المؤسفة في الغرب، أم عن الرفيق يلتسين وحالاته أم عن الإرهاب الأمريكي ضد العرب في مجالات عديدة، أم عن هموم المدينة اللامسية بيروت أم عن الفياعرا والتلوث وقنبلة إسرائيل الذرية، والمجاعات والزلازل والطوفسان في بنغلادش وسواها من الهولاجس اليومية لكوكبنا والمآسي..

ثم قررت أن أنجو بكم وبنفسي من وسادة أحزاننا، تلك التي ننام على شوكة قلقها ونصحو على كوابيسها، لنذهب اليوم هاربين من ذلك كله في إجازة قصيرة مع الحب، ونترك الهم يذهب أيضاً في إجازة من نفسه، ستقولون لي أن الحب هو الحزن أيضاً؟ هذا صحيح، ولكنه حزن بمذاق عذب!!..

أهو الحب؟

الآن يبدو لي الخطأ وحده صواباً محكماً والجنون تعقلاً، والبهذيان حكمة.

تراني أحبك حقاً؟

المتلصص:

في الفناء الخلفي لأسراري التقيتك متلصصاً على أحزاني، لماذا لم تقرع الباب الأمامي الفاخر المزخرف كما يفعل الآخرون؟
في الفناء الخلفي لروحي وجدتك، نهراً من الفرح فهجرت السباحة الحذرة، واخترت الغرق...

شيزوفرانيا:

من المرعب أن يقطن جسدك بيتاً
وتهيم روحك في قارة أخرى، في بيت آخر...
ولكن، تلك هي حال المغتربين جميعاً؟

سوء تفاهم:

يهمس قلبي: أريد الرحيل إلى الغيتار والزيتون والغناء..
يصرخ قلبك: اللعنة! لقد هبطت أسعار البورصة اليوم وانخفض الدولار.
ثمة خلل بيننا، وصوتي بدأ يشبه أصوات النفاحة مع سكين تخترقها.

حقيقة القمر:

حين كنت صغيرة
اقتنعت أن القمر وجه بشري مضيء...
الآن صرت قادرة على أن أراه بوضوح..
حين يشع متوحش البهاء فوق البحر البيروتي...
كيف لم ألحظ من قبل أنه يبكي ... يبكي...

رجل خرافي:

ثمة حكايا حب يقتلها أن تتحقق
وتزدهر بسمّ الفراق.
وثمة نسيان شائع لا يعرف النسيان
وثمة حزن شاسع كابتسامة طفل.
وثمة أنت...
حضور مكهرب مهيمن، وبلا جسد

أنجبت منه توأماً سيامياً اسميتهما: الحزن والفرح ... ولا حياة لأحدهما مسن
دون الآخر، تلك هي المسألة.

مناضل ملتبس:

منحك غيائي كله، منحك تصديقي لأكاذيبك كلها واحتفائي بتزويرك وتصفيقي
لخطبك المنبرية، منحك الغفران والشوارع وأجساد أطفالك لمتاريسك ودم قبيلتي
وعظام أسلافي والتفاح والورد الجوري والجمر ومفاتيح الجسد.
أما تلك الحديقة السرية داخل روحي، فلا أستطيع أن أعيرك مفتاحها الصدي
في تلك الحديقة المنعزلة تختبئ روحي ... وكما في الأسطورة، إذا قبضت على
المفتاح بيدك، وخطوات داخل حديقتي السرية تلك.

صرت أنا رماداً:

أحبك؟ أحبتك بالتأكيد ذات مرة.
ولكن ما صلة الحب بالثقة، وأنا الناجية من النار التي أوقدتها؟ لم يكن ذنبي
أنني حين رقصت رقصة الزهو أمام مصباحك، انفجر قبل أن يحرق أجنتي،
وكانت نارك برداً وسلاماً على جراحي.
ها أنا مختبئة في حديقة النفس السرية أحاول ترميم روحي من (التباساتك)

مناضل بوجه واحد:

في مدخل الفندق مرآة مشروخة تسمرنى...
لماذا أحب أن أتأمل وجهي في مرآة مكسورة، لكنها مازالت متماسكة داخل
إطارها على الجدار؟ ربما لأنني أحب الحقيقة...
أما أنت أيها الشقي، فناصر وشامخ.
تحقق فيك المرايا وتأمل وجهها في عينيك الأكثر نقاء منها.

أمشي في مانهاتن والعمارة تتهدد تحسنت الإسفلت، وتركض الجردان
والتماسيح والأبالسة وتزفر أنفاسها بخاراً أسود عبر شقوقه.

أيها الشقي، العمر بدون قط مذعور هارب.

في ليلة نيويورك الزخام والوحشة، أغمي عليها فوق صدري.

وليمة الحب معلبات صغيرة قصديرية الطعم، علبه لعشاء المتوحد ... غرف
كالمعلبات للسجناء، علبه لكل شخص في فندق بأقفاس انفرادية لعصافير شردت
عن سربها، تلفزيون يسجن العينين مقابل حوض استحمام بارد مكهرب، وثمة قاتل
مفرد لكل شخص، وحدها أكياس القمامة مشتركة...

كل ما في نيويورك يطحننا في معامل الكآبة المسائية الهامبرغرية النيونية
الفاقة البلاستيكية الصقيعية، في عاصمة من عواصم الإمبراطورية الحاكمة في ليل
الظلمات.

العصافير التي تجرؤ على الطيران في درب البرق، وهي وحدها قد تتجو
بنفسها من هول الأهوال.

إنني ابتسم، لأن كل شيء مظلم ... مظلم...

ثملة بالربيع، أم بحبك؟

الحب في بيروت:

على ناصية الفرح البحري التقينا، كنت جبانة، لا أمسك بغير مظلتي.
معك اكتشفت لذات المطر الربيعي، حيث تتحول رئة الفضاء حقولاً من
الأزهار البرية وعطور الغابات ... وتهب رائحتها من شعرك.
لعلي مازلت أحبك ... فما زلت حين أطلع قصائدك، أطلق شهقة الدهشة
الأولى التي زقرقتها يوم شاهدت البحر للمرة الأولى.
أرحل في أجسادك عاصمة بعد أخرى دونما (فيزا)، وأتقدم من مخافر قلبك
بطلب إقامة دائمة في دورتك الدموية وأكتب على إيقاع نبضك!
قلت لك بأنني أفنّس عن الاستقرار
فاقنعتني بالإقامة في غيمة فوق الروشة، واقتنعت!
أهذا هو الحب في بيروت؟

ثملة بلقائك أم بالربيع؟

حبك يشبه العودة إلى الطفولة.

من جديد تتحول علب الكبريت الفارغة إلى قطارات
وتبدو الفراشة فوق الوردة لغزاً ذهبياً
ويعود قوس القزح دروباً معبدة بالألوان في السماء
من جديد يعود العالم جديداً، ونلتهم تفاح البراءة والأفعى ساكتة، والعمر لحظة
خلود صغيرة...

من جديد نعيد الاعتبار إلى كلمة: أحبك ... بعدما تلوثت طويلاً، ومضغوطاً
كاللبان و(الشيكلتس)، وعهروها وباعوها في أسواق الرياء، وغطوها بالأقنعة
ورموا بها ليلاً في براميل القمامة كأطفال الخطيئة.

حبك رئة الأوكسجين في كوكب ملوث حتى موت الأرانيب البيض كلها...

زحام:

الحب ازدحام مكتظ
فأنا لم أعد وحيدة داخل جلدي
ما دمت تقيم تحته أيضاً

جماليات الفراق:

حبنا قوس قزح، قال للشمس:
لا تشرقي كثيراً وإلا رحلت!
ولا تغيبني تماماً وإلا رحلت!
فأنا الحب الكبير، يقتلني الوصال الكبير والفراق الكبير!

براءة:

لا تلم الرتيلاء
لأنها تتسج من بيتها مكيدة..
لعلها تدافع عن نفسها في زمن شعاره:
إما أن تأكل أو أن تؤكل!

متعة الوحشة:

سيدة الحكايا الأسطورية
وحيدة في قصرها الشاسع وقد طردت مهرجي البلاط والحاشية والخدم.
سيدة الحكايا الأسطورية.
يقتتل العشاق في باحة قصرها
وهي تحتضر في الظلام خلف نافذتها في غرف الكبرياء...

إلى دمشق... مسقط قلبي رسالة من جبانة!

(١): كل الذين يكتمون عواطفهم بإنقان، ينفجرون كالسيل إذا باحوا، وهسا أنسا أبوح وأكبت عن مسقط قلبي.

حينما أكتب عن دمشق، تتحول ورقتي إلى شراع أبيض ويصير القلم في يدي سنبله وأصابعي قوس قزح.

حينما أكتب عن دمشق تتوهج اللغة الأسنة بالخصب والضوء، تدب الروح فيها فتستحيل الكلمات إلى قبيلة أطفال بعيون فضولية، تهرول في ملعب الورقة تفر فوق السطور، تتهاشم عليّ في ركن الصفحة مثل أولاد الحضانة (العفاريات) الذين اكتشفوا أن معلمهم عاشقة.

حينما أكتب عن دمشق انتحب على حضن الورقة بصمت، بدموع من حبر.

(٢): في دمشق ساحة، في الساحة بيت، للبيت شرفة، للشرفة صبية تروح جيئة وذهاباً طوال الليل، في يدها خارطة العالم، في عينيها مرصد للطائرات الداهية والآتية التي كانت تتمنى لو ترحل بها سائحة كونية إلى كوكبنا وكواكب أخرى - إذا أمكن

رحلت الصبية رقصت الدبكة طويلاً في مواكب الدهشة، وضعت قدماً في القطب وقدماً في خط الاستواء، وركضت وعربات الزمن تركض فوقها جيئة وذهاباً ألف عام.

ولكن لا تزال تلك الصبية في الساحة ذاتها، في البيت ذاته، في الشرفة ذاتها. منذ أكثر من ربع قرن لم يتبدل شيء لكن خارطة الدنيا اشتعلت بين يديه وتحولت إلى رماد على الشرفة.

حين أموت سيكون بوسع الشعراء الصعاليك التملين في آخر الليل، أن يشاهدوا تلك الصبية بوضوح، وهي لا تزال تروح وتجيء كشبح على الشرفة ذاتها، حتى

بعد هد المبني.

(٣): قال صديقي خليل حاوي إن المرأة تولد في الشرق بغياً ثم تقضي العمر في نفق البكارة.

قلت له إن ذلك ليس، صحيحاً دائماً، أنا ولدت نورساً لكنه بلا أجنحة وقضيت عمري وأنا أنسج أجنحة بها بعيداً بعيداً، وحين اكتمل جناحي وصاب عودهما كان قد حان وقت العودة إلى البيت في دمشق.

(٤): أتحدث عن دمشق وأنا أضمر سورية، كأن دمشق هي الاسم الحركي لسورية في قلبي، إنها اللاذقية مدينة أمي، والفرلق وكسب وصافيتا وجبلة وبانياس، وطرطوس وحمص ووادي العيون والدريش، وبلودان وحلب والرقّة والحسكة، وتكرم والسويداء وغيرها من مرابع الطفولة والصبا، أسماء كثيرة لا منسية أردها كمفاتيح موسيقية لأنشودة القلب السرية.

ليس قليلاً أن تكون أمك الملكة زنوبيا ووالدك صلاح الدين الأيوبي وخالتك ملكة ماري.

ربما لذلك ركبت في قطارات كثيرة، وأخطأت حين توهمت أنني سأجد درياً لا تقودني إليك كل الدروب تقضي إليك يا وطني، تراني سأعود إلى مدينة القبلية الأولى لأعيش حبي الأخير.

(٥): لم أسافر يوماً وحدي، كانت دائماً معي كأنها سجائتي، ترافقتي مدججة الصديق القاسي، لا أكاد أغازل مجهولاً في القطار حتى تشهر أمام وجهي امرأة الحقيقة، فأرى فيها وجوه أحبابي الحقيقيين، لم تدعني يوماً وحدي، حاولت الهرب منها في الحانات للرقص مع الغرباء حتى آخر العمر وأقاصي التخدير، لكنها كانت تلازمي تلك السجانة المدعوة ذاكرتي، تسكب على رأسي الماء البارد من نبع الفيجة في لحظات جنوني تنلو علي اسم أبي وأجدادي، تجرني من شعري فسي أحلامي إلى مزار ستي زينب وسيدي خالد بن الوليد، فأستعيد وجهي ومحبرتي وأجديتي.

(٦): لماذا، حين أكون ثمة في الطائرة، تتخذ السحب كلها شكل خارطة سورية، سحابة إثر أخرى؟

(٧): أحببت دمشق بجنون المراهقين، وكما في حكايا الحب الكبيرة كلها، كان لا مفر من شجار العشاق، والفراق ذلك الشجار الأهوج الذي ينتهي بعد لحظات أو سنوات - أو قرون - بعناق محموم وتساؤل صادق بلا جواب، لماذا تشاجرنا؟... ربما لأننا أحببنا أكثر مما ينبغي، هل يتصرف المرء بحماسة نادرة المثال إلا حين يكون عاشقاً.

لقد كنت دائماً عاشقة رديئة، أقول لا، وأضمر نعم، وكلما كبرت (النعم) قلت (لا) بصوت أعلى.

ومثل عطيل، أحبيبتك يا دمشق ذات يوم أكثر مما ينبغي، ويتعقل أقل، وعلى حافة الرمادي بين الحنان والقتل رحلت مع (ياغو).

ومنذ التحمنا في عناق يشبه القتل وأنا أفضل أن أمارس الحب العذري معك من بعيد يا دمشق.

في الغربة رسمتك كما عرفتك، ومشيت في شوارعك الغابرة ولم أعد أعرف كيف أسافر ثانية منك فقد صرت أسيرة (الخارطة) اللامنتية.

وأنا في الوطن كنت أبكي شوقاً للرحيل إلى المنفى، وها أنا اليوم أبكي لأنني حققت أحلامي.

(٨): كل كتاب من كتبي يترجمونه لي في الغربة، أحمله راكضة على حضن دمشق كطفل منهوم بالجوع على الحنان، يحاول لفت انتباه أمه إليه لتحبه أكثر. حاولت أن أغزو لغات أخرى وعيني على دمشق، مثل ولد شاطر يحاول أن يبهز أستاذه في المدرسة.

قبل أن يموت الرسام الفرنسي دافيد في منفاه البلجيكي أوصاهم بدفن قلبه في باريس وجسده في المنفى، وحي غادر شوبان وطنه بولونيا إلى باريس حمل حفنة من تراب بلده أوصاهم بدفنها معه في باريس.

لن أكتب في وصيتي - كما فعل الرسام دافيد - وأقول أدفنوا قلبي في دمشق وجسدي في باريس، فقد ظل قلبي مختبئاً طوال سنوات الغربة في تراب ياسمينية بيتنا العتيق في ساحة النجمة، ولم يغادر دمشق يوماً ليعود إليها.

ولم أحمل معي حفنة من تراب وطني كشوبان لدفنها معي في المنفى، فجسدي نفسه سيستحيل حفنة من تراب سورية أينما دفنوه.

(٩): في الليلة الماضية قالت لي ذاكرتي ارسم لي خروفاً فرسمت لها مدينة اسمها دمشق، لم أرسمها طالعة في مرايا الماضي وصناديق الحنين، بل رسمت شهوة مستقبلي ماضي وحده.

في الليلة الماضية، رسمت شرفتي العتيقة في ساحة النجمة، ووقفت عليها أمشط شعري، لم تمر مواكب الماضي أمام عيني، ولم أنتخب بل ابتهجت إذ شاهدت تحت شرفتي الجيل النضر الذي ولد خلال غيبتني، والجيل الذي سيولد بعد أن أموت، أهطلي يا دمشق، وسأصير تراباً.

(١٠): ما الذي لا أفعله، لمن يعطيني بطاقة دخول عتيقة إلى سينما الفردوس في دمشق، تعود بتاريخها إلى عام ١٩٦٣ مساء الخميس الربيعي الأول حفلة الساعة السادسة، وتحمل رقم مقعد جلست فيه ليلتها إلى يمين أبي، ما الذي لا أفعله، لمن يسقيني لكسيراً يعيدني لأعيش تلك الثانية الأليفة ولو في ومضة عين، ما الذي لا أفعله لمن يمنحني لحظة ألفة أنيسة مشابهة لأسبح في النهر مرتين.

(١١): أحتمي الأغاني القديمة من كؤوس الذاكرة في الحانة البعيدة، أحتمي الميجانا والعتابا، وأدمم بها سراً في صالة الأوبرا بيساريس رغباً عن أنف "بافاروتي" وحنجرته المدهشة.

أدور في متاحف أمستردام نيويورك ولندن وأنا لا أزال أعلق على جدران قلبي لوحات بريشة "التيناوي" رسم فيها عنبرة بشاري جدي.

(١٢): بهدوء أترك شفرة الذكريات تقطع شرياني، وأترك دمي يهطل على الورقة قطرة قطرة حرفاً حرفاً وردة جورية، وجهاً وجهاً.

وجوه الذين عرفتهم، والذين ساعرفهم
أفود حسلة الغربية، وعيني على الوطن، مثل عاشقة تريد استقزاز حبيبها
العسير .

(١٣): في احتفالات الغربية الباريسية، أقص الشريط التذكاري للمطر في
مطعم (الماكسيم) بمنجل حقنا العتيق في القرية الشامية.

لو كنت امرأة من الشوكولاته.

لأذابتني شمس سنغافورة ومانيلا.

ولو امرأة كنت من الملح.

لأنهمتني مياه البحار واستعادتني بين لشبونة وبرشلونة

لكنني سندباد، دارت الدنيا وهي تفتش عن حبيبها وكان دوماً في قاعها،
واسمه وطنها.

(١٤): كان متوحشاً وقاسياً، أحسست كفه كلوح من الجليد حين أخذ يدي،

لكنني أحببته وتبعته حتى آخر العالم، والثلج يهطل من عينيه فوق، وشفاهه تنفخ
رياح جبال الألب حين يهمس باسمي وكان اسمه: الغربية.

لست بنادمة على ذل الحب الشقي فقد علمني أكثر من أي أستاذ آخر كيف
أكتب اسم الوطن بالنجوم على سبورة الليل.

(١٥): حين عشت في دمشق لم أرها جيداً، كنت كمن يلصق وجهه بمرآة فلا

يرى شيئاً واليوم بوضوح أراها من بعيد، بجلوها ومرها، فهل عين الحلم أكثر
صحواً من عين الصحو؟

حين أعود إلى دمشق سأخلع قميص العواصف والأمطار والصواعق وأرتدي
ثوب الشمس وسيكون بوسعي أن أرى سماء مرصعة بالنجوم حتى آخر الأريسة
واللانهايات، وسأتعلم من جديد كيف يتهجد قلبي اسم الله في المدى، وكيف أصلي
بلا صوت، وكيف أنام بلا كوابيس.

(١٦): تسألني، حسناً، بعد ذلك كله، لماذا لا تعودين غداً، لا أعود لأنني جبانة

في ملكوت الحب، لا أعود لأنني خائفة، ما الحب إلا الحبيب الأول: الوطن، لكنني خائفة أمام الحب الكبير، أنا ملكة الجبناء وليس بمقدوري أن أخسر دمشق مرتين، كأنني أريد أن أظل بعيدة كي تظل دمشق تحبني، مثل عاشقة لا تجرؤ على لقاء حبيبها كي لا يخيب أمله فيها، فأنا امرأة لا تصلح لغير الكتابة وأخاف ملامسة حبي على غير جسر حرفي، وأترك جبران خليل جبران يعبر عن نفسه وعني حين كتب إلى أحد أصدقائه يقول: تسألني يا منصور إذا كنت أود العودة إلى لبنان؟ طبعاً أريد أن أعود إلى موطن حدثني، إلى مهبط الرحي، إلى ضفاف الوادي الذي منه تغذت روحي، نعم أود أن أعود إلى لبنان، إلى بشرتي، ولكن يا منصور: إذا عسدت إلى لبنان... إلى بشرتي هل يبقى الناس هناك طويلاً على احترامي، أم أنه لسن يمضي وقت طويل على بقائي بينهم حتى يبدأ يهزأ مني أقرب الناس إلي، لذلك يا منصور أؤثر البقاء بعيداً، أحب لبنان ولبنان يحبني.

ما أجب جبران أمام حبه الكبير لبنان، وما أصدق بوجهه، وها أنا أدخل بكل فخر في سلك العشاق الجبناء، وأرتجف خوفاً كقط صغير أما حبي الكبير دمشق. فهل أجرؤ على العودة؟...

لا توجد امرأة حرة في مجتمع غير حر ...

الحياة قصة كبيرة وأخبارنا اليومية مجرد فصول تجمعت لتزيد من تفاصيلها، وكأننا لا نكتفي بالأحداث الحية، فنلجأ إلى الكتب لنستعرض قصصاً جديدة تبدأ عند أول مجلد وتنتهي في آخر صفحة منه.

وهذه القصص ليست جديدة بمضمونها لأنها مأخوذة من واقع تكثر فيه العجائب والغرائب، لكننا أحياناً نستمتع بقصة ما فيشدنا جمال السرد ويدفعنا سحر التشويق لمتابعة الأحداث ليل نهار، بينما يسبقنا الغبار إلى كتب أخرى تخليها عنها في منتصف الطريق، الغبار لم يجد يوماً طريقاً إلى كتب غادة السمان، لأن الكاتبة تعيش القصة بأحاسيسها فتحركها وتدعو القارئ للمشاركة بها فيعيش قصته من خلال ما يقرأ، لماذا؟

لأنه عندما تكتب غادة السمان (يلتهب الداخل وتشتعل الأرض الداخلية الغامضة)، كما تقول، فتفجر الأحاسيس صادقة ما بين السطور، الأدب هو فن الكتابة والأديب أو الفنان حساس لدرجة أنه يستطيع النقاط صور مستقبلية تتجلى في كتاباته بالحدس.

غادة السمان كتبت (ليل الغرباء) في صيف ١٩٦٦، فانتقدتها البعض بإغراق الكتاب في الحزن والتشاؤم ووصفوه (كغروب ليلة هزيمة في ساحة حرب مغسولة بالأوجاع)... كان ذلك قبل هزيمة ١٩٦٧ بأشهر قليلة، (بيروت ٧٥) كتاب آخر صدر في مطلع العام ١٩٧٥، مات على صفحاته أبطال كثيرون... أحداث مأساوية تخيلتها الأدبية لتشبك بها حلقات قصتها، فإذا بساحات بيروت تشهدها حية بدمائها وضحاياها بعد فترة وجيزة.

عالم الأدب مزدهم، فكيف تتميز كاتبة وسط حشد لا يُحَدُّ من الأدباء؟ لابد لغادة السمان أن تتميز لأن (شهية الاستمرار عندها متوهجة، وحاسة التحدي المقترنة بالدهشة لا تنام)، هذا بالإضافة إلى ما تتمتع به من إحساس صادق وفلسفة

أدبية عميقة وعفوية.

غادة السمان لا ترى في الغيم إنذاراً للمطر، بل مركباً يحملها بعيداً عن عالم الملموس لتغوص في دنيا لا تحتاج فيها للعين لكي ترى ولا للأذن لكي تسمع، الفرق بينها وبين الأشخاص العاديين أنها قادرة على إعطاء تفسير لكل ما يدور حولها، همها الكبير هو العالم الكبير والوجود والإسرار والخفايا، أما الهموم اليومية فلا تrehقها لأنها تراها على حقيقتها وتعتبرها (مجرد إلهاء يومي عن موتها اليومي).

كتبت كثيراً عن الحروب، والموت تردد كثيراً في كتاباتها وأحاديثها. عن وحدتها مثلاً قالت: (وحدتي هي المسافة بين لحظة ولادتي ولحظة موتي، بين لحظة سقوطي في سجن الولادة ولحظة يطلق الموت سراحى)، (خوفي الكبير أن لا يكون الموت يوماً بلا أحلام، وأن يكون مثقلاً بالكوابيس التي لا نملك لها شيئاً).

الكتابة عن الشقاء والحزن والموت لا تعني بالضرورة أن يكون الكاتب مصاباً بمرض السوداوي، بل ذلك يخلف وراءه صورة واضحة عن تمرده ورفضه لتقبل ما يدور من حوله.

غادة السمان امرأة لها وجودها، ليس فقط في عالم الأدب، بل هي من خلال أدبها تبدي تمردها على المجتمع الصغير والمجتمع الكبير، وتطالب بحقوق المرأة والرجل في آن، لذلك قيل: إن أعمالها ليست محصورة في بيت أو بيئة أو مدينة بل إنها تخاطب الإنسان في كل مكان، إنها في الأدب فنانة وفي الفن امرأة، ولكنها ترفض التحدث عن المرأة الكاتبة بمعزل عن الكتاب، وترفض فكرة تقييمها كأدب نوعي منفصل، فمن الطبيعي جداً، برأيها أن تكتب المرأة عن معاناة المرأة عامسة، (وهل نعتبر نزار قباني في طبيعة نجمات الأدب النسائي لأنه وصف مشاعر المرأة؟) إن القصة في النهاية هي قضية إبداع سواء تحدثت الكاتب الرجل عن قضية المرأة أو تحدثت الكاتبة المرأة عن قضايا العمال).

لم توافق على تسمية أدب الأدبيات (أدباً نسائياً)، ولم تطلب الحرية يوماً للمرأة فقط، غادة السمان مع الفرد الناجح ومع الأدب الجيد، لم ترض بتسمية أدبها (نسائياً)، غادة السمان مع الفرد الناجح ومع الأدب الجيد. لأنه لم يعد من المسموح أن يتحول التصنيف في الأدب كالسؤال وأنتى، لأن (المرأة العربية لن تتال قسمة واحدة من رغيف الحرية إلا إذا كان ذلك الرغيف متوفراً للشعب بأكمله، والخطأ الذي يجب ألا تقع فيه المرأة العربية عامة، هو التوهم بأنه يمكن لمشاكلها أن تحل بمعزل عن حل مشاكل المجتمع ككل، لا يمكن وجود امرأة حرة في مجتمع غير حر، لا يمن أن تعامل المرأة بعدل في مجتمع غير عادل، لا يمكن للمرأة أن تجد السلام في مجتمع بائس ... وخلاص المرأة لا يمكن أن يكون خلاصاً فردياً).
التعبير عن الرأي والذات بهذه الطريقة دليل واضح على الرحلات الطويلة التي تقوم بها الأدبية في العمق والأعماق.

ربما ليست قصصها نتيجة تجارب شخصية ولكن تحليلها العميق ومعاناة أبطال روايتها نابعة عن شخصية مميزة لا ترضى لنفسها مركزاً إلا في العمق. وغادة التي نشرت جميع أعمالها غير الكاملة من قصة ومقالة ورواية شعر، والتي طبقت شهرتها الوطن العربي بين أدبيات عصرها، ما تزال تعطي وتعطي وتكتب وتكتب وتنشر كتبها ضمن (دار نشر خاصة) بها أعطتها شعار (اليومة).
و(اليومة) هي رمز التفاؤل، حسبما نقول لا كما يعتبر البعض بأنها رمز التشاؤم.

ولدت غادة السمان بدمشق وهي: ابنة الدكتور أحمد السمان الأستاذ الجامعي الذي أصبح عميداً لكلية الحقوق طوال عقدين من الزمن، رئيساً للجامعة، فوزيراً للتربية والتعليم، وهي نفسها بدأت حياتها العملية كأستاذة محاضرة في جامعة دمشق، ولكنها سرعان ما تدرت على المجتمع اللبوري جوازي السوري، فتركت الأسرة والجامعة ودخلت إلى أوروبا الغربية في جولات من التجارب الإنسانية الحرة والعميقة، ثم عادت لتستقر في لبنان وتعمل كصحافية وكاتبة فقط.

وقد كانت عادة (مفاجأة) لجيلها من الرجال والنساء لأنها قدمت نموذجاً جديداً على الحياة العربية المحافظة، جديداً في الفكر والسلوك، ومن هنا كان إبداعها الأدبي مغايراً ومختلفاً عن القيم الأدبية السائدة في الوطن العربي.

وهي بالطبع ليست مقطوعة الصلة بتراثها الأدبي، فهي جزء من التقاليد العريقة لأدب بلادها، ولكنها جزء أضاف على هذه التقاليد تجربة غنية لامرأة عربية من المشرق تعمل بالكتابة، وتتوقف بأهم تيارات الثقافة الإنسانية في الغرب، وخاصة الآداب الإنكليزية والفرنسية، وهي أيضاً تجربة (البنات الشابة) التي تركت وراءها الحياة البرجوازية لتعمل وتعيش في عالم قاس سريع التغيير، وقد ترك ذلك كله أثراً واضحاً على أدبها، سواء في القصة القصيرة أو في الرواية.

والملاحظ أن عادة السمان لم تكتب الرواية حتى العام ١٩٤٧ حين شرعت في كتابة (بيروت ٧٥) كانت تكتب القصة القصيرة طيلة الأربعة عشر عاماً السابقة، وكان أهم إنتاجها في القصة القصيرة هو كتاب (رحيل المرافئ القديمة) الذي كتبت قصصه الست على أثر الهزيمة العربية عام ١٩٦٧، ولكنها في أواخر عام ١٩٧٤ وقبيل بداية الحرب اللبنانية ١٩٧٥ فاجأت القراء بأول رواية فسي حياتها الأدبية والرواية العربية الوحيدة التي سجلت البدايات غير المرئية للحرب، فتنبأ بها على نحو من الأنحاء وهي رواية قصيرة من حيث الحجم ولكنها ليست قصة قصيرة طويلة).

وفي أثناء الحرب نفسها أنجزت عادة السمان روايتها الثانية الطويلة جداً (كوبيس بيروت).

وأثارت هذه الأعمال الثلاثة مجموعة من الأسئلة حول علاقة نوع الحرب بالنوع الأدبي من ناحية ثانية.

فلماذا كانت القصة القصيرة هي التعبير الأدبي عن الحرب الوطنية عام ١٩٦٧؟ ولماذا كانت الرواية هي التعبير الأدبي عن الحرب اللبنانية عام ١٩٧٥؟ وما مغزى أن تكون رواية النبوءة قصيرة ورواية المعيشة طويلة؟ من الملاحظ أنه

بالرغم من أن بعضاً من أهم أعمال غادة السمان قد تمت ترجمته إلى لغات أخرى غير العربية، كالإنكليزية والألمانية والإسبانية والروسية والفارسية والبولندية والرومانية، إلا أن شيئاً لم يترجم لها إلى الفرنسية، بعض النقاد كتبوا عنها بالفرنسية ولكن أدبها لم ينقل إلى هذه اللغة.

غادة السمان بصفتها أنثى تنتمي إلى الأقلية الجنسية التي كتبت عن الحرب، فكان هذا الحدث أحد عناصر التحرر الإنساني الذي حصلت عليه المرأة العربية، وكانت الكتابة من مظاهر هذا التحرر، ولكن غادة السمان لا تكتب أدباً خالياً من العقد النفسية كالكتب: وإن المجتمع الذي ظهر فيه (عمل) غادة السمان قد شارك في (إبداع) هذا العمل، بما يسمى في علم اجتماع الأدب، بالإبداع الجماعي، وإن المجموعات البشرية التي ساهمت في الحرب بواسطة السلاح أو بدونه هي شريك أساسي في صياغة البنى الذهنية التي برز عمل غادة السمان من داخلها.

ولابد من الحديث عن مكانة أعمال غادة السمان في المجتمع كونها الوجه البارز في الأدب العربي الحديث، ولأنها في الأصل امرأة بوجوازية فهسي حظيت باهتمام أجهزة الإعلام العربية، والنقد الأدبي وقد أدركت غادة في وقت مبكر أهمية (الوسيط) وبسبب بعض صفاتها الشخصية وبسبب القيمة الأدبية لعملها، فقد تمكنت من السيطرة على هذا الوسيط: في الصحافة والنقد الأدبي، فلأنها أنثى تمارس الكتابة، ولأنها من أسرة دمشقية معروفة، ولأنها مارست تجربة الحياة في الغرب والشرق بحرية نسبية، جذبت إليها الكاميرات والتلفزيون والأقلام والصحفيين، ولأنها تعمل في الصحافة قامت بتحقيقات مثيرة وغريبة على الصحافة العربية - داخل السجون ومستشفيات الأمراض العقلية، ولأنها تميزت بالشجاعة والأسلوب الجميل الذي يجمع بين التراث العربي والتأثيرات الأجنبية، بسبب ذلك كله تمكنت غادة السمان من تحقيق شهرة واسعة، لا في الأوساط العربية المثقفة فقط، وإنما في دوائر البورجوازيات العربية الصغيرة من المتعلمين تعليماً متوسطاً.

إن اهتمام معظم تيارات النقد الأدبي العربي بغادة السمان لا يعني أنها حظيت

بإعجاب الجميع، ولكننا في كل الأحوال حظيت بالاهتمام الواسع في عالم الأدب
الرحيب.



دمشقية العطر والفكر وفي جعبتها رماح قاطعة لظعن الظلم...

إنها "ناديا الغزي" الدمشقية حتى شغاف القلب ... ورثت "جينات" الإبداع من أسرة عريقة في العلم والأدب والفقه، بدأت مسيرتها الأدبية بالشعر، فنظمت القصيدة الحرة الموزونة التي عالجت فيها قضايا المرأة الشرقية، وتمتت ترجمها إلى الفرنسية والفلامنكية، ولما ضاق بها الشعر انطلقت إلى النثر المعبر أكثر عما في الأعماق ... كتبت القصة والرواية ودافعت فيهما عن إنسانية الإنسان، واختزلت بحكم عملها كمحامية مخزونها عن مخزونها من حكايات الناس ومشكلاتهم في مجموعات قصصية واقعية وثقت فيها الجريمة بأسلوب أدبي، كذلك أعطت النبض لوقائع تاريخية مدونة على الرقم الصلصالية من أيام الحضارات القديمة وأجرت فيها نسج الحياة من خلال قصص مؤنسنة لنساء عانين منذ آلاف السنين.

خصت "ناديا الغزي" الورد والعطر والعادات والتقاليد في بلاد الشام بدراسات متميزة، وكانت المحصلة عشرات المؤلفات والمحاضرات، كتاباتها التي تعانق الروح والوجدان متواصلة منذ خمس عشرة سنة بغير انقطاع ... لكن "ناديا الغزي" زاهدة في الظهور، ومبتعدة عن الأضواء: "ليكون عطائي أكثر سلامة ونقاء..." والحوار معها - بعد هذا - حميمي ومثير، وفيه نكهة مختلفة تماماً، كما هو ورد "دمشق" وعطرها الأخاذ....

■ نريد في البداية أن نتتبع خطوات المسيرة الشاقة مع الإبداع...

المسيرة متنوعة ... ولربما كان فيها بعض الاستراحات البسيطة التي يستجمع فيها الإنسان نفسه ويتمثل أنواعاً جديدة من المعاناة، ليعود (الإشراق) دفعة واحدة،

وبدون إنذار. وهكذا اكتب .. أسكت وأشعر باعتماد كل ما يحبط بي، يتفاعل مع نفسي ليصبح نوعاً ممثلاً للدم الساري في الشرايين ... دم زاخر بالأوكسجين، أسكت ... وأنا أراقب وألتقط كل شيء، ابتداء من ذرة الغبار ونقطة المطر، إلى صمت كل شروق وغروب وإلى منظر كل غزالة تضع مولودها في الصحارى التي تشفق لها. وحتى يحين الأوان ترغب نفسي في التجرد وفي الانجراف تحو الورق، في وقت لا تحدده إرادتي إطلاقاً ... فأبدأ بالكتابة، هذا هو مجمل مسيرتي ضمن توقيعها السنوي أو الموسمي أو اليومي لكنني حين أبدأ بكتابة موضوع ما أو دراسة أو قصة، أعكف عليها أياماً متواصلة، بل ربما شهوراً ... بل ربما سبباً حتى أنجز ما بدأت مضت في السنوات، انتقلت فيها من أشعار بسيطة نظمتهافي يفاعي، انتقلت بعدها إلى نظم القصيدة الحرة الموزونة، وكل هذه الأشعار لم تنشر، ثم وجدت الشعر يضيق لي أو أن روعي تطلبت نشرها أكثر في معالجة المواضيع الواقعية في آن واحد ... والتي أهتم بها أشد الاهتمام ... فالواقع لا ينفصل عن العاطفة أبداً، سلباً أو إيجاباً. وهكذا فككت حصار الشعر الصعب وانطلقت نحو النثر ... ولعل نثري يعتبر نوعاً من الشعر الكامن في الأعماق. لأن النثر بحركتي ويهزني أثناء كتابتي له، أما كتاباتي فهي بين محاضرات ودراسات ومؤلفات أعدت بعضاً منها.

الكتب: "هديل" صدر عام ١٩٧٩، عام الطفل الدولي وهو يعالج مشاكل الطفولة العربية بلسان طفلة - "العبور إلى النثر" صدر عام ١٩٨٤، وهو مجموعة من القصص والوقائع الجرمية الحقيقية المصاغة بشكل قصصي - "هن" صدر عام ١٩٨٦، هو مجموعة من الجرائم الواقعية المرأة فيها إما جانيصة أو مجني عليها (قضايا خاصة وغريبة من الجرائم الواقعية التي كتبت بخط إنساني وعادل - "من بساتين بلاد الشام" صدر عام ١٩٩٣، وهو دراسة تراثية عن تسعة أنواع من الفلكة التي تنبت وتنضج في بلاد الشام، عولجت في الكتاب شعراً ونثراً، فلاحلة وحفظاً وفوائد، ضمن ما جاء في الكتب العربية التراثية، مع بعض المقارنة مع

العلوم الحديثة - "شروال برهوم" صدر عام ١٩٩٣، وهي رواية تحكي عن المجاعات التي تعرضت لها سورية ولبنان أيام "سفر برلك" أي أيام الحرب العالمية الأولى - "عالم الطير بين القزويني وعلوم القرن العشرين" وهو مقارنة بين ما كتبه العلامة القزويني منذ ٨٠٠ عام، من عادات طيور المنطقة وبسبب ما ورد في موسوعة "الاروس" من عادات هذه الطيور حصراً ... والكتاب لم ينشر لصعوبات في تصوير الطيور.

"حكايا صلصالية لنساء ميتات": صدر عام ١٩٩٧، وهو مأخوذ من الرُّقْم الصلصالية التي دونت وقائع التاريخ وفي الكتاب قصص ثلاث مستقاة من (إيبلا) و(ماري) (وحضارة الفراعنة) وقد جعلتها قصصاً مؤنسنة لثلاث نساء عانين منذ آلاف السنين - "حكاية الفخار القديم": وهو قيد الطبع ويعتبر الجزء الثاني من دراستي التي أجريت على الرُّقْم الصلصالية من حيث الواقع الجرمي والإنسان والجغرافي للإنسان، وقد صغتها بمحتواها الحقيقي، بشكل قصص فيها بعض من حضارات بابل - أور - أوغاريت - الحثيين وغيرهم - "حضارة الطعام في بلاد الرافدين والشام": سوف يصدر عن دار الفكر عام ٢٠٠٠، وهو دراسة موسوعية في أجزاء متعددة لحضارة الطعام في المنطقة وعن أهم المنتجات الأصلية فيها ... وعن أهم ما أخذته بلاد الشام من مآكل الفرس والمغول والتتار والسلاجقة الترك، والعثمانيين، والجراكسة والكلدان، والأرمن، يضاف إلى ذلك مآكل الجزيرة العربية التي قدمت إلى بلاد الشام ... ومآكل بلاد الشام في عهد الإغريق واليونان السخ ... والكتاب مزين ببعض الصور لبعض أدوات الجرث والخبز والطحن والتحميص الغارقة في القدم مما يؤكد دون أي شك استمرار حضارة كبرى - "مذكرات هر مخصي": رواية في قيد الكتابة تعالج وبدقة تدخل الإنسان في أقدار الإنسان في أقدار الحيوان المدجن وهي عبارة عن مذكرات يكتبها هر مدجن مؤنس.

الدراسات: - أبواب دمشق - البساتين التي كانت تحيط بدمشق قبل الهجمة

العمرانية وما كان فيها من أنواع النبات والخضر والفاكهة - أسباب الخلافات الزوجية في الأسرة السورية - العطر والورد في بلاد الشام - أسباب الإجرام عند المرأة - نُظُم التبريد في الماضي (لم تنشر) - العادات والتقاليد بين المثلث والإيجاب، الطعام والإنسان - اضطهاد المرأة عبر التاريخ - صدرت عن اتحاد النسائي العربي السورية - طُرق التجميل البدائية (لم تنشر) - نظام إقامة (الحد) في التشريع الإسلامي (لم تنشر بعد)، وغير ذلك - أكتب في "مجلة طبيبك" منذ عام ١٩٨٦ زاوية شهرية دائمة عن التراث الطبي الشعبي، وشاركت في مجلة المرأة العربية بكتابة زاوية "ملفات وقضايا" لمدة ثلاثة عشر عاماً، بحكم مهنتي كمحامية، لي دراسات في الصحف السورية عن - المهر - الطلاق - التعسف - الحضانة، وغير ذلك.

■ ما هي العوامل التي حفزت الأدبية نادية الغزي وشجعتها على خوض غمار الميدان الثقافي ومن جانب آخر، العوامل التي عوقبت انطلاقتها في مسيرتها (إن وجدت).

ربما كانت العوامل التي حفرتني على الكتابة شديدة التعدد واسعة الطيف: لكن المحرك الأول هو وجود (مهنة) الفكر في أسرتي من طرف الأب والأم، ولقد أورتني الله "بقدرته على إنقاذي"، جينات الفكر والتأليف والغوص الصبور في أرشفة الدراسات، وقدرة التعبير، من أسرة والدي المحامي والسياسي "سعيد الغزي"، ومنهم عبر تاريخ الأسرة العديد من العلماء والفقهاء والشعراء وأعدّد: العلامة "الشهاب الغزي"، العلامة بدر الدين الغزي، الشيخ المؤلف كامل الغزي، الكاتب أحمد الغزي، وقد غذى الشيخ العلامة "عبد الغني النابلسي" بحكم المصاهرة توفد الفكرة عند مفكري الأسرة، وافتخر من جهة أخرى بخالي المرحوم "عزمي الموره لي" وهو شاعر وفيلسوف معروف كتب في غير لغتي الأم، وها أنذني... أكتب من جديد ... بهذا القلم الذي يسحرني، فأنا لا أكتب بوساطة الآلة الكاتبة ولا

الكمبيوتر، وبهذا فإنني لست شديدة التمدد ... فأنا أحب قلمي وهو يلاحق أفكاري السريعة وحروفي التي تخرج في المسودات متلعثمة، شبه غير مقروءة لا يفهمها أثناء إعادة كتابتها إلا أنا.

أما العوامل (غير الجينية) في عشقي للكتابة، فأولاً، تفاعلي المطلق مع كل ما هو حولي فأنا أتعامل مع النفس ومع المعنى، مع الروح الإنسانية بما يشبه الحسد الدائم، وأجد نفسي دائماً في موقع أية إشارة إنسانية لإنسان يحمل معاناة ما... لأتبنى هذه المعاناة، لأدافع عن إنسانيتي وإنسانية هذا الإنسان بما أملك ... وأنا أملك القلم. لكن هذا التداخل الإنساني بيني وبين الآخرين ليس بسيطاً ... بل تلزمي العشرات من القناعات ومن الإشارات السرية الروحية الصافية الصادقة، التي تخرج من مسامات الإنسان نحو الإنسان الآخر، وكم يقع الإنسان في ترجمة هذه الإشارات، في مطالبات لا حصر لها، حتى يتعلم ... أولاً يتعلم، فقد يقع في خطأ التفسير، وفي تبين الصدق من الكذب.

وكم أكره الرياء ... كم أكره الكذب، أكره خنق الخير، واختلاجات الحقد، والابتذال والاستجداء المشوه. ومن العوامل الحافزة بدون شك عملي الأول في التلفزيون العربي السوري، والثقة التي اكتسبتها من قِبل الناس قبل أن أؤثر، بعد عام واحد الابتعاد عن الأضواء، ليكون عطائي أشد سلامة ونقاء وإني أشهد رب العالمين أن كل ما كتبت ... وما شعرت ... وما أنتجت كان نقياً، حلالاً ... لا زيف فيه. بكل سلبات الحياة وإيجابياتها.

وهنا أدخل في قاع الإجابة على الشق الثاني من السؤال ... فلربما خطأني الكثيرون من الأصدقاء على عدم رغبتني في الظهور لأساعد على انتشار نتاجي، ولهم الحق في ذلك، فالإعلام له المرتبة الأولى في عوالم المدينيات العظمى، لكن ... وبصراحة فإنني أقول: إن بعض الإحباطات الخارجية قد أثرت في مسيرتي ... وها أنذني أترك للذين ينخلون الجيد من الغث أن يعرفوا وخدمهم قيمة أدب ما أو يعرفوا أعماق كتابتي، دون أن أبرز عضلاتي أمام الجميع (مع العلم أنني جسدياً

قليلة العضلات). ولربما كان هذا التراجع أحياناً خطأً مع أخطائي الكبرى ... لست أدري، فأنا امرأة عنيدة عندما يساء إلي. من عوامل إنتاجي أيضاً، عشقي للطبيعة، وانصهاري وانبهاري بها دائماً، وكما كتبتُ عن الورد والعطر والبستان، والطير والفرش، بنفس الاندفاع الذي دافعت فيه في قصصي عن كرامة الإنسان بل عن انفعالاته قاتلاً أو قتيلاً ... سارقاً أو مسروقاً ... متشرداً ومنكوباً. وإنني لا أعتبر اتجاهاتي المتعددة في الكتاب انكسارات على زجاج محطم ... ففي جعبتي الكثير من الرماح والنصول القاطعة، أرميها بقوة لتطعن، من خلال الفكر، من أجده وتجده المبادئ جديراً بالإسكات. ومن العوامل في انطلاقي الفكري ... وضع المرأة! فهمها لنفسها أو عدم فهمها لنفسها، وعدم فهم المجتمع لها ... إحباطاتها، واندفاعاتها، وانفجاراتها التحررية غير المتوازنة أحياناً ... فالمرأة، سواء كانت مندفعة، أو منفجرة أو حاصلة، فهي تشعر بالظلم ... لا يرفع الظلم سوى إدراكه والتغلب عليه بالفكر الحكيم والإرادة والشعور بالواجب والعمل الدائم الدائب. والإنتاج الاقتصادي والأسري والمعنوي. وبمعنى أدق: الشعور بالهدف الذي يمكن أن يتحقق.

أما الأهداف الضائعة، فأعتقد أن الكل يعرفها، رجالاً ونساءً، والكل، يعرف المقدار المؤسف من الأحزان التي تسببها خيبات الأمل.

إن اهتمامي ببلدي، بأرضي، بلغتي، بانتمائي الجغرافي الشرقي هو ما دعاني إلى طرق باب الحضارات القديمة وكان عاملاً مهماً لأكتب عنها وعن آثارها، بل لأنفهم الشعور الإنساني الذي كان ينبض فيها ... لأعالج مفهوم جرائمها وأدرس عقوباتها، وأسجل تاريخ بعض نساها اللواتي لم يكتب عنهن أحد ... نساء ولدن، وعشن، ورحلن، سعدن وبكين ثم مئن دون أن يدور لهن قديماً أو حاضراً أي حضور ... إنهن المجهولات الباقيات الصامتات اللواتي أكتب عنهن ... المجهولات عبر التاريخ وإلى يومنا هذا. أعرف أنني خضت الميدان الثقافي من أصعب بوابه، لكنني فخورة بنفسي ... فإذا لم يفهمني البعض اليوم فإني على ثقة بأنهم سيفهمون

وبشدة بعد أن يُدركوا الفجر ... ويعيشوا مع وعي الشمس ووعي الشجر لقدره ...
ووعي الإنسان للإنسان. والكتابة في نهاية السؤال هي نعمة من نعم الله عز وجل
... عليّ، إن العوامل التي تعيق انطلاق الإنسان وانطلاقي الفكري، تخضع لنومسان
السنين، منها عوامل شخصية بحتة، فأنا أعرف أنني بالدرجة الأولى أم ... وأنني
ربة بيت وهذا واجبي الأول في الحياة. فالأمومة لحظات هاربة من خلال الأولاد
حين يكبرون ... أما القلم فهو بين أصابعي أملكه ويملكني ... أما الأولاد إذا
يكبرون فهم يملكونني، ولا أملكهم. وأما الأصدقاء فهم ينتظرونني وأنتظرهم، وأما
العمل فله أوقاته وبرامجه التي يتفهمها الصغار والكبار بصفتنا جميعاً داخل حزام
هذا الوطن. عاملين آمنين وأما العوامل الخارجية التي حددت أحياناً ولو بشكل
مؤقت ... هذا صحيح ... لكنني أؤكد أنني لا أشكل طرفاً سلبياً ... لكنها الدنيا
المليئة بالمتناقضات.

■ ما هو المحور الرئيسي الذي كان مدار اهتمام الأدبية نادبة الغزي وكان
الطابع المميز لإنتاجها الفكري.

بعد كل ما سردت، فالمحور لكتاباتي هو الإنسان ... بكل عتفوانه وعجزه.
ثم هو كل ما هو حي، ما له روح من خلق الله: الطبيعة والأعجم السذي لا
يتكلم، ونظنه لا يفهم ولا يتكلم، محوري النبات بكل ما فيه من ورد وعطر وغذاء
وشوك ... محوري لم يكن في أي يوم جمادا، بالرغم أنني تجاوزت فسي بعض
قصصي وجاورت الجمادات إسقاطاً أنبياً.

■ إلى أي حد استطاعت الكاتبة العربية (بشكل عام) التعبير عن المرأة وبصدق؟
ومن هي الكاتبة التي لفتت انتباهك ونالت تقديره؟ ...
بشكل أو بآخر فإن الكاتبة العربية قد عبرت عن المرأة، وهذا شيء أكيد. وأما
الصدق في التعبير فهو ممكن وخاضع للإمكان ... أو اللامكان ولا ضير في ذلك.

أما أن تقول كاتبة عن نفسها أنها عالجت كل الشرائح الأنثوية في العالم العربي، كل المتاعب والمطالب والانتصارات فهذا مستحيل وغير ممكن. فزملائي وزميلاتي من الكتاب العرب وأنا، نخضع للإقليمية بالنسبة لمعالجة قضايا المرأة العربية بالرغم من توحيد الأهداف. وبصراحة ... فأني أقول أننا نفتقر إلى الاضطلاع الكامل على أحوال المرأة في العالم العربي والإسلامي. إلا من خلال القوانين والصحف والأنظمة، وهي وحدها لا تكفي رغم دلالاتها الواضحة ... لكن الجزء الميداني هو الأهم والأهم هو الالتصاق بالمعاناة ... وإن من الواجب الحتمي، التعاون والتبادل بين الاتحادات النسائية في الدول العربية، وبين الجمعيات العامة والخاصة، لإجراء دراسات ميدانية واسعة تحدد بعدها طلبات الأسرة العربية، وتدرس الإمكانيات الممكنة لتحقيق هذه المتطلبات. وللجواب على الشق الثاني من السؤال ... فأني أقول أن كل كاتبة حقيقية أثرت كتابتها في نفسي ... الكاتبات الأوائل في سورية ولبنان، والكاتبات المعاصرات اللواتي قرأت لهن، من فلسطين، من الجزائر من مصر، من لبنان، ومن سورية.

■ ما هو المجال الذي تريه الأجدر باهتمام الكاتبة العربية، وما الدور الذي

تستطيع أن تنجح فيه بصورة أفضل في حياة المجتمع؟

إن المجال الأجدر بالنسبة للكاتبة العربية يتحدد حسب تواجدها الثقافي والعلمي والاقتصادي والاجتماعي، والسياسي، فبحسب خط السير الذي يتخذه، الكاتب، أو الكاتبة في الحياة يتحدد مجال الإنتاج، فالعالمة تكتب في العلم ... والباحثة في الدراسات ... والاقتصادية تفيد بلدها في إبداع تنظيمات اقتصادية جديدة ... والمتخصصة في التاريخ تكتب عن الحضارات ... والجغرافية تكتب عن المسافات والنجوم ... أما الأدبية فهي تملك المجال الأوسع للكتابة إذا تملك اللغة وقوة التعبير بحيث تتمكن من خوض تجربة مجتمع كامل بكل أبعاده، ابتداء من المنطلق العاطفي على الوصول إلى لب الأسرة والطفل وحقوق المرأة داخل وخارج المنزل

... بل الوصول إلى الحقوق السياسية داخلياً وعالمياً. أما المشكلات الحياتية التي يجب أن يركز عليها أدب المرأة.

فقد دخلت المجتمعات اليوم مرحلة التطبيع والفضائيات ومرحلة الصفقات الكبرى، وبطبيعة الأمر أصبح الدخول الأسري غير مقتصر على فرد واحد يقوم بكل واجبات الأسرة. وإن عصر الكمبيوتر والإنترنت والمصارف لم يعد يسمح يتراجع المرأة وتوقعها.

فالكثابة يجب أن تتركز (اليوم) على هذه المرحلة الانتقالية المهمة والصعبة التي تمر بها المجتمعات وتتمر بها المرأة بشكل أعنف ... متقلبة الثمن الباهظ الذي تدفعه من جهدها وصحتها وصباها.

لنستطيع، في النهاية إتمام معاملة الحياة/البيت/الأولاد/الزوج/العمل/السوق/المجتمع/الأهل/الفكر/الإنتاج/... إنها تسعة أحمال ثقيلة والله.

لهذا أكرر بأن الدور الذي تستطيع الكاتبة أن تلعبه في مجتمعها هو تفهم مشاكل ومتطلبات هذا المجتمع بدقة ... فإذا كانت الكتابة واقعية بمعناها الإنساني الفكري، الثقافي، اللغوي فإنها ستواجه حتماً إلى القلب وإلى لب المشكلة ... إلى إنسانية المجتمع الذي تنتمي إليه محاولاً إبعاد الخطأ وإدراك الحقيقة.

أما النجاح ... فهو الوسام الذي يهبه كل فرد في المجتمع، ليكون نعيماً ويرداً وسلاماً لكل كاتب وإنسان فعال في مجتمعه.

وأقول بأنني لست أبدأ مع الذين يكتبون عن أنفسهم، ويدورون في متاهات رؤاهم المستمرة ... بل مع الذين يكتبون عن مشاعر الآخرين، ومشاكل الآخرين بعكس هذه المشاعر على الورق، وبصهر المشاعر الشخصية مع مشاعر الآخرين.

■ ما هي المشكلات الحياتية التي ينبغي أن يركز عليها أدب المرأة؟

الواقع أنني لا أقر بما يسمى أدب المرأة وأدب الرجل، فبحكم التطور الحضاري السريع، كتبت المرأة وما زالت نوعاً معيناً من الأدب المتعلق بمشاكل

المرأة والأسرة ... لكن هذه المرحلة مرحلة موسمية لا تنطبق عليها صفة الاستمرارية. فمع التقارب الحضاري السريع بين المرأة والرجل ... فإنهما سوف يكتبان حتماً في سبيل الأهداف نفسها، وفي المشاكل نفسها، والقادر هو الذي يستطيع أن يوصل إلى الآخرين ما أحسه من معاناتهم. وطالما بقيت مشكلة تطور المرأة ومعاناتها ما تزال قائمة في مكان ما على سطح الأرض، فإن على المرأة الكاتبة معالجتها بقوة، لأن الرجل قد يفهم المرأة من زاويته الخاصة، بينما تفهم المرأة المرأة من كل زواياها.

« هل نالت الكاتبة العربية ما تستحقه من الحفاوة (إن كان لا ... ما السبب؟) لا أستطيع أن أجيب على هذا السؤال بنقطة ... أما الحفاوة فقد نالتها الكثيرات المستحقات منهن وغير المستحقات، وهناك الكثيرات ممن يستحقون الحفاوة لكنهن لم ينلنها.

وعملية (غربلة) الغث من الثمين علمية صعبة للغاية ... فقد يمسك الرجال الغربال من جميع اتجاهاته وينصبون ملوك ثقافتهم، وقد تمسك النساء الغربال (وهذا أقل حدوثاً) من جميع اتجاهاته، خاضعات لمشكلتيه الكبرى، وهي مشكلة مقارنة المرأة لنفسها مع المرأة الأخرى، لا مع الرجل، مما يؤدي إلى إحباطات ثقافية كبرى وإلى ارتفاعات قد تكون في غير محلها.

لكن المسعد أن وجود اللجان الثقافية الكبرى التي تختار الإنتاج الأدبي، قد حرر الأهواء والاضطراب، وأوفي حق الكثيرين وهو ساع بكل تأكيد إلى إيفاء حق الكثيرين الذين يعيشون في الظل ومنهم أدبيات نسايات منتجات.

وبهذا... فأني أقول إن الوعي الثقافي الشعبي الكامل لمجتمع معين، لا يجب أن يخضع فقط إلى الإعلام والاحتفالات، بل على الفرد العربي تفحص الكتب وقراءتها، ثم إطلاق رأيه فيها مستنداً بالطبع إلى أهمية الإعلام والإعلان.

« ما هي آخر أعمال الأديبة نادية الغزي ومشاريعها الجديدة؟

آخر أعماله دراسة موسوعية عن "حضارة الطعام في بلاد الرافدين والشام" سوف تصدر عام ٢٠٠٠ عن دار الفكر وهي دراسة حضارية عن غذاء المنطقة وطعامها منذ أيام الحضارات الأولى في ما بين دجلة والفرات وفي المناطق الجنوبية والساحلية، وأذكر من هذه الحضارات حضارة إيبلا، ماري، أوغاريت والحضارة الجنوبية والصحراوية التي تشبه أطعمتها حضارة شبه الجزيرة العربية. ثم أذكر الهجمات الحضارية، التي تعرضت لها بلاد الشام من خلال الغزوات والحروب والهجرات وما اكتسبته هذه البلاد من جديد الغذاء والوجبات نتيجة التمازج الحضاري عبر التاريخ.

مركزة على مآكل الجزيرة العربية قبل وبعد الإسلام - مآكل اليونان والرومان وتأثيرها على بلاد الشام وتأثيرها من بلاد الشام - مآكل المغول والتتار والفرس والسلاجقة والكلدانيين والآشوريين - مآكل الأكراد والجراكسة الأرمن - مآكل الأمويين والعباسيين - مآكل المناسبات الدينية والاجتماعية لدى المسلمين والمسيحيين. ثم تحضر الموسوعة مآكل بلاد الشام وأنواع الخبز... وبناء التتور والفرن في كل منطقة وتعدد أنواع (الكبة) التي تصل إلى تسعين نوعاً. وتتحدث عن تاريخ القهوة والخضر والأعشاب. ثم تفرد لكل جزء من بلاد الشام مآكله: فلسطين - الأردن - لبنان - سورية - لواء اسكندرون. وبعدها يتم تقسيم سورية إلى محافظات الحالية، حيث تقدم الموسوعة أهم المآكل التراثية لكل منطقة. وهي شديدة الاختلاف عن بعضها، ولدمشق ومآكلها فصل خاص موثق تاريخياً. يليه ذكر لمشاهير النهمين والأكلة والبخلاء والكرماء عند العرب، ومن ثم ذكر لمآكل الأنبياء والملوك والمشاهير من علماء وقادة، أما مشاريعي القادمة، فهي قادمة بإذن الله...

إني أستحي أن أغازل من أحب، بمجلس فيه النرجس

في زمن .. طغى فيه التصنيع على عطاء الطبيعة ولم تعد هناك من حاجة للبحث في مشارق الأرض ومغاربها عن خامات تساعد على تجميل الحياة وفي مجال العطور بالذات، ومنها اليوم آلاف الأصناف، لا بأس أن نعود إلى الماضي في جولة توثيقية، جمالية وفنية، ليس من باب الحنين، إنما، تقديرًا وإعجابًا بالأوائل، الذين كافحوا في هذا المجال وكانوا اللبنة الأولى في طريق الحضارة.

بدأ الإنسان بالعطر .. منذ أن بدأ يعي ماهية الجمال المحيط به.. ويكتشف الزمان.. زمان انبثاق العشب .. زمان انبثاق زهر البساتين الذي يرفرف ويرتعش، حول فاكهة لم تتوضح بعد.

أو ... لعله زمان انبثاق العطور البرية، للنباتات المخضوضرة، المنتشرة على أكتاف الجداول، تطلق عبيرها بين الحين والحين، صباحاً ومساءً، أو مع هبة هواء ناعمة، منادية من يفهمها .. ومطلنة عن عطورها، تتفاهم بها، مع المخلوقات الحية الأخرى ... ومنها الإنسان.

أو ... لعله قدوم صيف بعيد، حين ارتسمت على الأرض إشارات الذهول، وانبثق الريحان، والورد، الورد!!.

العطر الأول:

تقدم الأول.. تقدمت الأولى

نفثت الزهرة عطرها .. نشرت الوردة شذاها .. والحبق ترنح .. والياسمينه هرهرت ...
والبنفسج مات عشقاً..

بل تعطرت النباتات .. أكواز الصنوبر بعيدة المنال .. براعم الصندل، لحاء الأشجار الكبرى، والريحان، وغصون البان، كلها تعطرت حتى أقاصي العطر، حتى آخر منعطفات الاستنشاق .. حتى أعرق سنخ رفوي، حتى الغيبوبة والاعتراء.. هكذا استنشق أول عطر!.

ليس من الصعوبة أن يكتشف الإنسان الطيب، وليس من المستغرب أن يحبه،
فالطيب موجود في قواريره الإلهية .. موهوب بعفوية خالصة، يهبه النبات .. يهبه
الشجر .. ويهب المادة العطرية بعض الحيوان .. ونخبة من الحيتان.
محبوب هو العطر من الجذور العميقة .. من الحب والغضب، من ثوران
القدرة الربيعية، من تأكيد الخصوبة الصيفية، وشفافية القوة الخريفية، وتركيز السر
الشتائي.

كيف لا يكتشف الإنسان العطر .. والعطر الفواح هنا، وهناك .. ألف رائحة
ورائحة .. مسك .. مسوك .. وعطور لا تحصى!

عطور الشرق:

منذ القدم، تعطر البشر! تعطرت النساء .. وتعطر الملوك والكهان والعشاق ..
وكان أول ما وصلنا عن الطيوب، مدونات العصور وآثار الحضارة،
وأوضحها، الحضارة الفرعونية:

رائحة .. عطرة وغريبة، تتفجر نحو الحرية، حين تفتح قبور الفراعنة! زيت
مسحور .. مستخرج من خشب الأرز .. مغموس به قماش المومياء ..

رائحة خشب الصندل، وصمغ الصنوبر العطرة الدبقة اللاصقة .. بعض
ورود جافة موضوعة على قبر توت - عنخ - آمون .. وضعتها أرملته عنخ
- سن - آمون .. وكانت من أزهار عنب الثعلب، ومن أوراق الزيتون، وسنابل
القمح.

أوراق بردي .. قصب ونيلوفر مجفف ومسحوق .. مسك .. عنبر!!

إنها بعض المواد العطرية، وبعض عطور الفراعنة، الغامضة، القديمة، أقدم
طيوب وصلت إلينا، فقد عرف الفراعنة الطيب منذ آلاف السنين، واشتهرت بلاد
النيل بمصانع العطر، والمواد العطرية المتنوعة، وكان المسك معروفاً، كما عرف
الغار - وعطر الصنوبر - وعطر اللوتس - والميعة (المنثبات العطري الأمثل).

وكانت معامل العطور تعمل باستمرار، خصوصاً في عهد البطالسة وفي الإسكندرية بالذات.

والمعروف ... أن الفراعنة كانوا يخزنون الكميات الكبيرة من المواد العطرية من أجل التحنيط، والاحتفالات الدينية المتوجهة نحو رع ... أو آمون ... أو آتون. وفي مثل هذه الاحتفالات، كان الكهنة، والمشاركون، يدهنون بالمسوح والمروخ العطرة (المراهم).

أما النساء.. فكان يغرقن أجسادهن الرشيقة بالمروخ المغذية العطرة، وبالزيوت النافذة، وكن يصبغن شفاههن وخدودهن، ويستعملن الحناء وقشور الجوز كصبغة للشعر.

كذلك عرفت حضارات الفرات وما بين النهرين، الزيوت والطيوب .. ففي ماري ... وإيبلا ... في سومر وآشور وبلاد الكلدان وغيرها عرفت أنواع العطور والدهون النباتية.

لقد عرفت حضارات الشرق، الطيب، بكامل وجدانياتها - تعطر الرجل، وتعطرت المرأة الشرقية .. وبرقت .. وأرعدت ضمن عطورها وبدت تشكل العنصر التوأم في الطبيعة!!

تحدثت بالزيت كما تعتمد ملوك أوغاريت، وتقدمت نحو هياكل الخفران لتسكب زيوت الطهارة المقدسة فوق رأسها.

إيبلا - ماري - بابل - آشور - سومر - حاتوشا - الكلدان - الفينيقي - العموريون .. كل هذه الحضارات عرفت الطيوب والعطور، العطور المنتبقة من نبات الأرض، والمتشكلة من البراعم والأزهار، المختبئة في الجذور والأخشاب، والقابضة مع لحاء الشجر!

اشتهرت حضارات الشرق الأقصى .. باستخلاص المواد العطرية الحيوانية، وعرفت أنواعها النادرة .. وكان أهل التبت، أول من تبع طلب المسك في أقاصي الهماليا والمناطق الوعرة .. وشاهدوها، وهي تتخلص من المسك، باحتكاكها على

الصخور.

وكان أهل الهند، وجنوبي الجزيرة العربية، يلتقطون العنبر المطروح على شواطئ من مفرغات الحيتان .. أو يلتقطونه من أجوافها، وأهم هذه الحيتان حوت الكاشالوت أي حوت العنبر.

وقد ذكر ابن سينا أن أحسن المسك قادم من بلاد (التيب) .. وأضاف (موزاديوس) أن مسك التيب له خاصية أفخم من مسك الصين، لأن طبي المسك في التيب يأكل الغاردين وغيره من النباتات المعطرة .. أيام التراج .. إنه الغاردين .. وإنها .. عطور البساتين.

عطور النارج والبرتقال:

قبل مئات الأعوام .. كانت تستقطر في دمشق عطور النارج والبرتقال .. هو عطر لا يوصف .. شذى لا يوصف.

ينتشر في الأمسيات الشامية يدعو المقيمين والعابرين والمهاجرين، من مكانه الأمانة الساحرة في حدائق البيوت، وقد حرص أهل الشام أن يزرعوا أشجار الحمضيات في بيوتهم منذ مئات السنين .. لذا .. يكون موسم الأزهار شديد الخصوصية في الشام وسواحلها، موسماً يفوح منه العطر الساحلي الزهري ..
.....
الأمثل...

في بيارات البرتقال البعيدة، أو في الديارات الشامية الدمشقية، كانت تجمع أزهار النارج .. بكميات كبيرة ... وتكون قد انتشرت على الأرض كالنجوم، وذلك بعد انعقاد الثمر الذي يتخلص من ردهائه العاجي، ثم تستقطر الأزهار الدسمة بالأنابيق ومنها يكون (ماء الزهر) صديق القلب.

والنارج وحده .. هو اللائق بالقلب ليكون صديقه!

وتستقطر أحياناً النورات الحديثة الورقية للنارج بدلاً عن الأزهار ... فيكون ماء الزهر الناتج عنها هجيناً وفاقداً للزيت العطري، وللطعم المميز .. (نوع ثالث).

إنها أزهار تأسرها الشمس!

فتقدم صلاتها العطرية برائحة زكية، لا تفوح إلا في بلاد الشمس .. بلاد الحضارات .. والرمال .. والأنهار .. والحمضيات .. ماء الزهر .. نقطة من ماء الزهر .. في كأس ماء !! قمقم فضي أو نحاسي رشيق ... يا أهل بلاد الشام .. شموا رائحة عبير الحمضيات .. فهي (تغوّب القلب) لكنها تحبب!!

عطر شقائق النعمان:

هي زهرة الربيع زهرة الأسطورة .. زهرة الغوطة بين سنابل القمح .. زهرة السواحل .. هي زهرة أدونيس .. سمتها العرب: خدود العذارى، (تدور مع الشمس) .. ويفتح ورقها في النهار وينضم في الليل، ومنها يستقطر العطر المشهور الناعم ويؤخذ الخضاب الممزوج مع قشور الجوز، ومنها شراب السعال المهدئ، ولقد كانت صبايا دمشق .. يصنعن من بتلات شقائق النعمان حمرة لشفاهين.

عطر الهندباء البرية:

من سمات الإعجاز في طريقة استخلاص العطور قديماً .. أن أهل مزة دمشق عرفوا استخلاصه من النباتات البرية المليئة باليخضور والمنعشة في آن معاً .. شأنهم في ذلك شأن معمل العطور الحديثة التي تستخلص العطر من أكتاف الصنوبرات والنباتات البرية...

من هذه العطور عطر الهندباء البرية الذي ذكره البديري في (نزهة الأتام) وكانت الهندباء تستعمل صياغاً وطلاء وكمادات.

عطر القرنفل ودهن القرنفل:

في مربعات القاشاني الرائعة الفيروزية والزرقاء والبيضاء، تبدو رسوم

القرنفل البلدي .. تتصدر ملامح هذا الفن الرائع.

فالقرنفل .. من الورد القليلة التي ثبتها التراث الفني في الرسم العربي، وإضافة إلى انتشار القرنفل الواسع في دمشق وبلاد الشام، وشدة مقاومته للعوامل الجوية القاسية فإنه يتمتع بألوانه التي تختلف بين الزهري والأبيض والخمري والأحمر والمرفش، تحمل نفس العطر - عطر شديد متميز يشبهه بشكل أكيد، رائحته أزهار كبش القرنفل التابل الهندي المعروف.

وأجود أنواع القرنفل للتقطير ما كان بلدياً .. ومنه تفوح الرائحة الأخاذة .. ولقد كان القرنفل قديماً بلدياً، فاستقطر منه عطر القرنفل واستخرج من بذوره دهن القرنفل.

عطر النرجس:

بوساطة الحراقات ... والتقطير كان يستخرج عطر النرجس كغيره من الأزهار ..

وللنرجس أنواع: اليعفوري - البري - المدف - وهو من أول نباتات الظهور الربيعي .. وهناك النرجس الأصفر الذي يدعى (العرار).

قال كسرى: إني لأستحي أن أغازل من أحب بمجلس فيه النرجس.

ومن الأقوال المأثورة: شموا للنرجس .. ولو في اليوم مرة .. ولو في الأسبوع مرة .. ولو في الشهر مرة .. ولو في السنة مرة .. ولو في الدهر مرة، فإن في القلب حبسة من الخوف والجنون لا يقطعها إلا شم النرجس.

ولقد كان أهل دمشق قديماً، إذا أرادوا تكثيف عطره .. يضعون في أصله عند زراعته شيئاً من الكافور، فينبت وقد زكت رائحته زكاوة عجيبة فيستعملونه في صناعة العطور.

عطر البنفسج ودهن البنفسج:

لقد اقترن اسم البنفسج، وعطره، وزهره، بالحب والتضحية والحزن .. ولعل

لونه الهادئ وشفافيته .. ورقته .. وشكل ورقه الذي يشبه القلب، ولعل قدومه السريع في أوائل الربيع .. واختفائه .. وحيائه بين النباتات، هو الذي وسمه بهذه الصفة الشعاعية.

يعيش في الماء العذب .. ويموت في الماء الملوث، وإن وقوع الغبار عليه، والدخان .. يضعفه ويذبله، بمعنى أن عطر البنفسج الرائع لن يستخلص إلا في بيئة نظيفة بعيدة عن التلوث.

كانوا في الماضي يصنعون دهن البنفسج يطلون به الجبية فيسكن الصداق .. وكانوا يشمون عطره ويتجملون به!، لذا طلبه الناس في كل مكان، قال العلامة محمد كرد علي في خطط الشام:

(ومن دمشق المعصور، والباعيس، ودهن البنفسج).

إن مياه بردى الشريفة في الماضي .. هي التي كانت تساعد على بلوغ عطر البنفسج إلى منتهاه .. ليكون عطراً مستقظاً ومروحاً ودهناً ودواءً.



مشروعي: أن أقاوم التزوير الذي ينشره العالم الجديد...

تميزت الكاتبة والقاصة دناديا خوست دائماً بحبها للشام، وبلاد الشام كقطاع جغرافي واحد، وتفرع حبها إلى اهتمام بالذاكرة، ذاكرة المكان والمدينة والأدوات والحجر والإنسان وإلى إبداع تجلى في مجموعات قصصية ذات طابع خاص..

الشام ... القضية المحورية:

■ ماهي القضية المحورية التي تبنيها في إنتاجك الأدبي، منذ مجموعتك القصصية الأولى (أحب الشام) حتى روايتك الأخيرة (حب في بلاد الشام)؟

من الصعب تحديد مسألة معينة يهتم بها الكاتب من بداية إنتاجه حتى نهايته .. ألقيت ضوءاً على بعض العناوين، على قاسم مشترك بين عنوان أول مجموعة قصصية وبين كتابي ما قبل الأخير (حب في بلاد الشام) فهناك الشام .. ولكن دعني أوسع المسألة التي يتمحور حولها ما قمت بكتابتها .. فالشام في البداية هي تلك المدينة (دمشق) التي كانت غارقة في الظلام بعد حرب (١٩٦٧) والشام في رواية (حب في بلاد الشام) هي البلاد السورية أي ما كان يسمى في بداية القرن بلاد الشام، هي عدة مدن (طبريا وحيفا ودمشق وبيروت) في جميع قصصي أو مجموعاتي تناولت الحياة العادية في مكان معين هو دمشق، وحاولت أن ألصق العلاقات الإنسانية هناك، لكن مسألة المدينة القديمة شغلتني عندما كانت تلك المدينة القديمة بهويتها العربية مهددة بالمخطط العمراني الحديث، عندئذ جعلت الدفاع عن الشام العربية مسألتني وعبرت عن ذلك في كتابين ليسا مجموعتين قصصيتين، هما (الهجرة من الجنة) و(دمشق ذاكرة الإنسان والحجر).

المكان والذاكرة:

لكننا نجد في بعض القصص هذا الدفاع عن دمشق، أو إظهار المكان أي إظهار سمات المكان مثلاً قصة الحب القديم أردت بها أن ترسخ في الذاكرة، مدخل دمشق وتحديداً منطقة الربوة، ومقهى أبي شفيق .. هناك وضعت البطلسين وربطتهما في المكان..

.. هذا صحيح.. في مجموعتي الأخيرة (مملكة الصمت) هناك قصص تلمس تماماً مصير المدينة، مصير الأضرحة تتلامح المدينة كبطل في قصصي، (حب في بلاد الشام) أوسع من ذلك فهناك يبدو قلقي على ذاكرة المدن وعلى هويتها الضائعة ومصيرها، ولذلك عملت في الوثيقة عملاً جدياً كي استخرج المدن العربية (حيفا وبيروت ودمشق وطبريا) في بداية القرن، وفي المستوى الفني عملت على ربط هذه المدن بمصائر الأبطال وحياتهم وجعلت الذاكرة تشمل أيضاً، كنوع الشخصيات والملابس والعادات وبنية البيت العربي نفسه.

▪ لاشك أن هذا الخوف على المكان من الضياع، سببه التغيير الذي يطال ملامح المدينة بسرعة هائلة، ولذلك أسباب متنوعة دعينا نتوقف عندها قليلاً؟!

كانت المدن سابقاً تتغير ببطء عندما تصحح الأجيال عمارتها بما يناسب خبرتها المعمارية وحاجاتها الإنسانية .. الآن يستطيع مخطط تنظيمي ان يهدم مدينة كاملة وان يقيم مكانها مدينة أخرى خلال سنوات قليلة جداً .. هذا يبدل المكان وينفي منه الذاكرة ويغير مسارات الناس والطرق ويقطع الأجيال الجديدة عن الأجيال القديمة يعني، يحطم الذاكرة العامة تماماً بحيث لا تستعاد، هناك مثلاً سبب آخر هو الاحتلال (تبديل القدس) الآن، هو تبديل طابع وهوية مدنية تاريخية عرفتها أجيال كثيرة في شكل معين محدد وهوية معينة، درست جامعة (هارفرد) طوال خمس سنوات تقريباً مدينة القدس وأرسلت مجموعات من الطلاب والباحثين والأساتذة وجردت المدينة جرداً كاملاً اجتماعياً، طبوغرافياً، جغرافياً، أثرياً، اعتقد أن هذه الدراسات كانت مقدمة لمخطط تنظيمي يبدل هوية القدس تبديلاً جذرياً، مثلاً

يبين الدراسات بحث في المستوطنات اليهودية (الأحياء) وأعتقد أن هذا البحث كان أحد المستندات التي اعتمدها من خطط المستوطنات الحديثة في القدس.

هناك مدن (حيفا وعكا ويافا) نسينا على ما يبدو أنها مدن عربية متصلة بالذاكرة العامة لأنها كانت من بلاد الشام .. هذه المدن حدثت فيها تبدلات ونقلت من هوية وجنسية إلى أخرى .. يجري التبدل في مدن الشرق وهذا يفقدنا جزءاً مهماً من الحضارة العربية التي أنشأت تلك المدن، يحزنني أننا لا نقدر تماماً فداحة تغيير المكان فنتوهم أن ذلك من مستلزمات المعاصرة ولا نفهم أبداً أن ما نفقده هو هوية وطنية وتجليات حضارية في العمارة وذاكرة تاريخية، قلقي إذن على المكان أت من هناك، انظر إلى بيروت، زرتها قبل أيام فلم أعرف فيها المدينة التي مشيت فيها سابقاً واستمتعت بجمالها وطابعها الخاص، أفقدتها الحرب الأهلية اللبنانية بعض بيروت ويفقدها مخططها التنظيمي الجديد ما بقي منها، لهذه الأسباب أشعر بالخوف على هوية المدن العربية ولست متفائلة أبداً في حمايتها.

المكان ... الذاكرة التاريخية:

■ ماهي المصادر التي عدت إليها لتوثيق ملامح هذه الأمكنة هل للذاكرة الشخصية دور؟ خاصة مدن مثل حيفا وعكا وطبريا؟!

لم ينج لي أن أرور (حيفا ويافا وعكا وطبريا) لكنني عرفت من عاش فيها وسعيت إلى الذين عرفوها، لم أعتمد فقط على ذاكرة شخص محدد بل قاطعت المعلومات وعدت إلى الكتب والجرائد، عملي الوثائقي على هذه المسألة استمر سنتين متواصلتين، ولكن خلال عملي الفني أيضاً صححت وغيّرت في الوثائق كي تصبح قريبة من الحقيقة، وقد أفرحتني أن يشعر الذين عاشوا في تلك البلاد ممن أعرفهم بأنهم وجدوا المناخ والبيئة والملاح التي ألفوها في مدينتهم عندما قرأوا رواية (حب في بلاد الشام).

انقطاع خيط الشاعرية:

▪ في الستينات حين أصدرت مجموعتك القصصية (أحب الشام) كانت فيها شاعرية وعذوية وحميمية تصل إلى القارئ ببسر وسهولة .. يلاحظ النقاد أن هذا الخيط لم يستمر في أعمالك؟!

طبعاً لا تتصور أن الشفافية تهبط ببسر من السماء فهي جهد فني وعمل في القصة أعتقد أن ملامح من هذه الشفافية لا تزال توجد حتى في مجموعتي الأخيرة (مملكة الصمت) لكن الشفافية لا توضع إلا في مكانها، لكل بطل من أبطالك مزاج يجب أن تحترمه وتنتبه إليه، ولكل قصة مناخ يجب أن تلتزم به.

في الرواية مناخات متنوعة لذلك أعتقد أنه يمكن أن تجد تلك الشفافية في بعض المواقف والمشاهد، في (حب في بلاد الشام)، لكن الكاتب في بدايته يعبر عن نضارة ما .. تتضح عينا الكاتب فيما بعد، تتكشف له الشخصيات والأوضاع والعلاقات وعندما يعبر عنها لا يكون ذلك كما كان يعبر عنها كما كان يعبر في الماضي .. أعتقد أن هذه البراءة الناعمة الشاعرية هي التي يفقدها الكاتب خلال نضجه فيما بعد.

▪ تقصدين أن الثقافة المكتسبة فيما بعد تؤثر على التلقائية والعفوية؟! ليس تماماً ولكنني أقصد أن للبراءة جانبين، جانب ساحر جميل ويبهرنسا في رؤيته إلى الدنيا وجانب آخر فيه جهل، هذا الجهل جهل الحياة هو الذي يغيره الثقافة والخبرة ومراقبة الحياة عن قرب.

الأدب ... والإضافة

▪ منذ مرحلتك الأولى وأنت تكتبين فما الذي أعطاك الأدب خلال كل تلك السنوات ... وماذا أضفت في رأيك إلى المشهد الثقافي والقصصي الراهن؟! الكتابة هي محور مهم ورئيسي في حياتي، هي مهنتي وقد أعطتني فرحاً كبيراً كما أعطتني قلقاً عظيماً .. مهنة الكتابة مهنة شاقة وهي ليست أبداً بريقاً اجتماعياً..

الكتابة تعني أن تكون دائماً واقفاً على قدميك في الليل والنهار مفكراً في موضوعاتك، مغموساً في شخصيتك في الكتابة تبذل أعصابك وروحك، يجب أن تتقمص شخصياتك المتنوعة أي أن تنتقل بين أجواء مختلفة كي تحيط بموضوعك يجب أن تهب نفسك كاملة، وفي هذا لا تستطيع أن تكون كالموظفين أو أصحاب المهن الأخرى محدداً بدوام معين وبساعات فقط من العمل، فما يستولي عليك يبيقك مستيقظاً، مستغراً ليلاً ونهاراً لا تترك العمل ولا الشخصيات إلا عندما تتضج وتكتمل وتتصرف عن ذلك العمل لأنه انتهى، وعندئذ تشعر بفراغ كبير حتى يمسك بك عمل آخر وموضوع آخر.

تسهر خلال العمل الأدبي بتوتر تخاف في كل مرة من الفشل، تشك في كل مرة بما أنجزته وتعود إليه كي تصححه وتقلمه، لكنك عندما تصل إلى الصياغة التي ترضيك تحنل أعتقد أن الفرح العميق حقاً هو هذا الفرح بالإنجاز والكمال الذي وجنته ووصلت إليه .. لكن سرعان ما تنسى ذلك الفرح وتتصرف عنه إلى ما لم تصل بعد فيه .. إلى الصياغة الكاملة .. الكتابة أحياناً تخرجك من أحزانك وتدفعك إلى مشروع ترد به على فشل مشروع راهن .. أما ما أضيفه هو تحديداً التنبيه إلى مكان الذاكرة في المستوى الفكري، أما الإضافات الأخرى فيستطيع أن يحددها الآخرون.

إبداع امرأة .. إبداع رجل

هل اتجأهك إلى هذا النوع الصعب من الأدب المرتبط بالوثيقة هو تحد للكاتب - الرجل - وخاصة أن ما التصق دائماً بإبداع المرأة مرتبط فقط بمشاكلها العاطفية مع الرجل، وهناك من شكك طويلاً بإبداع المرأة على سبيل المثال (فدوى طوقان) إذ نسب كثير من جهودها إلى أخيها في البداية، ولم يحزم في هذا الموضوع إلا بعد وفاته واعترف بإبداعها الهام؟! ما دفعني إلى كتابة (حب في بلاد الشام) والعمل على بقية أجزائها الآن، هو

كما قلنا خوفاً على الأمكنة وعلى الذاكرة العامة من الضياع، شعوري بأن الأجيال الجديدة لا تعرف حتى الأحداث القريبة التي عاشها أهلها، من ضمن مشروعي أيضاً أن النساء اللواتي نقول عنهن أميات وهن جداتنا وأمهاتنا كن شخصيات غنية عاطفياً وإنسانياً وثقافياً، لكني أردت خلال ذلك أيضاً في السياق أن أبرهن أن المرأة قادرة على الدأب والعمل الكبير تماماً كالرجل .. المعروف أن كثيراً من النساء درسن وقمن الأطروحات التي قدمها زملاؤهن الرجال فلماذا يختلف الأمر في الفن والكتابة، (حب في بلاد الشام) عمل طويل استمر خمس سنوات (في الصباح والمساء) وأنا سعيدة جداً بأن أضيف برهاناً جديداً إلى قدرة النساء على الصبر في العمل الفني وعلى القدرة على الإحاطة بمسائل عامة، لكني يجب أن أتوقف هنا كي أقول الجزء الأخير أيضاً من الحقيقة .. هناك نساء كاتبات أكدن رغبة الرجل في أن الكاتبة لا تنطلق إلا من عواطفها الصغيرة الشخصية، ويؤسفني الآن أن تقع كاتبات وباحثات عربيات في مصيدة قضية المرأة مفصولة تماماً عن قضية الرجل، والمجتمع والوضع الاقتصادي والاجتماعي، يطرح علينا العالم الجديد الآن استبدال محاور الصراع الاجتماعي والوطني، فيقدم فيما يقدمه الحريسة الشخصية وحرية المرأة مجردة عن المشروع الاجتماعي الواسع وعن الوضع الاقتصادي والسياسي، ومن المهم جداً الآن ألا نفع فيما يُهيناً لنا من محاور، ومن المهم جداً أن نقدم نحن الكتاب محاورنا التي تثبت من واقعنا ومن حاجتنا.

بقية المشروع الأجزاء (حب في بلاد الشام) سأكون قد قدمت محاور وسائل القرن الرئيسية التي عاشتها بلادنا، في سياق ذلك أكون أكدت أن الكاتبة كالكاتب تماماً يمكن أن تتناول مسائل جدية ومتعبة وأن تعبر عنها كالكاتب تماماً .. (فدوى طوقان) كاتبة كبيرة وأعتقد أنها في سيرتها الذاتية المنشورة ارتفعت كثيراً عن كتاب رجال معاصرين من العرب وغير العرب، من الكاتبات الجديات أيضاً (سحر خليفة) رغم الخلل في بعض ما تقدمه حيث تتبهر بقضية المرأة وتبعدها عن السياق الاجتماعي.

وأيضاً (ليلى العثمان) .. إذن استطيع أن أستنتج أن المرأة كالرجل تماماً قد تكتب في محاور جدية وتصوغ عواطف عامة وشخصيات عامة، وقد تسقط في عواطف شخصية فردية وتغني أغنية الرجل المرأة المغلقة.

الأدب والأيديولوجيا:

■ يبدو أن الأيديولوجيا التي اعتنقتها لا تظهر مباشرة في إنتاجك الأدبي، فهل هذا عن قصد أم أن الفنيات تطفئ على المضامين في إنتاجك؟!

أعتقد أن الأفكار أو المنظومات الفكرية التي يتبناها الكاتب هي المرصد الذي يطل منه على موضوعاته وشخصياته، يفترض أن تهبه هذه المنظومات الفكرية سمة الرؤية والعمق، إذن لا يفترض أن تظهر كأسلوب وكوسيلة لإظهار العالم الإنساني الذي يتناوله .. لاشك في أن رؤيتي الفكرية هي التي أتاحت لي أن أضع في مشروعي محاور القرن الرئيسية كي أذكر بها وأقاوم التزوير الذي ينشره العالم الجديد المعاصر، لكن هذه الرؤية كما قلت هي المرصد المساعد وليس الهدف الذي يجب أن أنشره وأبحثه، وإلا لأصبحت كاتبة بحث فكري لا كاتبة علاقات إنسانية وأوضاع اجتماعية. دراسة الأدب ساعدتني على فهم أن (الأيديولوجية) يجب أن لا تظهر معلنة، مقحمة وساعدتني على فهم أن جميع الأعمال الأدبية مهما

كانت فنية هي تعبير عن أيديولوجية معينة، خذ مثلاً مشاهير الكتاب الكلاسيكيين (ديوستوفسكي)، (تولستوي)، (تشيخوف) ألم يكن هؤلاء مفكرين كباراً عبروا عن اتجاهات (أيديولوجية)، (الأيديولوجية) موجودة حتى في أولئك الكتاب الذين ينكرونها، لكن المسألة هي كيف نعبر عن هذه المنظومات الفكرية التي نتبناها، وكيف يمكن أن تفتح لنا الآفاق وتظهر لنا حقائق الحياة وتسمعنا صوت الزمن الذي لا يسمع دونها.

أخذت من روح دمشق أحلامها، وحملتها أنشودة الزمان والمكان...

حب الوطن بالفطرة، لا فضل لمواطن فيه، ولكنه الفضل.. أن نساهم في خدمته ورعايته وإعلاء شأنه والحفاظ على مكنوزه، واستلهام ثقافته ... نخفيه بالإضافات المادية والروحية ليظل عامراً، هانئاً بأهله وساكنيه وضيوفه، شامخاً بعزته وكرامته، منعماً بجماله، منيعاً عصياً على أعدائه.

ناديا خوست، امرأة حرة بالمعنى الأصيل، تشبه نساء كثيرات من وطني غير أن قلة من النساء مثيلاتها فكراً وسلوكاً ونشاطاً، أخذت من روح دمشق أحلامها المجلوة وحملتها على كاهلها أنشودة الزمان والمكان ... فمن قلعتها حصانة أسست لها: بالعلم والمعرفة والتجوال في المدن العربية والغربية، وقبل ذلك من سوق ساروجة وحي الورد فيه: الرفعة والجمال، قبست من أطيايف الرجال والنساء فسي وطنها نوراً تهتدي به الأجيال في مساراتها المفتوحة على الدروب وهي تعلم أننا لن نستطيع أن نرافقهم فيها، حيث لم (تعد الحياة مدرسة نضع أولادنا فيها فلا يخرجون إلا وقت نستعيدهم).

وضعت دليلاً عربياً مصوغاً بالحب والوطنية الصافية التي لا تعكر صفوها الشدائد والصعاب، ونذرت عطاءها لبلاد الشام المعطاء، واحتضنت دمشق القديمة، وحنّت عليها (حنو المرضعات على الفطيم) ... عرفت ناديا مبكرة أهمية المكان

الذي ينشأ فيه ومعه الإنسان، وبألف طيبه وأريج، واكتشفت لذة العطاء وجدواها، فهذا هو الياسمين والعريش وأشجار النارنج والبرتقال، تعطي أجيالاً وأجيالاً عندما يغمرها الحب والعناية والاهتمام ... يذهب الناس، يودعهم أهاليهم إلى الأضرحة الموجودة في البيوت العتيقة وإلا لما اختبأت إحداهن في روايتها خلف الضريح تحمي به ... ولا تلبث أن تكتشف موتاً من نوع آخر سيكون شاهدة ثقافية - عبر رواياتها ... ينضح بالتاريخ الوطني ومصير الأجيال ... إنه الموت الذي تحيا به الأوطان، ويعمر ذاكرة الأمة وشواهد قبور أبطالها وشهادتها بالمجد والغار، تكبر الشهادة دريئة متصدرة على مر العصور والأزمان في وجه كل غاصب ومعتد أثم .. فما تذكر (المرجة) إلا لزيمة أيار وشهادته، والاستقلال الذي يتربص به عدو جديد ... إنهم الأعداء يبرزون بدمشق الجميلة المزروعة بالعشق والشهادة ... حتى يومنا هذا..

تكتب - ناديا - ونشد العزيمة، حفظاً لذاكرة الأجيال كي تظل الجولة الأخيرة لدمشق - كما كانت دائماً ... تيمورلنك دخل دمشق وأحرقها، وقتل أهلها، ثم عاشت مرة أخرى، ومات تيمورلنك، وصل الفرنجة إلى الربوة ثم ارتدوا مهزومين .. من دمشق خرجت الجيوش إلى حطين وحررت القدس .. وكلها ذكريات تهب الدمشقيين من الإيمان (بأن الجولة الأخيرة لهم) و (بأنهم قادرون على الصبر حتى يستنفذ العدو وقواه..).

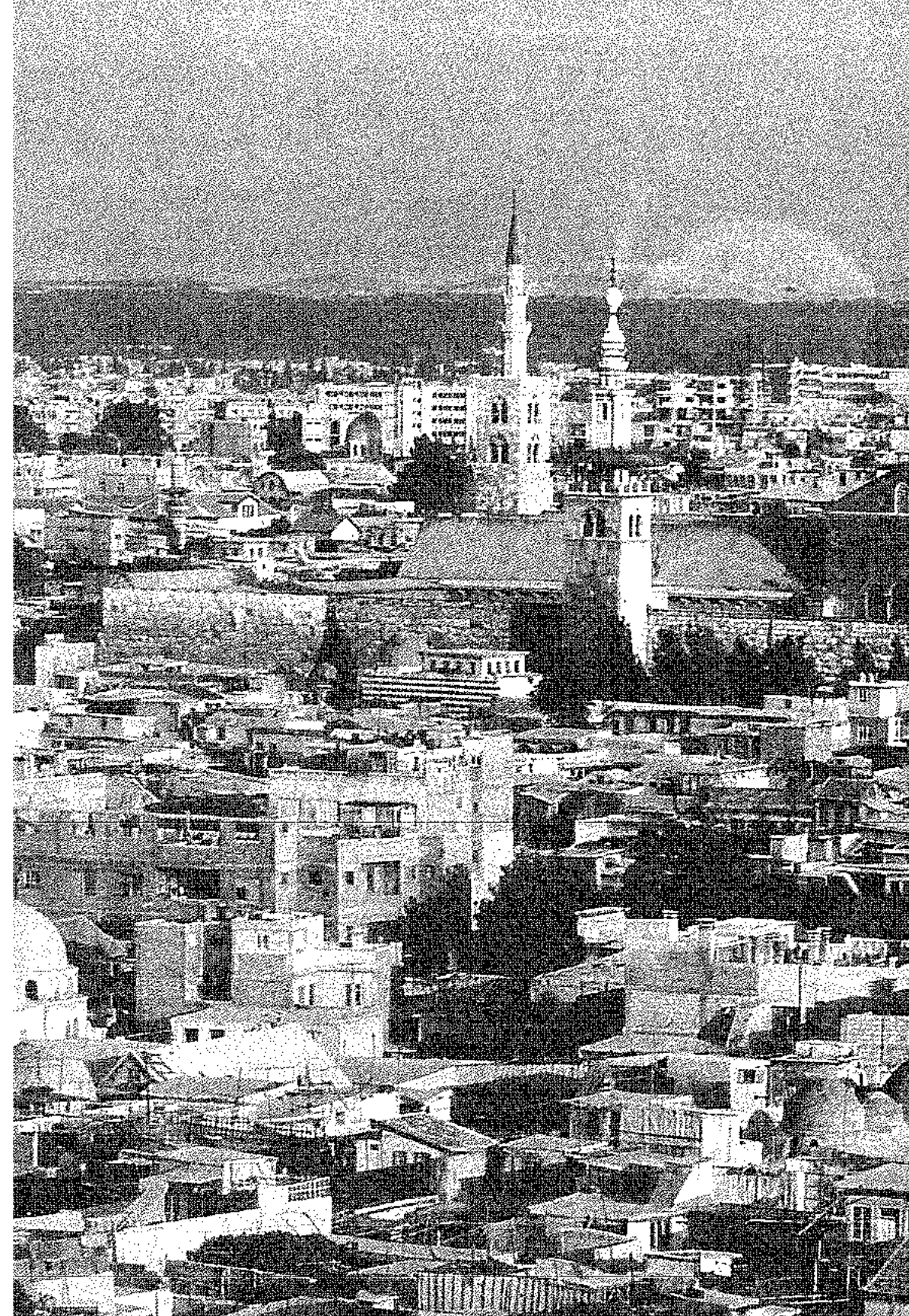
هي الدمشقية - وريثة أهلها في الحب والثقافة والسياسة، صاغت ملحمتها الروائية بأجزائها الأربعة عن (بلاد الشام) ذاكرة وهداية للمستقبل تعلن فيها السواء لعزة دمشق.

وتنتظر على مفترق الدروب التي نحن بصدها اليوم ... ندع الأدبية الناشطة لحفظ الذاكرة وشواهد الباقي التي تؤكد على قدرة صانعيها ومبدعيها لنطلع في حياة (ناديا) الخاصة ما يعزز مروياتها من الوقائع والسلوكيات التي أتيج لنا التعرف إليها، ومازلنا نتابع مقالاتها منذ حوالي ربع

قرن.. نبتدى بمعرفة الكاتبة التي تحرص على رعاية الحروف التي تصوغ وترافقها إلى التتضيد والتصحيح، وعند ظهور المقال في اليوم التالي نقرأ الفكرة الجادة والملتزمة بقضايا المجتمع والوطن والأمة وكانت من الأوائل القائلين بالتضليل الإسرائيلي ومظاهره الخادعة للرأي العالمي، وقصور العرب عن إيصال قضيتهم إليه، فكانت تقف بطلان مزاعمهم، وترى المقاومة هي الحق الطبيعي والشرعي لمن اغتصبت أرضه وتعرض للاحتلال وعانى الويلات والدمار، وفي هذا كله كانت تحرص على استلهاهم الثقافة العربية الأصيلة من غير ذوبان، وتقول بخطر تقليد الأوروبيين لأن ذلك يعد من مظاهر الخراب، غير أنها تقول بالعالم والعقل المبدع الذي يعلي شأن الهوية ويجدها، كما ترفض حياة الاستهلاك بكل ما أوتيت من معرفة.

على جانب آخر تبينت في ناديا السيدة الذواقة بما تختار من صناعة دمشقية لأثاث بيئها، وما تحتفظ به من موزاييك وصدف، وبعض المنسوجات العتيقة الجميلة وقطع الدانتيل المشغولة بأيدي الأم أو الجدة، وكانت تحرص على اقتناء الأزياء الدمشقية والصناعات المحلية وإذ تلفت انتباه السيدات في حضورها المحبب والقريب إلى القلب... يتساءلن عن مصدر ما تتحلى به فتبادر الإجابة بكل فخر واعتزاز (صنع في دمشق)...

كما تصنع في منزلها: شراب الورد - قمر الدين - والتمر الهندي - وتجهز الأكلات الشامية لعائلتها بالجودة نفسها والذائقة الأدبية التي تخط بها أبنها.. ويحضرني هنا القول في واحدة من روايتها .. المطبخ مهم يسا حواء .. وعندما ترش إحداهن السكر الناعم على المعمول تؤكد أنه (صار مثل جبل الشيخ).



عقب التاريخ ودفء الحضارة...

امتدت الحضارة العربية الإسلامية على الكرة الأرضية قروناً، معبأة بالأصول السورية والرافدية، وكانت العمارة من ثمارها التي احتضنت الفنون والعلوم، عمارة تتناسب حاجة الإنسان إلى الوحدة والتجمع، تستقبل النسيم وتحتمي من الريح، تنعم بالدفء وتتفادى الحر، وتحقق المساواة بين الناس في الهسواء والخضرة والماء والظلال، ومن يتفرج على موزاييك الأموي يتبين أطياف تلك البيوت العربية التي نعم بها أهلنا وما تزال إسبانيا تزهو بها في الأندلس.

متحف دمشق التاريخي أحد تلك البيوت، شيده المعماريون العرب كمن يعرف أنه يترك للأجيال تراثاً تفخر به، أدخلوا قطعة الرخام الصغيرة في الأخرى حول البحرة، ورسموا بأناقة حجارة أرض الدار، وتوجوا مداخل الغرف ومطلاتها بالزخارف، ووسعوا فسحة للسماء المبهرة بقمرها ونجومها وألوان غيومها.

كان هذا البيت وسط نسيج حي سوق ساروجا، من بنية المدينة العربية التي تتجاور فيها بيوت الأغنياء والفقراء فلا تتمايز بالحقوق في السماء والماء والخضرة، بل في الزخارف، لكنه اختص بالتاريخ الذي تصنعه النخبة، ففيه عاش فوزي باشا العظم حياة سياسية طويلة، يستوقفنا تفصيل منها: وصل رسول في الليل كان صاحب البيت في انتظاره، همس له: سيشرق رجال أيار في الفجر! فنقل الخبر لزوجته، ومشى في أرض الدار عاجزاً وباكياً حتى الفجر، من الظاهر لا نعرف تلك الحقيقة السرية، نعرف فقط أنه كان من الوجهاء الذين ألزمهم جمال السفاح بأن يمشوا معه ذلك النهار الدامي في قرية عبد الرحمن اليوسف، شهوداً على احتفاله الأحمق بالحدث الذي غير مصير بلاد الشام، كان أحد شهداء أيار قريب صاحب البيت، وهذا ما شطر الأسرة، فلم يظهر ذلك الجزء منها في مآتم فوزي باشا فيما بعد. مع أن ما بين ضريحي الرجلين في مقبرة الباب الصغير بضعة أمتار.

عاش خالد العظم آخر أصحاب هذا البيت، حياة النخبة السياسية الاقتصادية،

خلف هذا المتحف تماماً بيت عبد الرحمن اليوسف، بيت واسع اتصل أيضاً بمقطع من التاريخ السوري، ما تزال قاعته الواسعة وبعض زخارفه سليمة، بما يناسب حتى مطبخه وإسطبله اللذان يقعان خارج البيت توظيفاً متميزاً، وقد صغنا في التسعينات مشروع استملاك إنقاذاً له، لكثرة ورثته، وصوت على ذلك مجلس محافظة دمشق، وكان يفترض أن تستكمل معاملة الاستملاك، لكن هاهو البيت يفقد عناصر معمارية أخرى بالإهمال، بينما تبحث نقابة الفنانين عن مشروع تسند به نقاعد الفنانين، مثلاً، ويحتاجون مكاناً لمعارضهم.

تثير زيارة متحف دمشق التاريخي مسائل أخرى، منها أن حماية ما بقي من حي سوق ساروجا الذي يقع على الضفة الأخرى من شارع الثورة المزدهم، ضرورة وطنية وثقافية وبيئية، وإن تلك الحماية تتصل بمصير محيطه في سوق العتيق، فالرحمة الصاخبة في تلك المنطقة وأزمة السير تفرض ألا يضاف إليها نقل جديد بأبنية مرتفعة، يرى أي عاقل يعبر تلك المنطقة التشويه الذي أصابها بالمخطط التنظيمي، ويتمنى أن يحاسب من نفذه فأفقد الأجيال تراثاً معمارياً تاريخياً، وخلق بؤرة التلوث، وخرق القواعد العالمية التي تلتزم باستبعاد الرحمة عن مراكز المدن.

تدفع زيارة المتحف، أيضاً إلى التفكير في علاقة المواطن بمدينته، استخفافه بتراته الحضاري، غياب شعوره بأنه يجب أن يحرس أرض الدار من أعقاب السجائر، وأن ينظف البيت التاريخي الجميل، وألا يفسد الأثاث القديم، وأن يكون ممثلاً وطن وحضارة خلال اتصاله بالزوار، ولكن كأنما يوجد نمطان من الموظفين، يعمل الأول بمقدار راتبه القليل الذي لا يساوي أكثر من أن يشرف المكان بحضوره وتظلمه المهمات التي تخطط عمل الآذن والحارس والدليل! والنمط الآخر يرى أن عمله في بيت تاريخي حظ، فيتذوقه ويشكر الأجيال عليه ويعسي أن العمل علاقة بالوطن لا بالراتب فقط، فيتعالى بكرامته على طلب الرشوة والهيئات!.

نعود من زيارة متحف دمشق التاريخي مبهورين بالهوية المعمارية الثمينة،

ومتقلين بالهواجس لأن المواطنين صنفان، بعضهم يعمل ليلاً ونهاراً ليحسن الأداء ويرمم التقصير، وبعضهم مشغول بقطف الثمار في الظلال، يهرع إلى أن تكون النفقات أعلى ما يمكن كي تحقق الأحلام بالقطاف، يناسب الجني موقعه، ففي الأسفل قد يقبل بالفتات والهبات، وفي المستوى المتقدم على ذلك قد يطلب بقوة مالا يستحقه من امتيازات، فنتساءل عن العمل الذي كان يدفع إليه التطوع والهوى، ونستعيد الأرق الذي يبقي الإنسان غيوراً على الوطن، وكأنما يجيبنا هذا الرجل الذي يرمي من نافذة السيارة أوساخه! والآخر الذي يغسل بيته بالصابون فيسيل على الرصيف! متى وأين بدأت هذه العلاقة المختلة بالمدينة؟ هل بدأت بقطع شجرة وقلع بستان أم بهدم بيت عربي؟ هل بدأت من المدرسة أم من البيت؟

يا للأسى إذا لم نتبين أننا محظوظون بهوية تشهد على حضارة عالمية إنسانية السمات! يا للأسى إذا لم نميز بين الهوى في علاقتنا بعملنا، وبين حقنا في أن نجازي بما نستحقه كحق عام لا يستعاض عنه برشوة أو هبات!.



يا نديجي ...

• يا نديجي:

أسي ارتعت هتافا

من بعيد

منسافات العزوب

أن كن المرء

للهاب مطافا

لجاء مشى به ..

او كيف

أب سخرطه ذاق

سما ذعافا

ليرى النكر فوق

رئيس الطنون

يا نديجي:

وربح كرو السنين

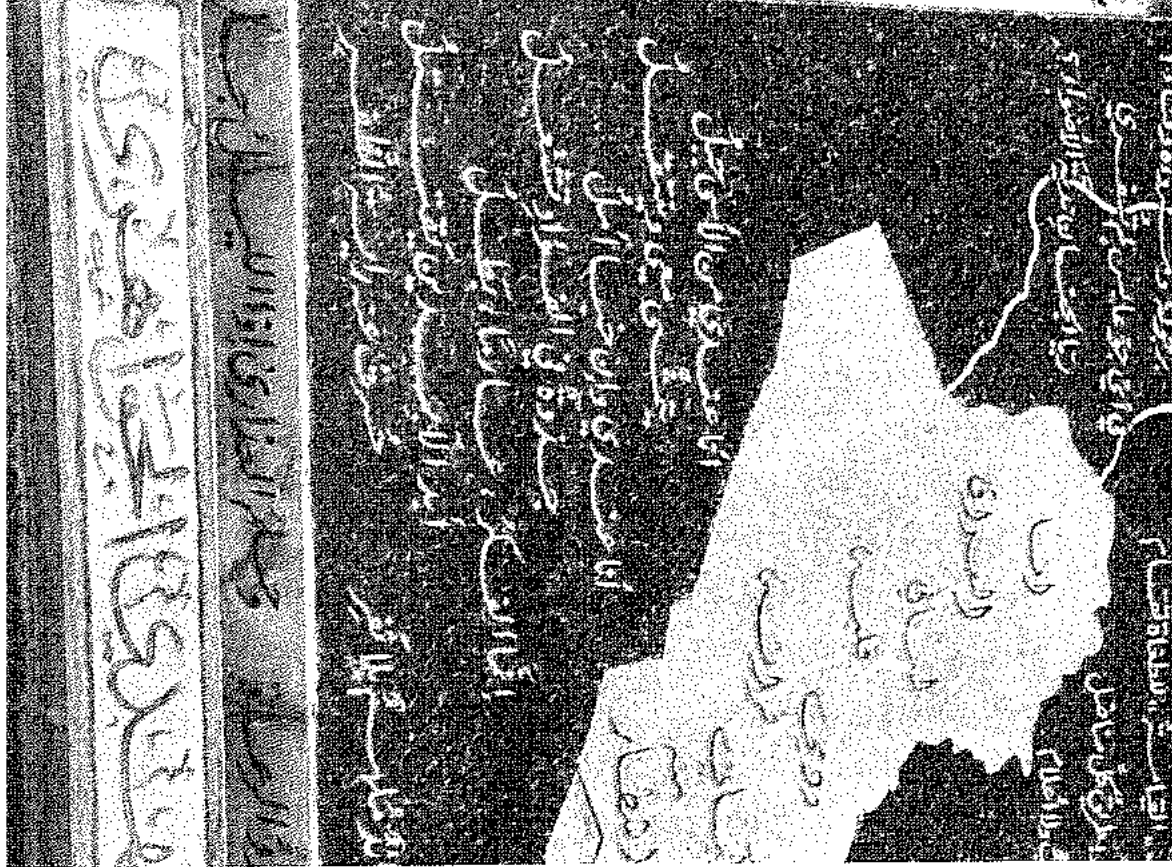
ظل سخرطه فوق

ريب المنون

محمد مري الجواهري

بغداد

١٩٧١-٤-٢٠



بركان الشعر الغاضب

لم يكن محمد مهدي الجواهري شاعراً رقيقاً ولا متأنقاً، ولكن كانت تمور في نفسه عواطف جياشة تجعل قصائده دوماً غاضبة، هذا الذي آمن بكل الثورات، وخائنه كل الثورات، وبنى من الحلم عالماً عريضاً وثرياً، كان يستيقظ كل صباح ليرى دعائمه وقد انهارت.. كان شاعر التناقضات الكبرى، نصبه البعض أميراً للشعر العربي، ونقده البعض بأن شعره يمتلئ بالعجيج والصخب، عاش شاعرنا حياة متدفقة قاربت المائة عام، وجمع في راحة اليد الواحدة ما بين الماء والنار، كما كان يقول عن نفسه: ولد في مدينة النجف الأشرف في العراق في عام ١٨٩٩، وكان مقدراً له أن يكون شيخاً معممًا وفقياً من فقهاء الدين، ولكن بركان الشعر الغاضب في داخله اقتلعه من هذه المدينة الساكنة، فثار على فقره، وعلى التقاليد التي تكبله، ونذر حياته وكلمات شعره لقضايا الشعب، حصل على الجنسية العراقية بعد أن كان يحمل الجنسية العثمانية، أتاح له هذا الأمر أن يشتغل معلماً في المدارس الابتدائية، لكن الوظيفة لم تدم طويلاً، استقال منها ليصدر جريدة الفرات، وهو الاسم نفسه الذي أطلقه على أول مولود له، وكانت "أبو فرات" هي كنيته المفضلة، كان شاعراً غزيراً، لم يترك مناسبة وطنية أو قومية إلا ولاحقها بقصائده، ولم يترك غرضاً من الشعر إلا وطرقه - رغم رأيه السيئ في الغزل - أعانه قاموسه الشعري الغني، ومفرداته الحاشدة، وذاكرته الحافظة للشعر التقليدي العربي، رغم محاولاته الدائمة للثورة والتمرد، وكعادة كل شعراء العراق الكبار لم يهنا له عيش في موطنه، ولكنه اضطر للمغادرة أكثر من مرة، هاجر أولاً إلى براغ حيث قضى فيها سبع سنوات، وعاد إلى بغداد بعد ذلك في محاولة منه للمواءمة مع نظامها الحاكم، ولكنه لم يستطع فاضطر للعودة للمنفى مرة أخرى، حيث قضى في صوفيا سنوات طويلة، وغادرها إلى دمشق التي قضى فيها

أواخر أيامه حتى وافته المنية.

الجواهري شاعر التناقضات والمتناقضات، فقد مدح الملك فيصل الأول بالقوة نفسها التي مدح بها عبد الكريم قاسم، وهلل للثورات، ثم هرب من بطشها إذ انقلب عليها حين رآها لا تحقق العدالة والكرامة، وقد خرج من كل ذلك منقياً صفر اليدين حتى صار سؤال الحاكمين والمتقنين على السواء: ماذا يريد الجواهري؟ والجواب أنه كان يريد أولاً أن يكون شاعراً حراً، وثانياً يريد تغيير هذا الواقع العربي المتحجر المتخلف بأي ثمن من دم ونار. يريد الحرية والكرامة والعدالة لكل وطن وكل مواطن. يريد مملكة للقيم تساند رغبته الجامعة في التغيير.

وقد استجاب لها الجواهري بأقصى طاقة من الحدة والعنف والغضب. حتى أن قارئ ديوانه يتساءل عن مصادر هذا الانفعال الجامح: كيف تكون في نفس الشاعر، وما هي عناصره، ولماذا ظل في تفجر دائم متصاعد مدة ثمانين عاماً؟؟

ثورة أم إصلاح:

ما يجعل هذا السؤال محورياً هو أن الجو الشعري الذي نشأ فيه الجواهري لم يكن على مثل هذا العنف والتطرف والجزرية، فما بين البارودي وشوقي. وما بين الرصافي والزمهاوي كان الشعر العربي في مطلع القرن يدعو إما إلى إصلاح السلطنة العثمانية أو استقلال العرب عنها أو إلى الإصلاح الاجتماعي، كما نطالع في قصائد بشارة الخوري و خليل مطران عن "اليتيمة" و "المشردة" و "الأم الجائعة" و حتى "فتاة الجبل الأسود" و "بزرجمهر". ولكن نرى الفرق في نوعية النبوة واختلاف الرؤى الدموية عند الجواهري عن كل من سبقوه.

ففي ١٩٣٦/١٠/٢٩ قاد العميد بكر صدقي وحليفه حكمت سليمان انقلاباً على حكومة ياسين الهاشمي التي تبنت معاهدة ١٩٣٠ مع بريطانيا بعد أن عقدها نوري السعيد. وربما كان أول انقلاب عسكري على الحكومات العربية، وقد أيد الانقلاب

رجال الحركة الإصلاحية من سياسيي العراق، وكان نوري السعيد قد عطل جريدة الجواهري الأولى "الفرات" (١٩٣٠-١٩٣١).

ولما كان الجواهري صديقاً للثلاثيين فقد أصدر بعد شهر صحيفة باسم "الانقلاب". أما القصيدة التي هلّل بها لذلك الحدث، فلربما كانت من أشهر وأقوى شعره في الثلاثينيات، وقد وجهها إلى حكمت سليمان الذي كان رئيس وزراء حكومة الانقلاب، فقال له:

((أقدم، فأنت على الإقدام منطبع	وابطش، فأنت على التّكيل مقتدر
وشق بأن البلاد اليوم أجمعها	لما تُرجّسه من مسعاك تنتظر
فحاسب القوم عن كل السّذي اجتروحوا	عما أراقوا، وما اغتالوا، وما احتكروا
للآن لم يبلغ شبر من مزارعهم	ولا تزحزح مما شسيدوا حجير
فضيق الحبل واشدد من خناقهم	فربما كان في إرخانه ضرر))

عنوان القصيدة "تحرك اللحد" لكن الشاعر قصد منها أن تكون لحداً حقيقياً للرجعية والإقطاع والاستغلال وكل الفساد الداخلي. بعد أقل من عام قتل الإنجليز بكر صدقي فسقطت حكومة حكمت سليمان وأُلف الوزارة جميل المدفعي، فسارع الجواهري إلى تبديل "الانقلاب" باسم جديد هو "الرأي العام" هذا النفس الموتور سبق أفكار "العنف الثوري" والتصفيات الجسدية "العقائدية"، إذ ما زال المجتمع العربي في ذلك الحين - حتى في مصر - لم يتبلور بعد كمجتمع مدني، فهو خليط من برجوازية وإقطاع وبدو يؤهّلم الاستعمار لتطوير اقتصادات محلية تابعة للمركز الأوروبي، فإذا لم يكن العنف من تقاليد الشعر ولا من الفكر الأيدولوجي السائد في تلك المرحلة، فقد نتلمسه في طبع الجواهري ونشأته. فالجواهري ابن البيئة النجفية والأسرة الفقيرة بصفه حسن العلوي: (كان الجواهري طفلاً في زي شيخ وقور يعتمر العصامة ويلبس اللحية ويتحدث بلغة الشيوخ، وقد خرج بعد عشرته الأولى بخطاب سلمي عن دراسة

الفقه التي أصبحت النقيض المضاد لهوى الشعر) ويبدو أن والد الجواهري توسم في أصغر أبنائه - محمد مهدي - النجابة، فكان يحرص على اصطحابه معه إلى مجالس الشيوخ والفقهاء، لكن الشعر أيضاً كان يحتل مكانة سامية في حياة النجف، رواية ونظماً، فيذكر الجواهري الطفل أنه حفظ (٤٥٠) بيتاً في ثماني ساعات، فحاز رهان المدرسة، لكن أباه زجره فقد كان الفقهاء يزدرون الشعر لأنه يشغل الناشئة عن طالب العلم، وهو الفقه لا غير، فكان الطفل ينتهز قبولة أبيه في السرداب البارد، وينشد قصائد الفحول بصوت مرتفع - وقد لازمته هذه العادة وقت النظم إلى آخر حياته.

حرب على العقول الجامدة:

هذا القمع المطلق للطفل جعل أولى قصائده تهاجم ترف رجال الدين على حساب الشعب الجائع، وتحمل على العقول الجامدة التي عارضت فتح مدرسة للبنات في النجف. أخيراً هناك ولا بد الكبت الجنسي والعاطفي الذي لا يجد له متنفساً بأي صورة من الصور، وقد انفجر في قصيدة باقية تشهد على عذوبة في شخصية الشاب الشاعر، وثورة في رغباته التي لم بعد في وسعه إخفاؤها كما يدل عنوان القصيدة، "جربيني" (١٩٢٩):

((جربيني من قبل أن تدريني وإذا ما ذممتني.. فسا هجرني

وبقينا سستدمين على أنسك من قبل كنست لم تعرفيني))

((أجديني في عالم تنهش "الذئبان" لحمي فيه.. ولا تسلميني

أخذتني الهمسوم إلا قليلاً أركيني، ومن يديها خذيني))

يروى سعيد عقل في حوار له مع الجواهري قال فيه سعيد: أصعب الشعر

الغزل.

فيعلق الجواهري مهلاً:

(إذ يكون الشاعر هنا معرضاً إلى ملامسة الدعارة. والشعر الشعر أبعد شيء عنها، الشعر عندي، شهامة بشهامة).

غير أن الشهامة في شعر الجواهري شهامة أمة وليس كبرياء فردية، تبتغي الترفع أو الغنى أو الجاه، فقد كانت هذه مبذولة له على الدوام، في القصر الملكي مع الملك فيصل ١٩٢٧، وفي النيابة أو إصدار الصحف بعد ذلك. كان الجواهري يطمع ثم يصد وينفر ويخسر ثم يطمع:

((عجيب أمرك الرجراج لا جنفلاً ولا صـدداً
تضيق بعيشة رغـد وتهوى العيشة الرغـدا
ولا تفـوى مـصامدة وتعبد كل من صمدا))

ولربما ندر في الدنيا وجود رجل كالجواهري في قوة حواسه وعمق تمتعه بكل واحدة منها على حدة، فهو يتقرب سطوح الأشياء باللمس كأنه أعمى، ويصغي إلى خريـر دجلة كأنما الإنسان يعيش بسمعه فقط، وقد قال مرة:

(المرأة التي لا يصيح بي عطرها: الحقني.. الحقني، ليست امرأة).
فأجبتة: لكن "الأرتيست" فقط تضع عطراً صارخاً بالناس أن يتبعوها.
قال: (صوت العطر الخافت ليس هامساً).

قوة الحواس:

ولربما كانت قوة الحواس في تركيبه الجسدي سبباً من أسباب عنفه الشعري إذ تستوفز حواسه ويدخل في حال احتياج يمتزج فيها الطرب والرقص والغضب والصخب:

(.. مع كل قصيدة أشعر أنني أكتب الشعر لأول مرة. (أي والله) وأتعجب من ذلك مثلما هو البطل المسرحي حين يواجه الجمهور، ففي كل مرة يشعر بالرهبة،

وحين تكتمل القصيدة أشعر بالنشوة، وبالمناسبة فإنني أغني وألحن القصيدة.. يخيّل لي وأنا أرقص في باحة القصيدة أن شيئاً من الجنون قد مسني أو أن نوعاً من الخبل قد اعترائني، إن شيئاً ما يحدث لا أعرف كنهه حين تتأبني الحال وأدخل مملكة الشعر. أحياناً تراودني حالة هيجان وصراخ حتى تهدأ روحي باكتمال الولادة.. وعندما كانت شياطين الشعر أو ملائكة الفن تنزل علي فلا أريد لأحد أن يقطع سلسلة أفكارني وإلا أنفجر. أريد عالمي الخاص، لا أريد لأي كان أن يشاركني فيه، حتى العائلة أدعوها لنذهب لأي مكان) فهذا التركيز يفجر طاقة الوجود الشخصي كلها في انفعال التعبير والمخيلة. لكنها مخيلة مضرجة دائماً بدم الضحايا. ففي عام ١٩٤٥ توفي صديقه الزعيم الوطني جعفر أبو تمّن، فلما رثاه الجواهري رثى معه الملايين من قتلى الحرب العالمية الثانية:

طالت، ولو قصرت يد الإعمار	لرمت سواك.. عظمت من مختار
قسماً بيومك، والفرات الجاري	والثورة الحمراء.. والثوار
والأرض بالسدم ترتوي عن دمنه	وتمجّه عن روضة معطار
إن الذي عهدتهم حطب الوغى	لولا هم لم تشتعل بأوار
ما إن تزال حقوقهم كذويهم	في القفر سارحة مع الأبقار

فرثاء الصديق ينقلب إلى رثاء الشعوب التي دفعت تكاليف الحروب من دمائها ثم ضاعت مع الأبقار، إن اندماج الخاص بالعام إحدى خصائص الشعر العظيم في كل لغة وعصر. ولعل ذلك أبرز ما يميز شعر الجواهري.

القصيدة الطلقة:

يسمي عزرا باوند مثل هذه القصيدة "القصيدة الطلقة" أي أنها مثل الرصاصة، تنطلق كلها دفعة واحدة، فتأتي كلها نفساً واحداً صادراً من القلب إلى القلب. ولعل

عنف تأثيرها وسرعته يشغل الناقد عن ملاحظة أن اختيار الموت العزيز على الحياة الذليلة قديم في شعر عنتره.

ولكن من يأبه؟ الجواهري وظف التراث وأخضعه للمناسبة، وهل بجرؤ ناقد "حدثي" على الزعم بأن الجواهري خضع للتراث وجعل شعره خادماً عند الأفاويل الشعرية للأقدمين؟ في هذا المقام ينبغي أن نفرق بين القصيدة التقليدية التي تتسج على النول العتيق والقصيدة الكلاسيكية التي تخضع التراث لمقتضيات الحداثة. فنضارة التعبير وحرارته، والحوار الذي يستحضر القتل ثم الصرخة في وجه الجبان "تقحم، لعنت" أهم من تعدد الأصوات (البوليفوني) في القصيدة الحديثة. وهي من البقايا الحية في تراثنا التليد لأنها تردد الأصداء اللامتناهية للضمائر الیقظی في لا شعورنا الجمعي الذي يتوضأ بالدم في كل حين:

((سلام على منقل بالحدید ویشمخ کالقائد الظافر
کان القيود على معصمیه مفاتيح مستقبل زاهر))

أليس من أهم مقاييس الحداثة تضاعف معاني القصيدة واحتمالها لوجوه متعددة في التأويل واختلاف القراءات؟ هذان البيتان، وبسرعة، يمكن قراءتهما على أربعة وجوه. فيما أولاً في الفخر، غير أننا إذا تجاوزنا هذا الوجه "الفخر" حقاً، نجد فيهما انقلاباً مسرحياً في الموقف، فالمقيد يكون في العادة ذليلاً مستضعفاً إلا أنه "يشمخ". كما أن القيد يعيق عن الحركة لكنه هنا يحمل مفاتيح المستقبل، ولكن إذا كان المنقل بالحدید قائداً ظافراً إلى مستقبل زاهر، فمن هو السجين الذي أوصدت دونه أبواب المستقبل؟ إنه الحاكم الطاغية الذي لا يعرف من فنون السياسة غير القمع وإرهاب الأحرار. فإذا كان الفخر أحد وجهي البيتين، فالسخرية بالسجان وجهها الآخر، ومن تيلالغة الحالية إغفال ذكره. والبيتان يحددان مصيرين أحدهما مستقبل زاهر والآخر بلا مستقبل إلى الأبد.

شاعر الصواعق:

السخرية والغضب في شعر الجواهري وجهان لعملة واحدة فهو شديد السخرية بالطبقة الحاكمة.

ما تشاؤون فاصنعوا	فرصة لا تضيع
فرصة أن تحكموا	وتحطوا وترفعوا
ما تشاؤون فاصنعوا	جوعهم لتثبّعوا
ما نهبتهم فوزعوا	للحواشي واقطعوا

وأما الغضب فليس في الشعر العربي كله صواعق تعادل ما في قصيدة "أطبق دجى" (١٩٤٩) فهو يجعل السماء تطبق على الأرض التي يرضى الناس أن يعيشوا فيها أذلاء:

((أطبق دجى، أطبق ضباب	أطبق جهما يسحب
أطبق، دمار، علمي حماة	دمارهم، أطبق تبسبب
أطبق تلبيس وتباسمين	شعرنا، نخلهم السبب
لهم يعرفوا النسون المسماة	لشمس طامعها الخنثى الرقابة
أطبق علمي المسمى بجماد	بهماء، علمي الجوع، احسب لابي
أطبق علمي هذي المسموح	تدبباف غيبشتها الكسابة

غير أن قلب الشاعر يلين بعد الغضب فيمخر على تنويع الجياح (١٩٥١) سخرية لاذعة:

((نسامي، جيساع المشعلية نسامي	شمسك آلهة العظماء
-------------------------------	-------------------

نسامي، فإن لم تشبني من يقطر، فمن المنام
نسامي على زيد الوعدود يداف في عسل الكلام))

السخرية مفهوم من أصعب القيم في نقد الشعر، فالشاعر ينساق مع موقف يستنكره فيغدو في موقف الموافق الرفض. وبالرغم من أن الساخر يتخذ سمت تجاهل العارف، فإن الجواهري أبدى من البراعة في هذا الفن ما يشكل إضافة حقيقية إلى تراث الشعر العربي، حديثه وقديمه. بل إنه في هذا الصدد لا يباريه أحد، وإذن، فمحمد مهدي الجواهري شاعر حديث، وليس شاعراً معاصراً فقط. بل إن على الحداثيين أن يتعلموا من الجواهري كيف يكونون شعراء معاصرين، أي أن يعيشوا عصرهم ويتفاعلوا مع هموم الناس في مرحلتهم التاريخية فيكونوا ضمير شعبهم ولسان إنسانيته وكرامته.

الشاعر الملتهب:

بقي الحديث عن إلقاء الجواهري لقصائده وكيفية تأثيره في الجماهير، وهو ينشد شعره، فقد كنت حاضراً في الحفل المهيّب الذي أقيم في دمشق عام ١٩٥٦ احتفالاً بذكرى مصرع الشهيد عدنان المالكي، وقد أقيم في "الملعب البلدي" الذي أصبحت أرضه الآن مكاناً لمعرض دمشق الدولي، ولا أغالي إن قلت إن عدد الحضور أربى على مائة ألف أموا دمشق الدولي، وحركات يديه، فتتفجر وتتحمس وتتوشب مع كل بيت الألوف المؤلفة بنبرات صوته وحركات يديه، فتتفجر وتتحمس وتتوشب مع كل بيت بشكل لم يتكرر إلا عند لقاء هذه الجماهير نفسها مع الرئيس جمال عبد الناصر حين زار دمشق عقب قيام الجمهورية العربية المتحدة بين سورية ومصر:

خلفت غاشية الخنوع ورأسي وأتيت أقبس جمرة الشهداء
خلفتها وأتيت يعتصر الأسى قلبي وينتصب الكفاح إزائي

من عهد قاييل، وكل ضحية رمز اضطراع الحق والأهواء
ومرارة التكرار المقدس سنة من آدم جعاع، ومن حواء

هذا شعر يخلق مناسبة ولا ينتظرها، إنه شعر يبحث في الشرط الإنساني، في صراع الخير والشر (الحق والأهواء). والشاعر مسلح بعظم الضحية، يمتشق عظم الضحية ليسطر بها ألم الضمير البشري، فيما يتوهج الدم المسفوك ليضيء العالم أمام عيني الشاعر.

على أن القصيدة - وكل القصائد التي نظمها الجواهري - ليست على هذا المستوى من جودة السبك وفوران المخيلة وعمق الانفعال، ثم إن هناك سلاسة التعبير وقربه من سرعة الإدراك عند المتلقي، وهي ميزات لا تتوافر دائماً في شعر الجواهري، فمخزونه اللغوي الهائل يورطه في اللفظية بحيث تتوالى الأبيات في كلمات غريبة حيناً ووحشية حيناً آخر، على غير طائل. وقد ورث طول النفس من الفحول الذين حفظ شعرهم في نشأته. ومع طول النفس تأتي قوة الأسلوب والتعقيد في السبك وأحياناً في المعاني. طبعاً يمكن أن نلقي جزءاً من اللوم على ركافة المتلقي الذي يهبط مستواه الأسلوب ومخزونه اللفظي في عصر الترانزستور والتلفزيون والبرطانة بلغتين أو أكثر على مستوى سطحي يتغلب فيه الكلام على "اللغة" بكل مجدها وتألقها وموروثها الجمالي. خاصة أن الجواهري جعل الحياة بكل خوالجها ومجاليها مسرحاً لشعره. وإن، يجب إجراء قراءات عدة لشعر الجواهري لانتخاب روائع وملقطات إبداع جادت بها عبقرية فريدة.

أجمل قصائد (الجواهري) على ضريحه بدمشق

في اليوم السابع والعشرين من يوليو/تموز ٢٠٠٢م، كان الموعد مع الذكرى الثامنة لرحيل الشاعر الخالد ((محمد مهدي الجواهري))، آخر الشعراء العباسيين كما أطلق عليه عميد الأدب العربي د. طه حسين، ومتنبي العصر كما كان يشير إليه د. جلال الخياط، أستاذ مادة النقد الأدبي في كلية الآداب في بغداد، في محاضراته في مطلع السبعينيات.

وفي الواقع يندر أن نجد شاعراً عربياً شبيهاً بالمتنبي، كالجواهري سواء في شموخه الفني، أم في مواقفه من الحياة وتقلباتها، ومما زاد في وجود التشابه بين الشاعرين أن كليهما من مدينة واحدة هي: النجف في العراق، وأنها عانيا من الغربة والتشرد، ولكن قبل هذا وذاك كان التشابه بالعنفوان والطموحات في البيان الساحر والاستعارات المدهشة، في المخيلة الرحبة والصور الفنية المبتكرة، في اللغة الجزلة المتينة، في كل هذا نحن أمام صورة أخرى توازي وتماثل صورة (المتنبي) إلا أنها صورة متجددة، لها سماتها الفنية الخاصة، وبصمتها المتميزة وتفاعلها الحسي مع روح العصر وإيقاعاته وتشابكاته الجديدة المغايرة.

برز الجواهري في القرن العشرين كظاهرة فنية وحياتية متميزة، ظاهرة تاريخية لا مثيل لها، وقد أثارت من الحوار السياسي والاجتماعي الثقافي المتعدد الآراء والرؤى، ما لم نثره أية ظاهرة شعرية عربية طوال القرن الماضي ...

كانت أشعاره سجلاً أميناً، وتوثيقاً تاريخياً وفنياً للأحداث المعاصرة المهمة التي مرت بها أمتنا، وقد شكلت ظاهرة ((الجواهري)) المتميزة كينونتها وتجوهرت كبنية مترابطة العناصر، تسامقت فتجلت عناصرها في التمرد، الإباء، الثورة على الظلم، الذات التي تعي رسالتها، الوعي الكلي والشامل بالأم الوطن والأمة والإنسانية جمعاء. وبعد ما يقارب القرن ترجل الشاعر الفارس، وألقى عصا الترحال والتغرب عن الوطن من أجل كلمة الحق ... مخلفاً ينبوعاً ثراً من أجمل قصائد الشعر العربي،

ومدرسة تتعلم فيها الأجيال محبة الناس، والدفاع عن حقوقهم، وتقديس الوطن،
وكرامية المحتل المعتدي.

.... وفي ذلك اليوم من تموز الماضي، توجهت إلى مقبرة (الغرياء) في السيدة
زينب، حيث يثوى الشاعر العربي الراحل إلى جانب زوجته (أم كفاح) التي توفيت في
لندن عام ١٩٩٢، ونقل جثمانها إلى دمشق لتراعى في مثاها الأخير.

قفزت إلى خاطري وأنا أتوقف عند الضريح، أبيات الجواهري:
قالوا سكت، وأنت أفضع ملهب وعي الجموع لزندها، قداح الحرف عندك من دم،
وسبيله يوم القراع إلى دم، تفاح فأجيتهم، أنا ذاك حيث تشابكت هام الفوارس تحت
غاب رماح قد كنت أحمل فوق أجنحة لهم واليوم أحمل مهجتي بجناحي.

مضى إلى عالم الخلود عام ١٩٩٧، وشيع في موكب رسمي وشعبي مشهود، إلى
حيث دفن هنا وشيد له ضريح من المرمر الصقيل نقش على واجهاته الأربع أبيات
من قصائده الشهيرة الخالدة، ففي وسط واجهته الأمامية تطالعك خارطة العراق ينساب
فيها الرافدان: دجلة والفرات مقترنان ببيت شعر خالد:

أنا العراق لسان قلبي دمي قراته، وكياني منه أشطار

وفي أعلى الواجهة الأمامية اليمنى نقش الأبيات التالية:

يوم الشهيد تحية وسلام بك النضال تؤرخ الأعوام

بك يبعث الجيل المحم بعثه وبك (القيامة) للطفاة تقام

يوم الشهيد: طريق كل مناضل وعسر ولا نصب ولا أعلام

وعلى الواجهة نفسها من اليسار خطت أبيات من إحدى قصائد الشاعر في الشام:

يا شام يا لمح الكواكب في دجى يا موكب الأعراس في صحراء

لله أنت أكل يومك حاشد برجولة ومروءة وإباء؟!

في أي جو عابس لم تسفري ربا الجنان ندية الأضواء؟!

وعلى الواجهة الأمامية للضريح (بالأسفل) نقرأ من شعر الجواهري:

أنا عندي من الأسى جبل	يتمشى معي وينتقل
أنا عندي وإن خبا أمل	جذوة في الفؤاد تشتعل
إنما الفكر عارماً يطل	أبد الأبدین يقتل

وعلى صفحة الجدار الأيمن من الضريح دونت أبيات الجواهري من قصيدته التي رثى فيها الشاعر معروف الرصافي:

نغز الحياة وحيرة الأبواب	أن يستحيل الفكر محض تراب
أن يصبح القلب الذكي مفازة	جرداء حتى من خفوق سراب
أنا أبغض الموت اللئيم وطيفه	بغضي طيوف مختل نصاب
ذئب ترصدني وفوق نيوبه	دم أخوتي وأقاربي وصحابي

كما نقرأ على صفحة الجانب الأيسر للضريح أبياتاً من قصيدة الجواهري المشهورة المقصورة، والتي كتبها في عام ١٩٤٧ وهو يطل من شرفة بيته على نهر دجلة في بغداد:

سلام على هضبات العراق	وشطيه والجرف والمنحنى
على التخل ذي السعفات الطوال	على سيد الشجر المقتنى
على الرطب الغض إذ يتجلى	كوشي العروس إذ يجتنى
سلام على قمر فوقها	عليها هفا وإليها رنا

تدغدغ أضواءه صدرها وتمسح طياتها والتئسى

أما الواجهة الخلفية من الضريح فنقرأ على صفحتها أبياتاً من قصيدة دجلة الخير التي طبقت شهرتها الأفاق والتي كتبها في براغ عام ١٩٦٢.

حييت سفحك عن بعد فحييني	يا دجلة الخير يا أم البسماتين
حييت سفحك ظمأنا ألود به	لوذ الحمائم بين الماء والطين
يا دجلة الخير يانبعا أفارقه	على الكراهة بين الحسين والحين
إني وردت عيون الماء صافية	نعباً فنبعاً فما كانت لترويني
يا دجلة الخير: يا أطياف ساحرة	يا خمر خابية فسي ظل عرجون
يا سكتة الموت، يا إعصار زويدة	يا خنجر الغدر، يا أغصان زيتون
يا دجلة الخير: أدري بالذي	مجاريك من فوق إلى دون
أدري بأنك من ألف مضت هدراً	لأن تهزين من حكم السلاطين
وأنت يا قارباً تلوي الرياح به	لي النسائم أطراف الأفاتين
وددت ذاك الشراع الرخص لو كفني	يحاك منه غداة البين يطويني

وفي نهاية هذه الأبيات سطور فيها: (القاتحة) هنا وبعيداً عن دجلة الخير، يرقد شاعر العرب الأكبر: (محمد مهدي الجواهري): ١٨٩٩-١٩٩٧.

توى (الجواهري) بمقبرة (السيدة زينب) إلى جوار زوجته (أمونة) وكان قد وقف يوم رحيلها عند قبرها يرتجل واحدة من أروع القصائد الفيضة بمشاعر اللوعة والأسى... مطلعها:

ها نحن أمونة نأى ونفترق والليل يمكث والتهديد والحرق

والصبح يمكث لا وجهه يصبحني به ولا بسمات منك تتطابق

... وأبيات القصيدة هي الأخرى منقوشة على ضريحها، عرفانا بجميل الزوجة التي شاركت الشاعر حياته بحلوها ومرارتها.
تلوت الفاتحة على روح الجواهري وفي خاطري السؤال: هل كان الشاعر يخاطب نفسه وهو يردد:

أرخ ركابك من أين ومن عشر	كفك جبلاً من حملان على الخطر
كفك موحش درب رحلت تقطعه	كأن مغبره ليل بلا سحر
ويا أبا الطير في ورد وفي صدر	في كل يوم له عش على شجر
عريان يحمل منقاراً وأجنحة	أخف ما لم من زاد أخو سفر
بحسب نفسك ما تعيا النفوس به	من فرط منطلق أو فرط منحدر
أناشد أنت حنقاً صنع محتضر	أم شايك أنت، مغترأ، يد القدر؟
أم راكب متن ذكياً مطروحة	ترى بديلاً بها عن ناعم السرر
خفض جناحك لا تهزأ بعاصفة	طوى لها النسر كشحيه فلم تطر

... وحينما كنت أعبّر البوابة للخروج، طافت في خاطري من جديد أبيات (الجواهري) الرائعة، وتمنيت لو نقشت على واجهة ضريحه، ليخاطب بها كل زائر روح آخر فرسان العصر:

سائل الحفرة المرموق جانبها	هل تبتغي مطعماً أو ترتجي طلباً؟
يا برج مفخرة الأحداث لا تهني	إن لم تكن لأبراج السما قطباً
فكسل نجم تمنى في قراراته	لو أنه بشعاع منك قد جذبا



١٩٥٢
١١/٤

بغداد
١٩٥٢/٥/١٩

بإختر برستانه عيسى الانصاري :

شوق جيلة .

لم أكتبه اليك منذ زمن غير قصير ، فقد مررت في أم شديد
زحاما ، لم أشف من التافه بعد ، كما انتقلت بمسائل اخرى كثيرة بسبب رفيع
رسمي .

انه قرأت لك خبرك هذه الفترة كثيرا في صحف مختلفة ، وانا ارجو ان ترفق جيلة
انتم المبدع ، قد اضح لك مجال التنازع المثلث والناظر الناقص ،
بعد هذا انتم لك ولها على ان حياطة الجلة لا يصرفه عن شجرة ، وانا
لم ازل ارجو ان ترفق لي بمثل عن ولو كلفك ذلك ان تعود الى بيروت من
انتا طي .

لقد كنت نظري مبادر وحدث علم مقال لك عنك ، واصل لمرور في السمر
المراتب

.. هذا المذهب الشرا المجدد الذي انصرف اليه كثير من شباب
الشرا في العراق اخيرا ابتداء من بدء شكر السطاب الذي
لعله اول من فتح الطريق لتبني طلب التقدم المحمدية . . .

افق المجد كثيرا لما تمكم هذا الحكم ، مع ان كل متبع للركة المردية في
العراق لديه ان يكون سم بالفتنة المنيعة التي اتارتها الصحافة حين صدده في
(شكلا برداد) وفي اول صوته سمعة الجود في الدعوة الى البشرا المردية
ان يكون عادلا بان الصحف العراقية لم تنشر بيت بشرا واحد ملأه بالمرتب
قبل ان يصدر ديواني هذا وتصور الفتنة جولة . وانا اذكر ان اول قصيدة
صدده انذرت انه نشر بعد صدده ديواني قد كنت نظري في جريدة الوقت بعد
صدده بشري رايت الفتنة انذاك ملأ شها . وانا كنت ان تتحقق من هذا
نكاه ان تراجع الصحف العراقية (كتب الى الفتنة الفتاة في بغداد ، ادكف مينا
لك لينتقم من هذا) . . .

نازك الملائكة :

- الشعر هو لهات الحياة يعبر به الشاعر عن حبه للوجود...
- كلما زاد تعقيد الحضارة زادت حاجتنا إلى الشعر...

نازك الملائكة ..! اسم عربي معروف، له ما يزيد على ثلث قرن وهو يحمل
راية الكلمة .. (نقداً وشعراً)...

ونازك الملائكة .. ليست شاعرة وحسب، ولكنها رائدة مجددة، وحسبها أنها
أول من قال قصيدة في الشعر الحر، ثم وضعت كتابها (قضايا الشعر المعاصر)
الذي يعتبر من أوائل الكتب الحديثة التي تناولت قضايا الشعر وهموم الأدب.

- سألتها عن بدايتها، وهل كانت مع الشعر ثم النقد أم العكس ؟

بدأت شاعرة ثم بزغ فجر النقد في حياتي، بعد أن صدرت مجموعتي
الشعريتان (عاشقة الليل) و(شظايا ورماد) وأول قصيدة نظمها في حياتي كانت في
عمر سبع سنوات وكانت باللهجة العامية البغدادية، في حين كان أول مقال كتبته في
النقد الأدبي في سنة ١٩٥٠ وعمرني ثمان وعشرون سنة وكان عنوانه (الأبعاد
الأربعة في الأدب) ونشرته مجلة (الكتاب) التي كان يصدرها الأستاذ عادل
الغضبان في القاهرة، وقد تناولت فيه موضوع الزمن في الأدب الأوربي وأثر
نظرية أينشتاين النسبية في خيال الأدباء. وأول مقال كتبته في نقد الشعر قد نشرته
مجلة (الأدب) اللبنانية وكان عنوانه (حركة الشعر الحر في العراق). وانطلقت
بعدها أكتب في النقد بحيث مشى تيار الشعر مع تيار النقد في حياتي معاً.

- تعتبر نازك الملائكة من رائدات التجديد في الحركة الأدبية المعاصرة، ما هي
حدود التجديد لديك ؟

التجديد هو فرض أبعاد جديدة في القول والتعبير على الشعر حيث تنشأ عنه رؤية جديدة للعصر. وعندما صدرت مجموعتي الشعرية الأولى عاشقة الليل كان الجو السائد في الشعر العربي جواً رومانسياً، وكانت مجموعتي الأولى رومانسية في جوها العام، إلا أنني حاولت فيها أن أجعل القصيدة كياناً خاصاً بها يميزها عن كل قصيدة أخرى. وذلك هو عنصر الجديد في هذه المجموعة.

وكننت إلى جانب ذلك أحاول أن أعبر بلغة ذاتية تحمل الألفاظ طاقات جديدة لم يستعملها الشعراء غيري. وسرعان ما لاح تطور جديد على شعري بعد هذه المجموعة، فأصبحت أؤمن بقول نيتشه: (ما قيمة فضيلتي إن لم تستطع أن تجعل مني إنساناً عاطفياً؟) ولكن هذه المرحلة لم تدم طويلاً، وسرعان ما دخلت في مرحلة الرمزية والتعبير السريالي - المعتدل - عن الحياة، وظهر ذلك واضحاً في مجموعتي الثانية (شظايا ورماد) وقد جمع العنوان بين المرحلتين وفي هذه المجموعة دعوت إلى الشعر الحر أول مرة وقد صدرت سنة ١٩٤٩.

■ هل تعتبرين (عاشقة الليل) ممثلاً لأفكارك الحالية في الشعر ؟

لا، لم تعد هذه المجموعة تمثلني بما فيها من خيالات رومانسية وعاطفية جامحة شديدة، (وشظايا ورماد) يمثلني أكثر ما يمثلني (عاشقة الليل) إلا أن المجموعة الأقرب إلى نفسي هي (قزارة الموجة) الصادرة ببيروت سنة ١٩٥٧، ومع ذلك فإني تطورت تطوراً عظيماً منذ مجموعتي (شجرة القمر) إلى مجموعتي (يغير ألوانه البحر) الصادرة سنة ١٩٧٧ ببغداد.

■ نازك الملائكة ممن يدعو لمبدأ الأصالة مع المعاصرة، بعض الأجيال الجديدة

تندفع وراء التجديد وحسب، معتقدة أن نازك الملائكة وجيلها لم يلتفتوا إلى الماضي وهم يقدمون ظواهرهم الجديدة، ماذا تقولين لهؤلاء المجددين؟
إن تجديد أي شاعر إنما يتجه اتجاهه المعروف نتيجة لضغط البيئة الأدبية التي

يعيش فيها ففي سنة ١٩٤٩ عندما كنت منغمسة في نظم قصائد مجموعتي (شظايا ورماد) كان الشعراء المعاصرون أكثرهم يقرأون الشعر العربي القديم والحديث ويستأثرونه فيما ينظمون من قصائد. وكنت أجد كثيراً من قصائدهم تقليدية ليس فيها من التجديد شيء يذكر - باستثناء بعض الشعراء وبعض القصائد، وكنت في اندفاعي نحو التجديد أجد في نفسي ميلاً شديداً إلى قراءة الشعر الإنكليزي المعاصر، لأنني كنت أجد فيه أجواء جديدة تلهمني، وتلهب شاعريتي لصور جديدة على الوسط الأدبي العربي كل الجدة، ولذلك لم أكن في ذلك الفترة أهتم بالشعر العربي القديم على اعتبار أن كل الشعراء غيري كانوا يتأثرون به، وأنا أحب أكون الصوت الفريد بين شعراء العصر. وأحسب أن الزميلين بدر شاكر السياب، وعبد الوهاب البياتي كانا يحسان بمنزل إحساسي، فكان اتجاهنا كلنا إلى قراءة الشعر الإنكليزي بحيث يبدو لي أننا حقاً لم نلتفت إلى الماضي في تلك المرحلة، اللهم إلا أن الماضي يعيش في أعماق (عدم الوعي) الذي يصدر الشاعر عنه في إنتاجه فلا خلاص لنا منه حتى ونحن نتجه بعيداً عنه.

■ قيل الكثير عن الشعر الحر بداية ونهاية سؤالي أولاً: هل لا تزال نازك تبشر بهذا النوع من الشعر؟ ثانياً: ألا ترى الأستاذة أنه آخر مسيرة الشعر حين جعل الباب مفتوحاً للشعراء والمتشاعرين؟

أولاً أتناول الشق الأول من سؤالك وجوابه: نعم لم أزل أدعو بحرارة إلى الشعر الحر، وقد صدرت لي منه مجموعتان شعريتان جديدتان أحدهما (للصلاة والثورة) المطبوعة ببيروت سنة ١٩٧٨ والثانية (بغير ألوانه البحر) المطبوعة ببغداد سنة ١٩٧٧، وكل ما فيهما من قصائد من الشعر الحر باستثناء قصيدة واحدة هي (الخروج من المتاهة) وقد نظمتها استجابة لفكرة زوجي الدكتور عبد الهادي محبوبة، الذي ضايقه أن شعري كله حر، فرغب إليّ في أن أنظم قصيدة واحدة من شعر الشطرين لتكون في المجموعة. وأنا أجد الشعر الحر يطاوع موضوعات

العصر، وينسجم مع طبيعة حياتنا المعاصرة ذات القيم التي نختلف بها عن قيم العصور القديمة في حياتنا العربية.

ثم أتناول السؤال الثاني من سؤالك، حول ما يلوح لك من أن الشعر الحر قد فتح الباب للمتشاعرين. والواقع الذي أراه أن الشعر الحر أصعب من شعر الشطرين الخليلي، لأن الأشطر المتساوية في النموذج القديم تسهل مهمة الشاعر، حيث تعتاد أنه على وحدة الوزن فيلزمها ويرتاح من الخطأ، أما الشعر الحر الذي يعطي الشاعر الحرية في عدد التفعيلات في كل شطر، فإنه يعرض الشاعر إلى مخاطر الحرية من خطأ وزلل وسقوط فسي الفوضى والابتذال. والواقع أن المتشاعرين كما نقول، قد ارتاحوا إلى الحرية التي منحاهم إياها بالدعوة إلى الشكل الجديد، ولكن ذلك لا يرجع إلى سهولة الشعر الحر كما قد يتبادر إلى الذهن، وإنما لقلة العارفين بالعروض وأصول الوزن والتقنية في الشعر، إن هؤلاء المتشاعرين الذين ملأوا الشعر الحر أخطاء، لا يجدون الناقد الذي يفهم وينبههم إلى الأخطاء، ولو أن النقاد حاسبوا الشعراء على أخطاء العروض لخاف هؤلاء الشعراء واضطروا إلى التعلم وتحاشي الخطأ. ولا بد لي أن أقول أن الشعراء الأصليين لا يخلو شعرهم الحر من الغلط، وكل السبب يرجع إلى عدم وجود الناقد الكفاء، على أنني لا أحب أن (أطلق) التعميم لأن هناك نقاداً يعرفون العروض، وهم مع ذلك ساكتون سكوتاً تاماً عما نزل بالشعر المعاصر من أخطاء شنيعة. والواقع أنني أنا الناقد الوحيدة التي تنبّه الشعراء إلى أخطاء العروض، ولذلك ثارت علي ثائرتهم وهاجموني بعد صدور كتابي (قضايا الشعر المعاصر) عام ١٩٦٢.

■ يخلط الكثيرون بين الشعر الحر، والقصيدة النثرية. كرائدة للشعر الحر ما هو

الفرق بينهما ؟

الفرق بينهما وجود الوزن والقافية في الشعر الحر، في حين أن قصيدة النثر خالية منهما فهي نثر اعتيادي لا وزن له. وقد سبق لي أن بينت أن الاسم (قصيدة

النثر) متناقض، لأن النثر يكون نثراً ويتعارض مع كلمة (قصيدة) التي تشخص الوزن في القطعة المكتوبة. وليس يخفى بأن من المستحيل أن يخلط قارئ يعرف الوزن بين (الشعر الحر) و(قصيدة النثر) وإنما يقع في هذا الخلط أولئك الذين لا يحسون بالوزن لأنهم يرون الشكل الخارجي للشعر الحر مشابهاً تمام المشابهة لشكل (قصيدة النثر) الظاهري فلا يستطيعون التمييز بينهما.

■ ما هي فلسفة نازك الملائكة في هذه الحياة ؟

السؤال واسع سعة كبيرة، وكنت أود أن تحدد موضوعاً معيناً وتساألني عن فلسفتي فيه. ولكن من الممكن إن أقول أن فلسفتي أن الله قد خلق الإنسان، ليكون فرداً عاملاً في المجتمع يلتزم خدمته في كل عمل يعمل وكل كلمة يقولها، فليس من الصحيح أن يظن الإنسان أنه وجد في هذه الحياة ليأكل ويشرب وينام ويلهو عبثاً لا تنتظره رسالة يؤديها إلى الحياة، ولا يقودها مثل عال يقبس أعماله وفقه. إن الحياة الإنسانية تصبح أجمل وأوسع عندما يحس الفرد أنه مسؤول عن سلوكه وتصرفاته مسئولية كاملة. إذ ذاك تصبح لحظات اللهو البريء جميلة ومقبولة تمام القبول، لأنها تأتي التماساً للراحة بعد عناء العمل في سبيل الجنس البشري المعذب في هذا العصر في كل مكان. ففي أفريقيا وآسيا يموت البشر بالملايين من الجوع، وتجرف بيوتهم الفيضانات وتدمرهم الزلازل، وفي فلسطين ينسف منزل الفرد العربي ويشرد أولاده ويباد ويقتل على أيدي الصهاينة المجرمين. والرسول الكريم يقول: (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه، وإن لم يستطع فقلبه وهو أضعف الإيمان) والحقيقة المؤسفة أن أكثر الناس في هذا العصر قاصرون عن تغيير المنكر ولو بقلوبهم فهم يفتقدون أضعف الإيمان.

■ الرمزية في الأدب .. لا تزال موضوع حوار، كناقدة وكرائدة ما هي حدود الرمزية المطلوبة لديك؟

الرمزية هي التعبير بالرمز عن الموضوع، واللجوء إلى الرمز حالة جمالية من جهة، ومطلب وقائي من جهة أخرى، أما الجمال فيتطلب الرمز، لأن التعبير الصريح يكسب الكلام صفة الوضوح، وكثيراً ما تكون الأشياء الواضحة مسطحة وخالية من روعة الحسن وفتنة الإبهام. وما يكاد الشاعر يستعمل الرموز حتى يكتسب القصيد جمالاً سحرياً يمنحه أبعاداً تذهب عميقاً في الجهات كلها، وأما أن الرمزية مطلب وقائي فإن ذلك يرجع إلى ظروف العصر وتعسف الحكومات، وقد رأينا كيف لجأ شعراء الأرض المحتلة في العقد الثامن الهجري من هذا القرن إلى الرموز، للتعبير عن مقاومتهم للمحتل الصهيوني المجرم، الذي كلن يحصي أنفاسهم ويفتح لهم زناناته الضيقة ويفرض عليهم الإقامة الجبرية. على أن من مقتضيات العصر أيضاً أن ألا يغرق الشاعر في الرمزية حتى تصبح تعمية، وتتحول القصيدة إلى لغز لا حل له. ذلك أن المفروض أن يوصل الشاعر مضموناً معيناً إلى القارئ، وإلا أصبح الأدب لغواً لا معنى له. أقول هذا وأنا ألاحظ مظاهر الغموض الشديد على شعر الشباب، الذين أصبحوا إذا قرأوا قصيدة على شيء من الوضوح - مع الرموز فيها - زهدوا فيها وقالوا عنها باحتقار: (إنها واضحة).

■ الشعر، هل له مكان في مثل هذا العصر الذي يطغى فيه صخب الحديد على

دفاع القصيد ؟

الشعر له مكان العصور كلها، وما من فترة من حياة الإنسانية كان الشعر فيها غير مطلوب. وأن الشعر هو لثاثة الحياة في صدر الشاعر يعبر به عن حبه للوجود وانفعاله ورغبته في إيضاح رؤياه، بحيث تصله هذه الرؤية بأدق جهاتها، وتقيم جسراً بينه وبين معاصريه، الذين يعبر عن أحاسيسهم ويرسم رؤيتهم للعالم على فسحة الورق. والجديد نفسه يفتح للشاعر أبواب التعبير، إن المعامل العظيمة التي جاء بها هذا العصر تستثير الشعر في قلب الشاعر بما لها من مظاهر العظمة، إن الآلة التي تبدع للصناعات الثقيلة تفتن العقل بما فيها من روعة وحياة.

والكمبيوتر يذهل العقل البشري بقدراته العظيمة على تنسيق المعلومات وجمعها وتقديمها. وهذه الأمور تستثير حاسة الجمال لدى الشاعر والفنان فكأن الحديد يتكلم ويشارك الإنسان حياته التي وسعها العلم توسعة هائلة. الشعر كذلك واحة يفيء إليها إنسان هذا العصر بعد تعب يوم في العمل في الجامعة والمعمل والمرصد والمفاعل الذري. إن حياة الأرقام والعمليات العلمية تجعل الذهن البشري ظمآن إلى قطرة شعر تبل عطشه وتزيل حرقة، وكلما زاد تعقيد الحضارة زادت حاجتنا إلى الشعر والفنون الأخرى، التي تعطي للحياة رؤية فيها حس الإنسانية التي تبقى محتاجة إلى الجمال وإلى الحنان وإلى العاطفة التي تلون الحياة وتعطيها مذاقاً ألى وأشهى.

النار شرعي لا الجمود

يسكنها الحزن، صديقها الليل، وحدها تبقى مع ليها وحزنها .. تبثه لواعجها ووحشتها .. تحاور الشعر مع قلبها المسكون بآلاف الآهات والحسرات، كأن الحزن غرس بين أضلعها، وحده الشعر كان يمنحها الإحساس بالوجود في هذا العالم المليء بالمأسى .. تستشعره فتزداد حزناً وتمتلىء إحساساً باللاجدوى، فتركن لوحدها مبتعدة عن الصخب لعلها تتنفس قليلاً من هواء دجلة فترتد إلى روحها بعض النشوة.

شاعرة .. سليله عائلة شعرية يمتد نسبها إلى النعمان بن المنذر بن ماء السماء .. عاشت وسط أجواء عائلية، كل فرد فيها شاعر من جدّها حتّى أمّها وأبيها وصولاً إليها، لتكون محطة مهمة ليس في محيط عائلتها فقط بل على مستوى الشعر العربي في العصر الحديث .. هذه الشاعرة الحزينة المتوحدة هي (نازك الملائكة) التي ستثير حولها وحول شعرها الكثير من الجدل والنقاش، خاصة في مرحلة شهد فيها الشعر العربي تحولات كبرى على صعيد الشكل والمضمون، ولتدخل في قلب هذا الجدل متفاعلة معه ليكون من نصيبها مختلف الآراء، فمنهم من ناصرها ومنهم من وقف ضدها بذرائع شتى، ولكن (نازك الملائكة) انتصرت مع شعرها وتركت بصمات شعرية قل من أوجدها في منتصف خمسينيات القرن العشرين.

لم تكن الشاعرة وعائلتها ممن يحبون الصخب والضجيج، وقد جاءت نسبتهم (الملائكة) لهدوء منزلهم على نهر دجلة، وقد طبع هذا الهدوء حياتها وشعرها المليء بالكلمات المعبرة عن هذا المعنى، مع أنها كانت تضيق بكل ما يحصل أمامها من أحداث ومواجه تهز أمتها العربية، وقد دخلت بأشعارها في صميم هذه القضايا معبرة عن مواقفها تجاهها، وعنوانت ديوانها الأول الذي صدر العام (١٩٤٧) (عاشقة الليل) موحية فيه إلى ما تصبو إليه في حياتها سواء العادية أو

الشعرية، وقد أثارت بديوانها هذا النقاد والمحللين واللغويين، في وقت كان الشعر العربي يتوجه ببطء شديد نحو الجديد، خاصة على صعيد الشكل الذي كان للملائكة دور كبير في إخراجه إلى النور عبر قصائدها الجديدة التي ستشرها لاحقاً.

مع صعود موجة الشعر الحديث أو ما يسمى (الشعر الحر) اختلف المؤرخون حول ما له الأسبقية في ظهور هذا النمط الشعري، فمن قائل إن الشاعر بدر شاكر السياب في قصيدته (هل كان حباً) الصادر عام (١٩٤٧) كان أول من قال هذا النوع من الشعر، (ونازك الملائكة) قالت إن قصيدتها (الكوليرا) الصادرة في العام نفسه كانت سابقة على قصيدة السياب، ومع ذلك لم يكن هذا الاختلاف لينزع عن (الملائكة) صفة الريادة في الشعر الحر، ولا سيما أنها درست الآداب الأجنبية وكانت تتقن الفرنسية والإنكليزية واللاتينية إضافة إلى العربية، كما كانت لها اهتمامات موسيقية فهي تتقن العزف على العود، وتعرف مقاماته الموسيقية ولعل ذلك كله قد ساهم في إتقانها للشعر الحر أو الشعر الحديث، الذي وقف النقاد حياله أيضاً مختلفين بين مؤيد ومعارض، في وقت لم تعد الأذن العربية على هذا النوع من الشعر من مثل قصيدتها الكوليرا حيث تقول : (في كيف الرعب مع الأشلاء / في صمت الأبد القلبي).

د. هادي حبيب - استيقظ داء الكوليرا -

في تلك الأثناء ما الجديد عاشت نازك الملائكة تدافع عنه وتنفذ زهرة عمرها بين الأحرار والفقراء والفقراء والفقراء، فتارة تطمئن إلى شعرها ومكانتها، وأخرى يتنازعها الهم والقلق والسخط والحيرة، وقد أصدرت في وقت مبكر من سبعينيات القرن العشرين كتابها (قضايا الشعر العربي) الذي وضعها في مقدمة (النقد أيضاً)، وقد قيل لو أنها اتجيت إلى النقد لكانت أبرع ناقدة عربية، لما تملكه من أدوات المعرفية وحسها المرفه، وقد كان هذا الكتاب ولا يزال من أبرز المراجع في دراسة الشعر العربي الحديث بالرغم من مرور أكثر من ثلاثين سنة على نشره. ومع ذلك ظلت (الملائكة) تتحاز إلى الشعر فتكتبه وتصدر دولوين

عديدة مثل (شظايا ورماد) (الصومعة والشرفة الحمراء)، (قرارة الموجة) الذي كان ديواناً صახباً يضج بالحياة، بعد أن كانت تميل إلى الهدوء فتقول:

(اغضب)

كفاك وداعة

أنا لا أحب الوداعين

النار شراعي لا الجمود

ولا مهادنة السنين)

ويقال إن الشاعرة في أواخر حياتها عادت إلى كتابة الشعر (العمودي) ولكن دون التراجع عن نظريتها وأشعارها في الشعر الحديث.

لقد نالت الشاعرة نازك الملائكة في شعرها على مكانة مهمة في الشعر العربي، فكانت فاصلاً شعرياً في مسيرة هذا الشعر، بها ومعها بدأت خطوة جديدة في هذا المجال، كما وكتبت الكثير من المقالات النقدية حوله، وأصدرت كتباً تشرح نظريتها ونظريتها، واحتفظت بمكانتها الشعرية بالرغم من قلة الشاعرات العربيات في هذا المجال، وكتب عنها وعن تجربتها ودواوينها الكثير أيضاً، فقد كتب الدكتور والناقد العراقي عبد الكريم راضي جعفر عنها: (كلمة حق لأبد من قولها: إن نازك الملائكة كانت من أجراً الرواد الذين تناولوا قضية الشعر الحر ... فلنازك علامة واضحة من العلامات التي ارتسمت على خريطة الشعر العربي المعاصر، ليس على صعيد الشعر فحسب، وإنما على صعيد التنظير المستند إلى جهد مكتسب عربي وغير عربي.

مروضة الموج:

تمثل نازك الملائكة لدراسي الشعر ظاهرة شعرية متعددة الأبعاد، استطاعت أن تزوج بين الثقافة العربية والثقافة الإنجليزية، فوصفوها حسب التعبير التراثي بأنها وصلت القوادم بالخوافي.

أخلصت لقضايا الشعر غير أنها وكما يقول عبد الله أحمد المهنا قد حولت حياتها أيضاً إلى شعر خالص، فهي منضبطة في حياتها كالوزن الشعري، ثم إن فيها الحزن والعمق اللذين يعتبران جناحين للشعر.

يقول عنها إحسان النص (على أي منذ قراعتي الأولى لسديوان الشاعرة أحسست أن في فيثارتها وتر لا يوقع إلا أنغماً حزينة تبعث الشجن في النفس، ويشف عن نفسية تتضح بالقلق، وعن نظرات قائمة متشائمة لا ترى من الوجود إلا جانبه الأسود الكالح). وقد ظلت هذه الغمامة السوداء تظلل شعر نازك وتهيمن على نفسيته حتى أواخر عام ١٩٥٠ م، على أنه منذ ذلك الحين - ولدوافع مختلفة انتهجت في شعرها اتجاهات مغايراً... وجدت الشاعرة في الإيمان والتسليم بقضاء الله بلسماً يشفي كلوم نفسها المعذبة... وعكست أشعارها منذ ذلك الحين (قرارة الموجة، شجرة القمر) ما طرأ على نفسيته من تحول:

وحدتي تقتلني والعمر ضاعاً

والأسى لم يبق لي حلماً جديداً

وظلام العيش لم يبق شعاعاً

والشباب الغض يذوي ويبيد

ليس إلا الحزن يمشي في كياتي

وأنا في ظلمة الليل الصديق

نازك الملائكة، رؤية الذات:

كيف كانت نازك تعبر عن تلك الذات، ما الذي قالته وهي دائمة الرصد لذاتها، وكأنها فأر التجربة لما تحاول أن تعبر عنه دائماً، وهي تحاول أن تلعب دور المريض والطبيب، الفأر والعالم في الوقت نفسه، ستتضح هذه الرحلة عبر قراءة للمجموعة الكاملة لدواوينها.

تتحدث نازك عن تأثير شوبنهاور، وفكرة الموت عليها فنقول: (كان الموت يلوح لي مأساة الحياة الكبرى، وذلك هو الشعور الذي حملته من أقصى أقاصي صباي إلى سن متأخرة). ولقد كانت (مأساة الحياة) صورة واضحة من اتجاهات الرومانسية التي غلبتني في سن العشرين وما تلتها من سنوات، وكان من مشاعري إذ ذاك التشاؤم والخوف من الموت وهما مفتاح هذه الصورة الأولى من المطولة :
(صورة ١٩٤٥).

عطش البحارة :

ونعود لما قالته الشاعرة في عام ١٩٤٩ م في مقدمة ديوانها (شظايا ورماد) :
(في الشعر يصح تطبيق عبارة برناردشو (الاقاعدة هي القاعدة الذهبية)،
ولسبب هام هو أن الشعر وليد أحداث الحياة، وليس للحياة قاعدة معينة تتبعها في ترتيب أحداثها، ولا نماذج معينة للألوان التي تتكون بها أشياءها، وأحاسيسها .. وقد يرى كثيرون معي أن الشعر العربي، لم يقف بعد على قدميه، بعد الرقدة الطويلة التي جثمت على صدره طيلة القرون المنصرمة الماضية .. كان سلامة اللغة لا تتأتى إلا إن هي جمدت على ما كانت عليه منذ ألف عام، وكأن الشعر لا يستطيع أن يكون شعراً إن خرجت تفعيلاته على طريقة الخليل .. ويقولون ما اللغة ؟ وأية ضرورة إلى منحها آفاقاً جديدة ؟ فينبسبون أن اللغة إن لم تركض مع الحياة ماتت،
إن اللغة العربية لم نكتسب بعد قوة الإحياء، التي تستطيع بها مواجهة أعاصير القلق والتحرق التي تملأ أنفسنا اليوم، إنني أحسست أن هذا الأسلوب الجديد فسي ترتيب تقاعيل الخليل يطلق جناح الشاعر من ألف قيد .. ثم نتحدث عن القافية، ذلك الحجر الذي نلقمه الطريقة القديمة كل بيت .. كان واحداً من الأسباب التي حالت دون وجود الملحمة في الأدب العربي .. مع أنها وجدت في آداب الأمم المجاورة كالفرس واليونان).

والواقع أن القارئ العربي يتهرب من الشعر الرمزي، لأن اللغة تجابه التعبير

عن مثل هذه الأحاسيس المبهمة أول مرة، فليس غريباً أن نتلصق قليلاً، وتتوتر ..
الإبهام جزء أساسي من حياة النفس البشرية، لا مفر لنا من مواجهته إن نحن أردنا
فنأ يصف النفس، ويلمس حياتها لمساً دقيقاً هكذا تحدثت نازك الملائكة، وفي الواقع
من خلال خطابها الرصدي النقدي لذاتها، سنرى إنها انطلقت بثقة نفس كبيرة في
عصريتها مع الأربعينيات من هذا القرن، متسلحة بشجاعة الزمن الجديد في
مواجهة أسئلة القلق وتحدي الإنسان لواقعه .. ثم سنرى تذبذبها بها وحيرتها فسي
الخمسينات .. لتتلم ذلك كله بخطاب الاستسلام في السبعينات. وإنكار جزء كبير
وحميم لا من ذاتها الشعرية فقط بل من تنظيراتها النقدية أيضاً.

امرأة تحاور قبرا:

أعبر عما تحس حياتي
وأرسم إحساس روعي الغريب
فأبكي إذا صدمتني السنين
بختجها الأبدى الرهيب
واغضب حين يداس الشعور
ويسخر من فوران اللهب

يأتي صوت نازك في مجموعتها (عاشقة الليل) قادماً من غربة الروح، عالم
المتالية، الحزن الرومانسي، والعاطفة التي تقاوم الانطفاء متسلحة بالغضب.
في قصيدتها (تكريات محوّة) تتضح تلغيمات الحب، وجهه خلف ضباب
السنين، صوت الخافي، غياب لون العينين، الشعر الداجي
كم في سكون الليل
تحت الظلام رجعت للماضي وأيامه
أبحث عن حبي بين الركام

فلم تصدني غير الآمه
الحب والألم هو تجربة الأنوثة المهشمة عند نازك في هذه المرحلة : الحزن
المريز، الصبي الغرير، الوجه الشاحب، القلب الكئيب الغرير:
يا جسداً، كالقبر، ما فيه روح
سميته قلباً، فيا للغرور

القلب الجامد البارد:
لم يبق إلا ثورة واحتقار
ملء حياتي المرة الحالمة

وجهك القاسي:
تكتب نازك الملائكة في هذه الفترة قصيدتها (الحياة المحترقة) وهي تلقى
بمذكراتها إلى النار في عام ١٩٤٦م.
كل ما مر بقلبي من شقاء وحنين
القفيه الآن لا تبقي ولا تستمهليني
هكذا هي ترمي بهذا الماضي في النار، ماضي الحب الجائع، الرجل القاسي،
كما ستفعل مراراً في المستقبل مع بعض قصائدها وأفكارها...مرارتها وأحلامها...
تذهب من حال الانكسار إلى الرفض والثورة فتهدى قصيدتها (ثورة على
الشمس) إلى المتمردين:

وقفت أمام الشمس صارخة بها
يا شمس، مثلك قلبي المتمرّد
ما أنت إلا طيف ضوء خادع
وأصوغ من أحلام قلبي جنة
حسبي نجوم الليل تلهم خاطري

هن الصديقات السواهر في الدجى

يفهمن روحي وانفجار مشاعري

ويتكرر في هذا الديوان موضوع الموت في قصائدها: بين فكي الموت، مرثية غريق، على حافة الهوة، سياط وأصداء، نغمات مرتعشة، المقبرة الغريقة، الغروب. إن نازك تعيش بين ذلك الكبرياء النازف والكاينوس المحيط بها دائماً: الموت ونهاية الأشياء.

وتتدفق في قصيدتها (عاشقة الليل) صورة من الماضي التراثي ممزوجة بصورة رومانسية من واقع عائشة الشعري:

يجيء شبح بادي الشحوب

كالطيف الغريب

حاملاً في كفته العود يغني للمغيب

ليس بعينية سكون الليل في الوادي الكنيب

هو يا ليل، فتاة شهد الوادي سراها

تضحك الدنيا وما أنت سوى آهة حزن.

السفينة التائهة:

ثمة اكتناه مبكر لأنثى نازك الملائكة في شعرها يتكرر ويتكرر مراراً .. وعبر سنسن طويلة ممثلاً الحالة التائهة، الضائعة، التي تنقب عن أحلام منسية بمعاول لا تستطيع كسر ذلك الجدار الذي يحجب نفس نازك عن أحلامها وإمكانية تحقيقها. كانت نفس نازك الملائكة هي الستر الحقيقي بين الرغبات، والأهواء يستمر الحلم في الديوان والبحث عن الحب في قصائدها: في وادي الحياة / أشواق وأحزان / مدينة الحب:

حيث هي في عمق صحراء الحياة

نهر تحيط به المقاوز والصخور

الماء يبدو وادعاً ووراءه الألم العميق
 أمواجه السم الزعاف وان بدا حلو البريق.
 وكذلك في قصائدها: إلى عيني الحزنتين / السفينة التائهة / الخيال والواقع،
 حيث تقول:

لم يكن حبي سوى حلم غريب
 مدده الوهم على قلبي الكئيب

صخرة سيزيف:

ويرصد الجزء الثاني من (الأعمال الكاملة) لنازك الملائكة تحولات الشاعرة
 في تجربتها من ديوان (شظايا ورماد) عبر قرارة الموجة) والى (شجرة القمر).
 تقول في قصيدتها (كبرياء) ضمن ديوانها (شظايا ورماد) في عام.

جراح وأدمع وذمـول	(وقلوب تضم أشلاءها فوق
بالسر بالرجاء الخـول	تؤثر الموت كبرياء ولا تنطق
وتبدو كأنها لا تحس	ونفوس تحس أعـمق إحساس
قناعاً صـلداً يفيض رياء	وتظل الحياة تخلق من وجهي
بعض شيء سميته كبرياء	جامداً بارداً أصـماً ويخفي

يتكرر ذلك في قصائدها يوتوبيا ضائعة / تواريخ قديمة وجديدة وصراع، حيث
 تقول وتكرر ذلك البوح الحزين:

وأصرخ من المي: من أنا ؟	(تعذبني حيرتسي في الوجود
وقلباً يحبذ أن يطعنا	منحت عيوننا تحب السدموع
فمـج الظلام وعساف السنا	وروحاً تعثر فيما يريد

أريد وأجهل ما أريد أريد وعاطفتي لا تريد

تكاد هذه المقاطع تختصر مجمل مشاعر نازك في هذه الفترة:
الحيرة، وضياح الذات، والحزن، وخيبة القلب، وتملل الروح وكآبتها، وعدم
القدرة على الاختيار، والخوف من التعبير عن حاجة الذات، وهذا يعكس إحساسها
بمدى ضآلتها أمام العالم.
ويستمر ذلك في قصائدها: عندما اتبعث الماضي / مر القطار / عروق
خامدة:

نحن هنا اللاأملس واللاغد نحن هنسا اللاكيان
يعز أن تجمعا الأمام وبيننا الأملس

هذه الاستحالة، وتلك الحالة الحينية لأمر غامض مبهم ومكسور.
ومن الأعماق تصاعد صوت مخفوق يهتف في حزن، في جزع: كيف أبوح؟

هذه هي قصيدة (الجرح الغاضب) ذلك الجرح الذي يرمي عميقاً في داخل
الأنثى، حتى عندما امتلكت قلمها وزمنها كانت الرحلة عميقة ومضنية كي تجسد
صوتها المتعثر.

إنها تتطلق من مفهوم (اللاكيان) كما تقول في الباحنة عن الغد:
(غداً نلتقي) ثم مات الزمان وضاع المكمان
وهل يلتقي أبداً عاشقان على لا كيان ؟
إن المرأة لغز .. في ذات نازك كما سيتكرر في قصائدها (ألغاز) جامعة
الظلال / أجراس سوداء / نهاية السلم / أنا / غرباء / أغنية الهاوية تقول:

دعني في صمتي في إحساسي المكبوت لا تسأل عن الغاز غموضي وسكوتي
فافهمني أن فهم الليل، أفهم حسي والمسنى أن لمس النجم، ألمس نفسي

إنها المكبوت / واللغز / والليل والنجم القصي في قصيدتها الغاز.

مرت أيام لم تتذكر أن هناك
في زاوية من قلبك حباً مهجوراً
عضت في قدميه الأشواك
حباً يتضرع مذعوراً
هبه النورا

هكذا تتضرع للحبيب في قصيدتها (نهاية السلم) فاقدة لمفهومها، لذاتها كما
نقول في قصيدتها (أنا):

الليل يسأل من أنا
أنا سرّة القلق العميق الأسود
أنا صمته المتمرد
أرئو وتسالني القرون
أنا من أكون
والذات تسأل من أنا
أبقى أسائل والجواب
سيظل يحجبه سراب

لقد ادعت الشاعرة في بداية الديوان أنها قد تغيرت .. أنها أصبحت أكثر تفاؤلاً
وكانما الأمر مرتبط بالتشاؤم أو بالتفاؤل، والحقيقة أنها عبر النصوص والمضامين
والمعاني بقيت في الحيرة نفسها والضياع والبحث عن تلك الذات التي لم تتحقق في
قصائدها إلا عبر الألم والحزن والأفئدة التي تداري بها ذلك المزيف الأنثوي

العميق، وفي (أغنية الهاوية) تقول:

وأين أسير وقلبي النزق

هنالك مازال لا يبرد

ولا يحترق

كقلب أبي الهول. أين الغد؟

وفي قصائد قليلة في هذا الديوان تخرج نازك من متاعب روحها لتقول قصائدها في مواضيع أخرى كالطبيعة في (جبال الشمال) والرتاء في (إلى عمتي الراحلة) والمشاركة الوجدانية في مصاب ألم بمصر في تلك الفترة (الكوليرا).

لكنها تعود مرة أخرى إلى ذاتها في قصائدها الأخرى: لنكن أصدقاء / جائزة المرح / يوتوبيا في الجبال / وجوه ومرايا حيث يعود ذلك الحاجز بين الحقيقة والقناع / الذات الداخل / والعالم الخارجي فتقول:

هذه أنا ليس من شك فلم لا أمسها بيديا ؟

لم لا أستطيع أن أمس هذا ت؟ وأمحو تحرقني الأبدية !

وتقول في قبر ينفجر:

كنت وحدي لم يكن يتبع خطوي غير ظلي أنا وحدي، أنا والليل الشتائي ..

وظلي.

الواقعة:

تتقدم تجربة الشاعرة نازك الملائكة في بحثها عن الذات المفقودة وانشطاراتها في ديوانها (قرارة الموجة) حيث تحاور الشاعرة نفسها في مقدمة الطبعة الثالثة فسي عام ١٩٥٧م، وتوضح ذلك في مقدمة أخرى كتبتها في عام ١٩٦٧م حيث تقول:

(وقد حاولت فيه أن أشخص تطوري النفسي بين الفترة التي نظمت فيها هذا

الشعر (١٩٤٧م - ١٩٥٣م) والفترة التي كنت أمرّ بها عام ١٩٥٧م حينما كنت أنظم قصائد ديواني الرابع (شجرة القمر).

وهذا هو نموذج من ذلك الحوار الذي تتناقش فيه ذات الشاعرة الأولى، مع ذاتها الثانية (الأولى: مهما يكن فإن عنواني (قرارة الموجة) متقائل، الثانية: هكذا كنت تقولين عن (شظايا ورماد) إن لم أخطئ.

الأولى: كلا إن الشظايا قمة عالية حقاً، لكن الرماد هو النهاية، أما الموجة فهي لا تتركز أبداً والنقطة السفلى فيها ليست إلا القفزة الجديدة نحو القمة. وهكذا ترى أن (قرارة الموجة) يرى الحياة على صورة تتعاقب قمماً وانحدارات لا نهاية لها وإذا كان هذا الشعر قد نظم منحدر الموجة فإنها محض صدفة لا أكثر).

(الثانية: لأنك تكرهين الوصول وحسب، أنك لم تطيقي أن تصلي مرة، وعندما تحطمت المرأة تعدد وصولك فلم تطيقي الموقف). ولكن السؤال رغم تلك المحاور التي تحاول أن تكتشف الذات هل تغيرت تلك الذات في تجربتها الجديدة عن بداياتها. هذه هي القصائد:

أول الطريق / أغنية / دعوة إلى الأحلام / الشهيد / إلى العام الجديد / طريق العودة / الأعداء، حيث نقول:

نحن إذن أعداء

من عالم لا يفهم الأشواق

أعيننا لا تفهم النجوى

الحب فيها سيرة تروى

كان لها أمس

وضمنه رسم

من تربة البغضاء

نحن إذن أعداء

وان طغت في دمناء الأشواق

لقد نقلت حالة البحث عن الآخر من منطقة الغموض والضياء، إلى العدا
وتصارع السادية والمازوشية في العلاقة. وتستمر قصائدنا: حصاد المصادفات /
النائمة في الشارع / مريثة امرأة لا قيمة لها / الأرض المحجبة / لنفترق / سخرية
الرماد / صائفة الماضي / إلى أختي مها / الهاريون / ماذا يقول النهر / ثلاث
مرات لأمي / يحكي أن حفارين / الزائر الذي لم يجرى.
حيث تقول:

وأدركت أنني أحبك حتماً

ومادمت قد جنت لحماً وعظماً

سأحلم بالزائر المستحيل الذي لم يجرى

ويأتي ديوانها الأخير (شجرة القمر) ليحمل في مقدمته تأبين مرحلة طويلة
عاشت فيها الشاعرة زمن التمرد الشكلي والضياء النفسي، حيث تحل الأمر
بالارتداء إلى الذاكرة العربية، هاربة من نزيف الأسئلة التي أتعبتها حيث تقول حول
(الشعر الحر):

(وإنني لعلّ يقين من أن تيار الشعر الحر سيتوقف في يوم غير بعيد، وسيرجع
الشعراء إلى الأوزان الشطرية بعد أن خاضوا الخروج عليها والاستهانة بها. وليس
معنى هذا أن الشعر الحر سيموت، وإنما سيبقى قائماً يستعمله الشاعر لبعض
أغراضه ومقاصده، دون أن يتعصب له ويترك الأوزان العربية الجميلة .. بت
أدعو إلى أن يتركز الشعر الحر إلى نوع من القافية الموحدة ولو توحيداً جزئياً،
فبذلك نزيدة موسيقياً وجمالاً ونحميه من ضعف الرنين وانفلات الشكل).

يغيّر ألوانه البحر

وقفنا على البحر تحت الظهيرة
طفلين منفعلين
وروحى يسبح، عبر مروجك
في نهر عينين مغدقتين
وقلبي يركض خلف سؤال
حلمت براعمه عطر مرعى على شفتيك
سؤالك فيه عذوبة ريح الشمال
وروعة أغنية سكبتها، كمنجمات شوق مخبأة في يدك
سؤالك لون سماء على برك ودوالي
سألت عن البحر هل تتغير ألوانه؟
وهل تتلون أمواجه ؟ هل ترى تتبدل شطآنه؟
سألت وعيناك واسعتان اتساع الرؤى
ووجهك نجم نأى
وسفن مضبغة لم تجد مرقاً
سألت وهدبك دهشة طفل
ورعشة سنبله، وتموج حقل
وكانت يداك شرعيين منهمرين
على زورقين
وراء المدى والرؤى شاردين
وقلت، نعم، يا حبيبي
يغير ألوانه البحر

تعبر فيه سقائن خضر
وتطلع من مدائن شقر
ويشرب حيناً دماء الغروب
ويصبح حيناً بلون الفضاء
يلملم زرقته يا حبيبي
ويحلم، يرنو بعينه شذريتين
سماويتين
إلى اللانهاية يأخذ لون الضياء
صباحاً ويطفئ ثرياته في المساء
سألت عن البحر هل تتغير ألوانه؟
وهل تتلون أمواجه؟ .. هل ترى تتبدل شطآنه؟
نعم يا حبيبي
وبحراً يلاطم وديان نفسي
ويرحل عبر موانئ لون وشمس
وعبر حقول مغيب
ويغتسل الغسق القمري بأمواجه ويبلل شعره
ويلقى إليه سماءً وفكرة
نعم يا حبيبي، نعم، ويلون خلجانه
نعم ويغير ألوانه فيشرب صفرة شكي وظني
وتبحر في شذر أمواجه أغنيتاتي وسفني
ويصبح أبيض، تصبح لجنه ياسمينه
ويصبح أخضر، مثل أخضرار العيون الحزينة
ومثل زبرجد النهاوند في قعر حزني

سألت عن البحر هل تتغير ألوانه ؟ وعيناك بحر تراسى وضاعت
حدود مداه وشطائه

نعم يا حبيبي، يغير ألوانه ويصير بلون الرماد

له كل طعم ليألي السهاد

رمادية كل أسماكه

ورماد لآليه

إسقنجه

اخطبوطاته

ورماد مدائنه الغارقات القباب، ولون الرماد

جبين غريق طفا وتوسد أمواجه

الملح، مغمى عليه

ويبتلع الماء والملح عوسجة ورماد على شفثيه

وبحري وبحرك، بحر الرماد

حنون الفؤاد

له قسوة تلثم الجرح، تفرش لين وساد

وبحري وبحرك شاكس جسم الغريق الرمادي

أرسل موجته القاسية

لنلطمه، وعروس بحور لتحملة

للرمال النيبذية الناسية

ويرقد من دون وعي على الجرف، مغمى عليه

وبحر الرماد

يرشرش إغمائه، والشباب الغريق

تغازل خديه، موجة حب، وتغسل جبهته وتريق

عليه المحبة والملح والرغو،...

حيناً يغطي الجسد

وحيناً يعود ويرتد عنه

ويتركه لذهول الأبد

ويا من تسألني : هل يغير بحرى وبحرك ألوانه ؟

ومثل الغيوم يلون، يرسم، بالزيت والفحم شطآنه ؟

حبيبي لقد كان لي في الطفولة جد طويل كمثّل جدائل شعر ربيع وريف

وكان لجدي عمق

وظل

وبعد

له عنف عاصفة في خريف

وكان مدى في بحار مطلّسة لا تحد

وجدى كان قوياً كموجة بحر مخيف

وفي ذات يوم سرت السن النار في بيتنا

مضت تمضغ الباب، تشعل ليل الستائر

يدور اللهيب دوائر

يزمجر في شرفات منانا، ويضحك من رعبنا

يهدد أن يتوسع، ويركض في حيننا

وينذر أن يتغدى خدوداً

شقاهاً، صفائر

ويقتال حتى شيايب البيادر

وأقبل جدي مندفعاً مثل موجة بحر

وأرسل صيحة هول وذعر

تحذر في عنف إعصار نوع، يسب ويلعن
شئانمه مطر وحنان، شراسته بيت شعر ملحن
وهمس صلاة، ونجمة فجر وزورق عطر
ومد السباب على شفتيه غدير ملون
وأطفأ جدي الحريق، وأنقذ هدي وشعري
حبيبي، وجدي قد كان بحراً
يغير ألوانه وتصير محاجر عينيه سوداً وخضراً
يبذل أمواجه، يترامى، يصوغ لآلى
يسيل ينابيع، يرسى شواطئ
ويبدع مدأ، ويصنع جزراً
يبعث عبر أزرقا قى الخليج جزائر شقرا
وكانت جرادلته وهي تلعن، كانت قماقم بلسم
تكسر أسورة النار، عن ساعد لين وذراع ومعصم
وقسوة أمواج بحري وبحرك صارت أكفاً
وصدراً لتحمل جسم الغريق الرمادي تمطره قبلات وزهراً
وترميه فوق ضفاف السلامة

رفيف جناح حمامه

وتعطيه عمراً جديداً

وتزرع إغماءه حُلماً

وسنابل ذكرى

وبرد غمامه



أبو سلمى : (عبد الكريم الكرمي)

الزيتونة العطرة التي نبتت عليها أناشيد فلسطين

ولد الشاعر والأديب العربي الفلسطيني (عبد الكريم الكرمي) المعروف بأبي سلمى عام ١٩١٠ في مدينة (طولكرم) التابعة آنذاك لمدينة نابلس، وهو أحد ثلاثة شعراء فلسطينيين كانوا علامات خضراً في الشعر الفلسطيني قبل نكبة عام ١٩٤٨ وهم: (إبراهيم طوقان) و(عبد الرحيم محمود) و(أبو سلمى).

ولابد أن نتعرف على المكونات الثقافية والاجتماعية، والسياسية والنفسية التي ولكت نشأة (أبي سلمى) وذلك بتقديم موجز عن شخصيتين تركنا أثراً كبيراً في حياتهما هما والده الشيخ (سعيد الكرمي) وأخوه (أحمد شاكركرمي).

ولد الشيخ (سعيد الكرمي) عام ١٨٥٢ وتوفي عام ١٩٣٥، وكان من حملة المشاعل القومية ضمن القافلة الأولى التي حكم على أفرادها بالإعدام في (عاليه) بلبنان، ثم أبدل بهذا الحكم السجن المؤبد نظراً لشيوخته.

وكان الشيخ سعيد فقيهاً في الدين عالماً بأسرار اللغة، أديباً يحسن الخطابة، كما كان شاعراً مجيداً، وله قصائد يحاكي فيها شعراء الجاهلية، كما كان مرجعاً يعتمد عليه ويستشهد بأقواله وأثاره، عمل نائباً لرئيس المجمع العلمي بدمشق، كما عمل من بعد قاضياً للقضاة في حكومة الشرق العربي، وهو الاسم الذي كان يعرف به الأردن آنذاك، ثم رئيساً لأول مجمع علمي في الأردن، وبقي في هذين المنصبين حتى عام ١٩٢٦ حيث عاد إلى طولكرم، وبقي فيها حتى توفي عام ١٩٣٥.

ويسجل (أبو سلمى) ذكرياته عن هذه الشخصية الأولى المؤثرة في حياته فيقول (لا أزال أذكر وأنا طفل كيف كنت واقفاً مع بعض رفاقي أمام دارنا في طولكرم، عندما جاء جنود من الأتراك معهم ضباط ودخلوا إلى الديوان ثم خرجوا وذهب الوالد معهم ولم يعد، وكنت كلما سألت عن الوالد الذي طال غيبته، كانوا

يقولون: إنه ذهب إلى الشام، ثم علمت بعد ذلك أن الأتراك سجنوه مع رجالات البلاد لأنهم يطالبون بالاستقلال.

ومضت سنتان وسبعة أشهر من الحرب العالمية الأولى، حينما ذهب أفراد الأسرة وأهل البلدة يستقبلون السيد الوالد القادم بالقطار من دمشق، وهكذا عاد الديوان في طولكرم إلى ازدهاره مرجعاً لطالبي الرأي والفتوى في الدين والأدب. أما الشخصية الثانية التي أثرت على طفولة (أبي سلمى) فهي أخوه الناقد العربي الفلسطيني (أحمد شاكر الكرمي).

ولد عام ١٨٩٤ درس علومه الأولى في الأزهر، وحينما نشبت الحرب العالمية الأولى ذهب (أحمد شاكر) إلى الحجاز ليحرر في جريدة (القبلة) التي كانت تصدر في مكة، وبقي فيها سنة كاملة، ثم رجع إلى القاهرة، وحرر في جريدة (التركب) الأسبوعية التي كانت تصدر في مصر ويحررها (محمد القليلي)، ودرس اللغة الانكليزية وأتقنها، ثم عاد إلى طولكرم ومنها انتقل إلى دمشق حيث عمل كاتباً بالمحاسبة في سكة حديد الحجاز سنة ١٩٢٠، وبقي في هذه الوظيفة حتى سنة ١٩٢٤ ثم استقال، وكتب سلسلة من المقالات في جريدة (ألف باء) تحت اسم (قدامة)، واسهم في تأسيس الرابطة الأدبية، وأصدر كتاب (الكرميات) وهو مجموعة مقالات وقصص في موضوعات شتى، كما ترجم عن الانجليزية قصة

(الخريف والربيع) للشاعر الانجليزي (جيو فري تشوسر)، كما ترجم رواية (خالد) للروائي الأمريكي (فارون كروفورد)، وأصبح محرر مجلة الفيحاء المصورة بدمشق، وكتب في مجلة العروس الدمشقية لصاحبيتها (ماري عجمي)، وفي الصحف والمجلات المصرية واللبنانية، وبقي كذلك حتى أصدر جريدة (الميزان) الأدبية الأسبوعية التي عاشت مدة سنتين، وتوفي شاباً في ١٩٢٧/١٠/٩.

أما شاعرنا (أبو سلمى) فقد أمضى قسماً من دراسته الابتدائية في (طولكرم) ثم انتقل إلى دمشق حيث تعلم في مدرسة الملك الظاهر الابتدائية، وهي نفسها (المكتبة الظاهرية) حالياً، وحينما كان والده قاضياً للقضاة في (الأردن) تعلم

(أبو سلمى) في مدرسة (السلط) الثانوية، ثم عاد إلى دمشق حيث تابع تعليمه في مدرسة التجهيز الأولى التي تعرف بمكتب (عنبر) أو دار المعلمين الأولى، ولهذه المدرسة يحمل (أبو سلمى) أجمل الذكريات، ففي عام ١٩٢٥ قدم اللورد (بلفور) إلى دمشق، وكانت مدرسته (عنبر) هي التي قادت مظاهرة كبيرة ضد محبته، وكان (أبو سلمى) أحد الطلاب الذين قادوا المظاهرة.

وفي حفل أقيم في هذه المدرسة لتكريم شعرائها من الطلاب: أنور العطار - جميل سلطان - زكي المحاسني - ألقى أبو سلمى قصيدة بعنوان (ثلة الرضوان)، وهي عن ثلة في طولكرم لها قصة رومانسية تتحدث عن راع أحب ابنة شيخ القبيلة، فأمر الشيخ بقص أصابع الراعي الذي كان يغوي الفتيات الفاتنات بسببها، فتوقفت الأغنام عن الرعي، لكن الراعي صنع له أصابع من القصب، واستمر بغني، وقد لفتت القصيدة الأنظار إلى (أبي سلمى).

أما هذه القصيدة التي حظيت بها بإعجاب أساتذته ولفنت الأنظار إلى شاعريته

فهي:

(ناوليني الرباب قبل زياي	لست مذمومة ولست ببالي
ودعيني اسمعك وجد ابنة	الشيخ ورضوان وهو سر الجلال
قالها شاعر الطبيعة في الليل	ومهوئ الأشعار تلك الليلي
أمسك الشاعر الرباب فانت	أنسة الواجدين في الأطلال
فحننا مشفقاً عليها كأم	حين تحنو على وحيد غالي
قال والغيد حوله ساكنات	وسكون الحسان عين الكمال
ربوة يسكن الغرام إليها	يعتليها رضوان كل زوال
كان يرعى أنعام شيخ عجوز	ساد قسماً من قومه والآل

أما لماذا اقترنت كنية (أبي سلمى) باسم عبد الكريم، فإن وراء ذلك قصة

طريفة، فعند ما كان (أبو سلمى) طالباً في الصف الثاني بمدرسة (عنبر) بدمشق، هفا قلبه إلى حسناء دمشقية اسمها (سلمى)، فنظم فيها قصيدة مطلعها:
(سلمى انتظري نحوي فقلبي يخفق لما يشير إليّ طرفك أطرقت)

فلما تنامي خبر القصيدة إلى أساتذته، شجعوه على الغزل بسلمى شعراً، وأخذوا ينادونه (بأبي سلمى)، وقد لصقت به هذه الكنية بعد ذلك فأصبحت أشهر من اسمه.

وحول غلبة هذه الكنية على الاسم يحدثنا الدكتور (زكي مبارك) في الجزء الثالث من كتابه (ليلي المريضة في العراق) فيقول: (وصلت إلى حيفا فسألت عن عبد الكريم الكرمي فلم يعرفه أحد، ثم سألت عن الأستاذ أبي سلمى فعرفه الجميع، وهناك ندمت على الوقت الذي ضيعته في دراسة الكنية يوم كنت مشغولاً بتأليف كتاب (النثر الفني)، فلو أنني كنت زرت العراق أو فلسطين قبل ذلك لا استغثيت عن تلك الأبحاث الطوال.

ولعل هذه القصة التي أوردها على ما فيها من طرافة وتمعنة لم تعد ذات أهمية بقدر ما أصبحت ترمز إلى معان أسمى، ومدلولات أكبر وأوسع بعد أن نما حب (أبي سلمى) وتطورت مفاهيمه للحب والحبوبة، فأصبح يغني لوطنه في كل ما يغني به لفتاته (سلمى)، إن كل ما يذكره به يذكره بها، وكل جمال فيها جمال فيه، وأيام هواه إنما قضاهها في وطنه ومرتع صباه، ومغاني لهوه إنما هي بلاد السليبية، وليالي الوصال إنما كانت في أحضان سفوح وطنه ومروجه، وعلى ربواته وبسين جناته.

وغدت قصائد (أبي سلمى) غزلية وطنية معاً، وهكذا أصبحت تثور في نفسه لواعج الحنين إلى حبيبته وصباه ووطنه في آن واحد، فتراه في قصيدة (لقاء على الطريق) لا ينسى وطنه، بل ثمة تجاوب بين الحبيين في وجدانه:

(يسمعك القلب أغنيات هوى
 يروي لعينيك عند خفته
 تار يخ حبي والسمع والأرق
 لا تقطعيه بالهجر والحنق
 هو لك في ذمتي وفي عنقي
 ولتقي ... هكذا ... على الطرق)

(أبو سلمى) هذا الذي امتزجت فيه الحبيبة بالوطن، قال فيه صديقه الشاعر
 الفلسطيني الكبير (إبراهيم حافظ طوقان):

يا رسول الهوى صحابتك العشاق طراً وحزبك الآراء
 شبيعة لو حشدت يوماً قواها هلك الكاشحون واللواء

وفيه يقول صديقه الكاتب العربي المصري الكبير المرحوم (إبراهيم عبد القادر
 المزنّي):

(أبو سلمى شاعر فلسطين وصيدها بلا منازع، ومن كان لا يعرف جميل
 بثينة أو كثير عزة أو العباس بن الأحنف، فهذا أبو سلمى يعرفه بهم أتم تعريف
 وأوفاه، إذ لست أعرف في فلسطين أو غيرها شاعراً له مثل رواة أبي سلمى وجنده
 المدافع عنه، فإن رواة شعره الغيد الحسان وجنده العذارى، وفي الحقيقة أن أبنا
 سلمى كان شاعر الرقة والغزل، فكان ينشر غزلياته في الصحف الفلسطينية في
 الثلاثينات باسمه الحقيقي أو باسمه المستعار أو بأسماء أخرى يستتر وراءها، مثل
 (ذو الخال)، وهو مستند من ذات الخال التي أحبها (أبو سلمى)، وفيها قال كثيراً من
 الشعر.

يقول في قصيدة (ما الشاطئ الغربي):

(وما الشاطئ الغربي لولا قرارها
 سوى صم أحجار وأوكار غريان)

أمرت يديها فوقه فمأذا به مراح صبايات وملعب غزلان
ومرت به فانساب يستمس الخطى فيبكي على عهد الهوى الشفق الفاني

ويقول من قصيدة (الشاطئ الغربي):

(نسمات الشاطئ الباكي العبي مع ذات الخال من قبل القسوات
داعبي الثغر ولا تضطربي إنما الثغر حبيب النسمات

فيه سسر الحب سسر الحياة)

وفي قصيدة (ليتنا) يقول:

يا ليتنا طيران لا تسدري بأسرار الهموم
نشدو بألحان الهوى في السهل والجبل الشميم
ونطير في جو السعادة والمنى بين الغيوم
وننام في ظل الأقاح وفي حمى الليل البهيم
أو زهرتان نديتان على قم الوادي الكريم
يا ليتنا طفلان عند الشاطئ الباكي اليتيم
نغفو على صدر الرمال كحبتني عقد نظيم
وأفبق أهنف باسمها من كل شيطان رجيم
وأرى جمال الكائنات على محياها الوسيم

شاعر الحب والوطنية:

ولكن (أبا سلمى) لم يكن شاعر الحب وحسب، بل كان أيضاً شاعر الحرية
والوطنية الواعية الصادقة الثائرة، ومنذ أوائل عهده بالشعر الوطني كان ينقم على
الانتداب البريطاني والصهيونية، وعلى القيادات والزعامات العمياء التي تتولى دفة

أمور الشعب، ففي عام ١٩٣٤ نشر قصيدة (حمام الوادي) وفيها يحمل على تلك القيادات يوم ضاع وادي الحوارث وطرد (١٥٥٠٠) عربي من أراضيهم بعد أن سقط عدد من الشهداء برصاص الجنود الإنجليز.

يقول أبو سلمى:

ألوى الزمان بغصنك المياه	(ودع ضلالك يا حمام الوادي
نم في الهجير وأنت طاق صاد	من بعد سرحته وعذب نميره
هل في حمى السوادي حمام شاد	أرسل نواحك يا حمام وقل لنا
يختال فوق ربي وفوق وهاد	كان الرسول إليك إن غلب الهوى
عبراته وروى حديث فؤادي	حتى إذا وافى الديار وغردت
قصت جناحيه يد الصيداد	عبراته وروى حديث فؤادي

حيا (أبو سلمى) هبات الشعب العربي الفلسطيني فقال في قصيدته (يا بلادي):

(قولي لظالمة الشعوب	ضاللت عن سبل الرشاد
لا تلجئي عند الحسب	إلى الحفيظة والعناد
من ظلمك اسودّ القضاء	وقد شكك قلب الجماد
والشعب إن يغضب عليك	عرفت أهوال العوادي

وهكذا شاعت الظروف لشاعرنا أن يتشرد لينظم حبات فؤاده فسي فلسطينه، ومن روائع (أبي سلمى) قصيدته إلى زعماء العرب، وقد أنشدها في معاقل النافرين يوم هبت فلسطين هبتها الخالدة ومطلعها:

(انثر على لهب القصيد شكوى العبيد إلى العبيد)

وفيهما يحمل على زعماء العرب واحداً بعد واحد، وسرت هذه القصيدة بسين الجماهير سريان النار في الهشيم، فكان الصغير قبل الكبير يرددها.
وفي هذه القصيدة يخلد (أبو سلمى) ذكرى استشهاد الشيخ المناضل (عز الدين القسام) ورفاقه بهذه الأبيات:

(قوموا اسمعوا من كل ناحية يصيح دم الشهيد
قوموا انظروا (القسام) يشرق نوره فوق الصرود
يوحى إلى الدنيا ومن فيها بأسرار الخلود
قوموا انظروا فرحان فوق جبينه أثر السجود
يمشي إلى حبل الشهادة صائماً مشي الأسود
سبعون عاماً في سبيل الله والحق التلبد
خجل الشباب من المشيب بل السنون من العقود)

وصبيحة يوم زال الانتداب البريطاني عن فلسطين هتف (راجي صهيون)
مذيع دار الإذاعة الفلسطينية بهذا البيت:
(جبل المكبر لن تلين قناتنا ما لم نحطم فوقك الباسكتيلا)

وجبل المكبر هذا هو المكان الذي كان يقوم فيه قصر المندوب السامي، وكتب
(أبو سلمى) قصيدته هذه أيام كان يدرس في المدرسة الرشيدية في القدس، ويبلغ
مدير المعارف البريطاني يومئذٍ خبر هذه القصيدة التي نشرت في مجلة الرسالة
القاهرة بتوقيع (أبي سلمى)، فكان أن استدعاه (المستر فرل) مدير المعارف آنذاك
ودار بينهما الحوار التالي:

■ المستر فرل لأبي سلمى: هل أنت ناظم هذه القصيدة؟
أبو سلمى (بهامة مرفوعة وقامة منتصبة): نعم أنا ناظم قصيدة جبل المكبر.

■ وهنا يبلغه المدير قرار فصله عن العمل.

أما هذه القصيدة التي ذعرت لها السلطة البريطانية في ذلك الوقت، فقد وردت فيها هذه الأبيات:

(أفأفك الحمر انتشت راياتها	قد أقسمت ألا تظل ذليلاً
ثوري ولو فرش الذين طفوا على	طرق الجهاد أسنة ونصولاً
جبل المكبر طال نومك فانتبه	قم فاسمع التكبير والتهليلاً
فكأنما الفاروق دوى صوته	فجلانا الدنيا وهز الجيلاً
جبل المكبر لن تلين قناتنا	ما لم نحطم فوقك الباستيلاً

وهو يرى أن لابد لاستخلاص الحق من طريق واحد، وهدف واضح هو القوة،
فتراه يدعو الشعب إلى تحطيم الانتداب وإعلان الثورة فيقول:
(خلي انتداب القوم أو إرشادهم فالثورة الحمراء خير مرشد)

وبإحساس الإنسان التأثير على الظلم والجهل أشاد (أبو سلمى) في بواكير شعره
بجهاد الشعب، رغم الصعوبات التي اعترضت طريقه وأعاقت مسيرته الحضارية.
(ونحن الذين نشور على الظلم والجهل في كل حين
ونحن الذين خلقنا الجهاد ونحن الذين حمينا العرين
ونحن الذين أثرنا الطريق وكنا مشاعل حق ودين)

وواضح أن الشاعر في هذه القصيدة كان يعبر عن حقيقتين: الأولى: وهي
إحساس الشاعر بضرورة الوحدة العربية، وإدراكه أن ردع الخطر الخارجي لا
يمكن إنجازه دون توحيد القوى المشتتة والطاقات المبعثرة المصطنعة، ولذلك نراه

يتعمد التعبير بضمير الجمع (نحن).

وهكذا فإن الشاعر يأخذ موقفه الطبيعي ضمن معسكر الأمة العربية التي يستكلم باسمها.

والحقيقة الثانية: هي انه يعبر عن عواطفه الملتهبة التي تتدفق بين جوانحه، ويريد أن ينشرها على العالم بفخر وإباء، فإذا عرفنا أن هذه القصيدة قبل نكبة عام ١٩٤٨، أدركنا مدى وعي الشاعر وتفتحته الفني والنضالي والحرية في مفهومه وحدة لا تتجزأ، فهو يريد لها للأوطان الأخرى والشعوب كما يريد لها لوطنه، ولكنه يتجه ببصره إلى الشعب فهو معقد الآمال وعلى يديه يتم التحرير.

(إيه فلسطين الجريح	فقي على طهر الأزار
لا تسألني المستعمرين	بسل أسألني أهل الديار
يسا أيها الشعب النبيل	آمنت من شر الصغار
أنت الذي تهب السميل	من اليمين إلى اليسار
قرر مصيرك أنت لا	من يصمون على القرار

صوت الأمل:

استلهم أبو سلمى في شعره كل جانب من جوانب محنة فلسطين، واستوحى كل حادثة ووقف عند كل مظهر، فكان شعره ثورة على الانتداب وجنباياته والصهيونية وأهدافها، كما أيقظ شعره وعي عرب فلسطين، ومجد البذل، وقُدس التضحية، وكرم البطولة، وخلد الأبطال والشهداء، ودعا قومه إلى وحدة الصف والمحافظة على الأرض، حتى غدا الشعر سلاحاً فتاكاً في المعركة التي خاضها عرب فلسطين ضد الانتداب والصهيونية.

ولهذا نجد شاعراً من شعراء المقاومة هو (محمود درويش) يقول عن (أبي سلمى) (أنت الجذع الذي نبتت عليه أغاني، نحن امتدادك وامتداد أخويك اللذين

ذهبا - إبراهيم وعبد الرحيم - اللذين قاتلا بالكلمة والجسد، لا لسنا لقطاع إلى هذا الحد، إننا أبناءكم) ونجد شاعراً آخر من شعراء المقاومة هو (توفيق زياد) يقول عن جيل الشعراء الرواد: (إن الرعيل السابق من الشعراء الذين حملوا على كواهلهم عبء الحرف الموسيقي الراقص في وجوه الضوء، حملتهم النكيسة بعيداً، ولكن الشعر بقي).

ومن جديد راحت تتردد على شفاه أبناء الشعب الباقين أسماء عديدة، وليس صحيحاً القول أننا نحن الشعراء الذين خلقا المأساة في بلادنا قد بدأنا من جديد ... إننا نرد هذا القول إلى أصحابه، كل شيء يمكن أن يبدأ ومن جديد إلا الثقافة الحقيقية، إنها مثل الحياة نفسها تورث وتتواصل، نفس الطريق الذي لم يبدأ بل واصله في حينه إبراهيم طوقان وأبو سلمى وعبد الرحيم محمود وآخرون).

وكما يعتبر أبو سلمى من جيل شعراء المقاومة الرواد، فهو أيضاً من جيل الفردوس المفقود، عاش هموم شعبه وتجرع مرارة الغربة، يصدر في شعره عن شعور إنساني صادق، ووعي عميق بالأبعاد الحقيقية لأزمته كفلسطيني واكب النكبة مرحلة بعد مرحلة.

وعلى الرغم من أن شعراء النكبة لم يستطيعوا أن يعكسوا المعنى الإيجابي للمأساة القومية الكبرى، والمعنى البناء الذي يجدد الهدف ويرسم الطريق، بل حل مكانه شعور يائس حزين ملئ بالقلق والحيرة، قد ينتفض أحياناً بالأمل، لكنه أمل خافت لا يعرف طريقه إلى المستقبل ... على الرغم من ذلك فإن (أبا سلمى) استطاع أن يتمالك نفسه، ويخرج من بين الركام ليكون النفير العام الذي يطلق أصوات الاستنفار، ويثير في نفوس شعبه وأمتة الأمل، ويستنهضهم ليكونوا الزلزال الذي يهز واقع التشرد والتخلف، وقيم دعائم الوحدة التي هي الطريق إلى تحرير فلسطين.

فيقول في قصيدة (أجنحة الهوى) التي ألّفها عام ١٩٤٩ في جمعية (المقاصد الإسلامية) في بيروت بمناسبة المولد النبوي الشريف.

(ألا ثورة ملء الدنى عربية	تظهرنا بالنار نفسا ومولداً
تقلبنا معتزة فوق جمرها	ولن يخبو الجمر النبيل ويخمد
إلى أن يغيب الليل أسود حالكاً	ويغمرنا فجر الفتوح مجدداً
تطل علينا وحدة عربية	وفي ظلها يحيا الزمان مفردا
وتمشي فلسطين الحبيبة حرة	تحيا رسول الله والعرب أحمدا

روسط الضجيج الإعلامي والتعبئة العاطفية التي لم تفلح إلا في تفريغ شحنات التهديد والوعيد الغوغائي غير المخطط، يقف شاعرنا متخطياً هذه التهويمات ليوقظ أبناء وطنه من غفوتهم موجهاً إياهم إلى طريق القوة لأنه سبيل العودة.

(يا فلسطين أنت أنشأت شعباً	لم ينم ساعة على الاضطهاد
حارب الظلم منذ كان فيا	للشعب يودي بالسيف والجلاد
لا تقولوا هذى فلسطين وفيها	من إنا دنسى من الأمجاد
سيعود المشردون إليها	اسمعوها مع الضحايا تنادى

ويواصل التأكيد على هذا المعنى ويدعو الشعب إلى الثورة فيقول:

(يا فلسطين لا تراعي فانا	لم نزل في الدنا نخوض الصعابا
معنا في نضالنا كل شعب	عربي يرى الحياة غلايا
يتجلى الظلم والظلام إذا ما	التهب الشعب في النضال التهابا
ويطل فجر الحبيب ضحوكاً	ويغني السدروب والأحباباً
وتنادى أرض البلاد بنيها	فيكون المشردون الجوابا

وبمزيد من الفخر والاعتزاز بالبطولة التي يبدوها الشعب يؤكد (أبو سلمى) أن طريق الحرية لا تقتحم إلا بالشهداء، وأن أشجارها لا تروى إلا بالدماء.

(إن فلسطين لأبنائهم)	واتهم على الردى وطنوا
أعراسهم تسابق في الفداء	قد اتحنى الموت ولم ينحنوا
نزرع بالموت على أرضنا	حياتنا نحن، ومن يجبن
وكيف يسقى الدم أرضي ولا	تخصب والأشجار لا تغصن
على نظى أحرارنا وحدهم	تذوب الأغلال أو تطحن

ويتطلق شاعرنا مرة أخرى يحيي بطولة شعبه في مقاومة الاحتلال وتحطيم الصعاب:

(من رأى الفتيان يمشون على	لهب الموت رأى الأمر العجبا
والبنيات على درب الردى	في فلسطين يحطم الصعابا
ولد الأبطال أبطالاً على	وهج الثورة لم ينحوا الرقابا
شرفت دنيا فلسطين بهم	وبها شرفوا الدنيا احتسابا
كلما ساروا على أرضهم	نضروا بالدم والدمع الترابا

محاور ثلاثة:

خلاصة ما يمكن أن نقوله بعد هذه الرحلة الطويلة مع (أبي سلمى) أننا نلمح في تجربته الشعرية محاور ثلاثة كان لها أثرها في تطور شعره وإخصاب تجربته، وهي المحور الوطني الذي تشرب رائحته الأرض بكل معطياتها الطبيعية والنفسية رامزاً بالحبيبة للوطن.

والمحور الثاني هو المحور القومي، وهو الذي يرى في الأمة العربية انتماءه

النهائي، فموضوع العروبة والأمة من أكثر الدوائر اتساعاً في شعر أبي سلمى وفي أدبه على حد سواء.

أما المحور الثالث فهو المحور الإنساني الذي يتغنى بالحرية على أنها وحدة لا تتجزأ، وقد استطاع إسهامه في المؤتمرات الدولية والعربية، الأدبية منها والسياسية، أن يفتح أمامه أفاقاً واسعة يطل منها على ثورة الإنسان المعاصر ضد الظلم والاستغلال، كما تغنى بكل شيء جميل وخير في هذا العالم الرحب، وإن كان تغنيه بالخير والجمال لم يذهله عن واجبه إزاء قومه وقضية شعبه.

من هنا كان أدب (أبي سلمى) وشعره موصولاً بالتراث الوطني والقومي صلته بالتراث الإنساني، والأدباء الأصلاء هم طليعة قوى الكفاح في شعوبهم، يناضلون من أجل الحرية، ويؤمنون بحق الإنسان في تقرير مصيره وفي أن ينعم بالخير في هذه الحياة.

وتأكيداً لدور الشعوب الأفريقية والآسيوية في المشاركة الإيجابية البنّاءة في حضارة إنسانية ترسخ فيها سيادة العقل، ويشرق العدل والسلام، فقد قرر الاتحاد العام لكتاب آسيا وأفريقيا منح جائزة اللوتس الأدبية لعام ١٩٧٨ للشاعر (أبي سلمى)، فكان في هذا التكريم تكريم لكل أديب وشاعر ملتزم بهوم وطنه، وقضايا أمته التي هي جزء من هموم وقضايا الإنسانية العامة.

وفي الثاني عشر من شهر تشرين أول عام ١٩٨٠، شاعت إرادة الله أن يقضي الشاعر المشرّد في (واشنطن) بعيداً عن الأرض العربية كلها، وليس عن وطنه فلسطين فحسب.

وينقل جثمان شاعر فلسطين وصيدها في أصيل السابع عشر من (تشرين أول) عام ١٩٨٠ إلى دمشق التي أحبها وعاش فيها سنوات غربته، ويدفن بها في احتفال مهيب.

كان جرح فلسطين عميقاً في صدر (أبي سلمى) كذلك كان وقع المصاب فادحاً على أبناء وطنه وأمته، فقد فقدوا فيه مناضلاً يعتز به المناضلون، وشاعراً فذا يمثل

الشعر العربي الأصل الذي لا يتساهل ولا يتلون، ويبقى أبو سلمى الزيتونة
الفاستينية العطرة التي يتجدد عطائها في الأجيال التي جاءت وتجيء من بعده.



إحسان عباس :

رائد التنوير والفكر الخلاق، عاش للثقافة العربية ومثل قمة شامخة من قممها المتألقة

من تراه فينا ينسى الترجمة الراقية لرائعة هيرمان ميلغل (موبي ديك) أو رواية هنمغواي (الشيخ والبحر) وعشرات الروايات العالمية التي شغفنا بها أيام سنواتنا الجامعية الأولى؟ ومن تراه لا يذكر بالغبطة والاعتزاز الدراسات القيمة في: فن الشعر وفن المسيرة التي تلقفها المتقنون في الخمسينات بحفاوة لا تعادل؟ وهل يغيب عن ذاكرة أي باحث ومتقّف في وطننا الكبير وجه ذلك الموسوعي الرائد مثل وحده مدرسة فكرية خلاقة قل نظيرها في الوطن العربي؟

لقد بلغ الموت مؤخراً تلك القمة الرفيعة من قمم الثقافة العربية المعاصرة ورحل (إحسان عباس) الباحث والناقد والمؤرخ القدير لتفقد ساحة الفكر الملتزم والبحث العلمي الرصين بفقده رمزاً متميزاً من رموز العلم والأدب، أبدع يتفوق واقتدار كمدرس ومحقق ومترجم، وأثرى مكتبة الأدب بما ينوف عن المئة مؤلف عبر مسيرة متألقة بالعطاء الثر والإبداع.

غادرنا إحسان عباس في عمان عن عمر يناهز الثمانين عاماً أنفق منها سنتين عاماً للإنتاج المفيد في سائر المجالات الثقافية العربية من تساريخ الأدب إلى النقد الأدبي القديم إلى نشر نصوص الأرقى في تراثنا الفكري شعراً ونثراً وتاريخاً وفقهاً إلى النقد الأدبي الحديث وشعر الحداثة مروراً بتاريخ الإسلام والأدب السياسي إلى الترجمة في الرواية والعلوم الإنسانية والنقد الأدبي.

في قرية (عين غزال) من ضواحي (حيفا) على شاطئ فلسطين الغالية، ولد إحسان عباس عام ١٩٢٠، وأكمل مراحل تعليمه حتى تخرجه في الكلية العربية بالقدس عام ١٩٤١، وانتقل إلى القاهرة لينال من جامعتها شهادته في البكالوريوس

والمجستير والدكتوراه، متلمذاً على الدكتور طه حسين وأحمد أمين فاجتمعت له ثقافة موسوعية غنية مكنته من تأسيس اتجاه جديد في النقد الأدبي وتناول التراث الفكري العربي من جانب، وشعر الحداثة من جانب آخر.

عمل بداية في التدريس بكلية (غوردون) - جامعة الخرطوم فيما بعد - حتى ١٩٦٢، لتستقبله بعد ذلك الجامعة الأمريكية في بيروت ليشغل فيها جانب التدريس منصب رئيس دائرة اللغة العربية ولغات الشرق الأدنى، ويعمل في الوقت ذاته مديراً لمركز الدراسات العربية ودراسات الشرق الأوسط، ورئيساً لتحرير مجلة الأبحاث، ولما تقاعد عام ١٩٨٥ توجه إلى عمان ليحاضر في الدراسات العليا في الجامعة الأردنية ويعكف على كتابة (تاريخ بلاد الشام) الذي أصدر منه عدة مجلدات، وقد تخرجت على يديه قوافل من الباحثين أشرف على رسائلهم الجامعية.

برز اهتمامه بالنقد الأدبي بداية بالبياتي والملائكة، ثم التفت إلى السياب فأبدع دراسته الراقية عنه، وتقل بعد ذلك لدراسة اتجاهات الشعر العربي المعاصر، وتاريخ الأدب في الأندلس، ونقد الشعر العربي القديم، ولم يحل نشغاله في كتابه تاريخ بلاد الشام دونه ودون عمله في تحقيق النصوص التراثية ودراساتها، فأعاد تحقيق (معجم الأدياء) لياقوت الحموي، و(التذكرة الحمدونية) في عشرة مجلدات، إضافة إلى عشرات البحوث في النقد والأدب والتاريخ، وكان المثقفون والنقاد في أرجاء الوطن العربي يتلقفون ألوان عطاءاته بتقدير وثناء كبيرين مما أهله للاعتراف والتكريم طوال مسيرته، فتوجت جهوده بالعديد من الجوائز التقديرية، إذ نال جائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربي عام ١٩٨٠ عن دراساته للشعر العربي المعاصر وجائزة (سلطان العويس) من دولة الإمارات العربية المتحدة عن أعماله النقدية إضافة إلى أوسمة رفيعة من جهات مختلفة، وكان إحسان عباس طوال تلك المسيرة الحافلة مثلاً في التواضع ودمائة الأخلاق، وعدم المحاباة، لا يكثر بما قد يثار حوله من غبار، فقد رسم لنفسه هدفاً وأخلص له، وهو أن يغتنم وقته كله في العمل والإنتاج وفي سنواته الأخيرة انكب المفكر الراحل على كتابة سيرته الذاتية

التي سماها (غربة الراعي) وصادر الجزء الأول منها، وقد عكست هذه السيرة
إحساساً واضحاً بالفجيعة التي غرسها في جوانحه ضياع الوطن وغربته عنه،
وتكالب الكوارث على الأمة تلبد الكون بغيوم اليأس والعجز عن مواجهة قوى
العدوان والطغيان العالي.

أفعد المرض إحسان عباس في فراشه بعمان، وفي آخر زيارة له رأيت أمامي
قديماً هذه الحزن وهو يشهد فلسطين تزداد بعداً، وبغداد تنهوى تحت ضربات
أبالسة الشر الذين أمعنوا فيها تحطيماً وتهديماً لأرقى صور الحضارة الإنسانية، ثم
هاهو يغمض عينيه النبيلتين اللتين نذرهما لتنوير دروب المعرفة أمام الأجيال،
وأعطى ضوءهما لكل ما هو مفيد وخير إلى آخر لحظة من عمره، لكن مثله لا
يموت بل يبقى حياً على مدار أيام.



د. نقولا زيادة :

نواجه العولمة بحضارتنا المتطورة وعطائنا الخلاق

ينتمي الدكتور نقولا زيادة، أستاذ التاريخين الحضاري والثقافي للإسلام الوسيط إلى جيل المؤرخين العرب الكبار في العصر الحديث، الذين قرأوا التاريخ العربي قراءة علمية حيادية، مستفيدين من الحقول المعرفية المتعددة للدكتور زياد اثان وثلاثون كتاباً في العربية وسبعة كتب بالإنكليزية كما ترجم ثمانية كتب إلى العربية وله مئات الدراسات والمقالات المنشورة في الدوريات العلمية العربية والأجنبية وعشرات الزوايا الإذاعية.

■ بداية نود أن نتعرف إلى الجوانب التي أسهمت في تكوينك المعرفي والإنساني؟

عندما تخرجت في دار المعلمين في القدس عام ١٩٢٤ وبدأت التدريس، كنت واحداً من تسعة عشر شاباً تخرجوا معي، في نهاية المطاف اثنان منا برزوا فقط وأكثر ما وصل إليه الباقون أن أصبحوا مدراء مدارس في قرى نائية. لقد أردت منذ البداية وحتى قبل أن أذهب إلى جامعة لندن، أن أكون شيئاً غير الآخرين.

بدأت اهتم بالتاريخ القديم منذ كنت أدرس في عكا، وفي السنوات العشر التي قضيتها هناك كانت لدي نية وعزم على تنظيم أوقاتي والاستفادة منها على الوجه الأكمل، فكنت أعلم واستعد لامتحاناتي في عكا وأتق نفسي في الوقت نفسه وحتى تستطيع أن تفعل ذلك، تحتاج إلى قدرة خارقة على ترتيب أمورك اليومية، وكان لي ذلك.

توفي والدي وأنا ابن ثماني سنوات وتوفيت، والدتي ولم أبلغ السابعة عشر من

عمري وأصبحت مسؤولاً عن أسرة كنت الكبيرة فيها، وهذه المسؤولية بالذات جعلت مني إنساناً صبوراً شديد المراس دائب السعي والبحث عما هو مفيد ومثمر .. أضف إلى ذلك إن إراحتي قوية، فعندما ذهبت إلى إنكلترا لم أفعل كما يفعل الكثيرون إما أن يتعلموا فقط وإما أن يصبحوا (هملأ) .. أنا جمعت بين المعرفة والتسلية، بمعنى أنني أعطيت بعض الوقت للتعرف على الناس والتحدث إليهم، وملاحظة كل ما هو حولي لدى الشعب الإنكليزي، وفي سيرتي الذاتية: (أيامي)، ذكرت أنني عندما ذهبت إلى إنكلترا أخرجت كل أفكاري وعرضتها للتهوية فالفعت منها تخلصت منه والجيد أعدته معي وأضفت إليه، والباقي أنني أتعلم حتى الآن وأقرأ وأجد أشياء جديدة وأجرب تعليم الناس عن طريق الكتابة حيناً، وعن طريق مباشر أحياناً أخرى .. ومن أراد أن يطلع على جوانب سيرتي الذاتية يلزمه قراءة كتاب (أيامي) في جزئيه الأول والثاني، فهو يحمل الكثير من الكشف والإضاءة على الجوانب الإنسانية المعرفية، ولا أظن أن أحداً من الذين كتبوا تاريخ حياتهم من أجيالي عرّى نفسه كما عريت نفسي في هذا الكتاب.

▪ حدثنا عن منهجك في كتابة التاريخ وأدواتك المعرفية؟

طوال حياتي في البحث التاريخ لم أتم إلى أي مدرسة من مدارس التاريخ التي ظهرت في القرن الماضي، أو تلك التي ظهرت في القرن الحاضر، كمدارس التفسير الديني والتفسير الأدبي وغيرهما .. كل هذه المدارس تركتها جانباً ولم أعرها اهتماماً، وإذا كنت بعيداً عن مدارس البحث التاريخي بمنظوماته المعرفية، فلا أنكر أنني اختطفت منهجاً خاصاً يتلخص في البحث عن المادة الموجودة (أقمشها) وأرتبها وأنظمها فإذا وجدت أن شيئاً يستحق الكتابة فيه كتبت، وإلا ركته جانباً، هذا هو منهجي الذي أغناني عن المدارس التاريخية والأعبيها، والمسألة في تصويري لا تستحق أكثر من ذلك، ومشكلة المؤرخين الذين ينتمون إلى مدارس تاريخية معينة أنهم يفتشون عما يثبت وجهة نظرهم من هذه الزاوية أو تلك... أما

أنا فأريد أن أثبت وجهة نظر التاريخ غير الأيديولوجية.

استيلاء لا استيراد:

■ قلت ذات مرة إن اللغة هي آلة الحضارة إزاء ما قد جرى للعرب من تهميش على المسرح الدولي، ما الذي ينتظر منهم نحو لغتهم التي جرى تهميشها واستبعادها من ساحة الكشف والبحث؟

اللغة آلة الحضارة هذا صحيح، ولكن إذا لم تكن هناك أفكار جديدة نتوالد فاللغة تموت، وهذا ما أصاب اللغة العربية منذ القرن الثالث عشر وحتى الآن .. جمدت اللغة العربية تعبيراً وأسلوباً وفكراً، الآن في العصر الحديث نحن غير قادرين على أن نقرر ما الذي نريد؟

كيف يمكن لنا أن نتعلم نحن في المشرق العربي، وما زلنا لا نعترف بوجود الحضارة الغربية مثلاً؟ إننا في حاجة إلى حالة من التفتح، وسعة الأفق، وعندما تتوافر هذه الحالة تبدأ الأفكار بالتوالد. وحينها تصبح اللغة مجبرة عن طريق أبنائها عن التعبير عن هذه الأفكار والآراء المستولدة لا المستوردة.

تاريخ منصف:

■ هل يمكن أن يكون المؤرخ موضوعياً في تحليل المادة التاريخية وتفسيره لها؟

التاريخ تفسير في الدرجة الأولى، وما دام التاريخ تفسيراً، فهو إذن يحتمل الصواب والخطأ على حد سواء .. كما يحدث في العلم، فقد نقوم بتجربة علمية خاطئة نكررها فنأخذ بها، وحيث أننا لا نستطيع أن نفصل المؤرخ عن ارتباطه العضوي بالجماعة التي ينتمي إليها، يصبح من الصعب أن يكون هذا المؤرخ عالماً دقيقاً كما عالم الكيمياء، ولا بد من أن تخرج من ثنايا عمله التاريخي أشياء من قبيل النفاق وحجب العيوب والتناسي.

بالنسبة إلي، أحاول أن أكون منصفاً لنفسي كمؤرخ، أما بالنسبة إلى الموضوعات التي أقوم بالكتابة عنها، فلا أنتظر منها نتيجة تقارب نتائج علماء الكيمياء في مختبراتهم، فهذا شيء غير وارد وإن كنت أظن أن مخبر المؤرخ هو عقله.

■ ما هو مفهومك لفكرة (إعادة كتابة التاريخ) وكيف يمكن التوصل إلى صياغة رؤية قومية شاملة لإعادة كتابة التاريخ العربي؟

هناك محاولات كثيرة كانت تتعلق بما يسمى إعادة كتابة التاريخ، الواقع أن الذي نحتاجه أن نبدأ بكتابة التاريخ العربي، نحن لم نكتبه بعد، كُتبت منه فصولاً هنا وهناك فتاريخ العرب من حيث أنه تاريخ مجموعة من الشعوب نسميها الأمة العربية شيء طويل المدى والأمد ويحتاج إلى كثير من العمل.

وأظن أن الذي يجب أن نقوم به أن نكثر من الكتابات الجزئية المبينة على البحث الجدي، حتى يتجمع منها ما يمكن أن يعطينا المادة لكتابة التاريخ.

إن كتابة تاريخ العرب من ناحية قومية ليس بالأمر اليسير في نهاية الأمر اليسير، لأن المؤلف الذي يكتب التاريخ يجب أن يعتاد على أن لا ينظر إلى هذا التاريخ كشيء مقدس، بل أن ينظر إليه كتاريخ لشعب أو أمة مثل بقية الأمم لها أخطاؤها ولها حسناتها، وعندئذ نستطيع أن نخرج فلسفياً وتفكيراً من قصي الغيبات والفردوس المفقود، فهذه الأمور تمنعنا من العمل الجدي، وطالما نحن لا نسمح لأنفسنا بأن نعمل، فمعنى ذلك أننا لن نسمح لأنفسنا بكتابة صحيحة لتاريخنا من جهة عادية بل قومية، هذه هي المشكلة الرئيسية في كتابة التاريخ.

■ ما السبيل برأيك لندفاع عن الفكر التاريخي عندنا وبالتالي ما هو دور هذا الفكر في تحقيق نهضة عربية شاملة قومية التوجه؟

عبارة الفكر التاريخي عبارة فضفاضة فيما اعتقد، وقد تختلف أنا وأنت على

تفسيرها، لذلك لناخذ المسألة بشكل عملي الفكر التاريخي هو ما ينتج عن أمرين: أولاً تفكيرنا في تاريخنا، والثاني هي صياغة هذا التفكير بحيث يكون زاد للقراء بقطع النظر عن مستوى القارئ، سواء كان عالماً أو قارئاً أو حتى عادياً أو حتى إذا كان أمياً...

السؤال الذي ينبغي طرحه هو: هل استطعنا حتى الآن إيجاد مدرسة تفسرنا؟ الجواب بالنفي فنحن ما زلنا في طريق تكوينها.

■ لقد درست تاريخ الأديان ولكنك اخترت التاريخ الإسلامي موضوعاً لرسالة الدكتوراه التي حصلت عليها من جامعة لندن لماذا الإسلام وأنت مسيحي؟
صحيح أنني مسيحي، ولكنني عربي أسكن في بلاد إسلامية، وكنت درست التاريخ اليوناني والتاريخ الروماني وتاريخ الأديان .. وربما إحساسي بالانتماء لتاريخ هذه البلاد جعلني أختار التاريخ الإسلامي موضوعاً لرسالتي، وربما تكون مصادفة بحتة، ليس عندي جواب دقيق الآن فلقد مضى على هذا أكثر من خمسين عاماً.

التاريخ الإسلامي موضوعاً لرسالتي وربما تكون مصادفة بحتة ليس عندي جواب دقيق الآن فلقد مضى على هذا أكثر من خمسين عاماً.

■ أصولك الفلسطينية، ولادتك الدمشقية، طفولتك المتنقلة بين كل من دمشق وفلسطين وبيروت والأردن، شبابك المرحل ودراساتك في جامعات أوروبا، ومن ثم عودتك إلى بيروت لتستقر فيها، لماذا اخترت بيروت وليس أي عاصمة عربية أخرى؟

لأنني عندما عدت من بريطانيا سنة ١٩٤٩ وجدت عملاً في الجامعة الأمريكية في بيروت فعملت مدرساً فيها لأكثر من أربعة وعشرين عاماً وبقيت فيها وربما السبب لقمة العيش ولا شيء آخر، فالعمل الوحيد الذي أتيح لي حينها كان في

الجامعة الأمريكية في بيروت، ولو كان قد أُتيح لي عمل فسي دمشق أو بغداد أو السودان لعملت وعشت هناك، ومع ذلك، وبعد كل هذه السنوات أنا لا اعتبر نفسي فلسطينياً ولا سورياً ولا لبنانياً، أنا مواطن عربي من بلاد الشام وكما يقول الشاعر:

بكل ربع من ربوعك حرمة وهوى تغفل في صميم فؤادي

■ في حوار سابق معك قلت: أنك لا تحب العمل السياسي ولم تحبه يوماً، ولكن من يقرؤك جيداً ويستمع إلى أحاديثك ومحاضراتك لا بد أن يلمس خطأ سياسياً خفياً فيما تقول وتكتب، ما رأيك؟

أنا لا أحب العمل السياسي قطعاً، إنني أحب أن أكون باحثاً في التاريخ وليس بطلاً من أبطاله، وإذا كان البعض يجد في أبحاثه نفساً سياسياً فليستفد منه السياسيون إذا أرادوا، ولكن ما أقصده في أبحاثي هو البحث العلمي والتاريخي فقط، وأترك السياسة لأصحابها، وكفى الله المؤمنين شر القتال.

■ في محاضرة لك بمكتبة الأسد قلت، أنه لم يكن هناك صدام حضارات وليس حوار حضارات؟

يجب في البداية أن أوضح مفهوم حوار الحضارات، ومعنى الحضارة كما أفهمها أنا هو كل شيء يتعلق بشعب أو أمة من المطبخ إلى علوم الفلك والفلسفة والفيزياء النووية، بالمعنى الشامل هي ثقافة تلك الأمة لأنه لا يمكن أن نتحدث عن شعب ونقول إن له حضارة وننسى ثقافته، لأن الحضارة هي كل نواحي الحياة الثقافية من سياسة وفن وعبادات وتقاليد وعادات، أما حوار كما أفهمه أنا معناه تبادل الرأي، أي أن يكون هناك رأي ورأي آخر، إما أن يتفق الرأيان أو أن يختلفا، ولا أستطيع أن أفهم الحوار على غير هذا الأساس وبالتالي فلا حوار ولا صدام بين الحضارات.

■ إذن هل تعتقد أن ما حصل عبر التاريخ ما هو إلا تزواج وتلاقح لحضارات

الأمة الواحدة .. وترادف مع حضارات الأمم الأخرى المجاورة والمفتوحة.

وليس حواراً أو صداماً للحضارات؟

حتى نكتشف إن كان حوار الحضارات أمراً تاريخياً صحيحاً أم أنه قضية مشبوهة في الأصل علينا أن نستعرض ما مر على منطقتنا من حضارات كثيرة ولنستشف إذا ما حصل بينهما حوار أم لا.

من أقدم حضارات بلاد الشام والعراق كانت الحضارة السومرية التي تعود إلى الألف الرابع قبل الميلاد، ومن أهم ما أنتجت تلك الحضارة اختراع الكتابة المسمارية حيث نكتشف أن السوميريين كانوا شعباً يدون ما يخطر له من أفكار وعادات ومعتقدات حتى أساطيره كان يدونها.

بعد السوميريين أتى الأكاديون في الألف الثالث قبل الميلاد، وكانوا أقرب إلى البدو منهم إلى الحضرة، ولكنهم كانوا أقوى، فتغلبوا على السوميريين دون أن تتحاور حضارة هؤلاء مع حضارة أولئك .. الذي حدث أن الأكاديين.

عندما جاء الإسكندر الكبير، واحتل المنطقة، كانت لديه طموحات في نشر ما عنده من أفكار يونانية يعتبرها أساساً للتقدم والرفق، وكان متحمساً لدرجة حاول فيها أن يفرض هذه الأفكار التي ترجم بعضها عبر بنساء المدن الحصينة على الطراز اليوناني، ولكنها لم تكن يونانية بالكامل فيها فقط فكرة المدينة من حضارة وأدب وثقافة اليونان، وانتشرت حينها اللغة اليونانية وأصبحت لغة الثقافة والشعر والأدب.

خلف الإسكندر، السلاسة في بلاد الشاك والبطالمة في مصر، فامتزج النظام القائم في المنطقة مع النظام اليوناني الديمقراطي، المبني على فكرة المدينة الواحدة لقرنين من الزمن وأحدث نظاماً جديداً، جعل من المنطقة ممراً تجارياً واسعاً وصل الهند والصين عبر ما يسمى بطريق الحرير، الذي هو أطول وأقدم طريق دولي بري نشأ في العالم القديم حيث يبلغ طوله نحو عشرة آلاف كيلو متر.

جاء الرومان في القرن الأول قبل الميلاد وحكموا البلاد لأكثر من ثلاثة قرون

وليس عند الرومان فكر وثقافة اليونان ولكنهم كانوا حكاماً أقوياء وقادة أشداء، علموا الناس فنون الحرب وفنون العمارة من بناء الهياكل والقلاع، أخذ الناس ما أعطتهم إياه الحضارة الرومانية من فنون لأنها أشياء علمية ومن السهل أن يتقبلها الناس ويتعلموها، وأيضاً لم ينشأ بين الرومان واليونان أي حوار حضاري، وبالتالي لم ينشأ حوار بين حضارتيهما وحضارة المنطقة التي حكموها، بل نشأ عن هاتين الحضارتين وحضارة المنطقة المحكومة حضارة هي مزيج لكل سميت الحضارة الشامية.

عندما جاء الإسلام انتشر في رقعة هي الأوسع في العالم امتدت من الهند إلى أسبانيا وشمال إفريقيا، وجاءت مع الحضارة الإسلامية لغتها العربية التي سرعان ما انتشرت في المنطقة لأنها لغة القرآن الكريم، وأصبح كل ما كان موجوداً من حضارات مختلفة في المنطقة في متناول هؤلاء الفاتحين الذين بدلوا يمتصون شيئاً فشيئاً هذه الحضارات، فنشطت الترجمة ونقلت الآراء والعلوم والأفكار من السند والهند واليونان والإغريق والرومان، وكان النقل عشوائياً محكوماً بما هو متوفر من الكتب القديمة، وبمن يستطيع ترجمة هذه الكتب من لغاتها المختلفة إلى العربية نستخلص مما ذكرنا أنه لن يكن في هذا العمل الذي تم عبر الفتوحات شيئاً اسمه حوار بل كانت الحضارات تلتقي وتختلف، تجتمع وتفرق أو ترفض، تقبض، تأخذ تبتلع، تهضم، لتنتج شيئاً آخر، وينشأ مجموعة من الأفكار والنظم والفنون والعادات الجديدة ولكن دون أن تتحاور أو تتبادل الرأي.

« إذن ما سر هذا الصخب من حولنا الذي يتحدث عن صراع الحضارات، وما

أسباب تلك المخاوف من غزو ثقافي سيحتاج المنطقة باسم العولمة؟

كل هذه الضجة الدائرة في العالم عن حوار أو صراع حضارات وعولمة، ما هي إلا موضوعة، نعم مجرد موضوعة، والناس يحبون الموضوعة لأن فيها موضوعاً جديداً للثرثرة والإعلام وحديثاً للإذاعات والفضائيات، ومادة للمناظرات والمفاوضات

والمؤتمرات، والعولمة ليست جديدة كما يظن البعض، بل كانت موجودة في كل عصر من عصور التاريخ، وفي كل زمن وجدت فيه دولة كبيرة قوية ومسيطرة على مكان واسع من الأرض تفرض عليه حضارتها وتطمس بعض معالمه، كان هناك نوع من العولمة.

والعولمة ليست بالضرورة انتشار نوع من نماذج الحياة وفرضها على الآخرين، لأنه رغم كل الحضارات والفتوحات التي مرت بالمنطقة، ظل لكل منطقة خصوصيتها وعاداتها وتقاليدها في المأكل والملبس والعادات، والذي حصل هو تبديل طفيف أو تطور في البنية الأساسية لتلك العادات فنحن نجد أن أطباق الطعام تنوعت ودخلت مواد جديدة إليها من خضار وفواكه وتوابل لم تكن موجودة من قبل، بل انتقلت عبر الفتوحات والحضارات الأخرى .. وفي الأرياء نجد أنه توفرت أنواع جديدة من الأقمشة والخيوط وتغيرت الألوان، ولكن لكل منطقة زيتها التقليدي حتى العقائد حصل لها نفس الشيء، فإننا نجد الإسلام هو في كل مكان، ولكنه اختلف في بلاد الشام عن الإسلام في مصر أيام المماليك، وفي الأندلس عن الإسلام في شمال إفريقيا وأماكن أخرى، وتغيرت بعض الشيء النظرة التي بدأ الناس ينظرون بها إلى الإسلام في كل مرحلة، فتعددت المذاهب والمدارس الفقهية ولكن دون المساس بجوهر العقيدة الإسلامية.

وتغيرت العادات المتعلقة بالأسفار ففي بداية القرن العشرين حين جاء القطار إلى بلادنا فأصبح الناس يستعملونه للانتقال بدلاً من الجمال وعربات الخيل، برأيي كل هذا لا يصح أن نسميه عولمة بل هو قبول الشيء الجديد واستعماله والاستفادة منه.

■ هناك من يوافقك الرأي أن العولمة ليست ظاهرة جديدة ويقول: إنه كانت هناك عولمة قديمة تعاضمت سطوتها على النظام الدولي، ووسعت إطار أسواقها فتجاوزت حدود الدول الأخرى الضعيفة عبر منافسة غير متكافئة مع

قدرات وصلاحيات وإمكانيات تلك الدول الثقافية والعلمية والاقتصادية والإنتاجية، هل بلادنا المقصودة بتلك الدول الضعيفة التي تتجاوزها الدول الكبرى؟

نعم نحن متخلفون متأخرون وليس لدينا ما نواجه به العالم، حيث لا نملك ما نقايط به ما عندهم. الغرب لديهم أشياء كثيرة أحدث وأكثر تطوراً وفائدة مما عندنا وليست بلادنا إلا سوقاً لأشياءهم التي تأتينا جاهزة نقبلها ونشتريها وندفع ثمنها والعولمة الحديثة هي سوق فكري وأدبي سوق فني علمي وتقني وسوق إنتاجي وأسواق أخرى مختلفة هذه الأسواق لا تريد إلا أن تبيع منتجاتها لمن يشتري ويسدفع أكثر وإذا بقينا بحاجة دائمة لأن نشتري ما تنتجه هذه الأسواق نكون قد وقعنا في فخ العولمة.

» برأيك ما العمل لتجنب الوقوع في فخ العولمة التي يصورها البعض بالغول الذي سيلتهم تاريخنا وثقافتنا وحضارتنا؟

إذا قبلنا تجاوزاً فكرة أن العولمة هي سوق إنتاجي ضخم يعتمد على إستهلاكنا، فأول ما يمكننا فعله هو رفضنا لأن نكون مستهلكين فقط، وإصرارنا على أن نكون منتجين ومبدعين نقدم الأفضل ونصنع الأجود ونصدر الأحدث مما هو موجود في سوق العولمة، فستعني عن بضاعتها ونقف في مواجهتها وننافسها حتى نغلقها وربما نغزوها.

وإذا كانت العولمة هدفها النيل من ثقافتنا والقضاء على حضارتنا، فعلياً أن ننمي هذه الثقافة وندعمها ونحدثها ونقويها، ونحمي حضارتنا بتهذيبها وتوسيعها وتطويرها، لننحش هذا الوطن ونقويه ونحسنه، وذلك بالاستفادة من خبراته واستثمار ثرواته وتطوير منتجاته وتحديث صناعاته، حتى نستعد لمواجهة العولمة من موقف القوة وليس بالضرورة أن نقف منها موقف الخصم. وإذا لم نستدرك ذلك، ولم نتحرك بسرعة ستبتلعنا العولمة ولا شك، لأن الحارس، الذي يريد أن يحمي

ممتلكاته لا يقتل السارق بل يحصن أبوابه ويرفع أسواره ويمسك سلاحه ويقف
مستعداً لصد الاعتداء.

من هنا يبدأ طريق المعرفة

كانت المحاضرة حكاية رجل تجاوز الخامسة والتسعين من عمره، حمص ربه كثيراً لأنه رزقه بشيء من قوة الذاكرة والذكاء، ومكنه من أن يستفيد منهما في وضع واحد وأربعين كتاباً في التاريخ العربي الإسلامي باللغة العربية، وستة بالإنكليزية، واثنى عشرة كتاباً آخر مترجماً عن الإنكليزية، والألمانية، بقليل من المساعدة، صعد السلم بثبوت ليجلس على كرسي المحاضر وعصاه بين يديه لا تفارقه ورغم شعره الأشيب لم يتخل الجد عن السخرية والمرح قال: (بعضكم سيخرج من هنا وهو نادم لأنه جاء) ضحك الجميع ثم بدأ يروي لنا القصة:

■ لماذا؟

(الذكاء لا يعلم المرء الأشياء ولا بد أن يكون هناك من يعلمه إياها) بدأ نقولاً زيادة وتابع (ولدت في دمشق لأب غزير المعرفة وأم شبيهة نظامية، وعندما توفي والدي وأنا في سن السابعة رجعنا إلى فلسطين وأقمنا في ثلاث مدن مختلفة هي طولكرم والناصرية وجنين، فكانت دراستي الابتدائية ممزقة وموزعة في ثلاث منها في دمشق وأربع في فلسطين، ولذلك كان علي أن أترج في الحصول على هذه المعرفة بما تيسر لي من سبل، الخطوة الأولى كانت في التعرف على الأشياء وقد تعرفت إليها ليس لأنني ذهبت إلى مدرسة ولكن لأنني أردت أن أتعلم).

وبدأ المؤلف الشيخ يصف المدارس التي درس بها وما تعلمه في كل منها (الفرير في دمشق تعلمت فيها القراءة ثم انتقلت إلى مدرسة إنجيلية ثم إلى فرع آخر من مدرسة الفرير، ولم يكن المدرسون كلهم في المستوى نفسه، أما مدرسة طولكرم فكانت مدرسة رسمية للحكومة العثمانية في أواخر عهدها، وكان بين أيدينا كتاب للقراءة لكننا لم نتعلم شيئاً من الحساب، وفي جنين كانت المدرسة الرسمية التركية قد أفلتت وأعطى المبنى لصف الضباط الألمان الطيارين فأصبحت مدرستي هي الأربعة

والشوارع، وبعد الاحتلال البريطاني افتتحت حكومة الانتداب مدرسة رسمية فدخلتها وفي كل المدارس التي درست فيها كل السؤال الوحيد الذي أحصل على جواب له هو (ما اسم هذا)؟ لكنه لم يتسن لي مرة أن أجاب على سؤال (لماذا) وفي سنة ١٩٢١ وكنت في الثالثة عشرة والنصف دخلت دار المعلمين للمرة الأولى استطعت أن أحصل على أجوبة عن أسئلتني وبدأت أتدرب على سؤال (لماذا) فالمعرفة تبدأ بهذا السؤال.

■ الإدارة:

بدأت أعلم في مدرسة عكا الثانوية عام ١٩٢٥ مواد التاريخ والجغرافيا واللغة الإنكليزية ولم أكن قد تجاوزت الثامنة عشرة ولم يكن لدي من المعلومات ما يكفي فكنت أتعلم الموضوع في المساء لأعلمه للطلاب في الصباح، وأصبحت مسؤولاً عن الإجابة عن كلمة لماذا) فرحت أبحث عنها، مما مكنتني من أن أبدأ المعرفة، وبدأت أفاقي تتسع وخلال عشر سنوات من التعليم استطعت أن أحصل على كم كبير من المعرفة والأهم إنني تعلمت أساليب الحصول عليها، حتى أنني اجتزت امتحاناً أقامته وزارة المعارف في ذلك الوقت يعادل درجة الليسانس، فالتعليم بحاجة إلى إرادة اكتشفت بعد ذلك أنه إذا كان علي أن أعلم التاريخ فيجب أن أعرف أموراً أخرى غير التاريخ، ولذلك بدأت بتثقيف نفسي، ورحلت أختار الكتب التي تليقمني وأتتبع سوق الكتب باهتمام ومن حسن حظي أن جامعة اكسفورد نشرت في تلك الفترة سلسلة من الكتب اسمها (مكتبة البيت) أنجزها مجموعة كبيرة من الاختصاصيين وتناولوا فيها أنواع المعرفة المختلفة وأذكر أن المكتبة نشرت ثلاثمائة وخمسين مجلداً قرأت منها مئة وخمسة وعشرين مجلداً، لكن حتى ذلك الوقت كنت أراكم للمعرفة لكن لم أكن لدي من أحاوره.

■ الحوار:

في سنة ١٩٣٥ وكنت بلغت الثامنة والعشرين من عمري، حصلت على بعثة للذهاب إلى جامعة لندن لدراسة تاريخ الرومان واليونان، وعندما أصبحت هناك أدركت أن لدي كمية كبيرة من المعرفة في هذا التاريخ لكنها لم تكن نتيجة حوار ولم تكن نتيجة مناقشة مع آخرين فشعرت أن مخزوني قد تضاعف وتلاشى، فأخرجت هذه المعرفة من جديد وحاولت استعادتها ليس من حيث التفاصيل ولكن من حيث الأسلوب ولذلك استطعت أحياناً كثيرة أن أمني على الأستاذ ما أردت أن يعلمني إياه.

وكان أستاذ التاريخ الروماني رجلاً واسع المعرفة اسمه ماكس كيري، فسجلت اسمي لديه وعندما طلبت منا أن نقابل الأستاذ في وقت معين، فوجئت بأنني الطالب الوحيد المسجل لديه، وقال لي: إنك لا تنتظر مني أن أحاضر لك بل سنتفق على أن تكتب مقالاً قصيراً كل أسبوع لتناقشه، وفي السنة الثانية سجلت لدى الأستاذ كيري أيضاً وفوجئت مرة أخرى أنني الطالب الوحيد لكنه طلب مني أن أكتب ست مقالات في السنة فقط، لكنه طلب أن تكون عميقة وطويلة من نوع البحث العلمي، وهذه التجربة أضافت إلى خبرتي الكثير لدرجة أنني عندما قدمت الدكتوراه استغنييت عن الإشراف، فالمشرف الذي عين لي كان مشغولاً بشكل دائم، فقدت الرسالة بإشرافي وكل ذلك لأنني سعييت وراء المعرفة بجدية.



(الفرقة الموحدة)

١٠
 ١١
 ١٢
 ١٣
 ١٤
 ١٥
 ١٦
 ١٧
 ١٨
 ١٩
 ٢٠
 ٢١
 ٢٢
 ٢٣
 ٢٤
 ٢٥
 ٢٦
 ٢٧
 ٢٨
 ٢٩
 ٣٠
 ٣١
 ٣٢
 ٣٣
 ٣٤
 ٣٥
 ٣٦
 ٣٧
 ٣٨
 ٣٩
 ٤٠
 ٤١
 ٤٢
 ٤٣
 ٤٤
 ٤٥
 ٤٦
 ٤٧
 ٤٨
 ٤٩
 ٥٠
 ٥١
 ٥٢
 ٥٣
 ٥٤
 ٥٥
 ٥٦
 ٥٧
 ٥٨
 ٥٩
 ٦٠
 ٦١
 ٦٢
 ٦٣
 ٦٤
 ٦٥
 ٦٦
 ٦٧
 ٦٨
 ٦٩
 ٧٠
 ٧١
 ٧٢
 ٧٣
 ٧٤
 ٧٥
 ٧٦
 ٧٧
 ٧٨
 ٧٩
 ٨٠
 ٨١
 ٨٢
 ٨٣
 ٨٤
 ٨٥
 ٨٦
 ٨٧
 ٨٨
 ٨٩
 ٩٠
 ٩١
 ٩٢
 ٩٣
 ٩٤
 ٩٥
 ٩٦
 ٩٧
 ٩٨
 ٩٩
 ١٠٠

[illegible]

فَوَالِ اللَّهِ لَوْ بَدِئْتُ
أَمَّا رَفِيعُ مَعْرِفَاتِ الْمَسْجِدِ
فَمَا لَمْ يَخْلُقْ لِي بِرُوحِ الْوَحْيِ
خَيْرًا مِنْ هَذِهِ الْوَحْيِ
إِنْ أَسْأَلُ الْعَالَمِينَ

لکھنؤ، ۱۰ دسمبر ۱۹۴۷ء

البر والحق

لقد افاد الله ان اعلمه هذه الكونيات
 بيد الرب
 نعمه شفي كل الدنيا
 اشياء الرب
 ومضيق الرب هو الرب
 ومضيق الرب هو الرب
 ومضيق الرب هو الرب

فقد بيدها انا احبها هذا الكتاب
من شمس خواجه
فقد بيدها هذا الكتاب
من شمس خواجه
فقد بيدها هذا الكتاب
من شمس خواجه

فدوى طوقان:

سنديانة فلسطين باقية في ذاكرة الوطن

نجح الموت بتغيب وجه ساطع من وجوه الشعر العربي المعاصر وأضيف اسم جديد إلى كوكبة الراحلين من شعراء العروبة وأدبائها على مدى السنوات الأخيرة كان قد ودعنا الجواهري والبردوني والبصير والقباني وثلة المفكرين المرموقين: شاكِر مصطفى، وبدیع الکسم، وعادل العوا، وإحسان عباس، وأدوار سعيد وغيرهم ممن أخلوا أماكنهم للفراغ والجذب بغير تعريض، وهامي فدوى طوقان - سنديانة فلسطين الشامخة - تودعنا وتختتم ٨٦ عاماً من الصبر المتوهج شعراً وألقاً.

ما تزال تلك الأمسية من أمسيات مهرجان جرش للثقافة والفنون ماثلة في خاطري دلفت إلى الصالة الرحبية فإذا أمام حشد من الأدباء والإعلاميين، تحلقوا حول إنسانة وادعة، بقامة نحيلة، وعينين مشعنتين بضوء باهر، منصتين إليها وقد استرسلت لتستعيد بصوت هامس، صوراً من حياة عريضة، لشاعرة مجيدة طبقت شهرتها الآفاق منذ خمسينات القرن الماضي، وبالذات مع صدور دويانها الشعري الأول: (وحدى مع الأيام) ويومها ردد المتقفون وهواة الأدب على حد سواء قصائدها الرومانسية بطرب وإعجاب، ولما اتخذت مجلسي في الجمع رحلت أدون في مفكرتي مقاطع من حديث شجي:

- أنا والحزن توأم تجربة الفقد المبكر "لأخي إبراهيم" ومن ثم لشقيقي نمر - تركت في كبائي حرجاً لم يندمل فأنا "انتیغونا سوفوكلس" الذي يمثل التراجيديا في المسرح اليوناني.

- لقد قطعت في حياتي مسيرة شعرية طويلة جئت في زمن كان شعر المرأة فيه بدعة، ونحن لو عدنا إلى موروثنا من شعر المرأة العربية وجدناه مقتصرأ على الرثاء، شعر الجواهري، وشعر رابعة العدوية التي أبدعت في الحسب الإلهي،

شعراً حسياً في ظاهره، ودعوة للتقرب إلى الله في باطنه ... وباستثناء العدوية لم تتعد المرأة قديماً دورها في الرثاء، وهو الباب الوحيد الذي أتاح لها الخروج إلى فضاء الشعر، وظلت أغراض الشعر الأخرى محرمة عليها ... لكن شواعر الأندلس كان لهن شأن آخر فقد مارست المرأة العربية حرية لم تعرفها في المشرق وبقيت مشاعرها حبيسة حتى الخمسينات فأُتيح لها التعبير والإبداع.

- لقد ظل شعرنا النسائي يحاذر البوح، ويعجز عن التعبير شعراً ونثراً، ويتعبر آخر ظل ينقصه الجنون الوهاج الذي يدفع الشاعر لكسر حواجز الخوف ولا يتردد في التضحية بكل شيء من أجل التعبير.

- حين بدأنا نحن شاعرات الأربعينات انطلاقنا في فضاء الشعر، وكنا قلة، كان علينا أن نخوض فترة مضطربة، وأدركنا حينها أننا نشق طريقاً صعبة وغير ممهدة ولكننا عرفنا بأن في قدرتنا أن نغمض عيوننا في ارتياح، فذاك ما كنا نستطيعه في حدود زماننا وظروفه الاجتماعية والثقافية، ومع هبوب رياح التغيير وسقوط السقف الفلسطيني عام ١٩٤٨، تغير الناس وتغيرت الدنيا العربية ونقلت رياح التغيير المرأة إلى آفاق الحرية والانطلاق في مختلف المجالات العلمية والأدبية، وبصورة واضحة، راحت المرأة تلامس الحياة ملامسة حقيقية واقعية.

- في الخمسينات ظهرت أسماء كوكبة من الشاعرات العربيات، ولكن نتاجهن لم يكن كبيراً، ولم يكتسبن الشهرة الذائعة التي تحققت للشعراء المعاصرين باستثناء "تازك الملائكة" وفي العقود الأربعة الأخيرة من القرن العشرين، وبعد أن كانت المرأة العربية هي الموضوع المرصود في شعر الرجل الشاعر أصبحت ذاتاً شعرية، تكتب بجدية وأمانة نصوصاً شعرية ونثرية لها ما يميزها - ومن يهتم بها من النقاد.

- استعدت عبارات "قدوى طوقان" من مذكرتي ثم عدت إلى ما كتبتة في سيرتها

الذاتية (رحلة جبيلية ... رحلة صعبة) وقرأت:

- قصتي في الواقع هي قصة البذرة التي لم تر النور، قصة كفاح البذرة مع الأرض الصخرية الصلبة، إنها قصة الكفاح مع العطش والصخرة، ولدت في نابلس بفلسطين عام ١٩١٧ وكانت الحرب العالمية الأولى ترحل أوزارها ووطن العرب يرنو إلى حياة حرة عزيزة، عشت في بيت أثري من بيوت المدينة القديمة، وفي ذلك البيت وبين جدرانها العالية التي تحجب كل العالم الخارجي عن جماعة الحريم، انسحقت طفولتي وصباي، وجزء غير قليل من شبابي حيث يسيطر الرجال على الأجواء العائلية، وقد أخرجت من المدرسة في وقت مبكر جداً، واضطرت معه للاعتماد على نفسي في تنقيف ذاتي، فحصلت على دورات في اللغة الإنكليزية، ودرست الأدب الإنكليزي، وتأثرت بأحدث مدارس الفلسفة الغربية في أوائل القرن العشرين.

شكلت علاقة فدوى طوقان بشقيقها الشاعر (إبراهيم طوقان) علامة فارقة في حياتها، فهو الذي دفعها إلى فضاء شعر، فاستطاعت أن تخرج إلى الحياة العامة وأن تشارك فيها بنشر قصائدها في الصحف المصرية والعراقية واللبنانية، وهو ما لفت إليها الأنظار في نهاية الثلاثينات ومطلع الأربعينات من القرن الماضي: لقد كان ظهور أخي (إبراهيم) في حياتي بلعناً لجراحي وهو أشبه بظهور البدر في ظلام دامس، كان بالنسبة لي الشخصية الأهم والأروع والأحسن والأكرم، والأكثر من هذا كان المخلص والمنفذ من آثار المرحلة السابقة يأتي (إبراهيم) مسلحاً بعلمه وتجربته الثقافية والشعرية بعد تخرجه في الجامعة الأمريكية ببيروت، ومع مجيئه يشرق وجه الله في حياتي. ولكن حياة الشاعرة ما تلبث أن تتلبد بالأحزان، مات أخوها (إبراهيم) عام ١٩٤١ ففقدت برحيله الأخ والصديق والمعلم، وراحت تبكيه وترثيه بلوعة وأسى ... وتوفي أبوها في خضم حرب فلسطين عام ١٩٤٨ وحلست الكارثة القومية المتمثلة باغتصاب الصهاينة للأرض المقدسة، مما دفعها للمشاركة في خضم الحياة السياسية وإن لم يتعد ذلك الاهتمام العاطفي.

مثل الشعر عند «فدوى طوقان» محاولة لإنقاذ الشاعرة من حصارها، ونوعاً من التنفيس عن المكبوت في أعماقها، ورغبة في الاستفادة منه في كسر الصمت، وهو ما تجلّى في دواوينها الأولى: «وحدّي مع الأيام ١٩٥٢» «وجدتها ١٩٥٧» «أعطينا حباً ١٩٦٠» «أمام الباب المغلق ١٩٦٧»، وفي هذه المرحلة ظهر تمسك الشاعرة بالروح الرومانسي المألوف في تلك الفترة، متمثلاً بوصف العزلة والحيرة واللهفة وتحلّل الطبيعة مساحة القصيدة بمظاهرها وفصولها ومفرداتها، مع إشارات إلى حب بعيد لم تقصص الشاعرة عنه وإن عبرت ببوح عفيف وتلميحات صوفية، بصوت خافت وإيقاع مترع بالعدوبة والتدفق التلقائي.

ثم توالى أعمالها «الليل والفرسان ١٩٦٩»، «على قمة الدنيا وحيداً: ١٩٧٣» «تموز والشيء الآخر ١٩٨٩» و«الحن الأخير عام ٢٠٠٠».

كانت «فدوى طوقان» في أعمالها واحدة من شاعرات العرب القليلات اللاتي وصلت الشعر القديم بحركة الحدائث والتجديد، فخرجت من كلاسيكية القصيدة القديمة بسهولة ودون افتعال، وجعلت من خروجها إحدى أهم نقاط قوتها، محنقة في ذلك بالوزن الموسيقي القديم والإيقاع الداخلي الحديث، وصاغت من ذلك قصيدة غنائية ناسبت ولاعت نفسياتها الميالة للتفجع وقد اتصف شعرها بالمئانة اللغوية والسبك الجيد مع ميل شديد إلى السردية والمباشرة، وجعلتها جرأتها في مضامينها تتقدم على دروب المشهد الثقافي الشعري العربي، كما أن طزفها موضوع مكانة المرأة وعلاقتها بذاتها وبالآخرين، جعلتها تحلّ موقعاً متميزاً بين الشاعرات العربيات خاصة وأنها كسرت الصورة التقليدية لمشاعر المرأة الشرقية وإضافة إلى ذلك تميز شعر فدوى طوقان بطاقة عاطفية، وأجادت في هذا اللون الذي تختلط فيه الشكوى بالمرارة والتفجع وغياب الآخرين.

انتقلت الشاعرة إلى لندن عام ١٩٦٠ وعاشت فيها سنتين، تفتحت فيها أمامها آفاق معرفية وجمالية وإنسانية، وجعلها ذلك على تماس مع منجزات الحضارة الغربية وشكلت نكسة عام ١٩٦٧ دافعاً لها لكسر إيقاع حياتها الرهيب، فخرجت للخوض

في تفاصيل الحياة اليومية الصاخبة، وشاركت في الحياة العامة لأهل مدينتها "نابلس" وهي تحت الاحتلال وبدأت مساجلات شعرية مع المحتل وثقافته وعبرت في هذه المرحلة عن كرهها الشديد للاحتلال لأنه نقيض كل شيء: الطفولة والمحبة والسلام.

أصدرت الشاعرة عام ١٩٨٥ الجزء الأول من سيرتها الذاتية: رحلة صعبة.. رحلة جبليّة، وأتبعته بالجزء الثاني: الرحلة الأصعب عام ١٩٩٣، وقد ترجم العديد من أعمالها إلى أكثر من ست لغات، ونالت تقدير وتكريم مؤسسات ومجافل فكرية عربية وأجنبية.

هكذا يمثل رحيل الشاعرة «فدوى طوقان» خسارة كبيرة للشعر العربي، فقد كانت على امتداد نصف قرن شاعرة ذات صوت شفاف حافل بالترجيع الغنائي وإرادة المقاومة الصلبة، وكانت رحلتها الجبلية الشاقة معراجاً في سماء الإبداع، وبرهاناً على جدارة الصوت الأنثوي المتفرد بأن يتردد في آفاق الجمال، ويفتح أبواب الحرية ويجسد موسيقى لوجود، وإذا كان كبار الشعراء لا يموتون عادة فإن فسدى طوقان تركي بغيابها المادي حضوراً متجدداً نقياً في ضمير الأدب العربي.

لو أني أقدر .. لو بيدي

الكوكب الأرضي:

لو أني أقدر أن أقلب هذا الكوكب

أن أفرغه من كل شرور الأرض

أن أقتلع جذور البغض

لو أني أقدر، لو بيدي

أن أقصي قابيل الثعلب

أن أغسل بالماء الصافي

إخوة يوسف

وأطهر أعماق الإخوة

من دنس الشر

oooooooooooo

لو بيدي

أن أمسح عن هذا الكوكب

بصمات الفقر

لو أني أقدر لو بيدي

أن أجتث شرور الظلم

وأجفف في هذا الكوكب

أنهار الدم

oooooooooooo

لو أني أملك لو بيدي

أن أرفع للإنسان المتعب

في درب الحيرة والأحزان

تبراس رخاء واطمئنان
أن أمنحه العيش الآمن
لو أنني أقدر لو بيدي
لكني ما بيدي شيء
إلا لكن

لو أنني املك أن أماده هذا الكوكب
ببذور الحب
فتعرش في كل الدنيا
أشجار الحب

ويصير الحب هو الدنيا
ويصير الحب هو الرؤيا
ويصير الحب هو الدرب

oooooooooooo

لو بيدي أن أحمله هذا الكوكب
من شر خيار صعب
لو بيدي

أن أرفع عن هذا الكوكب
كابوس الحرب
oooooooooooo

رجاء لا تمت
يا اخا الروح رجاء لا تمت
أو فخذ روحي معك
ليتني أحمل قلبك ما
يوجع قلبك

لو ترى كم رفع القلب إلى الله
صلاة القلب كي يشفى بروح منه جرحك
يا أخا الروح رجاء لا تمت
نقطة الضوء بعمرى أنت

نبراسي المضيء
ابق لي أرجوك
إيق الضوء والنكهة والمعنى
وأحلى صفحة في سفر شعري
تؤجت آخر عمري

oooooooo

بعيداً جداً
(ما زلت أحاور ما لم يوجد
كي أعطيه وجود
وأحاصر كل مساهات
الأمل المنشود

أحبسها في سجن قصيد

يقرع باب الصمت فيغرق هذا العالم في الموسيقى

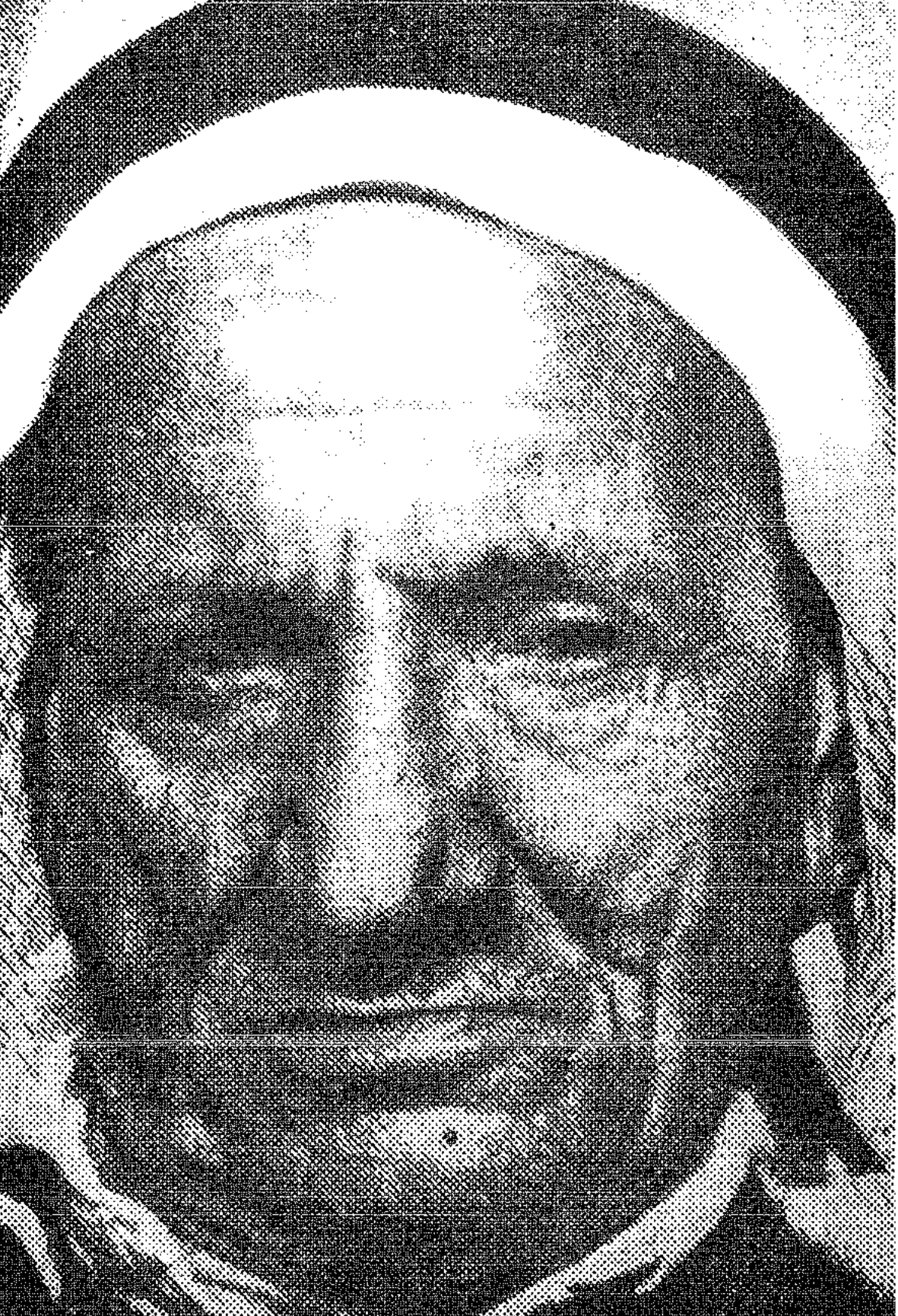
وأغنى أصفى أشعار الحب المتوهمج
للوطن الصعب المفقود
لكن يبقى الأمل المنشود
بعيداً جداً

يستوطن أرض اللاموجود)

oooooooo

صورة ذاتية

(وراءك شوط طويل المدى
سفحت عليه سنين العمر
وكم فلسفتك حياة تمر
على جانبيها بحلو ومر
زوت عنك وجه بشاشتها
وأولئك وجهاً لها مكفهر
خبرت تناقض حالاتها
ولم تدركي كنهها المستتر
وقد حان أن تستريحي وتلقي
عن المنكين غبار السفر
فحسبك أنك لم تيزمي
ولا حطمتك سهام القدر!)



قصيدة بخط الشاعر

بيني والحجاج

يقولون بتي سوف يفند حجة .. اذا ما طوى شغبي القضاء المحم
 ينج له عشاى شعري مواكباً .. يقبله هذا .. وذاك يسلم ..
 وذاك بكفيه بحس تبركاً .. حذار له والبعض ساء .. يعظم
 وذاك يشتم الأرض منه ثمتاً .. وهذا على ايامه .. يترحم
 فقلت وهل لي ابي بنت يغنى .. وعمرى طواف مزمين وبرم
 فبيني معاه حجة وضادق .. أقيم لها حيناً فاستقي وأهزم
 وبيني زوايا لا تعدد مسكنها .. وروض وصحراء لما كنت انعم
 وكرسي مغنى كنت اجلس فوقه .. وشالحي بحر فيه اهناء واحلم
 وبيني خرابات بشري عمرها .. اجي لها ابني الهدوء وانظم
 سائب عشاى طوافاً ورحلة .. فبجد ذا محضاً وذلك يتم
 ارى حظ عشاى كحظي تشرداً .. فاقم بني كما انا منهم
 احمد الصاي الحني

١٩٦٥/٥/٢٩

أحمد الصافي النجفي:

أنا أجلو مرآة روعي بشعري

ينتسب (أحمد الصافي النجفي) إلى أسرة حجازية، قدمت إلى البصرة، ثم استقرت في النجف الأشرف. وكانت هذه المدينة المقدسة ولا تزال، محور حركة علمية شاملة، حمل لواءها كثير من العلماء والأدباء والمفكرين، الذين اهتموا بدراسة مختلف العلوم الإسلامية، من فقه وتفسير وحديث ومنطق وفلسفة وتاريخ ونحو ولغة وأدب وغيرها...

ولادته ودراسته

ولد الصافي عام ١٨٩٧ في مدينة (النجف) بالعراق، ونشأ في هذا الجو الحافل بروائع العلم والأدب والدين، ينتقل بين مندياتها الأدبية ويخترق من معين علمائها وأدبائها، حتى ظن البعض أنه سيخلف جده لأمه الشيخ (محمد حسين الكاظمي). حفظ القرآن الكريم وهو لم يزل دون العاشرة، مما يدل على تفتح ذهنه ونبوغه المبكر، سأت والده وهو في العاشرة من عمره، فغادر المدرسة وراح يتقشف نفسه بنفسه، فدرس المنطق والنحو، والصرف والمعاني والبيان، إلى جانب العلوم الدينية والصوفية والفلسفية القديمة، ثم توفيت أمه وهو في السابعة عشرة، ف شعر منذ ذلك الحين باليتم والبؤس والحرمان، وتلا ذلك كله إصابته بمرض عصبي شديد، فأشار عليه الأطباء أن يمتنع عن الدراسة، ويكتفي بالمطالعة الحرة، فعكف على قراءة الأدب القديم والحديث، وأقبل على الصحف والمجلات التي رأى فيها عالماً جديداً ملوناً.

كان الاستعمار الإنكليزي يخيم على العراق، ويلقي عليه ظله الثقيل، لذلك أخذ المناضلون يجمعون الصفوف، ويقررون سراً ما يجب عمله لطرد المستعمر

ويجتمعون في منزل آل الصافي بزعم الأحرار العراقيين (الشيخ عبد الكريم الجزائري) فكان الشاب يصغي إلى مناقشاتهم، ويشارك في بعض المهمات التي توكل إليه، بكل حماسة واندفاع وأخذ يتصل بمراكز الثورة المنتشرة في كل بقعة من بقاع العراق لتوحيد الكلمة وتنسيق العمل، وبعد أن عقدوا الاجتماع التاريخي الكبير في الجامع الهندي بالنجف، أطلقوا شرارة الثورة عام ١٩١٩ فاصدر الحاكم العسكري في بغداد أوامره لحاكم النجف بالقبض على المحرضين والمنظمين، واعتقال الثوار، ومنهم (الصافي) ففر تحت جناح الليل باتجاه إيران.

اتجه إلى طهران، لكنه لم يكد يصلها، حتى قرأ في الصحف نبأ اعتقال أخيه الأكبر (محمد رضا الصافي) وزجه في السجن، وقد أشار إلى هذا الحادث فيما بعد يقول:

(سجنت وقبلني في العلا سجنوا أخي وآمل في العلواء أن يسجنوا الابنأ
إذا لم نورث تاج مجد وسودد لأبنائنا طرا نورثهم سجنأ)

لم يشأ الفتى أن يضيع وقته بل سارع إلى تعلم اللغة الفارسية، ثم أخذ يدرس اللغة العربية في ثلاث مدارس ثانوية .. ولما حثق اللغة الجديدة، انتخب عضواً في النادي الأدبي الفارسي، وعضو في دار الترجمة والنشر، وقد مكث في إيران ثماني سنوات (١٩٢٠ - ١٩٢٧) ترجم خلالها رباعيات الخيام ترجمة دقيقة، كما نقل إلى

الفارسية كتب (علم النفس) لعلي الجارم وأحمد أمين ليدرس في دار المعلمين.
بعد أن استقل العراق، ألح عليه الأهل والرفاق أن يعود إلى بلده، فقصده عام ١٩٢٧ ولم تكد قدماء تظان أرض وطنه حتى انهمرت دموع الفرح من عينيه، فركع يقبل ترابه بلهفة وشوق، واقترح الآخرون الاستفادة من مواهبه الشعرية، لكن حر العراق الشديد أثر على صحته، فنصحه الأطباء بمغادرة السيلاد إلى سورية ولبنان، ليستمتع بمناخها اللطيف، ومناظرها الطبيعية الخلابة.
في سورية ولبنان:

وصل (الصافي) إلى دمشق عام ١٩٣٠، فطابت له الإقامة فيها، وصار
يعتبرها وطنه الثاني لا يستطيع الابتعاد عنها إلا إلى بيروت، ويعجب لمن يسكنها،
كيف يمكن أن يغادر ويستغني عنها، فمن يسكنها يشعر بأنه في جنة الخلد، ومن
يغادرها يحس كأنه في نار جهنم، والغريب فيها ينسى أهله ووطنه لما يلاقي من
الترحيب وحسن الضيافة والكرم:

(لا يرتضي الطرف شغلا عن محاسنها	حتى تعادي فيها المقلبة الوسنا
أيقنت أنني من أهل الجنان، ففي	دمشق أسكن جنات تفيض هنا
عجبت ممن أتاهها كيف يبرحها	فهل يرى في سواها عن دمشق غنى
ما جنة الخلد إلا للذي سكنها	بها، وما النار إلا للذي ظعنا
يسكاد ينسى غريب الدار موطنه	في ربوعها، ويعاف الأهل والسكنا)

لم يكتف الصافي بحب دمشق وحسب، بل أحب سورية كلها حبا ملك عليه
فؤاده، وما ذلك إلا لجمالها الفتان الذي جر عليها المصائب:

(يا سورية ما أنت غير خريصة	قد كثرت العشاق فيك جمال
هذا الجمال عليك جر مصائب	إن الجمال على ذويه ويسال
قد كان يعطيك المحب قواده	لو عز منك على المحب وصال)

كما يرتاد في دمشق مقهى الكمال، أو مقهى الهافانا، فيتربع فوق كرسيه، ويلتم
على نفسه بجسمه الضئيل النحيل، ويفيض بالكلام، فإذا حان وقت الانصراف،
أوى إلى غرفة خالية مهجورة ملحقة بأحد الجوامع قرب سوق (الحميدية) تسلكه
فيها القوارض، ويعاني بردها شتاء وحرها صيفاً ويعمي ترابها عينيه، كأنها قبر له
وأي قبر:

يُكَاد من ضلعه يموت	(أكابيد البارد في سراج
أو قسل ملؤها يبيوت	في غرفة ملؤها ثقبوب
فلأر وبسق وعنكبوت	يسكن فيها بلا كراء
والبق جسمي لديه قوت	للأر في مأكلي غذاء
وقسي بقاءه معي رضيت	واعتزل العنكبوت أمري
قد كنت من لذعه قد خشيت	كم صاد في الصيف من بعوض
به من الشمس قد وقيت	ينسج فوق الثقبوب بيتا

هذا التصوير الدقيق البارع لغرفته يدل على روحه المرحّة، ولطف مزاجه، وحبّه للنكتة، ويذكرنا بشاعر وصاف قبله، هو ابن الرومي.

وكان يتردد في بيروت على مقهى (الحاج داود) حيناً، أو على مقهى (مجمع البحرين) حيناً آخر، يلزمهما طول النهار، وكثيراً ما يتناول طعامه البسيط فيهما، يطلبه من أقرب مطعم، مكتفياً برغيف من الخبز وصحن من الفول أو الحمص، وفي المساء يأوي إلى غرفة متواضعة قرب مستشفى (أوتيل ديو) قد تكون أقرب من الغرفة التي كان يسكنها في دمشق.

في السجن:

نشبت أثناء وجوده في بيروت ثورة (رشيد عالي الكيلاني) الوطنية على الإنجليز، فراح يقود المظاهرات الطلابية، ويلهب المشاعر بقصائده الحماسية، فسعى هؤلاء إلى السلطات الفرنسية الحاكمة في لبنان لاعتقاله وإيداعه السجن عام ١٩٤١، بتهمة ترويج الأفكار النازية، فظل رهن الاعتقال ثلاثة وأربعين يوماً، خرج في نهايتها بديوان أسماء (حصاد السجن)، وأهداه (إلى كل مسجين ومرشح للسجن في سبيل الحرية والواجب). لقد قابل السجن بروح الفكاهة والسخرية، وراح يصفه وصفاً تهكمياً قائلاً:

سجنوني في غرفة قد تعرت فكأنني سجننت وسط القفار
جساعلا من ترابها لي فراشا وغطاء يلفنسي من غبار

ويشير إلى وضعه الدائم في السجن، وفي حين يأتي سواه ويذهب، حتى لكانه صاحب فندق يستقبل النزلاء صباحاً، ويودعهم مساءً أما هو فياق في فندقه أبداً:

سجنت وطل بي سجنى وكم من سجين جاعني يوما وولى
كأنى رب نزل صرت ألقى من السجناء أصحابا وأهلا
أودع في الضحى أهلا كراما وأدعو في المسا أهلا وسهلا

بعد أن نشبت الحرب الأهلية في لبنان، أصيبت غرفته القريبة من خط المواجهة برصاص المقاتلين، وكان ذلك إنذارا له بالرحيل، لكنه بقي مع ذلك مقيماً فيها، إلى أن خرج ذات يوم ليشتري طعاماً، بعد صيام دام ثلاثة أيام، لم يذق خلالها شيئاً، فأصيب ونقل إلى مستشفى المقاصد في حالة من الإغماء وما أن صا من سياته حتى راح يروي للمحقق قصته قائلاً:

(كنت أسمع صوت الرصاص، فقلت في البداية: إنهم يضربون الأعداء ... مضت الأيام الخمسة الأولى لبداية الأحداث، سألني جاري: أين كنت تمام ؟ قلت في الصالون ... قال: أما كنت تعلم ماذا أصاب بيك، وأراني خمسة ثقوب الرصاص الذي اخترق الجدار ... وحين خف إطلاق النار، غادرت المنزل مفتشاً عن رغيـف خبز أسد به جوعي، لقد مضت علي ثلاثة أيام بدون أكل ... وعلى بعد خطوات من غرفتي أحسست ببعض السخونة في جسمي، فاعتقدت أن الحمى عاودتني، وسرعان ما وقعت على الأرض، فحملني جاري إلى منزله وهو يقول: أستاذ أنت مصاب برصاص .. ألا تحس ؟ وأغمى علي، ثم صحت فإذا بي في هذه المستشفى) ثم أنشد قائلاً:

(بين الرصاص نفدت ضمن معارك فبغرم أنف الموت ها أنا سالم

ولها ثقبوب في جداري خمسة قد أخطأت جسمي وهنّ علائم).

حدث هذا في كانون الثاني عام ١٩٧٦، وفي التاسع عشر من شباط عباد
الصابي النجفي إلى العراق الذي غادره شاباً، بعد غربة دامت سنة وأربعين عاماً،
شيخاً منهتماً فقد بصره، نسمعه يقول:

يا عودة للدار ما أقساها أسمع بغداد ولا أراها

وفي السابع والعشرين من حزيران عام ١٩٧٧ قضى نحيه في بغداد عن
ثمانين عاماً، فنقل جثمانه إلى مسقط رأسه في النجف، حيث دفن إلى جانب أفراد
أسرته، واجتمع بهم بعد غربة استمرت نصف قرن تقريباً وصح به قول الشاعر:
وقد يجمع الله الشيتتين بعدما يظن أن كل الظن أن لا تلاقيا

لقد اتخذ الصافي من سورية ولبنان وطناً ثانياً له، وكان يرى أن كل أرض
عربية هي وطنه، لا فرق في ذلك بين قطر وآخر:
أني امرف عربي والعلا نسبي في أي أرض أرى عربا أرى وطننا

لكنه ظل مع ذلك يحن إلى وطنه الأول، ولم يقطع صلته به، بالرغم من
سنوات الهجرة الطويلة حتى صار إذا عاد إلى العراق، عاد كالغريب:

لقد تغرببت حتى	نسيت كل قريب
فإن رجعت لأهلي	رجعت مثل الغريب
سكنت كل الدروب	فغربة الدار داري
أفنت كل الكروب	والأهل صحب الدروب

■ سنل مرة لم تحاول زيارة وطنك بعد أن خرجت منه سنة ١٩٣٠ ؟
فأجاب إن الأمراض التي أبت مفارقتي قد حالت دون زيارتي لوطني، ثم أردف
يقول:

(فكم لي بالعراق عهود حب	وعهد صفا وعهد من صفاء
إذا ما عاقتني عنه سقامي	أطير له بأجنحة الغناء
واحسبني هنالك بين أهلي	فأنسى كل ما يبدو ازائي
وأصحو إذ أنساد بهم ملحاً	فلا ألقى مجيباً للنداء)

وإذا حن للعراق فحنينه إلى عهود طفولته، وأيام صباه، وإلى ذكرياته الحميمية
مع أصحابه الذين أمضى معهم زهرة الشباب، وأنضر سنوات العمر:

(بقلبي قد أطلت ذكريات	تفتش فيه عن ماضي شبابي
بقايا من حبيب أو محب	وأشباح لأيام التصابي)

وإذا ما رأى أشجار النخيل في مدينة صيدا اللبنانية، تذكر النخيل في ريف
العراق، فهاجت شجونه، واضطربت في نفسه لواعج الشوق، ونوازع الحنين إلى
مربع طفولته، ومسارح شبابه وهتف قانلاً:

(يا نخل صيدا قد هيجت أشجاناً	ذكرت من وطني أهلاً وجيراناً
ما لاح ظلعك لي إلا وذكرني	ربيع ريفي بطلع النخل مزديناً
كم ذكرتني بساتين النخيل هنا	من نخل ريفي جنات وبستاناً
وكم دعنتني وأغرنتني لأدخلها	حتى ألقى بها أهلاً وطلاً
يا نخل صيدا قد أشعلت نيراناً	بقلب نساء بعيد الدار ولهاناً)

كم تمنى الصافي أن يعود إلى وطنه، ليستعيد ذكريات الماضي البعيد التي

مرت كطيف عابر، أو حلم نائم، ولتكتحل عينيه برؤية رفاق الأمس، ولكن ما كل ما يتمناه المرء يدركه. فما عليه إلا إذن إلا أن يرحم ذكرياته، لعلها تبقى نيرة الروى رياء لعينه:

ألا يا ذكريات صباي هل من	رجوع لي إلى تلك الحياة
تسذرت الصبا فجلست أرتو	لتلك الذكريات محطّات
ورجت أروم أن أبني قصوراً	بالوان التهاني عساكرات
إذا بسوا عدي وهنت وكنت	وقد زال الهناء سوى رفات
فعدت إلى قصور الذكريات	وإن هسي أصبحت متهدمات
وقد أصبحت ما لي اليوم شغل	سوى ترميم تلك الذكريات

المرأة في حياته:

قضى الصافي عمره وحيدا بلا زوجة تبدد وحشته، وتنسيه آلام غربته، وتغنيه عن حياة المقاهي، وتضع حداً لتشرده، وكثيراً ما شكّا من وطأة الوحدة، وتجهّم الغربة المضنية بقوله:

سئمت من وحسدي غريباً ألا صديق... ألا عـدو ؟

سئل مرة: لماذا أضربت عن الزواج فأجاب: (إن الزواج مسؤولية خطيرة، وتضحية كبيرة، فمن مداراة لمزاج الزوجة وتلبية طلباتها الملحة، إلى صرف جهود مضنية في تربية الأطفال وإعدادهم إعداداً علمياً صحيحاً.. وأنا رجل مريض، قد انصرفت إلى المطالعة والتأليف، ووجدت سعادتي المنشودة فيها، وبمرور الأيام أصبح الكتاب زوجتي المفضلة، ودواويني الشعرية التي الفتها أبنائي النجباء ... والآن وبعد مضي الأعوام الطويلة على اختمار فكرة الزواج في عقلي، فإنني غير متأسف على تحقيقها ... وأقول بمنتهى الثقة بأنني إنسان محظوظ، ما دمت أعيش عزباً، إذ لم يحطم أعصابي شجار الزوجة، ولا صراخ الأطفال ... وأنا رجل في

منتهى الحساسية والتأثير).

لكنه يبدو أنه ندم على تركه الزواج ولا سيما حين كان يستبد به الألم والمرض، فينادي ولا من مجيب، ويتحسر ولكن ما نفع الحسرة وقد أدرك الستين من عمره؟!

(أستقبل الستين مستوحشاً	لا أهل، لا مال، لا ولد
لا مسكن آوي له ثابت	لا مسكن لا هند لا عد
أحفاد أصحابي لهم ولد	وها أنا من عمري جد
متشرد ليس له غاية	ففي مهمه ليس له حد

وهو ضائع مشرد لا يعرف متى مبيته، ولا يعلم متى يروح أو يغدو:
(لم ادر أيا ن مبيتي ولا اعلم أيا ن غداً أغدو!)

لم يصد الصافي عن المرأة نفوراً منها، أو كرهاً لها كالمعري مثلاً، بل كان قلبه عامراً بالحب الحقيقي، وليس ممن ينكمشون على أنفسهم، أو يعزفون عن الحياة، كانت طبيعته منفتحة، تبحث عن الحب وتدفعه إلى التغني بمفاتيح المرأة ووصف تجربته الحسية معها كما في قوله:

(كتبت عيونك في فسوادي أسطر	لم يحبها بعد ولا تعذيب
مازال للقبيلات طعم في فمي	فيها أهيم وانتشي وأغيب
يا سكرة القبيلات عيشي فمي	فلقد وفيت وما وفي المحبوب

ويرد على من ينصحونه بفكرة الزواج، وقد عجز وشبع من الوحدة، وأن له أن يحط الرجال في ميناء بعد التردد الطويل، بأن الزواج يحول بينه وبين الشعر، ويبعده عن عالم الوحي المبدع الخلاق، وهي خسارة كبيرة للشعر:

(وقالوا تزوج قد كفاك توحد
وكيف زواجي هل أطلق عالمي
ومن بعض دنياي الذي تقسرون لي
عجزت، ففز بعد التشرّد بالمساوى
وفي عالمي دنيا أهم من الدنيا
من الشعر، دنيا الحس والفكرة العليا)

وما دام قد شقي في حياته، فلماذا يريد أن يشقي معه غيره، ولولا إشفاقه على
المرأة التي سيتزوجها من أن يعديها تشرده وبؤسه لأقبل عليها بكل طيبة خاطر،
فشقاؤه لا بد أن يسري إليها كالوباء أو كالسل:

(أبغني شريك حياة
لكن أحاذر من أن
هناك يسرقني ضميري
يسري لخلي شقائي
أنال فيه هنائي
يعدي به داع شقائي
حتى يزيد بلائي
كالسل أو كالوباء)

شاعر البؤس:

يدور جانب كبير من شعر الصافي حول البؤس الذي كان رفيقاً له يلزمه
كظله، ويرافقه في حله ونزحاله، كأنهما توأمان ولداً معاً، ويبدو أن الشاعر وجد لذة
في التغمي بالبؤس والألم والحرمان يستمد منها الشعر، فيأتي متشجاً بالحزن، ملفعاً
بالمرارة والشكوى:

(ووحيدتي تركتني دون حل
وخطوب الحياة لم تبقي مني
غير بؤس على ولائي داما
غير عزم يكافح الأيام)

وقد أشار إلى قدم الحزن الذي لازمه في رحلة حياته الطويلة، وعاش مع فنه،
أما السرور فلم يمر به إلا كطيف عابر، استضافه ليلة ثم اختفى به إلى الأبد:
(إنما الحزن لي صديق قديم
عاش في مهجتي وعاشر فني)

ونقد مر بي السرور كطيف ضافني ليلة وسافر عني)

بحث عن السعادة طويلا حتى أعياء البحث، فلم ير غير الألم وسعى وراء
سرابها الخادع، فمني بالفشل، وضاعت جهوده التي لم تزده إلا شقاء على شقاء في
حين حالف الحظ السعيد كل بليد وتافه:

(سعيت لتحصيل السعادة جاهدا فزاد شقائي من ضياع جهودي
فطورا حسبت العلم يحبو سعادة إذا السعد يمشي نحو كل بليد)

وفي قصيدته (ما اسم هذا اليوم ؟) تعبير واضح عن الألم والمرارة والضياع،
فهو لا يفرق بين يوم وآخر، ما دامت الأيام جميعها متساوية في حمل التعاسة
والهم:

قد تساوت لدي أيام عمري فلماذا تخالف الأسسما
كل يوم لديّ ميسدوه هم وجهد ومنتهساه استتياء
ولماذا أعدكم مريوم... بي، وما لي في أي يوم رجاء
ليس فرق ما بين يومي و ليلي ليس إلا صباحه والمساء

انه كسيزيف الذي لا يفتأ يحمل صخرته، وكلما وصل بها إلى القمة، عادت
فتدحرجت. بينى القصور من أحلامه الوردية، ولكنها سرعان ما تنهد وتنهار:

(أقضي الليالي وحيدا مسمامراً أرزاتي
أبني قصورا ولكن ينهصد - حالا - بنائي)

وهو لا يرجو خيراً من مستقبله، فالماضي عنده دليل على المستقبل ما دام الهم
يطعنه خلصة، ولا مخرج ليستطيع القرار:

(مستقبل داج وماض محزن	والحال بالسسم الزعاف امتزجا
يطعنني الهم ولا أبصره	لكي أنود أو أرى لي مخرجا
يجرحني حسام همي عجبا	أن لا تراني بالسدا مضرجا
لو كان همي عاقلاً أقتعه	لكنني قابلت همًا أهوجا)

إن دواوين الشاعر عامة تخص بالقصائد التي تتضح بالشكوى والألم. والهم والحزن، واللوعة، والتعاسة والشقاء، لأنسه كان إنسانا مفرط الشعور، دائم الأمراض، سيء الحظ، منكود الطالع والشعر - كما تعرف - مرآة الشعور.

النكتة عند الصافي:

كان الصافي صاحب ظرف ونكتة، يسوقها ولو كانت عليه بالذات، وغالبا ما يأتي بها مرة أليمة يشفي به غليله، ويفرغ شحنات الغيظ المكبوت، والسخط الدفين في صدره أو يعبر بها عن تبرمه بمفارقات الحياة والمجتمع. كان الجاحظ لا يتورع أن يسخر من قبحه ودمامة وجهه إذا اقتضى الأمر كقوله:

(وجهي دمـيـم وقابـيـي	عـنـدـو كـل دمـيـم
لو كان وجهي بكفـيـي	ألقيتـه فسي الجـحـيـم)

ويعجب من تناقضات الحياة فإله يهب الفقراء أطفالاً بالجملة، في حين أنهم عاجزون عن عيالة أنفسهم، بينما يبخل بهم على الأغنياء القادرين، ولو كان الأمر بيده لأخصى كل فقير، حتى لا ينجب أبداً:

(كم غني لم يعطه الله نسلاً وفقير يبلى بنسل كثير)

قلو أن الأمور كانت بكفي كنت أخصي بالكون كل فقير
ويتندر على رجل ثرثار ابتلي بطول اللسان، ويدعي فوق ذلك أن كلامه عذب

مستساغ، فإذا تحدث أغرق سامعيه بفيض من الكلام الفارغ، لذلك يتمنى لو كان كالحاكي (الفرونوغراف) يغني إذا شاء السامع الغناء، ويسكنه إذا شاء:

(كلامك كالغناء يلدّ لكن إذا ما طال يحصل منه ضد
فليتك كنت كالحاكي يغني إذا شئنا، وإن شئنا يسدّ

وهناك نكتة سياسية قالها وهو في السجن، يسخر فيها من الإنكليز الذين كانوا السبب في سجنه، ويشير فيها إلى جشعهم:

(مات من التخمّة جار لنا وساقه الحرص إلى حتفه
مثّل في البطنة انكلترا إذا مات والحمّة في كفه)

الصافي ورباعيات الخيام:

حينما أطلع الصافي على (رباعيات الخيام) التي ترجمها بديع البستاني عن الإنكليزية، أخذ بها وقال في نفسه (إذا كان هذا أثر التعريب، فما هو أثر الأصل يا ترى ؟) ومنذ ذلك الحين أخذ يسعى للوصول إلى نص الرباعيات الأصلي، لكنه وجد أن ذلك مستحيل، إلا إذا أتقن اللغة الفارسية، ولما أقام في طهران ثمانية أعوام، عكف فيها على دراستها، حتى برع فيها فاستطاع أن ينفذ من خلالها إلى روائع الأدب الفارسي ومعانيه الدقيقة، لكنه توقف بنوع خاص عند عمر الخيام الذي شغف به دون سائر شعراء الفرس، غاية أنه يغوص على تلك اللاكئ المكنونة التي تمثل آراءه الفلسفية. ونكاته الأدبية البديعة، إذ استطاع أن يكشف عن نفسه وفلسفته في الحياة والموت، وتردده بين الوجود والعدم، والإيمان والكفر، والعصيان والتوبة، واقتناص ملذات الحياة قبل فوات الأوان، ويزيح النقاب عن الكثير من آرائه المبهمة الغامضة التي فهمها غيره من المترجمين على عكس حقيقتها.

انطلق في تعريب الرباعيات، وهو يدرك أن ترجمة الشعر مماثل مع الاحتفاظ بالمعنى الأصلي أمر شاق فيه من الصعوبة ما فيه، لكن الرغبة التي كانت وراء

هذا العمل، ذلت كل الصعوبات، فأنجزها في ثلاث سنوات، وبلغ مجموع الرباعيات التي ترجمها ثلاثمائة وإحدى وخمسين رباعية، وكان همه الوحيد أثناء التعريب، منصرفاً إلى أمرين اثنين: الأول الأمانة في النقل والاحتفاظ بالمعنى الأصلي، حتى ظهر أكثر الرباعيات كأنه مترجم كلمة بكلمة، والثاني: جعل التعريب قريباً من الذوق العربي، حتى كان يضع الرباعية في عشرين صيغة، ثم يختار الصيغة التي يحس إنها جاءت تؤدي المعنى، وتتسجم مع الذوق، وكثيراً ما ضحى بالخيال الشعري في سبيل تحقيق هذه المهمة، ولم يكن يتصرف إلا عندما يعجز عن كل الوسائل للاحتفاظ بالمعنى الأصلي. وقد أثبت النص الفارسي ومقابله الترجمة العربية، ليقابل بينهما كل من يجيد اللغتين معا.

يعترف الصافي في مقدمة الرباعيات بأن هناك رباعيات جميلة، لم يستطع مع بذل الجهد، أن يبرز معانيها كاملة، لذلك أهملها معترفاً بعجزه وقصوره. وحينما أنهى التعريب عرضه على بعض أدباء إيران ممن يتقنون العربية، فقابلوه بالأصل، واعترفوا له بالدقة والإحاطة، حتى قال الشاعر (محمد حسين بهار) إن التعريب يفوق من حيث البلاغة والأسلوب الأصل الفارسي كقوله:

(لم يحظ بالدهر في ورد الخدود فتى إلا وكابد من أشواكه العطبا
انظر إلى المشط لم يبلغ أنامله أصدagh أغيد ما لم ينشعب شعبا)

لم يلتزم الصافي بجزء واحد في الترجمة، مع أن الرباعيات الفارسية نظمت على بحر واحد هو الدوبييت)، ورأيه في ذلك أن الأذن تمل سماع نغمة واحدة تتكرر في وزن واحد، وتميل إلى التنويع، ما دام الوزن هو موسيقى الشعر. وقد لاحظ أن الخيام اعتمد في بعض معانيه على المعري في اللزوميات ومسقط الزند، بحسب القوافي، مبتدئاً بحرف الهمزة، ومنتهياً بحرف الياء لتسهيل مراجعتها. صدرت الرباعيات في طبعتها الأولى بدمشق عام ١٩٣١، أي بعد سنة واحدة من إقامته فيها، وقدم لها المرحوم (أديب النقي).

شاعرية الصافي:

وهب الصافي حياته كلها للشعر، لا تصرفه عنه مطالب زوجة، أو متاعب أسرة، ولا تلهيه أعباء الحياة وهمومها، اللهم إلا المرض الذي كان رفيقه السدائم وكذلك الطبيب والصيدلية:

(صرت من بعد أصدقائي الكثيرين صديق الطبيب والصيدلية
أصبح اليوم من دوائي غذائي بعد ضعف القوى وفقد الشهية)

لقد أوتي (الصافي) قريحة فياضة ينظم ببسر وسهولة دونما تكلف أو مشقة، فطبع عشرة دواوين هي الأمواج، أشعة ملونة، الأغوار، التيار، ألحان اللهب، هواجس، التفحات، الشرر، حصاد السجن، رباعيات الخيام. وكتاباً ثرياً واحداً بعنوان (هزل وجد) وترك ستة دواوين مخطوطة، وقصائد كثيرة متفرقة في الصحف والمجلات، ولا سيما مجلة (العرفان) التي كانت تنشر له في كل عدد قصيدة أو أكثر تحت عنوان (النبع الصافي من شعر الصافي)، لكن هذه الكثرة كانت على حساب التأنى في النظم، فقد كان يرسل شعره غفلاً من التنقيح والتهذيب، فكثرت أخطاؤه، وازداد سقطه، حتى قال فيه الناقد مارون عبود: (الصافي شاعر لو أنه تأنى كالشعراء، وهذب شعره كما هذبوا) رغم أنه كان ينصح غيره بضرورة التنقيح والتهذيب في قوله: (على الشاعر الحر أن يكمل أنينه ويفرغ حنينه، ويكمل شكاه، ويتم رسالته، حتى إذا فرغ ما في نفسه، انقطع عن النشيد كما انقطع السيل عند انتهائه، وهذا كما يهدأ اليركان عندما تنفد حممه، أو ينطفئ أواره، أما الصنعة والأسلوب وانتقاء الألفاظ، فتلك أمور يجب على الشاعر أن يفكر فيها بعد انتهائه من شرح هواجسه، وبث وساوسه، وإفراغ رغباته وتكميل شكايه، وحينئذ يعمد إلى إصلاح كلمة أو تحسين أسلوب أو إبدال لفظة بأحسن منها، وأوقع في السمع، بشرط ألا ييخل ذلك الإبدال والإصلاح اللفظي ببنيان تلك الهواجس الطبيعية التي جاءت مرسله متدفقة أثناء النظم).

لكنه لم يلتزم ذلك في شعره الذي كان يرسله غفو الخاطر، لئلا يشوه الخاطرة
البكر في رأييه، شأنه في ذلك شأن أبي تمام الذي نصّح البحتري وأرسله إلى
الطريقة المثلّ في النظم، دون أن يأخذ هو بها، شعره مهلهل ولكنه صادق، يحتاج
إلى الديباجة المشرقة المتينة التي كانت لزميله الرصافي، وقد اعترف بأن تدفق
الشعر على لسانه، هو الذي كان يمنعه من العمل بالوشي والعمل الفني:

(قيل لي فيم لست تعني بوشي أو بتنسيق فائض الأشعار
قلت شأني إرسال شعري سبيلا ما على التنسيق للأهـار)

حجته في ترك التهذيب والابتعاد عن التنقيح أنه يريد أن يكون شعره مرآة
لروحه، فإن كان قبيحاً فهل يستطيع تغيير روحه ؟ ولعل قصيدته (تهذيب الشعر)
خير جواب على منتقدي شعره العفوي البسيط، الذي يفنّفه كما تقذف البراكين
حممها، وتدفع البحار أمواجها:

(قال خلّي هذب قريضك حتّى	لا نرى فيه غير بيت مليح
قلت شعري مرآة روعي، فإن كان	قبيحاً فهل أغرّ روعي؟
وإذا ما رأيت بيتاً سقيماً	ثم أبدلتـه ببيت صحيح
صار يحكي مرآة وجه دمـيم	خط فيها رسم لوجه صبيح
أنا أجلسو مرآة روعي بشعري	حين آتي عليه بالتنقيح
يـري للعيان مكنون نفسي	ويؤديه بالبيان (الصريح)

وفي شعر الرصافي ضعف في التعبير، وتشوش في التركيب، والتواء ظاهر في
أساليب النظم، لا مجال للاستشهاد عليها جميعاً في هذه الدراسة، يحسه كل من قرأ
شعره قراءة مستأنية، وتعوزه التعابير الجديدة، والأنماط الحديثة، والقوالب الطريفة،
وعبارته بالإجمال، مألوقة سببها تقليده للشعراء المتقدمين، وسيره على طرائقهم في

المعاني والصور المجترة المكررة، وأغراضه تقليدية، شعره وثيق الصلة بحياته، حتى ليكاد يكون تصويراً دقيقاً لها في مبالها كقصائد (البرغوث العاشق) (والأكابر والبعوض) (والشاعر والفار) (والشاعر والقط) (وغرفة شاعر) (وواد بنسائي) (والليل والهم)...

كان شديد الميل إلى الوصف والتصوير، لكن صورته أشباه صور لا تستوقف القارئ، لأنه لم يعن بإبراز خطوطها، ولم يحسن تلوينها ولو فعل لأتى بكسل رائع وجميل في (الصافي) حسن لكن في شعره لا في شعره. يكفي بوصف الأشياء دون تشخيصها، فتبقى كما هي، ولا يكثرث بالأفاظه وقوافيه، لذلك جاءت نافرة شاخصة، لأن اهتمامه كان ينصب على الأفكار وحدها دون الألفاظ والقوافي التي تحجب المعاني في رأيه، وتخفي حسناتها وبهائها:

(أهوى المعاني من ثياب اللفظ تظهر عارية
فالشعر تحجب نوره الألفاظه والقافية)

لكنه في مكان آخر يرجح الألفاظ، ويعطيها من الأهمية ما لا يعطيه للأفكار فيجعل الأفكار لباباً. والألفاظ قشوراً تحميها، وإذا لم تغلف القشور الأبواب فنيت سريعاً كقوله:

(اللفظ قشر وفيه لب المعاني يقرر
كلامها مستحق أن يعتني فيه فكرر
فاللب يفنى سريعاً إن لم يحط فيه قشر)

ويرى أن الألفاظ هي قبور للمشاعر تدفنها في أعماقها:
(أهوى الشعور من الكلام مجرداً إن الشعور قبوره الألفاظ)

وخلاصة القول إن (الصافي النجفي) عاش عمره شريفاً نزيهاً ألباً، لا يقول إلا

ما يعتقد، لا يصانع ولا يتزلف، ولا يطلب جاهاً أو مالاً، لذلك شرد وتشرّد، ورضي حياة البؤس والفاقة، طليقاً من كل قيد، يرتدي أبسط أنواع الثياب، ويأكل أردأ ألوان الطعام. لقد ظل صادقاً مع نفسه وفيما لمبادئه، فتحدث عنه كبار شعراء العربية ونقادها، وأثنوا على شعره، وفي مقدماتهم العقاد ومأرون عبود، ورثيف خوري، والزهاوي، والقروي، والسياب الذي قال فيه (... الصافي عالم قائم بذاته، متسع الأفق بشكل لا مثيل له عند أي شاعر عربي بمفرده، لم يترك موضوعاً إلا طرّقه، ولا عاطفة من عواطف النفس إلا صورها، فهو شاعر فلسفة وحكمة وهجاء وسخرية وغزل ووصف وطبيعة، وهو شاعر ذاتي إلى أبعد حدود الذاتية، وموضوعي إلى أبعد حدود الموضوعية، أنه ظاهرة متميزة في الشعر العربي...).

خمرة النجفي:

نظم أحمد الصافي النجفي قصيدة جميلة عن خمرة المفضلة:

"الشاي" ترجمت إلى الإنكليزية، وكان لها صدى بعيد، لطرافتها وقوة معانيها:

لئن كان غيري بالمدامة مولعاً	فقد ولعت نفسي بشاي معطر
إذا صب لي كأس الزجاج حسبته	مذاب عقيق صب في كأس جوهر
به أحتسي شهداً وراحاً وسكراً	وأنشق منه عبق مسك وعنبر
يغيب شعور المرء في أكؤس الطلا	ويصحو بكأس الشاي عقل المفكر
يجد سرور المرء من دون نشوة	فأحبب به من منعش غير مسكر
خلا من صداع أو نزيف كأنه	سلافة أهل الخلد أو ماء كوثر
فمنه اضطباحي واغتباقي ولذتي	ومنه شقائي من عناء مكر
كأني إذا ما أسفر الصبح ميت	وإن ارتشف كأساً من الشاي أحشر
قلله حن العين إذ أنبتت لنا	الذنيات بالمسرة مثير
لو أن (ابن هاني) فاز منه بجرعة	لراح بأقداح ابنة الكرم يزدرى
ولو ذاقه (الأعشى) وحكم في الطلا	وفيه لقال: الفضل للمتأخر
فللغم أحلى مشرب من مذاقه	وللعين من مرآه أجمل منظر
عجبت له يكوي اللسان حرارة	ويطفئ نيران الجوى المتسعر!



حَمْدُ الْحَاسِرِ

في عام ١٢٤٨ - تقريبا - فولدته من محمد بن عامر آل حاسر في قرية (البرود) لأبٍ فلاح، من أسرة قديمة علمية بارزة فيها.
 ونشأ على علم الجسد، وتوفيت أمه وهو في السابعة، وفي مدرسة القرية (الكتاب) تعلم بآداب القرآن، وقواعد حفظ القرآن الكريم نظرا. وفي عام ١٢٤١ - وكان أبوه أعمى - تقرب إليه طالب علم في (الرياض) فحفظ القرآن فيها، وقرأ بعض المؤلفات المختصة بالمشايخ - كمادة طلبة العلم في ذلك العهد - وهو وفاة والده التقرب عاد من الرياض ليبدأ أياه قد أنهكه المرض، وقد تفرق شمل الأسرة، فكفله جده (مطوع) أهل القرية، وهو من أهل الصلاح والعبادة، فصار يقرأ عليه بعض الكتب، ويقوم بالطاعة والوعظ في المسجد، لكنه من جده وضعف بصره، وتولى تدعيم أطفال القرية فترة. ولكن أخاه الكبير لم يترك حالته فذهب به إلى (الرياض) في عام ١٢٤٦ وسعى حتى ضمَّه إلى (الأخوان) أي طلبة العلم، فعاش كأدبهم، واكتظم معهم في الدراسة على المشايخ في المساجد، وقد أشرفهم سعد بن محمد بن عتيق وصالح بن محمد العريخي آل الشيخ - فاحيا (الرياض) هو ومحمد بن إبراهيم بن عبد الله آل الشيخ، في التوحيد والفقه والحديث والنحو والفرائض، وفي عام ١٢٤٨ حج وأُقيم به (المعهد السعودي) وفيه تخرج عام ١٢٥٢ من (قسم التخصص في القضاء الشرعي)، ففضل جمعية التدريس، وتقلت فرائضه في سنة وفتة والأهواز والقم، ثم عاد إلى الرياض وتولى ذلك القضاء فترة وجيزة في (ظبا) ثم عاد للتدريس، وأخبر عمله فيه إدارة كلية العلوم الشرعية (المنظمة العربية) في الرياض في عام ١٢٧٦ وكان قد أنشأ (أول جمعية في الرياض) (الجماعة) سنة ١٣٧٢ وأول مطبع (المنظمة العربية) في (جحاف)، ثم اشرف على التأليف والتحقيق والنشر فأنشأ (دار اليمامة للبحث والترجمة والتأليف) فخرج مع إخوة له إجازة إنشاء (مؤسسة اليمامة الصحفية) وعمل في الصحافة برفق. وأصدر مجلة "العرب" التي قطعت نصف عامها السابع عشر لهذا العام، ولا يزال يعمل فيما أنجبه إليه، وهو يأمل - وهو ما أحيى العيش لولا فسحة (الأجل) - أن ينشأ الله له (الأجل) ليرى غمرة ذلك العمل، وما أعزها من أمنيته!

عَنِّي إِنْ تَكُنْ حَقًّا تَكُنْ أَحْسَنَ الْخَلْقِ وَالْأَفْقَدَ عِشَّةً بِهَا زَمَعًا رَشِدًا

الرياض : ٢٢ شعبان ١٤٠٢ هـ

الموافق ١٥/٧/١٩٨٢ م

محمد الحاسر

حمد الجاسر :

المجمعي المحقق، ورائد جغرافي الجزيرة العربية

نشأته وحياته:

في أسرة فقيرة تعمل بالزراعة في قرية (البرود) من بلاد السر جنوب القصيم .. ولد (حمد الجاسر) عام ١٣٢٧ هـ - ١٩٠٩ م، على أدق التواريخ .. وسط مجتمع محافظ يرتاب من كل جديد، وبيئة تعيش عزلة تامة عما يجري حولها في بقية أنحاء المعمورة، فحفظ القرآن .. وتلقى إلى جانبه تعليماً أولياً ثم غادر إلى الرياض عام (١٣٤١هـ، ١٩٣٢م) ليكمل تعليمه الابتدائي المتاح حينذاك، ولم تكن الرياض وقتها بأفضل من سواها من مدن وقرى قلب الجزيرة (نجد) في عزلتها عن التيارات الثقافية والفكرية، التي كان يموج بها العالم بعد الحرب العالمية الأولى ومؤتمر السلام بباريس وقيام عصبة الأمم، إلا أنها كانت عاصمة نجد وسلطانها الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، تعيش وقتها امتدادات نشر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية الدينية ... وتتمحور حياتها حول قضية إتمام توحيد قطاعات الجزيرة في كيان سياسي - واحد - كبير سيحمل فيما بعد اسم: المملكة العربية السعودية.

في الرياض وعلى امتداد سنواته الثماني الأولى فيها .. رأى وسمع واندش؟ فقد ذهب مع الصبية من أترابه لرؤية نعائم خمس في فناء بيت المال، ولكنه رأى شيئاً آخر غير تلك النعائم، لقد رأى صحفاً لم تفتح من لفائفها .. مكومة في جانب من الفناء في انتظار التخلص منها بحرقها .. وكانت تلك الصحف تأتي لموظفي الدولة بالبريد من كل من مصر وسوريا والعراق وغيرها، لكن أحداً لم يفتحها .. أو يقرأها .. فكانت تحرق بلفائفها، وقد أدهشه ذلك، أدهشه .. أنها لم تفتح .. وأدهشه أن أحداً لا يقرأها .. ومع توحيد الحجاز وصدر جريدة (أم القرى) في مكة في

وقت مبكر (عام ١٣٤٣هـ) أخذ الناس في الرياض يقرأون تلك الصحيفة لمتابعة أخبار دولة الوحدة وأخبار مؤسسها الملك عبد العزيز، وقراءة المقالات الأدبية القليلة والمدائح الشعرية التي كانت تنشر فيها..

وفي عام ١٣٦٧هـ افتتحت أول مدرسة ابتدائية نظامية تعتمد منهج مديرية المعارف العامة، فتقدم للحصول على شهادتها عام (١٣٦٧هـ) عشرة طلاب، نجح منهم من نجح دون أن يدرسوا علمي: (تقويم البلدان) و(الهندسة) .. لأن الهيئة الدينية منعت تدريسهما لتحفظها عليهما. وقد بقي هذا المنع سارياً إلى أن عين الجاسر نفسه معتمداً للمعارف بنجد عام ١٣٦٨هـ، فاستصدر أمراً بإلغاء ذلك المنع واعتماد تدريس جميع مواد المنهج للطلبة بما فيها علماً (تقويم البلدان) والهندسة.

وإذا كان حقاً ما قاله المعلم الأول (سقراط) من (أن العالم .. يبدأ بالاندماش) .. فإن دهشة الجاسر فيما رأى وسمع خلال تلك السنوات الثماني .. إنما كانت إزداناً بميلاد ذات معرفية .. ستتوهج يوماً .. وستسهم في إشعال مصابيح المعرفة والعلم والثقافة - بعمومها - لتتحسر ظلمة الجهل، ويتبدد الخوف من المجهول، ويفسح الطريق أمام الحقيقة أو الحقائق، شيء كتلك الصورة الأدبية الرائعة .. التي كتبها بخيال وشاعرية (مكسيم جوركي) عندما قال: (إن الناس يريدون معرفة الحقيقة، يريدون ذلك يا عزيزتي .. ها هنا امرؤ يشعل شمعة أمام الأيقونة وهناك شمعة أخرى تضاء .. ورابعة، إن الظلمة تنسراح شيئاً .. فشيئاً مفسحة المجال للنور).

في الرحاب المقدسة:

انتقل الجاسر مع بدايات عام ١٣٤٩هـ إلى مكة مع مجموعة من الطلبة الذين أوفدهم الملك عبد العزيز للاتحاق بـ (المعهد العلمي السعودي) الذي تأسس عام ١٣٤٧هـ وأسندت إدارته للعالم الشيخ محمد بهجة الليطار وقام بالتدريس فيه أساتذة من مصر والشام ونجد والحجاز، كان مجيء الجاسر إلى مكة وبقاؤه بها طوال سنوات الدراسة الست، نقلة نوعية وجوهرية فسي بناء الذات

المعرفية، وصقلها تمهيداً لتوجهها فيما بعد. فقد كانت مكة المكرمة في ذلك الوقت من أواخر الأربعينيات الهجرية وأوائل الخمسينيات قد أصبحت عاصمة الدولة، يقوم فيها حكم مستقر، وتزدهر عليها آمال مستقبل واسع كبير، ومقارنة بغيرها من مدن الجزيرة العربية الأخرى .. تعيش حياة مختلفة عن تلك الحياة التي عاشها صاحبنا قبل قدومه إليها، كانت مكة المكرمة تعيش بروافد من حضارات الصين والهند والتركمان بربائتها الإسلامية .. وقد امتزجت بمثل وقيم وتقاليده الوادي المبارك وما حول البيت العتيق .. لتصنع من كل ذلك قوامها الحضاري العربي الإسلامي الخاص الذي أصبح يمثل السمات الحجازي وروحه .. وكانت تموج بالتيارات الثقافية والفكرية بل والسياسية والاجتماعية منها، التي كانت تغد إليها عبر مواسم الحجيج وعبر الصحف والمجلات والدوريات، والكتب العربية التي كانت تصلها بتتابع وانتظام .. مفتحة على العالم العربي والإسلامي الكبير، وتتبض - مقارنة بغيرها - بكل ما في العواصم العربية والإسلامية الكبرى .. ففيها مقار الحكم، وبيوت المال والتجارة، والشركات، والبنوك، والأسواق المضادة، والمطابع والصحف، والمنفقون الذين تجمعوا من مختلف مدن الحجاز في مكة والجمعيات والأندية الرياضية والمقاهي والمطاعم، والمطوفون والزمامرة، وكل ذلك حول الحرم بطائفي بيته العتيق وقصاده وعلمائه وحلقات الدرس فيه، كانت مكة .. حاضرة الدولة في ذلك الوقت، قعب الجاسر فيها من كل ذلك .. وتخلل بين طبقاتها ومجتمعها، وتعلم في خارج معهده بمثل ما تعلم في داخله، بل وأسهم في صحتها الجديدة (صوت الحجاز) بأول قصائده الشعرية التي وقعها باسم: بدوي نجد الجاسر .. أو (الجاسر بدوي نجد) .. ثم أقطع عن ذلك كما فعل طه حسين من قبل وهو يقول: (إن حالي مع الشعر كحال الخليل بن أحمد عندما قال: ياباني جيده .. وآبى رديته) وبعد أن أتم دراسته بنجاح خيّر بين القضاء والتدريس بعد تخرجه، فاختار التدريس .. ليتم تعيينه مدرساً في مدينة ينبع عام ١٣٥٤هـ.

الدراسة في مصر:

جاءت النقلة الثانية العامة في حياة الجاسر .. مع ابتعاثه إلى مصر - بعد أربع سنوات من الانقطاع عن الدراسة (عام ١٣٥٨هـ / ١٩٣٨م) - ومع أيامه الأولى في القاهرة .. أعلن عن رغبته في الالتحاق بكلية الآداب - بالجامعة المصرية - وذهب إلى الدكتور شفيق غربال عميد الآداب بالجامعة المصرية وقتها.. فأحالته إلى الدكتور طه حسين قائلاً: أيسح أن يكون لديكم كل هذا العدد من الطلبة، وليس بينهم واحد في كلية الآداب؟ ثم أخذ وأعطى مع الجاسر حول ما قرأ .. ولمن قرأ .. ثم أعطاه في النهاية بطاقة شخصية ذهب بها في اليوم التالي لمسجل الكلية الذي أخذ في إجراءات تسجيله.

كان محاضرات الآداب وأساتذتها وأجواءها في تلك الفترة لم تستهوه بذلك القدر الذي جذب إليه عبق الجامعة القديم، وسمعتها التي طارت إلى أرجاء العالم العربي عنها وعن أساتذتها ومحاضراتها التي كانت دروساً في الفكر والفلسفة والسياسة. وفي العلم والأخلاق والدين، يتزاحم حول الاستماع إليها عشرات العشرات من الناس حتى خارج الجامعة .. لكن حياة القاهرة بمكتباتها وجوامعها وخطبائها، بآثارها ومتاحفها وعلمائها، بصحفها وكتابها وأدبائها، بشدواتها ووصوليتها، بساتنها وأحزابها وبرلمانها، بشوارعها وحدائقها وميادينها، وبكل أدوات الحضارة والمدنية التي كان يعيشها الشارع المصري والحياة المصرية .. كانت تستوعبه بكل هذا الزخم .. وبكل هذه الحياة العريضة العميقة وتنضج وتعمل على توهجه ليصير شيئاً. ليكون شيئاً بالمعرفة .. مائجاً بالخيرات .. متقللاً بالثمار، كان أشبه بجبل لا يرتقى، وسيل لا يقتحم، وشعاب لا تتأكل، حكمته لا ينقصها الإقدام، وشجاعته لا ينقصها التروي، وعزيمته لا ينقصها الإيمان. ووسطيته لا ينقصها الحزم والحسم .. وبكل ذلك اقتحم الظلام والخوف والمجهول، فكان رائد التنوير و(طهطاوي الصحراء) وكان المعجمي الأول وكان أول من فتحت مجامع الخالدين أبوابها له.

إنه شخصية الصحراء - بكل قسماتها، تلك التي تذكر بأفذاذ الرجال الذين خرجوا من جوفها .. وشاع ذكرهم في الأزمان و بقيت ذكراهم، آثارهم، بصماتهم .. فوق الدهور.

كفاحه في عالم الصحافة:

كانت بداية الكفاح ومعاناته مع الصحافة ومع نهاية علمه الدراسي الأول بآداب القاهرة.. مع بداية الحرب العالمية الثانية، فعاد الجاسر إلى الوطن ليعمل مدرساً بالإحساء، فمدرساً بمدرسة تحضير البعثات والمعهد العلمي السعودي بمكة .. فرئيساً لمراقبة التعليم في الظهران من عام ١٣٦٣ إلى عام ١٣٦٨هـ، حيث تم تعيينه معتمداً للمعارف بنجد .. لينتقل إلى الرياض. وليعود إليها بعد تسعة عشر عاماً .. وقد تغير كل شيء فيه وفيها .. ليتولى هذا المنصب التعليمي الرفيع في ذلك الوقت.

لقد كان يمكن أن يكفيه ذلك، وكان يمكن له - لو أنه أعطى نفسه بعضاً من الوقت - أن يتدرج أو يقفز إلى أعلى المناصب الوظيفية الحكومية وأرفعها .. وهو أهل لها، ولكن ذاته المعرفية التي وعت واستوعبت وتوهجت عبر السنين الماضية، وامتألت حتماً وقلقاً. اختارت شيئاً آخر ليبدأ أول وأهم المنعطفات في حياته.

كانت خطوته الأولى.. هي افتتاح (مكتبة العرب) .. التي غدت تاريخياً - فيما بعد - أول مكتبة في الرياض. وذلك لتوفير الكتب الحديثة والصحف والمجلات لطلابها من الشبيبة الذين تكاثروا وازدادوا في الرياض .. وازداد نهمهم للاطلاع والمعرفة والثقافة من مصادرها وبواباتها المختلفة، كانت المكتبة .. أول شحنة يضيئها في ذلك الزمان، وبعد أربع سنوات من استقراره في الرياض تقدم بطلب السماح له بإصدار صحيفة يومية باسم (الرياض) .. على أن تبدأ شهرية .. فأسبوعية .. فيومية .. فصدر له الإذن بذلك، وحصل على الترخيص لينطلق بكل قواه وقدراته للتحضير لإصدار العدد الأول من تلك الصحيفة.

راح ينتظر اللحظة، وهو يعرف طريقه .. وسرعان ما جمع عزمه وعزيمته ومواد العدد الأول .. وطار إلى القاهرة .. إذ لا توجد مطابع في الرياض ومطبعتا مكة الكبيرتان مشغولتان: فس (أم القرى) .. مشغولة بطباعة جريدة (أم القرى) .. والمطبعة الأهلية مشغولة بطباعة جريدة (البلاد السعودية). تمت طباعة العدد الأول في شهر ذي الحجة من العام ذاته .. فأقبل عائداً إلى الرياض فرحاً سعيداً وهو يتأبط خمسة أعداد منه .. قدمها فور وصوله إلى ديوان ولي العهد مستبشراً طالباً الإذن بدخولها، والتفضل بأمر الخطوط السعودية لنقل الكمية الباقية إلى الرياض كسباً للوقت، وحفاظاً على المجلة، فرفض طلبه استعمال كلمة (الرياض) اسماً للمجلة، لأن إذننا صدر لصحيفة أخرى بهذا الاسم.

فكانت تلك أول الصدمات التي تلقاها في (الرياض)، وكان الحل أن يغير اسم المجلة .. من (الرياض) إلى (اليمامة).

اكتفى بتغيير غلاف المجلة - وحده - من (الرياض) إلى (اليمامة) وكانت (المفارقة) فيما بعد .. أن الكتاب والشعراء في داخل الرياض وخارجها وجدوا بين أيديهم مجلة - بعد وصولها - تحمل اسم (اليمامة) .. وكل محتوياتها تتحدث عن (الرياض) المجلة الجديدة .. وأهدافها وخططها وآمالها المستقبلية .. لقد انتقدوا الجاسر على هذا الخطأ الفادح والفاضح وهم لا يدرون عن أسبابه .. إلا أن ما حدث، لم يضعف من حفاوة وحرارة الاستقبال التي استقبلت بها المجلة الوليدة .. في الداخل والخارج، فتوالى صدور الأعداد الأولى، ومعها بدأت تتضح صورة المجلة لقرائها ومعالم الصحافة التي أرادها الجاسر أن تكون أداة توجيهه وتنقيف له وبث للوعي وإعلام بما يجري.

في عام ١٣٧٤هـ أقام مطبعة الرياض .. لتتوالى طباعة مجلة اليمامة وغيرها من الصحف والمجلات والمطبوعات الأخرى التي أخذ ظهورها يتوالى، فكانت أول مطبعة صحفية في الرياض .. تتولى - فعلاً - إلى جانب طباعة مجلة اليمامة .. طباعة مجلة الجزيرة والأصم، وصحف ومجلات أسبوعية وشهرية

أخرى، وفي العام ذاته تم تعيينه مديراً لكليتي الشريعة واللغة العربية.
وفي عام ١٣٧٥هـ تحولت (المجلة الشهرية) .. إلى صحيفة أسبوعية ..
بدأت معالجتها لمختلف قضايا الساعة الهامة، وفي مقدمتها شؤون الوطن وشجونه
بجرأة وحماس .. لقي خلالها متاعب فوق الاحتمال.

ففي العام الثاني من صدورها أسبوعية كتب الجاسر مرحباً بالزعيم الهندي
اللامع: جواهر لال نهرو، الذي قدم لزيارة الرياض لأول مرة ضيفاً على الملك
سعود .. بعنوان: (مرحباً .. برسول السلام) .. فتار الرقيب الديني على ذلك المقال
ثورة مضرية، وأخذ قراراً بفصله من وظيفتيه الرسميتين: مديراً لكليتي الشريعة
واللغة العربية.

وكتب فيما بعد افتتاحية بعنوان: (هؤلاء الكتاب المضللون) .. حمل فيها على
أولئك الذين يضللون ولاه الأمر بتزييف الحقائق وتزيين الباطل، وإطلاق البخور
لما يستحق وما لا يستحق من الأعمال .. فعقدت له لجنة خاصة للتحقيق معه
واستجوابه .. كان من بين أعضائها (يوسف ياسين) - رجل الخارجية - بحكم
رئاسته لـ (قلم المطبوعات) بها.

سئل الجاسر عن قصدهم في مقاله؟ فأجاب بأنه قصد كل كاتب يزيف
الحقائق وكل كاتب يزين الباطل، فقال له يوسف ياسين: لكنك أشرت إليهم صراحة،
عندما قلت بأنهم أولئك (الذين يتسمنون منابر الوعظ والإرشاد)؟ فحاول الجاسر أن
يدافع عن وجهة نظره ويتمسك بها .. لكن سؤال اللجنة ظل قائماً ينتظر إجابته
الصريحة أو اعترافه الصريح فيمن عناهم بـ (المضللين)؟ فلما لم يجب ... أمهل
ليومين، لكنه لم يغير فيهما رأيه .. وظل متمسكاً بما سبق وأن قاله بأنه عمس ولم
يخصص ولم يسم فئة أو شخصاً، ليتم احتجازه بعدها لأسبوعين. لقد كانت تلك هي
ذروة تصادمه مع الرقابة .. إلا أن ما حدث فيها على قسوته لم ينل من إيمانه
وسلوكة وصبره ذلك المعنى الساطع والنبيل: (إن أصحاب الرسالات .. لا ينشدون
الاستقرار) ..

استأنف الجاسر عمله وكان شيئاً لم يكن، ونشر مقالاً (غفلاً من التوقيع) لكاتب - ممنوع من الكتابة - هو الأستاذ عبد الله البخيت بعنوان: (بين العاطفة والواجب) .. تناول فيه الكاتب أولئك الموظفين والمسؤولين الذين يقدمون عواطفهم وما تغريهم به .. على واجبهم الوظيفي وضمائرهم، ولأن الكاتب كان موظفاً .. وكسان يكتب على ورق (المؤسسة) التي يعمل بها، وكان له أسلوبه الخاص والمميز .. فقد عرف من هو، ولم يفد الجاسر إنكاره شخصية كاتب المقال الحقيقية أو تحمله لمسؤولية ما كتب .. أمام اللجنة العليا التي أحيل إليها لاستجوابه، باعتبار أن ما حدث منه مخالفة صريحة لنظام المطبوعات.

وفي عام ١٣٨٠هـ استمرت اليمامة في الصدور بعيداً عن صاحبها ورئيس تحريرها، وعند صدور نظام المؤسسات الصحفية الجديد عام ١٣٨٣هـ، هم إنشاء مؤسسة صحفية باسم (اليمامة) وتولى الجاسر رئاسة تحرير اليمامة وعمل على إصدار صحيفة الرياض اليومية، حلمه القديم الذي آن الأوان لتحقيقه مع صدورها في ١٣٨٥هـ فترأس تحريرها لفترة ثم تم اختيار رئيس تحرير لها، ثم منح امتياز دار للنشر ومجلة يصدرها لتتأ (دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر) وتصدر مجلة العرب من بيروت .. في عام ١٣٨٦هـ (١٩٦٦م) ويبدأ الجاسر مشواراً آخر مع داره الجديدة ومجلته الجديدة.

لقد اختار الجاسر (الحقيقة) .. وأضاء مصباحاً اسمه (مكتبة العرب) .. ومصباحاً اسمه مؤسسة اليمامة .. ومصباحاً اسمه مطبعة الرياض، ولاقى في سبيل ذلك ما لاقاه من عنت وضنك ومشاق يضيق الوقت عن حصرها...

جهوده في الأعمال الجغرافية:

البعد (الثاني) في صورة (حمد الجاسر)، هو في اتجاهه الفريد والمتميز نحو (المعاجم الجغرافية): رسداً وتدويناً، كتابة وإصداراً، حثاً واستمالة للآخرين، فالأمر يتطلب - كما قال - في مقدمة معجمه الثاني عن المنطقة الشرقية: (تضافر جهود

كثير من الباحثين من أبناء البلاد، وأن يفولي الكتابة عن كل منطقة من مناطق المملكة دور الكفاءة والقدرة على الكتابة، فهم أقدر من غيرهم، وصولاً إلى (المعجم الكبير) الذي يضم أجزاء المملكة العربية السعودية كلها: مواضعها ومواقعها، قرأها ومدنها، سهولها وجبالها ووديانها، إيماناً منه بأن هذه المعاجم هي ذاكرة الوطن الجغرافية .. وأنها مستودع التعرف على ثرواته .. وأنها المدخل إلى معرفة التاريخ فمن لا يعرف أرضه، لا يعرف تاريخه، ومن لا يعرف تاريخه يتعذر عليه معرفة موقعه من الكون .. ف (لئن كانت الغاية من تأليف المعجم تحديد مواقع المدن والقرى والأمكنة المأهولة في المملكة في زماننا الحاضر، فإن هذا لا يكمل بدون إيجاد الصلة بين ما لهذه البلاد من ماضٍ ذي تأثير قوي مباشر .. بحاضرها) .. لقد نزع الجاسر أرض المنطقة الشرقية والتي كانت تسمى قديماً بـ (البحرين): من جنوب البصرة (شمالاً) .. إلى شمال عمان (جنوباً) إلى صحراء النفوذ (غرباً) .. بالسيارات والدواب والخطى، ومر على ما يزيد على أربعة آلاف كيلو متر من السواحل والأودية والجبال والشعاب تحت سماء صيفها لاهب، ووطأة سنين تزيد على السبعين ليكتب في النهاية (معجم المنطقة الشرقية) (البحرين قديماً).

نقد تزامن هذا (البعد) مع البعد الأول في صورة الجاسر في حياته، إلا أنه لم يظهر إلا بعد ما يزيد على الثلاثين عاماً (١٣٨٦هـ) مع دعوته التي وجهها من فوق منبره الجديد مجلة (العرب) للأدباء والمنقذين والكتاب في مناطق المملكة المختلفة، لأن ما يكتبوا عن مناطقهم معاجم جغرافية تمهيداً لصدورها مجتمعة في (المعجم الكبير) لكأن الثلاثين سنة التي تصرمت، كانت سنوات استعداد واستيعاب وامتلاء .. ليصل بها الجاسر ما انقطع من ذلك العلم طوال الثمانية قرون الماضية .. من عهد ياقوت الحموي وكتابه الجامع الفريد: (معجم البلدان) إلى عصرنا الحاضر.

لقد كانت بدايات هذا (البعد) في صورة الجاسر، في حياته .. كالتناهيات وما

بينهما: بسيطة ورائعة، فعندما ذهب إلى مدينة ينبع بعد تخرجه في المعهد العلمي السعودي للتدريس في مدرستها الابتدائية (عام ١٣٥٤هـ)، ووقف أمام طلبة الفصل السادس ليشرح لهم - في درس المحفوظات - أبياتاً - من لامية (أبي العلاء المعري):

((ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل عفاف وإقدام وحزم ونائل))

إلى أن وصل إلى البيت الذي يقول:

((بهم الليالي بعض ما أنا مضمحل ويثقل رضوى دون ما أنا حامل))

فأخذ يسهب في شرحه قائلاً: أما (رضوى) .. فهو جبل قريب من (المدينة) .. وهو جبل سهل، ترقاه الإبل .. استناداً إلى ما قرأه في شرح (مقامات الحريري)، فصاح الطلبة بصوت واحد: لا .. يا أستاذ .. هاهو (رضوى) أمامك، كانت النافذة مفتوحة .. فبدأ الجبل أمامه بشموخه وارتفاعه .. فلا هو بالقرب من المدينة .. ولا هو بالسهل الذي يمكن أن ترقاه الإبل كما قال شارح (مقامات الحريري). لقد أعطى الجاسر درساً للطلبة .. واخذ درساً منهم.

وكان للحادثة أثرها وتأثيرها عليه، إذ كيف يصح وهو ابن الجزيرة العربية أن

لا يعرف (جبلًا) ترضى عنه الرسول صلى الله عليه وسلم عندما قال: (رضوى .. رضى الله عنه).

كانت الحادثة دافعاً وحافزاً له لمعرفة المواقع والمواضع .. كانت فاتحة الباب للرجل الذي سيصبح فيما بعد واحداً من أهم من دونوا معاجم جغرافية الجزيرة العربية ودعوا الآخرين وشجعوهم على ذلك تصحيحاً وتصويباً لأولئك الذين كتبوا نقلاً ولم يتحروا الدقة .. فجاءت كتاباتهم ناقصة أو خاطئة كـ (شارح مقامات الحريري) الذي وقع فيه ومعه المحقق الراحل.

ويشاء الله فيتعطل صرف الرواتب لسبعة شهور متصلة مما اضطر شيخنا لبيع

ممتلكاته القليلة حتى وصل إلى بيع كتبه التي كان أثنىها وأجملها وأقدرها على جذب المشتريين كتاب (ياقوت الحموي) : (معجم البلدان) .. فقد اشتراه بمئة وخمسين ريالاً واضطر لبيعه بستين ريالاً لكنه استأذن المشتري في أن يبقيه لديه شهراً .. وخلال ذلك الشهر قام بنقل كل ما كان يتعلق بتعريف أمكنة الجزيرة العربية ومواقعها ومواقعها في كتاب (الحموي).

وفي القاهرة خلال دراسته بالجامعة المصرية .. كانت الظروف الطبيعية في ذلك الوقت تكمل الحواجز والبواعث التي رسمت عن هذا التوجه في حياة الجاسر، فقد ذهب يوماً إلى مكتب البريد - لإرسال رسالة إلى (الطائف). فسأله موظف البريد بعاميته المصرية: (والطائف دي فين بقى؟ في السودان)؟!

لقد اجتمعت وتجمعت كل هذه المواقف والأحداث لتتلاقى مع هيامه الأصلي وعشقه الممتد الجذور لجزيرته .. لترسم هذا التوجه، هذا البعد في صورة وحياة الجاسر وإن ظل على يقينه بأنه لو لم يجر له ما جرى في ينبع .. ف (من يدري فقد تكون لي وجهة أخرى)؟.

لقد امتلأ الجاسر بكل البواعث والحواجز .. ودعا بكل حماس والإخلاص الآخرين لكي يكتبوا عن مناطقهم، فاستجاب الكثيرون ..

وإذا كان للكاتب الإنكليزي المعجمي اللغوي (صمويل جونسون) تحفظات على المعاجم جميعها عندما قال: (ما أشبه المعاجم بالساعات، فكما أنه لا غنى لنا عن أقلها جودة .. فكذلك لا نبرئ أكملها جودة من نقص فيها)، فإن للجاسر ذات التحفظ .. عندما قال في مقدمة معجمه عن (شمال المملكة): (إن جهد المرء - مهما بلغ من قوة - محدود، فالموضوع متشعب واسع .. ومهما بالغ واجتهد فلن يبلغ الغاية .. ومن يسلم من الخطأ).

ورغم تحفظات (صمويل) اللغوي والجاسر الجغرافي .. ستبقى معاجمه الجغرافية إنجازاً فذاً بأدق المقاييس وأصعبها، ويبقى بدعوته وإسهامه .. بجهده وخطاه .. بعمله وحيات عرقه التي تساقطت واختلطت برمال الأرض: رائد رواد

المعجميين الجغرافيين للجزيرة العربية .. اليوم وغداً.

البعد المجمعى في حياته:

لم يتشكل البعد (المجمعى) .. في حياة الجاسر وهو البعد (الثالث) في صورته، لأنه كان مفتوناً - وحسب - بكتب التراث: لغة وشعراً ونشراً وأنساباً ومواقع ومواضع، عاشقاً للأصفهاني و(أغانيه) وللجاحظ وبخلائه وللطبري وتاريخه .. هائماً بأبي تمام والبحري وحماستهما .. وقد رأى نسخة من شرح ديوانهما الذي ألف للمعتضد بن عباد ملك إشبيلية في مكتبة الأسكوريال في اسبانيا .. وقال عنها نشواناً: إنها نسخة بديعة لا نظير لها، كأنها وضعت اليوم لما لها من الرونق والجلاء العجيب) .. ولا لأنه كان يجري في طول الدنيا وعرضها.. يبحث عن مكتبة .. وكتاب .. ومخطوطة، لأنه كان ينبش عن كتب لم نقرأها ولم نسمع عنها .. ولم نعرفها .. ك (كتاب: (الشرف الأعلى في ذكر مقبرة المعلا) .. وكتاب: (معنى النصيحة لذوي العقول الفصيحة) وكتاب (الخصال المكفرة للذنوب المتقدمة والمتأخرة) .. ولكن لأنه كان إلى جانب كل ذلك الفتون والعشق والهيام ودوافعهم وبواعثهم يحمل تلك الذات المعرفية القلقة والبركانية الطموح، والتي توهجت عبر سنين تجاربه مع القلم والصحافة ومصابيح التنوير التي أشعلها حتى أسيء فهمه .. مؤكداً - ربما من حيث لا يدري ولا يريد - قوله ذلك الفيلسوف : (لكي تكون عظيماً .. لا بد وأن يساء فهمك) .. لقد عبرت تلك الذات عن نفسها بعلمها وبحثها وثقافتها التراثية الأصيلة المتنوعة .. فلفتت إليها الأنظار والأسماع في الخارج كما في الداخل، في وقت مبكر وقيل أن يصدر صاحبها (البيامة). ويتسنى إدارة كليتي: الشريعة واللغة، ولقد تجاوز مع كل هذا سؤال كان يلح عليه ولا يجد له جواباً وهو يتابع أخبار وإصدارات مجامع اللغة العربية في دمشق وبغداد والقاهرة: وكيف .. لا يكون لنا .. (مجمع اللغة العربية) يعني باللغة وتراثها وآدابها وتاريخها ومفرداتها، ويعمل مع بقية المجامع في خدمتها وإعلاء شأنها .. وأرضنا أرض اللغة ..

وأرضنا مهبط وحيتها ومهد قرآنها ومسرى نبيها (صلى الله عليه وسلم) لقد غابت الجزيرة عن تلك المجامع .. وأصبح الخروج إلى البحر الواسع الكبير .. حلماً وتعبيراً غامضاً وإن كان مبرراً لتلك الذات وقلقها وطموحها.

وفي مهرجان (أبي العلاء المعري)، قام بزيارة لدمشق .. و (مجمعها اللغوي) حيث التقى برئيسه الأستاذ العالم محمد كرد علي .. ودار الحديث حول المناسبة والإصدارات التي غطت شعر أبي العلاء ورسائله: لزومياته ولزوم ما لا يلزم ودرته الخالدة: رسالة الغفران .. فاستدرك الجاسر على (المجمع) إغفاله شرح أبي العلاء لديوان (السلمي) وقد رأى مخطوطتها .. فطلب منه أن يكتب بحثاً عن ذلك، ففعل .. ليطلب منه المجمع أن يكون عضواً (مراسلاً) لأول مجمع عربي للغة - أنشئ في دمشق عام ١٣٣٧هـ - ١٩١٨م ليصبح عضواً مراسلاً في ثالث المجامع اللغوية ببغداد والذي تم تأسيسه عام ١٣٦٧هـ - ١٩٤٧م، ول يتم انتخابه بعد ذلك عضواً عاملاً بأهم المجاميع العربية وأكبرها وأحفها بالرموز الأدبية والفكرية، والذي تقوم العضوية فيه على الجدارة والكفاءة .. وليس غيرهما، إنه مجمع للغة العربية بالقاهرة .. أو مجمع الخالدين كما عرف بين الأوساط الثقافية ليخلف الدكتور عبد الوهاب خلاف في مقعده.

لقد أصدر مجمع القاهرة سلسلة من الإصدارات الجلية الهامة، نتقدما تلك المعاجم الثلاثة: معجم ألفاظ القرآن بأجزائه الستة، والمعجم الوسيط بجزئيه، والمعجم الكبير الذي صدر منه جزؤه الأول عن حرف الهمزة في سبعمئة وعشرين صفحة، بعد أن مات دعامته الأولى والذي عمل فيه لنصف قرن من الزمان المستشرق واللغوي الألماني الكبير (أوغست فيشر) .. قبل إنجازه لتتبعثر كل الأوراق التي كتبها ولم يتم العثور - بعد وفاته - إلا على المقدمة وأجزاء من حرف الهمزة وحرف الباء، وكان للجاسر شرف الإسهام في تلك الإصدارات الجلية بإضافاته وشروحاته وتصويباته واستدراكاته التي نافقت عن المائة استدراك على جزء حرف الباء من المعجم الكبير.

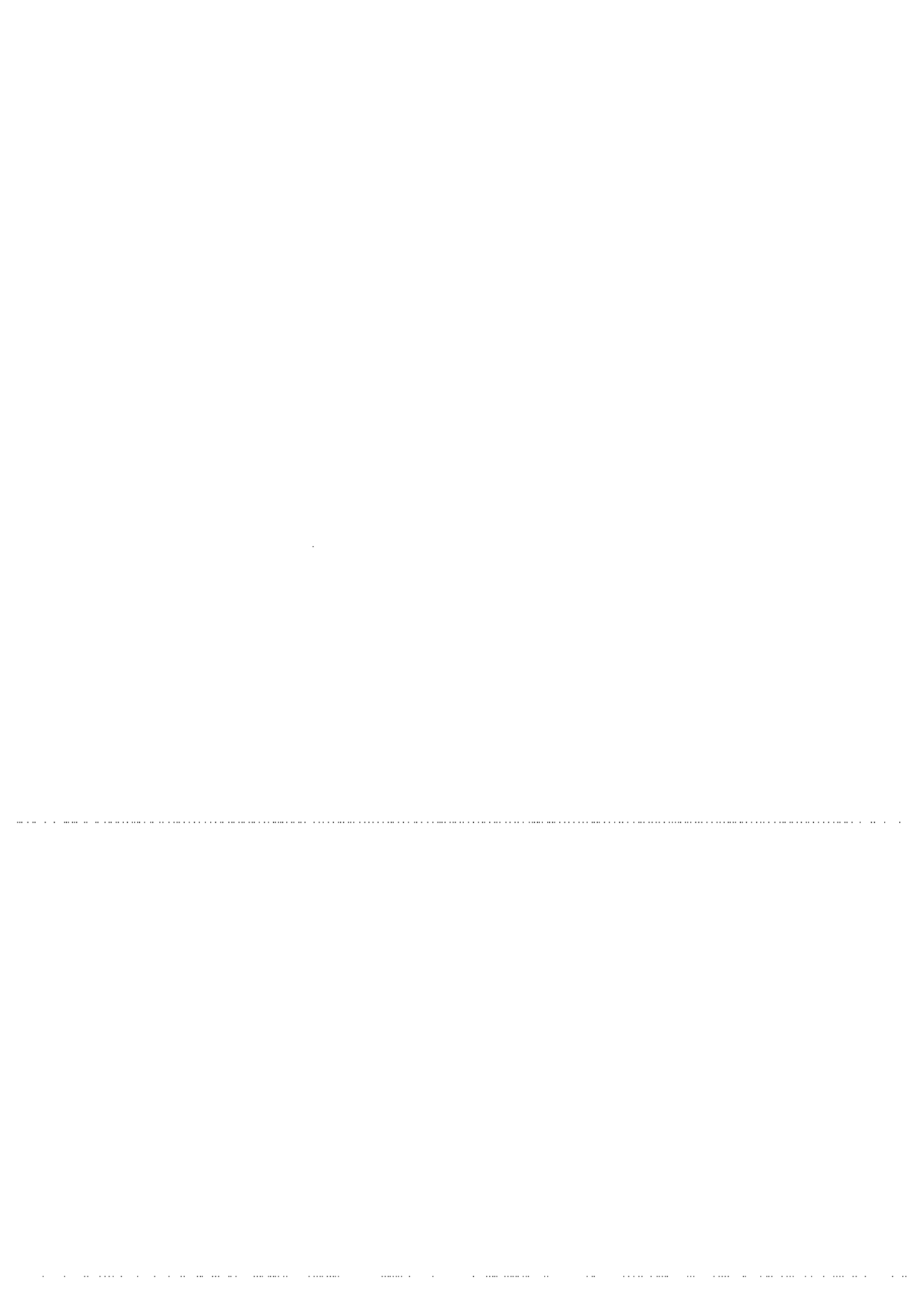
لقد وصل الجاسر بعلمه وجهاده .. بكده وعرقه، بعشقه لأرضه ومواضعها وهيامه بلغته وتراثها وإلى مجمع الخالدين، طاوياً أزمان النسيان والإغفال الثقافي للجزيرة العربية، وليقف جنباً إلى جنب مع طه حسين والعقاد والحكيم وأحمد زكي وغيرهم من أساطين العلم والمعرفة والثقافة: حيث يجب أن يكون، وتكون ذاته المعرفية القلقة بأحلامها والمتوهجة بآمالها.

مؤلفاته: نافذة مؤلفات حمد الجاسر على الثلاثين كتاباً تأليفاً ومراجعة وتحقيقاً وإعداداً، وهي:

- المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية. - قسم شمال المملكة (٣) أجزاء.
- قسم المنطقة الشرقية (٤) أجزاء. - المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية المختصر.
- مقدمة المعجم الجغرافي. - مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ. - بلاد ينبع.
- صفة جزيرة العرب للحسن بن أحمد الهمداني، تحقيق القاضي محمد بن علي الأكوخ، مراجعة.
- بلاد العرب للحسن بن عبد الله الأصفهاني، تحقيق.
- المناسك وتحديد أماكن الحج ومعالم الجزيرة، تحقيق.
- المغامم المطابة في معالم طابة، تأليف الفيروز أبادي، تحقيق.
- الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، تأليف عبد القادر ابن أحمد الجزيري الحنبلي، تحقيق (٣) مجلدات.
- في شمال غرب الجزيرة، تأليف. - في سراء غامد وزهران، تأليف.
- رسائل في تاريخ المدينة، تحقيق.
- تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد، تأليف إبراهيم بن صالح بن عيسى، تحقيق.
- البرق اليماني في الفتح العثماني، تأليف قطب الدين النهروالي، تحقيق.

- الإيناس في علم الأنساب، تأليف الحسين بن علي الوزير المغربي، ومعه كتاب (مؤلف القبائل ومختلفها) تأليف محمد بن حبيب، تحقيق.
- معجم قبائل المملكة العربية السعودية، تأليف، جزءان.
- جمهرة أنساب الأسر المتحضرة في نجد، تأليف، جزءان.
- باهلة القبيلة المفترى عليها، تأليف.
- (كتاب الجوهريتين) في التعدين والمعادن، تأليف الحسن بن أحمد بن يعقوب، تحقيق.
- أدب الخواص، تأليف الحسين بن علي بن الحسين الوزير المغربي، تحقيق.
- التعليقات والنوادر لأبي هارون ابن زكريا الهجري، تحقيق، (٤) أجزاء.
- نظرات في كتاب تاج العروس، إعداد. - مع الشعراء، بقلم.
- رحلات بقلم. - مجلة العرب، ثمانية وعشرون مجلداً.
- ابن عربي موطن الحكم الأموي في نجد، تأليف.
- معجم أسماء الخيل العربية، تأليف.
- الأماكن، تحقيق.





عبد الرزاق البصير :

لا أدب بغير الحرية، ولا حياة بغير العدالة...

عبد الرزاق البصير، واحد من رواد النهضة الأدبية التي عبرت عن طموحات أدباء وشعراء الكويت في فترة الأربعينات، حينما بدأت الحياة في الكويت تتجه إلى الارتباط القومي والوطني مع ثقافات العالم المتحضر، وتتهل من روافد هذه الثقافة في مختلف الفنون والعلوم والمعرفة.

شق عبد الرزاق البصير دربه بعزيمة لا تلين وصبر لا ينفد وجهد في التحصيل، ومثابرة في العلم وعشق فريد للاطلاع والقراءة، والإبحار مع الكتاب في كل اتجاه، حتى شيد لذاته صرحاً من الفكر ونهراً من الثقافة، واقفاً شامخاً بالمعرفة والتثوق الأدبي والاقتراب الحميم من كنوز الأدب والمعارف والتراث.

وأدرك البصير أن الأدب مرتبط بالحياة والإنسان في كل عصر وكسل زمان "ولا يكون الأدب متكاملاً إلا إذا عالج جميع أمور الحياة وقضاياها معالجة فنية مخلصـة"، وظل البصير ينهل من هذه المنابع العذبة، فانفتحت أمامه حياة أخرى يرى فيها مشاهد من آثار أمم غابرة، ونماذج من بطولات الشعراء، ترقد في بطون الصفحات، وصوراً نابضة بالحب والجمال والحرية وقيماً تبدو في مرايا الأدب.

والبصير، الذي فقد بصره وهو في الرابعة من عمره نتيجة إصابته بمرض الجذري، امتلاك القدرة على البحث في أعماق العصور الأدبية وتحليل الواقع وإضاءة جوانبه المعتمدة، من خلال مقالاته الزاخرة بالصور الإنسانية والشعراء الذين تغنوا بالحب، وقدسوا القيم وعاشوا من أجل قضايا أمتهم.

وعشق البصير الكتب فيقول: "إطلاعي الأدبي والثقافي قاصر على الاستمتاع بما يقرأ لي من مقتنياتي الأدبية، وأسعد شيء عندي أن يأتي لي صديق يقرأ ويكتب

لي قصائدي، وأهلي وشقيقي كانوا يأتون لي ويكتبون ما أُمليه عليهم. واستطعت بفضل هؤلاء أن أشارك في النشاطات الأدبية منذ ذلك الوقت.

لقب البصير:

أما عن لقب البصير فيقول: "عندما كتبت أول مقال في جريدة "البحرين" عام ١٩٤٣ أثناء المعركة الأدبية بين د.زكي مبارك والأديب أحمد أمين، وافقني البعض وعارضني البعض الآخر. وقد أحدث هذا المقال ضجة كبيرة وردود فعل بين القراء وكان هناك شخص اسمه عبد الرحيم روزيه شاركني الرأي، وآخر اسمه راشد المبارك خالفني الرأي، واتهمني أنني أنظر للأمور ببصيرتي، أما الذي وافقني فقال عن أنني أنظر للأمور ببصيرتي، وقد أعجبني هذا التعبير واستهواني وأصبح ملازماً لي منذ ذلك الوقت".

أديب الالتزام:

ويعتبر البصير من أنباء الالتزام الذين يكتبون من أجل أهداف وطنية وقومية وإنسانية، فهناك رسالة واعية يخاطب الأديب فيها أمته وأهله ووطنه، يتألم معهم ويعايش مسراتهم وأحزانهم، غير أنه يبحث في الظلام دائماً عن إضاءة، هذه الإضاءة تتبع من الحرية، حرية الأديب في التعبير وتحليل الواقع وطرح تساؤلاته دون خوف من مصادرة أو رهبة من نظام أو حاكم. ولذلك لن يستطيع الشعاعر أو الأديب أن يواكب عصره ويتلاءم معه، إلا إذا حقق لذاته هذه الحرية المسؤولة "ليتمكن المثقفون من إبداء آرائهم في كل ما يرونه مخالفاً للمنطق الصحيح، فنحن نعلم جميعاً أن كثيراً من العوائق والعقبات تمنع المثقفين من أن يبسطوا آراءهم وأفكارهم، إذ إن كثيراً من أقطار هذا الوطن تعيش في إرهاب فكري مخيف، لا يكاد أحد منهم يدعو إلى تحكيم العقل والمنطق أو إعادة النظر في بعض الأمور والقضايا، إلا ويجد سيف الإرهاب مسلطاً عليه. والقاعدة في كل الأمم المتحضرة

في هذا العصر أن تقارع الحجة بالحجة. أما عندنا فإن الحجة كثيراً ما تواجه بالقمع والاضطهاد، حتى كأننا نعيش في العصور الوسطى، وهذا أمر يجعل الأدباء والمفكرين يعتزلون نورهم، وكل أمة لا يمكن أن تكون مسيرتها صحيحة إلا إذا أخذ الأدباء دورهم وتمكنوا من أداء رسالتهم"

ولذلك نقرأ للبصير فتزداد قناعة بأنه يشق دربه بحرية تعبير يدعو لها، وعشق للعدالة يحلم أن تسود البشر ورفض للظلم الذي يطارد الأحرار والشعوب المناضلة فوق الأرض، تعاني وتتألم .. ويصرخ ضد التعسف والقهر وكل من يقف ضد القيم والمبادئ الإنسانية..

البصير وطه حسين:

ارتبط عبد الرزاق البصير بطه حسين ارتباطاً إنسانياً حين التقى به في كتاب "الأيام" وتوطدت أواصر الصداقة، ورشحه عميد الأدب العربي ليكون عضواً مراسلاً لمجمع اللغة العربية في القاهرة .. وبدأ البصير يشارك من خلال الأبحاث التي كان يرسلها أو بحضوره جلسات المؤتمر العام. وأعجب البصير بالجانب الإنساني والأدبي والعلمي لطه حسين، وكيف وهب هذا الأديب ذاته لتربية ضمائر البشر والاطلاع على مختلف الفنون والعلوم، التي برعت فيها الشعوب وتفوقت واجتازت حضارات كثيرة، وكيف صمد طه حسين أمام خصومه وخاض معارك أدبية وسياسية ضد الأحزاب، وأساء فهم بعض مواقفه حول الشعر الجاهلي وحرية العلم والمعلمين، ونهضة الشعب والقضاء على الأمية والفقر والرجعية.

وفي الحقيقة نلمح في كتابات البصير تأثيراً واضحاً بأسلوب طه حسين، فالبصير يميل إلى اللغة الفصحى الثرية ويبتعد دائماً عن اللفظ الخامل، ويؤثر الإطناب والمترادفات في الوصف ويسهب في تحليل الفكرة. ويهتم البصير أيضاً بإدخال نصوص شعرية في ثنايا مقالاته لتدعم فكرته وتوضح المعنى وتبسطة أمام القراء.

البصير والشعر:

سافر البصير في أول رحلة له إلى لبنان صيف عام ١٩٥١، والتقى بأول فتاة خفق لها قلبه في بلدة (فالوغا) فقد كانت تقرأ له الصحف بصوتها الهامس الرقيق وتمضي معه معظم النهار، واكتشف أن لها رأياً في الحياة يلائم رأيه ومعتقداته فكتب فيها:

(الله يا أيام فالوغا هيهات أن نلقى لها من مثيل
فيها قطعنا كل ما نشتهي من خلق عذب وظل ظليل)

وقد أورد هذه الحادثة "خالد سعود الزيد" في كتابه "أدباء الكويت في قرنين" (ج ٢ ط ١ ١٩٨١)، مضيفاً أن البصير لم يقل الشعر قبلها .. ولم يقله بعدها مطلقاً. ولكن من يتابع مقالات البصير يكتشف بعض النصوص الشعرية التي يستشهد بها مع أفكاره، دون أن يشير إلى قائلها أو شاعرها، ولذلك يرجح بأن هنالك قصائد كثيرة كتبها البصير متناثرة بين ثنايا مقالاته وتواضعاً منه بفضل أن لا يقول إنه ناظمها أو شاعرها.

وهناك أكثر من مناسبة اثارت أشجان البصير فنظم بضعة أبيات معبراً عن ذاته، ومن هذه المواقف يقول: "كان الزميل محمد قاسم يلقي كلمة بمناسبة الهجرة، فكان موقفاً كل التوفيق في الإلقاء وفي إجادة الموضوع فقال: والعرب هم العرب، وكان لهذه الكلمة أثرها في نفسي، فقد مست شعوراً خفياً حركت شجناً مكبوتاً، وكان من نتائجها أن نظمت هذه الأبيات:

(هم العرب في كل العصور هم العرب إذا ما استطار الشر واستعظم الخطب
هم العرب إن ساروا قللمجد سيرهم وللعزة الشماء يستعجل الركب
هم العرب ما هابوا جحافل قيصر ولا راعهم كسرى الأعاجم إذا هبوا)

وإذا كان البصير قد أكد أنه نظم هذه الأبيات، فإنه قد عدل عن ذكر ذلك في

بعض المقالات. فقد تحدث في مقال له عن "الأدب وحتمية الوحدة"، وأورد نصوصاً لشعراء كثيرين دعوا للوحدة العربية واستثاروا عزائم الشعوب، وعبروا عن مواقف النضال ضد الطامعين، فذكر نصوصاً للزهاوي وفؤاد حجازي ومحمد علي الحوماني ومحمد بهجت الأثري وحافظ إبراهيم، وفي نهاية المقال يقدم نصاً شعرياً دون أن يذكر اسم قائله يقول: وأي حر لا تهتز مشاعره حينما يقرأ هذه الأبيات:

(حلل الحب ما التعصب حرم	واتحدنا فما خلقنا لنقسم
شرع مجدنا سواء نسبنا	مجد صئين أم نخيل المقطم
حدثونا عن انفصال فلذنا	باتصال من العواطف محكم
رب سور على الحدود منيع	إن لمسناه بالشعور تهشم
ما بناه علوج عهد انتداب	كيف تبنيه دولة الخال والعم
شهد الله ما أردنا زعيماً	غير من حرر البلاد ونظم
والزعيم الذي يقود السرايا	يوم ثار هو الزعيم المعظم)

وفي مقال بعنوان: "النظرة الصحيحة للحياة" يقدم البصير نصاً شعرياً دون أن نعرف اسم الشاعر صاحب النص، وإن كان قد ذكر أسماء شعراء آخرين مقترنة بأشعارهم، ومنهم نسيب عريضة ومعروف الرصافي وإيليا أبو ماضي، ولكن هذا النص الشعري جاء مجهول الهوية، وإن كنت أعتقد أنه للبصير:

(إذا لم تسعك النفس فالكون كله	وآفاقه للمرء أضيق من قبر
ففي الفكر نيران وفي الفكر جنة	وما آفة الإنسان إلا من الفكر)

وإذ ذلك نكاد نحسب بأن هذه النصوص للبصير، وقد رفض أن ينسبها لنفسه، لاعتقاده أن الشعر مملكة لها طقوسها الفنية وإبداعها الراقى، وتواضعاً منه لا يرى أنه ينتسب إلى مملكة الشعر أو عالم الشعراء وإن كان حقاً لديه رصيد من هذه

القصاصد التي تمنحه لقب شاعر مبدع.

فهذا رثاؤه عندما علم يفقد أحمد البشر الرومي الصديق والإنسان، فيقول:

(يا راحلاً أكبرتك الحادثات وما أكبرتها عند تليين وتشديد
أبكيت حتى العلا والمكرمات وما جفت عليك مآقي الخرد الخود
وبات أهلك والأصحاب كلهم عليك ما بين محزون ومعمود
يبكون فقد امرئ للخير منتسب بالبشر منتقب في الناس محمود)

ولذلك لا بد من البحث مرات كثيرة في أدب البصير، لعلنا نعتز على نصوص شعرية داخل أوراقه الخاصة ومكتبه. فقد كان طه حسين يكتب الشعر وتوفيق الحكيم ومحمد متولي الشعراوي، ولكن هؤلاء أخفوا مشاعرهم الذاتية وأحاسيسهم الرقيقة وانساقوا في تيار أهداف اعتبروها أجمل وأعلى وأرقى من التعبير عن الذات. ولكن جاء من نشر قصائدهم بعد رحيلهم، فكانت كنوزاً للنفس الإنسانية وارتباطها بالحياة والحب والألم.

ومما يؤكد سمة التواضع ما يقوله البصير في مقدمة أحد كتبه: "وكاتب هذه السطور من هذا النوع من الناس، يعتقد في نفسه أن طاقاته الفكرية والفنية طاقات محدودة جداً، وهو إذ يقدم هذه الأحاديث المتواضعة إنما هو من باب الاستجابة لكثير من الأصدقاء، ثم إنه يرى في تقديمها نوعاً من التعليم للكاتب نفسه، فربما يقرأها ناقد نزيه فيفضل بإرشاده إلى ما ابتعد عنه من صواب الفكر وينبئه إلى ما غفل عنه من خطأ في الأسلوب"

البصير في سطور:

حفظ البصير القرآن الكريم في كتاب المطوعة صالحة الشمالي (معلمة أهلية) في مدرسة مختلطة، ودرس الحكمة والفلسفة وعلوم الدين على يدي الشيخ حسين الفيلي، ثم سافر إلى الخارج لإكمال دراسته.

- عند عودته عمل قاضياً ٢٤ عاماً في محاكم الأحوال الشخصية. اهتم بالأدب ومحاولة التعبير عن الذات فنشر أول مقال له في جريدة "البحرين" عام ١٩٤٣م، ثم تعرف على الحركة الأدبية في الوطن العربي فكتب إلى مجلة "الرسالة" لرئيس تحريرها أحمد حسن الزيات.

- في عام ١٩٥٢ اشترك في النادي الثقافي القومي الكويتي وكتب مقالات في إصدارته مثل: مجلة "الإيمان" و"ملحق الإيمان". كما ساهم بالكتابة في مجلة "البعثة" التي كانت تصدر عن بيت الكويت بالقاهرة.

- شغل وظائف أخرى هي: أمين مكتبة دائرة المطبوعات والنشر عام ١٩٥٦م، وأمين مكتبة وزارة الإعلام حتى عام ١٩٩١م.

- كان عضواً في مؤسسات ثقافية وأدبية منها: المجلس الاستشاري للإعلام، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، لجنة التراث العربي والبحوث والترجمة، النادي الثقافي القومي عام ١٩٥٢. ولجنة الرقابة ورابطة الأدباء.

- من مؤلفات البصير: "تأملات في الحياة والأدب"، "قي رياض الفكر"، "شعراء مجهولون معروفون"، "الخليج العربي والحضارة المعاصرة"، "نظرات في النقد والأدب".

تحدث عنه معاصروه من الأدباء والمفكرين، فيقول عنه محمد جابر الأنصاري: "اكتشفت في عبد الرزاق البصير كاتباً يتصف بوضوح الفكر وعفوية الأسلوب، إلى جانب ما تمتاز به عقليته من انفتاح إنساني وصفاء عربي، ونزوع نحو التقدمية والروح العلمية والتحليل الفلسفي المتقدم"

ويقول د. محمد حسن عبد الله: "إنه أسخى كتاب المقالة في الكويت قلماً، فما تكاد تمضي مناسبة أو يلم حادث إلا ويكون قلم البصير أول المستجيبين. فكتب في السياسة المحلية والقومية وفلسفة الفن والترفيه والرحلات والمسرح والقصة والنقد الأدبي والحضارة والأخلاق، والتراث والأديان والمذاهب والصحافة".

وتذكر الأديبة ليلى محمد صالح في كتابها "أدباء وأديبات" (١٩٩٦ الكويت):
"البصير هو أحد الأدباء الصامدين على أرض دولة الكويت أثناء العدوان
الآثم. كان يرى الخراب والدمار والسلب والنهب ويتألم وهو العربي الانتماء القومي
الهوى. كان يختزن الكم الهائل من الحزن بصدرة الواسع حتى جاء يوم التحرير
فخرج يشم رائحة الكويت".

توثقت علاقة الأديب البصير مع طه حسين عندما كتب عنه البصير مقالاً
ونشره في مجلة "الرسالة"، ثم أرسل المقال إلى عميد الأدب العربي الذي بدوره
كتب للبصير وتعرف عليه. وعندما زار البصير القاهرة عام ١٩٥٣ قام بزيارة طه
حسين وتحدث معه عن كتاب "الأيام"، وكيف كان له أثر كبير في نفسه وحياته.
ويقول البصير عن هذا الموقف: "كان الحديث جداً لطيفاً وواصلت زيارة طه حسين
كل عام، واجلس مع ابنته أمينة وزوجته سوزان التي لا تتكلم العربية بفصاحة".

وقد أعجب طه حسين بموقف البصير ونضاله ومثابرته وتغلبه على قهر
الزمن، وشجعه بأن رشحه عضواً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة.
ويقول الباحث الكويتي خالد سعود الزيد عن البصير في كتابه "أدباء الكويت
في قرنين" (الجزء الثاني - الطبعة الأولى ١٩٨١): "عربي الوجه واللسان حرمة
الحياة نعمة البصر، فأشرق ببصيرته عليها معطياً إياها العطاء الأوفى".

ويقول عنه عبد العزيز الصرعاوي: "هو صاحب قلم وحامل رسالة منذ حوالي
نصف قرن من الزمان، هي رسالة القلم ونشر المعرفة والثقافة والتنوير والانفتاح
على مختلف التيارات المعاصرة، الفكرية والعلمية والثقافية والسياسية، يسدعو إلى
التواصل والبعد عن التعصب والفرقة والتخاصم. هو بكل المقاييس رجل عصامي
كون نفسه بنفسه حتى أصبح علامة مضيئة بارزة في سماء الكويت".





ناظم الجعفري:

آخر رواد الجمال في رواق الإبداع

ناظم الجعفري:- الإيمان الصادق والعلم والإتقان أول شروط الفن الخالد

- ليس في الفن مدارس بل حرفية وإبداع والفن الجيد هو فن عالمي

تراه من الصباح المبكر في الأحياء الشعبية الضيقة، وفي الأسواق المزدهمة التي تضج بالحركة والحياة اليومية، تراه معه قلمه وأوراقه مستغرقاً برسم قسّمات الوجوه ومعالم التراث المتألّقة: المدارس الأثرية، المساجد القديمة، البيوت والأسواق الشعبية المتشوّعة بعطر الماضي، يقضي نهاره يخطط ويرسم، وينقل إلى الأوراق بعين الفنان البصيرة بمواطن الجمال وروح الإنسان المتعشّقة لتراث الأجيال، كل ما اختزنته المدينة من مشاهد حضارية وإنسانية وحين يشعر الفنان بالاكتماء يتوجه إلى مرسمه الحميم، ليبداً رحلته الحقيقة في إنجاز لوحته الفنية المبهرة، وإغنائها بلمسات الإبداع السحرية، وألوان الحياة المشرقة، فتندب فيها الروح، ويسطع الجمال وتغدو عملاً أخذاً تكاملت له كل عناصر التقنية والموهبة الخلاقة.

ظل لقاء الفنان الكبير "ناظم الجعفري" أمنية غالية من بداية عملي الصحفي وظل الدخول إلى عالمه الخاص حيث ينجز مواضيعه الرائعة، حتماً دائماً بحول دونه شمم انفعان المكثفي بما يمنحه له الفن الصادق من رضى وسعادة، وعزوف الأستاذ الرائد عن بهارج الدعاية وصخب وسائل الإعلام، ولكن الفرصة واقتني مؤخراً وحظيت بالدخول إلى سرادق الإبداع، حيث أمضيت ساعة وبعضها، كنت فيها مبهوراً بما أرى وأسمع ولا أصدق بانني حققت أمنيّتي فعلاً.

مضى الفنان الجعفري يحكي لي بصوته ألحاني جوانب من رحلته الشائقة، وأنا أتقل بنظرتي بين أساريه الوديعه، وعينيّه المتألّقين - برغم تقنم العمر - بإسراع المحبة والسلام، ثم أختلس النظر إلى اللوحات الرائعة التي احتضنتها

جدران البيت والمرسم، فتحولاً إلى فردوس خيالي متدفق بالعذوبة والجمال ... كان يحدثني فأشعر بصوته يأتيني كموسيقا رقيقة وسط مشاهد الطبيعة الأسرة والوجوه المتألقة في لوحاته.

البدايات:

ولدت عام ١٩١٨ - يقول الجعفري - في عالم خارج لتوه من اتون حرب عالمية طاحنة وتفتحت عيناى في حارة شعبية، لأسرة دمشقية متواضعة، وفي مرحلة التعليم الابتدائي بدأت أتلمس خطواتي على طريق الرحلة الطويلة، اكتشف معلمي (شوقي جلال) وكنت في الصف الرابع بعد بذور الموهبة الفنية في خطوطى فأخذ بببدي وشجعني حتى بت أتعن رسم نماذج زخرفية تتدرج في مستوياتها وحين رغبت فيما بعد بالالتحاق بمكتب عنبر، أول مدرسة تجهيزية بدمشق اشتركت بمسابقة للتعبير ونجحت فيها وكان أستاذ الرسم (جورج خوري) فأفادني بخبرته ووضعني على أول الطريق الصحيح إلى حلمي الكبير.

كلفنا المعلم يوماً بعمل نموذج لغلاف كتاب يتطلب إبداعاً خاصاً، لكس يكون جذاباً ومغرباً للقارئ، فعدت للبيت وأمضيت أياماً منبطحاً على الأرض، أخط وأمحو وأرسم وألون حتى رضيت عما أنجزت، وفي المعهد جمع المعلم أعمال الطلاب وقيّمها ثم جاءنا بالنتائج .. كان قلبي لحظتها مرجلاً يخفق بانتظار درجتى .. ولم يخب ظني فقد كنت الأول ودرجتى ١٩ من ٢٠، وبذلك تحقق لي تفوق واضح رحلت معه أرسم لطلاب دار المعلمين وظائفهم، ومن يومها استحوذني الفن، ومألت عطلاتي الصيفية بالعمل مساعداً لمعلمي الذي كان يعمل بزخرفة الدور والقصور في دمشق، وكان عبارة أبي الدائمة تلاحقني الرسم لا يطعم خبزاً يا ولدي فأختر لك صنعة تأكل منها...

الحلقة الأولى: القاهرة:

جاءت النقلة الحاسمة في مسيرة "ناظم الجعفري" في مرحلة تالية (قرأت إعلاناً للكلية العلمية الوطنية) بدمشق - وكانت أيامها في مقدمة المدارس النموذجية - تطلب فيه معلمين لجميع المواد ولم أكن يومها قد نلت شهادتي التخصصية، فتوسط لي الأديب والفنان ممدوح حقي لدى مدير الكلية "منيف العاندي" فباشرت عملي فيها ثم تم الإعلان عالم ١٩٤٢ عن مسابقة لإيفاد طلاب لمتابعة التحصيل العالي بكلية الفنون الجميلة بالقاهرة، فأعانني المربي أنور الرفاعي في إرسال نماذج من عملي إلى الكلية، كان جواز سفري للالتحاق بالبعثة الدراسية، وفي القاهرة وضعت قدمي على بداية الطريق الصحيح إلى مستقبلتي الفني.

طلب إليّ في يومي الأول بالكلية تأدية امتحان عملي في الرسم، وتركت في غرفة مغلقة مع أدواتي وحسناء عارية (نموذج) فلم يمر غير وقت قصير حتى كان عملي منجزاً وحائزاً، على إعجاب الأساتذة وتقديرهم ... ولما كنت مثابراً ومستغرقاً في دراستي لا يشغلني عنها شاغل، فقد اختصرت سنوات دراستي إلى أربع سنوات تكاملت فيها خبرتي بشكل مكثني من تصحيح أعمال زملائي الطلاب ولما حل موعد امتحان التخرج، وجدتني أمام لجنة من فنانين مرموقين من خارج الكلية وطلب إليّ رسم لوحة تمثل فناً يعمل في رسمه وعنده عدد من الزوار، وقد أنهيت اللوحة - كالعادة بوقت قياسي وحزت عنها الترتيب الأول.

مشوار طويل مع الإبداع: تخرج ناظم الجعفري من القاهرة عام ١٩٤٧ وعاد للوطن ممثلاً بالحماسة والمحبة، ومعتزماً أن يجعل عمله الفني في خدمة بلده، وأن يسهم في نهضته من جانبيين:

الأول: أن يؤسس لمدرسة فنية راقية يحتضن فيها المواهب الواعدة، ويمكّنها من تحقيق أحلامها الزاهية لتكون بدورها الروافد الجديدة للحركة التشكيلية في سوريا.

الثاني: أن يزيح الستار عن وجوه الوطن الحضارية ويعيد الألق للتراث العريق من خلال توثيقه في لوحات فنية رائعة، وبالنسبة للجانب الأول، راح الفنان

الجعفري - من خلال عمله مدرساً للتربية الفنية في مدارس دمشق الثانوية - يحبب طلابه إلى الفن، ويغرس في نفوسهم نبتة الجمال لتنمو وتزدهر فأقبلوا عليه بملسؤهم شغف كبير بالمادة، وهو ما أثمر فيما بعد كوكبة من الأسماء الشهيرة في ميدان الحركة الفنية في سوريا.

وبالنسبة للمجال الثاني، افتتح الجعفري مرسومه بشاعر بغداد عام ١٩٤٨، وعكف فيه مواصلاً العمل والإنتاج ليل نهار، لتكون محصلته عشرات اللوحات الرائعة ضمها معرضه الفردي الأول الذي أقيم في العام نفسه، وقد حظي المعرض بإقبال واسع ولقيت أعمال الفنان الأنظار وتحدثت عنها وسائل الإعلام، وأثني عليها النقاد والفنانون، وبدأت شهرته تحتل مكانتها اللائقة بين رواد الحركة الفنية في سوريا ولاعتبارات متعددة منها: أسلوبه الأنيق الذي تمتاز فيه الواقعية بالرومانسية وبيوالم بينها في عمل اكتملت له شروط التقنية الفائقة والروحانية السامية فلوحاته الجميلة تجمع في آن واحد بين قوى الأداء حيث تبرز المتلقي أدق التفاصيل التي برع الفنان في اقتناصها وتسجيلها بصدق متناه وبين الحس الإنساني النبيل الذي تنطق به اللمسات الرشيقة المرفهة وبذا يصبح المشاهد جزءاً من العمل الإبداعي بما يعكسه هذا العمل من ألق الجمال وما يبثه في النفوس من دفاء وحميمة ومشاعر إنسانية.

ومن الالاعتبارات الأخرى كذلك اختيار الفنان لمواضيعه بعناية وتدقيق فمن المجالات الكثيرة التي خادها بريشته المبدعة اهتم الجعفري بموضوعين أثيرين إلى نفسه:

الأول: رسم الشخصيات (البورتريه) والوجوه الإنسانية بمختلف نماذجها، وهو واحد من أصعب الأعمال الفنية، لما يتطلب من عين ذواقة، وحسن مرفه ومهارة عالية وصبر كبير...

الثاني: رسم معالم معشوقته الأعلى: مدينة دمشق الساحرة، والتوثيق لمعالمها المتألقة على مدار الزمان: حاراتها الضيقة، بيوتها الشعبية، أسواقها، مدارسها

مساجدها ... وكل لمسة معمارية أنيقة تركها الجدود في المدينة وقد نsaf عدد لوحاته في هذا المجال وحده على خمسة آلاف لوحة بقياسات مختلفة. وقد حقق الفنان في المجالين تفوقاً بقصر عنه الوصف فأصبحت لوحاته قبلة الأنظار في سائر المعارض الفنية سواء في بلده أو في الخارج.

إبداع خالد في ذاكرة الأجيال:

شارك الجعفري في المعرض الدولي الثامن والخمسين الذي أقيم بمدينة (ريو دي جانيرو) عام ١٩٥٣ ونال الجائزة الفخرية الأولى، وأقنت "موسكو" عام ١٩٥٨ لوحته (حي الخضرية) بمكافأة مجزية. وشارك في المعرض الدولي بباريس عام ١٩٦٤ وحاز الميدالية الذهبية من اللجنة الفنية المشرقة على المعرض.

وفي آخر معارضه الفردية عام ١٩٦٠ بدمشق، تدفق جمهور حاشد إلى صالة المعرض لم تشهد المدينة حضوراً مماثلاً له، وكتب ناقد فني مشهور في سجل الزيارة: (سبقى أبناء جيلنا يذكرون بالعرفان عطاء ناظم الجعفري، ويفخرون بأنهم عاشوا في عصر الفنان الرائد) .. وفي ذلك العام أصبح رئيساً لقسم التصوير الزيتي بكلية الفنون بجامعة دمشق، وكان من بين طلابه في الكلية نخبة من فنانين سوريا: الفريد حتمل، أسعد عرابي، ممتاز البحرة، وغيرهم... وعلى أيديهم تخرجت كوكبة من الفنانين الشباب الذين مثلوا الروافد الجديدة للحركة التشكيلية السورية، ثم وبعد تقاعده عن العمل في الكلية وجد الفنان نفسه طليقاً لمتابعة عمله الحر، ولاستغراقه في إنجاز مئات الأعمال الجميلة، التي تراكمت في منزله ومرسمه، وتضم لوحات "البورتريه" ومشاهد الطبيعة، ومعالِم دمشق القديمة والحياة اليومية فيها، والمهن الدولية والأزهار والفواكه النمشقية.

في عام ١٩٧٢ دعي فنانو سوريا للمشاركة في المعرض الفني العالمي بإيطاليا، ضمن شروط محددة، ولم تتوفر هذه الشروط إلا في الفنان ناظم الجعفري

فحمل أعماله إلى المعرض، حيث استقبلت بحفاوة وتقدير كبيرين من النقاد والزوار على حد سواء، واعتمد الفنان الفرصة فرسم عشرات اللوحات لمدينة (بيروجيسا) الأثرية (١٧٦ كم عن روما) وما تزال لوحاته محفوظة في متحفها إلى اليوم.

إبداع أو لا إبداع:

■ أسأل الفنان القدير: في أي مدرسة فنية تستطيع أن ندرج أعمالك الإبداعية خلال مسيرتك الطويلة فيجيب:

إن المدارس الفنية التي تشير إليه ليست غير تسميات لأساليب دارجة على السنة المشتغلين بالرسم وأنا أبسط لك الموضوع كما يلي: دعنا نضع أمامنا عمليتين فنيين.

الأول: من إبداع فنان اكتملت له الشروط الصحيحة للعمل الفني، والأخرى لدخيل على الإبداع ونترك للخبير - وهو لا يعرف صاحبي العاملين - تفسيرهما والحكم عليهما، ومنه نستطيع أن نفرق بين الحقيقي والمزيف، وبمعنى آخر إما أن يكون العمل متقناً ومستكماً لشروطه أو، لا ... وإذن ليس هناك مدارس، بل إبداع أو لا إبداع.

■ ولماذا تجح أسلافنا في إثراء تراثنا فخلدت أعمالهم ثم توقفنا نحن عن متابعة المسيرة؟

يجيب الجعفري: كان الإيمان الصادق هو النبض المتدفق في الصدور يحرك الإبداع في الفكر والفن يقول تعالى: (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) ولكن المشايخ لم يتمتعوا في هذا القول المجيد فحرموا التصوير، وليس هنالك نص صريح بتحريمه، ولو آمنوا به بصنق وعرفوا ما فيه من إكبار وتبجيل العلم والعمل والابتكار لكانوا أول من ييسرك الإبداع الصحيح والملتزم ... إن النجار والبناء والمهندس، يتعرفون إلى عظمة الخالق القدير من خلال عملهم المتقن

ويعطون منجزات راقية، وأنا في هؤلاء أتقرب إلى الله بعملتي، فأجوده وأتقنه وامنح الناس ما يفيدهم ويجعل حياتهم أكثر سعادة.

■ بهذا المنظور إذن ما هي معادلة الفن الراقى الذي يكتب له الخلود.

أن يستوفي العمل شروطه كاملة بدون أخطاء الرسم أو التصوير (التجسيم) إن نظرة الفنان التحليلية قادرة على تجسيد المشاعر والعواطف الإنسانية المتقدمة في الأعماق ... وفي أعمالي كلها أنطلق من علم النفس، وأستطيع أن أقدم عن كل منها تقديراً تحليلياً يكشف عن دواخل النفس الإنسانية والمشاعر المحترمة فيها، لقد أمنت دوماً بالعلم وبالقائمة العلمية الثمينة للفن، ووضعت نصب عيني لافتة: إما أن أكون حقيقاً أو لا ... وإذا لم أعد قادراً على مواصلة طريقي ... فسأختار أية مهنة أخرى ... سأفتح مكتب زواج مثلاً).

■ ما الذي يحتاجه الفن العربي ليصبح عالمياً؟

الفن هو الفن حيث كان، وليست له جنسية محددة، أنت ترسم مثل الآخرين خلائق الله فإذا توفرت لك الشروط الضرورية فهو فن عالمي في حد ذاته. وهنا أنصح الجيل الجديد من الأبناء أن يمشوا الخطوات الصحيحة والمتأنيئة وعلى الطريق الواضح - وهو طويل وشاق - وأن يوفرُوا لعملهم مستلزمات من الصدق والصبر وعدم اللهاث وراء الشهرة، لأن الشهرة لا تعانق إلا المبدعين الحقيقيين.

كنز في قيو متعم:

ولا أنقل على الفنان المبدع، بل أرافقه في جولة ممتعة على أعماله الراقية التي أنجزها في مسيرته الطويلة وأطوف بعيني على عشرات اللوحات الفنية المثبتة على الجدران:

لوحات (بورتريه)، وجوه من بلادي، الحياة اليومية، الأحياء القديمة، مساجد

دمشق وقبايها المهن اليدوية، الأزهار والفواكه الدمشقية، وهذه كلها أعمال موسوعية توثق لمدينة دمشق الخالدة.

وأسأل: هل أنا حقيقة وسط هذا المهرجان الخلاب أمتع بصري بسحر الفن الراقي؟ أم هو حلم ما يلبث أن يتزائل وأسأل بمرارة أين أصبحت محصلة هذه المسيرة الشاقة والجميلة في آن؟

لقد رجوت ألا أ طرح هذا السؤال يوماً، فأنيكاً في القلوب حسرة فوق الاحتمال ... إن كل هذه الأعمال الباهرة، إما معلقة على الجدران في بيست الفنان، وإما مكسدة في صناديق كرتونية بالعشرات، أو مكومة في قبو مظلم تتآكلها الرطوبة والعنمة.

لقد همس الفنان باستحياء، منذ سنوات، في مسامع محبيه عن رغبته بإهداء أعماله للدولة مجاناً لتبقى محفوظة في متحف خاص به، يقام في بيت من بيوت دمشق القديمة وهي بالعشرات في تصرف محافظة دمشق، وما سمع الهمسة مسؤول.. كما طرح الفنانون والنقاد في مسامع المسؤولين فكرة تكريم أعمال الجعفري وقد أشرف على شيخوخة لا ترحم، ولم تر الفكرة النور إلى اليوم، ويبقى الكنز الفني مهماً في غياهب النسيان، وتبقى الثروة الوطنية التي لا يعادلها ثمن، مهددة بالاندثار، تستصرخ ضمائر المهتمين ... فهل من مجيب؟

أحب مدينته، وعبر عن مشاعره بعفوية وإخلاص

الحديث عن مدينة دمشق في أوابدها التاريخية، ومعالمها الأثرية، وبيوتها الدمشقية القديمة في سياق الفن التشكيلي والهندسة المعمارية والجماليات الشرقية، يفترض الحديث عن عوالم الفنان التشكيلي السوري العالمي "ناظم الجعفري" الفنية، فالعلاقة ما بينهما جدلية، وجود أحدهما يستدعي وجود الآخر بالضرورة لما بينهما من عشق ووله وتفاعل، وهذه المسألة جد مهمة وتحتاج لأكثر من وقفة تأمل واستبصار، وإلى دراسات تقييمية فنية وسيكولوجية.

لقد كانت وما زالت مدينة دمشق القديمة أغنية الفنان "الجعفري" ومعروفته الإبداعية ومنهله الدائم، وبات الفنان معها كالعاشق الواله الذي لا يعرف لمحبتة حدوداً، هكذا كانت دمشق، وهكذا كان الفنان "ناظم الجعفري" فقياً لهذا الإرث الخالد وفاء لا يوصف، ومجالاً حيواً لمآثره الفنية التسجيلية في جماليات مميزة، آيات تشكيلية لتفاصيل يومية مليئة بدقائق الأمور في لوحات تشكيلية مشبعة بالديمومة ونسج الحياة، توثيقية، تسجيلية، مرجعية في كل خطوطها وملوناتها الإبداعية، ومكوناتها البنائية، وفي كل حي من أحيائها، وكل مئذنة في جوامعها، إلا وتجد لها متسعاً في لقطات فنية مباشرة مفعمة بالحياة والشموخ والأصالة، متجاوزة حدود الزمان، صارخة في وجه ناطحات الإسمنت العالية المليئة بصخب المدينة المعاصرة وضجيجها.

الفنان "ناظم الجعفري" غني عن التعريف، وهو من أكثر الفنانين السوريين شهرة في الساحة العربية والعالم الغربي ... تجاوزت مكانته الفنية حدود المنطقة العربية، وهو بحق أحد الفنانين الرواد الذين أرسوا أحجار الأساس المتينة لإقامة صرح وبنيان الفن التشكيلي السوري المعاصر، لما له من دور مؤثر وفاعل في تنشئة الأجيال الفنية منذ خمسين عاماً خلت، أسلوبه الفني ومنهجيته التعبيرية تأثرت منذ البداية في موطن الدراسة الأكاديمية التي تلقى فيها علومه، وصقلت موهبته

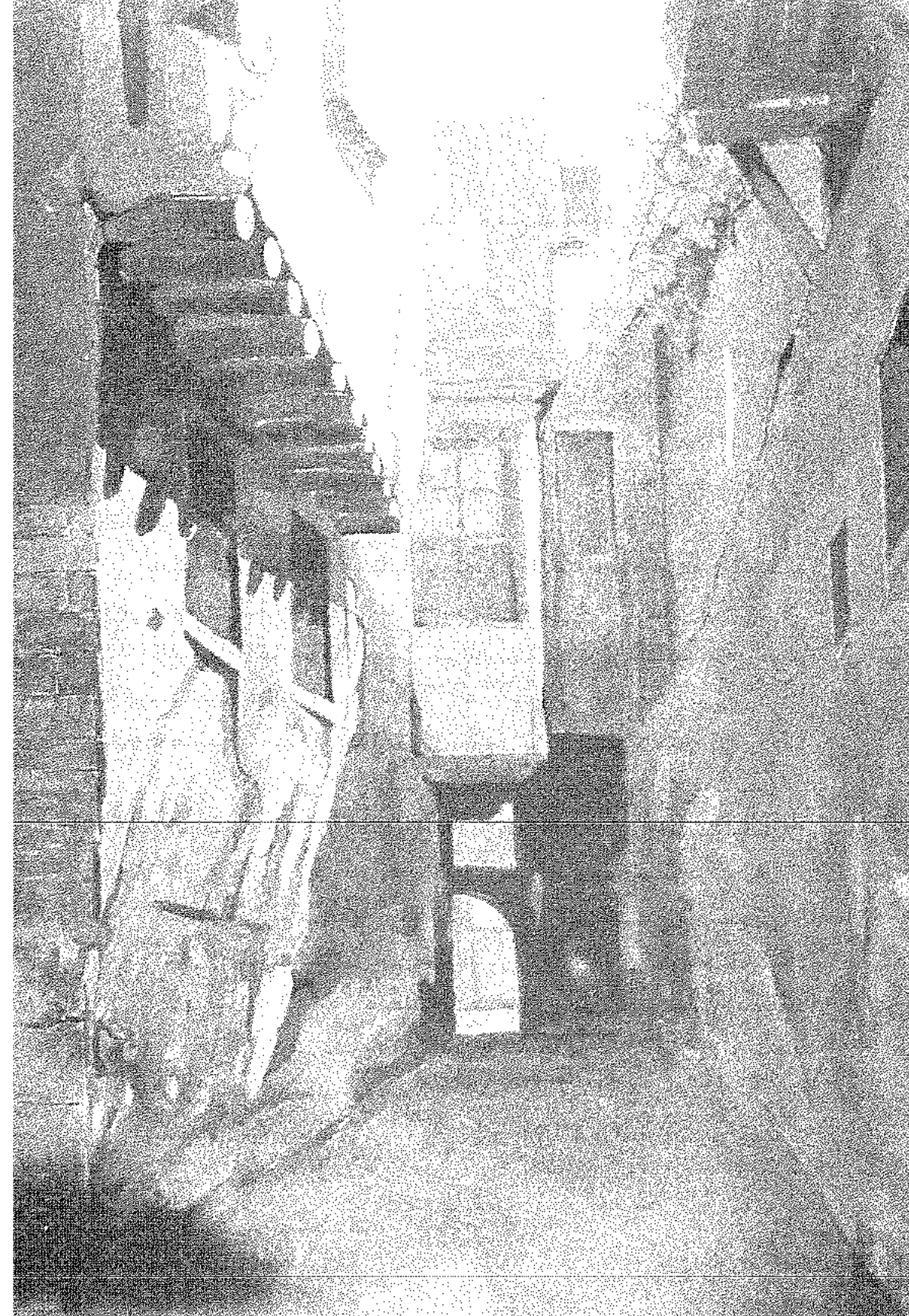
المبكرة حيث أخذت مؤثرات هذه المدرسة وسماتها تصبغ أعمال الفنان بشكل واضح، أسلوباً فكرياً وطريقة تعبيرية وتقنية في التعامل الفني مع مكونات عمله، والفنان "الجعفري" له فلسفته ونظرته الخاصة للأمور في الفن والحياة منحاز تماماً إلى فنه وأسلوبه التعبيري "الانطباعية"، ولا يقبل ولا يرضى الخروج عن مفهومه الذاتي التربوي والإنساني والتكويني لمفهوم الفن، ودوره الوظيفي في بناء صرح الحضارة والحياة بأسمى معانيها، وإحقاق الحقوق وكشف خفايا النفوس كحالة راقية من حالات الاستبصار والتعميق وشمولية النظر الإنسانية في الحياة وأسرارها، ولا يتعايش مع ما يعرف بالحدائث والمعاصرة التعبيرية في الفن كالتجريدية، التكعيبية الدائرية، وغيرها والمتأثرة بالمدارس الأوروبية الوافدة.. فالفن لديه له وظيفة اجتماعية، إنسانية، وجمالية، محددة منسجمة وقوله تعالى: ﴿وَوَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَكْوِينٍ﴾، فالجمالية وواقعية النقطة والانطباع التسجيلي هي المرتكزات الأساسية التي ينطلق الفنان من خلالها في صياغة عمله الفني الإبداعي، دون تشويه لهذا المخلوق الجميل، فالأفراد باختلاف فئاتهم الاجتماعية هم محور اهتمامه ومجاله الحيوي في تصوير الحياة بأبهى صورها، اللون لديه مليء بالخصوصية، وطريقته الأدائية في تنفيذ محتوى إبداعه ونماذجه لا تقف عند حدود المشاهدة العادية لتصوير "الموديل" وإنما تتجاوز في سبر أغوار النفس وأعماقها، والكشف الصريح عن كينونته النموذج وطبيعة الشخصية، وكأن الفنان يمثل حالة الطبيب النفسي الماهر الذي يحسن وضع اليد على الوجد، ملوناته وضربات ريشته تأخذ حالة الانطباع الأول المحبب للنفس في تفاعل داخلي للفنان مع موضوعه وتندرج في إطار الواقعية التسجيلية، بلمسات وتوشيدات انطباعية لا ترى إلا عن بعد ومن خلال النظرة الشاملة للكتل البصرية كوحدة متألّفة ومتكاملة في كل أبعادها وقيمها الشكلية واللونية، في تناسق وتوزع "هارموني" للون الموصل إلى أسرار اللوحة الخالدة.

وأنماط الفنان التعبيرية تتجسد في أربع تقنيات تصويرية رئيسية:

(قلم الرصاص والفحم، والألوان الزيتية، ألوان الباستيل، وأقلام الفلوماستر الملونة)، اهتمامه بالنموذج الإنساني والتعبير الجمالي عنه واضح في كل لوحاته، يعتمد في بناء مكونات عناصره على التوزيع الدقيق والمتناسق للخط واللون لمحددات الكتل البشرية والخلفيات البنائية، تأخذ منحنيين الأول تسجيلي مباشر لهذه المكونات من الطبيعة والحياة اليومية العامة، والثاني من خلال نماذج (البورتريه) في جلسات تصويرية في مرسومه، وفي كلا الحالتين نجد البناء الدرامي الملحمي لمكونات شخوصه من كم تعبيرية ترصده عين الفنان الخبيرة والثاقبة في ألوان منسجمة ومتوافقة حيناً ومتناقضة في تسجيل انطباعات حسية إدراكية يطرقها الفنان بريشته ضربات جميلة الإيقاعات برتابة تكاملية، ما بين تدرجات الألوان الدافئة والباردة والمتجسدة في ألوان الطيف (السبعة)، تأخذ حيويته وإشراقها من أشعة الشمس الذهبية، أما بالنسبة لرسومه المنفذة بتقنية أقلام (الفلوماستر) الملونة فهي بدورها مدعاة للإثارة والتقدير لأهميتها الفنية والتاريخية، إذ تفصح بما لا يقطعه الشك عن قدرة الفنان الحرفية والنصورية الفائقة في رسم نماذجه المباشرة - دون الاستعانة برسوم سريعة (كروكي) - حيث يدخل الفنان من خلالها في حالة وآه وعشق حقيقي لمكونات عناصره الفنية، مسجلاً مآثر مدينة خالدة في بيوتها الدمشقية القديمة، كنوع من المحبة والتوثيقية تتجاوز في جماليته وكمياتها أية تجربة مماثلة.

وإن دل هذا على شيء إنما يدل على جودة فائقة وأصالة تعبيرية لفنان متمرس، مبدع خلاق أحب بلده حباً كبيراً، وامتلك مقدرة تصويرية شاملة للتعامل التقني والفكري مع نماذجه في أسلوبية تعبيرية مميزة تفيض شفافية وحيوية وجمالية.





نصير شوري:

رؤيا جديدة وأسلوب مختلف، مع كل عمل فني جميل

في المعرض الرابع للفنون الجميلة الذي أقيم صيف عام ١٩٥٥ بدمشق، تمهل الجمهور العاشر من النقاد والمهتمين بالفنون، عند لوحة متميزة تصدرت ركناً في صالة العرض، أسماها مبدعها الفنان "نصير شوري" "إبتهاال" وقد لفت اللوحة الأنظار بتقنياتها الفائقة وتعبيرها الصادق عما يكنه الفنان من شاعر مرهفة، ويشر هذا العمل المميز بانطلاقة فنان قدير، احتل مكانته اللائقة في مقدمة مبدعي الحركة التشكيلية في سوريا.

حدثني الفنان ذات أمسية بحكاية الحسناء التي ألحقت له بهذه اللوحة الجميلة وهي صبية في العقد الثاني من عمرها، ومن أسرة كريمة فسي "صوفيا" دمرت الحرب العالمية الثانية وطنها، وقضت على أسرتها، فلجأت إلى ألمانيا مع أمها المريضة، حيث عملت ليل نهار لتعيلها وتسهر على رعايتها، متابعة في الوقت نفسه تحصيلها في مدينة فرانكفورت ... فلما ماتت الأم توجهت الصبية إلى روما وعملت مودياً لواحد من كبار الرسامين الإيطاليين ولكن متاعبها تزايدت جراء وبلاات الحرب وتعطلها عن العمل وفي تلك الآونة تعرفت على طالب سوري يدرس الفن في روما فرافقته لدى عودته إلى الوطن لتعمل بالمراسلات التجارية، وفي دمشق، زارت مع صديقتها مرسم الفنان "شوري" الذي استمع إلى حكايتها بروح الفنان الإنسان، فاندفع يرسمها مستوحياً من الحكاية الحزينة موضوعاً شفافاً تتجلى فيه الضراعة إلى الله، ليكشف عنها همومها، ويضيء دربها إلى السعادة وكانت لوحة "إبتهاال" التي نالت الإعجاب، وحازت بجدارة على جائزة المعرض الرابع للفنون الجميلة يومذاك، وكانت بداية المسيرة المتألقة للفنان الرائد.

ولد نصير شوري بدمشق عام ١٩٢٠ وأوفد إلى بعثة لدراسة الفنون في روما

عام ١٩٣٩، ولكن اندلاع الحرب العالمية اضطره للعودة، والالتحاق بكلية الفنون الجميلة العليا بالقاهرة، ليتابع تحصيله الفني على أساتذتها الأعلام، ويتخرج فيها بامتياز عام ١٩٤٧ وشهدت المرحلة الثانية تنقله بين عواصم الفن العالمي، باريس وروما وصوفيا، ودرسدن، وطوافه في متاحفها العريقة، ومعارضها الفنية الشهيرة ليعيش في أجواء الإبداع ويطلع على مدارس الفن وأساليب المبدعين المتفوقين ويختزن في أعماقه ثروة من كنوز التراث الفني الراقي، فلما عاد إلى الوطن عمل بالتدريس في كلية الفنون الجميلة العليا بدمشق، وتوالت معارضه سنة بعد أخرى، يقدم فيها نتاجه المرموق الذي .. لقي الترحاب والتكريم، وأهله لاحتلال موقعه في الصدارة مع كوكبة المبدعين الرواد أمثال مجاليه: ميشيل كرشة، ناظم الجعفري، محمود حماد، صلاح الناشف، محمود حلال ورشاد قصبياتي وغيرهم.

وقد بادر النقاد والباحثون في الحركة التشكيلية السورية إلى دراسة أعمال الفنان شوري، ومتابعة مسيرته الفنية المتألقة، وتقييم أعماله المبدعة، فذكر الدكتور "عفيف البهنسي" أن شوري عرف منذ بداية ممارسته الفنية، في الثلاثينات، أن هدف الفن هو التعبير عن جمال الطبيعة، ولم تكن هذه المعرفة جديدة في ذاتها، ولكنها لم تحمل دائماً المسؤولية التي تحملها الفنان.

إن ثمة أنماطاً للطبيعة: في حد ذاتها، والطبيعة في الرسم، والطبيعة في رؤية الفنان، ولكن النمط الذي اختص به الفنان، هو محصلة ذلك كله، وأمام مشهد في لوحاته، تتلمس المناخ في هذه المدينة الجميلة، وتتجلى لنا مهارة المصور في تنفيذ الألوان وتنفيذ اللمسات الانطباعية. ويعقب الناقد التشكيلي "طارق الشريف" بدأ مصير شوري انطباعياً حين كانت الواقعية هي السائدة، فعالج الألوان، وقدمها بشفاافية وموسيقاً تتدرج ثم تمرد فتساعل الآخرون: ما الذي يفعله شوري إنه يلجأ إلى الألوان فيغني الطبيعة بشاعرية وانطباعية وهي ليست بالانطباعية المألوفة، لقد توصل إلى لون خاص هو انطباعية بلادنا ومحلية الشمس فيها.

في كل لوحة كان نصير شوري يطرح قضية جديدة، ينظم اللون، ويعمل

علاقات كروية، ثم يقدم مساحات لونية فيها درجات مختلفة من الأزرق والبنفسجي والأحمر، إنه يفتح آفاقاً جديدة لم تكن نعرفها، لم يكن فناناً هادئاً، بل كان ثائراً، ما استقر على أسلوب إلا وبذله ولم يبذله وحسب، بل بذل في الرؤية، وفي كل مرة، يقدم شخصية "تصير" النائرة المتمردة التي طبقت جيلاً بأكملها.

وتتوالى شهادات النقاد والباحثين:

نتأمل لوحات "تصير شوري" يقول الفنان الدكتور غازي الخالدي فنشعر أن كل شجرة من هذه الأشجار، هي تأليف خاص به ليست موجودة في الطبيعة على الإطلاق، وهذا ما يسمى التأليف بالشكل واللون، وبدرجته وتقنيته وحساسية اللون فاللمسة وراء اللمسة، ومن خلالها يوحى بالحجم، ولكن ليس بطريقة اللمسة المتتابعة كما هي لدى الانطباعيين، بل عن طريق إخراج المساحة بشم ظل ونور، إلى الإحياء بالحجم، وهذا هو الأمر المذهل عند نصير شوري.

وحين انتقل الفنان في الستينات إلى المرحلة التجريدية، استمر يحمل شخصيته المتفردة، في أعماله التجريدية وجدناه يضع أجوبة سهلة لعلم التلوين، فلم يترك مجالاً للسؤال عن قضية أو عن فكرة، لأنه حين انتقل إلى التجريد حمل معه ملونته القديمة التي سبق وشكلت شخصيته، وأضاف إليها التقنيات الهائلة التي ركزها في أكثر لوحاته الجديدة.

وكان من أصدق المعبرين عن تجربة الراحل الفنان "تصير شوري" الفنان "قيصل عجمي" الذي يشير إلى أن البساطة المتناهية التي بلغها "شوري" لم يبلغها واحد قبله وهنا سر كبير، طبع كل مراحل شخصيته، فهو من الصنف الذي إذا رسم على لوحة بيضاء قطعة أرض، رأينا أن كل الزنايق الدمشقية تتفتح ناضرة فيها، وتتدلى عرائش الياسمين مثل شلال موسيقا رقراق في بيت دمشقي عتيق.

رحل نصير شوري في اليوم الرابع من تشرين الثاني عام ١٩٩٢ وبقي مرسومه الباهر في دمشق، ركناً حميماً يحتضن أعماله الخالدة، ومعرضاً لتجارب

الأنامل الواعدة، وملتقى لعشاق البوح الجميل بالريشة المرهفة، واللسون المصفي
والموسيقا الرقراقة، وفي ذلك المرسم أتوقف في كل مرة أمام تمثال الفنان النصفي
بتحية من القلب تترجمها همستي: شكراً لك فقد منحتنا متعة لا تقدر تتجدد كلما
طالعنا أعمالك المتقنة الخالدة.

علاقات ملونة تتناغم بحساسية متقدمة

هو فنان ومعلم نادر، تجمعت فيه من الصفات ما لا يجتمع لغيره من الفنانين، وأعطى العطاء الفني الذي وضعه في الطبيعة، بين فنانينا خلال مختلف المراحل التي مرت بها تجربته الفنية، وعبر مسيرته الطويلة التي امتدت لأكثر من خمسين عاماً، وكان فيها مجلياً، وله مكانته التي حافظ عليها، ونيل منها الكثيرون.

كان الفنان يرى أن الفن هو الأخلاق، هو السلوك الحسن الأمثل الذي يحتذى، مما جعل منه يتمتع بمواصفات خاصة، لا نراها عند غيره من الفنانين، وذلك لأنه أعطى الصورة المثلى عن التناغم والانسجام .. بين ما يرسمه الفنان في لوحته، وما يحياه في حياته، ومن هنا أنت العلاقة الوثيقة المترابطة بين الفنان .. وبين لوحته، بين ما يعيشه من مشكلات حياتية، وما يقدمه من أعمال فنية، وقدم لنا نموذجاً حياً، كيف يكون الفنان المعلم، ورسالته الاجتماعية، التي تحققت من خلال الفن، ورسالة الفنان نحو الآخرين، ورسالة العطاء التربوي تجاههم، والذي اشتهر به، فقد كان يعطي ما يسأل عنه، ويجزل في هذا العطاء، ويؤكد أن الخبرات الفنية، والمعلومات التقنية .. لا يمكن أن تحجب عن الطلاب والمتعلمين، ولهذا ربط الفن بالتربية الفنية .. برباط محكم، وأعطى المثال لرسالة الفنان المربي، ومنذ البداية .. وحتى النهاية.

وفي البداية أحب الطبيعة، وتدرّب على يدها، وصقلت الطبيعة رؤيته الفنية، واختزن في أعماقه المشاهد اللا متناهية، التي كانت مصدراً لا ينضب معينه، ويعود إليها في كل مرة، ومن الحوار مع الطبيعة .. تهذبت ألوانه، وشفّت، ورهفت، وتلاقى الواقع المرئي حوله مع اللوحة .. وتناغما، فكان الفنان (نصير شوري) الفنان المسجل للجمال والباحث عنه، ليقدّمه للآخرين، وتلاقت جمالية الطبيعة المرهفة بالنفس الشفافة، وقدم العالم المتناسق الذي يجتمع فيه الفن الجميل، والتناسق اللوني ولهذا قيل عنه بأنه شاعر ينشد أعذب الألحان للطبيعة، وتعكس لوحته عالماً متكاملًا، فيه الموضوع القريب من المشاهد، والألوان .. التي عالجهما بإحساس نادر، وشاعرية

ومع ذلك، كان لديه الإحساس الطاعى بأن رحلته الفنية، التي انطلقت من (الطبيعة) و(النفس المرهفة الأحاسيس) و(التناغم اللوني) .. ما زالت تحتاج إلى الصقل، وخبراته الفنية التي كانت فطرية، وبدون دراسة، تحتاج إلى التدريب السليم في أكاديمية فنية، ولهذا بدأ يفكر بالسفر للدراسة خارج بلاده، وكان يفكر في [إيطاليا]، ولكن ظروف الحرب العالمية الثانية منعت، ولهذا سافر إلى [القاهرة]. وقد مدح عدد من أصدقائه كلية الفنون الجميلة في (القاهرة)، ولتابع دراسة الفن، والتعرف على اتجاهات الفن المعاصرة، والحديثة، وحوار الفنانين المشهورين، وزار المعارض، وعاش في دوامة من الصراع الحاد والجدل، حول قضايا الفن، ووجد الحلول لكثير من المشكلات، ولاكتشاف نفسه .. في النهاية، وأثبت إمكاناته الفنية الأكاديمية، وتجاوزها، وعلى الرغم من المظهر الهادئ الذي يبدو عليه، فإنه كان يعيش دوامة من القلق والرغبة في الوصول إلى تحقيق أحلامه، تقوده روح البحث والاكتشاف والتجديد، وحب المتابعة والتعرف، ولا يتوقف عند مرحلة يطمئن إليها، إلا ويبدأ في البحث عن حلول أخرى، وعن الغايات الأبعد لما وصل إليه، وعن شواطئ جديدة لإدراكها.

لقد برزت لديه روح التمرد والثورة فهو لا يقف عند حدود في بحثه، ولا يتوقف عن هذا البحث، منذ أن اختار الفن طريقاً له، وحتى النهاية، وذلك لكي يتوصل إلى [كلمة خاصة]، كيف يكون الفن؟ وكيف يتطور عمله ليعطي ما هو جديد، ولا يتوقف هذا البحث، وحتى الوصول إلى نتيجة، وذلك من أجل تحقيق شيء جديد لم يسبق إليه، فيكون فنه طليعياً مجدداً دوماً، ولكنه يظل مخلصاً لرسالته الرئيسية الفنية، وهي خلق لوحة فنية تأخذ من الواقع، وما حوله من مشاهد، وتخلص لهذا الواقع، وتقدم الفن على أنه علاقات ملونة، تتناغم بحساسية شديدة، كأنها [سيميوتية من الألوان]، وسواء كانت اللوحة واقعية أو تجريدية أو واقعية جديدة، وظل هذا الارتباط بالألوان، هو الذي يشدنا إلى أعماله، ويقودنا إلى عالمه. لقد كانت المصاعب كثيرة، وذلك منذ البداية،

حين اكتشف موهبته، وشجعه الآخرون على المتابعة، ولكن إصراره على دراسة الفنون جعلته يصطدم بالأهل والأقارب، فهم لا يريدون لابنهم أن يتوجه إلى مجال لم تكن يحظى بالاحترام المطلوب، وكان عليه أن يخترق هذه التقاليد كلها، ويرفض ما هو مألوف ومتعارف عليه، ويتحمل النتائج والتبعات، ويحقق حلمه في الدراسة، والمتابعة لطريق الفن، وكان دوماً يواجه المشكلات التي تصادفه، سواء كان يرسم في الطبيعة، أو يعرض أعماله في معرض، ويتساءل الناس عما كان يفعله، ولهذا فهو واحد من الفنانين القلة الذين واجهوا جمهوراً معادياً لهم، في الفن، وفي التدريس، وفي إقناع الناس بأهمية الفن ودوره الحضاري والإنساني.

وكانت المهمة شاقة أكثر، حين عاد من الدراسة في (القاهرة)، وعالج الموضوعات بالصياغة التقليدية، وقدم اللوحات التي تؤكد على موهبته في هذا الميدان، ولكنه لم يلبث أن تخلى عن هذه الطريقة التقليدية، وبدأ يحس بأن الطريقة الانطباعية هي أقرب إليه من الطريقة التقليدية التي تحاكي الموضوع، وأن محاورة الطبيعة تتطلب منه أن يعطي ما هو أبعد من المحاكاة، فقدم لوحات تعتمد على الألوان وحدها، وتعتمد القيم التصويرية من خلال اللون وحده، وهكذا خاض معركة مع الفنانين التقليديين السابقين له، الذين كانوا يؤمنون بالصياغة التقليدية، والاعتماد على المنظور التقليدي، والخط المحدد للأشكال الذي يعتبر هو الأساس والمنطلق، وهو الذي يشعرنا بقوة العمل ومثانة التأليف.

وعلينا أن ندرك أهمية ما طرحه [نصير شوري] في تلك المرحلة، حين قرر أن يحرر اللوحة من المحاكاة، والرسم ضمن قواعد محددة، ومنظور مسبق يفرض عليه أسلوب التنفيذ، وحتى الألوان كانت عبارة عن نقل لألوان الأشياء المرسومة، فأعطى اللون الأهمية الأولى، وبحث عن أسلوب يكمل الطبيعة عن طريقه، والإضافة لتكون أجمل مما هي عليه الآن، ويملك العمل الفني العمق والحيوية المطلوبة.

لقد قدم الأعمال التي كشفت عن مدى قدرته على خلق حوار مع الطبيعة، لأنه يستمد من هذه الطبيعة، ويضيف إليها، ويخلصها من كل نشاز، في موقع شجرة، أو

لون، أو شكل، ويعطي العالم الداخلي للفنان، وهكذا أوجد لوحة انطباعية خاصة به، تتجلى الطبيعة فيها كما رآها، وتتناغم الألوان، وتوصل إلى استخدام معالجة خاصة باللون، وإلى استخدام ألوان خاصة به، ولا نراها إلا عنده، مثل اللون [البنفسجي] الذي برع في استخدامه، وقدمه في لوحات كثيرة، وهكذا أغنى الانطباعية بما هو جديد.

ولم يكن، هذا سهلاً في البداية، وكان عليه أن يقنع مرة أخرى، أن [الفن الانطباعي] هو الفن المفضل لديه، وأن ما يقدمه من لوحات لا تقل أهمية عن اللوحات الأخرى التي تنقل الواقع أو تسجله، أو تحاكي الموضوع أو تقدمه، وكانت تلك المهمة شاقة، لأن عليه أن يقنع الناس، بأن يتجاوزوا مفهوماً راسخاً لديهم، وهو أن الفن .. النقل عن الواقع، وأن الفنان الجيد هو الذي يستطيع أن يمارس النقل الأمين.

رسم "تصوير شوري" اللوحات العديدة، وشارك في أكثر المعارض الفنية التي أقيمت، وبدأ يستقطب الاهتمام، وينال الإعجاب والتقدير، ويحوز كذلك على الجوائز الفنية في الفترة ما بين (١٩٥٠ - ١٩٥٦) وكتبت عنه المقالات العديدة، والبحوث وتحديث الكثيرون عن أنه فنان الطبيعة والألوان، يمتلك انطباعية خاصة به، فيها جمالية التأليف، وحركة اللون، والمساحات أكثر مما هي مجرد تسجيل لمنظر أو طبيعة، وظل يحاور الطبيعة، ويعالجها، حتى استفد كل إمكانات التعبير، وخاض تجربة اللون حتى أعماق أعماقها، وأصبح مقتدراً على وضع اللون في موضعه برهافة ودقة لا تجاريان.

ويعد أن أعطى، كل هذه التجارب، وأغنى الحركة الفنية بأعمال فنية هامة، انتشرت في كل مكان، وبدأت تحظى بالتقدير والإعجاب، أحس بأن عليه أن يبحث لنفسه عن وسيلة تعبير جديدة، وأن الاستمرار في رسم المواضيع عن الطبيعة لن يجعله مجدداً بعد الآن، وأن عليه أن يذهب بالتجديد إلى أقصاه .. إلى [التجريد]، وأن طريق [الحداثة الفنية] الذي سار عليه، وسوف يقوده حتماً إلى لوحة هي [لون] أو [مساحات ملونة] وأن اللوحة هي تناغم ألوان، وأن عليه أن يبحث في هذه اللوحة، كيف تتناسق الألوان بدون موضوع واضح، وكيف يتخلى الفنان عن النقل عن الواقع

بشكل نهائي، ليرسم ما هو مجرد تماماً.

وأن هذا التخلي عن الموضوع، سوف يجعله يبحث في اللوحة بالذات، ويدرس الأشكال الحديثة من التعبير كيف يتم تشكيل اللوحة، وكيف نتوصل إلى خلق علاقات بين الألوان والأشكال تكون منظمة، ولها قدرتها على التعبير الفني، وهكذا درس اللوحة المجردة بعد اللوحة الانطباعية، واللوحة التقليدية، واختبر قدرته على التعبير عن طريق التجريد، ومنهم أهمية التجريد في إيصال الفنان إلى التكوين المدروس المنظم، الذي لا يعتمد على النقل عن الواقع، ولا على الأحاسيس الفردية الملونة الشعاعية، بل يعتمد على علاقة الأشكال ضمن المساحات، والألوان في التأليف، مما يقودنا إلى شيء جديد تماماً، وهو أن اللوحة الممتلئة والاتسجام في العمل الفني يأتيان من حسن تنظيم اللوحة، والقدرة على خلق علاقة حيوية بين عناصرها، وأن العمل الفني في النهاية هو عبارة عن تنظيم لمساحة مستطيلة، بالألوان والخطوط، وأن هذا التنظيم، يسعى إلى إيجاد عالم اللوحة الفنية، التي تستقل عن الواقع الخارجي، وما فيه من قوانين، وتستقل عن عالم الفنان الذاتي، وما يسجله الفنان على لوحته هو مستقل أيضاً.

ولكن هذه الأشكال المجردة التي رسمها (نصير شوري) في هذه المرحلة التي امتدت ما بين عامي [١٩٦٣ - ١٩٧٣] وضعت في موقع محرج جديد، إذ أن الكثيرين تساءلوا عن الأسباب، ولم تكن واضحة، كيف يتخلى الفنان عن رسم مواضيع مفهومة، ليرسم أشياء صعبة الفهم، وكيف يترك الرسم الواقعي الانطباعي، بعد أن حقق الشهرة، وإثبات المقدرة، وأكثر الجوائز أهمية، وبدأ صراعه مع المعادين للفن التجريدي، ومع المؤمنين بمهمة الفنان على أنه ينقل عن الواقع، مع بعض التحوير، ودون أن يصل هذا التحوير إلى لغة لا شكلية.

كان هذا الانتقال يتواءم مع طبيعته الفنية التي كانت تهوى التجديد وتبحث عن أشكال الفن المختلفة لتستفيد منها، والتي كانت لا تريد الوقوف عند حدود، بل تريد أن تعرف كل أشكال الفن، وكل طرائقه وتقنياته، وحبا للاكتشاف وللتجاوز، لا يتوقف

عند حدوده، ولا تحده أية عقبات مهما كانت.

ورسم نصير شورى مئات اللوحات المجردة، التي دلت على قدرته على التأليف الفني لعناصر اللوحة، والتي لا تقل عن قدرته على التأليف الانطباعي، وأن خبرته الشكلية في مجال التأليف الملون المتناغم، لا تقل عن خبراته الأخرى، ومن المعروف أن الفنان التجريدي يحول الأشكال إلى مساحات ملونة، وإلى أشكال مسطحة، تتوازن مع بعضها بعلاقات، أو تتداخل المساحة مع الأخرى ضمن تناغم معين، ويدخل اللون كعنصر هام يساعد على تأليف اللوحة ويقدمها، وهناك المفاهيم التجريدية [اللون - الكتل - المساحات - التناغم - الخ...]، وهي نفس قيم اللوحة الواقعية، لكنها مطبقة على موضوع لا واقعي، وهكذا يمكن للفنان أن يأخذ حريته التامة في خلق اللوحة دون قيد مسبق يفرضه الواقع، وعندما ينكر التصاميم، والتشكيلات اللا محدودة التي تعطي الفنان القدرة على خلق أشياء جديدة لم يسبق إليها وتقديمها ضمن إطار اللوحة.

لكن الواضح أن (نصير شورى) حافظ على مكتسباته من الانطباعية وما تعرف عليه من خلق التناسق اللوني، والمساحات الملونة المتداخلة، تذكرنا بإيجاد لوحة تتحرك الألوان فيها على سلم الألوان، وتؤلف حركة إيقاع شبيه بالإيقاع في الموسيقى، وهكذا أخذت الأشكال عنده والعناصر، تستفيد من قدرته على وضع اللون في مكانه ليتناغم لخلق لوحة مجردة .. أشبه بقطعة موسيقية، ولها خلفيتها الملونة التي نعرفها عند (نصير شورى)، وإضافات معينة لم تكن مألوفة عنده، وخصوصاً في مجال علاقات بين ألوان جديدة لم تكن موجودة في لوحته الانطباعية، مثل اللون الأسود، والذي لا نراه في الطبيعة، وهكذا جرب الأشكال المجردة، وقدم العلاقات الملونة، ودخل مجال التأليف الفني المحض الذي ينظم اللوحة على أساس أن اللوحة الفنية هي تنظيم للعناصر والمساحات المجردة وتناسقها وحركتها.

وحين استنفد هذه التجارب المتعددة في مجال (التجريد)، وأغنى أعماله بها واستقر على فن شخصي مجرد له صلاته به، وله دوره الكبير ضمن تجارب الفنانين

المجردين في سورية، بدأ يتخلى عن التجريد، ويبحث مرة أخرى عن صياغة جديدة للوحة، هي المحصلة والتجميع لكل الخبرات في الواقع والتجريد معاً، وهكذا ضمن لوحاته الجديدة الواقعية الحديثة، مفهوماً للفن يمتزج الواقع فيه مع التجريد، ويتفاعلان في كل مشهد، مما أعطى لفنه خصوصية لم نألفها عنده. وهكذا دمجت هذه الواقعية الجديدة، الرؤى المختلفة المختزنة للطبيعة مع (اللون)، وخبراته المجردة، وبحثه عن الصيغ الجديدة المختلفة عن المفهوم التقليدي للوحة الفنية، والمفاهيم المجردة كلغة، والعلاقات الموسقة المحضة. واكتشف أن المنظر يمكن أن يتألف من عناصر من الواقع، ومن عناصر من الذهن ويمكن للفنان أن يبذل الأشكال لتتسجم، وكذلك الألوان لتتناغم، وأصبح المفهوم الجديد للفن، هو عملية التأليف لهذه العناصر معاً، ما هو من الذاكرة، وما هو من الواقع، والجمال الجديد ليس جمال الواقع ونقله، وليس جمال التأليفات المجردة، وإنما الجمال الذي يمكن الوصول إليه عن طريق بحث في اللوحة بالذات، ولهذا فهذا الجمال يمكن صنعه بتأليف جديد مبتكر.

وحتى يتمكن من تحقيق هدفه، بدأ " نصير شوري" يرسم على أوراق صفراء بعض المشاهد ويؤلف في الذهن، ويتدخل في المشهد المرسوم حسب رغبته، وهكذا فاللوحة إعادة رسم الواقع عن طريق التأليف الفني، وليس ما نقله أو نبكره، وليس المجرد، بل إن لكل لوحة تفرداً، تارة يطغى التأليف، وأخرى يتناغم اللون بتدرجاته، وأخرى ترى فيه لوناً واحداً، وأخرى تدرجات لوتين متناغمين وتفاعلهما، أو تضاد بين تدرجات لون في المقدمة، مع لون آخر في الخلفية.

وهكذا أصبح الفن هو علاقة بين عناصر الشكل الطبيعية الموجودة، والمحورة بالمفهوم الخاص لعلاقات الأشكال، ومع اللون المختلف حسب اللوحة المرسومة، وأن اللوحة أصبحت مدروسة من كل جوانبها الشكلية واللونية، وتقديم لغة فنية جديدة مبتكرة في كل عمل من الأعمال، وبذلك أصبحت اللوحة تتمتع بشخصية خاصة، فيها جماليات الفن المحض، والواقع موجود بنكهة واضحة، لأن التأليف يتم لحظة العمل، والنتيجة هي تأليف جديد وتفرد، وعلى الرغم من التقارب التقني بين لوحة وأخرى،

لكن تبقى لكل لوحة تفرداها بجمالية خاصة.

لقد خاض الرائد المبدع هذه التجربة، بروح الفنان المحب للاكتشاف، والمحب للتجديد، وأعطى لكل لوحة خصوصيتها، من حيث التأليف والتنفيذ، ورسم مئات اللوحات التي سجلت المشاهد المختلفة، وعبر عن طريق هذه اللغة الفنية عن كل ما يريد قوله من مواضيع وأشكال.

لكن هذه التجربة، التي وصلت إلى قمة العطاء، قدمت الدليل تلو الدليل على قدرته على التعبير، عن طريق مختلف المواد الفنية والأشكال، وباستخدام التقنيات المختلفة، التي أعطت لفنه طابعه الخاص، ولم تقف عند هذه الحدود، ولا عند هذه الأشكال، وذلك لأنه عاد مرة أخرى ليجدد فنه، ويقدم المزيد من البحوث والتجارب، وسواء من حيث التلوين أو الأشكال.

لقد بدأت هذه المحاولة عام (١٩٩٠) وهو في السبعين من عمره، وذلك عن طريق رسم لوحات بلون واحد، ومشتقاته، لوحات كبيرة لها مواصفات خاصة، ولعل أهم هذه المواصفات:

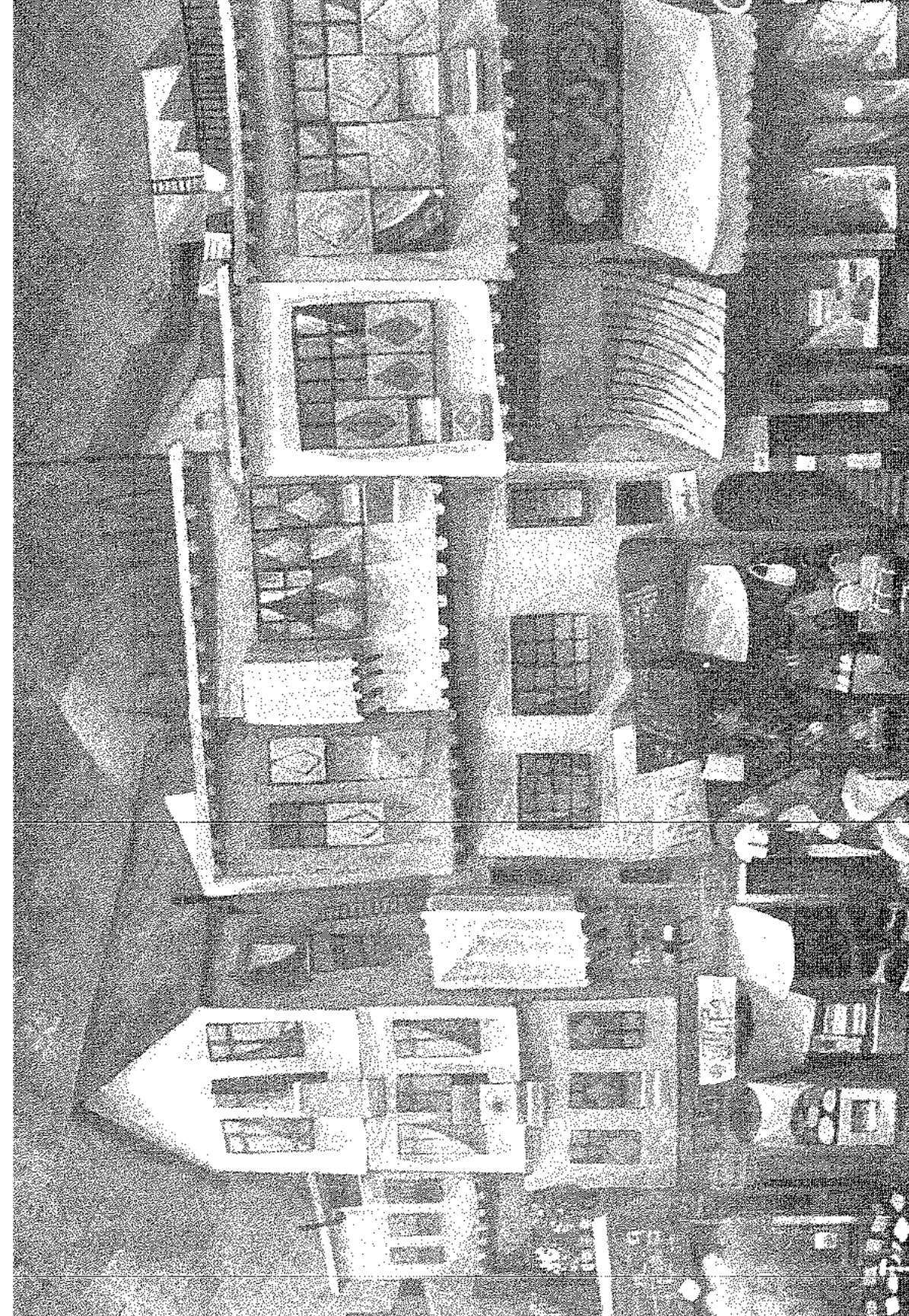
اللوحة ذات التأليف الديناميكي، وذلك بإضافة حركة عن طريق التدرجات الضوئية التي أصبحت تعكس الحالة الداخلية، الوجدانية، فالتأليف لا يقدم السكون الخارجي للشكل المؤلف، بل العناصر التي تتحرك وفق رغبة الفنان ليعكس عالماً جديداً من الأشكال والألوان، وهذا العالم الجديد له طابعه الهندسي، والتحويلات الطبيعية، لها جانبها المرتبط بالجمال الجديد، الذي نقول عنه تأليف محكم له جوانبه الشكلية، والملونة، ونصل إلى (الخيال) إذ نرى الحلم يدخل، كما يتداخل الواقع مع الحلم، وهكذا أصبحت تجاربه لها أشكالها المختلفة، ولها صياغتها المتنوعة التي تكشف عن قدرة فنية هائلة، ظلت تجرب حتى آخر لحظة من اللحظات كما ظل يبتكر ويجدد، ويؤلف، ولا يقف عند حدود ... ولم يمنعه من الاستمرار إلى النهاية، إلا الموت الذي جاء في لحظة من لحظات العطاء المستمر الذي لا يتوقف .. والذي جعله يعطي أكثر إنتاج له كماً، وأشدّ تعبيراً عن (نصير شوري) .. الفنان الذي لم يكن إلا

نموذجاً حياً للعطاء بلا حدود، وللاكتشاف والبحث الفني، في الطبيعة واللون والانطباعية والتجريد .. حتى قدم لنا ما هو شخصي متفرد كل التفرد ... ويعكس ما في نفسه، وأحاسيسه ورؤيته.

الفنان الراحل نصير شوري:

- ولد في دمشق عام ١٩٢٠/.
- درس الفنون في القاهرة (١٩٣٤ - ١٩٤٧).
- عمل مدرساً للتربية الفنية في المدارس الثانوية بدمشق ودار المعلمات (١٩٤٧) - (١٩٦٠).
- نال الجائزة الأولى في المعرض العام للفنون التشكيلية خلال أعوام (١٩٥٢) و (١٩٥٣) و (١٩٥٤) ونال الجائزة الثانية خلال أعوام (١٩٥٠) و (١٩٥١) و (١٩٥٥).
- أصبح مدرساً للفنون في كلية الفنون الجميلة (١٩٦٠).
- رسم اللوحات التجريدية خلال الفترة (١٩٦٠ - ١٩٧٠)، نظم (١٥) معرضاً فردياً. وشارك في مئات المعارض الرسمية والخارجية ومثل بلاده في أكثر من معرض ومناسبة.
- لوحاته موزعة في كثير من المقتنيات العامة والخاصة وخصوصاً (قصر الشعب - المتحف الوطني - وزارة الثقافة - القصر الجمهوري).





ممدوح قشلاق :

أستاذتي في الفن

- الطبيعة الخلابة، الملامح الشعبية، وهموم الوطن
- الفن الحقيقي يفعل أكثر ألف مرة مما تفعله الخطابات الرنانة
- في دمشق القديمة يرى الفنان مالا تقع عليه العين في غيرها من المدن

كنت وصديقي أتنقل بين اللوحات الفنية الجديدة، في معرض جماعي أقيم مؤخراً لأعمال الفنانين التشكيليين السوريين، حيث وقف بي أمام لوحة متميزة، تحلق قبالتها زوار المعرض. همس صديقي إنها لوحة "قشلاق" بالرغم من عدم وجود بطاقة تعرف بها، مثل سائر الأعمال في المعرض، وتابع:

لقد أصبحت أعمال "ممدوح قشلاق" بعد نصف قرن من الزمن تقدم نفسها متعرف بالفنان من خلال لمسات الريشة القديرة، والروح الشفافة في الخطوط والفواصل، وصفاء الألوان، وانسكاب الضوء الرقراق، وقبل هذا وذاك النبض الإنساني الذي يشكل تفاصيل اللوحة بمجموعها، ويشرح للمشاهد موضوعها الفني.

إنك من النظرة الأولى، وبنوما عناء تقول: هذه لوحة ممدوح قشلاق....

يرجع تاريخ الحركة الفنية في سوريا إلى حوالي نصف قرن من الزمن وبالذات إلى الفترة التي تلت تحرير سوريا من الاحتلال الفرنسي عام ١٩٤٧ وقد أقيم عام ١٩٥٠ أول معرض فني، ضم أعمالاً متميزة لعدد من الرواد الأوائل أمثال: محمود جلال، أدهم إسماعيل، محمود حماد، نصير شوري، وفاتح المدرس الفرد بخاش، نوبار صباغيان، ميشيل كرشة، رشاد قصيباتي، خالد معاذ، صلاح

الناشئ، وغيرهم.

ولم تمر غير سنوات قليلة، حتى بدأت الحركة الفنية بالتقدم والتطور، بسبب التشجيع الذي منح لأعمال الفنانين في مجالات التصوير الزيتي والنحت، وظهرت نتيجة لذلك المنافسة بين الاتجاهات الفنية التقليدية والحديثة، والتي أُنكتهما عودة الفنانين السوريين من بعثاتهم الدراسية في الدول الأوروبية، أصحابهم مؤثرات المدارس الفنية الحديثة في الغرب. ولكن هذه المؤثرات ما لبثت أن امتزجت بالتأثيرات المحلية، وتبدت ملامح البيئة واضحة في أعمال كثير من الفنانين السوريين، وإن كان مفهوم البيئة يختلف بين فنان وآخر كما اختلفت أساليب التعبير عنها. يقول الناقد طارق الشريف:

لقد كان "اللون" عند نصير شوري هو البيئة في حين كانت "الأرض" ومخلفات الحضارات القديمة عند "فاتح المدرس" ومثل الخط العربي اللا متناهي البيئة عند "أدهم إسماعيل" أما "لؤي كيالي" فقد كانت البيئة عنده الروحانية المنبثقة من الوجوه الحزينة وتمثلت عند محمود حماد "بالكتابة العربية وفق أسس عقلانية".

ثمة فنان متميز استطاع أن يضع يده على البيئة الحقيقية حين قرأ سطورها في كل ما يراه حوله من الملامح الشعبية: الناس البسطاء، مواضيع الحياة اليومية، الهموم الوطنية التعاطف الإنساني في صوره الكثيرة الجميلة.

كان "ممدوح قشلاخ" قد دخل إلى عالم الفن الجميل، في مطلع الخمسينات، حين شارك في معارض عديدة ما بين ١٩٥١ - ١٩٥٣، بأعمال مستوحاة من الواقع، نقل فيها بصدق عن الطبيعة، متأثراً بالجيل الرائد من الفنانين السوريين وبالذات: محمود جلال، الذي احتضنه ورعى خطواته الأولى في الطريق الطويلة، ومنه تعلم أن "الطبيعة" هي المعلم الأول ولا بد للفنان أن يعود إليها عند كل مشكلة فنية تصادفه فيجد عندها الحل المنشود، "كل شيء موجود في الطبيعة أولاً وقد اكتشفه الأقدمون ومارسوه بنسب متفاوتة عبر العصور، وعلينا نحن أن نتلمسه ونعيد كشفه، كل بحسب قدرته، والإحساس به من جديد".

المحطة الأولى: إيطاليا:

كان عام ١٩٥٣ محطة هامة في حياة الفنان، إذ أوفد بالبعثة الدراسية الفنية الأولى إلى إيطاليا، وهناك قبل في قسم الرسم والتصوير بأكاديمية الفنون الجميلة بروما وطوال خمس سنوات، كان يتعلم على يدي "روبرتو ميللي" و"فرانكو جنتليني" وينتسب إلى دورات إضافية في روما، ويكتسب مهارات في الرسم الجداري "الفريسك" وفن الميدالية وصك النقود، وفن الخزف والإعلان إضافة لمشاركته في النشاط الفني في العديد من المعارض الفنية الدولية، وقد بهرت مشاركته في مهرجان، "قياريجيرو" تحت عنوان "المنظر الإيطالي بعين الفنان الأجنبي" لجنة تحكيم المهرجان وحظيت بالجائزة الأولى، ليتقدم الفنان على عشرات المشتركين الأجانب من أقطار متعددة.

في السنة الأخيرة من دراسته، كان "ممدوح قسّان" قد تشبع بأعمال "بيرو ديللا فرانشيكا" واضع أسس المنظور الهندسي للعمارة، "ومازاتشو" فنان التعبير الإنساني الدرامي، وأعد أطروحة التخرج عن الفنان العالمي "جوجان" ونال دبلوم الشرف يتميز عام ١٩٥٧.

العربة الكارو في متحف كابروفو:

عاد الفنان إلى الوطن في نهاية ذلك العام، وبدأ عمله مدرساً للفنون في "درعا" جنوب سوريا وقد أمدته فترة عمله في الريف، بنسغ جديد تجلّى في مواضيعه المستمدة من مشاهد الطبيعة الخلابة، النابضة بالألق وإشراق الحياة، ومسن عيشة الفلاحين البسطاء، وعكف يومذاك على القيام بتجارب متواصلة بحثاً عن هوية ذاتية وأسلوب فني يميزه عن الآخرين.. وكانت محصلة هذه الفترة الرائعة معرضاً فريداً ضخماً بالمتحف الوطني بدمشق .. فاجأ الجمهور والنقاد على حد سواء، إذ اشتمل على أكثر من مائة لوحة زيتية و ٢٥ لوحة حفر على المعدن و ١٢ عملاً خزفياً وكانت هذه كلها تعرض لأول مرة في سوريا.

ثم ما هو غير زمن يسير حتى انتدب الفنان للعمل في مصر، وفيها وجد عالماً أرحب يتسع لتطلعاته الفنية، وهكذا أصبح عضواً في عديد من الجمعيات الفنية "ومدرساً في أكاديمية دافنشي" الإيطالية بالقاهرة، ومشاركاً في الأنشطة الفنية والثقافية على أوسع نطاق.

كان من مميزات أعماله في هذه الفترة: التجريد الهندسي: خطوط قاسية، هندسية نوعاً ما، وفيها تقاطعات، وتبسيط للأشكال الإنسانية، ومن أمثلة أعماله في هذه الفترة بائع الفول، الفرداتي، العربية الكارو، وهذه اللوحة الأخيرة بما اجتمع لها من عناصر: الموضوع الإنساني، وأسلوب التعبير الفني، والألوان المشرقة جعلها مميزة ولافتة للنظر فنالت جائزتين بينالي "كابروفو" وصارت كذلك واحدة من مقتنيات متحف "كابروفو" في بلغاريا.

كارثة حزيران والمرحلة التعبيرية:

مثل عقد الستينات، محطة هامة في حياة "ممدوح قشلاق" ازدهمت فيها نشاطاته التي امتدت إلى ميادين عديدة، ترك في كل منها بصمات واضحة، وليس مبالغة القول بأنه كان وراء إرساء العديد من قواعد النهضة الفنية في سوريا بدءاً من وضع مناهج تعليم الفنون المعاصرة في مراحل التعليم المختلفة، بحكم مسؤوليته

مشرفاً على تعليم الفنون وتأسيس متحف الفنون المدرسية بدمشق، وكذلك تأسيس معهد إعداد المدرسين للفنون والذي كان النموذج الأول لمعاهد الفنون في المحافظات السورية إضافة إلى وضع نظام الهوايات وتنمية المواهب المبدعة لدى الأطفال وما يترتب عنها من مشاركتهم في المسابقات الفنية الكبيرة وفي المعارض الدولية لرسم الأطفال وفي هذه الفترة كان الفنان متهمكاً مع فريق من زملائه الفنانين في تأسيس نقابة الفنون الجميلة التي أصبح نقيباً لها في عدة دورات وتم تبعاً لذلك إنشاء صالة الشعب للفنون الجميلة وكان ممكناً لهذا النشاط الدائب أن يستغرق وقت الفنان كله لا يترك له فسحة للالتفات إلى عمله الفني الخاص ويكن المدهش

حقاً أن إنتاج الفنان ظل متألفاً وأعماله الفنية تتابعت بقوة وتطور إتقان مثير ولعل السبب ما مر به الوطن العربي من أحداث أليمة بعد كارثة عام ١٩٦٧ وما خلفته في النفوس من مرارة وبالذات لدى طليعة المنقّبين والفنانين ... وقد انعكس ذلك في أعمال "ممدوح قشلاّن" فانتقل إلى المرحلة التعبيرية، التي صور فيها رجوع الآلام الإنسانية، ونزوف القلوب الكسيرة، ونطقت بذلك لوحاته: النزوح ... العطش ... على الحدود ... استغاثة اللاجئين" كانت هذه اللوحات تعبيراً عن مشاعر الجماهير، وتصويراً لما نزل بهم من آلام، ولكن الفنان من جانب آخر أدرك أن الفن الحقيقي، هو التسامي فوق الجراح، وشد العزائم لتجاوز المأساة، وسرعان ما استعاد صور بطولات الأمة، وانتصارات العرب في تاريخهم المجيد، فخرجت لوحة "طارق بن زياد" ومجموعة لوحات "بطولات الفدائيين" وتوجّها أخيراً بلوحته الباهرة "يوم النصر في حطين" المفعمة بصور الرجولة والكبرياء، ليؤكد أن النصر قادم لا محالة.

دمشق القديمة ... ملهمة الشعراء والفنانين:

تطلع الفنان في عقد السبعينات إلى آفاق أرحب وراح يدعو إلى إقامة اتحاد للفنانين التشكيليين العرب، وهي الفكرة التي شهدت النور في عام ١٩٧١، وأصبح للفنان العربي معها كيان تنظيمي أتاح تنظيم معارض فنية مشتركة في العواصم العربية تبادل الفنانون من خلالها تجارب هامة، وتم إصدار مجلة التشكيلي العربي، التي عرّقت الجماهير بمستجدات العمل الفني في الوطن العربي.

وعلى المستوى الشخصي، بدأت مرحلة جديدة في مسيرة "ممدوح قشلاّن" وكانت في نظر الكثيرين، حاسمة، وأكثر تطوراً في حياته الفنية، إذ توقف الفنان ملياً عند المكان الخلاب الذي ظل يأسر فكره وعواطفه، كما فعل مع غيره من الفنانين والشعراء، عنيت به مدينة "دمشق القديمة" بكل ما تنبض به قسماتها من مهابة وسحر وبهجة وجمال...

توقف الفنان أمام شواهد التراث الحية إلى يومنا، والمائلة للعيون حينما تلتفتت: أحياء شعبية وحارات ضيقة، بيوتاً متلاصقة وشرفات ... بأحاث ظلييلة، ونوافير رذاذ متراقص في الفضاء، عرائش تتسلق الجدران، ومظلات ياسمين فواح، وتسبيح اليمام في العشاش مع إطلالة الصباح. وتوقف أكثر أمام الحياة النابضة بالرجاء والعنفوان في وجوه الدمشقيين البسطاء "وكنتم أختار من ذلك كله زوايا ونقاط رؤية لا تقع العين على مثل لها في غيرها من المدن، وأنقل إلى لوحتي الطابع المميز للأزقة الضيقة وجدران البيوت المتعاقبة، والنوافذ التي تدور بينها حوارات وحكايا لا تنتهي، وأترك للخطوط العفوية والألوان الصافية أن تعبر عن الهدوء والرطوبة في المشهد الجميل الذي أراه بكل حواسي" وهو ما تحقق فعلاً في أعمال الفنان في تلك الفترة "دمشق القديمة" أمومة، ملامح شعبية، وهذه اللوحة الأخيرة التي تعتبر أكبر لوحة فنية في مجموعة المتحف الوطني بدمشق (٢٤م ٢٠م) استغرقت من جهد الفنان ودأبه المتواصل شهوراً، لتخرج في النهاية بانوراما مبهرة، يتوقف أمامها زوار المتحف الوطني طويلاً، فتقلهم إلى ذلك العالم الحميم الذي يضح بالعفوية والبهجة حيث يدور الحوار اليومي، ويتجدد ألح الحياة الشعبية البسيطة.

فلا عجب بعد ذلك أن يتوقف أحد مديري متحف اللوفر أمام اللوحة، خلال

تطوافه بردهات لوحة المتحف الوطني ليسأل الدكتور عفيف البهنسي مدير الآثار والمتاحف آنذاك، أن يرسل اللوحة إلى باريس لتمثل الفن السوري "في هذه اللوحة كل المفاهيم الفنية التي يبحث عنها الفنانون عندنا ولا يجدونها".

ثلاثون معرضاً في ١٥ سنة:

كانت خطوات الفنان قد ترسخت في ميدان الفن التشكيلي، وبدأت أعماله الجميلة بمواضيعها المتنوعة، المستمدة من بيئته الخلاقة، تشير إليه كرائد من رواد الفن في سوريا، خاصة بعد أن حقق نقلة متميزة بانطلاقه إلى مرحلة العالمية، حين

منح لقب "أستاذ شرف" من أكاديمية الفنون الجميلة في "مونرياله صقيلة" وتم تكريمه مع ١٦ شخصية ثقافية من بلدان مختلفة في العالم. إضافة لحضوره المشهود في الساحة الفنية الإيطالية من خلال المعارض المشتركة، والمحاضرات المتنوعة عن الفن السوري القديم والمعاصر، في المراكز الثقافية والجامعات في عدد من المدن الإيطالية.

وفي مطلع الثمانينات أسس ممدوح "قشلاق" صالة إبيلا للفنون الجميلة بدمشق فغدت خلال زمن يسير قبلة لعرض أعمال الفنانين العربية والأجنبية وبعدها ترك عمله الوظيفي وتفرغ نهائياً لريشته وألوانه، ولمعارضه الشخصية التي تجاوز عددها منذ عام ١٩٥١ وحتى عام ٢٠٠٥، أكثر من ٨٢ معرضاً محلياً وعالمياً، وخلال هذه الفترة، كانت لوحاته الجديدة تنتقل سنة بعد أخرى بين العاصمة دمشق، والعواصم العربية والأوروبية، فما يتم الإعلان عن واحد من معارضه، حتى يتوافد المهتمون ومتوقوا الفنون التشكيلية، ليتابعوا لمسائته الهادئة والواثقة في أعماله الجديدة، وما تلبث الصحافة الفنية أن تنقل أصداء العرض، وما يلاقيه كل مرة من استحسان وتقدير.

عظمة الفن حين يؤدي دوره:

سئل "ممدوح قشلاق" مرة: هل أصبحت أعمالك الفنية قادرة على أن تقدم صورة خاصة عن سوريا فأجاب:

إن الفن بمجموعة مرآة الشعوب، وفنان واحد، لا يستطيع أن يعطي الصورة كاملة، مهما أوتي من موهبة ومقدرة، و لكن مجموع أعمال الفنانين تعكس صورة البلد بشكل أمثل: وفي سوريا، لم تزل الحركة الفنية في خطواتها الأولى، ولما تنصهر بعد بالشكل العميق المطلوب مع بيئتنا وتراثنا، وفي الحقيقة، فإن جل فنانينا درسوا وتأثروا بما اكتسبوه من ثقافة أجنبية، وما يزالون ضمن هذا الإطار إلى يومنا وإن بدرجات متفاوتة... وبالنسبة لي، فقد استفدت من التقنية الغربية، ولكنني

انهمكت أكثر بمعالجة مواضيعي برؤيا محلية، وجهدي الآن منصب على أن أعكس في أعمالي صور التراث وحياة الشعب وهموم الوطن، وربما لهذا فإن معارضي السنوية المتتالية في أوربا منذ عام ١٩٧٥ وإلى اليوم، تحظى بالتقدير والاهتمام ... إن لوحة "قانا" التي جسدت فيها مأساة ضحايا الجريمة القذرة التي اقترفها الصهاينة أمام سمع العالم وبصره، هذه اللوحة استطاعت أن تسجد اللحظة وما ترتب عنها من موت ورعب وألم، وأن تغدو بالتالي وثيقة صارخة يرى فيها العالم دوماً ما صنعتها البشاعة الآتمة بأبناء القرية الصغيرة الآمنة ... لقد تأملتها مفكر عربي معروف وقال: إن هذه اللوحة قادرة على أن تفعل في الرأي العام أكثر ألف مرة مما تفعله خطب المنابر الرنانة.

اللوحة الخالدة على الطريق:

أخيراً حين تسأل "ممدوح قشلاق" إن كان قد حقق بالفعل طموحاته، وقال ما يدور بخاطره بعد أكثر من نصف قرن من العمل الطويل في هذا الميدان الجميل؟ يجيب الفنان:

كيف يكون ذلك؟ لو أنني قلت أنني وصلت أكون قد بدأت بالعد العكسي إن اللوحة التي أريدها، ما تزال حروفاً وفواصل في ذاكرتي ... ويوماً بعد يوم أقول:

لا بد وأن أرسم اللوحة الخالدة، اللوحة التي تمائل معلقات شعراء العرب في الجاهلية ... وأنا أرسم دوماً لوحات جديدة وتهتز نفسي بمشاعر النشوة، متخيلاً أن كل واحدة فيها هي اللوحة المنشودة، لكن ما ألبث أن يتحرك في داخلي إحساس خفي يهيمس لي بأنني لم أصل بعد.

لقد مر أكثر من نصف قرن من الزمن، منذ غمس الفنان ريشته لأول مرة في الألوان ولمس بها صفحة لوحته، ليبدأ رحلته الطويلة في عالم الفن المسحور، لكن تفاصيل الأحداث التي عاشها ما تزال حية في ذاكرته وهم يبتسم ويقول:

لقد كانت بالحق مسيرة شاقة، وكان ممكناً أن أتكفي منذ خطوتي الأول في

أكاديمية الفنون الجميلة بروما، حين شاء حظي أن يكون المشرف على مجموعتي
"البروفيسور روبرتور ميللي" يهودياً متعصباً، لم يدخر وسعاً في تثبيط عزمي،
وتجريح أعمالي، ولكني صمدت وثابرت، حتى نلت عن مشروع تخرجي الدرجة
الكاملة.

نصف قرن طويل بلى ... ولكي أشعر بأنني بدأت أمس فقط، وما تزال
الطريق ممتدة أمامي وطويلة...

عمر من البحث الفني باللون والتأليف

يعتبر ممدوح قشلاق واحداً من كبار رواد الحداثة في التشكيل السوري والعربي وهو من مواليد دمشق العام ١٩٢٩، وشارك في المعارض الجماعية التي أقيمت في دمشق ما بين عامي ١٩٥١ و ١٩٥٣ ونال على أثرها منحة دراسية لمدة أربع سنوات ثم أوفد للدراسة في روما بعد نجاحه في المسابقة بعد أن لفت الأنظار إلى موهبته المبكرة وفي العام ١٩٥٧ عاد إلى دمشق ليساهم في تسجيل ملامح المرحلة الذهبية لنهضة الفن التشكيلي السورية، وتتابع معارضته المنفردة في الداخل والخارج، إضافة إلى مشاركته في عدة بيناليات عربية وعالمية، وهو من مؤسسي الاتحاد العام للفنانين التشكيليين العرب، ونقابة الفنون الجميلة التي انتخب نقيباً لها عدة مرات.

كما طبعت منظمة اليونسف بطاقات فنية عن لوحاته الكبيرة ووزعت في أنحاء العالم لصالح الطفولة، كما دخلت بعض لوحاته إلى متاحف دمشق وحلب وبيروت (سرسق) والجزائر والقاهرة وتونس والرباط ومونت نيوجرو وصوفيا وبلغاريا وليل في فرنسا، إضافة إلى المؤسسات الرسمية والمجموعات الخاصة في أكثر بلدان العالم.

ومع تجربة ممدوح قشلاق بدأ تاريخ آخر في مسيرة الفن التشكيلي المعاصر

في سورية تاريخ لا يستعيد قدرته، إذا لم يحقق خطة الحفاظ على ذاكرته عبر ارتباطه الخفي والعلني بجمالية العمارة القديمة المهددة بالغياب والانقراض، بعد أن هربت وتشوهت وغابت ليس فقط نتيجة مخططات توسيع الأبنية الحديثة، وإنما أيضاً نتيجة رفض الجيل الجديد لرونق العمارة القديمة وجمالية الطابع القديم لنوافير وبرك المياه.

هكذا تطل المدينة القديمة في لوحات ممدوح قشلاق. كأن كل لوحة يقدمها هي مشروع دعوة للعودة إلى أجواء التراث الشعبي، والمحافظة على البقية الباقية من

الملاح الشخصية المميزة للمدينة القديمة، التي يشبهها البعض كمتحف حي لنماذج العمارة الإسلامية والعربية، والتي وصفها العديد من المؤرخين العرب بأنها مدينة جميلة تتألق أبنيتها بالزخارف والرقوش، وتتسأنق حداثتها بالياسمين والأضاليا والمنثور.

وجد ممدوح قشلان في رونق العمارة المحلية القديمة، وفي وجوه الفلاحات القرويات، نقطة الانطلاق الفعلية لاكتشاف الصور الفولكلورية التي تمنح المعانسة الشعبية طابعها المتفائل والمتسامح.

فالمشاهد الشعبية التي جسدها في لوحاته، لم تطلق صرخة الحياة الصعبة في الأزقة القديمة بل كانت بمثابة بدايات لأضواء البهجة الموصوفة بالفرح، والمندفعة نحو المرح عبر البهجة الفولكلورية التابعة من الذاكرة الشعبية ومن أحلام مدينة دمشق القديمة.

استقلالية وتفرد:

من الناحية التشكيلية تبدو لوحات "ممدوح قشلان" مفتوحة على المعطيات الجمالية الحديثة أو على بعض أوجه هذه المعطيات فهو يعيد تنظيم المشهد المرسوم باعتماد الخطوط التي تعمل على تقطيع المشهد لتبحث على مكانه، أو عن علاقة تشكيليه وجمالية خاصة بالفنان نفسه. ويهتم في معالجة لوحاته بلوم يكاد يكون الأكثر حضوراً في اللوحة، مثلما هي الحال في بعض لوحاته ذات اللون الأحمر، في حين تأخذ إيقاعات اللون الأخضر والأزرق في لوحات أخرى مناخاً بصرياً جذاباً في مساحات مدروسة تعزز استقلاليته وتفرده، وتبحث عن المسحة الفنية الخاصة، أكثر من مراعاة اللغة التقريرية المباشرة، في هذا الصدد يقول الفنان ممدوح قشلان في حوار أجري معه:

"لكل فنان مجموعة لونية ينفرد بها، ومع ذلك لا بد أن تتأثر الألوان بالموضوع المطروح، فأنا أستخدم الألوان بطريقة تتوافق مع الموضوع الذي

أجسده، ولوحاتي تميل عموماً إلى الأحمر والأخضر والأزرق ومع ذلك فأكثر الألوان لها حضور في لوحاتي".

تكوين معماري بعيد على الانفعالية:

وما هو بارز في هذه الخصوصية تلك العلاقة الهندسية التي تفيد في تحريك المشهد بشكل يتوافق مع التأليف المتماسك للوحة. والواقع فإن التقطيع الهندسي الذي نشاهده في المدة التصويري، هو جزء من الجهد التشكيلي الذي يشغله فسي تأليف اللوحة، فهو عندما يتطلع إلى الأحياء القديمة والمشاهد الشعبية، لا تتطبع في عينيه حالة الأبنية والأزقة والناس البسطاء، إلا من خلال هذا التشظي الذي يعكس مرآة تشظي المشهد ذاته على ما يشبه المربعات والمثلثات.

ومن خلال تقطيع اللوحة إلى ما يشبه المربعات والمثلثات والمكعبات، وأيضاً من خلال طريقته الخاصة في وضع الألوان يضيف ذلك الجو التقاربي على مجمل لوحاته التي يقدمها: وهكذا تتحول البيوت والأحياء القديمة والأشكال الإنسانية والأجواء الشعبية إلى مساحات هندسية صغيرة، تدل على تكوين معماري في التعامل مع الموضوع، أي أنه تحليله للمساحة إلى تدرجات لونية كبقع صغيرة تأخذ أشكالاً هندسية تشعبية الطابع يبتعد بها عن الصياغة الانفعالية المباشرة إن لجهة

معالجة التكوينات التشكيلية أو لجهة صياغة المادة اللونية وتتداخل المساحات الهندسية التي تأخذ في أحيان كثيرة أشكالاً لا تقترب من المكعبات (دون أن يكون الفنان تكعيباً في التأليف العام للوحة) لأن التكعيبية كانت تبحث عن جوهر الشكل وهذا الهاجس ليس من ضمن أهداف الفنان قشلاق.

تكوينات تكسر سكون المشهد:

تتداخل المساحات والمكعبات اللونية مع أشكال الواقع أو تبرز من خلالها، فكل حي أو بيت أو شكل إنساني يتحول إلى مجموعة من التكوينات الهندسية

والمكعبات التي تكسر سكونية المشهد الواقعي وتحرك عناصره، وبالتالي تزيد من حوارية حركة التعبير بين الأشخاص في اللوحة وبين العناصر المعمارية. وفي صياغة مساحاته اللونية يعتمد الفنان أسلوب التركيب الطبقي، الذي يسمح لنا برؤية أكثر من درجة لونية في المساحة الواحدة، ويقدم ممدوح قشلاق لوحات جذارية كبيرة من هذا النموذج تبرر قدرته العالية على الكشف والابتكار ونشعر بشيء من التكثيف الضروري لتزخير التعبير، فهو يؤسس كل خطوة من خطوات اللوحة على أرضية متينة تحمل معها خبرة عمر من البحث الفني الذي يمارسه باللون والتأليف.

حول هاجس التكثيف الشكلي في لوحاته يقول الفنان قشلاق "أنا أبحث عن رؤية ذاتية تعتمد على الإضاءات وشغل الفراغ أو تكثيف الأشكال، وهنأا نلتقي لوحتي مع الفن العربي الإسلامي، فالفن الإسلامي فن مكثف، بشغل الفراغ، وأنا أحاول أن أقدم لوحة تركز على أحاسيسي وعواطفِي ومشاعري الداخلية، ولو لم يكن هنالك عاطفة وإحساس لما توصلت إلى أسلوبِي الخاص، ولما استمررت مع اللوحة إلى هذا الوقت".

الحداثة ونبض العصر:

من المهم أن نشير إلى تلك الوحدة الأسلوبية العضوية التي تحمل بصمة الفنان الخاصة، هذه اللوحة التي تجعلنا غير محتاجين للبحث طويلاً عن نقاط الارتكاز التي تشكل عناصر لوحته التشكيلية، ثمة منظور تكويني وتلويني خاص يرى من خلاله مشهد المدينة القديمة، وما فيها من أبنية وشوارع ومسآذن وأشجار وباعة وتجمعات إنسانية إذ أن الأداء الفني التشكيلي الذي يستخدمه الفنان يعبر عن صراع واضح بين المفاهيم الثابتة (الموجودة في الواقع أو خارج اللوحة) وبين القناعات الشخصية الحاضرة دائماً في اللوحة، والتي تشكل عمق المنحى الأسلوبِي لديه، فالواضح أنه يرسم أشكاله بمزاج الفنان.

ولا ينحصر التعبير اللوني الوحشي في معالجة فسحة السماء فحسب، وإنما ينسحب على كافة عناصر اللوحة، فالبيوت مثلاً لا تأخذ لونها الأصلي الموجود في صورة النقطة عدسة مصور ضوئي، وهذا ينطبق على الشجرة والطرققات وكل العناصر فالمناخ اللوني في لوحاته يبدو أكثر إشراقاً من ألوان الواقع.

كل ذلك يؤكد ابتعاده كلياً عن الواقعية الخطائية، أو المباشرة، وإذا كانت الذاكرة محركاً لصور قديمة وبعيدة، فهي مع هذه التعبيرية اللونية تبدو أكثر جنوحاً باللوحة نحو الحدائث ونبض العصر، هذا التزاوج في لوحاته يجمع بين زمنين قديم وحديث، ويصل إلى درجة عالية ومتقدمة من التوازن التكويني والتشكيل اللوني.

ولا يعتمد الفنان على معطيات المشهد الواقعي بقدر ما يعتمد على الخيال ومرونة معطيات الموهبة، فهو يستخدم اللون ليرسم المشهد بالأحاسيس الملونة وليصل بالتالي إلى السحر في الصوغ اللوني المركب من أكثر من طبقة من المادة الزينية مع المحافظة على إضاءة واضحة في صياغة المساحات والأشياء.

هكذا كان ممدوح قشلان، ومنذ أكثر من أربعين عاماً يسعى لتحليل المساحات في اللوحة التقليدية، فهو عن قصد لا يهتم باللون الطبيعي للأشياء التي يجسدها، بل يرسم في بانورامية مشحونة بالعناصر الصغيرة والتجمعات الإنسانية أحياناً، حيث يجنح في لوحات عديدة كبيرة نحو التشكيل الشعبي ليعيد إلى الأذهان الجلسات

الحميمة في البيوت الدمشقية. مع التركيز على استعادة أجواء اللباس الشعبي في الريف والمدنية، وإضفاء طابع الروائية الملحمية على أعماله الجدارية بشكل خاص.

القدرة على ابتكار العلاقات الفنية:

وفي لوحاته يبرز قشلان قوة فائقة في الرسم، فالأشخاص في لوحاته يبدون وكأنهم يتحركون أمام العين، رغم أنه لا يعمل على إظهار التفاصيل الطبيعية كما هي في الواقع، بل يتخطاها ليبقى في هيز اللغة التشكيلية الخاصة والحديثة، ويحافظ

الشكل الإنساني أو المعماري على رصانته وأهميته كأساس في لوحاته، رغم كل الاهتمام بالصوغ اللوني العفوي في أحيان كثيرة وهكذا فالضوء يبدو هو الآخر متحرراً من قيود المنطق الكلاسيكي يزيد من هذا التحرر، التقطيع الهندسي الذي يضيفه على أشكاله المرسومة، فهو يعبر في لوحاته عن إحساسه أكثر مما يتجه إلى تقديم الشكل بواقعيته التقليدية. لذا نشعر ونحن نشاهد المجموعة الواسعة التي يعرضها بجمالية أسلوبه الخاص، الذي يحافظ من خلاله على مهارة وتجليات التشكيل الحديث في تجسيد الشكل والحركة والتفاصيل، التي تبرز قدرته على ابتكار العلاقات الفنية للأشكال المعمارية والإنسانية والأشكال المختلفة.

محافظ أمين على الأصالة طوال مسيرة غنية بالإبداع والجمال ...

الفنان التشكيلي (ممدوح قشلان) فنان استثنائي، في حصوره الفني الدائم، وكيونته الإبداعية كحالة ثقافية لها سماتها وتوجدها في الساحة المحلية، والعربية والدولية، إذ يشكل بحد ذاته مشروعاً فنياً وتربوياً متكامل الأبعاد في منهجية تعبيرية مليئة بالفردة، وسلوكاً يتجاوز الحدود التقليدية والمعايير الوضعية المتفق بشأنها في صياغة اللوحة التشكيلية، حيث جاءت نتاجاته في هذا السياق تعبيراً عن هذه الحالة وخلاصة لتجاربه البحثية في عمق التاريخ، والمناخات الشعبية المتوارثة عبر الأجيال في أصدق صور حياتية، ومعالجة تقنية حاشدة بالملونات، فالمروروث الشعبي بأنماطه المتعددة، وتشكيلاته الزخرفية والبراقة والفاقعة والمتجانسة في كثير من الأحيان، مع العفوية والبداية الفطرية لمفهوم الجمال تقم الفنان للغوص في تفاصيله، والنهل من معين حرفيتها وتشكيلاتها الزخرفية كسروى بصرية جمالية أخذة تتسم باليساطة والشفافية، والسطوح الظاهرة في أشكال تزيينية زخرفية المنشأ مستوحاة من مفردات وتعبيرات الأشكال الهندسية الشكلية:

المثلث، المربع، المعين، المستطيل .. وسواها، في تكرارية قصدية وتوازن

مدرّوس للخطوط والاكسارات والمساحات اللونية التبسيطية والتحويرية، في فضاء تشكيلي زاخر بالعناصر والكتل والتكوينات (التعامد، التداخل) والتباين الشكلي واللوني، حلولاً أساسية لإظهار القيم اللونية في انجذاب فلسفي نحو بنيتها العمرانية في تآلف متدرج ومتناقض أحياناً، كأنها زخارف تزيينية، ورقش شعبي مؤنخ بالشفافية اللونية والجمالية، جمالية التكوين ونجاعة المعالجة التقنية التي تبدو واضحة للعيان من خلال المعيشة الانفعالية والوجدانية للفنان، في صيغ لوحاته بملونات ذاتية تعج بالخصوصية، ونجد سيادة مطلقة للون الأزرق في مدلوله النفسي الداعي للصفاء والخلود والأصفر (الحمي) من امتداد فسيح لاتساعات الفضاء

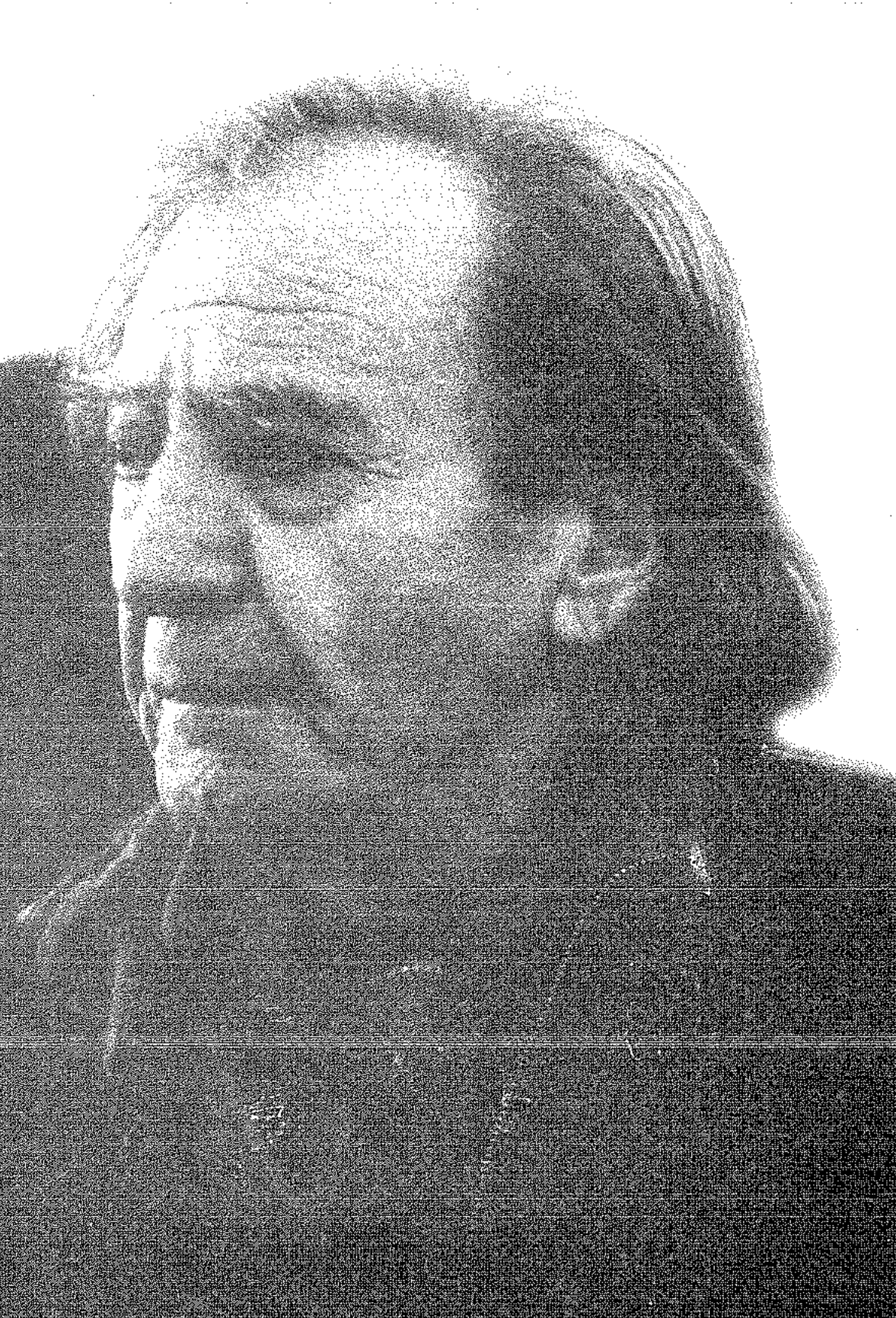
اللوني، وتوشيدات جمالية لملونات الأحمر والأخضر وما بينها من ملونات اشتقاقية، كلها تشير إلى جمالية الحالة وخصوصية المعالجة، حيث كانت المحاكاة الواقعية للمشاهد (اللوحات) تظهر عناية فائقة للفنان بالمحافظة على روحية الأصالة الشكلانية، والمفاهيمية في لحظتها التوثيقية التسجيلية، وألوان الحداثة والمعالجة التقنية كنوع من المزاجية ما بين الماضي وجمالية الحاضر، فالمناظر الواقعية للأماكن والأشخاص في تناغمها الشكلاني، تفصح عن أصالة تعبيرية ومقدرة إبداعية في توظيف الملونات بشكل تقني وفني مدروس بأحكام، عقلاني للامسات والأبعاد، يأخذ طابعاً فلسفياً في معانيه وتكويناته الدلالية، وليس مجرد ألوان جاهزة وإنما مساجلة لونية واعية للسطوح والمكونات في صياغات وحلول جمالية متجانسة في آلية العمل وفردة التصويرية للوحة المطروقة، وتوازن ثنائي التأليف والتوليف الإبداعي والشكلاني، ما بين الزخرف الشعبي والتقنية المعاصرة مزاجية مثيرة للفضول، في عوالم غنية بالألوان التواقية نحو الحرية والانعتاق اللامتناهي في فضاء اللون وزرقته وفن الوظيف والتوصيف الفعال للزخرفة الشعبية، والواقعية التسجيلية المتداخلة كتشكيل مبدع لمجموع الطقوس الفنية، في خطوط واثقة الانتشار وانسيابية الحركة والاتجاهات، توطر في داخلها ملونات مبهجة متقابلة آملّة فرحة، ولا يمكن بطبيعة الحال تناول عوالم الفنان (مدوح قشلان) الإبداعية بمعزل عن ذاته الفنية المثقفة والمبدعة في مجالين أساسيين متجليين في البعد الإنساني والبعد الحضاري الذي ينحو من خلالهما مناحي (الاستثناء) في سياق القاعدة التشكيلية الإبداعية، في صوغ أفكاره وفلسفته ومجاله التعبيري والتقني، لعناصر التكوين كداعية ورائد من رواد التجديد والمعاصرة، ومحافظ أمين للأصالة التي شغلت جميع لوحاته وأخذت من فنه كل مأخذ عبر حقبة زمنية تجاوزت ثلاثة عقود .. فالمجال الأول (البعد الإنساني) جسدت بداياته الأولى بعد تخرجه الأكاديمي والتربوي حيث كانت هموم الناس ومشاكلهم الحياتية المسألة الأكثر بروزاً وتداولاً في أعماله الفنية - ومازالت حتى اللحظة - حيث شكلت المشاهدات اليومية

للفلاحين مجالاً حيويًا لموضوعاته، ثم عسمت هذه المظاهر في نقل وتوصيف المجالات الحياتية الرئيسة في حياة المجتمع، بأبعاد فلسفته ورؤية سياسية كفاحية، حيث احتل الهم القومي ونضالات الأمة العربية مكانة مهمة في أعماله تصويراً إبداعياً لأحداثها الجسام، وما مجموعاته الفنية التي تقع تحت عنوان (ملاحم محلية) إلا دلالة موحية ومعبرة عن هذا البعد الإنساني.

أما المجال الثاني (البعد الحضاري) فقد استطاع الفنان (ممدوح قشلان) بما أوتي من فراسة وثقافة ومقدرة فنية على النقاط المواضيع المنتمية للأصالة المستمدة ديمومتها من التاريخ والموروث الشعبي وحضارة المنطقة، وما أنتجته الحرفة والبداهة الشعبية والأوابد التاريخية والهندسية المعمارية الرائعة، المتجلية في معالم مدينة دمشق القديمة في أبنيتها وحواريها ومتاجرها وأسواقها ومقاهيها ومنتدياتها الثقافية والحضارية، وهي أكثر من أن تحصى ومنشرة في الأماكن والاتجاهات مصدر إلهام الفنان التسجيلي وشغله الشاغل الذي لا ينتهي.

(الغوطة، أبواب دمشق السبعة، العمارة، القيمرية، الشاغور، مكتب عنبر، الحميدية، سوق الطويل، سوق الهال، الظاهرية، سوق المهن اليدوية، البزورية، المسكية، قصر العظم، المسجد الأموي) وعشرات الأماكن الزاخرة بعبق التاريخ وأزاهير الأصالة والحب والنقاء والتي تؤلف للفنان (قشلان) حبلاً تواصلها من نوع

مبدع مليء بالخصوصية والاستثناء.





فاتح المدرس:

التعبير عن الإنسان والتمرد على المسلمات

رقد ارتبطت تجربة المدرس الفنية بالإنسان. فكان المحور الرئيس الذي تدور حوله تجربته ومنطلقه الأساسي إلى الموضوعات التي يعالجها. قدم الإنسان بصيغة مختزلة. وأظهره صغيراً ومضغوطاً من الجانبين وتحيط به الأشياء الأخرى.

كما مثلت الأرض الموضع الرئيس له وكثيراً ما صبغت ألوانها المميزة وجوه الناس الذين يعيشون فوقها.

لقد توصل إلى التعبير عن (الإنسان والأرض) في ثنائية أخذت شكل علاقة فيزيائية تطبع الإنسان بطابعها وتعطيه السمات المميزة له. فالأرض هو المكان الذي لا يستغني عنه الإنسان، لأن الوجود الإنساني يرتبط بالأرض والمكان، وعن طريق هذه الثنائية قدم موضوعاته المختلفة.

غير أن الأرض والإنسان لم يكونا العنصرين الوحيديين لتجربته، فإلى جانبهما كانت الأساطير وحكايا التاريخ وتحديات الزمن الراهن وإبداعات الفنانين السوريين الأوائل، فكانت صياغته التشكيلية لهذه العناصر تضم الكثير من الإبداع الذي جعل من لوحاته هوية مميزة وأسلوباً ترك أثره بشكل أو بآخر في تجارب عدد من الفنانين الشباب.

لم يكن فاتح المدرس رساماً رائداً فحسب، ولا قاصاً أو شاعراً طريفاً وهاوياً على طريقته، بل كان أيضاً صاحب ثقافة عميقة وشاملة استطاع انطلاقاً منها أن يجسد صورة هي من أجمل صور المثقف العربي، فنان أليف وطليعي لم يفقده اختصاصه العلمي وخبرته التقنية ألق التجربة وسحرها.

استطاع طوال حياته أن يحافظ على الحالة "الفطرية" التي تميز بها وهي ناتجة

من علاقته الشديدة بالأرض والتراب والحضارات القديمة التي نشأ وسط معالمها. لكن الحالة الفطرية التي لم تمنعه من الانفتاح على الفنون العالمية، ولعل الفترة التي أمضاها في روما جعلته على بينة مما حصل في تاريخ الفنون، وإن مال إلى التجريد اللوني في الكثير من لوحاته إلا أن نزعته هذه لم تتخل عن البعد الغنائي الذي رسخه فيها إيقاع موسيقي متناغم كل التناغم وتدرج لوني متفاوت النغمات. فالألوان الشرقية تماماً كانت وحدها كفيلاً أن تضيف على قماشته مسحات غنائية ووجدانية تلمس حد الصوفية والإشراق في أحيان كثيرة. ولعل غنائيته العميقة والهادرة جعلته يفتح على مدى تعبيره تخيل نزعته التجريدية، وتمثل أكثر ما تمثل في بعض المناظر الطبيعية وفي بعض الوجوه الساحرة ذات الخلفيات اللونية.

من الصحيح أن فاتح المدرس استهل حياته الفنية سورريالياً، إلا أنه راح يتحول رويداً رويداً ليصبح فنان المراحل والفصول، وبدأت كل مرحلة تكمل الأخرى ولا تتقاضها، بل غدت المراحل نفسها سلبية تجربة واحدة تقهرها نار المعاناة والتأمل والبراعة والطرافة.

لكن المدرس في كل ما رسم ظل على ارتباط بعالمه الأول عالم الطفولة والماضي عالم التراب والواحات. عالم الماء والخضرة .. عالم الرمل والأضواء، عالم الصفاء والشفافية، لذلك لم يرغب الأطفال عن الكثير من لوحاته حتى التجريدية

منها. كما حضرت كذلك بعض التمانم المستوحاة من الذاكرة الشعبية والتقاليد القديمة. إنها مخيلته الرحبة تعجن أشياء الماضي والمستقبل في طينة واحدة.

ويمكن القول: إنه ابتعد في فنه عن الأكاديمية وجعل من لوحاته مساحة حرة، تكتظ فيها العناصر الإبداعية للتصوير الفني التشكيلي، وتحول من الالتحاق بركب الحداثة الغربية عائداً إلى واقعه وتاريخه وأساطير بلاده.

استطاع المدرس أن يؤسس لوحة لا تتفصم فيها الطفولة عن النضج والاختمار، ولا البساطة والبدائية عن التكثيف ومحاكاة العصر، ولا الأحلام الهادئة عن أطياف الأساطير وصخب المخلوقات الغريبة، لقد كان بهذا المعنى كيميائياً

بمعنى الكلمة، بشكل وحدة من متناقضات فلا معنى للأحمر في لوحته دون الأسود، ولا للأزرق دون الأصفر، كذلك الشكل لا يقف بعيداً عن التجريد، ولا التشخيص يأتي هادفاً دون تحوله إلى حالة رمزية.

كان محترفاً إلى أقصى الحدود يصور من ذاكرته دون أن يوثق أو يؤرخ، ودون أن يلتزم الشكل بالشكل أو اللون باللون، فكان يلغي مادة حسية ويجسد مادة مجردة، يلغي حقلاً ويصور رائحة أو صوتاً أو فكرة تدور في مخيلته الخصبة.

ضاقت الطبيعة في لوحته حتى غدت جداراً من الألوان لا منظورة فيها ولا أبعاد واقع الزمن فاستعاد في لوحته تقاليد التصوير الأيقوني، إذ يبدو أبطال لوحته ضحايا يبدوون طقوس حزنهم من عصور التاريخ البشري الأولى، وتمتد أطرافهم إلى عصر حاضر أو حدث استفزّه.

كان همه أن يعبر عن الحدث الذي يخرج من ذاته لا الحدث الموجود خارجه، يختصر الأشكال في شرائط هندسية وبالترام واضح بتلك اللوحة البنائية المعمارية التعبيرية الإيقاعية، التي تقسو مرة وتصخب وتنقطب ألوانها وتتجهم ثم تلين مرة أخرى، وتتحول خطوطها إلى ما يشبه ألعاب الأطفال ورسومهم.

إن انتماءه لوطنه أجمل ما فيه ويبدو ذلك واضحاً وجلياً من خلال أعماله التي تعبر عن ذلك فهي تنطلق من المحلية للعالمية حيث كان يدرك أن الإحساس بالبيئة أصدق من الإحساس بالبعد، فمن لا يدرك ما حوله لن يدرك ما بعده وإلا تحول العمل الفني إلى كذبة كبيرة يلفظها الزمن، ولهذا شغلت البيئة معظم أعماله.

كان فنانح المدرس سفيراً فوق العادة للتشكيل السوري في العالم، فقرب الملاحم الشعبية في سورية وأعطاهما بعداً اجتماعياً وإبداعياً في ساحة التشكيل الغربي.

لقد عكست لوحات المدرس حياته ومعاناته، وذلك لأنها ارتبطت ارتباطاً وثيقاً به وبما يعيشه من أحداث راهنة، وما يتفاعل معه من أشكال وعناصر.

ولهذا أصبحت تجربته مميزة في قدرته على الكشف والوصول إلى الغاية في لحظات بين الوعي واللاوعي تتدفق فيها الأشكال، وهذا الكشف هو نتيجة البحث

المستمر والدأب المتواصل للذين لا بد من توافرها حتى يتوافق العمل الفني مع عالم داخلي غني بطعم الأشكال والرؤى.

وأخيراً يمكن القول: إن المدرس كان أستاذاً كبيراً ورائداً مجدداً مبتكراً، تجاوز نفسه باستمرار وانشغل بحمل هموم الفكر والفن والثقافة وتجديد المجتمع، وبقي على روحه الشبابية المتمردة على الأطر والمسلّمات، رافق الأجيال الجديدة حتى آخر حياته لأنه أصبح عالماً ورائداً من أكبر رواد الفن الطليعي محلياً وعربياً وعالمياً.

وبرحيل الفنان الكبير تفقد الحركة الفنية واحداً من ألمع وجوهها كما يفقده مرسومه الذي اعتاد الرسم والتقاء صفوة أهل الفن والثقافة فيه.

معلومات عامة:

- ولد فاتح المدرس في حلب عام ١٩٢٢
- درس التصوير الزيتي في كلية الفنون الجميلة في روما، وتخرج عام ١٩٦٠
- تعرف هناك على الاتجاهات الإيطالية الحديثة ورسم لوحات عدة تحت تأثيرها.
- سافر إلى باريس ليتابع دراسة الفن في المدرسة الوطنية العليا (١٩٦٩ - ١٩٧٢)
- عاد بعدها يحمل شهادة الدكتوراه في العلوم الفنية، وهناك دخلت التشكيلات

الأكثر حداثة التي شملت لوحته كلها من خلال الألوان المنصادة

- في عام ١٩٦١ قدم التعبيرية التي تملك الرؤيا الشخصية وجمع بين الوجوه الطفولية والريفية وعلى أرض أصبحت الخلفية بلوحاته، وبرزت الوجوه مستقلة عنها، كما استعان بالأساطير القديمة التي انتزعها من الحضارات القديمة في سورية.

- ومن أهم لوحاته (أسرة في الهواء الطلق - ١٩٦٢) و (الآشورية - ١٩٦٢).
- تطورت تجاربه في عام ١٩٦٧ فأصبح يعالج الموضوعات السياسية والاجتماعية، ودمج بين التعبيرية الذاتية وبين الرموز الشخصية المستمدة من

- الموضوعات الدينية والأسطورية في تشكيلات خاصة (الشهيد- ١٩٦٧)
- قدم التجارب الأقرب إلى التجريد حيث دمج بين الوجوه مع الأرض، وغابت الشخصيات عن لوحاته وبرزت المسافات التي تعتمد العلاقات بين المساحة والشكل (لوحة ١٩٦٦). وقدم اللوحات الواقعية في البداية واتجه إلى السوربالية ثم رسم اللوحات التعبيرية التي لها طابعها التقليدي.
 - انتخب نقيباً لاتحاد الفنانين العرب وعضو في المجلس الأعلى للفنون بدمشق.
 - أستاذ التصوير الزيتي والدراسات العليا في كلية الفنون الجميلة بجامعة دمشق.
 - أقام عشرات المعارض في سورية والوطن العربي والعالم (٢٠ معرضاً فردياً) وشارك في العديد من المعارض الجماعية الرسمية والخاصة.
 - شاعر وقاص ترك مجموعتين شعريتين (القمر الشرقي يسطع على شاطئ الغرب) بالاشتراك مع الشاعر شريف خزندار (١٩٥٩) ومجموعة (زمن اللاشيء) في الثمانينات.
 - كان يمارس الكتابة وله قصص عدة منشورة في كتاب منها (عودة النعناع) وتعدد من أصفى المجموعات القصصية التي تحمل هموم ناس القاع، ومن ثم ما لبثت أن تحولت إلى فيلم إضافة إلى (خيسر العوج) و (عربة الجر رقم ١٣) و(رشو آغا) .. إلخ
 - حصل على العديد من الجوائز والتفديرات العربية والعالمية كان آخرها جائزة لجنة التحكيم في بينالي القاهرة ١٩٩٤.
 - توفي مساء يوم ١٩٩٩/٦/٢٨ في إحدى مشافي دمشق إثر مرض عضال.

لسعة اللذة أمام الجمال

ولدت على أرض جميلة، يخترقها نهر متوحش تزينها أشرطة من التراب الأحمر القاني، الفصول الأربعة فيها متميزة بالأعاصير والثلوج والشمس اللاهبة، شمالي سورية ولدت، سموني فاتحاً لأحب وجوه الفلاحين والأعشاب والطبيعة وأغاني الأطفال، عندما بدأت أدرس الأدب، جئت إلى (مارون عبود) الكاتب والناقد اللبناني المعروف، فأعطاني قدرة لأن أنظر إلى شجرة البلوط وأحدق في عينيها بلا خوف كالجبال، وعندما تعلمت ما هي الألوان أصبحت سعيداً كالشيء الموجود دائماً، أما الذي أرسمه فإني أحاول وضع الأشكال، كما استقرت في ذاكرتي على اللوحة بعد أن تكون قد مرت بسلسلة من التجارب للتأكد من فاعليتها البصرية، وإمكان عطائها الحضاري، وعبرة ((للتأكد من فاعليتها البصرية))، لا يبق بها إلا كل من عانى صعوبة العطاء الجديد!!

فاتح المدرس

لم يكن مرسوم المرحوم فاتح المدرس (أو محترفه) مكاناً فقط، لإنتاج اللوحات، فقد حوله على مدى عقود إلى بؤرة استقطاب للمفكرين والمتقنين والمبدعين، وتلقت أجيالهم المتتالية في حوارات عن الثقافة والإبداع والحياة، وربما لا يعبر شيء عن

(فاتح) أكثر من مرسمه الشهير في قلب دمشق، حيث لوحاته، ومشاريعه تنبض بروحه المبدعة وحيث كلماته تنتثر في قصاصات ورقية على الجدران تحكي ببلاغة ساحرة فلسفته في الحياة، وتفصح عن موهبته في صياغة الكلمة، وحيث كانت آلة (البيانو) تصدح بين حين وآخر بألحان جميلة خلقت للتو، على الدرجات القليلة الموصلة إلى غرفتين وممر طويل مكتظة باللوحات والألوان والكتيب والأشعار والأشياء الصغيرة، هبط كل يوم فنانون ومتقنون بعضهم زملاء للمدرس، بعضهم كانوا طلابه وبعضهم ظلوا كذلك حتى رحيله، جمع بينهم تقديرهم العميق للفنان والمثقف والإنسان فيه، وحيثه الصريح كما أفكاره كما الألوان في لوحاته.

الأرض .. الوطن

لم يكن حصول لوحة المدرس الشهيرة (كفر جنسة) على الجائزة الأولى للمعرض الفني السنوي عام ١٩٥٢ اعترافاً بموهبته فحسب، وإنما إعلاناً عن مرحلة جديدة لفن التشكيل السوري سيحتاج الجواب عن تأثيرات فاتح المدرس فيها، إلى دراسات معمقة تطال تجارب عدد كبير من الفنانين الذين جاءوا من بعده ولا تقتصر على الذين تتلمذوا على يديه مباشرة، كأستاذ في كلية الفنون الجميلة بجامعة دمشق، فتجربة المدرس لم تقدم نموذجاً للاستساخ وإنما سعت لإطلاق روح إبداعية حرة تضع خلف ظهرها المفاهيم التعليمية التي تجاوزها العصر (١).

ويذكر الطلاب الذين عاصروا عودته من روما مطلع الستينات، كيف أنه فتح النواقد فور دخوله إلى إحدى الصفوف في الكلية، ليحل ضوء الشمس الساطع محل الضوء الكهربائي المسلط على تكوين الطبيعة الصامتة، وكان هذا الدرس إلهاماً لفناني المستقبل جزءاً أصيلاً من ميزات تجربة المعلم الإبداعية، يحدده بكثير من الوضوح حين يحكي عن مجموع الأضواء التي تتميز بها "أرض وسماء وطني" والأرض بدورها كانت جزءاً أصيلاً آخر من ميزات التجربة، بل أهم أجزائها على الإطلاق من (كفر جنسة) مروراً بروما وباريس إلى ما بعد عودته، ويصعب العثور على لقاء منشور معه لا يتحدث فيه عن الأرض بشكل أو آخر، فهي بخصائصها اللونية والحضارية والإنسانية أهم ما أعطى تجربته تميزاً وقبلاً ليساً أحد أهم مصادرها، وخاصة ما حفظته ذاكرة الطفولة حيث عاش شطراً قاسياً من حياته، وغنياً في الوقت ذاته بالصورة تتقدمها صورة وجه أمه بوفرة في لوحاته، ومشاهدة السهول الفسيحة قليلة الأشجار، التي لم تتوقف عن الظهور في أعماله بصيغ نباتية تستمد روحها من التقطيعات الهندسية المتتالية ذات المدى اللا منتهى لسهول الشمال السوري، مروراً بالبيوت المترامية لبلدة (معلولا) وصولاً إلى التأثيرات المعاد صياغتها لإبداعات الفن الآرامي والآشوري والفينيقي والتدري.

الضوء والصوت والمدى:

في معرض الحديث عن نفسه، يقول: تصور هذه المدينة الإنسانية في سحيق أزمانها وتبعثر المكان فيها، تمر في لمح البصر بتجاربها الحالية ومعطياتها الرمزية على سطح اللوحة ليتمكن الرسام بعد قناعة ميزوزة، أن يضع لوناً إلى جانب لون، أو أن يؤكد مساحة بمساحة، ويربط شتى الأحاسيس اللونية ضمن إطار صغير، مهما تكن اللوحة ضخمة، حتى أننا نحن الرسامين، نرى استحالة وضع حس جمالي، مهما كان خفيف النّقل ناعم التأثير ضمن إطار ضخم .. فماذا أرسّم؟! .

يجيب الفنان: إن الإنسان يترك أثره بأظفاره على الصخر، كما يفعل السجين أو كما يترك الطائر جناحيه في الفضاء، يكفي أن يكون قد أوجد ليدل على من سيأتي!! .

رأى (فاتح المدرس) حركة الحياة ومظاهرها والضوء والصوت والمدى ... رأى هذه وغيرها باللون، فلجأ إلى قسوة الأحمر والأسود تارة وأخرى إلى الأبيض واشتقاقات الرمادي الحارة والباردة، وغلب على مواضيعه الأسطورية الأزرق المتحول عمقاً إلى الخمرى والأسود، وكان يرتاح بعد إلى الأخضر وشفافيته، هكذا اللون عند فاتح المدرس وسيلة وغاية، غوصاً في العمق وتنفساً على السطح، روحاً ومادة يفيضان على اللوحة نوراً.

روحة اللاشيء

استخدم فاتح المدرس خامة الأحبار على الورق أو مع ألوان الماء كما استخدم خامة الزيت على القماش، ولم يعرف تاريخ الفن السوري استخداماً للأدوات كما عند فاتح المدرس، فظنّها أدوات سحرية شكلت مع أصابع يده، أو أنها أشعة غامضة انتشرت من تلك الأصابع، وكان عملاً وتأملاً، قال لي مرة وأنا أنظر إلى لوحة في محترفه: (لا أترك لوحتي حتى تصبح متألفة كالجواهر).

يتحول فاتح المدرس في لحظة الإبداع إلى لون وأداة يسيران وفق تحولات

واقع الحال أن تلك الأدوات هي الفرشاة وخشبتهاء، والسكين بحده وسطحه وقلم الفحم(٢).

لم يكن فاتح المدرس يأبه لمن يراه حين يعمل، ولكن إذا مالحظه غالباً ما يطلب منه الانصراف حتى يخلد للوحته ويشبعها الذاكرة، في دهاليز الذاكرة والرؤية وكانت تلك التحولات تأتيه كنسغ الشجرة ما إن تبيت في جذعه حتى تورق في عينيه وفي الخفي من تلايف عقله.

ويقول الفنان: (أقف أمام اللوحة البيضاء فتسرقتني روعة اللاشيء)، (أقف أمام صفحة - ورقة - بيضاء، أقف أمام الصفر وجهاً لوجه)، وقال عن الشرارة في الشكل (إن هذه الشحنة هي السر في العمل الفني) وقال أيضاً: هناك أناس من الروعة بمكان يحولون كالعصافير المهاجرة اختراق ذلك الجدار الشفاف في ظهيرة الحياة جدار السراب السحري هؤلاء منحوا طاقة استشفاف مكانين وزمانين فسي لحظة واحدة .

المعرفة سعادة:

أما لماذا أرسم، فإني أفعل ذلك لكي أكون سعيداً، فأنا بلا معرفة لست سعيداً في تعرفي على الرسم والألوان والأشكال، أشعر بملكية مطلقة للأشياء في الوجود وهذا مصدر شعوري الدائم بالفرح، ولهذا أرسم بيدي ويعيني وبحركتي، لأتعرف على الموجودات، فالمعاناة في التجارب، تجعلني السيد إزاء جمال الوجود الخارق.

الإسهام في الحوار الحضاري:

برى الناقد (سعد القاسم) أن جانباً آخر من أهمية فاتح المدرس ينبع من فهمه للفن التشكيلي على أنه فكر وليس حرفة، وقد أرفق ذلك الفهم بثقافة واسعة طال طيفها تاريخ الحضارات والفلسفة والأدب والموسيقا، ولقائه بعدد كبير من المفكرين والمتقنين والفنانين الأوروبيين، وقيام حوارات مثمرة معهم، واللافت للانتباه هنا أنه

بخلاف كثير من الفنانين الذين درسوا في أوروبا، فإن مرحلة الدراسة الشديدة الاتصال بالثقافة الغربية رسخت هويته المحلية المتميزة التي يجد في حوار متأخر معه (أنها من أشق الأمور أواخر القرن العشرين لأن الفن التشكيلي فيه يفقد هويته الجغرافية لتقارب الثقافات بين الشعوب)، وهو في المقابل يرى أنه (لو استطاع الفنان فهم العوامل النفسية المميزة لشعبه لاستطاع التوصل إلى هوية جمالية) هذه الرؤية تسمح بافتراض أن فاتح المدرس كان، حتى لو لم يعلن ذلك صراحة، يعد نفسه مساهماً في حوار حضاري من ثقافات الشعوب الأخرى، ولهذا أصبح الحديث عن مفاخرته بالذاكرة الحضارية ليس من خلال مقولاته المعلنة السوفيرة، وإنما أساساً من خلال نتائج بحثه التشكيلي.

الفن هو جوهر الإنسان:

قلد بعض الفنانين أسلوب فاتح المدرس وذلك بتأثير معاشرتهم له أو تتلمذهم عليه، وجاء تقليدهم لأشكال فاتح وألوانه تقليداً للسطح حيث عز عليهم المضمون، لأن المضمون في فنه كان الفنان ذاته، تلك التركيبة التي شكلتها الأرض والسماء في لحظة نادرة الحدوث، فكان ذلك المضمون هملاً حمله فاتح طيلة حياته، وهو هم الإنسان الذي حمل غلالات الأزمان والقهر والعتمة، ألم يتحدث الفنان عن فن طاهر

وفن غير طاهر؟ ظهر الفن عند فاتح المدرس هو طهر جوهر الإنسان بنأيه للعمل لأجله ويحرضه بواسطة الرؤية الحرة التي صنع لوحات بها، إن مفردات لوحات فاتح المدرس لا يمكن أن تحاكي إلا المضمون الذي عبرت عنه، لذا كان يرفض كل أشكال الفن التي لا تعبر عن جوهر إنساني، وإذا ما تراءى لنا أن مفردات أسطورية أو هي ذات دلالات تشير إلى عوالم حضارية غابرة، فأعتقد أن مرد ذلك هو قناعة المدرس أن الحضارة الإنسانية التي ألمح إليها في أقواله وفي لوحاته قد عبرت في القديم، فلنستعدها، أو أنها ستأتي بعد حضارة هذا الزمن، فلنسمع إليها، ولكنها ليست بحال حضارة العالم المقهور التي نعايشها.

ليس في لوحات فاتح المدرس سكينة بل نضال للحياة والدفع، وكانت المناسبات السياسية تحرض فاتح المدرس لعمل لوحة فتخرج بانفعال يتبدى في لمسة قوية حمراء، سوداء، خضراء، يختم بها اللوحة كالصرخة. والجميل أن فاتح المدرس لم يعتمد ابتكار أشكاله بل تخرج الأشكال من مخبئها في نسيج لوحته، مبتكرة بدينية السليقة، هكذا كما لم يرسمها غيره من قبل.

لسعة اللذة أمام الجمال:

تتمتع جميع أعماله، رسماً وكتابة، بهذه القدرة المدهشة على إثارة الأسئلة وإبقائها معلقة في الهواء، وتبحث دونما جدوى عن مفاتيحها وإجاباتها. ما تثيره أعماله فينا ليست فقط المغامرة ومخاطرها، ولا الغنى التعبيري وإبهاراته، ولا الأسئلة القلقة التي تتبض تحت أديمها السخي كما ينبض بركان مستتر، بل .. فوق ذلك، أو ربما قبل كل ذلك، تلك اللسعة الأخاذة التي تتأبنا أمام كل فن عظيم: لسعة اللذة أمام الجمال.

كان يقدس الجمال، باعتباره قيمة ورمزاً ومغزى، الجمال بكل تجلياته: شعراً ورسماً وموسيقى، ولعل في قصائده المختزلة، المشفرة، التي كان ينشرها على جدران مرسومه ما يلقي الضوء على الجانب الآخر من شخصيته، شخصية الشاعر، الشاعر الذي عرف كيف لا يكون التابع الصغير والهامشي لشخصية الفنان، كان مثله مثل كثيرين: جبران، فيكتور هيجو، وليم بليك، هرمان هيسه، وآخرين... قادراً على التحليق في فضاءات تعبيرية أخرى، دونما خشية من أن ينتقص ذلك من قيمة وعلو واتساع فضاءه الأساسي: كان فناناً وشاعراً في آن، وربما بنفس السوية والعمق والقدرة على ملامسة الجوهر الحقيقي لمادته وإداته: في الرسم كما في الشعر، ولهذا لم يكن يستخف بالكلمات، تماماً كما لم يكن يستخف بأداتيه الأساسية الأولى: الريشة.

لا تعبث إذ تكتب شعراً، كما يقول، اخلع حذائك، انت تتكلم عن ملائكة بسلا

أحذية، ومهما يكن شعر الإنسان مسكيناً، فإنه أجمل ما في هذه المجرة..
فاتح المدرس كان شاعراً كاملاً: كان شاعر حبر ولون، في الوجوه التي
رسمها، وهي وجوه الحياة على أي حال، كان بعيد إحياء البشر، بعيد إبداع الحياة
عبر الوجوه النبيلة، النعسة، الأيقونة، المتصورة في متاهة الزمن، الوجوه التي
كانت تشكل الميثاق الروحي والوجداني لعمله الإبداعي.
كل وجه ... هو كل الناس، وكل لحظة مقطوفة من الزمن هي كل الزمن،
وكل شهقة جمال ... هي الجمال الكوني كله، وكل غصة ... هي غصة أرواح
البشر كلها.

حياة وعمق وعفوية:

على الرغم من الزمن القياسي الكبير الذي أمضاه هذا الفنان المتميز في إنتاج
الفن، وبغزارة واضحة، ظلت لوحته تمتد أكثر من جسر إلى الحياة، مما جعلها
مأوى للحياة لا طراوتها، وشغيبها المحبب، فتجربته لم تقع في فخ القوالب الجاهزة،
ولا التكرار الممل، ولا غادرها الدفء والألق والبهاء وزخم التعبير، وعمق الرؤى،
وروح البحث والتجديد والإضافة..

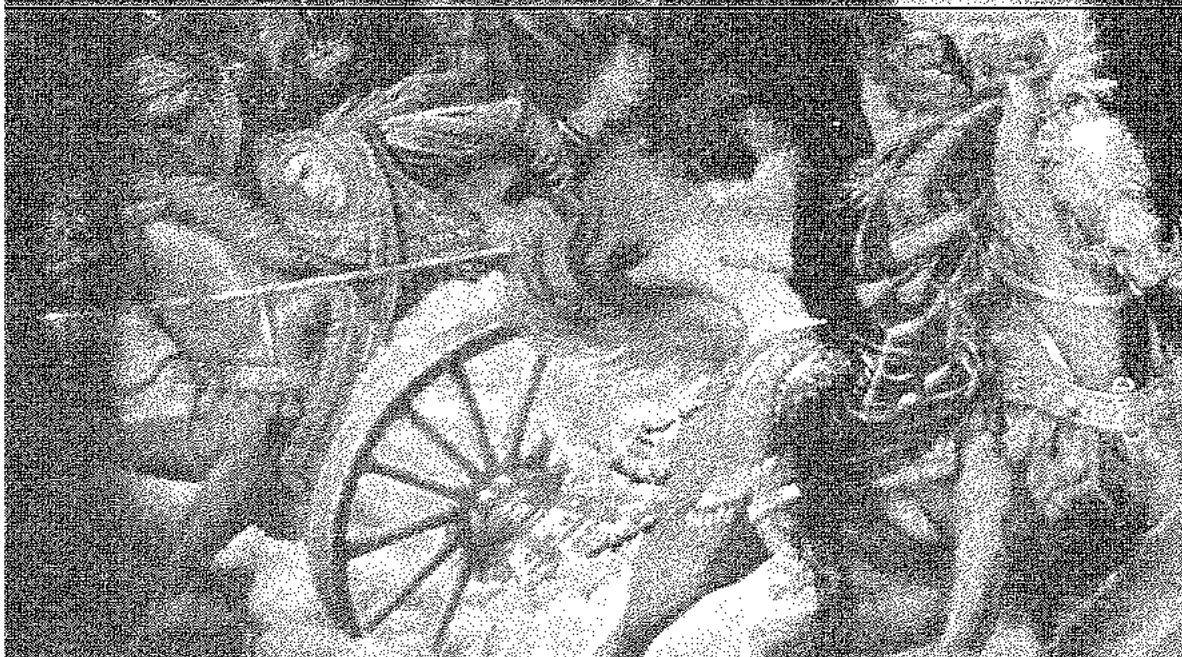
لقد ظلت تجربته كما بدأت قبل ما يربو على ستين عاماً: مواره بالحياة، رافلة

بالبساطة والعفوية والعمق، لذلك فهي من النوع السهل، الممتنع أعرت العديد من
التشكيليين السوريين والعرب على تقليدها، لكنها ظلت عصية على التقليد، لأنها
كانت وثيقة الصلة بجذوة الحياة المتجددة أبداً، وبصولات وجولات الفكر الإنساني
الذي لا يهدأ وفاتح المدرس امتلك مؤهلات متميزة، مكنته من القيام بهذه
الصولات والجولات وبامتياز.

وفي اللحظات الأولى لافتتاح مرسوم الفنان فاتح المدرس كان الجمهور أمام
مفاجأة مدهشة: تغيبت اللوحة السريالية التي كانت مرسوم الفنان، وغادرت فوضى
الكتب والأوراق والأثاث العتيق، وحضرت لوحة جديدة مكان مضاء ولطيف

وباقات ورد منتقاة ولوحات الفنان الخالدة ترصع الجدران، وظهرت لمسات الزوجة الأنيقة في توزيع هذه اللوحات وهي هدية الفنان لزوجته خلال رحلة محبة ووفاء لأكثر من ربع قرن، وفيها مفاصل رئيسية من تجربة الفنان التشكيلية، ترمع الزوجة الآن أن تعرض في المرسوم مقتنيات من أعمال تجارب الفنانين الشباب الذين اعتاد المدرس أن يمهد لهم الطريق ويمدهم بتشجيعه ورعايته.





عاصم زكريا :

معارك الكفاح الوطني من أجل الحرية... نصف قرن من الإبداع لتجسيد البطولة والتراث الحضاري

الفنان التعبيري عموماً والتشكيلي خصوصاً ابن ضروراته الوجودية ومجتمعه وحاجاته متكيف مع ذاته ومحيطه، بما يمتلكه من حواس وانفعالات ومواهب وقدرات تمكنه من التعبير عن الواقع اليومي وعن التفاعل الإيجابي مع قضايا الأمة بأفراحها وانتصاراتها، وكذلك الأمر في نوائبها وأحزانها، وهو الأكثر صدقاً مع حالة الترميز والوصف والاستعارات المجازية من ذاكرة الواقع والتاريخ والأمكنة والمعالم الأثرية المحيطة، والتصاقاً برغبات الناس على الالتقاط ومقدرته على التوصيل.

لقد شكلت المعارك حيزاً واسعاً في لوحات وأعمال الفنانين التشكيليين العرب منذ بدايات القرن الماضي وحتى اللحظة الزمنية الآنية، بسبب ارتباطها العضوي بحياة الناس وذاكرتهم، وحاجتهم للنظر في ماضيهم وحاضرهم، عبر تنويعات الابتكار المرئي والمكتوب والمسموع، وأهمية العمل الفني واللوحة في تكريس هذه الحاجة وبلورة مفاعيل التواصل من وجهة نظر تعبيرية، يمثل الفن التشكيلي واحداً من بواباتها المريحة والواسعة على التلقي، باعتبار أن الفنان شاهد عصر ومرحلة، واللوحة والعمل الفني ذاكرة توثيق وتذكرة عبور لمرحلة تاريخية وأزمنة وأفراد وشعوب، وانعكاس طبيعي وصادق لجوهر الأشياء في فهم الأمور، ومعاينتها في كافة معاييرها الأيديولوجية والسياسية والحضارية والاجتماعية، التي مثلت للفنانين مادة جديدة للتواصل والتذكر وفتح مكان لجموح المخيلة، تلمس معطيات الواقع في رموزه وشخصه الحية والمرئية في كل المناطق الجغرافية التي يعيش المواطن في أحضانها، وفي كل متغيرات الطبيعة والجمال والإنسان.. وكيف لا والمنطقة

العربية عموماً وسورية خاصة عاصرت أحداثاً جساماً في تاريخها الحديث والمعاصر، وتعرضت لمجموعة من المخططات الاستعمارية الأوروبية عبر اتفاقيات (سايكس بيكو)، وما تبعها من عدوان متعدد الجنسيات على مقدرات وجودها وخيراتها وشعبها، وما جسده من مقاومة شرسة للاحتلال الفرنسي ونيل الاستقلال، حتى دقت نكبت فلسطين عام ١٩٤٨، رؤوس العرب جميعهم حكماً وحكومات وشعوباً، دقاً عنيفاً في قسوة نتائجها على الشعوب العربية، وأبقت المنطقة العربية في مواجهة مازالت مفتوحة مع العدو الصهيوني، الذي انتشر في قلب الوطن العربي، وامتد غدره ليشمل مزيداً من الأرض العربية عقب نكست حزيران عام ١٩٦٧، وما أعقبها من حروب مواجهة مستمرة مع العدو الصهيوني في كافة الجبهات العربية لاسيما جنوب لبنان وفلسطين.

هذه الأحداث المؤثرة رسمت للفنان التشكيلي السوري معالم ابتكار متجددة، عبر الاشتغال التقني في كل ميادين الفن التشكيلي التقليدية والتصوير على وجه التحديد، وفي الوقت الذي رسم فنانون الرعيل الأول أمثال (توفيق طاروق، سعيد تحسين، عبد الوهاب أبو السعود، محمود جلال) انتصارات العرب المستلزمة من المواقف الفاصلة في التاريخ العربي الإسلامي، مجسدة في معارك (اليرموك) (القادسية) (عين جالوت) (حطين)، كان الهم الإنساني والبعيد الاجتماعي هو المجال

الحيوي لفناني مرحلة الخمسينات والستينات، ومن أبرز فناني تلك المرحلة (ناظم جعفري، فاتح المدرس، لؤي كيالي، برهان كركونلي، إقبال قارصلي، عاصم زكريا)، بينما اتسمت مرحلة السبعينات وما بعدها في تعدد منابر التعبير الموزعة ما بين الأيديولوجية في أبعادها التاريخية والحربية، والعودة للطبيعة ورسم المواضيع المحلية وخوض غمار التجارب الحديثة والحداثيّة بالفن، من أبرز الفنانين الذين عبروا عن الحروب والمعارك في تلك الفترة (حيدر يازجي، أحمد إبراهيم، علي الصابوني، غازي الخالدي، جريس سعد، علي السرميني، ممدوح قسطلان) وسواهم.

لقد شكلت لوحات الحروب والمعارك في شقيها المفرح والمؤلم في ذاكرة الناس وفنات المجتمع المتعددة، حيزاً من التأمل والتفكير باعتبارها ذاكرة بصرية للمكان العربي بكل تفاصيله وأحلامه ومفارقاته، وقد أكدت على تلاحم الطبقات باختلاف منابثهم الاجتماعية، ولم تخرج لوحات الرعيل الأول من الفنانين التشكيليين عن المدارس الفنية التقليدية بكل ما فيها من محاكاة لتجارب الآخرين، ولكن بوسائط تعبير وملونات وأحاسيس عربية، فكانت سيادة للاتجاهات الكلاسيكية والواقعية من حيث بناء اللوحات، وآلية الاشتغال التقني والتعامل مع الشخص والمساحات والملونات الرئيسية والخلفية والثانوية، فيها كثافة عددية متناسبة وروحية المعارك وصخبها وقيمها التصويرية الحاشدة بالخطوط والملونات وواقعية اللقطة، بينما عزفت أنامل الفنانين في المرحلة الثانية (الخمسينات والستينات) على تقسيمات وأساليب المدارس والتيارات الواقعية التعبيرية والتعبيرية الرمزية، ودخلهم مساحة الفن الحديث من بوابة التكعيبية والرمزية، وعدم التزامهم بقيود المدارس النمطية التقليدية، وألوانهم فيها كانت مقتصرة على دائرة لونية محددة سواء أكانت أحادية وثنائية أو سواها، وأمسست لمساة الفنانين وأساليبهم في معالجات مواضيعهم وقيمهم الخطية واللونية معروفة لدى جمهور الفن والتلقي، وتلامس في كثير من الأحوال القضايا الحياتية التي تحيط بأسوار الوطن ومعاركه الحياتية الداخلية والخارجية، وإسراز البعد الإنساني والنضالي الاجتماعي والوطني...

لقد رسمت كافة مساهمات الفنانين التشكيليين المتصلة بمواضيع الحروب والمعارك، حالة تعبير صادقة معبرة عن حقيقة المكونات البشرية المبدعة والملتزمة بقضايا الأمة والوطن والقضية الفلسطينية والجولان على وجه التخصيص، وتشكل في جموع ابتكاراتها بانوراما عربية كفاحية بامتياز تقني وفكري وجمالي في أبعاده الوجودية التاريخية والحضارية.

لقد أتيج لي مؤخراً أن أزور بيت الفنان القدير (عاصم زكريا) ... وحين بدأ

تطوفاي أمام عشرات الأعمال الفنية التي احتشدت في كل ركن وعلى الجدران: لوحات ضخمة لمعارك تاريخية خالدة، ولأحداث الثورة الوطنية وجهاد الثوار من أجل طرد الاحتلال وتحقيق الاستقلال ... وكذلك لوحات لمعالم دمشق الجميلة، ومناظر الطبيعة الأسرة، انتظمت كلها لتحيل المكان إلى عالم من الجمال المهيب، والذوق الفني الرهيف، معبرة عن المشاعر الفياضة التي يخزنها صدر الفنان، ويعبر عنها بريشته الفنية المبدعة ... وهكذا توقفت ملياً، أسألك:

- هل أنا وسط ميدان بطولة حقيقي، نابض بالمواقف التاريخية الخالدة ... أسمع صهيل الخيول في تدافعها على حلبة الميدان، وتكبير الثوار وهم يتسابقون إلى لقاء العدو بصدر مشرعة للفداء، ورايات النصر خفاقة في السماء مبشرة بفجر الاستقلال...؟

أم هي لوحات فنية بذل لها الفنان ومض قريحته، وضوء عينيه، ولمسة ريشته الدقيقة الشفافة...؟

أروع من الروعة هذه الأعمال الساحرة التي تزين جدران غرف المنزل، وهي تحضنك فكراً وإحساساً، وتعيد إلى ذاكرتك ما فاتك من أخبار الكفاح الوطني، وسير الرجال الشجعان الذين كتبوا صك الحرية بدم الشهادة.

- هل سمعتم بالفنان أحمد عاصم زكريا...؟

جلست إليه أنصت إلى تفاصيل الرحلة الطويلة الشائقة، محطة ... بعد أخرى....

- ولد الفنان عام ١٩٣٧ في حي سوق ساروجة بدمشق، وتفتحت عيناه في بيت شعبي تهيأ له فيه مناخ فكر وثقافة وفن ... كان جده "جميل زكريا" قد تخرج من الكلية الحربية في الآستانة عام ١٩٠٨، حيث زامل فيها الرسام الدمشقي الشهير "توفيق طارق" وحارباً معاً على جبهة اليونان إبان الحرب العالمية الأولى، فلما اندلعت نار الثورة العربية الكبرى عام ١٩١٦، انضم الجدمع الكثيرين من الضباط العرب إلى جيش الأمير فيصل بن الحسين، الذي أصبح فيما بعد ملكاً

على سوريا ... على أن عهد الاستقلال العربي لم يعمر طويلاً، وما لبثت قوات الغزو الفرنسية أن احتلت البلاد بعد موقعة "ميسلون"، وفرضت سيطرتها الاستعمارية ... مما حدا بالجد "جميل زكريا" إلى ترك الحياة العسكرية، والانتساب إلى كلية الحقوق، ليتخرج منها عام ١٩٢٤، ويلتقي مجدداً بصديقه الرسام "توفيق طارق"، ويبدأ معه رحلة جديدة في عالم الفن والإبداع ... وصار بيته ملتقى حميماً لهواة الرسم، يعكفون فيه على إنجاز أعمال جميلة بإشراف "توفيق طارق"، وقد كانت بعض محصلة هذا الملتقى لوحة متميزة شارك في رسمها الأصدقاء، وأطلقوا عليها اسم "بطني صيد" وحملت توقيعاتهم معاً...

توفي الجد عام ١٩٣٢، تاركاً وراءه رسماً ولوحات زيتية ومائية، وثروة مسن أدوات الرسم والألوان، ومكتبة حافلة بعشرات المؤلفات في الأدب والفن والتاريخ ... وقد تسلم هذه التركة الرائعة "محمد عوني زكريا" والد الفنان وخريج الأدب الانكليزي من جامعة "كامبردج".

.... وعلى الرغم من أن الأب لازم مرسم الفنان "توفيق طارق" وتابع نشاطه المتميز في لوحاته الجميلة، إلا أنه اكتفى بتذوق الرسم دون ممارسته، لأن هوايته كانت الأدب والشعر والموسيقا، كما اهتم بحفظ تراث الجد الفني الذي أبقاه ثروة وذخراً للحفيد الفتى "عاصم"، وأحاطه برعايته وتوجيه خطواته الأولى في عالم الفن الجميل.

كانت البلاد في تلك الفترة من تاريخها، ميداناً لمعارك الجهاد ضد الاحتلال الفرنسي، وصارت حكايات الملاحم الوطنية التي يكتبها الثوار يومياً، على كل شفة ولسان، وقد خلبت صور المجاهدين، ومواجهاتهم الرائعة مع جنود الاحتلال، فكر الفنان الناشئ، وسيطرت على حواسه.

... وشهد "عاصم زكريا" بعينه المذبحة الفاجعة التي استشهد فيها حرس البرلمان الأشاوس، الذين رفضوا الاستسلام، واختاروا الموت في سبيل الحرية، فتركت المأساة في غور نفسه أثراً أليماً لا يمحي مع الأيام، كما شهد الفنان أعراس

الشعب صبيحة جلاء المحتل عن الوطن، ومواكب الفرسان الظافرين تجوب أحياء دمشق مهللة للنصر الكبير ... فكان ذلك كله خميرة للأعمال الفنية الرائعة التي خرجت فيما بعد إلى الوجود، معلنة ميلاد فنان كبير مبدع...

البدايات الواعدة:

- تعلم "عاصم زكريا" في مدارس دمشق، وفي المرحلة الإعدادية عام ١٩٥١، حظي بمعلم مادة الرسم، هو الفنان القدير "سعيد تحسين"، الذي اهتم بتوجيه تلامذته، وإذكاء حماسهم، وشحذ مواهبهم الفنية، كان المعلم يخط أمامهم، ويطلعهم على خطوات العمل وأساليبه وتقنياته، مركزاً أنظارهم على التفاصيل بالدرجة الأولى، ثم على التلوين ... ويدلهم كيف تلوّن السماء والأشجار والمياه، ففتح المعلم - كما يذكر عاصم - عينيه على أسرار الفن وآفاقه الواسعة، وملأ مشاعره بسحر الجمال وفننته، وكانت تلك الشرارة الأولى التي فجرت موهبة التلميذ الفنية، ولقنت انتباه المعلم القدير إليه، فأولاه اهتمامه، وأغناه بتوجيهه، كما حظي بإعجاب والده الذي راح يذكره بأعمال الفنان المبدع "توفيق طاروق" وأسلوبه الأنيق، ويمده بملاحظات مؤكدة عليه أن يتحرى في عمله كل ما هو نبيل وجميل، ويطوع ريشته لتكون ناعمة، وخطوطه لتخرج قوية واضحة ...

وهكذا كانت انطلاقته الأولى، ثم بدأت أعماله الفنية تتوالى، وإن لم تزد عن بضعة لوحات نفذها بإشراف أستاذه "سعيد تحسين"، لكن ثمة لوحة فنية تميزت من بينها وهي "معركة بور سعيد" التي رسمها عام ١٩٥٨، بقياس ٦٠×٨٨ سم، واقتنتها الدولة بعد عرضها في "معرض البطولات العربية" وعاد فرسم معركة "العسدوان" الثلاثي على مصر ولوحة المجاهد "حسن الخراط" أحد شهداء الثورة الوطنية ضد الاحتلال...

صور البطولة في تاريخنا:

ثم بدأت مرحلة حاسمة في مسيرة الفنان، حين تملكه هاجس رسم لوحات جدارية، تكون فيها - كما صرح - دورس للأجيال ... فنحن مقصرون في تجسيد أحداث تاريخنا الغني بمواقف البطولة والتضحية ... ونحن لا نقل شأننا عن الأمم الأخرى، التي يخلّد فنانونها تاريخهم بأعمال فنية ضخمة تعجز بهما ... وانتقدت حماسته لرسم المعركة الفاصلة في "ميسلون" التي شارك جده فيها، والتي قدم فيها القائد "يوسف العظمة" درساً في التضحية والفداء. ولكنه ما لبث أن واجه اعتراض أبيه الذي رأى أنه ما يزال هاوياً ... وأن عليه أن يبدأ برسم المناظر الطبيعية والزهور والفواكه بريشة ناعمة كما كان يفعل الفنان العظيم "توفيق طاروق"، ثم ينطلق إلى الأعمال الكبيرة التي ينتقيا جهازة الفنانين المتخصصين ... لكن "عاصم" لم يحمل اعتراض أبيه على محمل الجد، بل صمم على تنفيذ فكرته ...

(فتش في السوق عن قماش "كانافا" عريض يمكنه من تنفيذ لوحته الضخمة فلم يوفق، واضطر لشراء أربع قطع من نوع آخر أقل مساحة ... وقامت جدته بخياطتها ليحصل على قطعة واحدة بقياس ١٧٥×٢٠٠ سم، أسسها بنفسه بدهان الزنك الأبيض، وبأشرف العمل على سطح بيته، وقد شغله استغراقه فيها عن كل مسا حوله، ولكنه مع هذا، أنهى تحصيله الثانوي، ونال شهادته ليتحق بكلية الحقوق في جامعة دمشق.

كان انشغال الفنان في عمله، واستغراقه في الرسم بلا كلل، لإنهاء لوحته "معركة ميسلون" إضافة إلى المأساة الأليمة التي انتهت بها حياة الفنان الرائد "توفيق طاروق"، الذي مات وحيداً بانساً في غرفة مهجورة ببירות ... كان ذلك سبباً في ثورة والده عليه، فانقض هائجاً يعمل تحطيماً في أدواته وألوانه، مقسماً اليمين ألا يعود ابنه إلى العمل في لوحته حتى ينال شهادته الجامعية، وأتبع ذلك بترحيل أدواته وأغراضه والحجز عليها، ولكن لوحته "ميسلون" نجت من الثورة، بعدما كان قد بلغ في إنجازها مرحلة متقدمة، لأنه سارع إلى فكها ولقها وإخفائها في مكان آمن عند جدته ...

عمل جديد، وعاصفة من الجدل:

مرت أربع سنوات بطولها، نال الفنان خلالها شهادة الحقوق من جامعة دمشق عام ١٩٦٢، وغادر إلى "روما" ليمضي في دراسة الفن ثلاث سنوات، عاد بعدها إلى دمشق مزوداً بخبرة فنية مكنته من متابعة عمله في لوحة "ميسلون"، فأقبل عليها بحماس وأنجزها عام ١٩٦٥، لتأخذ مكانها في معرض الخريف الذي تنظمه وزارة الثقافة سنوياً، وقد رأى جمهور الفنانين والنقاد في اللوحة عملاً جديداً مختلفاً عما تعودوا عليه، إذ كانت أغلب الأعمال الفنية المشاركة ذات اتجاه تجريدي محض، وأحدث ذلك عاصفة مثيرة، في أروقة المعرض، ودار جدال صاخب بين مؤيديها ومعارضيه، لم يكن مألوفاً في أجواء المعارض الفنية قَبلاً..

وطلعت الجرائد في اليوم التالي لعرض اللوحة، تناقش لوحة الفنان "زكريا" قال فاتح المدرس ٨٢٤ ن جريدة البعث: ١٦/١١/١٩٦٥، لا يمكننا أن نسمي اللوحات التاريخية التسجيلية الدعائية فناً... إن الفن كالفلسفة صار علماً، وقد انقضى الوقت الذي كان فيه المنظر الجميل فناً.. وعُلقت الجريدة: (إن هذه اللوحة - ميسلون - حققت خطوة إلى الوراء) ... وأعقبها جريدة الثورة بتعليقها:

- (إن الفنان أضاع وقته في التاريخ لاستقصاء أسلحة الجيش في المعركة، ولم يهتم باللوحة كلون ومساحة ... بل كزخرفة) .. وأضاف ناقد آخر (إن الفنان لا

يحتاج إلى تخطيط فكري طويل، وكلما استغرق الفنان في التخطيط الفكري والنظري كلما ابتعد عن الفن وعن قيمته التشكيلية). وعلق "غازي الخالدي" (يمكننا بكل بساطة أن نكلف فنانين لعمل مثل هذه اللوحات التاريخية، لتخليد مناسبة وطنية)، وأدلى "طارق الشريف" بدلوه قائلاً: (إن لوحة "ميسلون" ذات مضمون تاريخي، يطغى على العمل الفني، وحين تفقد اللوحة قيمتها الفنية، تفقد كل شيء)، ولذا فهذه اللوحة لن تتمتع بالحياة أبداً، لأنها لوحة مناسبة، تنتهي مع انتهاء مناسبتها)...

لكن المنصفين من النقاد والزوار كان لهم رأي مخالف تماماً، وزير الثقافة

السوري في تلك الفترة رأى في اللوح عملاً فنياً مبدعاً، فقال: لو كنت فناناً لرسمت من بين كل عشر لوحات تجريدية لوحة وطنية تخلد مواقف شعبي البطولية، وذكر الدكتور "عفيف بهنسي": إن المواضيع الفنية القومية، يجب أن تكون نظرتنا إليها إيجابية... إن أكثر الفنانين يتهربون من إنجاز مواضيع تاريخية على الرغم من الحاجة الماسة إليها لإذكاء الروح الوطنية وإن الفنان الأصيل هو الذي يجسد آمال أمته تلاماً مثل الأديب الموهوب - ليحرك في أبنائها دوافع الاعتزاز والكبرياء.. ومن غير الفنان قادر على أن يثير مثل هذا الدوافع النبيلة في النفوس؟...

وهكذا ظلت لوحة ميسلون متألفة إلى يومنا، وذاعت شهرتها في الوطن العربي، وأدخلت دراستها في مناهج التعليم الفني، كنموذج للالتزام الفني بقضيتنا الأمة الوطنية واعتبرت نقطة مضيئة في تاريخ العمل الإبداعي السوري... وقد تطلع المتحف الحربي في سوريا لاقتناء اللوحة، وتم عرضها في صدارة الصالة الرئيسية، حيث ما تزال ماثلة ومتألقة، في حين غابت كل الأعمال القديمة عن العيون بلا أثر....

ميسلون: اللوحة الخالدة:

تمثل اللوحة القائد البطل "يوسف العظمة" وزير الدفاع السوري، وسط كوكبة من المتطوعين الذين هبوا معه إلى "ميسلون" للتصدي للقوات الفرنسية عام ١٩٢٠، والتي كانت تفوقهم عدة وعتاداً، وتجسد اللوحة القائد "يوسف العظمة" لحظة إصابته برصاص الأعداء وهو قريب من مدفعه، ويهتف بصوت جهوري:

(أنا إن مت فقد أحييت للناس مثلاً) إنما الحر إذا سيم الأذي يجهر : لا لا)

وهو من شعر الشاعر الوطني "خير الدين الزركلي" في ملحمة "العذراء" التي نظمها متأثراً بأحداث موقعة ميسلون.

وقد أشهر "العظيمة" بيمناه سيف النخوة، وفي يسراه مسدساً للدفاع عن نفسه، ووقف من خلفه مقاتل يحمي ظهره، في حين يحاول فارس آخر أصيب مع حصانه، شد لجامه لانهاضه ومتابعة القتال، وتفاصيل عديدة أخرى، عرض فيها الفنان مشيداً وطنياً وإنسانياً، يجسد لحظة الشهادة والتضحية دفاعاً عن أرض الوطن وحرية.

يرى المتأمل الملامح المؤثرة التي أنتقن الفنان إبرازها على وجوه المجاهدين، ويلاحظ التشكيلات الهرمية التي اعتمدها، وهي من مقومات الأسلوب الرومانتيكي، الذي تتجلى فيه العواطف الجياشة والذي يركز بوجه خاص على الحركة والعاطفة والأحداث الصارخة، ويعنى بالتشكيلات ذات الكتل الهرمية.

وقد اختار الفنان للوحة اللون الأزرق الكوبال، واستخدمه مع متممه الأحمر الكادميوم وأدخله في الجو الضبابي الغامق ليشير إلى أسنة اللهب المتلاشية (أعلى اللوحة)، أما اللون الثاني المستخدم في اللوحة فهو: البني من مشبقات العنبر الخسام وتراية دوسيين ومن الأكر التي لون بها الأحصنة وملابس الثوار، واستخدم لوناً أصفر ركبه بنفسه ليحصل على سلسلة من هذا اللون الذي يشبه لون الكريم، أما البرتقالي فقد استخدمه على شكل أضواء منعكسة على الوجوه والأجسام البارزة.

المجال العرب في لوحات جديدة:

توالت أعمال الفنان "عاصم زكريا" بعد ذلك النجاح الذي حققته لوحة "ميسلون"، فكانت لوحته: "رجال الثورة السورية" (١١٠×٨٧سم) ولوحته الأخرى "أبو العلاء المعري" (١١٠×٨٧سم)، التي أراد أن يتحدى بها لوحة للشاعر سبق أن رسمها أستاذه "سعيد تحسين"، فوظف لها خبرته العلمية، وقراءاته المتأنيئة لحياة الشاعر، كما رسم في هذه الفترة عشرات اللوحات لمدينة دمشق (أحيائها القديمة، وأسواقها الشعبية الشبيرة...) وفي عام ١٩٧٣ أتيح له السفر إلى لندن والالتحاق بالأكاديمية الملكية، حيث أمضى سنتين، ثم ليعود إلى دمشق متابعاً مسيرته الفنية،

ويعمل على إنجاز لوحته الجديدة الكبيرة "معركة اليرموك"، وقد مهد لذلك برحلة إلى موقع المعركة التاريخية الشهيرة، جال خلالها في أرض المعركة ودرس أرض الملحمة الحاسمة بين جيش المسلمين وجيوش البيزنطيين، والنقط صوراً للمنطقة، ليعود ويتفحصها ويضع دراسته الفنية لها، ويطبق يعمل بها حتى أنجزها بطول ٣٦٠م، وارتفاع ٢٠سم، وقد تجسدت فيها الحشود الضخمة وتحركاتها المثيرة، حتى إن المشاهد يكاد يسمع منها وقع سنابك الخيل وصهيلها، وتذهله صفوف الفرسان بلباسهم العربي الجميل، وسيوفهم المشرعة، وراياتهم الخضراء الخفاقة.

في عمل إبداعي متجدد:

قام الفنان "عاصم زكريا" إثر إنجازه لذلك العمل الفني الأخاذ، بجولة واسعة إلى العواصم الأوروبية، وتنقل فيها بين المتاحف الشهيرة في روما، وفلورنسا وباريس ومدريد، والأندلس والمغرب العربي والقاهرة وإستانبول وصنعاء، واطلع فيها على فرائد العمال الفنية، والمواقع الأثرية، وصور بعدسته كل ما وقع عليه بصره من صور الجمال والفن الأسر، وقد استقر لسنوات عديدة في لندن، مدينة الفن العريق فأغنى ذوقه الفني، وصقل موهبته، وعرض أعماله فنالت اهتمام النقاد، لما تميزت به من أسلوب كلاسيكي جسّد الطابع الشرقي الدمشقي...

وفي عام ١٩٨٥ بدأت مرحلة جديدة في مسيرة الفنان حين انتقل للعمل في المملكة العربية السعودية، وتنقل بين المدن والصحراء، فأقام في الخيام البدوية، وعاش الحياة الطبيعية الجميلة متتبعاً سباقات الجمال وصيد الصقور وتربية الغزلان فما لبثت تلك المشاهد أن انعكست في أعماله، وجوهاً لفتحها شمس الصحراء، وتفاصيل من حياة السكان: الخيام، والعروض النجدية ومجالس السمر، ورسم كذلك لوحات رائعة لعديد من المسؤولين، جاءت غاية في الروعة والجمال.

أمضى الفنان سنوات في السعودية، ثم عاد عام ١٩٧٤ ليستقر نهائياً بدمشق، وليعكف في مرسمه على متابعة عمله الإبداعي، منجزاً لوحات فنية رائعة في

موضوعه الأثير: أحداث الثورة السورية وجهاد الرجال الأبطال ضد المستعمر الفرنسي، وقد تميزت من بينها لوحة "سباع البر" (٨٠×١٠٥سم) و "توار الغوطة" (١٢٧×١١٦سم)، و"الفارس الدمشقي" (٨٤×٦٤سم)، "على ضفاف بردى" (٨٤×٦٤سم) "فارس المزرعة" (٨٤×٦٤سم) وأخيراً لوحة "حماة السديار" (١٨٣×١٣٧سم)، التي كان قد بدأ بخطوطها الأولى عام ١٩٦٧، وتركها ليعود إليها على فترات متقطعة، حتى أنجزها في عام ١٩٨٣.

اليوم وبعد تلك المسيرة الطويلة، مايزال الفنان "عاصم زكريا" منكباً على لوحاته، متابعاً بحماس ودأب كبيرين العمل على تجسيد تاريخ الوطن، وتراثه الحضاري العريق، بريشة خلقة، وروح عالية، ليترك للأجيال إرثاً فنياً بديعاً يرون فيه بطولات الآباء والأجداد، وعظمة الأمة العربية الخالدة.

.... انتبه من استغراقي في تأمل الأعمال الفنية الجميلة المتراحمة من حولي،

وفي ذهني خاطرة:

ليس هدف الفن بث تنوع الجمال، وإثارة العواطف الجياشة وحسب، بل مهمته أيضاً أن يبعث الحياة ويجسد معانيها الراقية، متمثلة في أحداث تاريخها، وسير رجالها ... إنه عندئذ يؤدي دوراً بالغ الأهمية في إيقاظ الهمم، وإيقاظ روح الحماس لتحقيق الأهداف العظام ... وهو ما فعله الفنان المبدع: "عاصم زكريا"...





۱۳۶۱



حلمي حباب :

الخط العربي آيات من الفن والإبداع والجمال

كان العرب قبل الإسلام يهتمون بالكتابة، ولقد استعملوها في شؤون حياتهم كتدوين العقود والمواثيق السياسية والتجارية وشؤون الأدب والشعر وكل جوانب الحياة، ولم تكن أمة العرب أمية بمعنى أنها تجهل القراءة والكتابة ولكن الأمية فسرهما حديث ابن عباس الذي رواه القرطبي الجامع لأحكام القرآن حيث قال: (الأميون هم العرب، من كتب منهم ومن لم يكتب، لأنهم لم يكونوا أهل كتاب).

ويمدنا الشعر الجاهلي برصيد كبير من الألفاظ التي تدل على إن الكتابة كانت موجودة في عرب الحجاز بل ومتطورة فهناك القلم والقرطاس والدواة والمداد، واللوح والصحف والرق والتمنمة والكتاب وغير ذلك مما له صلة بهذا الشأن. لقد حمل العرب الحجازيون حرفهم أثناء رحلة الشتاء والصيف من بلاد الشام ونقلوه من أبناء عمومتهم الأنباط الذين كانوا قد استعاروه ممن سبقهم من الآراميين الذين سطوروه في أرجاء معابدهم وتعلموه وطوروه في دمشق الشام في معبد حدد الآرامي (جامع بني أمية الكبير حالياً).

ولن اعرض أو اسرد ما كتبه أكثر الدارسين والمؤرخين ولن أفسر أو اعقد المقارنات حول مجمل النقوش المكتشفة التي عقد الدارسون حولها البحوث الوفيرة وأشبعوها درسا وتمحيصاً، ولكنني أود إن أوضح أن لا علاقة بين كتابة العرب الجنوبيين (المسند) وكتابة العرب الشماليين (الأنباط) وأود أن أقول إن كنايتنا وحرفنا وخطنا العربي اليوم ما هو الا سلسلة لتطور كبير امتد عبر القرون وشاركت فيه أقلام شتى حتى بلغ شأواً رفيعاً، وكان الإسلام هو الباعث الحقيقي لهذا التطور. نزل القرآن في البدء بكلمة أقرأ، والقراءة تحتاج إلى كتابة، لذلك أقسم

الله سبحانه وتعالى بأدوات الكتابة (ن والقلم وما يسطرون)، (والطور وكتاب مسطور في رق منشور) (كان ذلك في الكتاب مسطوراً) (اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، (ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله). جاء الإسلام ليحمل معه الكتابة والخط يرفعهما إلى المكانة العظيمة والدرجة الرفيعة، وليسود قروناً يخرج الناس من الظلمات إلى النور، ولتخط الأيادي كلمات القرآن الذي أنزل على النبي محمد صلى الله عليه وسلم بخطوط جميلة رصينة شامخة. وقد كان لتكوين القرآن وكتابته أكبر الأثر في تطور الخط، وكان لابد من العناية بحروفه إجلالاً وتعظيماً لكتاب الله.

كتب العرب المسلمون منذ بداية العهد الإسلامي بنوعين من الخط، خط رصين جميل خاص بالمصاحف أطلق عليه الخط اليباس، والذي اكتسب فيما بعد أسم الخط الكوفي، وخط من نوع آخر أختص بالكتب والرسائل والوثائق والعهود وما أشبهه من حركة يومية أطلق عليه أسم اللين والذي تطور فيما بعد زمن الأمويين في دمشق وعرف بخط النسخ وأقدم خطاط ورد ذكره وذاعت شهرته هو خالد بن أبي الهياج زمن خلافة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وزمن الأمويين وقد كتب بالذهب على جدار القبلة في المسجد النبوي بالمدينة أربعاً وعشرين سورة ضمت ثلاثاً وتسعين آية من القرآن الكريم تبدأ من سورة (والشمس وضحاها) إلى نهاية

القرآن الكريم وكان يكتب المصاحف والأخبار والأشعار للخليفة وقد نقل ابن النديم أنه رأى مصحفاً بخط ابن أبي الهياج. وجاء من بعده مالك بن دينار الوراق المتوفى ١٣١ هـ الذي كان يكتب مصاحف بالأجرة. ثم جاء قطيبة المحرر المتوفى ١٥٤ هـ فكان أول من حمل امتياز لقب محرر، ومثل مرحلة كبيرة في تاريخ الخط. كما ظهر الضحاك بن عجلان وإسحاق بن حماد وكانا أستاذين لخط الجليل، وتلمذ عليهما طلاب عديدون ومنهم سناء الكاتبة. وبظهور ابن مقلة ٣٢٨ كان للخط شأن كبير من التطور إذا استطاع أن يضع منهجاً في الخط وهو النسبة (النقطة) لطول الحرف وانحنائه وانخفاضه، وكان الفنان الكبير الذي رفع الخط إلى

المستوى الفني فقيل (الخط المنسوب) كما كتب مصنفين واحد ظل في اشبيلية زمنًا، والثاني كان محفوظاً في مكتبة بهاء الدين البويهى في شيراز (٣٧٩ هـ)، ثم جاء من بعده ابن البواب (٤١٣ هـ)، تلميذة، الذي سار على نهجه، فكان أن ترك عدة مصاحف لم يصلنا منها سوى مصحف واحد موجود في مكتبة تشتربتي بدبلن، ويعطينا فكرة كبيرة عما كان عليه الخط حتى هذا العهد.

لقد خلفت لنا الحضارة العربية الإسلامية تراثاً كبيراً من الخطوط نفخر بها، وتحكي تاريخنا الطويل عبر الأزمان، فمن خطوط العصر الإسلامي الأول إلى عصر بني أمية، فالعباسيين، فالسلاجقة، والأيوبيين والمماليك والعثمانيين، وكل أمة تضيف إلى الأمة التي سبقتها، فكانت خطوطنا الجميلة الرائعة المتميزة عبر أنواعها التي وصلتنا، وكانت دمشق في البدء وفي النهاية. كانت منذ تشكل الحرف في معبد حدد الآرامي وانتقل إلى جزيرة العرب، ثم عاد أيام بني أمية ليتطور ويتشذب ويتهذب وتكتب به قبة الصخرة الأميال الحجرية، ثم يغادر إلى بغداد ويعود مع السلاجقة ليغتسل في نوافير دمشق، وتخط به العماثر وتسطر به المخطوطات، ثم يغادر إلى مصر ويعود إلى اسطنبول، ثم إلى دمشق في مطلع هذا القرن وتخط به ألواح المسجد الأموي بعد حريقه الأخير، وتتكون مدرسة شامية من الخطاطين الذين خبروا الحرف ودروه دراية عميقة، فأدخلوا على أشكاله بعض التعديل والتغيير والتهذيب، وكان للخط العربي نكهة شامية يختلف فيها عن قواعد الفرس والترک. وأرتقى على يد الأستاذ ممدوح الشريف، وبدوي الديراني، وحلمي حباب تلميذ ممدوح الذي أعطى الكثير خلال أكثر من نصف قرن، خطوطاً رائعة حية تشهد على خبرته وعلو كعبه في هذا الفن الذي هو أصالة وتراث الماضي والحاضر والمستقبل.

وكان الفنانون الأتراك يقصدون الحج إلى بيت الله الحرام، ورايات محامل الحج مزينة بخطوط (الثلاث) الرائعة، وكذلك كانت ألواح الجامع الأموي تخطط بالذهب من قبل الخطاط الكبير (رسا) وذلك إثر الحريق الكبير الذي تعرض له

المسجد، وقد خالبت تلك الخطوط لب الطفل (حلمي) فلما شب عن الطوق تتلمذ على يد الفنان الكبير (ممدوح الشريف)، وأخذ عنه فنون خطوط (الرقعة والثلاث والنسخ والفارسي والديواني والكوفي)، وظل ملازماً له حتى وفاته في عام ١٩٣٤.

الخط يبقى زماناً بعد صاحبه

عادت بي الذكريات لسنين خلت، عندما كنت اجلس على مقاعد الدراسة تلميذاً صغيراً في مدرسة (الرشد) الابتدائية في منطقة الصالحية بدمشق، فقد كانت مادة الخط من ضمن البرنامج الأسبوعي الدراسي، وكان يهل علينا مدرس المادة بطلعته المحببة إلينا حاملاً أدوات الكتابة وأوراقه ثلاث مرات في الأسبوع. وكانت أدوات كتابة الخط لدى التلاميذ لا تتعدى قلم القصب المبري بعناية، وريش الكتابة المعدنية المرقمة بداية من الصفر، ودواة الحبر الصيني المصنوعة من البورسلان، والقابعة في حفرة مخصصة لها على مقدمة المقعد الخشبي الطويل (الرحلية).

وكنا نستعين بدفاتر خاصة بالخط العربي نزينها بالحروف العربية بأشكالها البديعة، حسب مواقعها من الكلمات والسطور، من أجل الاستزادة من الثقافة الخطية، ولم يتوان مدرس المادة من بذل قصارى جهده في تسطير السبورة بالمسطرة الكبيرة وبري قطعة الطباشير، من أجل التفنن في كتابة إحدى الحكم أو بيت من الشعر العربي أو حديث شريف أو آية قصيرة من القرآن الكريم، وكان يتجول بين المقاعد مرشداً ومصححاً وابتسامة وادعة فوق شفتيه.

عندما أنهيت دراستي الإعدادية والتحقّت بدار المعلمين، كان معلم مادة الخط فيها أستاذ قدير شديد المهابة و نحيل الجسم، يلبس طربوشاً فوق رأسه، أنيق الملابس، تزين وجهة لحية قصيرة، واسمه (حلمي حباب) وكان مرحاً في درسه، وصديقاً للجميع، مما شد طلاب الدار إليه، وتلففوا لتلقي دراسة فن الخط العربي على يديه، ومازال طلابه حتى اليوم، ورغم بعد المسافة الزمني بينهم وبين تلك الأيام في بداية الخمسينات من هذا القرن، يذكرون عنه بيت الشعر الذي كان يسرده على مسامعهم في بداية كل حصّة دراسية.

الخط يبقى زماناً بعد صاحبه وصاحب الخط تحت الأرض مسدفون

ولد الخطاط (حلمي حباب) بمدينة دمشق عام ١٩٠٩، وتعلم القرآن والكتابة والقراءة في (الكتاتيب) منذ نعومة أظفاره كبقية الأطفال في زمانه، وقد شغف بتوزيع الحروف العربية في السور والآيات في المصاحف، ومنذ ذلك الوقت تعلقت روحه بسحر حروف الخط العربي.

وكانت مدينة دمشق في تلك الأيام، في مطلع القرن العشرين، ملتقى الفنانين الكبار في الخط العربي أمثال: صاحب قلم أفشار، وزرين قلم، وغيرهم. وكان الفنانون الأتراك يقصدون الحج إلى بيت الله الحرام، ورايات محامل الحج مزينة بخطوط (الثلاث) الرائعة، وكذلك كانت ألواح الجامع الأموي تخطط بالذهب من قبل الخطاط الكبير (رسا) وذلك إثر الحريق الكبير الذي تعرض له المسجد، وقد خلّبت تلك الخطوط لب الطفل (حلمي) فلما شب عن الطوق تتلمذ على يد الفنان الكبير (ممدوح الشريف)، وأخذ عنه فنون خطوط (الرقعة و الثلاث والنسخ والفارسي والديواني والكوفي)، وظل ملازماً له حتى وفاته في عام ١٩٣٤.

ويذكر حلمي حباب:

بدأت في تعلم الخط منذ عام ١٩٢٦ على يد الخطاط (ممدوح الشريف) وكان عمري ١٧ سنة، أنا من مواليد ١٩٠٩ (ممدوح) رحمه الله تتلمذ على يد الخطاط (رسا) نعم (رسا) نراهم، سين ألف، اسمه الحقيقي (يوسف أغا)، عندما أتم تعلم الخط على يد أستاذه (شوقي) قال له (شوقي): (رسول في الخط، فسمي رسا). وهو خطاط تركي أرسله السلطان (عبد الحميد) بعد حريق الجامع الأموي لكتابة الآيات.. كان له مزاج خاص ولم يكن يحتمل أن يتدخل أحد بعمله عندما كتب الآية الكريمة التي تقول: (كلما دخل زكريا المحراب) جعل الباء عمودية ولما سأله (محمد فوزي باشا) رئيس البلدية عن سبب كتابة الحرف بهذا الشكل توقف عن إكمال عمله واعتكف في بيته، ولم يعد للعمل حتى تدخل المفتي (محمود حمزه)، وكان رحمه الله شيخاً جليلاً ووطنياً وقف ضد الفتنة الطائفية، وسمي لذلك حامي

النصارى، وقد اصطحب المفتي معه رئيس البلدية إلى بيت (رسا) ليعتذر له...
لم يبق كثير من أعمال (رسا) .. هناك الآن الكتايسة والطرة على العمود
الموجود أمام السرايا (وزارة الداخلية الحالية) ... وهناك بعض الكتابات على
شواهد القبور و كان يكتب الشاهدة مقابل ليرة عثمانية ... فإذا دفعوا له بدلاً عنها
ليرة فرنسية كان يحو ما كتب، هكذا طبع الفنانين لهم دائماً مزاجهم الخاص.
ويتابع حلمي حباب:

الخطاط (ممدوح) تعلم أيضاً على يد (مصطفى السباعي) رحمه الله وكان
يكتب بالخط الفارسي فقط ... كان منزله في مؤذنة الشحم وقد نزل فيه إمبراطور
ألمانيا حين زار دمشق ... وعندما سافر اخذ معه كثيراً من (الأثرات) الموجودة
فيه ليعرضها في متاحف ألمانيا....

عملت مع الخطاط (ممدوح) وأنا أتعلم عنده وساعدته في كتابة لوحة الجامعة
السورية ... مازالت هناك أعمال كثيرة باقية له منها ما هو في جامع الطاووسية،
ودائرة الأوقاف ... وكثير من الأبنية التي بنيت أيامه كما كتب شواهد القبور،
وهناك عدد منها ما يزال موجوداً وهي آية في الجمال ... منها شاهدة قبر في باب
الصغير يا ليت لو أن دائرة الآثار تحتفظ بها.

- منذ عام ١٩٢٧ وأنا أعمل وحدي وأقوم بالتدريس، درست في المدارس الأهلية
في الكاملية، وفي مدرسة أحمد منيف العائدي، وفي العازارية ودرست في
المعارف بعد وفاة (ممدوح) رحمه الله عام ١٩٣٤، ودرست في التجارة ودور
المعلمين والمعلمات.

- كان عندي محل للخط وصناعة اللوحات بجانب دار الحديث، وكان العلامة
الشيخ (بدر الدين الحسني) رحمه الله يقول لطلاب دار الحديث: (بابا حسنوا
خطكم عند جارنا).

- أثناء معرض عام ١٩٣٦ كنت اجلس على الأرض وأكتب اللوحات وكانت
الفرنسيات يتعجبن لذلك، وفي ذلك المعرض حصلت على الجائزة الأولى، وعلى

الميدالية الذهبية، وقبلها كنت قد شاركت عام ١٩٢٩ في معرض أقيم بالجامعة. كان وشاح أميه أول وسام أقوم بكتابة براءته، وكان أول وسام سوري يمنح، وكتبت بعده براءة عشرات الأوسمة من مختلف الأنواع والدرجات، وكتبت شهادات جامعة دمشق جميعاً، وكتبت لوحات الجامعة ووزارة العدل ... كتبت أشياء كثيرة جداً في حياتي لا أذكرها جميعاً الآن ... هناك أيضاً الآيسة القرآنية الكريمة في مقبرة الشهداء بنجها ... ارتفاع الحرف فيها متر كامل وطولها (١٢) متراً ونصف.

- سألني أحدهم باستكثار: لماذا هناك أحرف زائدة باللغة العربية، وكان يقصد الألف التي تلي واو الجماعة....

قلت له: انظر كم في اللغة الانكليزية من أحرف زائدة ... ليزيلوها قبل أن يسألونا عن الأحرف الزائدة في لغتنا.

- قمت بكتابة دفاتر خاصة لتعليم الخط ... كان اسمها (الفن العربي)، وفي أول معرض دولي أقيم بدمشق عام ١٩٥٤ كتبت كثيراً من لوحات الأجنحة....

- (بدوي) رحمه الله كان معلماً ... لم نتعلم سوية كان أكبر مني بالعمر، كان يتقن عمله، الخط يحتاج إلى صبر وطولة بال....

- مرة تعطل أحد المعامل، وحاولوا تشغيله كثيراً فلم يستطيعوا، أحضروا خبيراً، (دق) على الآلة ثلاث دقائق، سألوا عن أجرته طلب ثلاثة فرنكات وخمسة آلاف

ليرة، قال: الثلاثة فرنكات أجره الدقات الثلاث، والخمسة آلاف ليرة أجره خبرتي....

- درست في كلية للفنون منذ أن تأسست عام ١٩٦١، وكان اسمها المعهد العالي للفنون ... وعملت مع عمدائها جميعاً، وبعد إحالتي إلى التقاعد عام ١٩٦٩ استمررت في التدريس وكتابة شهادات الجامعة، كذلك درست في المعهد المتوسط للفنون التطبيقية ... يجب أن يعرف الجيل الجديد الخط الذي كتب به أجداده ... وأن يرى مدى روعته....

- أي الخطوط أحب إلي؟ أجبني أنت أي من عينيك أغلى عندك، أحسب جميع الخطوط وأتقنها بنفس القدر ... بنفس القدر ولا أقول أتقنها بشكل عظيم لكل خط صفاته ومميزاته، ولكل خط استخداماته:

الرقعة.. للكتابة العادية وهو مثل الاختزال عند الإفرنج، الديواني .. لكتب الاعتماد وبراءات الأوسمة، الفارسي .. للعناوين العامة وكتب الآثار وشواهد القبور، الكوفي .. للأبنية الهامة مثل الجامعة السورية، الثلث .. للأشياء المهمة مثل العمارات، والمساجد وعناوين الكتب، النسخ .. كان لكتابة الكتب قبل ظهور المطبعة، وهو الذي يكتب به القرآن الكريم لأن قراءته سهلة، وحروفه مفتوحة.

- قديماً كان القرآن الكريم يكتب بالكوفي حين كانت تعرف قراءاته .. وكان شبيهاً بالنسخ.

- ماذا تريد أن أتذكر أيضاً .. هل أضعتك بهذه القصص .. (ليس) مرة جاءت فتاة يابانية إلى دمشق لتتعلم الخط العربي، سألتني: كم أطلب أجراً لذلك .. قلت: نتحدث في هذا فيما بعد .. لم أكن أنوي أن أخذ أجراً منها .. يكفي أنها تهتم بخطنا .. تصور لقد أحضرت معها من اليابان (قصبات مبرية) للخط. في الوقت الذي نكاد نكف عن استخدام القصبات هنا، ومع أن لغتها تضم مئات الأحرف فقد اهتمت بتعلم الخط العربي لأنها تترك جماله.

- ماذا أقول أيضاً، أنا شديد الاعتزاز بالوسام الذي منحته لي الدولة.. فهو تكريم لكل أبناء الوطن المبدعين، وهو تكريم للخط العربي الذي لا ينافس في الجمال والأناقة والتنوع خط آخر في العالم.

فالخط العربي ليس للكتابة فقط، فهو للتزيين والتجميل .. هل تعرف كيف تكتب التواريخ باستعمال الكلمات .. إن لكل حرف في اللغة العربية رقماً يقابله .. وفي بعض الكتابات الخاصة بالتاريخ فإن جمع أحرف الجملة، أو بيت الشعر تعطي التاريخ المطلوب.

على سبيل المثال: هناك شطر من بيت شعر على أحد الأضرحة يقول:

(أبو الخير في دار النعيم يقيم) ... إذا جمعت أرقام أحرف هذا الشطر فإنها
تعطي رقم ١٣٤٥.... وهو العام الذي توفي فيه صاحب الضريح.
- قبيل رحيله، منح حلمي حباب لقب (شيخ الخطاطين)، تيمناً بتلك الألقاب التي
كانت دمشق تمنحها قديماً لكبار الحرفيين فيها، مثل شسيخ الصاغة شيخ
الحدادين ... الخ....





بدوي الديراني :

الخط العربي إيقاع زخرفي متنوع تبارى فيه المبدعون

الخطاط الفنان أضاف على الخط الإحساس الصادق بطبيعة الأشياء وليست رموزاً منفصلة عن مفاهيمها، تميز الخط العربي بالزخارف المتنوعة حيث اتسم بالإيقاعية الجمالية فتبارى فيه الخطاطون المبدعون تجويداً وتحسيناً، وهذا يأتي من أن الخط العربي نال من الاهتمام ما لم ينله خط آخر إذا اهتم المسلمون بالخط العربي وأعطوه عناية حيث اتخذوه وسيلة للمعرفة، ثم ألبسوه لباساً قدسياً من الدين، لارتباطه الوثيق بكتابة القرآن الكريم الذي انتشر بانتشار الدين الإسلامي، وعندما انتشرت الفتوحات الإسلامية، وازدهرت الحضارة الإسلامية، أصبح الخط غاية في الجمال، وتبارى الخطاطون في تجوده وتحسينه، حتى إذا بلغ من الروعة والجمال مبلغاً جعل غير الناطقين بالعربية يقيمون له المعارض والمتاحف إحساساً منهم بجماله وروعته، وشعوراً برونقه وبهائه، حتى وإن لم يفقهوا ما في هذه الخطوط واللوحات من معان سامية.

واستطاع الخطاط العربي أن يبلغ غايته عندما أدرك ما في الحروف العربية من خصائص فنية جمالية من حيث الاستقامة، والرشاقة، والتناسق، والامتداد، والتكوير والتناسب، فساعد ذلك على إعطائها أشكالاً مختلفة، فخلع عليها جمال الحياة بعد أن كانت حروفاً يابسة كما لو كانت قطعاً من الحجارة.

تنوعت أعمال الخطاطين بين الاستغلال الإبداعي لتقوسات، واستدارات الحروف العربية في إبداع أشكال جمالية، وبين التحوير فسي أشكال الحروف، للوصول إلى شكل جمالي جديد مع الحفاظ والالتزام بقواعد وأصول حروف الخط العربي، إن جمال الخط العربي، إن جمال الخط العربي، الذي يظهر في كتابة اللوحات بأنواع الخطوط المختلفة، وإظهار ما فيها من نواح جمالية قائم على أسس

مدروسة، وعدة اعتبارات منها:

الخط العربي يعتبر فناً تعبيرياً حيث يفرغ الخطاط فيه عبقريته وشخصيته وخياله، فيعطي به تكويناً رائعاً يجد فيه القارئ من المعنى الممتزج بالشكل الدال عليه، هذا بالإضافة إلى أن العرب قد أعطوا كل حروف منلوأً جميلاً خاصاً به، فحرف الميم مثلاً تعبير عن الضيق، والسين هي الأسنان الجميلة، والسراء صورة الهلال، والعين وحاجبها كعين الإنسان، فهذا يوضح أن الحروف العربية نشأت من إحساس صادق بطبيعة الأشياء، وليست رموزاً شكلية منفصلة عن مفاهيمها.

الخط العربي صورة تتضمن صوتاً ومعنى وشكلاً مرئياً، فيستطيع الخطاط تحويل الكتلة الخطية إلى شكل زخرفي هندسي (دائري - مربع - ومستطيل وشكل طائر وغيرها)، وكذلك يستطيع استخدام الحروف سواء منفصلة أو متصلة كأساس أو موضوع للوحة فنية لها شكل زخرفي.

ارتباطه بالدين الإسلامي، حيث اعتبر الخطاط كتابته للآيات القرآنية، والأحاديث النبوية الشريفة بخط جميل في إطار تشكيلي مؤثر نوعاً من العبادة، من العبادة، والتقرب إلى الله تعالى وأحياناً يحتاج الخطاط إلى معرفة تفسير الآية، ومعناها أولاً، لإظهار ذلك في الكتابة.

مميزات الخط العربي:

تميز الخط العربي بمجموعة من الميزات منها:

- الطوعية الشديدة التي تمكن الخطاط من عمل تراكيب وأشكال مختلفة حتى للكلمة الواحدة أو للجملة الواحدة.
- الارتفاعات، والاستدارات وقدرتها على الإطالة والتمطيط.
- تحمل في ثناياها الصفات الزخرفية، والشكلية، حيث أن توارى "الألفات"، أو توزيعها بأوضاع معينة، وكذا باقي أنواع الحروف يعطي نوعاً من الشكل الزخرفي.

- بناؤها على أصل هندسي ثابت، وقاعدة رياضية معروفة.
- الحرف العربي له صفة اختزالية، حيث إن الحرف الواحد له شكل منفرد وشكل متصل، (في البدء وفي الوسط وفي لاطرف) هذا بالإضافة إلى إمكانية تراكب الحروف فوق بعضها مما يساعد على استخدام مسافات قصيرة لكلمات وحروف كثيرة، وهذه الصفة لا توجد في الحروف اللاتينية التي لها شكل واحد تتراس بجوار بعضها مما يأخذ مسافة كبيرة.
- قدرة هذه الحروف على إعطاء تنوع في الإيقاع والتنوع الحسي.

ففي الإيقاع، فيحدث من تبادل الرقة والغلظة كما في حروف خط النسخ، وتبادل الانحناءات والامتدادات كما في حروف الخط الفارسي، وتبادل الانحناءات والامتدادات كما في حروف الخط الفارسي، وتبادل التماثل والتراقص كما في الخط الديواني، وتبادل إشعاع القوة كما هو في حروف خط الثلث. وفي الإحساس: فالخط المنحني يمثل الرشاقة كما في حروف النسخ والثلث والفارسي والمحقق.

أما الخط الهندسي الكوفي بأنواعه فيثير الجمال الرياضي الهندسي، وكل هذه الصفات الكامنة في حروف الخط العربي تتيح للخطاط التمكن التعبير عن الحركة، والكتلة، فيعطي حركة ذاتية تجعل الخط يتراقص في كتلة محققاً إيقاعاً جميلاً وإحساساً راقياً.

أستاذ خطاطي بلاد الشام ومجدد الخط العربي

■ كتب دواوين: أحمد شوقي، وبدوي الجبل، وأبي ريشة، وتتلّمذ عليه نزار قباني وشاكر مصطفى وقصاب حسن ...

يعتبر فن الخط العربي في الواقع، فن الدقة بغير منازع.. إنه فن التفاصيل، فهو يربي العين على احترام الأجسام الدقيقة، وهو الفن الوحيد الذي يستلزم عن صاحبه من دون وساطة، بخلاف الفنون الأخرى التي قد تفسر حسب أهواء المؤول، وقدرة المتلقي على الاستيعاب.

إن الخط العربي هو فن التجريد وهو يمتاز بال تكرار والإيقاع الموسيقي وبالتناغم، وكل العناصر التي تكوّن المجال التشكيلي، وبفضل هذه القواعد المبنية على أسس متينة، يتقادى الفنان الفوضى، ويمتلك قدرة أكبر على الإبداع والتجديد، عكس ما يتوهم البعض، فالمبدع هو الذي يبتكر من خلال الأساليب الدقيقة، ويمتحن اللوحة منحى فنياً معاصراً .. الخطاط يمكنه أن يضيف الجديد من غير طمس أو التضحية بالمورث الأصيل.

الخط العربي تناسب وتناغم وتعبير قوي:

والخط العربي بعد هذا جزء من الثقافة العربية، وفي وسع القلم أن يعبر عن الذوق الجمالي، مثله مثل اللسان، فالقلم بهذا المعنى لسان اليد، وعد بعض الفقهاء لوحات الخط الفنية التي تجسد آيات القرآن الكريم بصورة إبداعية راقية، خطوة من خطوات التفسير أو باباً من أبوابه، وبخاصة إذا لا حظنا التأمل الذي يسدع إليه الحرف العربي حيث شكله الهندسي وقوته التعبيرية .. فإذا بلغ هذا الشكل منتهاه في التناسب والتناغم مع المعنى من حيث اختيار نوع الخط المناسب، وبراعة الأداء أو التعبيرات الإضافية، أو الخاصة بالخطاط صاحب الموهبة والقلم، أدركنا مدى

قدرة بعض لوحات الخط الفنية على التفسير أو الإحياء بالمعنى، فوق ما توحى به من معاني الجمال والجلال.

تناسق عجيب وهندسة روحانية:

يعتبر الخطاط "بدوي" رائداً من رواد فن الخط العربي، الذي ارتقوا بسبه إلى الإبداع، فهو رأس المدرسة الشامية في خط "التعليق" ... لم يقتنع بمنهاج من سبقه في هذا الميدان وأساليبهم، فطور وبدل، وكانت له جولات على مدى ستين عاماً، خدم فيها الحرف العربي بحسه المرفف، وذوقه الرفيع، ولد "بدوي" في حي الميدان بدمشق عام ١٨٩٤، بعد أن انتقلت أسرته من قرية "داريا" في ضواحي العاصمة، وفي العاشرة من عمره تعلم فن الخط على رئيس محكمة الجنايات وخطاط التعليق الشهير: مصطفى السباعي، وتلمذ بعد سنوات على الخطاط الشهير "رسا" الذي أوفده السلطان عبد الحميد الثاني لتزيين الجامع الأموي بلوحاته الفنية الأخاذة، وانتقى "بدوي" من أساليب الأساتذة لطائف الحروف فأكسبها برودة دمشقية، فتميزت أعماله بالبساطة والوضوح والتناسب بين الحروف بعيداً عن الغلو والتنافر.

إن المتأمل في لوحات "بدوي" التعليقية، يلاحظ أن التناسق العجيب والهندسة الروحانية قد خيمت على حروفه فاكتسبها بهاء وجلالاً ونضارة، فهو يعطي كل حرف حقه في الإجادة في الوضوح، ولا يغفل أو يهمل حرفاً على حساب آخر، وينظر إلى توزيع الكلمات على السطر بتوازن واتزان، ولما أصدرت الحكومة التركية قرارها بإلغاء الحرف العربي واستبداله بالحرف اللاتيني سنة ١٩٢٨، جال الخطاطون الأتراك في أرجاء الوطن العربي يبحثون عن عمل، وجاء أكابرهم إلى دمشق فاستقبلهم بدوي وأستاذة "ممدوح الشريف" لكنهم سرعان ما غادروا قائلين: "إن بلداً فيها" "ممدوح وبدوي" لن يكون لنا فيها عيش" ولما توفي أستاذه "ممدوح" عام ١٩٣٤، صار "بدوي" الخطاط المتفرد في الشام.

تجديد وتطوير وسبق إلى آفاق علوية:

يتجلى سحر الفن المبدع الذي تميز به "بدوي" في ذلك التطوير الذي أضافه على حروف الواو، الراء، الحاء، والهاء، والتي اكسبها وضوحاً وقاربهسا من أخواتها، كما أطل في وزن حرف الراء المسبل، وجعل الكؤوس في النون والقاف والسين والشين متناغمة النسبة، وابتدع قاعدة جديدة لحرف الميم الموصول من الراء المسبل كما في لوحته "وأمرهم شورى بينهم" وهو ما لم يرد مطلقاً عند أساتذة خط التعليق، كذلك حدد حرف الهاء وهندسه كما في "والذين اهتدوا زادهم هدى وأتاهم تقواهم"، ومجمل القول أن ما صنعه "بدوي" في لوحة التعليق وصل الذروة في الإبداع، أما في الخط الثالث فقد ظل "بدوي" يكتب على طريقة "ممدوح" أكثر من عشرين سنة وهي طريقة عجيبة، ينكيف فيها كما يشاء، ويتصرف في الحروف ويكثر من العلامات والتشكيل وملء الفراغ حتى يغطي الشكل، كأنه يخط الثالث كالديواني الجلي. في الأربعينات من القرن الماضي تلقف "بدوي" مصادر جديدة من الشيخ "عزيز الرفاعي" فتخلص من أسلوب "ممدوح" وأعطى المثلث هيئته، ووصل فيه إلى الإجابة والإتقان.

زار "بدوي" القاهرة والتقى فيها بأبن مدينته الخطاط "محمد حسني البابا" والخطاط الشهير "سيد إبراهيم" و "محمد إبراهيم الاسكندراني" وكانت له معهم محاورات ومداولات في الخط، وانتقل بعد ذلك إلى "استنبول" فعقد صداقة مع الخطاط الذائع الشهرة: "حامد الأمدي"، وأطلع على كنوز الخط كبريات المساجد والقصور. وعاد من رحلاته أكثر جدية وإطلاعاً وأغرز معرفته. وتفاوتت خطوط الثالث عند "بدوي" فمرة هو مبدع متفوق ومرة هو متواضع يعطي الحرف حقه من الإجابة والحد ويرتقي في الثالث الجلي ويخلق، وخير شاهد آثاره الجمالية في جوامع الروضة والمنصور والثريا والدقاق والفردوس والعثمان بدمشق وفي عدد من دوائر الحكومة: "مجلس الشعب، ومبنى مياه عين الفيحة، ووزارة العدل".

فرسان الشعر والأدب تلامذة "بدوي":

لم يعر "بدوي" خط النسخ الأهمية التي أولاها للتعليل والتعليل، واعتبره خطأ رديفاً ومكملاً، ولم يعطِ الخطوط الأخرى أدناً وعيناً ويدا... ومع هذا فقد تجلّى بأسلوبه الرائع الدال على عبقرية وتفرد، وعرف أسرار الخط الكوفي وخفاياه وأنواعه، وسطر جل أشكاله على الأوابد والآثار لتبقى شاهداً على تفوق ونبوغ قل نظيرهما.

وحين أدرك، رجال الفكر والتعليم في سوريا ما للخط من أهمية في حياة الناس أدخلوه في مناهج التعليم، وتأسست الكلية العلمية الوطنية التي درس فيها "ممدوح" و"بدوي" مادة الخط، فتعلم عليهما نخبة من النابهين الذين غدوا فيما بعد فرسان الأدب والفن والشعر والسياسة والقانون، فكان منهم "نزار قباني" الذي عشق الحرف العربي، وطرزه فيما بعد شعراً ونمقه خطأ، ولم يكتفِ الشاعر الخالد بدروس الخط في مدرسته، بل عمل في العطلة الصيفية في مكتب الخطاط بدوي ليخط لوحات للمحلات التجارية بدمشق...

وكان من بينهم القانوني الشهير تجاه "قصاب حسن" الذي بذل جهده لتأسيس ربطة الخطاطين السوريين، وفي أجمل رسائل "نزار قباني" إلى "تجاة" يقول الشاعر لصديقه: "لم يبق من دمشق سوى أنت وأنا، وبياض الياسمين نحن حاملو هذه المدينة على أهدابنا وفي ذاكرتنا ودورتنا الدموية منذ نصف قرن.. سلام عليك أيها المكتوب بالخط الكوفي على أبواب دمشق"، وكانت الرسالة مكتوبة بخط رقي جميل.

كذلك كان في جملة تلاميذ "بدوي" الكاتب والمؤرخ الأديب الراحل: شاكر مصطفى، الذي كان يكتب بقلم القصب في أواخر أيامه.. وسارع العديد من شعراء الشام وأدباؤها إلى "بدوي" ليخط لهم بقلمه الساحر قصائدهم وعناوين مؤلفاتهم، فخط لخير الدين الزركلي ولأخطل الصغير "بشاره الخوري" وعمر أبو ريشة، وبدوي الجيل وإبراهيم طوقان، ولأمير الشعراء، أحمد شوقي، وأمين نخلة، وعلي محمود

طه، ومحمد البزم وغيرهم من بلابل الشعر في الوطن العربي.

رحلة ستين عاماً في محراب الخط العربي:

تتلمذت على "بدوي الديراني" كذلك نخبة متفوقة من خطاطي دمشق لأزمته في دكانه بزقاق اليوص "السليمانية" قريباً من الجامع الأموي، وكان من بينهم الخطاط "زهير المنيني" و "محمد الزرزور" و "عبد الصلاحي" و "عبد الرزاق القصبياتي" و "محمد الهواري" وغيرهم كثيرون، أمضى "بدوي الديراني" ستين عاماً من عمره في الكتابة والخط ولم ينقطع عنهما يوماً، وكان يحمل أوراقه وأخباره ليواصل رحلته في عالم الإبداع والجمال، وكان قد عقد النية على كتابة القرآن الكريم، ولكنه لم ينجز غير ثلاثين صفحة من سورة البقرة، وحين وافته المنية في الخامس والعشرين من تموز عام ١٩٦٧ ترك وراءه ثروة لا تقدر بثمن من إنتاجه الغزير الموزع في أغلب العواصم العربية الإسلامية وأوروبا، ويحتفظ أبناؤه اليوم بمجموعة كبيرة من هذا الإنتاج الخالد، الذي ينتظر مكرمة من الدولة التي تتمثل بإقامة متحف خاص لأعماله الرائعة، ترى فيها الأجيال القادمة وجه ذلك الفنان المبدع السذي ما تزال بصماته الساحرة تزين المساجد والمكتبات والمدارس في كل مكان.

شهادة في بدوي الديراتي:

منذ أربعين سنة يوم كنت شاباً بافعاً كنت أعمل في تزويق اليبسوت، وكانت خبرتي في أنواع الطلاء والدهان، عميقة الجذور، ومعرفتي بأنواع الأصبغة لا حد لها ... وكانت أمنيّتي التعرف إلى خطاط بلاد الشام، فحبي للخط العربي ينمو في القلب، وتتأصل جذوره حتى غدا حباً لا شفاء منه، وسافقتني الأقدار إليه في الستينات من القرن الماضي لأقوم بطلاء لوحة له، وكم كانت فرحتي شديدة وعظيمة لوقوفني أمام هذا العلم الكبير، ولأكون فيما بعد التلميذ الذي تلقى عليه علوم الخط وأنماطه وقواعده، ورافقته حتى آخر سني حياته رحمه الله فقد كان لي الأب والأخ والصديق، واستفدت من نصائحه الكثيرة التي كان يوجهها لي فسي جميع الميادين، في الحياة الاجتماعية والفنية.

كان الأستاذ يوصي بالاستقامة والصدق والتوكل على الله، جاداً في حياته .. منظماً في أوقاته، وكان يحب العلم، أرسل ولديه للدراسة والتخصص، وأصبح كل واحد منهما طبيباً.

مرحلة التلمذة:

كانت هوايتي في الخط العربي قد سبقت معرفتي بالأستاذ بدوي وكانت صلتني بالخطاطين وثيقة بحكم عملي، وكنت أكتب الرقعة وشيئاً من التعليق والديواني، ولم تكن المصادر متوفرة، فكانت المعرفة والتدريب هما جل اهتمامي .. فلم أترك سائحة إلا واستفدت منها من خبرة الأستاذ وعلمه، فكتبت الحروف عليه، ومشقت العبارات، وبخاصة في خط التعليق، وكان يوجهني في كل خطوة، أخطوها ويصحح لي مساري، ويرشدني إلى أخطائي، ولم يمض قليل من وقت حتى ضبطت الحروف وأتقنت السطور، وكان راضياً عن خطي وأسلوبه .. كتب لي الحروف وأوزانها، وكتبت عليه كما كتب، وسطر الكلمات فاتبعته في منهجه، واقتفيت أثره إلى أن اتخذت المسار الصحيح في خط القلم..

أسلوبه في خط التعليق:

خط التعليق هو الخط الفارسي لذا فإن من ابتدعه هم الفرس، وكسان الفرس السابقين في هذا الميدان وأطلقوا عليه النسعليق، وكانوا قد طوروا خط التعليق الكثير الالتفاف، وهو أشبه بالديواني حتى وصل على يد المير علي التبريزي إلى الاستقرار، وغدا من الخطوط الجميلة، وجاء بعده من حسن وجمل، مثل مير علي الهروي، وما لبث أن انتقل هذا النوع إلى بلاد الترك، وحاول الخطاطون الأتراك أن يطوروا فيه، فجاءت محاولاتهم أقرب إلى القوة منها إلى اللبونة ... وأما الأستاذ بدوي فقد استقى هذا الخط من النبع، وأخذ جل قواعده عن عماد الحسني، وما لبث أن نظر إليه نظرة جمالية عبر ستين سنة، بدأ فيها كما الفرس يكتبون، ولم يلتفت إلى محاولات الأتراك في ذلك، ثم نظر إلى الحروف الصغيرة والغامضة، فأعطاهما حقها من الظهور، ولعب العمل التجاري فعلة في ذلك أثناء التصغير والتكبير، وكان النجاح في ظهور مدرسة شامية وأسلوب دمشقي على يد هذا الفنان القدير، والمتأمل في خطوط بدوي يلاحظ قربها من المدرسة الفارسية الأصلية، وإن كانت تبعد عنها في بعض الحروف، أما خطاطو مصر والبلاد العربية فقد تلقوا تعليمهم في مدرسة التعليق عن أساتذتهم الأتراك، فكانوا أقرب إلى التعليق التركي منهم إلى الفارسي.

موقع الأستاذ بدوي بين حامد وهاشم:

تعرفت إلى الخطاط الشهير هاشم البغدادي عند الأستاذ بدوي، وكان هاشم يجلس الأستاذ بدوي ويحترمه ويلقبه بالأستاذ ويقول: (كم وكم أفادني ... إنه أستاذ كبير وعظيم، وكانت العلاقة بينهما علاقة احترام متبادل وود، وهي عميقة الجذور تعود إلى زمن بعيد، كان يتفقد كل منهما أحوال الآخر، ويسأل عن صحته وسلامته وعمله، وكان هاشم وفيًا يقدم للأستاذ على الدوام أصول خطوط لعماد الحسني ولغيره، ويقدم له لوحة في كل فترة .. وأما الأستاذ حامد الخطاط التركي العظيم فكان يجلس بدوي ويعتبره خطاطاً له مكانته بين الأساتذة، ونمت العلاقة بينهما منذ

الخمسينات من القرن الماضي، وكان الأستاذ بدوي معجباً بحامد وبأسلوبه وطرائقه في الثلث، وكنت رسولاً بين الخطاطين الثلاثة من دمشق إلى العراق إلى استانبول، أحمل الهدايا والرسائل والتحيات، ولا تخلو جعبتي من أعمار هؤلاء العظام، وأحمد الله أن جعلني ألتقي بهم وأنظر إلى خطوطهم وهي تسترسل على الورق، لتصبح مع الزمن لوحات لها تاريخ، سجلها وخطها أستاذ لأستاذ، وأنا ذلك المرسال، وباختصار كان الأستاذ بدوي كبيراً في رأي الكبار.

سافر بدوي إلى تركيا - استانبول - في أيلول من عام ١٩٥٤م، وبقي فيها شهراً أطلع على فرائد الخط هناك، ونزل ضيفاً على الخطاط الشهير الأستاذ حامد الأمدي، وفي عام ١٩٦١م، زار الإسكندرية وأطلع على خطوط مساجدها، وقابل مشاهير الخطاطين فيها، وحل ضيفاً على الخطاط الكبير محمد إبراهيم مدير مدرسة تحسين الخطوط في الإسكندرية، ومنها سافر إلى القاهرة والتقى الخطاط العبقري حسني البابا، وفي عام ١٩٦٥م، زار استانبول مرة أخرى، وهو في طريقه إلى النمسا لزيارة ابنه الذي كان يدرس الطب فيها، والتقى الأستاذ حامد، وكانت بينهما مساجلات في الخطوط....

التنوع والإتقان:

كانت لوحاته في الغالب بنوعين من الخطوط: التعليق، والثلث، وقد يكتسب سطرًا من النسخ أو كلمة في أسفل لوحة الثلث، وله بعض اللوحات القليلة بالكوفي والديواني، ولم يكتب لوحة بالديواني الجلي.

وكتب أنواع الخطوط لما وظفت وابتدعت له، مثل بطاقات الأفراح والشهادات للمعارف والجامعة بالديواني، وخطه في هذا النوع يختلف عن القاعدة الغزلاينية التي انتشرت بمصر، ويختلف أيضاً عن قاعدة الأتراك، فلا يستعمل الحروف المدمجة ولا يكتب حرف الدال والهاء الأخير كما تكون القاعدة، وكان له أسلوبه الخاص، يحب الوضوح في القراءة في جميع الخطوط ولذلك جاء أسلوبه في

الديواني والرقعة مغايراً لما انتشر في البلاد العربية، وكان لخط بدوي على الرخام سحر خاص، والإتقان هو سر السحر والجمال والقوه يقول النبسي (ص): (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه)، والأستاذ بدوي كان يتعهد عمله من بدايته حتى نهايته، ويتقنه أشد الإتقان ومع هذا الإتقان فإن إنتاجه كان غزيراً لا يمكن إحصاؤه لكثرتة وغازرته، ويتوزع أغلبه في مدينة دمشق، والعديد من الأقطار العربية والأجنبية.

وعندما أدى فريضة الحج سنة ١٩٣٩م، أهدى للحرم النبوي لوحة مذهبة وهي (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً)، وقدم للملك عبد العزيز سعود لوحة مذهبة بالتثلاث (وينصرك الله نصراً عزيزاً).

وعقد النية على كتابة القرآن الكريم، ولم ينجز منه إلا ثلاثين صفحة من سورة البقرة، ويحتفظ أبناؤه وأسرته بمجموعة كبيرة، ومما يؤسف له أن الرطوبة تسربت إلى معظم اللوحات المجموعة عند أبنائه، وهي بحاجة لترميم وعناية، وأتمنى أن نقيم له الدولة متحفاً يخصص لأعماله الهامة خاصة وقد تم تكريمه بمنحه وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الأولى عام ١٩٦٨.

أما الخطوط الكوفية فقد استخدمها ووظفها في تجميل المباني الأثرية، وقد تعلم من الخطاط الشهير ممدوح أساليب وطرقاً شتى في كتابة الكوفي الذي ليس له مثيل في عالمنا العربي والإسلامي.

تواصل العطاء:

عاش الأستاذ (٧٣) سنة منها ستين في الكتابة والخط، لم ينقطع فيها أبداً، لا في سفر ولا حج ولا تجوال، كان يحمل معه أحباره وأوراقه، ويستثمر الوقت ويقول: الوقت هو الحياة ... ويردد: (لن آدم إنما أنت أيام، كلما ذهب يوم ذهب بعضك)، وفي آخر حياته، كان يتردد خلال مرضه على مكتبته حتى فارق فيها قلمه وانتهت رحلته يوم الثلاثاء ٢٥/تموز/١٩٦٧م. ((محمود الهوارى))



قال النبي عليه السلام اعلم علمان علم الابران وعلم الاويران صرتي رسول الله

بِاسْمِ رَبِّيْ اَلَا مُمْ وَبِاَخْلَاقِ سَيِّدِ

وَاَوَاخِيْبِ اَتُومِ فِيْ اَخْلَاقِهِمْ فَاَقُمْ عَلَيْهِمْ مَا تَسَاوَعُوْا

اَتَشْفَقُ عَلَيْهِمْ يَا سَيِّدِيْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ يَا اَكْبَرُ وَجْهٍ رَّحْمَةً رَّحِمْتُمْ
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِيْنَ يَسْلُمُونَ وَالَّذِيْنَ لَا يَسْلُمُونَ
يَا سَيِّدِيْ كَرَامَةُ الْاَكْبَرَاتِ

محمد قنوع :

الخط العربي باق بقاء لغتنا العربية

ليس أدل على الانسجام التام بين شخص الخطاط الفنان محمد قنوع، وبين ما يبدعه من لوحات إلا ذلك الهدوء المتقن الذي يجلس حديثه كما يجلس لوحاته وخطوطه المبتكرة.

الهدوء الابتكار والتجديد، الارتكاز المتقن على الموروث القديم لجهة فن الخط العربي، والتواصل مع كل التجارب المعاصرة ذات القيمة، كل ذلك نابع من جهد متواصل لا من مصادفة عابرة، والأداء الفني المميز، المجبول بالإحساس المرهف، والتعاطف الواضح مع تقديم ما هو قيم، جميعها جبلت بروح مغامرة فنية يسعى إليها، وميزت أعماله.

هو الخطاط الفنان محمد قنوع زرنه في مرسومه الدمشقي واستمعت إليه وهو يتحدث عن الخط العربي وقد جاء بأفكار وذكريات متدفقة، انبعشت كأنها كانت محبوسة خلف جدار ، وأتيح لها الانفلات.

■ من كان أستاذك في الخط، وهل لك منهج محدد في مجال الخط؟

أستاذي الذي عشقت فنه هو بدوي الديراني خطاط بلاد الشام، ومدرستي هسي مدرسته، ومنهجي هو منهجه، غير أنني مارست كتابة خطوط فنية مستحدثة ابتدعتها من أجل عملي في الصحافة وأغلفة الكتب واللوحات والتلفزيون، لتساير العصر، وعدت بعد رحلة طويلة إلى الأصول أستقي منها ما يجعل خطي ضسمن القواعد الأساسية في كل الأنواع.

■ في سورية، لمن تسجل الريادة في الخط العربي؟

لكل زمن رواده في الخط العربي، فالجيل الأول من الرواد هم رشاد، ممدوح، بدوي، حلمي، الشلبي، الحكيم، البغجاتي، الزيناتي، البيلاني، الشيخ محمد الزرزور، هادي، الرفاعي، المولوي، الصابوني، وبعدهم جاء الجيل الثاني الذين تعلموا على أيدي هؤلاء الكبار ومنهم:

منيني، نجاة، أمين دياب، الزرزور، عثمان طه، قسبياتي، أحمد المفتي، محمود الهواري، أحمد الباري، محمد القاضي، وليد محي الدين، سالم نويلاتي، محمد غنوم، شكري خارشو، ياسر عبار، عبد العزيز وتوفيق حبيب، عدنان سنققي، جمال بوستان، مصطفى النجار، وجميعهم من دمشق، وهناك عدنان الشيخ عثمان ومحمد الحداد، من حمص، والحوري والبازنجي وأمين خياطة والأستاذ الكبير بشير الانلبي وسلمو وعليان وبلال الرفاعي من حلب وعبيدة البنكي من دير الزور وحسام مطر من الرقة وغيرهم الكثير.

أتوقف لأذكر بالإكبار الخطاط الذي أرسله السلطان من الباب العالي لكتابة ألواح الجامع الأموي، بعد حريقه عام ١٨٩٣ وهو الخطاط الدمشقي الكبير ممدوح الزين، كذلك أذكر النابغة بدوي الديراني الذي رسخ منهج المدرسة الشامية... هؤلاء هم الذين أوجدوا المدرسة الأولى، التي استقينا منها هذا الفن الرفيع.

■ أرجو أن تحدد لي بدقة شديدة المسافة الفاصلة بين القواعد الفنية والرؤية الذاتية لفنان الخط العربي؟

لكل خطاط رؤية خاصة في كتابة الخط ولو كان ضمن القواعد، فكل فنان روحه وخاصيته، وأستطيع أنا معرفة هذا الخطاط من ذلك دون معرفة اسمه وبمجرد أن أنظر إلى أعماله، فكما كان الخطاط ذا شفافية وتواضع وأخلاق عالية، ظهر ذلك في خطه وتركيباته، وأكبر مثال على ذلك ما كتبه الخطاطون في (الملئى الأول للخطاطين العرب) الذي انعقد في بيروت، فالكل خط عبارة موحدة هي بيت شعر أبي الطيب المتنبي: على قدر أهل العزم تأتي العزائم / وتأتي على قدر الكرام

المكارم. بالطريقة والنوع الذي يريد، فكان ذلك إثباتاً لعظمة التشكيل في هذا الخط، وكان معرضاً رائعاً لثلاثين لوحة، كل منها بروح مختلفة عن الأخرى، فالرؤية الذاتية هي في التركيب وحسن الأداء الفني.

■ حدثنا عن تجربتك في الصحافة السورية؟

في بداية الخمسينات بدأت في سورية نهضة صحفية فنية تعتمد على شكل الصحيفة أو الكتاب أو الملصق، فكنت من أوائل من عمل في تلك المجالات، فابتكرت أنواعاً فنية في الخط العربي لاقت قبولاً واسعاً من قبل أصحاب الصحف والمجلات، وكثرت أعمالي، فتنقلت من جريدة الثورة إلى جريدة البعث، ودعيت للمشاركة في تأسيس القسم الفني للخط في صحيفة تشرين، كذلك ساهمت في كتابة خطوط منشورات اتحاد الكتاب العرب وكتبته منذ تأسيسه، حتى بدأ انحسار الخط في الصحف والمجلات والملصقات ركضاً نحو الكمبيوتر، وكان ذلك حوالي عام ١٩٩٥، إن تجربتي في الصحافة السورية والأعمال التي قمتها يشهد لها جميع الذين عاصروا الخمسينات والستينات والسبعينات، كنت أكتب الخطوط التقليدية النسخ والرقعة والديواني مع الخطوط المبتكرة، وكنت في يوم من الأيام أكتب الخط لتسع مجلات رئيسية غير جريدتي البعث والثورة.

■ ما هي استعمالات الخط العربي في الحياة المعاصرة؟

لم يتغير شيء في استعمال الخط العربي لا قديماً ولا حديثاً، فهو باق إلى الأبد مع بقاء لغتنا العربية التي هي عنوان حضارتنا، والحفاظ على الخط جزء من الحفاظ على التراث العربي، فالعرب يفتخرون بهذا الفن الذي يعبر عن هوية الأمة، ولا مجال للدعوات المغرضة في إبعاد الحرف العربي واستبداله بحروف أخرى، مثل هذه الدعوات تموت في مهدها لعظمة هذا الخط وهذه اللغة، الخط العربي ما يزال يستعمل في الصحافة والمجالات الفنية والتجارية والمكتبات، وهناك

معارض تقام دائماً للخط العربي كالمعرض السنوي لسوزارة الثقافة ، ومعارض كثيرة مشتركة لفنانين من سوريا وأقطار إسلامية أخرى.

« ما هي ملامح المدارس المتعددة للخط العربي؟

هناك مدارس في الخط تتوزع في العالم الإسلامي إذ كان للخط في بلاد ما وراء النهر منهج خاص كما كان للعثمانيين الأتراك لمنهج يختلف عن منهج مدارس بلاد ما وراء النهر، ولقد توسّطت المدرسة الدمشقية الشامية بجمال حروفها ورشاقة العراقات في الخط، مما أكسبها خبرة وسحراً وروعة لم تصل إليها المدارس الأخرى، وبخاصة فن خط النستعليق وخط الثلث، وقد يظن بعض دارسي الخط أن في قلبي بعض التجني أو المغالاة، ولكن من يتقصى المدارس بحس نقدي ويقارن بين الحروف، يلاحظ أن الفنان الدمشقي المبدع قد رسخ طلاوة وجمال وسحر الحرف العربي، وكأنما الطبيعة بفتنتها وسحرها قد أظلت بفيئها الحرف فجاء معجزاً، وهذا ما نلاحظه في حروف الواو والراء والميم وكؤوس حرف العين والنون واللام، ذلك هو التوسط الذي شذب حرف المدرسة الفارسية الذي يعتمد على صغر الحجم، وحرف المدرسة العثمانية الذي يأخذ السعة والكبر في الحرف، وهذه القواعد التي ذكرت طرّقاً منها تحتاج إلى دراسة علمية دقيقة أمل أن تظهر في العصر الحديث على يد باحثين وهبوا أنفسهم لدراسة فن الخط العربي.

« يذكرون أن الحاسوب طرد الخطاطين العرب من أعمالهم، هل توافق وما هو انطباعك؟

الحاسوب آلة صماء تتلقى كل ما يدخل إليها من برامج، في مجال الخط، ولذا يجب أن نقدم برامج تحتوي على الخط الجميل المدروس، محافظين على القواعد الأساسية للخط العربي، ولا بد في هذا المجال أن تكون هناك لجنة عليا لانتقاء البرامج الأفضل، ودعم هذه البرامج وجعلها في متناول الجميع، حتى لا ندع مجالاً

أمام الخطوط الرديئة الرخيصة التي نراها في الحاسوب الآن، الحاسوب قلل من استعمال الخط اليدوي من قبل الخطاطين، ولكنه لم يطردهم، فالخطوط التي تستعمل في برامج الحاسوب أصلاً هي كتابة يدوية، وأنا أدعو أن نحسن أنواع الخط الكثيرة التي في الحاسوب، لأننا نحن الخطاطين بدأنا نستعمل الحاسوب في مجال الإعلان والدعاية والمنشورات، وما هذه اللوحات المضاءة الجميلة المطبوعة، سوى عنوان جديد من عناوين الفن الحديث المعاصر في الإعلان، أما بالنسبة للخطاطين الحرفيين فيجب أن يطوروا من طريقة أعمالهم، وأنا متفائل جداً بأن البقاء للأفضل.

■ ما تعليقك على قولهم أن لا مستقبل لفن الخط العربي؟

مستقبل الخط العربي في يد الخطاطين، وأمانة بين أصابعهم فكلما ابتكروا واتحدوا وأحبوا بعضهم وتحاوروا في أسس الخط وقواعده كلما كان المستقبل زاهراً بإذن الله، وعليهم وأن يقدموا دائماً الأفضل والأحسن، وأكرر إن المستقبل للخط العربي واللغة العربية ما دمنا نعمل صادقين على التقدم والاجتهاد.

■ أيهما أكثر تأثيراً على نفسيّتك ، فوضى استخدام الخطوط في الشوارع، أم

عدم اهتمام الدولة بتعليم الخط العربي في المدارس؟

ما يحز في نفسي كثيراً هو إلغاء مادة تدريس الخط في المدارس، ولا سيما إنني علمت الناشئة هذا الفن لأكثر من ٣٢ عاماً، فكان يحزنني أحياناً أن طلاب دار المعلمين وهم أساتذة الغد لا يجيدون كتابة هذا الخط ولو قليلاً، وكثيراً ما يشكو المعلمون من سوء الخط أثناء تصحيح أوراق الامتحانات في الشهادات والجامعات.

أما ما نراه من خطوط سيئة في الشوارع والمحلات التجارية فهذا بسبب كثرة الطلب وعدم معرفة الأفضل من قبل المعلن.

■ ما هي أجمل لوحة خط عربي شاهدتها؟

شاهدت كثيراً من لوحات الخط في سورية وتركيا وإيران، ولكن ما سحرني خطوط الثلث التي تلتف بحزام جميل حول مقام سيدنا يحيى عليه السلام في مسجد بني أمية بدمشق، وخطوط عبد الله الزهدي في المدينة المنورة، ولوحات الأستاذ بدوي المنتشرة في سورية والعالم.

■ وما هي أجمل لوحة كتبتها؟

لم أكتب إلى اليوم أجمل لوحة ولكنني أسعى إليها مادام في العمر بقية!.

ولم تطل رحلة الفنان بعد هذا اللقاء، إذ ما لبست أن ودع الحياة، في ٣١ / ٣ / ٢٠٠٤م بعد أن أدى رسالته حق الأداء، وترك إرثاً فنياً راقياً تستعيد فيه مسيرة خطاط متميز، وتدعو له بالرحمة والغفران.

دمشق تودع خطاطها المبدع :

محمد قنوع: نحن مسؤولون عن حماية التراث والتصدي لمحاولات تشويهه والعبث بأصالته...

عجبا لحكم القدر وما يخبئه في جعبته من مفاجآت...

منذ أيام وحسب، التقيت الفنان الخطاط الراحل: محمد قنوع، في مرسومه الحميم الأنيق ... وكعادته أخذ جلسته وراء مكتبه، ممسكا بقصيبته الرشيق، وانصرف إلى الورق يوشيه بلمسته الدقيقة، لينحر بعدها عملا فائق الروعة، اقتصاه السهر ليالي طويلة وتحولت فيه الحروف إلى لحن سماوي شفاف والكلمات إلى تحفة باهرة ناطقة بإعجاز الفكر وإبداع الأتأمل.

ملك المشهد علي حواسي، فرحت انتبغ بدھشة خطوطه الممتلئة بعفوية وأناقة، مغنبتا لحضوره ولادة لوحة فنية فريدة ستندم إلى مثيلاتها في رواق الخلود، وتعدو قبلة الأنظار ومتمعة المشاعر، عندما فرغ "محمد قنوع" من لمسته الأخيرة في اللوحة شعرت بأنها - ككل عمل فني أنجزه - تختصر مسيرة إبداع متأققة، قطع الفنان أشواطها بدأت وصبر ومحبة صادقة طوال نصف قرن من الزمن واستعدت عندها محطات فاصلة في حياته الفنية الموهوبة لخدمة التراث في صورة الجميلة الخالدة

استعدت في لحظات عباراته اللطيفة:

لقد شغفت بالخط العربي من مرحلة حدائتي المبكرة، ويومها تعرفت إلى سحر الأبجدية التي تقدم للطفل أحاساسا لا نجده في لغة أخرى، إن للقرآن المجيد بيانه الساحر، وتصويره البليغ، الذي ينطبع في ذاكرة الطفل من لحظة تعلمه سورة الفاتحة والمعوذتين إضافة إلى ذلك السحر الذي تمنحه لنا مدينتنا البهية: دمشق، من

خلال تراثها الأصيل مجسدا في لوحات الخط الأنيقة في المسجد والأبنية الأثرية وهو ما ينعكس في الوجدان احتراما وإجلالا للحرف العربي ثم يأتي دور المعلم فيؤكد هذه المعاني السامية ويرسخ في نفس الطفل تذوق الجمال والتمسك بالجذور القوية لقيمنا المثلى، وقد كان حظي كبيرا أننا تعلمنا مبادئ الخط العربي على أيدي المربين من مشاهير الخطاطين في أيامنا ممدوح الشريف، حلمي حباب، وبدوي الديراني وغيرهم...

على يد هؤلاء تدربت واكتسبت خبره وفهما لقيم الجمال، وتأكد لي أن جماليات الخط العربي لا يمكن الإحاطة بها إلا بالتذوق العالي لأنواع الحرف العربي والإطلاع على أعمال الأساتذة المجلين ودراستها دراسة متأنية واعية...

الخطاط المعلم: روحانية وإبداع:

إن تراثا يمتد على مدى ألف وأربعمائة وست وعشرين سنة يحتضن كنوزا فوق التصور، وقد مر الحرف العربي عبر خطوط القرآن الكريم بأشكال وصور مختلفة وكان الخطاط يدرك أنه يكتب آيات الله تعالى، وانطلق من نفس صافية وارتقى إلى سماوات رحبية من الصوفية والروحانية الشفافة واتى بالجديد المبتكر والجميل الأخاذ وإن من يتأمل الحروف العربية، وهي تتنوع وتتماسك اعتزازا وخيلاء في لوحات بلاد الأفغان ودمشق وبغداد والقاهرة والقروان يمتلكه العجب من دقة الإتقان في تنسيق الحروف وأشكال كتابتها وامتداد قاماتها وتلوين ميماتها وانحناءات عراقتها

وعما إذا كان الخط العربي قادرا مثل الفنون الأخرى - على التطور والتجديد يجيب الفنان (قتوع):

إن التطور ظاهرة طبيعية، وهو في الفنون الإنسانية يولد لدى المبدع طاقة قوية لتقديم الأفضل والأجمل، فيندفع الموهوبون على تطوير أعمالهم الفنية

وتجديدها انطلاقاً من إيمانهم بأن التطوير رسالة لا يحصل عبثاً إلا المخلصون وحسب، وهكذا فقد شهد فن الخط العربي صوراً من التجدد خلال تاريخه الطويل من بداية بعثة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم في مكة المكرمة، ومروراً بالعهود الإسلامية التالية: كان وضع النقاط "التشكيل" على يد أبي، "الأسود الدؤلي" ثم وفي نهاية العهد الأموي تحول الخط من اليبوسة إلى اللين وكانت المرحلة الثالثة نقط الحروف المعجمة في عهد الحجاج الثقفي، وتلته مرحلة اختصار الألوان على يد "الخليلي بن أحمد الفراهيدي" في لون واحد، وابتكار التشكيل الذي تكتب الحروف عليه اليوم.

وما لبثت جهود المسلمين أن تضافرت، وتتنوع أنماط الخطوط واستخلصت منها الأقلام الستة: الثلث والنسخ والتعليق والريحان، والمحقق والرقاع. وفيما بعد حظي كل نوع بنصيب من التطوير والتحسين، اقتضته الحاجة، مثل خطوط الدواوين التي أدت هدفاً محدداً، ثم تولدت الخطوط، وبلغت منتهى الإبداع والجمال.

وظهرت في منتصف القرن الماضي محاولات لتطوير الخط، خدمة لحاجات اقتصادية واجتماعية وسياسية، لكنها سرعان ما عادت إلى الجذور ولم تكتسب لها الديمومة.

كذلك لعبت الطباعة الحديثة دوراً ذا شأن في التطوير والتجديد، وكان للحروف التي سكبت بها قوائم الكتابة دوراً كبيراً ذا شأن في التجديد، وظهر في الفنانين - من جانب آخر - من عمل يروية جديدة للتشكيل في الحرف فوفسق بعضهم وقدم أعمالاً فنية متميزة، وفشل آخرون ممن جنحوا إلى السيرالية المفرطة...

وعن أساتذته في فن الخط العربي ... يقصح الفنان (قنوع) عن اعتزازه بخطط بلاد الشام القدير: بدوي الديراني ... فقد كان مدرسته التي تعلم فيها منهجه ... ثم يوضح أن مسيرة الخط في سوريا حفلت بكوكبة متميزة من السرواد، فيهم الخطاطون رشاد، ممدوح، بدوي، حلمي، الشلبي، الحكيم، البغجاني، الزيناتي،

البيلائي، الشيخ محمد الزرزور، هادي، الرفاعي، المولوي، السصابوني، وكانوا الجيل الأول، الذي تلاه الجيل الثاني وفيه: نجا، المنيني، أمين ديسان، السرزور، عثمان طه، قصيباتي المقتي، الهواري، الباري، القاضي، وليد محي الدين، سالم النويلاتي، محمد غنوم، شكري خارشو، ياسر عيار، عدنان سنققي، جمال بوستان، مصطفى النجار، وكلهم من دمشق.

وهناك عدنان الشيخ ومحمد الحداد من حمص، والحوري والبازنكي وآمين خياطة وبشير الألبلي، وسلمو وعليان وبلال الرفاعي من حلب، وعبيدة البكي من دير الزور، وحسام مطر من الرقة وغيرهم...

ويستفيض الفنان قنوع من غرضه لمدارس الخط العربي، فيذكر أن هذه المدارس تتوزع في الأقطار الإسلامية بأشكال ومناهج مختلفة ففي بلاد كرا والنهرين ثمة منهج محدد وللاثر الك العثمانيين منهج مختلف أما المدرسة الشامية فقد كانت وسطا بجمال حروفها ورشاقة العراقات في الخط، وهو ما أكسبها جمالا وروعة لم تبلغها المدارس الأخرى وبخاصة في الخط النستعليق، وخط الثلث، ولقد تمكن الفنان الدمشقي أن يرسخ طلاوة وسحر الحرف العربي، فكانما الطبيعة الآسرة قد مدت ظلالها على الحرف فتجلى بهيا معجرا وهو ما نلاحظه في حروف السواو والراء والميم وكؤوس العين والنون واللام وذلك هو التوسط الذي شذب حروف المدرسة الفارسية المعتمد على صغر الحجم. وحرف المدرسة العثمانية الذي ينحور إلى الكبر والسعة.

وحول خصوصية خط الثلث يرى الفنان قنوع أنه خط لين وجميل بدأ مع عهد الدولة الأموية في الشام وقد عرف أولا باسم خط النسخ الشامي ثم شهد تطورا مع الزمن وأخذ أبعادا وأشكالا إلى أن كان تطوره الحاسم على يد المماليك ثم استقر بعدها على أيدي الخطاطين العثمانيين الذين أبدعوا فيه، ويبدع اليوم فيه الخطاطون السوريون ولأنه طبع ولين ويوحي بالمتانة والقوة.

ويشير الفنان قنوع إلى اللوحات الحروفية التي عرفت منذ الستينات في سوريا

فيتين أن الحرف العربي يحمل في تكوينه قيما جمالية راقية تساعد الفنان التشكيلي على إعمال خياله واستلهام الصور الجميلة التي يوظفها في لوحته التشكيلية، لكن علينا أن نميز في هذه اللوحات بين ما هو جدي وأصيل يركز على التراث والبنية الثقافية للحرف، كما عند الفنان المتميز محمد غنوم وبين أعمال كثيرة غريبة عن الخط العربي ولذا تبقى باهتة ومشوهة.

ويتحدث الفنان قنوع بحماس عن الإخطار التي تتهدد الخط العربي قائلا إن الخط العربي تعرض منذ مطلع القرن الماضي لحملات محمومة من المستعمر الغربي، وكثرت المحاولات التخريبية لتغييبه والقضاء عليه، وظهرت دعوات للكتابة بالعامية أو استخدام الحرف اللاتيني كما حدث في تركيا حين استبدل الحرف العربي باللاتيني ... لكن تلك الدعاوي تهافت في وطننا ولم تلق اهتماما، وضاعت أراج الرياح، لكننا نواجه الآن هجمة جديدة من الحاسوب الآلي الذي يقدم صورا مشوهة للخط العربي الجميل، ومسؤوليتنا نحن أن نتصدى لهذا العبث وأن ندخل إلى الحاسوب الحروف أنيقة التي تحفظ للخط العربي روعته وسحره.

من هذا العشق الكبير لفن الخط العربي دعا الفنان محمد قنوع الخطاطين السوريين إلى تكوين رابطة خاصة بهم، تسعى إلى حماية الأصالة، وصون التراث، وإناء ذائقة الجمال عند الناشئة فظهرت تلك في عام ١٩٧٨ لتجمع في باقة عطره المهتمين بالخط العربي ومحبي التراث من الشعراء والفنانين وتنشط الجمعية في مجالات ثقافية متنوعة، إذ أقامت معرضا متميزا للخط العربي في باريس، كما تنظم سنويا معارض لأعمال الخطاطين السوريين المبدعين، وتحثي بالخطاطين المشاهير في الدول الإسلامية، وتشارك في الأنشطة الثقافية في العديد من دول العالم.

وهب الفنان محمد قنوع جهد ساعديه، وضوء عينيه للحرف العربي المقدس واحتضن أصحابه من الخطاطين الموهوبين، وقضى رحلته الطويلة في محراب هذا الفن العربي، التي تواصلت لأكثر من نصف قرن، متميزا بالإنسانية الصادقة

والمحبة والوفاء والكلمة الطيبة، إلى اللحظة الأخيرة من حياته...
ومن مفارقات القدر أنني بدأت أدون هذا الحوار لأطلع عليه. حين فاجأني بنبا
رحيله، فعدت أصحح عباراتي ... واكتب: لقد كان ... وكان ... وأقوالها بصدق:
لقد كان فنانا متميزا وجادا وعاملا محبا في مجاله، فاستحق بجدارة شكر
الوطن والمجتمع ومن كانت له هذه الصفات لا يموت أبدا.

رسخ قيم المحافظة على تراثنا العريق في الخط العربي

كتب الفنان غازي الخالدي:

أهديتي قطعة من خطك الفارسي (من يتق الله يجعل له مخرجاً) .. واحتفظت بها في مرسمي، ووضعتها فوق لوحة أعلى الناس في قلبي فوق لوحة أمي .. وكنت ومازلت فخوراً أن أقرأها كلما نظرت إلى عيون أمي أقف بخشوع أقرأ لها الفاتحة، كلما دخلت المرسم .. وكلما غادرت.

هديتك اقروها بنفس الحماسة، لأنني أجد متعة كبيرة وأنا أتأمل دقة الخط الفارسي، دقة في الأوزان، وأمانة في القاعدة لهذا الطراز من الخط.

سألتك مرة لماذا تكتب اسمي بشكل مختلف من مرة لأخرى .. قلت لي: عندما اكتب اسمك لابد أن أعمل شيئاً مختلفاً عن الآخرين .. فكل مرة أحاول أن أكتبه بطريقة مختلفة عن الأخرى .. وهذا تكريم كبير لي كم تمنيت أن أرد لك هذا الجميل من موقوفك.

والذي كان يدهشني فيك أنك لم تكن تأبه لكل التقنيات الحديثة، وظهور نماذج من كل أنواع الخطوط والحرف والعناوين بالكمبيوتر، وكنت ترى أن بصمات الفنان الخاصة لا يمكن أن تكون الآلة بديلاً عنه.

وقد قلت أكثر من مرة في دراستي عن الفن التشكيلي إن من السهولة التفريق بين أسلوبين لفنانين تشكيليين، لكن من الصعوبة أن تميز أسلوب خطاط عن آخر إلا إذا كان ناقد الخط، خطاطاً معترفاً بفضله وعمله وتجاريه ومدرسته.

والخط النسخي الذي تكتبه، والديواني، كنا نميزه عن كل ما كتب من النسخي والديواني فأسلوبك كان متميزاً، في إيقاع الحرف، وشكله المرن ومسحة الطابع الخاص بك واضحة تماماً .. فإذا قرأت كلمة لك أقول هذا هو أسلوب (قنوع).

كم كنت أشعر بالفخر والسعادة وأنا أراك تدافع عن الخط والخطاطين كنت تكرس قيمة هامة جداً، وهي أن الخطاط هو فنان تشكيلي وأن علينا أن نحترم عمله

كما نحترم اللوحة الزيتية.

سألتك مرة عن مسألة الإبداع في الخط، وهل يؤثر تكرار العناوين والكلمات على أسلوبية الفنان أو على مستواه، اذكر أنك أجبتني بأن الكتابة المستمرة، وبجدية وبتواضع حقيقي، وبصدق وإخلاص، لابد أن تعطي فرصة أكبر للخطاط الفنان المبدع أن يكتشف نفسه باكتشاف أسلوبه وطريقته في تناول الخط حسب القاعدة ووفق الأوزان الموضوعية لكل حرف، واذكر أننا تحاورنا عن خطوط الفنان المرحوم الأستاذ حكمت، خاصة لوحاته بالثلث، الثلث كما هو معروف صعب في التركيب، وصعب في المفاصل، وصعب في التشكيل، لأنه يعتبر من أهم الخطوط التراثية القديمة.

وعندما تحدثت عن بدوي الديراني، أو حلمي حباب، أو عن ممدوح الششريف .. كنت أراك تذكرهم بكل حب، وبكل تقدير وبكل احترام، وتقول هؤلاء الذين أسسوا لمدارس الخط العربي في بلدنا ... هؤلاء الذين تتلمذت على أيديهم.

وأنت يا محمد فنوع مؤسس أيضاً، أنت مؤسس لأمرين هامين:

الأول: ترسيخ قيم المحافظة على تراثنا الحضاري في مجال دراسة الخط العربي وفق أصوله ووفق قواعده وأوزانه، باعتباره تراثاً مهماً وله الصدارة في جميع اللوحات والنوافذ والأبواب والسقوف واللوحات العربية والإسلامية خاصة ونحن في عالم العولمة، عالم المحاولات لطمس تراثنا وحضارتنا وتاريخنا.

الأمر الثاني الذي قاتلت وناضلت من أجل تأسيسه، هو جمع كلمة الخطاطين وتقديمهم إلى المسؤولين وإلى المواطنين كمبدعين .. وأسست لهم تجمعاً اعترف به لك القاضي والداني .. وأصبحت ويجدارة رئيساً لهذا التجمع، حتى أصبح المعرض السنوي للفنون التشكيلية يضم فيما يضم من لوحات، لوحات الفنانين الخطاطين، يعرضون تجاربهم واجتهاداً تهم في تطويع الحرف والكلمة والجملة إلى أشكال فنية تزيينية، مرتبطة بشكل مستوحى من النبات أو من أي شيء له صلة بالكائنات الحية أو الأشياء المستعملة في حياتنا اليومية، كآلة الكمان، أو كالتفاحة، أو كالعود، أو

كالإناء النحاسي طويل العنق .. كل هذه الأشكال طوعها الخطاطون الفنانون لصالح الخط العربي وجعلوا الخط هو النواة الأهم في تشكيلاتها وعناصرها.

فأنت أيها الرائد مدرسة في الخط، وقائد نقابي في حرصك على أعمال رفاقك وفي قدرتك على تقديم إبداعاتهم إلى المتلقي بكل احترام وبكل تقدير.

لم أسمع منك مرة واحدة أنك تقل من أهمية خطاط دون آخر، بل العكس كنت أراك تسترسل في شرح أساليب الخطاطين الآخرين، والطرق التي استعملوها مسن أجل تطويع الخط العربي إلى زخرفة وإلى تشكيلات فنية زخرفية مبتكرة.

سألتك عن عدد كبير من الفنانين التشكيليين الذين رسموا في لوحاتهم الحرف والكلمات والجمل بالخط العربي، أو كما يسمونها (مدرسة الحروفية) وكنت دائماً تدافع عن الخط على أنه هو الأساس، وأنه ليس وسيلة، بل غاية، وأن استخدامه كوسيلة فيه ظلم للخط والخطاط، ومن المفترض أن يكون الخطاط خطاطاً والرسام رساماً، وإذا تعاون الاثنان معاً فلا بد من أسس ومعايير تعطي لكل نوع من أنواع الإبداع حقه تماماً...

من سطور سيرته

- ولد الفنان محمد قنوع بدمشق عام ١٩٣٢.
- درس في مدارس دمشق وتخرج معلماً عام ١٩٥١-١٩٨١.
- عمل فناناً مسرحياً ومخرجاً ورافق الحركة الفنية في سوريا، وهو من مؤسسي المسرح العسكري والشعبي.
- تعلم الخط على يد المرحوم حلمي حباب وبدوي الديراني.
- خط عناوين أكثر الصحف والمجلات ومنشورات اتحاد الكتاب العرب ووزارة الثقافة ووزارة الإعلام والمؤسسة العربية للإعلان (سابقاً) منذ الستينيات من القرن العشرين.
- عمل بتكليف من وزارة الثقافة على إقامة معرض الخط العربي في باريس مع الفنان المرحوم نعيم إسماعيل وكان محكماً بانتقاء اللوحات.
- معرض الزخرفة في الخط - الندوة الدولية للأرابيسك في تركيا ١٩٩٧ وكان مشرفاً على معرض الخط في مكتبة الأسد.
- خطاط القصر الجمهوري والموسوعة العربية.
- عشرات المعارض في مناسبات مختلفة في سوريا وعدد من الأقطار العربية والأجنبية.
- ندوات ومحاضرات ولقاءات صحفية وإذاعية وتلفزيونية في سورية وبعض البلاد العربية.
- عمل على تأسيس رابطة الخطاطين السوريين وهو رئيس جمعية الخطاطين السوريين.



عبد القادر الأرناؤوط :

صياغة لونية جديدة للتعبير عن الأحاسيس الذاتية

■ على المشاهد أن يهتم باللوحة ويتذوقها دون الانشغال بالمضمون الأدبي للكلمة

تغدو المساء كئيبة، وتكفهر قسّمات الكون، حين بلبل عن الترنيم، أو تسقط زهرة ناضرة من عروة الغصن لتثروها الريح ... أما القلوب النابضة بالفرح والحياة فإنها تنكفي واجمة، حين تمتد كف الموت إلى لهاة شاعر أو ريشة فنان وتفرّد المخيلة أشرعتها لتبدأ رحلة الذكريات...

نعم لقد أبحر عبد القادر أرناؤوط إلى ما وراء الأفق ولكن كأنما ليصبح حضوراً دائماً يحاور ويناقش ويعلق وبسمته المحببة مشرقة على جبينه.

وفي موكب وداعه بدأ شريط الذكريات يمر أمام عيني ومع خطواتي الرتيبة وراء جثمانه رحبت استعيد محطات مسيرته، كما كتبها في أوراقه الباقية:

ولدت بدمشق عام ١٩٣٦ من أبوين فقيرين .. كان أبي مستخدماً في مدرسة وفي حي شعبي بسيط عشت طفولتي .. لا أعلم متى بدأ حبي للرسم، ولكنني متأكد أنه بدأ مبكراً فما أزال أذكر بأن جيوبتي كانت لا تخلوا من بعض الرسوم التي كنت أتسلى برسمها، وكنت أصرف أكثر نقودي على أقلام التلوين ... وامتدت هذه الفترة زمناً لا بأس به.

كانت هوايات الفنان، ومواهبه، التي عبر بها عن نفسه، متعددة فقد جرب الشعر في فترة مبكرة، ومارس الكتابة والنقد الفني، وكان مولعاً بالمطالعة والموسيقى واهتمامات أخرى بالفنون والأدب، وحين اختار الفن التشكيلي أخيراً، سخر كل هذه الهوايات والمعارف لتخدم هذا الاتجاه الذي استقطب إمكاناته كلها.

وكانت الفترة الممتدة ما بين ١٩٥٤، ١٩٥٦ بداية التحول الهامة في حياة "عبد القادر الأرنؤوط" الفنية واختياره الفن التشكيلي يقول:

في هذه الفترة أحسست بالتحول الكبير الذي طرأ على أفكاري ومفاهيمي فبدأت اتحول عن الشعر، وأفكر في الإيجابية في العمل الفني، وبالمسؤولية الهائلة التي يتحملها الإنسان عند خوضه في هذا المضمار.

المرحلة الأولى: ١٩٥٥ - ١٩٦٢:

التقى "عبد القادر أرنؤوط" في هذه الفترة بعدد من الفنانين العرب، أولهم صديقه "مروان قصاب باشي" واكتشف من تجاربهم والحوار معهم، أهمية الحداثة الفنية، وما يمكن أن تعطيه للفنان، واكتشف أهمية التراث العربي، ومن خلال أعمال عمالقة الفن العالمي أمثال "موديلاني" و"بول كلية" و"جوجان" أدرك أن على الفنان أن يقدم ما هو أعمق من مجرد رسم لمنظر تقليدي، وبأسلوب مألوف عند رواد الفن التشكيلي.

مر "عبد القادر" آنذاك بحادثة، قام فيها بدور المتفرج ولكنها تركت في نفسه انطبعا لا يمحي أثره أبداً .. يقول:

كان صديقي الفنان "مروان قصاب باشي" يرسم بنفس أسلوب غالبية الفنانين المعروفين في ذلك الوقت وهو أسلوب قريب من الانطباعية، وقد توقفوا عن ذلك الأسلوب، وراحوا يدورون حول أنفسهم في دائرة مفرغة بتغيير نهاية ... وفعل "مروان" الشيء نفسه ... إلى أن توقف عن الرسم، ولم ينتج عملاً واحداً قرابة ستة شهور.

وكان يوم، دخلت فيه إلى المرسم، فوجدته مستغرقاً في رسم لوحة فلما دنوت منه، تملكنتي الدهشة، وأنا أراه يرسم بأسلوب مختلف جداً عن الأسلوب القديم الذي كان طابعه المميز، وقد اعترته حماسة شديدة وهو يتكلم خلال عمله بحرارة وصدق ... كان الإخلاص واضحاً في نبراته، وأكبر من الوصف، وبعد ذلك واصل

الرسم بذلك الأسلوب بحيوية خارقة وطاقة جبارة".

دب في نفس "عبد القادر" في هذه الفترة، شعور جديدة بالإيجابية والمسؤولية والإخلاص للعمل بشكل قوي ... كان مسرورا وهو يرى صديقه الفنان يرسم ويرسم بغير انقطاع ... ولكنني لم أجد أن الوقت قد حان لأبدأ أنا بدوري العمل في هذا المضمار".

وفي هذه الفترة، أيضا التقى الفنان الراحل "تعيم إسماعيل" وأخاه الأكبر "أدهم" من رواد الفن التشكيلي في سوريا" فأتارني إخلاصهما الهائل لعلمهما، وجهدهما الدائب لخلق لوحة عربية صافية ... تحدثت مع "تعيم" كثيرا في الفن، كان حماسه وإخلاصه رائعين ولكن حديثه الساحر جعلتني أحس بأنني أبعد مما أظن عن البدء بالعمل الإيجابي من ناحيتين وشرعت، من جديد، أدور في دوامة من الفلق، وأبحث عن مخرج لي، وأنا أقارن بين الزيف والأصالة، والصحيح وغير الصحيح" وتعرف بعد ذلك على "صلاح الناشف" عبقرى الرسم المائي، وعلى "تصير شوري" أستاذ فن الجمال، و أحب أعمال هذا الأخير، وما يتوهج فيها من ذوق فني مرفه.

مسؤولية الفنان: كانت المرحلة الحاسمة في حياة الفنان، والتي امتدت ما بين ١٩٥٤ و ١٩٥٦ حين اكتشف مسؤولية الفنان، وأهمية "الفن الحديث" ورأى ان تخطي الأساليب التقليدية السائدة، سوف يكون دافعا له. لإعادة النظر في كل ما كان مؤمنا به. وأخذ يفكر في أسلوب فني خاص به. وإدراكا منه إلى أن ارتباطه بالفن متوقف على ذلك".

رسمت لوحة واحدة لم تعجبني ... فانقطعت عن الرسم، ورحت أتحدث مع الفنانين وأحاورهم محاولا اكتشاف نفسي".

وفي النصف الثاني من عام ١٩٥٧ غادرني الأصدقاء، ووجدتني في عزلة تمثل انفعالاتي بشكل واع، رحلت أحاور الألوان، وأحس بأنها تتجاوب معي وهكذا، بدون تفكير أمسكت بالريشة، ورسمت لوحة أعجبتني، وارتحت للعمل، وانغمست

فيه واتبعت اللوحة بلوحات ... لقد عرفت أخيراً أن التيار قد اتخذ مجراه النهائي، وأن الإنسان لا يستطيع التوقف منذ اللحظة التي يحس فيها بالمسؤولية وبواجبه أن يكون مخلصاً لما هو مسؤول عنه".

شارك "عبد القادر" في ذلك العام، بالمعرض العام للفنانين بلوحتين: "ذات الشعر الأسود" "حارة قديمة" وخلال خمس سنوات من النشاط الدافق، والتجارب المتعددة عرف الفنان بأسلوبه الخاص، وخطوطه الشعاعية، ومن خلال مشاركته في معرضين إقامتها وزارة الثقافة ما بين عامي ١٩٦١، ١٩٦٢، قدم لوحات تكشف عن موهبة خاصة وعن أسلوب ينطوي على لغة فنية متميزة فيها شاعرية وبساطة معبرة تنطلق من القلب لتصل إلى القلب: "اكتشفت أن بوسعي تقديم كل ما أود الإفصاح عنه بتلقائية، وألوان محدودة، وخطوط متقنة، وأن أعبر عن اعقد المشاعر الدفينة في نفسي من خلال هذه الأشكال".

وتبع ذلك معرضاه في صالة الفن الحديث العالمي، في ذات الفترة، ولكن الفنان فاجأ جمهوره كثيراً، حين قدم لوحاته بدون عناوين وقال: إن على المشاهد أن يهتم باللوحة، ويحاول تدقيقها دون الانشغال بالمضمون الأدبي للكلمة، وظل يقدم لوحاته منطلقاً من هذا المبدأ: "أن نقرأ اللوحة ونبتعد عن المعاني، وأن نهتم بما في الكلمات والزخارف، من قيم جمالية، وتشكيلية وتجريدية، ولا نكتفي بقراءة ما يكتب".

المرحلة الثانية: ١٩٦٣ - ١٩٦٨:

كانت إمكانات الفنان المادية، تقف حائلاً دونه ومتابعة الدراسة الأكاديمية، فعمل في وزارة الثقافة مصمماً ومشرفاً على تصميم لوحات إعلانية، أبرزت الموهبة "الغرافيكية" لديه واستطاع مبكراً أن يكتشف إمكانات الخط العربي، فأقبل عليه ببنكر، ويستخرج منه جماليات كامنة فيه، وأن يخلق التناغم الضروري بين تصميم اللوحة والكتابة العربية، فانتشرت أعماله في أوساط جديدة، وجدت في

تصاميمه مزيجاً من الدقة والشاعرية، وروح التراث، والرموز التي كانت قابلة للتداول. في إيطاليا تعرف على إسرار الخط اللاتيني الحديث، وتفرغ أكثر الخط العربي، ولدراسة الديكور وتصميم الإعلان، وفازت لوحاته وتصاميمه بالعديد من الجوائز، وإثر عودته لدمشق أصبح مدرسا للفنون في كلية الفنون الجميلة، وأسس فيها مدرسة لفن الإعلان. وقد طرح الفنان على نفسه سؤالاً ماذا قدمت لي "روما" وهل ساعدتني للوصول إلى ما طمحت إلى تحقيقه من أهداف؟

نعم ... لقد تعرفت إلى عناصر جديدة ومهمة .. لكن هذه العناصر، لم تبدل في شاعريتي، ولا في بحثي عما هو داخلي لا عبر عنه ... لقد كانت تجربتي حافلة بما هو جديد، من حيث وسائل التعبير، التي كانت أكثر عمقا، وفيها الصيغ والتقنيات الحديثة التي جعلت أعمالي أكثر التزاما بالصيغ الفنية الجديدة، ومحاولاتي للوصول إلى التعبير عن الشاعرية بمفاهيم تشكيلية، لكنها من جانب آخر لم تكن جديدة علي من حيث الهدف الذي سعيت لتحقيقه.

وهكذا ابتعد "عبد القادر أرناؤوط" عن الرسم بالخطوط وحدها، والإشارات والرموز المختلفة، نحو التجريد اللوني، المعبر عن أعماق الأشكال، وبدأ يرى التصوير الحديث، عن طريق حركة اللون وتمازجها، ويقدم المفهوم العربي في التصوير الزيتي عن طريق تداخل درجات اللون وامتزاجها، وشفافيتها، وما تقدمه من قيم ووجد في أحياء "دمشق" القديمة وأبنيتها الأثرية الباقية، الإبهاءات التي مكنته من تصوير لوحة لها لونها الشاعري، ولها ارتباطها بالواقع المحلي ...

وأضافت التجربة الجديدة إلى لوحته صياغة لونية، وساعدت هذه الصياغة على التعبير عن الانفعالات الذاتية، والأحاسيس المرفهة التي كانت نتيجة لتفاعله مع البيوت القديمة، والجدران المتآكلة، التي تحمل البصمات الإنسانية، وتعكس تأثير الطبيعية والإنسان، وامتزجت الزخارف المحطمة، مع أشكال المهترئة، مع اللون الشاعري، وساعدته على التعبير عن الموضوع (رمزا).

وفي معرضه الثالث عام ١٩٦٧ كانت لوحاته وفقا على "دمشق" القديمة كما

رأتها عين الفنان المحب لمدينته وتراث أمته.

المرحلة الثالثة: ١٩٧٢ - ١٩٩٢:

تهيأ للفنان السفر مرة ثانية إلى "باريس" فامضى فيها عامين، تسابع خلالهما دراسة فن الإعلان، ونال دبلوم المدرسة الوطنية العليا للفنون الزخرفية بباريس في "الاتصالات البصرية" ولما عاد إلى "دمشق" أصبح رئيسا لقسم الفنون الزخرفية بكلية الفنون.

لقد اتضح تأثير دراسته الجديدة في فرنسا، من خلال معرضه الجديد المتميز، إذ قدم فيه لغة فنية خاصة به، ولهذه اللغة جذورها الفنية اللونية والشكلية، من التراث التشكيلي العربي، وظهرت في هذه المرحلة خصائص فنية لم تكن مألوفة لديه... قدم اللوحة المتوازنة والمتماسكة والتي عبرت عن المفاهيم الرئيسية المجردة فاللوحة لها توازنها من حيث الأشكال، ولها مفاهيمها المرتبطة بالإطار الذي يحدد اللوحة من أطرافها وتتوزع العناصر والأشكال ضمن هذا الإطار، وهذا التوازن وصل إلى أقصى مراحل له لأن السكون هو المسيطر، والتناظر هو الذي يغلب على التكوينات.

وبعد أن قدم اللغة الشاعرية المنقلة بالرموز في البداية، انتقل إلى مرحلة (تعبيرية - تجريدية) ليجعل الرموز تعبيرا عن المواضيع الأساسية والصيغ الإنسانية بالتأليف الخاص:

"لقد حاولت دائما أن أضع لغتي الفنية على محك التجربة والبحث، حتى أختبر قدرتي على التعبير عن كل الموضوعات مهما كانت، وأصل اللوحة المتوازنة توازنا تاما، من حيث العناصر الموزعة، والأشكال التي تقدمها للوحة" وهكذا وصلت تجربته إلى أقصى الصيغ الفنية المحسوبة، وإلى دقة التوازن الشكلي واللوني، لقد كانت قمة التجربة التشكيلية في بناء لوحة متكاملة لم نر نظيرا لها فيما سبق وقد رسم في هذه المرحلة اللوحات المربعة. التي امتازت عن غيرها، بأنها

أكثر قدرة على إعطاء التشكيل المتوازن من الأطراف جميعا، ولم يتوقف عند هذا الهدف بل إن الدقة في التكوين المتناسك والمتوازن، ضمن المربع، دفعاه لتقديم صيغة فنية تتداخل فيها المربعات، مع المثلثات والدوائر، ويضاف إليها تناسق الألوان، من أخضر وأزرق وأبيض.

وفي المعرض الذي أقامه بدمشق عام ١٩٨٥، قدم التجارب اللونية، والنظام المبتكر لعلاقات الأشكال العضوية، والزخرفية، وتداخلات الألوان، وهكذا فتج الباب على مصراعيه أمام بحث لوني جديد، مربع أو مستطيل ملون، فيه البساطة والمقدرة على الابتكار الأصيل. الذي تحس بأنه يجمع بين اللون والتأليف، إنه يخوض بحثه الآن في مجال اختبار لغته الفنية على تحقيق كل ما يريد من بحوث وأشكال تجمع الهندسة والعفوية.

ونظم آخر معارضه، في "المركز الثقافي العربي" بدمشق لوحات بيضاء إلا من تأثيرات لونية، واعتمد على العلاقات البيضاء، مع الزخارف، والأشكال النافرة، في بحث هو في منتهى الصفا والبساطة، وقد امتد هذا الأسلوب الفني ليشمل كافة أشكال التعبير الفني التي مارسها، من تصاميم إلى ملصقات، وحتى في مجال الكتابة العربية حين قدم أسلوبا يتضمن تطوير الحروف ويقاربها مع الأشكال ويختزلها...

بدأ "عبد القادر أرناؤوط" شاعرا ينظم الكلمات قصائد رقيقة فينبها مشاعر فياضة، وصور خالصة، ثم تحول إلى شاعر يرسم بالفرشاة، ويلون الأشكال، وينظم لوحته تنظيمًا خاصاً حتى تعكس هذه الشاعرية بصياغة حديثة، وحتى يتوصل إلى لغة فنية مستقلة عن كل ما عداها، وسواء في الشعر أو في الفن فقد تجلت موهبته في قدرته على إيصال "الكلمة" إلى الناس بأسلوب يجمع بين البساطة والجمال .. وقد وصل إلى هذا الأسلوب بعد رحلة طويلة، وبحث تنقيب مجهدين ... وبلغ أخيرا عالما جميلا، أكثر توازنا ورهافة وجمالية ... العالم الأسر الذي حلم به طويلا ...

في المقبرة حيث وصل الموكب أخيرا طرحت خواطري واستعدت نفسي من

جديد، وفيما كانوا يهيلون التراب على جثمان الفنان الذي ترجل بعد رحلة مثيرة ...
كان رذاذ المطر ينثال من الفضاء الرحيب، ليمتزج بدمع العيون المودعة
ومن بعيد نقاهي ترجيع يمامة حزينة، كانت تصبح على الفنان الشاعر، فجر
كل يوم، من على غصن رطيب فوق شباك مرسمه الأثير، وأغمضت الزهور
جفونها!!

المصادر:

- أوراق الفنان
- الرائد الذي خسرنه: طارق الشريف مجلة بناء الأجيال العدد الرابع (نوفمبر ١٩٩٢).
- في ذكرى الفنان: وزارة الثقافة بدمشق ١٩٩٢

قالوا عن الفنان

"إنه شاعر يرسم بالفرشاة، ويلون أشكاله، وينظم لوحاته تنظيمًا خاصًا، حتى تعكس هذه الشاعرية، بصياغة حديثة، وحتى يتوصل إلى لغة فنية مستقلة عن كل ما عداها، ولقد كانت موهبته تتجلى دوماً في قدرته على إيصال "الكلمة" إلى الناس، وعن طريق شتى الوسائل، بأسلوب فني يجمع بين البساطة والجمال .. هذه البساطة المحيرة التي توصل إليها بعد بحث وتقيب طويلين".

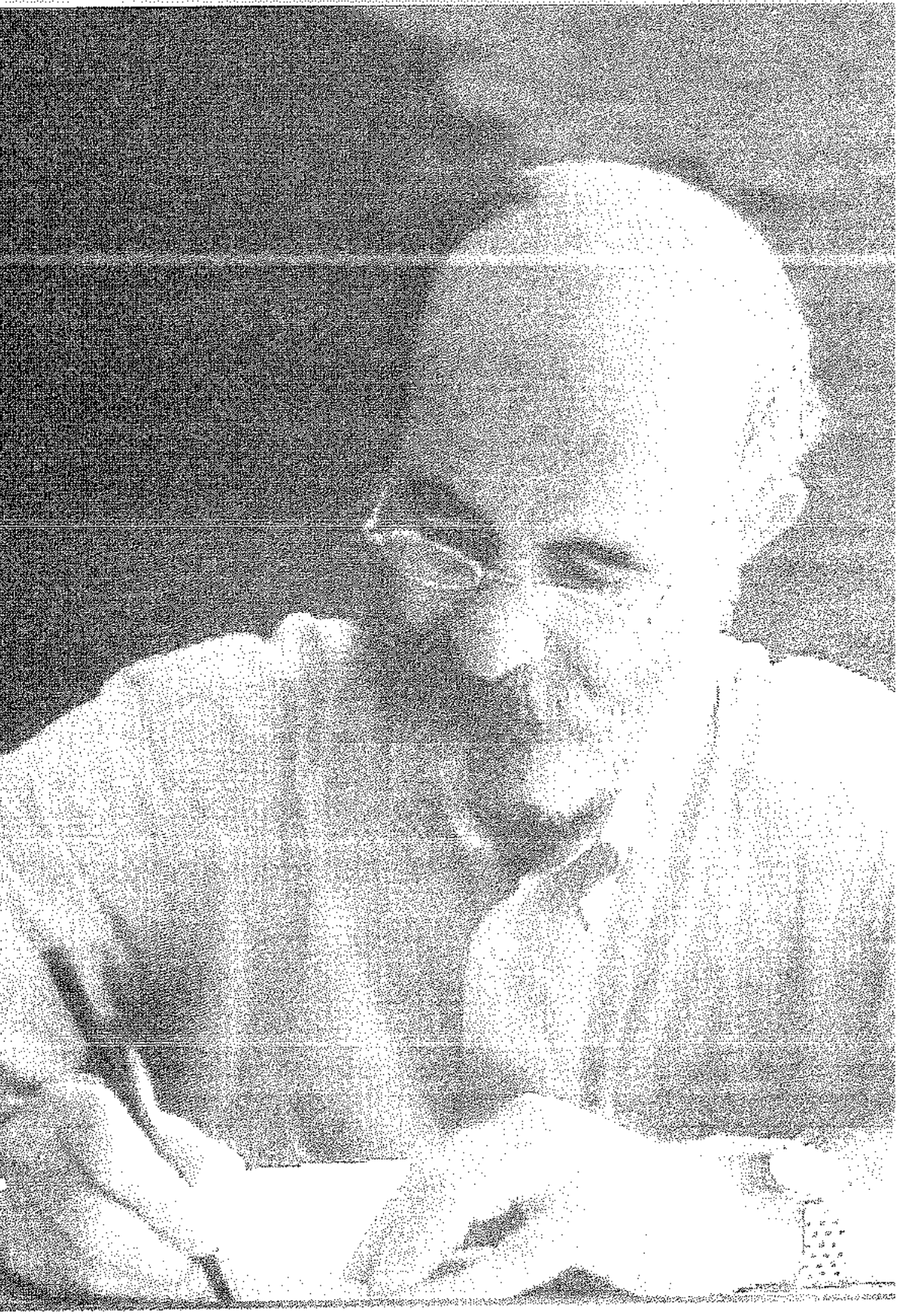
طارق الشريف - مدير الفنون الجميلة

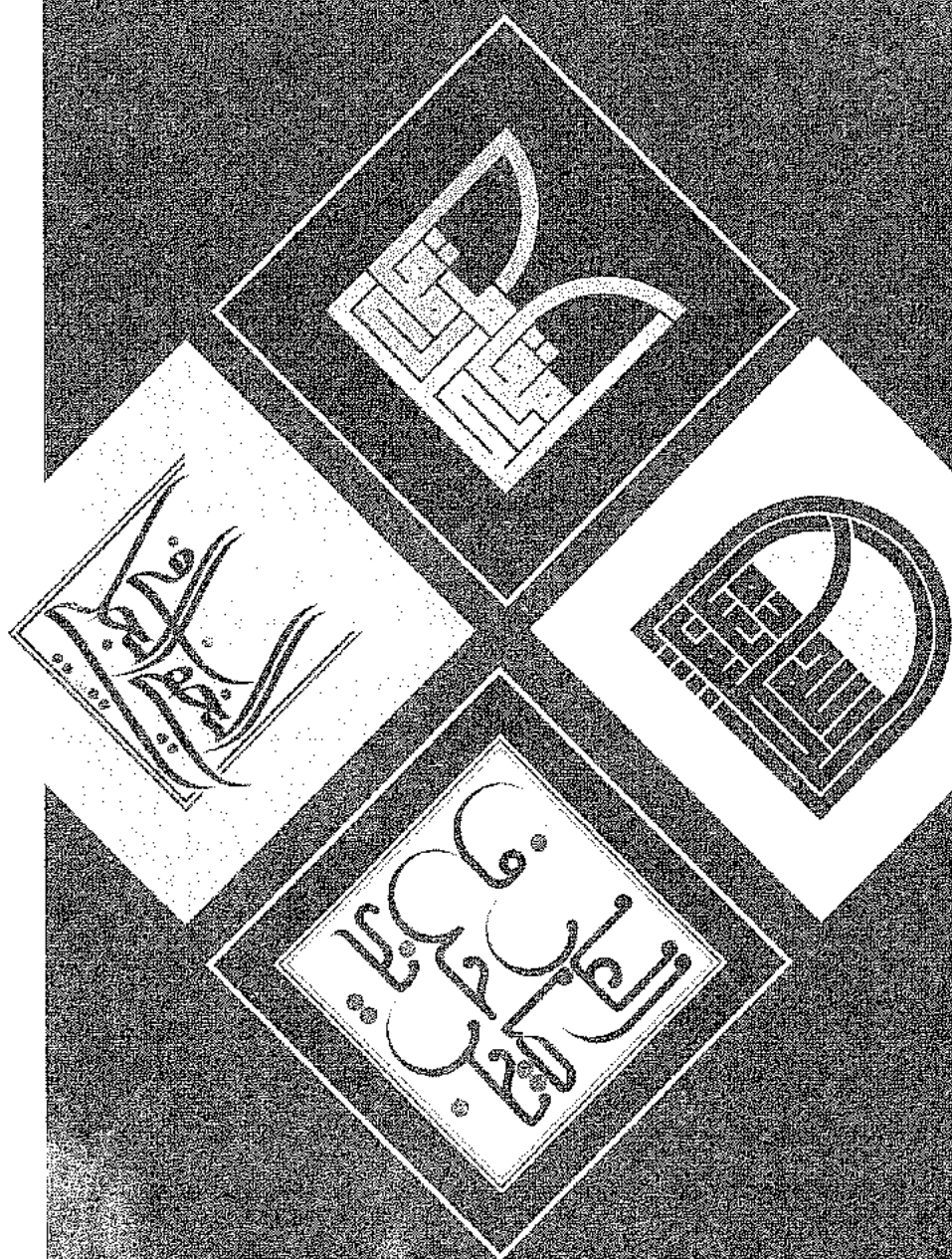
كان أصيلاً كذرة نادرة، تعلم بفطنته وحذسه، ورافقته النخبة من المراجع الفكرية والفنية، فنادمها بشوق وإخلاص، كما كان في حياته وبحته المستمر عن الحقيقة الجمالية التي لا حقها في كل مجال، حتى وجدها وسيطر عليها في الكلمة وفي الشعر، وفي الخط والرسم، والشكل واللون، والتصميم الزخرفي، وفي فن الإعلان وصياغة اللوحة الفنية المزخرفية حتى رشحته المجالس المختصة بكلية الفنون الجميلة بجامعة دمشق لمنحه براءة الاختراع عن بحثه "طريقة العمل الجرافيكي" التي تم تسجيلها كابتكار علمي وفني في فرنسا".

أ.د. عبد المنان شما - عميد كلية الفنون بجامعة دمشق

عمل "عبد القادر أرناؤوط" لسنوات، وهو يحاور جمالياً بين مظاهر واقعية وأخرى تجريدية، وصولاً إلى علاقة تعبيرية حديثة فيها من الواقع بقدر ما فيها من الذات، ومنذ تلك المرحلة في تجربته وحتى آخر إنجازاته التشكيلية، كانت الشاعرية ذلك الإطار الجمالي الذي سكن عوالمه على اختلاف عناصرها الواقعية والذاتية والتراثية والمعاصرة".

خليل صفية





منير الشعراني :

سيمفونية غذية يصل من خلالها إلى روح المشاهدة وبصيرته

إذا كانت اللغة العربية هي هوية العرب المعبرة عن شخصيتهم، فإن الخط العربي هو العلامة الدالة على إبداعهم الخلاق على مر السنين، فقد أتقن الخطاطون هذا الفن وأعطوه ضوء العيون، تجديداً وابتكاراً حتى غدا فناً حقيقياً، وعلماً أكاديمياً يدرس في المعاهد والجامعات، وحيثما تلتفت حولك في مساجد المسلمين، وقصور الأمراء، وعلى جدران القلاع والمشيدات التاريخية، تطالعك شواهد العبقرية العربية المتألقة : لوحات الخط العربي محفور في الخشب، أو مكتوب بعروق الذهب على أعمدة الرخام، وصفحات القباب الشامخة ... مهرجان حاشد من الأناقة والحس الرفيف تتسمر الأنظار عندها، وتشرب من موسيقاها الناعمة ... كذلك كان الحال في أيام العرض الخاص بأعمال الخطاط الفنان منير الشعراني الذي صادف قدوم ربيع دمشق جديد، محمل بالخضرة والعطر من كسل لون..

لوحات جديدة، لم تعرض قبلاً، أثارت اهتمام النقاد والمهتمين الذين رأوا فيها لمسة الفنان المتميزة، وأسلوبه الخاص في التعبير المنطلق من فلسفة تعتمد على جمال العبارة المكتوبة، مقترنة بجمال الحرف المرسوم، ومركزة على التكرار الرشيق للحروف المتشابهة، مع انسياب شفاف يحلق بالمتلقي في أجواء الفن العربي الأصيل، ويزاوج بين مدارس الخطية واللونية مع إبداع في شكل الحروف المكتوبة تارة، وفي نوعية الخط المعتمد للعمل الفني تارة أخرى، مختلفة، تبلورت خلال دراسته العالية بجامعة دمشق. وانتقلت معه في أجواء الخط المغربي وأصوله الكوفية، لتظهر صلة النسب بين الخطوط العربية في المشرق والمغرب.

بصمة متميزة من التشكيلات البصرية الحروفية:

تتفرد التجربة الحروفية للفنان منير لشعراني بجملة من المقومات، جعلتها لا تشبه أي تجربة حروفية عربية أخرى، فهو يوظف قدرات الخط العربي البصرية ضمن تشكيلات جديدة، لكن دون الإخلال بأصوله الكلاسيكية المحكومة بقوانين هندسية رياضية صارمة، محبوكة بإتقان وموهبة وحساسية رفيعة.

بدأ الفنان الشعراني هذا التوجه منذ كان طالباً في محترفات كلية الفنون بدمشق مطالع السبعينيات من القرن الماضي، ولا زال في نفس التوجه فأعماله الحديثة المنشورة على موقعه الخاص على الانترنت، وبين دفتي الكتاب المتقن الإخراج والطباعة الخاص بشريحة منتجة من لوحاته.

الفكرة والمعنى في فكرة معبرة:

في دراسة للنقاد عبد السلام أحمد في منهج الخطاط الشعراني يقول: (اللوحة عند الشعراني سيمفونية فريدة في تنوع وانسياب حروفها وتناظر متشابهاتها، وذلك ليصل من خلال تسلق سلمها الخطي الجميل الى روح المشاهد وبصيرته، معاناة حقيقة الفكرة الفنية التي أرادها الفنان، وليصل من خلالها بحس شفاف الى المعنى الحقيقي للجملة المكتوبة في هذا العمل الأنيق، ويتجلى كل ذلك في لوحاته التي جسدت عبارات مختارة من الحكم والمثال والشعر العربي، وفيها نرى قمة التمكن الحرفي تركيباً وتناظراً وتسلسلاً، إلى حد أن المشاهد قد يذهب في متاهات بعيدة، ولا يصل إلى فك رموزها وقراءتها بصورة صحيحة).

خارج الاتجاه وبعيداً عن التقليدية:

في سجل المعرض يدون النقاد والباحثون شهاداتهم في أعمال الفنان، التشكيلي التونسي حاتم المكي يرى: (أن الشعراني يقق خارج الاتجاه الحروفي في التجربة

التشكيلية العربية كما أنه يقف خارج كوكبة الخطاطين الذين يجوون الخطوط التقليدية ويكررونها وهو يقدم قطعة خط عربي جديدة، تعبیر نفسها امتداداً عصرياً لاضاءات الماضي).

أما الشاعر علي اللواتي فيؤكد: (أن الفنان لم يتحمل الغش، ولم يتحمل الغش، ولم يلجأ للزيف أبداً، وهو كالساح يعلم أين ينبغي أن يلجأ اندفاعه حتى يمكن التمتع بالساعات الحقيقية والرائعة للفراغات، وهي لذة فعلية للذين يسركون الموسيقى والتطرف الهندسي).

ويدور الحوار بين الفنان والناقد أسعد عرابي والخطاط منير الشعراني:

■ هل تعتبر نفسك خطاطاً أم فناناً؟ ..

اعتبر الخط طريقة في التعبير عن الفن التشكيلي مثل غيره من الفنون. الخط إذن وسيلة تعبير إبداعية، غير وظيفية، بدليل غلبة الهاجس الموسيقي في تشكيلاته.

إن العلاقة بين الخط والموسيقى الشرقية وردت أصلاً من الشعر، حتى أننا نعثر على خطاطين معروفين في مجال الموسيقى، على غرار : صفي الدين عبد المؤمن الأموي صاحب كتاب عن الموسيقى، كما وأن العديد منهم شعراء معروفون.

■ ألا تجد أن استغرافك في موسيقىة الشك يقودك إلى التطرف الهندسي، وبذلك يفقد العمل الفني شيئاً من تلقائيته، أو لأحرى شطحاته المشروع التي تعتمد على خيانة القواعد؟

يختلف الطابع (الغرافيك) في الخط والأداء العفوي في اللوحة، فهو يحتاج إلى قرار حاسم مساحي وخطي لا يقبل التردد، مثله مثل المساحة الهندسية، ولهذا أنجز دراسات تمهيدية حرة قبل التنفيذ.

■ ما هي الخطوط التي تعتقد أنك طورتها على الرغم من عدم المساس
بخصائص تشريحها لالهندسي؟

الكثير من أنواع الكوفي بدءاً من الشطرنجي (المربع) وانتهاء بالمغربي
الفيرواني، مروراً بالمشريقي، ثم هناك السنبلّي - وهو عثماني متأخر - إضافة إلى
النسابوري وبعض التوليفات. لقد امتحنت واستثمرت الطرز والأقلام، ولكن ضمن
إخراج وتأليف علاقات جديدة بين الكتلة والفراغ.

دعوى يفقدها العلم والمعرفة:

يثور الفنان منير الشعراني على مزاعم الذين يرون في الحاسوب خطراً محدقاً
بالخط العربي ويرى: (أنه مع الثورة الهائلة في الاتصالات، اقتحم الحاسوب كل
مجالات الحياة، فكان لابد من برمجة خطوط عربية لاستخدامها في الوظائف التي
يؤديها الحاسوب، الأمر الذي يعرضه أهل التقليد في الخط العربي باعتبار أن
برمجة الخط العربي تمثل مؤامرة عليه، تؤدي إلى انعدام الإقبال على تعلم الخط
العربي وإلى القضاء على هذا الفن إن هذه الادعاءات تبروز مدى الجهل بالحاسوب
واستخداماته من جانب، وبرحلة الخط العربي وتطوره من جانب آخر، ناهيك عن
الخلط بين المهني والفنان، وبين استخدامات الخط العربي الوظيفية والفنية المتعددة،
ونظرتهم إليها بسكونة وعين مغمضة لا ترى إلى أننا برمجت الخط العربي
بالحاسوب باتت ضرورية هؤلاء يجهلون أن الخط العربي تطور على مستويات
عديدة، انطلاقاً من التطور البنيوي والهيكلّي الذي أوصله إليه رواده من الفنانين
العظام، تطور على مستوى الرسائل والدواوين والعقود والمحفوظات، ليؤدي
وظيفته أفضل وأجمل، فتعددت أشكاله، وتطور بفعل اتساع رقعة استخدامه وتفاعله
مع ذائقة كل شعب من الشعوب التي وصل إليها ... وهكذا ولدت أنواع وأشكال
على درجة عالية من الجمال، كذلك تطور من خلال التفاعل بين الخامة وبين أجيال
الخطاطين الذين استطاعوا أن يولدوا لكل خامة أنواعاً وأشكالاً من الخطوط تستلهم

معها، مبدعين تحفاً لا حصر لها تنتشر في أرجاء العالم.

إنهم يظنون أن الخط وصل إلى ذروته في العصر العثماني، ولم يعد ممكناً أي ابتكار أو تطوير يعز الأنواع الستة التي اعتبرت قمة الجمال وقد أدى هذا الزعم إلى غياب عشرات الأنواع من الخطوط الكوفية رغم ما هي عليه من الجمال والتساق. لقد أضر هؤلاء بالخط العربي، لأن إرهاب الفكرة جعل معظم الموهبين يبرمجون أنفسهم على إتقان المحاكاة والتقليد، ويحجمون عن البحث أو التفكير في الابتكار والتجديد، لمواجهة المتطلبات التي يطرحها التطور ومستجدات الحياة، وأصبح ممتنعو الخط يؤدون أعمالهم بشكل نمطي وبصيغ مكررة لا تلقي بالاً إلى خصوصية كل حالة أو خامة أو وظيفة، مما جعل الناس ينفضون عن هؤلاء الخطاطين إلى الأشكال الجاهزة، أو إلى بعض ذوي المسة الخاصة من الخطاطين على قلتهم).

■ ما هو الحل إذن ؟

لا بد أن نكمل مآثر أجدادنا لا أن نجتر ما أنجزوه، وأن نستفيد من منهجهم الذي قام على الفريز المستمر والانتخاب والتوليد والاشتقاق والإضافة والابتكار، تبعاً للجماليات العامة وجماليات الوصيفة وخصوصيتها وخامتها وأساليب تنفيذها وأغراضها، وغيرها من العوامل المؤثرة. إن العلم والثقافة والوعي، هي ما نحتاج إليه إلى جانب الموهبة والفن للارتقاء باستخدامات الخط العربي وتلبية المتطلبات التي يطرحها التطور ومستجدات الحياة بصيغ جمالية دائمة التطور، تشمل وظائفه كلها من أدناها إلى أرقاها، من الكتابة اليدوية إلى اللوحة الفنية.. وبذا يفتح الباب واسعاً أمام الفنانين من الخطاطين ذوي الموهبة والثقافة والوعي، وعلى هؤلاء تقع مسؤولية تصميم الأشكال الملائمة للحاسوب وتطويرها باستمرار، وهسم القادرون على الارتقاء بالخط العربي كفن تشكيلي وإعادة ألقه إليه.

نذة فعلية للذين يدركون الموسيقى والتطرف الهندسي

إذا كانت اللغة العربية هي هوية العرب المعبرة عن شخصيتهم، فإن الخط العربي هو العلامة الدالة على إبداعهم الخلاق على مر السنين، فقد أتقن الخطاطون هذا الفن وأعطوه ضوء العيون، تجديداً وابتكاراً حتى غدا فناً حقيقياً، وعلماً أكاديمياً يدرس في المعاهد والجامعات. وحيثما تلتقت حولك في مساجد المسلمين، وقصور الأمراء، وعلى جدران القلاع والمشيدات التاريخية، تطالعك شواهد العبقرية العربية المتألقة: لوحات الخط العربي محفور في الخشب، أو مكتوب بعروق الذهب على أعمدة الرخام، وصفحات القباب الشامخة .. مهرجان حاشد من الأنافة والحس الرهيف تتسمر الأنظار عندها، وتشرب من موسيقاها الناعمة .. كذلك كان الحال في أيام العرض الخاص بأعمال الخطاط الفنان منير الشعراني الذي صادف قدوم ربيع دمشق جديد، محمل بالخضرة والعطر من كل لون...

لوحات جديدة، لم تعرض قبلاً، أثارت اهتمام النقاد والمهتمين الذين رأوا فيها لمسة الفنان المتميزة، وأسلوبه الخاص في التعبير المنطلق من فلسفة تعتمد على جمال العبارة المكتوبة، مقترنة بجمال الحرف المرسوم، ومركزة على التكرار الرشيق للحروف المتشابهة، مع انسياب شفاف يحلق بالمتلقي في أجواء الفن العربي الأصيل، ويزاوج بين مدارسه الخطية واللونية مع إبداع في شكل الحروف المكتوبة تارة، وفي نوعية الخط المعتمد للعمل الفني تارة أخرى، مختلفة، تلبسورت خلال دراسته العالية بجامعة دمشق. وانتقلت معه في أجواء الخط المغربي وأصوله الكوفية، لتظهر صلة النسب بين الخطوط العربية في المشرق والمغرب.

الفكرة والمعنى في فكرة معبرة

في دراسة للناقد عبد السلام أحمد في منهج الخطاط الشعراني يقول: (اللوحة

عند الشعراني سيمفونية فريدة في تنوع وانسياب حروفها وتناظر متشابهاتها، وذلك ليصل من خلال تسلق سلمها الخطي الجميل الى روح المشاهد وبصيرته، معانسة حقيقة الفكرة الفنية التي أرادها الفنان، وليصل من خلالها بحس شفاف الى المعنى الحقيقي للجملة المكتوبة في هذا العمل الأنيق، ويتجلى كل ذلك في لوحاته التي جسدت عبارات مختارة من الحكم والمثال والشعر العربي، وفيها نرى قمة التمكن الحرفي تركيباً وتناظراً وتسلسلاً، إلى حد أن المشاهد قد يذهب في متاهات بعيدة، ولا يصل إلى فك رموزها وقراءتها بصورة صحيحة).

خارج الاتجاه وبعيداً عن التقليدية

في سجل المعرض يدون النقاد والباحثون شهاداتهم في أعمال الفنان الشعراني، التشكيلي التونسي حاتم المكي يرى: (أن الشعراني يقف خارج الاتجاه الحروفي في التجربة التشكيلية العربية كما أنه يقف خارج كوكبة الخطاطين السذنين يجوكون الخطوط التقليدية ويكررونها، وهو يقدم قطعة خط عربي جديدة، تعتبر نفسها امتداداً عصرياً لأضواء الماضي).

أما الشاعر علي اللواتي فيؤكد: (أن الفنان لم يتحمل الغش، ولم يلجأ للزيغ أبداً، وهو كالمساحر يعلم أين ينبغي أن يلجم اندفاعه حتى يمكن التمتع بالسمات الحقيقية والرائعة للفراغات، وهي لذة فعلية للذين يدركون الموسيقى والتطرف الهندسي).

ويدور الحوار بين الناقد أسعد عرابي والخطاط منير الشعراني:

■ هل تعتبر نفسك خطاطاً أم قنّاناً؟..

اعتبر الخط طريقة في التعبير عن الفن التشكيلي مثل غيره من الفنون.

■ الخط إذن وسيلة تعبير إبداعية، غير وظيفية، بدليل غلبة الهاجس الموسيقي

في تشكيلاتك.

إن العلاقة بين الخط والموسيقى الشرقية وردت أصلاً من الشعر، حتى أننا نعثر على خطاطين معروفين في مجال الموسيقى، على غرار: صفى الدين عبد المؤمن الأموي، صاحب كتاب عن الموسيقى، كما وأن العديد منهم شعراء معروفون.

■ ألا تجد أن استغرافك في موسيقية الشك يقودك إلى التطرف الهندسي، وبذلك يفقد العمل الفني شيئاً من تلقائيته، أو بالأحرى شطحاته المشروعة التي تعتمد على خيانة القواعد؟

يختلف الطابع (الغرافيك) في الخط والأداء العقوي في اللوحة، فهو يحتاج إلى قرار حاسم مساحي وخطي لا يقبل التردد، مثله مثل المساحة الهندسية، ولهذا انجز دراسات تمهيدية حرة قبل التنفيذ.

■ ما هي الخطوط التي تعتقد أنك طورتها على الرغم من عسدم المساس بخصائص تشريحها الهندسي؟

الكثير من أنواع الكوفي بدءاً من الشطرنجي (المربع) وانتهاء بالمغربي القيرواني، مروراً بالمشرقي، ثم هناك السنبلي - وهو عثماني متأخر - إضافة إلى النيسابوري وبعض التوليفات. لقد امتحنت واستثمرت الطرز والأقلام، ولكن ضمن إخراج وتأليف علاقات جديدة بين الكتلة والفراغ.

دعوى يفنلها العلم والمعرفة

يثور الفنان منير الشعراني على مزاعم الذين يرون في الحاسوب خطراً محدقاً بالخط العربي ويرى: (أنه مع الثورة الهائلة في الاتصالات، اقتحم الحاسوب كل مجالات الحياة، فكان لابد من برمجة خطوط عربية لاستخدامها في الوظائف التي

يؤديها الحاسوب، الأمر الذي يعارضه أهل التقليد في الخط العربي، باعتبار أن برمجة الخط العربي تمثل مؤامرة عليه، تؤدي إلى انعدام الإقبال على تعلم الخط العربي وإلى القضاء على هذا الفن، إن هذه الادعاءات تبسّر مسدّد الجهل بالحاسوب واستخداماته من جانب، وبرحلة الخط العربي وتطوره من جانب آخر، ناهيك عن الخلط بين المهني والفنان، وبين استخدامات الخط العربي الوظيفية والفنية المتعددة، ونظرتهم إليها بسكونية وعيون مغمضة لا ترى أن برمجة الخط العربي بالحاسوب باتت ضرورة، هؤلاء يجهلون أن الخط العربي تطور على مستويات عديدة، انطلاقاً من التطور البنيوي والهيكلية الذي أوصله إليه رواده من الفنانين العظام، تطور على مستوى الرسائل والدواوين والعقود والمحفوظات، ليؤدي وظيفته بشكل أفضل وأجمل، فتعددت أشكاله، وتطور بفعل اتساع رقعة استخدامه وتفاعله مع ذائقة كل شعب من الشعوب التي وصل إليها ... وهكذا ولدت أنواع وأشكال على درجة عالية من الجمال، كذلك تطور من خلال التفاعل بين الخامة وبين أجيال الخطاطين، الذين استطاعوا أن يولدوا لكل خامة أنواعاً وأشكالاً من الخطوط تتلاءم معها، مبدعين تحفاً لا حصر لها تنتشر في أرجاء العالم.

إنهم يظنون أن الخط وصل إلى ذروته في العصر العثماني، ولم يعد ممكناً أي ابتكار أو تطوير يعد الأنواع الستة التي اعتبرت قمة الجمال، وقد أدى هذا الزعم إلى غياب عشرات الأنواع من الخطوط الكوفية رغم ما هي عليه من الجمال والتألق. لقد أضر هؤلاء بالخط العربي، لأن إرهاب الفكرة جعل معظم الموهوبين يبرمجون أنفسهم على إتقان المحاكاة والتقليد، ويحجمون عن البحث أو التفكير في الابتكار والتجديد، لمواجهة المتطلبات التي يطرحها التطور ومستجدات الحياة، وأصبح ممتنهو الخط يؤدون أعمالهم بشكل نمطي، وبصيغ مكرورة لا تلقي بالاً إلى خصوصية كل حالة أو خامة أو وظيفة، مما جعل الناس ينفضون عن هؤلاء الخطاطين إلى الأشكال الجاهزة، أو إلى بعض ذوي اللمسة الخاصة من الخطاطين على قلنتهم).

■ ما هو الحل إذن ؟

لابد أن نكمل مآثر أجدادنا لا أن نجتر ما أنجزوه، وأن نستفيد من منهجهم الذي قام على الفرز المستمر والانتخاب والتوليد والاشتقاق والإضافة والابتكار، تبعا للجماليات العامة وجماليات الوظيفة وخصوصيتها وخامتها وأساليب تنفيذها وأغراضها، وغيرها من العوامل المؤثرة. إن العلم والثقافة والوعي، هي ما نحتاج إليه إلى جانب الموهبة والفن، للارتقاء باستخدامات الخط العربي وتلبية المتطلبات التي يطرحها التطور ومستجدات الحياة بصيغ جمالية دائمة التطور، تشمل وظائفه كلها من أدناها إلى أرقاها، من الكتابة اليدوية إلى اللوحة الفنية. وبذا يفتح الباب واسعا أمام الفنانين من الخطاطين ذوي الموهبة والثقافة والوعي، وعلى هؤلاء تقع مسؤولية تصميم الأشكال الملائمة للحاسوب وتطويرها باستمرار، وهم القادرون على الارتقاء بالخط العربي كفن تشكيلي وإعادة ألقه إليه.

منير الشعراني

- * من مواليد ١٩٥٢/٩/٦ م.
- * تلميذ الخطاط الأستاذ المرحوم بدوي الديراني.
- * خريج كلية الفنون الجميلة بدمشق - قسم الزخرفة - شعبة التصميم الزخرفي مارس آذار / ١٩٧٧ م.
- * ١٩٩٧ م/ معرض فردي للملصقات الجدارية سورية.
- * ١٩٨٧ م/ معرض فردي للخط العربي - أتيليه القاهرة للكتاب والفنانين القاهرة
- كانون الأول / ١٩٨٧ م/ معرض فردي للخط العربي قاعة عبد المنعم السقاوي القاهرة.
- * حزيران / ١٩٨٨ م/ معرض فردي للخط العربي قاعة أليف - تونس.
- * تموز / ١٩٨٨ م/ معرض فردي للخط العربي، معهد بورقبة للغات الحية - تونس.
- * شباط / ١٩٩٠ م/ معرض فردي للخط العربي - أتيليه القاهرة للكتاب والفنانين - القاهرة.
- * عمل خطاطاً منذ عام / ١٩٦٧ م/ ثم مصمماً فنياً للكتب والمطبوعات ومصمم كخطوط منذ عام ١٩٧٦ م. ومديراً فنياً ومصمم أغلفة للعديد من دور النشر والمجلات العربية في بيروت وقبرص وتونس والقاهرة.
- * صمم عدة خطوط جديدة، وله كتابات في النقد الفني والفن العربي الإسلامي في عدد من المجلات العربية.
- * له دراسات لتعليم خطي الرقعة والنسخ (دار المثلث بيروت) ومجموعة من ٦ دراسات لتعليم خطوط الرقعة - النسخ - التعليق - الديواني - الثلث - الكوفي (دار أليف - تونس) وملصق جداري يحتوي الأبجدية لهذه الأنواع الستة.
- * صدر كتاب عن أعماله يحتوي على دراسة تحليلية للفنان يوسف عيسد لكي،

ويحتوي على صور مطبوعة لعدد كبير من أعماله (نشر باللغتين العربية والفرنسية - دار أليف - تونس).

وقدّم الفنان حاتم المكي كما أصدرت دار النشر نفسها مجموعة من ١٨ لوحة على شكل بطاقات بريدية و ٦ لوحات مستنسخة من أعماله.

* يعمل حاليا كخبير في الطباعة ومصمما للخطوط والمطبوعات، ومديرا فنيا لشركة الفجر للطباعة والنشر بالقاهرة...

المراجع

المصدر	المؤلف	الناشر	سنة النشر
الأعلام	خير الدين الزركلي		
أعلام الأدب والفن	أدهم الجندبي		
الأدب العربي السوري	سيف الدين القنطار	وزارة الثقافة (سوريا)	١٩٩٧
بعد الاستقلال			
اعترافات شامي عتيق	عبد الغني العطري	دار البشائر (دمشق)	١٩٩٨
معجم الأمثال العربية	خير الدين شمسي باشا	مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات	٢٠٠٢
بدوي الجبل	مختارات	وزارة الثقافة (سوريا)	٢٠٠٤
جفون تستحق الصور	د. بديع حقي	دار العلم للملايين (بيروت)	١٩٦٨
خليل مردم بك	فادية عبد اللطيف المليح	دار الخداء للنشر (دمشق)	١٩٩١
الدكتور زكي المحاسني	سماء المحاسني	مطبعة الآداب والعلوم (دمشق)	١٩٧٢
بأقلام كم عرفوه			
ديوان الرياض والأزهار	خير الدين شمسي باشا	وزارة الثقافة (سوريا)	١٩٩٩
والثمار			
ذاكرة الإنسان والبحر	د. نادية خوست	الندوة الثقافية النسائية (دمشق)	١٩٩٣
سابقات العصر	وداد سكاكيني	الندوة الثقافية النسائية (دمشق)	١٩٨٦
سامي الدروبي	لحسان بيات الدروبي	دار الكرمل للدراسات والنشر (دمشق)	١٩٨٢
شخصيات وصور أدبية	د. ابراهيم الكيلاني	دار طلاس للدراسات والنشر (دمشق)	١٩٩٣
العبقريات عبقریات من	عبد الغني العطري	دار البشائر (دمشق)	١٩٩٥
بلادي			٢٠٠٠
مرفأ الذاكرة	نخبة من الكتاب	كتاب العربي (الكويت)	٢٠٠٣
المجمع العلمي العربي في خمسين عاماً	د. عدنان الخطيب	المجمع العلمي العربي (دمشق)	
مكتب عنبر	ظافر القاسمي		
لغتنا الجميلة	فاروق شوشة	مكتبة منبولي/القاهرة	١٩٨٢
معجم كتاب سوريا	أديب عزت/ج١	دار الوثيقة	١٩٨٤

الدوريات والصحف (أعداد متفرقة)

- مجلة الإذاعة والتلفزيون (دمشق)
- مجلة الأدب (بيروت)
- جريدة الاتحاد (أبو ظبي)
- مجلة الأسبوع الأدبي (دمشق)
- جريدة الحياة (بيروت)
- جريدة الشرق الأوسط (لندن)
- مجلة الدنيا (دمشق)
- مجلة العربي (الكويت)
- المجلة العربية (الرياض)
- مجلة الفصيل (الرياض)
- كتاب العربي (الكويت)
- مجلة الهلال (القاهرة)
- مجلة المجمع العلمي العربي (دمشق)

فهرس محتوى الكتاب

الصفحة	الفهرس
٩	١- المقدمة
١٥	٢- الشيخ عبد القادر المغربي
٢٣	٣- الشيخ عبد القادر المبارك
٣١	٤- محب الدين الخطيب
٣٩	٥- أحمد عبيد
٥٥	٦- الدكتور شكري فيصل
٧٥	٧- عمر رضا كحالة
٨١	٨- د. صلاح الدين المنجد
٩٣	٩- الشيخ علي الطنطاوي
١٠٧	١٠- الدكتور جميل سلطان
١١٩	١١- خير الدين شمسي باشا
١٣٧	١٢- الدكتور عبد الله عبد الدائم
١٦٧	١٣- الدكتور شاكر مصطفى
١٩٥	١٤- الدكتور حافظ الجمالي
٢٠٧	١٥- الدكتور عبد الكريم اليافي
٢٢١	١٦- الدكتور عادل العوا
٢٣١	١٧- الدكتور نور الدين حاطوم
٢٣٩	١٨- الدكتور سامي الدروبي
٢٥٣	١٩- الدكتور عدنان الخطيب
٢٥٩	٢٠- الدكتور شبيب الجابري
٢٦٧	٢١- الدكتور جودت الركابي

٢٧٣	 عاصم بهجت البيطار
٢٨٣	 الدكتور سعيد محمد الحفار
٣٠٣	 الدكتور ابراهيم الكيلاني
٣١٣	 الدكتور أحمد منيف العائدي
٣٢٧	 عبد المعين الملوحى
٣٣٩	 خليل مردم بك
٣٥٧	 شفيق جبري
٣٦٩	 محمد البزم
٣٨٣	 خير الدين الزركلي
٣٨٩	 عمر أبو ريشة
٤٠٩	 بدوي الجبل
٤١٩	 الدكتور أمجد الطرابلسي
٤٢٧	 أنور العطار
٤٣٩	 الدكتور زكي المحاسني
٤٥٧	 الدكتور بديع حقي
٤٧٧	 عدنان مردم بك
٤٩٣	 نزار قباني
٥١٥	 الدكتور عفيف بهنسي
٥٣٣	 الدكتور قتيبة الشهابي
٥٤٥	 عبد الفتى العطري
٥٥٧	 وداد سكاكيني
٥٧٥	 إلفة الأملبي
٥٨٩	 سلمى الحفار الكزبري

٦٠١	 غادة السمان	٤٥-
٦٣٩	 ناديا الغزي	٤٦-
٦٥٩	 ناديا خوست	٤٧-
٦٧٥	 محمد مهدي الجواهري	٤٨-
٦٩٣	 نازك الملائكة	٤٩-
٧٢١	 عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى)	٥٠-
٧٣٩	 الدكتور إحسان عباس	٥١-
٧٤٥	 الدكتور نقولا زيادة	٥٢-
٧٦١	 فدوى طوفان	٥٣-
٧٧٣	 أحمد الصافي التجفي	٥٤-
٧٩٥	 الشيخ حمد الجاسر	٥٥-
٨١٣	 عبد الرزاق البصير	٥٦-
٨٢٣	 ناظم الجعفري	٥٧-
٨٣٧	 نصير شوري	٥٨-
٨٥٣	 ممدوح قسّان	٥٩-
٨٧٣	 فاتح المدرس	٦٠-
٨٨٩	 عاصم زكريا	٦١-
٩٠٣	 حلمي حباب	٦٢-
٩١٥	 بدوي الديراني	٦٣-
٩٢٩	 محمد قنوع	٦٤-
٩٤٧	 عبد القادر أرناؤوط	٦٥-
٩٥٩	 منير الشعراني	٦٦-



47
 48
 49
 50
 51
 52
 53
 54
 55
 56
 57
 58
 59
 60
 61
 62
 63
 64
 65
 66
 67
 68
 69
 70
 71
 72
 73
 74
 75
 76
 77
 78
 79
 80
 81
 82
 83
 84
 85
 86
 87
 88
 89
 90
 91
 92
 93
 94
 95
 96
 97
 98
 99
 100
 101
 102
 103
 104
 105
 106
 107
 108
 109
 110
 111
 112
 113
 114
 115
 116
 117
 118
 119
 120
 121
 122
 123
 124
 125
 126
 127
 128
 129
 130
 131
 132
 133
 134
 135
 136
 137
 138
 139
 140
 141
 142
 143
 144
 145
 146
 147
 148
 149
 150
 151
 152
 153
 154
 155
 156
 157
 158
 159
 160
 161
 162
 163
 164
 165
 166
 167
 168
 169
 170
 171
 172
 173
 174
 175
 176
 177
 178
 179
 180
 181
 182
 183
 184
 185
 186
 187
 188
 189
 190
 191
 192
 193
 194
 195
 196
 197
 198
 199
 200
 201
 202
 203
 204
 205
 206
 207
 208
 209
 210
 211
 212
 213
 214
 215
 216
 217
 218
 219
 220
 221
 222
 223
 224
 225
 226
 227
 228
 229
 230
 231
 232
 233
 234
 235
 236
 237
 238
 239
 240
 241
 242
 243
 244
 245
 246
 247
 248
 249
 250
 251
 252
 253
 254
 255
 256
 257
 258
 259
 260
 261
 262
 263
 264
 265
 266
 267
 268
 269
 270
 271
 272
 273
 274
 275
 276
 277
 278
 279
 280
 281
 282
 283
 284
 285
 286
 287
 288
 289
 290
 291
 292
 293
 294
 295
 296
 297
 298
 299
 300
 301
 302
 303
 304
 305
 306
 307
 308
 309
 310
 311
 312
 313
 314
 315
 316
 317
 318
 319
 320
 321
 322
 323
 324
 325
 326
 327
 328
 329
 330
 331
 332
 333
 334
 335
 336
 337
 338
 339
 340
 341
 342
 343
 344
 345
 346
 347
 348
 349
 350
 351
 352
 353
 354
 355
 356
 357
 358
 359
 360
 361
 362
 363
 364
 365
 366
 367
 368
 369
 370
 371
 372
 373
 374
 375
 376
 377
 378
 379
 380
 381
 382
 383
 384
 385
 386
 387
 388
 389
 390
 391
 392
 393
 394
 395
 396
 397
 398
 399
 400
 401
 402
 403
 404
 405
 406
 407
 408
 409
 410
 411
 412
 413
 414
 415
 416
 417
 418
 419
 420
 421
 422
 423
 424
 425
 426
 427
 428
 429
 430
 431
 432
 433
 434
 435
 436
 437
 438
 439
 440
 441
 442
 443
 444
 445
 446
 447
 448
 449
 450
 451
 452
 453
 454
 455
 456
 457
 458
 459
 460
 461
 462
 463
 464
 465
 466
 467
 468
 469
 470
 471
 472
 473
 474
 475
 476
 477
 478
 479
 480
 481
 482
 483
 484
 485
 486
 487
 488
 489
 490
 491
 492
 493
 494
 495
 496
 497
 498
 499
 500
 501
 502
 503
 504
 505
 506
 507
 508
 509
 510
 511
 512
 513
 514
 515
 516
 517
 518
 519
 520
 521
 522
 523
 524
 525
 526
 527
 528
 529
 530
 531
 532
 533
 534
 535
 536
 537
 538
 539
 540
 541
 542
 543
 544
 545
 546
 547
 548
 549
 550
 551
 552
 553
 554
 555
 556
 557
 558
 559
 560
 561
 562
 563
 564

والنور في الماء في الصور

النوهر في الناس لافي السد










الحمد لله رب العالمين

۱۴۷۱۴۶۱۴۷

٣٧٣٤٦٤٠

8784

4154

877

414

This image shows a close-up of the mihrab (prayer niche) of the Kaaba in Mecca. The central feature is a large, semi-circular archway filled with elegant Arabic calligraphy in gold and black ink on a red background. The text is a verse from the Quran: "وَاللَّهُ أَكْبَرُ" (Allah is the Greatest). Surrounding the arch are various numbers and symbols in different scripts, including Arabic numerals and symbols from other languages, all arranged in a circular pattern. The overall design is highly decorative and symbolic.

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تُكْرَهُ
مِنْ الْقُرْآنِ وَالْغُرُفِ

وانما الامم الاخلاق ما بقيت
فان هم ذهبوا اخلافتهم ذهبوا

الله على محمد وآله
كفى قلة الكفاية في الناس

This image shows a circular manuscript page from the Voynich manuscript. The page is divided into several sections, each containing text in a script that appears to be a mix of Latin and a unique Voynich script. The text is arranged in a circular pattern, with some sections at the top and others at the bottom. The page is decorated with intricate patterns and colors, including red, blue, and gold.



وَأَمَّا الْفُلُ فَأَنزَلْنَاهُ ذِكْرًا لِّعِبَادِنَا
وَالْأَنْبِيَاءُ نُرِيهِمْ آيَاتِنَا وَلَقَدْ
بَدَّلْنَا الْبَحْرَ لَمَّا كَانَتْ فِيهِ السَّفِينَةُ
الَّتِي لِمُوسَىٰ ذِكْرًا لِّبَنِي إِسْرَٰءِيلَ

وَالْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي هَدَانَا لِهٰذَا وَمَا كُنَّا لَكَ شَاكِرِيْنَ

॥ श्रीगणेशाय नमः ॥



الأرض كلها وطني والعائلة البشرية كلها عشيرتي

الأرض كلها
وطوني
والعائلة البشرية
عشيرتي

لا إله إلا الله
محمد رسول الله

الحكمة إذا لم تكن حاكمة لا يعول عليها

ولا تشارعوا فتعشوا

إني ممّا بأمن القلب خائف

مريم القليوبي

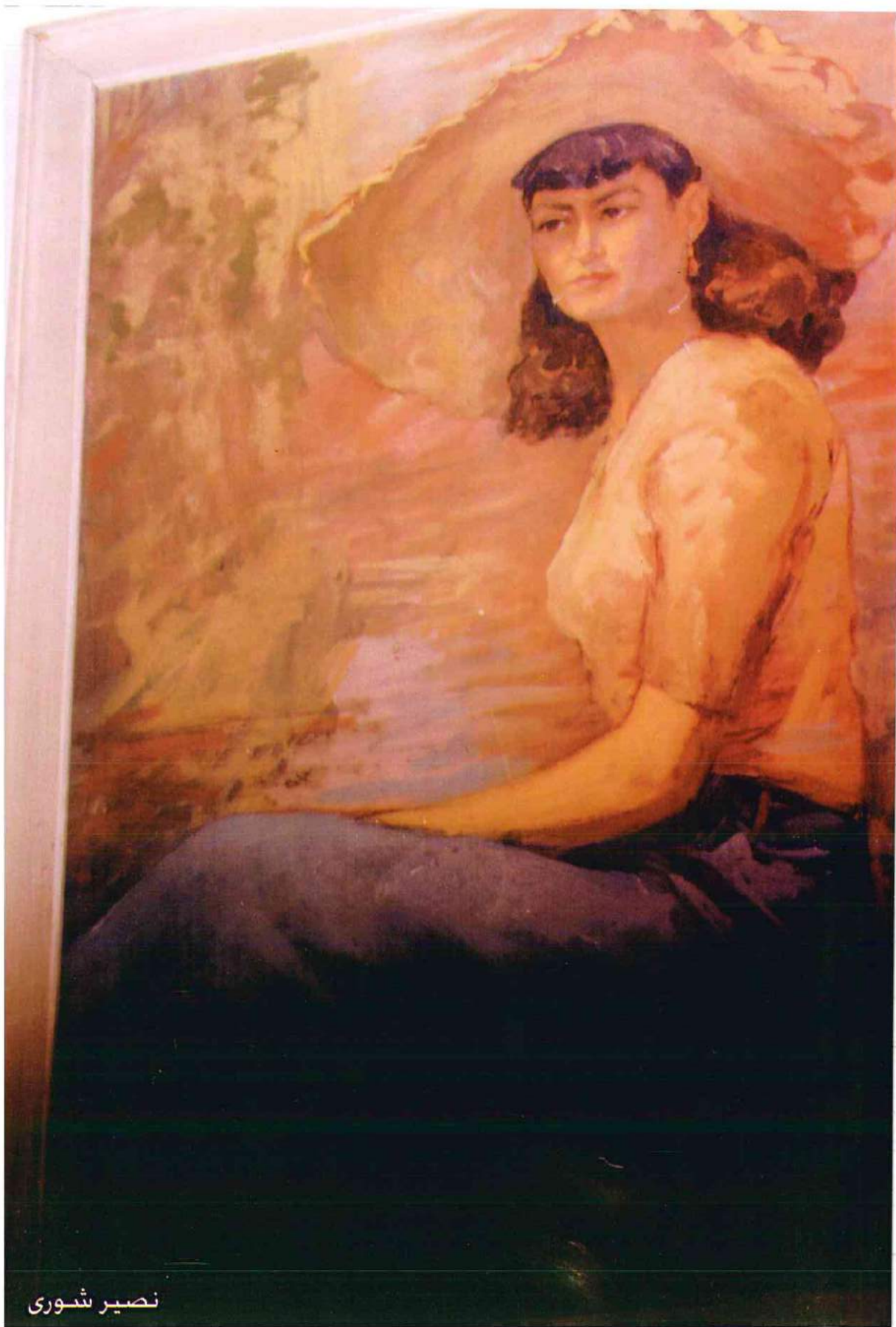
بالقزين صل من صل

الله بمذاك

يا أيها
الذين آمنوا



والله
أعلم
بما
تعملون



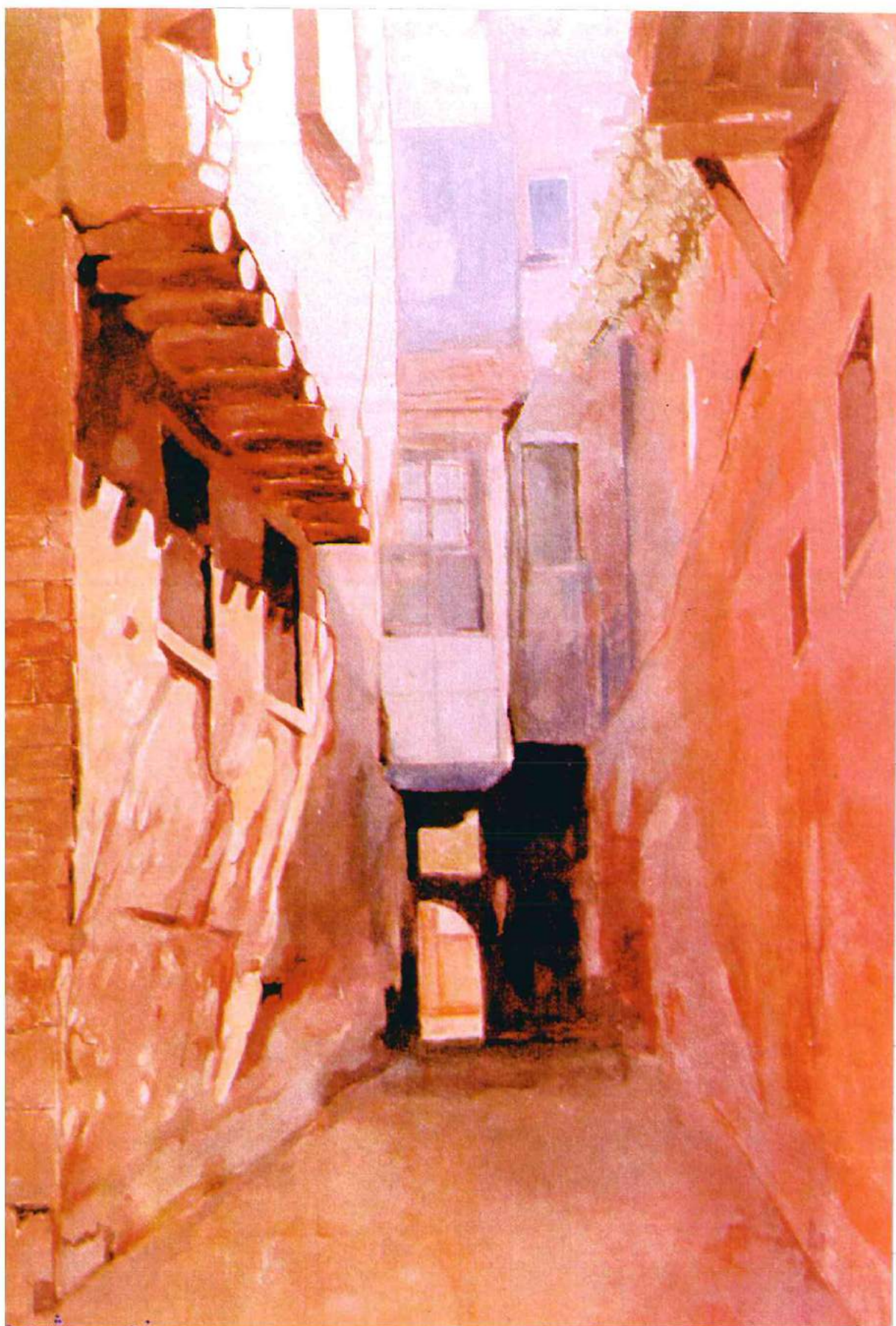
نصير شوری



ناظم الجعفري



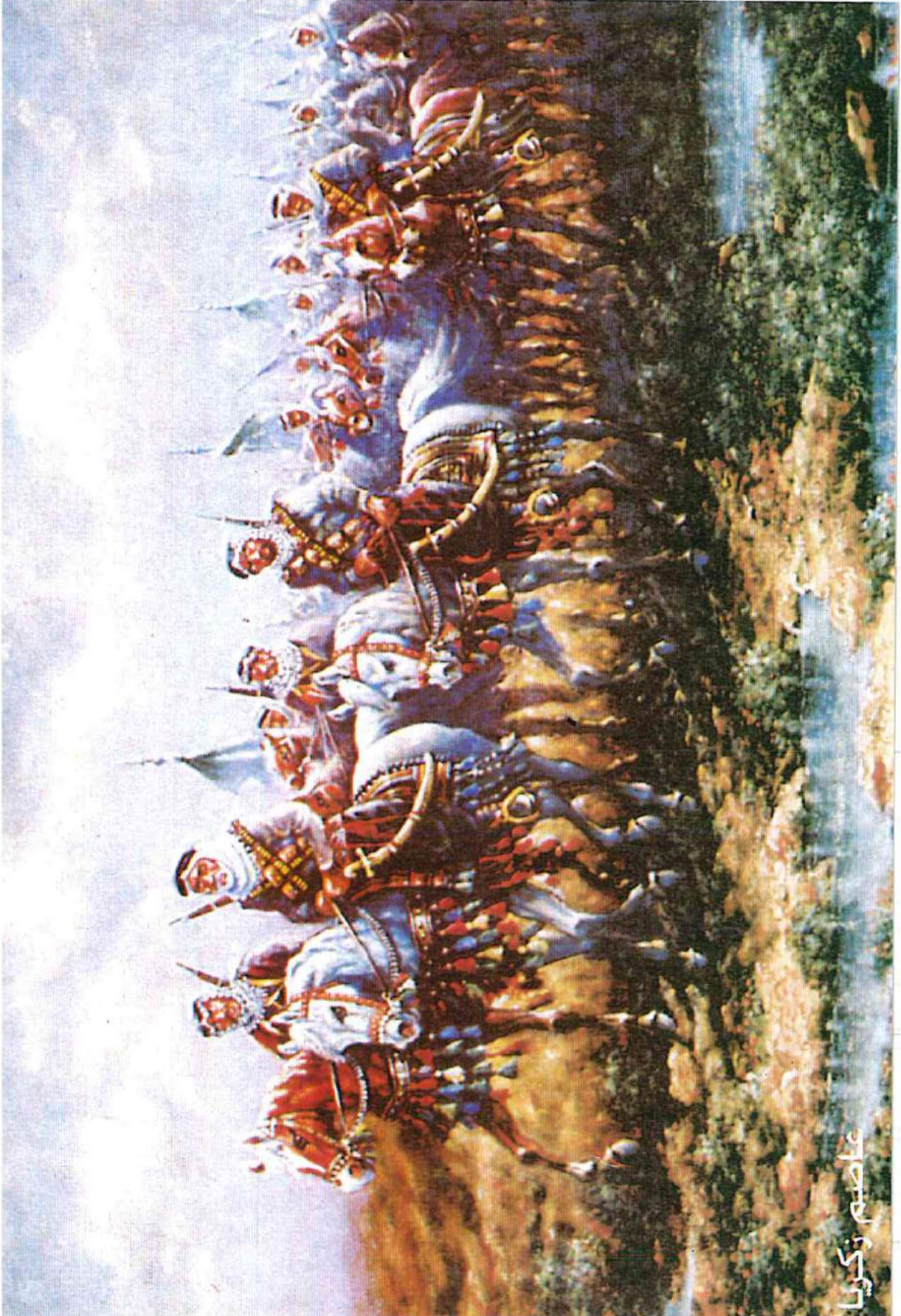








نصير شوری

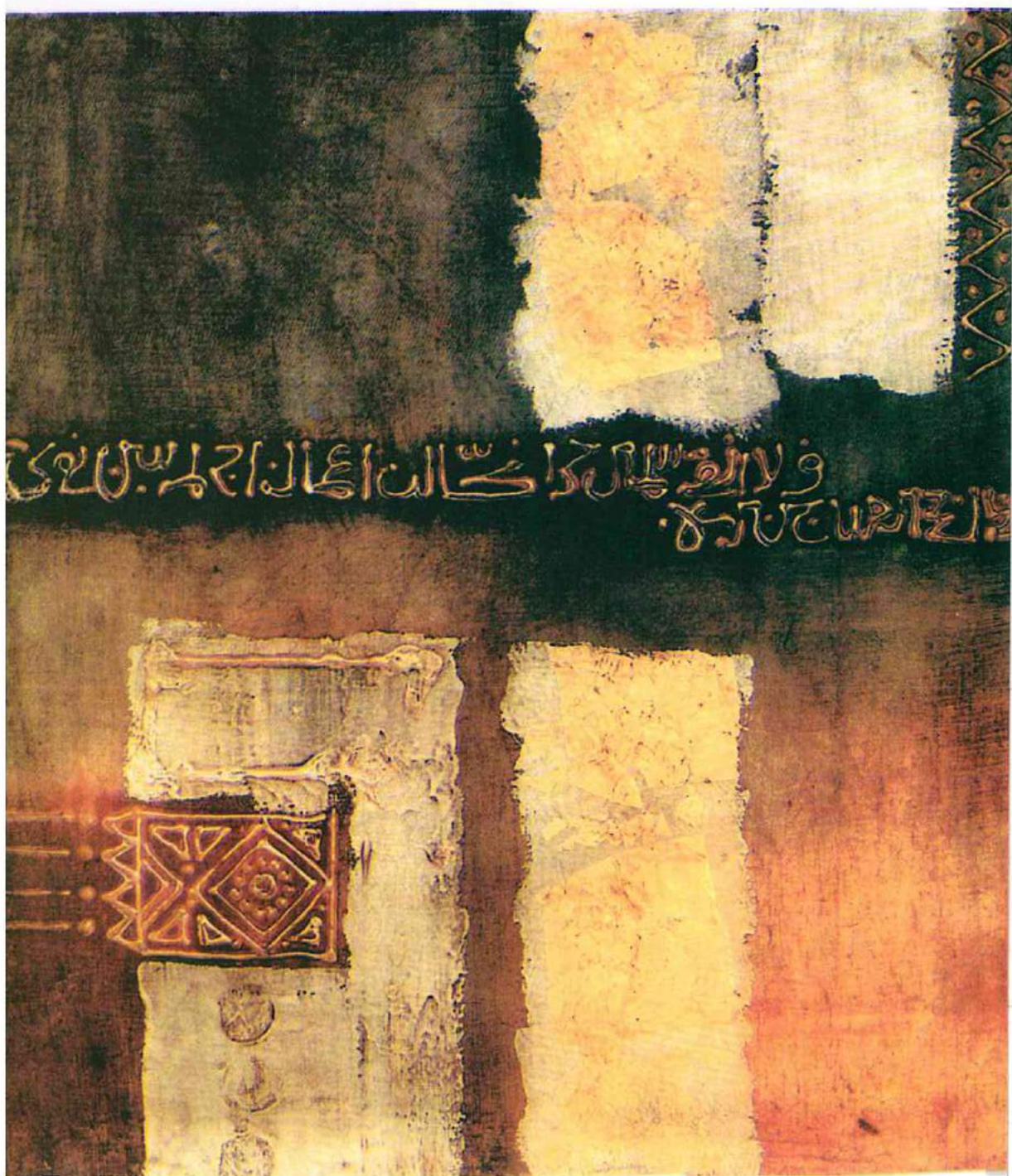


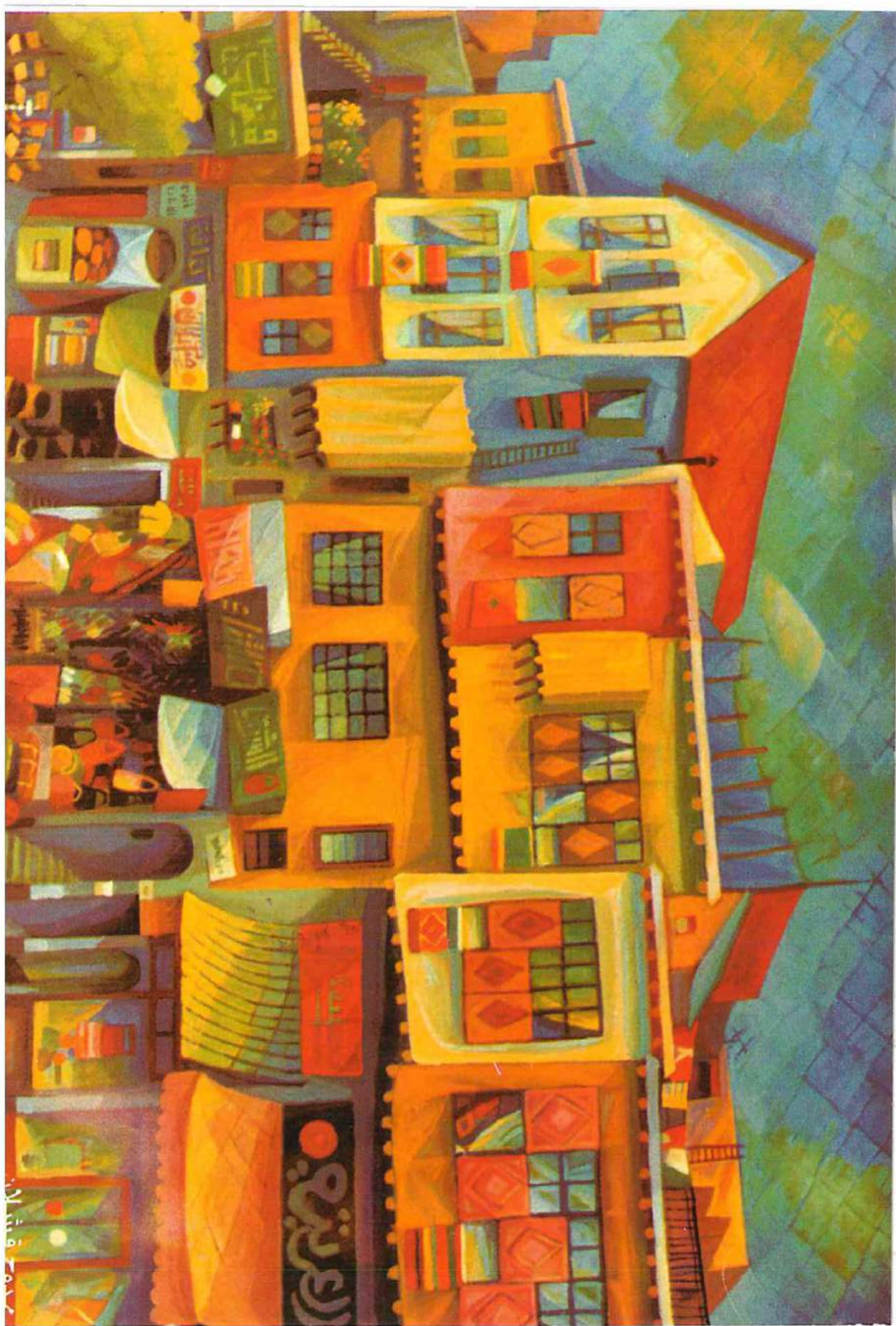


۲۰۲۱

صبر و کرامت









محمد رواد

باحث في الأدب والتاريخ ، شاعر وقصصي .
محاضر في المراكز الثقافية، وكاتب في الصحافة العربية .

له :
الإرادة تقهر الصعاب (رحلة في عالم المعاقين) .
من روائع البيان العربي (مختارات من تراث العرب الأدبي في الحكمة والبلاغة) .
مبدعون في ذاكرة الوطن (سير ٦٠ من أعلام الأدب والفن العربي) .
قيد الإصدار: الأيادي البيضاء (عطاء النفوس الخيرة) .
سنابل من بيد الفكر (مجموعة محاضرات في الأدب والتاريخ) .
رذاذ الحلم الأخير (مجموعة شعرية) .

مبدعون في ذاكرة الوطن

إنّ عظمة الأمم تقاس بمدى عطاء أبنائها ، و سعيهم الحثيث لإعلاء شأنها من خلال التمسك بالمبادئ الشريفة ، كما أن مكانتها في موكب الحضارة رهن بوفائها للمبدعين و اعتزازها بعطائهم ... وقد كانت سعادتي بغير حد لأنني عشت تلميذاً لكوكبة من مبدعي الوطن الأعلام في التأليف و التحقيق ، جندوا الفكر و ضوء العيون للكشف عن عبقرية الأمة ، ووجوه التراث الفكري العربي المتألقة . وها أنا أدون ما أتيح لي من ثمرات قرائحهم ، و أنشر سير حياتهم وفاء لحقهم من التقدير و الاعتراف ، و إضاءة لأعمالهم ترى فيها الأجيال قدوة خيرة تتوجه على هديها إلى العمل المنتج للنهوض بالأمة من عثراتها ، وتجدد مآثرها الخالدة على مرّ الزمان .